روض الرياحين
في حكايات الصالحين

تأليف

عفيف الدين أبي السعادات عبد الله بن أسعد بن علي
اليافعي اليمني ثم المكي
المتوفى سنة ٧٦٨ هـ

خليل عمران المنصور

العلمية

Marfat.com

Marfat.com

رَوْضُ الرَّيَاحِين

في حكايات الصّالحين

تأليف

عَفيف الدِّين أبي السَّعادات عَبْد اللَّه بْن أَسْعَد بن عليّ

اليافِعي اليمنيّ ثمّ المكيّ

المتوفّى سنة ٧٦٨ هـ

وضع حواشيه

خليل عمران المنصور

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Marfat.com

جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive Rights by
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah *Beirut - Lebanon*

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher

Droits Exclusifs à
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah *Beyrouth - Liban*

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (٩٦١ ١)
صندوق بريد ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel & Fax 00 (961 1) 37 85 42 - 36 61 35 - 36 43 98
P.O.Box 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, imm. Melkart, 1ere Etage
Tel & Fax 00 (961 1) 37 85 42 - 36 61 35 - 36 43 98
B.P. 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-2910-4

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المصنّف[1]

هو عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، عفيف الدين. مؤرّخ، باحث، متصوّف، من شافعية اليمن، نسبته إلى يافع من حمير. وُلِد في عدن سنة ٦٩٨ هـ، ونشأ بها، وحجّ سنة ٧١٢ هـ، وعاد إلى اليمن، ثم رجع إلى مكة سنة ٧١٨ هـ فأقام وتوفي بها سنة ٧٦٨ هـ.

من كتبه: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ونشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية، والدرّ النظيم في خواصّ القرآن العظيم، ومرهم العلل المعضلة، وأسنى المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر، وروض الرياحين وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وغيرها.

(١) انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (٤/ ٧٢)، والدرر الكامنة (٢/ ٢٤٧)، وشذرات الذهب (٦/ ٢١٠)، وطبقات الشافعية (٦/ ١٠٣) وفيه: وفاته سنة ٧٦٧ هـ، ومثله في مفتاح السعادة (١/ ٢١٧).

Marfat.com

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالِم العلاّمة المحقّق، أوحد الزمان، وفريد العصر والأوان، عفيف الدين، وواسطة عقد عباد الله الصالحين، ناصر كلمة الحقّ والدين، عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني، نزيل الحرمين الشريفين، رحمه الله وأرضاه، وجعل الجنة منقلبه ومثواه، آمين:

الحمد لله المعروف بالمعروف، الموصوف بالكمال في الآزال والآباد، المتقدّس عن النقص والمثل، والشريك والضدّ، والزوجة والأولاد، المنفرد بالعظمة والكبرياء، والعزّة والبقاء، الملك الحنّان المنّان، الجواد الذي هدى بفضله مَن شاء، وأضلّ بعدله مَن شاء من العباد ونبّه في كتابه الكريم على وفق ما سبق في علمه القديم من الإشقاء والإسعاد، فقال عزّ من قائل: ﴿مَن يهدِ الله فهو المهتد﴾ [الإسراء: ٩٧] وقال تعالى: ﴿ومَن يضلل الله فما له من هاد﴾ [غافر: ٣٣]، الذي أذاق حلاوة طاعاته ولذاذة مناجاته، مَن شغله به من الزهّاد والعباد، وخصّ بفضله العظيم مَن اصطفاه للحضرة القدسية، وصفاه من كدورات الصفات النفسية، فأبعد عنه الهجر والإبعاد، ونوّر قلوب أوليائه بنور معرفته، وسقاهم بكأس محبته شراب الوداد، فسكروا براح الهوى، ولم يسقوا مدامًا كما قلت في الإنشاد:

سكارى ولم يُسقوا مدامًا وإنما ... سُقوا حبّ حسن جلّ عن وصف واصف
سقاهم من الرّاح التي مَن يشمّها ... تميل به قبل ارتشاف المعارف

تجلى لهم فشاهدوا جمال المحبوب، وعجائب الملك والملكوت[1] والغيوب، وتنعمت بالمشاهدة منهم عين الفؤاد، وأجلسهم على بساط الأنس مقرّبين في حضرة

---

(١) الملكوت: الملك العظيم، أو العزّ والسلطان.

Marfat.com

القدس، وصرفهم في ملكه، فهم الملوك في الحقيقة في جميع البلاد، وفي المعنى قلت:

ملوك على التحقيق ليس لغيرهم ... من المُلك إلا اسمه وعقابه
شموس الهدى منهم ومنهم بدوره ... وأنجمه منهم ومنهم شهابه
أولئك هم أهل الولاية نالهم ... من الله فيها فضله وثوابه
وقرب وأنس واجتلاء معارف ... ووارد تكليم لذيذ خطابه
وأسرار غيب عندهم علم كشفها ... وقد سكروا مما يطيب شرابه

وقلت فيهم أيضًا في قصيدة أخرى:

نجاب فتية غرّ كرام ... من العلياء في أعلى مكان
بحار العلم أوتاد الأراضي ... ملوك الخلق أقمار الزمان

وقلت فيهم أيضًا في قصيدة أخرى:

ملوك البرايا ليس يشقى جليسهم ... لهم بيض رايات العُلا في المواقف
حبوا وحظوا خصّوا اصطفوا ثم قربوا ... وولّوا وعلوا فوق كلّ الطوائف

أماتوا نفوسهم، فأحياها الحيّ القيوم الحياة الطيبة، قبل يوم المعاد، وأطعمهم من تحف فواكه جنّات الوصل، وطرف هدايا فيض الفضل، في روضات رضوان ربّ العباد.

وفي هذا المعنى قلت:

جنوا من جنان الوصل تفاح تحفة ... بروضات رضوان وروح وريحان
وعيش هنيّ في حمى ظلّ نعمة ... تراهم ملوكًا جوف جنات عرفان
فآهًا على تلك العطيّات والمنى ... على تلك فابكوا يا صحابي وخلاّني
فوا أسفًا إن متّ يومًا بحسرتي ... وما ذقت حالي عيشها الطيب الهاني

جنوا ثمرات المقامات العالية، والأحوال الغالية، كما قلت في كتاب الإرشاد أيضًا:

جنوا ثمر خوخ الخوف في روضة الرضا ... وإجاص إخلاص وتين التوكّل
وأرطاب حبّ قد جنتها يد الهوى ... وأعناب أشواق بها القلب ممتلي
ورمّانِ إجلال وتفاح هيبة ... وموز الحيا مبدي رجاء السفرجل
جنان جنان عارف بمعارف ... جنى من جناها كل دانٍ مذلل
فيا طرف قلبي عش برؤياك طرفة ... ويا نفس ذا أحلى نفيس له كلي
ويا طيب عيش ناعم مَن رآك لم ... يرَ عيش عزّ غير عيش منكل

Marfat.com

فسبحان مَن أنعم عليهم بفضله، ومنّ عليهم بسنيّ العطايا وجاد. أحمده على ما هدانا للإسلام، وخصّنا بسيد الأنام، وسِراج الظلام، سيدنا محمد الماحي بنوره ظلام الكفر والعناد، المخصوص بالمقام المحمود، واللواء المعقود، والحوض المورود، والشرف المشهود يوم يقوم الأشهاد. وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، شهادة خالصة التوحيد، خالية من الشرك والإلحاد، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده المصطفى، ورسوله المرتضى، الهادي إلى سبيل الرشاد، صلّى الله عليه وعلى آله الغرّ الكرام، وأصحابه النجباء الأمجاد.

أما بعد، فإني لمّا كنت مُحِبًا للأولياء والصالحين، وعاشقًا للصوفية العارفين، من أهل الذوق والشوق والتجريد والانفراد، ومولعًا بكلامهم وحكاياتهم في كتب الحقائق والدقائق، النفيسات الجِياد، كما قلت في محاسن ذكرهم في المعنى:

دعتني دواعي حبهم نحو ذكرهم ... بجمع كتاب فيه لبّ لباب
به من حكايات الملاح ملاحها ... محاسن أفعال وحُسْن خطاب
وفضل كرامات وأحوال أهلها ... وعالي مقامات زَهَت بقِباب
قباب من الأنوار في ذروة العلى ... زَهَت في سماء المجد مثل شهاب
سَمَت للسمٰوات ارتفاعًا ورفعة ... بحضرة قدس في شريف رحاب
فأرواحهم ترتاح شوقًا وتجتلي ... جمالاً لها يبدو بكشف حجاب
حكاياتهم يحيي القلوب سماعها ... ويروي ظمأ الصادي بعذب شراب
تخيّرت منها وانتخبت محاسنًا ... لأهل الهوى والعاشقين سوابي
وأهديت رياها لمشتمّ طيبها ... بروض رياحين القلوب كتابي
هدية خال من هوى حسنها لمن ... دعاه هواها نحو كشف نقاب

وسمّيت هذا الكتاب [بروض الرياحين، في حكايات الصالحين] ولقّبته: بنزهة العيون النواظر، وتحفة القلوب الحواضر، في حكايات الصالحين والأولياء الأكابر.

انتخبته وانتقيته وجمعته وألّفته من كتب عديدة، لأئمة كبار ذوي مناقب حميدة، منهم الإمام حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي(١)، والإمام الأستاذ أبو القاسم

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ ـ ١١١١ م) أبو حامد، حجّة الإسلام. فيلسوف متصوّف، له نحو مائتي مصنّف. مولده ووفاته في الطابران. رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. ومن كتبه «إحياء علوم الدين» و«تهافت الفلاسفة» و«الاقتصاد في الاعتقاد» و«مقاصد الفلاسفة» وغير ذلك. الأعلام ٧/ ٢٢ ـ ٢٣؛ ووفيات الأعيان ٤/ ٢١٦ ـ ٢١٩؛ وشذرات الذهب ٤/ ١٠؛ وطبقات الشافعية ٤/ ١٠١.

القشيري[1]، والشيخ الإمام شهاب الدين السهروردي، والشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الخيري، والشيخ الإمام تاج الدين بن عطاء الله الشاذلي السكندري، والشيخ أبو العباس أحمد بن عليّ القسطلاني، والإمام العالم أبو الفرج بن الجوزيّ، والشيخ الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن قدامة المقدسي، والشيخ الإمام العالم أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، والإمام العالم أبو العباس أحمد بن عليّ، عرف بابن الأطرباني، وآخرون يطول عددهم، غير هؤلاء العشرة، رضي الله تعالى عنهم. أودعته خمس مائة حكاية، وخمسة فصول، منها فصلان مقدمة، وفصلان خاتمة، وفصل خاتمة الخاتمة وبالله التوفيق، وعليه التكلان.

الفصل الأول من المقدمة: في شيء من فضائل الأولياء والصالحين، والفقراء والمساكين. الثاني: في إثبات كرامات الأولياء السادات الأصفياء. والفصل الأول من الخاتمة: في الجواب عن إنكار وقع من بعض الفقهاء المصنّفين في بعض حكاياتهم. والثاني: في بيان مذهبهم في عقائدهم. وفصل الخاتمة: في توحيد الرحمٰن، وطرف من طُرف الجنان، مختومًا بمدح خاتم الأنبياء، وتاج الأصفياء ﷺ، وشرف وكرم وعظم، والحكايات عن الأولياء والصالحين، ومشايخ الصوفية وأهل الدين المجذوبين منهم والسالكين، الصادقين منهم والصدّيقين، والفقراء المباركين، والمجاهدين والزاهدين والعابدين، ينتفع بها إن شاء الله تعالى الزهّاد والعبّاد، وأهل الدين، وتقوى بها قلوب المريدين، كما روينا عن تاج العارفين، قطب العلوم، سيد الطائفة المشغولة بالله العارفة، أبي القاسم الجنيد[2] قدّس الله روحه ونوّر ضريحه، أنه قيل له ما للمريدين في مجاراة الأحكام؟ فقال: الحكايات جند من جنود الله تعالى، تقوى بها قلوب المريدين، قيل له: فهل في ذلك شاهد؟ فقال رضي الله عنه نعم، قوله تعالى: ﴿وكلاً نقصّ عليك من أنباء الرُّسل ما نثبّت به فؤادك﴾ [هود: ١٢٠].

---

(١) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري (٣٧٦ ـ ٤٦٥ هـ = ٩٨٦ ـ ١٠٧٢ م) أبو القاسم، زين الإسلام، شيخ خراسان في عصره، زهدًا وعلمًا بالدين. كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها، وكان السلطان ألب أرسلان يقدّمه ويكرمه. من كتبه «التيسير في التفسير» و«لطائف الإشارات» و«الرسالة القشيرية». الأعلام ٤/ ٥٧؛ وطبقات السبكي ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٨؛ والوفيات ١/ ٢٩٩؛ وتاريخ بغداد ١١/ ٨٣؛ ومفتاح السعادة ١/ ٤٣٨؛ وكشف الظنون ٥٢٠ و١٥٥١.

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي (توفي ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م) الخزاز، أبو القاسم، صوفي من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، عُرِفَ بالخزاز لأنه كان يعمل الخزّ، وهو أول مَن تكلم بعلم التوحيد ببغداد، له «رسائل» و«دواء الأرواح» وغير ذلك. الأعلام ٢/ ١٤١؛ ووفيات الأعيان ١/ ١١٧؛ وحلية ١٠/ ٢٥٥؛ وصفة الصفوة ٢/ ٢٣٥؛ وتاريخ بغداد ٧/ ٢٤١؛ والرسالة القشيرية ص ٤٣٠ ـ ٤٣١.

Marfat.com

وكذلك حُكِيَ عن الشيخ الصالح الكبير، العارف بالله الخبير، أبي سليمان الداراني[1] رضي الله عنه قال: اختلفت إلى مجلس بعض القصّاص، فأثّر كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبقَ في قلبي منه شيء، فعدت ثانيًا فسمعته، فبقي في قلبي أثر كلامه في الطريق، ثم ذهبت فعدت ثالثًا، فبقي أثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي، فكسرت آلات المخالفات، ولزمت الطريق إلى الله تعالى. ولمّا حُكِيَ للشيخ العارف الواعظ يحيىٰ بن معاذ الرازي[2] رضي الله عنه هذه الحكاية قال: عصفور اصطاد كركيًا[3]، يعني بالعصفور: القاصّ، وبالكركي: أبا سليمان الداراني. وكذلك بلغنا أن الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين. ثم إني حذفت أسانيد الحكايات رغبة في الاختصار، وعلمًا بأن مَن ليس له فيهم اعتقاد لا يفيد فيه الإسناد. وأما مَن اعتقدهم فإنه ينتفع بما سمع عنهم، ولا يتوقف على ثبوت الأسانيد القوية، كتوقّف الأحاديث النبوية، إذ ليس يترتّب على ذلك شيء من الأحكام الشرعية، بل مجرّد حكايات وعظية، فينبغي أن يتّعظ بها ولا ينكر، فقد قال الشيوخ رضي الله عنهم: أقلّ عقوبة المنكر على الصالحين، أن يُحرَم بركتهم، قالوا ويُخشَى عليه سوء الخاتمة، نعوذ بالله من سوء القضاء. وقال الشيخ العارف بالله أبو تراب النخشبي[4] رضي الله تعالى عنه: إذا أَلِفَ القلب الإعراض عن الله تبارك وتعالى، صحبته الوقيعة في أولياء الله عزّ وجلّ. وقال الشيخ العارف أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني[5] رضي الله عنه: ما تعبّد متعبّد بأكثر من التحبّب إلى أولياء الله تعالى، لأن محبة أولياء الله تعالى، دليل على محبة الله عزّ وجلّ. وقال الأستاذ أبو

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن أحمد بن عطية العنسي (توفي ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م) المذحجي، أبو سليمان زاهد مشهور، من أهل داريّا، رحل إلى بغداد، ثم عاد إلى الشام وتوفي في بلده، كان من كبار المتصوّفين. له أخبار في الزهد. الأعلام ٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤؛ وطبقات الصوفية ٧٥ ـ ٨٢؛ ووفيات الأعيان ١/ ٢٧٦؛ وحلية ٩/ ٢٥٤؛ وتاريخ بغداد ١٠/ ٢٤٨؛ والرسالة القشيرية ص ٤١١ ـ ٤١٢.

(٢) هو يحيىٰ بن معاذ بن جعفر الرازي (توفي ٢٥٨ هـ = ٨٧٢ م) أبو زكريا، واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته. من أهل الريّ. أقام ببلخ، ومات في نيسابور. له كلمات سائرة. الأعلام ٨/ ١٧٢؛ وطبقات الصوفية ١٠٧ ـ ١١٤؛ وصفة الصفوة ٤/ ٧١ ـ ٨٠؛ والرسالة القشيرية ص ٤١٤.

(٣) الكركي: جمع كراكي، وهو طائر كبير من فصيلة الكركيات، أغبر اللون، طويل العنق والرّجلين، أبتر الذنب، نحيف الجسم، يأوي إلى الماء.

(٤) هو عسكر بن الحصين (أو ابن محمد بن الحسين: النخشبي (توفي ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م) أبو تراب، شيخ عصره في الزهد والتصوّف. اشتهر بكنيته حتى لا يكاد يُعرَف إلا بها، وهو من أهل «نخشب» من بلاد ما وراء النهر، كتب كثيرًا من الحديث. وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل وآخرون. وقف (٥٥) وقفة بعرفة، ومات بالبادية. قيل: نهشته السّباع. الأعلام ٤/ ٢٣٣؛ والكواكب الدرّية ١/ ٢٠٢؛ ومفتاح السعادة ٢/ ١٧٤؛ والرسالة القشيرية ص ٤٣٦.

(٥) هو أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني (توفي قبل ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م) كان من أولاد الملوك صحب أبا تراب النخشبي وأبا عبيد البسري. (الرسالة القشيرية ص ٤٢٨).

القاسم الجنيد رضي الله عنه التصديق بعلمنا هذا ولاية، يعني الولاية الصغرى دون الكبرى. قلت: والناس على أربعة أقسام: القسم الأول: حصل لهم التصديق بعلمهم، والعلم بطريقهم، والذوق لمشروبهم وأحوالهم. والقسم الثاني: حصل لهم التصديق والعلم المذكوران دون الذوق. والقسم الثالث حصل لهم التصديق دونهما. والقسم الرابع: لم يحصل لهم من الثلاثة شيء، نعوذ بالله من الحرمان، ونسأله التوفيق والغفران. وها أنا معترف بأني خالٍ عن أحوالهم وذوقهم، جاهل بعلم تحقيقهم، عاجز عن سلوك طريقهم، لكنني مُحِبّهم، وموقِن بصدقهم، وفيهم قلت في المعنى:

ألا أيها السادات إن طريقكم	على غيركم وعر صعاب عقابه
طريق كحدّ السيف لله درّ مَن	يكون على حدّ السيوف ذهابه
وإني وإن عجز عراني محبكم	فأنتم لقلبي خلده ومآبه
وهل من فتى فيكم على جذب عاجز	شديد القوى سهل عليه اجتذابه
إلٰهي الفقير اليافعي ليس عنده	سوى حبهم ذا زاده وركابه
إلٰهي بذاك انفعه واحشره معهم	وعمّر بنا قلبًا تناهى خرابه
وصَلِّ على مَن فضلهم فيض فضله	خلاصتهم مَن ذا اللباب لبابه
ومن خير آل في البرايا وصاحب	من الخلق كلّ آله وصحابه
محمد المختار من آل هاشم	غياث الورى الغيث الرواء سحابه

Marfat.com

الفصل الأول من المقدمة:
في شيء من فضائل الأولياء الصالحين، والفقراء والمساكين، مما جاء به القرآن والأخبار والآثار

قال عزّ من قائل: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا﴾ [النساء: ٦٩ و٧٠]. وقال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتّقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]. وقال سبحانه: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢]. وقال عزّ وجلّ: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقال سبحانه: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤]. وقال عزّ وجلّ: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون نُزُلاً من غفور رحيم﴾ [فصّلت: ٣٠ ـ ٣٢]. وقال تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ [آل عمران: ١١٣ و١١٤]. وقال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تُطِع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿للفقراء الذين أُحصِروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] فهذه عشر آيات اقتصرت عليها.

وأما الأخبار، فنقتصر منها على عشرة أحاديث صحيحة:

الحديث الأول: روينا في صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قال: مَن عاد لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما

Marfat.com

تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنّه»[1] رُوِيَ استعاذني، واستعاذ بي، بالنون والباء، وآذنته بالحرب: أعلمته بأني مُحارب له، وأنشدنا بعض شيوخنا لبعضهم:

من اعتزّ بالمولى فذاك جليل ... ومَن رام عزًّا من سواه ذليل
ولو أن نفسي مُذ براها مليكها ... مضى عمرها في سجدة لقليل
أحبّ مناجاة الحبيب بأوجه ... ولكن لسان المذنبين كليل

الحديث الثاني: روينا في صحيح مسلم، عن أبي هريرة أيضًا رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه»[2] وفيهم قلت في أرجوزة مثلثة:

لله قوم في الحيّ كرام ... مستيقظون والورى نيام ... أُولو مقامات علت وأحوال
دارت عليهم في الهوى كؤوس ... نور البرايا للهدى شموس ... ليسوا كشمس في السماء أفال
خلعات مولاهم عليهم زهر ... تزهو وبين الخلق شعث غبر ... ما احمرّ الكبريت يدري جهال
مع حبه أعطاهم المعارف ... إن أقسموا يومًا أبرّ الحالف ... أحبة أدلوا بكلّ إدلال

الحديث الثالث: روينا في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري[3] رضي الله عنه قال: «جاء رجل فقال: يا رسول الله أيّ الناس أفضل؟ قال: مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى، قال: ثم مَن؟ قال: ثم رجل يعتزل في شعب من الشِّعاب يعبد ربه»[4]، وفي رواية «يتّقي الله» ويدع الناس من شرّه»، وأنشدوا:

أخصّ الناس بالإيمان عبد ... خفيف الحاذ مسكنه القفار ... له في الليل حظّ من صلاة

---

(1) أخرجه البخاري (رقاق ٣٨)؛ وأحمد بن حنبل ٦/ ٢٥٦.

(2) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٤)؛ والزبيدي في (إتحاف السادة المتّقين ٨/ ٢٣٤، ٢٣٥)؛ والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣/ ٢٠٣).

(3) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي (١٠ ق.هـ - ٧٤ هـ = ٦١٣ - ٦٩٣ م)، أبو سعيد، صحابي، كان من ملازمي النبي ﷺ وروى عنه أحاديث كثيرة. غزا اثنتي عشرة غزوة، وله ١١٧٠ حديثًا. توفي في المدينة. الأعلام ٣/ ٨٧؛ وتهذيب التهذيب ٣/ ٤٧٩؛ وصفة الصفوة ١/ ٢٩٩؛ وحلية ١/ ٣٦٩.

(4) أخرجه أحمد بن حنبل ١/ ٢٣٧، ٣١٩، ٣٢٢؛ ٢/ ٤٤٣؛ ٣/ ١٦، ٣٧، ٥٦، ٨٨، ٤٦١، ٤٧٧؛ ٤/ ٢٣٤؛ والبخاري (جهاد ٢)؛ (رقاق ٣٤)؛ ومسلم (إمارة ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧)؛ وأبو داود (جهاد ٥)؛ والترمذي (فضائل الجهاد ٢٤)؛ والنسائي (زكاة ٧٤)؛ (جهاد ٧)؛ وابن ماجه؛ (فتن ١٣)؛ والدارمي (جهاد ٦).

Marfat.com

ومن صوم إذا طلع النهار وقوت النفس يأتي في كفاف وكان له على ذاك اصطبار
وفيه عفة وبه خمول إليه بالأصابع لا يُشار وقل الباكيات عليه لما
قضى نحبًا وليس له يسار فذلك قد نجى كلّ شرّ ولم تمسّه يوم البعث نار

الحديث الرابع: روينا في صحيح البخاري، عن ابن عمر[(١)] رضي الله عنهما قال: «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي وقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»[(٢)].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. وأنشدنا بعض شيوخنا لبعضهم:

أيا فرقة الأحباب لا بدّ لي منك ويا دار دنيا إنني راحل عنك
ويا قصر الأيام ما لي وللمنى ويا سكرات الموت ما لي وللضحك
وما لي لا أبكي لنفسي بعبرة إذا كنت لا أبكي لنفسي فمَن يبكي
ألا أيّ حيّ ليس بالموت موقنًا وأيّ يقين منه أشبه بالشك

الحديث الخامس: روينا في كتاب الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»[(٣)] قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وفي مدح الفقر والفقراء قلت:

وقائلة ما المجد للمرء والفخر فقلت لها شيء لبيض العلا مهر
فأما بنو الدنيا ففخرهم الغنى كزهر نضير في غد يبيس الزهر
وأما بنو الأخرى ففي الفقر فخرهم نضارته تزداد ما بقي الدهر

---

(١) ابن عمر: هو عبد الله بن عمر بن الخطاب. (انظر ترجمته في الأعلام ٤/١٠٨؛ وتهذيب الأسماء ١/٢٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/١١٠)؛ والترمذي في (السّنن ٢٣٣٣)؛ وابن ماجه في (السّنن٤١١٤)؛ والبغوي في (شرح السُّنّة ١٤/ ٢٣١)؛ والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٣٦، ٤٢٧)؛ والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٢٧٤)؛ والطبراني في (المعجم الكبير ١٢/ ٣٩٩، ٤١٨)؛ والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦١٢٧، ٦٢٩٩)؛ والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٢٤٢)؛ والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ٣٠)؛ وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٣٣)؛ والشجري في (الأمالي ٢/١٩٣)؛ وابن المبارك في (الزهد ٥)؛ وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٥/ ١٧٤)؛ والألباني في (السلسلة الصحيحة ١١٥٧، ١٤٧٣، ٣/١٤٧)؛ وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١/ ٣١٣، ٣/ ٣٠١)؛ والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/٩٦، ١٣/ ٤٧٣)؛ والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ١٩٤)؛ وابن خطاب البستي في (العزلة ٣٩).

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٩٦، ٤٥١، ٥/ ٣٣٦)؛ وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٤٦)؛ والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٢٢٢)؛ والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٦٢٦، ١٦٦٢٨)؛ والسيوطي في (الدّر المنثور ٢/ ٢١٢)؛ وابن كثير في (التفسير ٥/ ٤٣٧).

Marfat.com

وسمعت بعض الفقراء الواحدين يغني ويبكي ويقول في غنائه:

قال لنا حبيبنا ... اليوم لهم غدًا لنا

الحديث السادس: روينا في الصحيحين عن أُسامة[1] رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «قمت على باب الجنة، فكان عامّة مَن دخلها المساكين وأصحاب الجَدّ محبوسون، غير أن أهل النار قد أمر بهم إلى النار. وقمت على باب النار، فإذا عامّة مَن دخلها النساء»[2]. يعني بأصحاب الجَدّ بفتح الجيم: الأغنياء.

وفي وعظ النساء المذكورات، وفي مدح الحور المليحات، قلت في بعض القصيدات:

ألا يا غواني من أرادت سعادة ... وتوقى عذابًا بالنسا صار محدقا
فأكثر أهل النار هنّ حقيقة ... روينا حديثًا فيه صدقًا مصدّقا
تخلى التباهي تبدّل اللهو بالبكا ... وتبذل كل الجهد في الزهد والتّقى
وتعتاض عن لين بدنيا خشونة ... وعن يابس في الدين أخضر مورقا
رعى الله غزلانًا تبيت قوانتا ... ويصبح منها القلب بالخوف محرقا
تظلّ عن المرعى الخصيب صوائما ... ويمسي سمين البطن بالظهر ملصقا
ترى بين عين والسهاد تواصلاً ... وبين الكرى والعين منها تفرّقا[3]
وبين معاء، والغذاء تقاطعا ... وبين خلوف المسك والثغر ملتقى
ترى ناحلات قارئات مصاحفًا ... ولؤلؤ بحر الدرّ في الورد مشرقا
فدتها من الآفات كل نفوس مَن ... يخالفها في الوصف غربًا ومشرقا
خليلي إن الموت لا شكّ نازل ... وبين الأحبا لا يزال مفرقا
فجدّ الدار لا يزال نعيمها ... بها الحسن واللذّات والملك والبقا
ولقيا حِسان ناعمات منعم ... بهنّ سعيد سعد ذلك مَن لقا

---

(١) هو أسامة بن زيد بن حارثة (٧ ت.هـ ـ ٥٤ هـ = ٦١٥ ـ ٦٧٤ م) أبو محمد، صحابي جليل. وُلِدَ بمكة ونشأ على الإسلام، وكان رسول الله ﷺ يحبه وينظر إليه نظره إلى سبطيه الحسن والحسين، وهاجر معه إلى المدينة، وأمّره رسول الله قبل أن يبلغ العشرين من عمره، ولمّا توفي الرسول رحل إلى وادي القرى فسكنه، ثم انتقل إلى دمشق فسكن المزة، وعاد بعد ذلك إلى المدينة فأقام إلى أن مات بالجرف له في كتب الحديث ١٢٨ حديثًا. الأعلام ١/٢٩١؛ وطبقات ابن سعد ٤/٤٢؛ وتهذيب ابن عساكر ٢/ ٣٩١ـ ٣٩٩؛ والإصابة ١/٢٩.

(٢) أخرجه ابن حجر في (فتح الباري ١١/٤١٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/١٤١)، وابن عبد البر في (التمهيد ٣/٣٢٢).

(٣) السهاد: الأرق. الكرى: النعاس أو النوم.

Marfat.com

كواعب أتراب زَهَت في خيامها | بظلّ نعيم قطّ ما مسّها شقا[1]
كدرّ وياقوت وبيض نعامة | كساها البها والنور والحُسْن رونقا[2]
مليحات أوصاف تعالت صفاتها | عن الوصف فوق المرتقى وصفها رقى
تغنى بما لم تسمع الخلق مثله | وقد حبّرت صوتًا رخيمًا مشوقا[3]
غناهنّ: نحن الخالدات فقط ما | نبيد ونحن الناعمات فلا مشقا
ولا سخط والراضيات بنا المنى | فطوبى لِمَن كنّا له من أُولي التّقى

الحديث السابع: روينا في الصحيحين أيضًا، عن سهل بن سعد الساعدي[4] رضي الله عنه قال: «مرّ رجل بالنبيّ ﷺ، فقال لرجل جالس عنده: ما رأيك في هذا»؟ فقال رجل من أشراف الناس: هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكَح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ، ثم مرّ رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا»؟ فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حَرِيٌّ إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال لا يُسمَع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثلِ هذا»[5]. وأنشد بعضهم:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه | فلا تترك التقوى اتّكالاً على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس | وقد وضع الشرك الحسيب أبا لهب

وأنشد آخر، وقيل إنه لعليّ كرّم الله وجهه:

دليلك أن الفقر خير من الغنى | وأنّ قليل المال خير من المثري
لقاؤك عبدًا قد عصى الله بالغنى | ولم تلقَ عبدًا قد عصى الله بالفقرِ

---

(١) كعبت الفتاة: نَهَدَ ثديها. فهي كاعب. (ج) كواعب. وأتراب: (ج) التّرب: المماثل في السّنّ ذَكَرًا كان أو أنثى.
(٢) الدّر: كبار اللؤلؤ. الياقوت: لفظة يونانية، مفردها زمرّدة، وهو حجر كريم شفّاف، شديد الخضرة، وأشدّه خضرة أجوده وأصفاه جوهرًا.
(٣) رخم الصوت: لانَ وسهل فهو رخيم؛ أي: رقيق.
(٤) هو سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري (توفي ٩١ هـ = ٧١٠ م) من بني ساعدة، صحابي، من مشاهيرهم من أهل المدينة. عاش نحو مئة سنة. له في كتب الحديث ١٨٨ حديثًا. الأعلام ٣/ ١٤٣؛ والإصابة ت ٣٥٢٦.
(٥) أخرجه البخاري في (الصحيح ٧/ ١٠، ٨/ ١١٨ ـ ١١٩)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٢٢)، وابن حجر في (فتح الباري ٩/ ١٣٢، ١٣٦؛ ١١/ ٢٧٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٦)، والقرطبي في (التفسير ١٦/ ٣٤٧)، والسيوطي في (الدّر المنثور ١/ ٢٥٧)، والعقيلي في (الضعفاء ٣/ ٦٩)، والطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ٢٠٨)، (بغوي ١/ ٢٠٠)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ١٤٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٢٥٧).

Marfat.com

ويُروى، للغنى، وللفقر: باللام.

الحديث الثامن: روينا في الصحيحين أيضًا عن أبي موسى الأشعري(١) رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير(٢)، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا منتنة»(٣) قوله يحذيك: أي يعطيك.

وأنشد بعضهم:

تجنب قرين السوء وأصرم حباله　　فإن لم تجد عنه محيصًا فداره(٤)
وأحبب حبيب الصدق واترك مراءه　　تنل منه صفو الودّ ما لم تُماره
ولله في عرض السمٰوات جنة　　ولكنها محفوفة بالمكاره

الحديث التاسع: روينا في كتاب الترمذي، عن معاذ بن جبل(٥) رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزّ وجلّ: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيّون والشهداء»(٦)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وفي موطأ الإمام مالك رضي الله تعالى عنه بإسناده الصحيح «يقول الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ»(٧) وأنشد بعضهم في إغباب زيارة الإخوان وقلّتها، واقتصاد الزائر على حسب ما يختار المزور:

إذا شئت أن تقلى فزر متواترًا　　وإن شئت أن تزداد حبًا فزر غبا(٨)
يقولون لا تملل زيارة صاحب　　فإنك إن أمللته كره القربا

---

(١) هو عبد الله بن قيس بن سليم (توفي ٤٤ هـ = ٦٦٥ م). (انظر ترجمته في: الأعلام ٤/ ١١٤؛ وفي طبقات ابن سعد ٤/ ٧٩؛ وفي الإصابة ت ٤٨٨٩؛ وفي حلية ١/ ٢٥٦).

(٢) الكير: جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النار لإشعالها (ج) أكيار وكيرة.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (الصلة والبرّ ١٤٦)، والبيهقي في (السّنن الكبرى ٦/ ٢٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٤٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٤٨٤٩).

(٤) المحيص: المهرب والمفرّ.

(٥) انظر ترجمته في الأعلام ٧/ ٢٥٨؛ وفي ابن سعد ٣/ ١٢٠ القسم الثاني؛ والإصابة ت ٨٠٣٩؛ وحلية ١/ ٢٢٨.

(٦) أخرجه مسلم (البرّ ٣٨)، والترمذي (زهد ٥٣)، والدارمي (رقاق ٤٤)، والموطأ (شعر ١٣)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٣٧، ٣٢٨، ٣٣٨، ٣٧٠، ٥٣٣، ٥٣٥؛ ٣/ ٨٧؛ ٤/ ١٢٨، ٣٨٦.

(٧) أخرجه الموطأ (شعر ١٦)؛ وأحمد بن حنبل ٥/ ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٧.

(٨) يقال: زُرْ غِبًّا تزدد حُبًا؛ أي: زُر مرة في الأسبوع، أو مرة كل بضعة أيام، لكي يزداد حُبّ مَن تزورهم لك.

Marfat.com

وأنشد بعضهم:

يقلّ إخائي عند مَن زرت بيته ... كثيرًا ولكني أقلّ فأكثر
وإن زرت مَن لا يشتهي أن أزوره ... كثيرًا فما لومي له حين يضجر

وأنشد آخر:

عليك بإقلال الزيارة إنها ... تكون إذا دامت إلى الهجر مسلكا
فإني رأيت الغيث يسأم دائمًا ... ويسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

الحديث العاشر: روينا في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ، قال: «سبعة يظلهم الله تحت ظلّه، يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمسجد، ورجلان تحابا في الله عزّ وجلّ، اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله تعالى، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[(١)] وفي هذا الحديث قلت هذه القصيدة المسمّاة: معالي الرّفعة في حديث السبعة:

روينا حديثًا في الصحيحين سبعة ... يظلهم المولى بخير ظلال
يظلهمو في ظله الله يوم لا ... سوى ظله ظلّ فهاك مقالي
إمام له عدل ومَن في عبادة ... نشأ بالتقى لله لا بضلال
ومَن قلبه يهوى المساجد دائمًا ... تعلّقه فيها بغير زوال
وشخصان في الله الكريم تحابا ... بحال افتراق منهما ووصال
وإني أخاف الله مَن قال عندما ... دعت ذات عالي منصب وجمال

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/ ١٦٨، ٢/ ١٣٨، ٨/ ١٢٦)، ومسلم في الصحيح (الزكاة ب ٣ رقم ٩١)، والترمذي في (السنن ٢٣٩١)، والنسائي في (السّنن ٨/ ٢٢٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٤٣٩)، وابن عبد البر في (التمهيد ٢/ ٢٨٠ـ ٢٨١)، وابن خزيمة في (الصحيح ٣٥٨)، والبغوي في (شرح السُّنَّة ٢/ ٣٥٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٢١٧)، وابن حجر في (فتح الباري ٢/ ١٤٣، ١٢/ ١١٢)، وابن المبارك في (الزهد ٤٧٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤/ ١١٢، ٥/ ٧، ٦/ ١٧٥، ٩/ ٢١٤)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٣/ ١١٥)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٧٠١)، وابن الجوزي في (زاد المسير ١/ ٣٢٥)، وابن عبد البرّ في (تجريد التمهيد ٤٨)، (بغوي ١/ ٢٩٣)، والربيع بن حبيب في (المسند ١/ ١٥، ٥٣، ٦٩)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٣٧١)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٧٧، ٤/ ٣١٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٢٩٦، ٢/ ١٥٧، ٣/ ١٠١، ٢٨٧)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٤٥٢، ٦/ ٢٥٠)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/ ٢٣٩)، والبغوي في (شرح السُّنَّة ٢/ ٣٥٤).

Marfat.com

ومصدق أخفى التصدّق لم يكن بما أنفقت يُمناه علم شمال
ومن ذكر الربّ المهيمن خاليًا ففاضت به عيناه خوف نكال
وخوف القلى والهجر بعد وصاله وشوقًا إلى رؤيا جمال جلال
فأكرم بهم من سبعة طيبي الثنا وأكرم بها في القوم سبع خصال
وأكرم به فخرًا سما كلّ مفخر ومجد فعال فوق كلّ فعال
بمقعد صدق تحت عرش مليكهم تجلّى لهم باهي جمال كمال
تراهم ملوكًا فوق نجب من البها وغرفات درّ كالنجوم عوال
على سُرُر الياقوت في فرش سندس وحور من النور المضيء غوال
وما تشتهيه النفس من كلّ لذّة ومن زينة والكلّ ليس ببال
وما لم ترى عين وتسمع أُذن ذي سماع ويخطر للأنام ببال
هنيئًا لهم طوبىٰ لهم تمّ سعدهم أنيلوا نوالاً خير كلّ نوال

قلت: وهذه الأحاديث العشرة كلها صحاح كما ترى، وهذه أحاديث أخرى رواها جماعة من الأئمة بأسانيدهم في كتبهم. منها ما رَووا عن أنس بن مالك[1] رضي الله عنه، أن النبيّ ﷺ قال: «بدلاء أمتي أربعون رجلاً، اثنان وعشرون بالشام، وثمانية عشر بالعراق، كلما مات منهم واحد، أبدل الله مكانه آخر، فإذا جاء الأمر قبضوا»[2]. ورووا عن ابن مسعود[3] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله تبارك وتعالى في الأرض ثلاث مئة رجل قلوبهم على قلب آدم عليه السلام، وله أربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام، وله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام، وله خمسة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام، وله واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثة مئة، وإذا مات من الثلاث مئة أبدل الله مكانه من العامّة، يدفع

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٢/ ٢٤ـ ٢٥؛ وطبقات ابن سعد ٧/ ١٠؛ وتهذيب ابن عساكر ٣/ ١٣٩.
(٢) أخرجه ابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٦١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٤٦١٠)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٣٤).
(٣) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (توفي ٣٢هـ = ٦٥٣م) أبو عبد الرحمٰن صحابي، من أكابرهم فضلاً وعقلاً وقربًا من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول مَن جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادم رسول الله الأمين، وصاحب سرّه ورفيقه في حلّه وترحاله وغزواته. له ٨٤٨ حديثًا. الأعلام ٤/ ١٣٧؛ والإصابة ت ٤٩٥٥؛ وغاية النهاية ١/ ٤٥٨؛ وصفة الصفوة ١/ ١٥٤؛ وحلية ١/ ١٢٤.

Marfat.com

الله بهم البلاء عن هذه الأمة»[1]. وذكر بعضهم عزرائيل ولم يذكر موسى وجعل مكانه إبراهيم، ومكان إبراهيم جبريل، ومكان جبريل ميكائيل، ومكان ميكائيل إسرافيل، ومكان إسرافيل عزرائيل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والواحد المذكور في هذا الحديث، هو القطب، وهو الغوث، ومكانته من الأولياء كالنقطة من الدائرة التي هي مركزها، به يقع صلاح العالم. وقال بعضهم: لم يذكر رسول الله ﷺ قلبه في جملة قلوب الأنبياء والملائكة والأولياء، إذ لم يخلق الله تعالى في عالم الخلق والأمر أعزّ وألطف وأشرف من قلبه ﷺ، فقلوب الملائكة والأنبياء والأولياء، صلوات الله وسلامه عليهم بالإضافة إلى قلبه، كإضافة سائر الكواكب إلى كمال الشمس. وقال الشيخ العارف أبو الحسين النوري[2] رضي الله عنه: شاهد الحقّ القلوب، فلم يرَ قلبًا أشوق إليه من قلب سيدنا محمد ﷺ، فأكرمه بالمعراج[3] تعجيلاً للرؤية والمكالمة. وقال الشيخ العارف بحر المعارف ذو النون المصري[4] رضي الله عنه: ركضت أرواح الأنبياء في ميدان المعرفة، فسبقت روح نبينا محمد ﷺ أرواح الأنبياء إلى رياض الوصال. ورووا عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: البدلاء[5] بالشام، والنجباء بمصر، والعصائب بالعراق، والنقباء بخراسان، والأوتاد[6] بسائر الأرض، والخضر عليه السلام سيد القوم. وعن الخضر عليه السلام أنه قال: ثلاث مئة هم الأولياء، وسبعون هم النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض، وعشرة هم النقباء، وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، وواحد منهم هو الغوث رضي الله تعالى عنهم أجمعين. ورووا عن أبي الدرداء[7] رضي الله عنه

---

(١) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال ٥٥٤٩)، وابن حجر في (لسان الميزان ٤/ ٣٤٩).

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري (توفي ٢٩٥ هـ/ ٩٠٨ م) وُلِدَ ونشأ في بغداد، بغوي الأصل. صحب السري السقطي وابن أبي الحواري، وكان من أقران الجنيد، وكان كبير الشأن حَسَن المعاملة واللسان. (الرسالة القشيرية ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩).

(٣) المعراج: ما عَرَج عليه النبي ﷺ ليلة الإسراء.

(٤) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري (توفي ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م) أبو الفياض، أو أبو الفيض أحد الزهّاد العبّاد المشهورين، من أهل مصر، نوبيّ الأصل من الموالي. كانت له فصاحة وحكمة وشعر، وهو أول مَن تكلم بمصر في «ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية» فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم، واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة فاستحضره إليه وسمع كلامه، ثم أطلقه فعاد إلى مصر وتوفي بجيزتها. الأعلام ٢/ ١٠٢؛ ووفيات الأعيان ١/ ١٠١؛ وميزان الاعتدال ١/ ٣٣١؛ ولسان الميزان ٢/ ٤٣٧؛ وحلية ٩/ ٣٣١؛ والرسالة القشيرية ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

(٥) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، فإذا مات واحد أبدل الله تعالى مكانه آخر.

(٦) الأوتاد: هم الذين يُحفَظ بهم الدين، والشافعي رضي الله عنه منهم.

(٧) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الخزرجي الأنصاري (توفي ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م) أبو الدرداء، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة، ولمّا ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك وولاّه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاضٍ بها. مات بالشام، وروى عنه أهل الحديث=

Marfat.com

أنه قال: إنّ لله عبادًا يقال لهم: الأبدال، لم يبلغوا ما بلغوا بكثرة الصوم والصلاة والتخشع وحُسْن الحلية، ولكن بلغوا بصدق الورع وحُسْن النيّة، وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين، اصطفاهم الله بعلمه، واستخلصهم لنفسه، وهم أربعون رجلاً على مثل قلب إبراهيم ﷺ، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ مَن يخلفه. واعلم أنهم لا يسبّون شيئًا ولا يلعنونه، ولا يؤذون مَن تحتهم ولا يحتقرونه، ولا يحسدون من فوقهم، أطيب الناس خيرًا، وألينهم عريكة، وأسخاهم نفسًا، لا تدركهم الخيل المجراة، ولا الرياح العواصف فيما بينهم وبين ربهم، إنما قلوبهم تصعد في السقوف العلى، ارتياحًا إلى الله تعالى في استباق الخيرات ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ [المجادلة: ٢٢] وهذا بعض كلامه. ورووا عن البراء بن عازب[١] رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله خواصّ يسكنهم الرفيع من الجنان، كانوا أعقل الناس، قال: قلنا: يا رسول الله، فكيف كانوا أعقل الناس؟ قال: كان همّتهم المسابقة إلى ربهم عزّ وجلّ، والمسارعة إلى ما يرضيه، وزهدوا في الدنيا وفي فضولها، وفي رياستها ونعيمها، فهانت عليهم، فصبروا قليلاً واستراحوا طويلاً»[٢]. ورووا عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بعثت الفقراء[٣] إلى رسول الله ﷺ رسولاً، فقال: يا رسول الله إني رسول الفقراء إليك، فقال: مرحبًا بك وبمَن جئت من عندهم، جئت من عند قوم أحبهم، فقال: يا رسول الله إن الفقراء يقولون لك إنَّ الأغنياء قد ذهبوا بالخير كله»[٤] ورواه بعضهم «ذهبوا بالجنة، هم يحجّون ولا نقدر عليه، ويتصدّقون ولا نقدر عليه، ويعتقون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخرًا لهم، فقال رسول الله ﷺ: بلّغ الفقراء عنّي أن لمَن صبر واحتسب منهم ثلاث خصال ليس للأغنياء منها شيء: أما الخصلة الأولى: فإن في الجنة غُرَفًا من ياقوت أحمر ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الدنيا إلى النجوم في السماء، لا يدخلها إلا نبيّ أو

= ١٧٩ حديث. الأعلام ٥/٩٨؛ والإصابة ت ٦١١٩؛ وحلية ١/٢٠٨؛ والكواكب الدّرّية ١/٤٥.

(١) هو البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي (توفي ٧١ هـ = ٦٩٠ م) أبو عمارة، قائد صحابي من أصحاب الفتوح. أسلم صغيرًا وغزا مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة. ولمّا وَلِيَ عثمان الخلافة جعله أميرًا على الريّ فغزا أبهر وفتحها، ثم قزوين فملكها، وانتقل إلى زنجان فافتتحها عنوة. وعاش إلى أيام مصعب بن الزبير فسكن الكوفة واعتزل الأعمال وتوفي في زمنه. روى له البخاري ومسلم ٣٠٥ أحاديث. الأعلام ٢/٤٦ ـ ٤٧؛ وطبقات ابن سعد ٤/٨٠؛ ومعجم البلدان مادة: زنجان.

(٢) أخرجه ابن حجر في (المطالب العالية ٣٢٩٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١/١٧)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ١/٢١٦).

(٣) انظر حديث القشيري عن الفقر في الرسالة القشيرية ص ٢٧١ ـ ٢٧٩.

(٤) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/٢٨٧).

فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير. والخصلة الثانية: تدخل الفقراء إلى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو مقدار خمسمائة عام. والخصلة الثانية: إذا قال الفقير: سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر مخلصًا، وقال الغنيّ مثل ذلك، لم يلحق الغني بالفقير في فضله وتضاعف الثواب وإن أنفق الغنيّ معها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البرّ كلها فرجع إليهم الرسول فأخبرهم بذلك، فقالوا: رضينا يا ربّ رضينا»[١].

ورووا عن الحسن البصري[٢] رضي الله عنه، أنه روى عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أكثِروا من معْرفة الفقراء، واتخذوا عندهم الأيادي، فإن لهم دولة، قالوا: يا رسول الله وما دولتهم؟ فقال ﷺ: إذا كان يوم القيامة، قيل لهم انظروا إلى مَن أطعمكم كسرة أو كساكم ثوبًا أو سقاكم شربة في الدنيا، فخذوا بيده ثم أفيضوا به إلى الجنة»[٣]. ورووا عن الحسن أيضًا رضي الله عنه بروايته عن النبي ﷺ أنه قال: «يؤتى بالعبد الفقير يوم القيامة فيعتذر الله عزّ وجلّ إليه، كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا، فيقول الله عزّ وجلّ: وعزّتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك عليّ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة، ولكن يا عبدي اخرج إلى هذه الصفوف وانظر إلى مَن أطعمك أو كساك وأراد بذلك وجهي، فخذ بيده فهو لك، والناس يومئذ قد ألجمهم العرق، فيتخلّل الصفوف وينظر مَن فعل به ذلك في الدنيا، فيأخذ بيده ويدخله الجنة». ورووا نحو هذا بأسانيدهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، وقال فيه: «فانظر إلى مَن أطعمك أو سقاك أو كساك» ثم ذكر الحديث. ورووا «أن الله تعالى أوحى إلى موسى ﷺ: يا موسى، إن من عبادي مَن لو سألني الجنة بحذافيرها لأعطيته، ولو سألني علاقة سوط من الدنيا لم أعطه، وليس ذلك من هوان له عليّ، ولكني أُريد أن أدّخر له في الآخرة من كرامتي، وأحميه من الدنيا كما يحمي الراعي غنمه من مراعي الذئب». ورووا عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلّ شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حُبّ المساكين والفقراء الصادقين الصابرين، هم جلساء الله يوم القيامة»[٤]. ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: «اللّهمّ

---

(١) أخرجه العراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/١٩٧).

(٢) هو الحسن بن يسار البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ = ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة وحَبْر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النسّاك. ولد بالمدينة وشبّ في كنف عليّ بن أبي طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان، وسكن البصرة وعظمت هيبته في القلوب. أخباره كثيرة. وله كلمات سائرة، وكتاب في «فضائل مكة» توفي بالبصرة. الأعلام ٢/٢٢٦ ـ ٢٢٧؛ وميزان الاعتدال ١/٢٥٤، وحلية ٢/١٣١.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢/٢٥).

(٤) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/٨٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/٢٨٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٥٨٧)، والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة ٢/١٧٤).

Marfat.com

أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين»[1]. قلت: وناهيك بهذا الشرف للمساكين، ولو قال ﷺ: واحشر المساكين في زمرتي لكفاهم شرفًا، فكيف وقد قال ﷺ: «واحشرني في زمرة المساكين». ورووا الحديث المشهور، قال رسول الله ﷺ: «إن النور إذا وقع في القلب انشرح الصدر وانفسح، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة؟ قال ﷺ: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»[2]. قلت: فعلى هذا لا يكون النور المذكور إلا لقلب زاهد في الدنيا. والحديث الحسن في الترمذي وغيره عن شدّاد بن أوس[3] رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الكيِّس مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[4]. قال العلماء: معنى دان نفسه: أي حاسبها. ورووا عن

---

(١) أخرجه الترمذي في (السّنن ٢٣٥٢)، وابن ماجه في (السّنن ٤١٢٦)، والبيهقي في (السّنن الكبرى ٧/ ١٢)، والحاكم في (المستدرك ٤/ ٣٢٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٥٩٢، ١٦٥٩٣، ١٦٦٦٨، ١٦٦٦٩)، والقرطبي في (التفسير ٨/ ١٦٩)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٢)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٠)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٠٦)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٨٩، ٨/ ١٥٢، ٩/ ٢٧٢)، وصاحب (ميزان الاعتدال ١٠٥٦٠)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٥٩)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ١١١)، والألباني في (إرواء الغليل ٣/ ٣٥٨، ٦/ ٢٧٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٤٥، ٥٢٤٤)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٧/ ١٩٤، ٩/ ٧٥)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٧٤)، والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة ٢/ ١٧٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٢٠٦، ٣/ ٢٢٩، ٤/ ١٨٩)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٠٢، ٩٧٠٣، ٩٧٠٤)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٦/ ٥٨)، وابن الجوزي في (الموضوعات ٣/ ١٤١، ١٤٢)، والسيوطي الحلبي في (الدّرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٤٤).

(٢) أخرجه السيوطي في (الدّرر المنثور ٣/ ٤٤).

(٣) هو شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري (توفي ٥٨ هـ = ٦٧٧ م) أبو يعلى، صحابي من الأمراء، ولاّه عمر إمارة حمص، ولمّا قتل عثمان اعتزل، وعكف على العبادة، كان فصيحًا حليمًا حكيمًا. توفي في القدس عن ٧٥ سنة، وله في كتب الحديث (٥٠) حديثًا. الأعلام ٣/ ١٥٨؛ والإصابة ت ٣٨٤٢؛ وتهذيب التهذيب ٤/ ٣١٥؛ وصفة الصفوة ١/ ٢٩٦؛ وحلية ١/ ٢٦٤.

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢٤)، والبيهقي في (السُّنن الكبرى ٣/ ٣٦٩)، والحاكم في (المستدرك ١/ ٥٧، ٤/ ٢٥١)، والطبراني في (المعجم الكبير ٧/ ٣٣٨؛ ٣٤١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٤؛ ٨/ ٤٢٨، ٤٤١؛ ٩/ ١٨، ٣٩، ١٦٦؛ ١٠/ ٩٣، ١٥١، ٢٢١)، والبغوي في (شرح السُّنّة ١٤/ ٣٠٨، ٣٠٩)، والطبراني في (المعجم الصغير ٢/ ٣٦)، (بغوي ٢/ ٣٠٥)، والقرطبي في (التفسير ١/ ١٤٤؛ ١٦/ ١٦٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٢٨٩)، وابن حجر في (فتح الباري ٩/ ٣٤٢)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٢٥٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١/ ٢٦٧؛ ٨/ ١٧٤)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/ ٥٠)، وابن المبارك في (الزهد ٥٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٣٢٦؛ ٣/ ٣٦٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ١٩٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٧٢)، والسيوطي الحلبي في=

Marfat.com

زيد بن أسلم[1] رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أخرج رجل غنيّ من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدّق بها، وأخرج رجل فقير درهمًا واحدًا من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه، صار صاحب الدرهم الواحد أفضل من صاحب مائة ألف درهم». قلت: ويؤيده قوله ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم»[2] الحديث أخرجه الإمام أبو عبد الرحمٰن النسائي في سننه، وإلى ذلك أشرتُ حيث قلت:

لئن كان للأموال فخر على الثرى ... فللفقر فخر بالثريا معلق
وإن أنفق المثري ألوفًا عديدة ... فدرهم أهل الفقر يا صاح يسبق

وأشرت أيضًا إلى ذلك بأوضح من هذا حيث قلت:

روينا حديثًا بالأسانيد مثبتًا ... وفي النسائي يلقاه مَن يتصفّح
على مائة مع مثلها ألف مرة ... لصاحب دنيا درهم الفقر يرجح
إذا جاد ذا من درهمين بواحد ... ومن عرض مال ذاك في تلك يسمح

ويدلّ على فضل صدقة الفقير أيضًا قوله تعالى: ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ [التوبة: ٧٩]، وقوله ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل»[3]. والأخبار في فضائلهم خارجة عن الحصر. ولنقتصر منها على هذا القدر.

وأما الآثار عن السلف الصالحين، والأئمة العاملين رضي الله عنهم أجمعين، فخارجة عن الحصر أيضًا. وها أنا أذكر منها نبذة يسيرة محذوفة الأسانيد، طلبًا للاختصار، وخوفًا من الملل في الإكثار. فعن الضحّاك رضي الله عنه قال: مَن مرّ في السوق فرأى شيئًا يشتهيه ولا يقدر عليه فصبر واحتسب، كان خيرًا له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى. وعن أبي سليمان الداراني رضي الله عنه قال: تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنيّ ألف عام. وعن إمام الورعين وعلم

= (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٢٧).

(١) هو زيد بن أسلم العدوي العمري (توفي ١٣٦ هـ = ٧٥٣ م) مولاهم، أبو أسامة أو أبو عبد الله فقيه مفسّر من أهل المدينة. كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته. كان ثقة، كثير الحديث وله حلقة في المسجد النبوي. وله كتاب في «التفسير» رواه عنه ولده عبد الرحمٰن. الأعلام ٣/ ٥٦ و٥٧؛ وتذكرة الحفّاظ ١/ ١٢٤؛ وتهذيب التهذيب ٣/ ٣٩٥.

(٢) أخرجه النسائي (زكاة ٤٩)، وأحمد بن حنبل ٢، ٣٧٩.

(٣) أخرجه ابن كثير في (التفسير ٨/ ٩٦)، والألباني في (إرواء الغليل ٣/ ٤١٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٩٣٨)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤/ ١١١)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٥٦٦)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٨/ ٢١٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٠٨٢، ١٦٢٨١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/ ١٠٨٥)، والحميدي في (المسند ١٢٧٦).

Marfat.com

الزاهدين، وسرّ العارفين أبي نصر بشر بن الحارث[1] رضي الله عنه قال: العبادة من الفقير كعقد جوهر على جيد حسناء، والعبادة من الغنيّ كشجرة خضراء على مزبلة. وقيل: ثياب الفقراء من الصوف الخشن والمرقعات[2] والسواد إذا لبسها الزهّاد كانت عليهم بهجة، وإذا لبسها غيرهم كانت عليهم سمجة. وعن ابن وهب رحمه الله قال: وقع حريق في حيّ مالك بن دينار. فقال شباب الحيّ: منزل أبي يحيىٰ مالك بن دينار[3]، منزل أبي يحيىٰ مالك بن دينار، منزل أبي يحيىٰ مالك بن دينار، فخرج عليهم مالك متزرًا[4] ببارية وفي يده مطهرة[5] وهو يقول: نجا المخفون نجا المخفون، أو قال: فاز المخفون نحن وأنتم، أو قال: منا ومنكم يوم القيامة. وقال أيضًا: يا معاشر الأغنياء موتوا كمدًا، فإن العيش عيش الآخرة، أو قال في الدار الآخرة. وأيضًا درهم الفقير أزكى عند الله من دينار الغنيّ. وعن أبي الدرداء أنه قال: أهل الأموال يأكلون ونأكل، ويشربون ونشرب، ويلبسون ونلبس، ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر إليها معهم، وهم يحاسبون عليها ونحن براء منها، وقال أيضًا: ما أنصفنا إخواننا الأغنياء يحبوننا في الله تعالى ويفارقوننا في الدنيا، وإنه سيأتي يوم يسرّهم أن يكونوا بمنزلتنا، ولا يسرّنا أن نكون بمنزلتهم. وفي هذا المعنى قلت:

ولا قطّ تغبط أهل دنيا فإنهم ... غدًا يغبطونك يحزنون وتفرح
فما ذاك إلا فتنة أيّ فتنة ... بها نطقت طٰه عن الحقّ تفصح

أعني قوله تعالى في سورة طٰه: ﴿ولا تمدنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ [الحجر: ٨٨]، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أيضًا أنه كان يومًا جالسًا فأتته امرأة فقالت أتجلس بين هؤلاء؟ فوالله ما في البيت هفة ولا سنة من دقيق، فقال: يا هذه إن بين أيدينا عقبة كؤودًا[6] لا ينجو منها إلا

(١) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمٰن المروزي (١٥٠ ـ ٢٢٧ هـ = ٧٦٧ ـ ٨٤١ م) أبو نصر المعروف بالحافي، من كبار الصالحين. له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث من أهل «مرو» سكن بغداد وتوفي بها. الأعلام ٢/ ٥٤؛ وفيات الأعيان ١/ ٩٠؛ وتاريخ بغداد ٧/ ٦٧ ـ ٨٠؛ والرسالة القشيرية ص ٤٠٤.
(٢) المرقعات: (ج) المرقعة: من لباس الصوفية، سُمّيت بذلك لما فيها من الرُّقع.
(٣) هو مالك بن دينار البصري (توفي ١٣١ هـ/ ٧٤٨ م) أبو يحيىٰ من رواة الحديث. كان ورعًا يأكل من كسبه، ويكتب المصاحف بالأجرة. توفي بالبصرة. الأعلام ٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢؛ ووفيات الأعيان ١/ ٤٤٠؛ وحلية الأولياء ٢/ ٣٥٧.
(٤) أتزر: لبست الإزار.
(٥) المِطْهرة: ما يتطهر به كالإبريق ونحوه (ج) مطاهر.
(٦) عقبة كؤود: صعبة.

Marfat.com

كل مخفّ، فرجعت وهي راضية: وعن بعض الشيوخ الأكابر: أنه جاءه إنسان فقال: ادعُ الله لي فقد أضرّني العيال، فقال له الشيخ رضي الله عنه: إذا قال لك عيالك ما عندنا دقيق ولا خبز فادعُ الله فإن دعاءك أرجى من دعائي لك في تلك الساعة. وعن بعضهم أيضًا: أنه قال له أولاده: ما عندنا عشاء، فقال: نحن أهون على الله من أين يجوّعنا، إنما يجوّع أحبابه، أو قال أولياءه. وكان بعضهم يقول إذا أقبل الفقر: مرحبًا بشعار الصالحين. وعن الإمام أحمد بن حنبل[1] رضي الله عنه: أنه سُئِل عن استعاذة النبي ﷺ من الفقر وقد أخبر بما فيه من الثواب، فقال: إنما معناه فقر القلب لا فقر اليد كما أن الغنى غنى القلب لا غنى اليد. وعن الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه: أنه جاءه إنسان بخمس مئة درهم ووضعها بين يديه، وقال: تفرّقها على هؤلاء الجماعة، فقال: ألك غيرها؟ قال: نعم لي دنانير كثيرة، قال: أتحب زيادة عليها؟ قال: نعم، قال الجنيد: خذها فأنت أحوج إليها منّا ولم يقبلها.

وأنشد بعض الأخيار:

لكسرة من جريش الخبز تشبعني ... وشربة من قراح الماء ترويني[2]
وخرقة من خشين الثوب تسترني ... حيًا وإن متّ تكفيني لتكفيني

ولبعضهم أيضًا:

حذفت فضول النفس حتى رددتها ... إلى دون ما يرضى به المتعفّف
وأملت أن أجري خفيفًا إلى العلى ... فإن رمتم أن تلحقوا بي فخفّفوا
لأبتذلنّ النفس حتى أصونها ... وغيري في قيد من الذلّ يرسف
حملت جبال الحب فوقي وإنني ... لأعجز عن حمل القميص وأضعف

ورُوِيَ أن الطراز المعلم طيب الثناء جميل الشيم إبراهيم بن أدهم[3] رضي الله

---

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل (١٦٤ـ ٢٤١هـ = ٧٨٠ـ ٨٥٥م) أبو عبد الله الشيباني الوائلي، إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو. وولد ببغداد فنشأ منكبًا على طلب العلم وسافر في سبيله أسفارًا كبيرة، صنّف «المسند» وله كتب في «التاريخ» و«الناسخ والمنسوخ» و«التفسير» و«فضائل الصحابة» و«الزهد» و«المناسك» وغير ذلك. الأعلام ١/ ٢٠٣؛ وحلية ٩/ ١٦١؛ وتاريخ بغداد ٤/ ٤١٢؛ والبداية والنهاية ١٠/ ٣٢٥ ـ ٣٤٣.

(٢) الجريش: المجروش من الحبوب وغيرها. القراح: الخالص من كل شيء.

(٣) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور (توفي ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م) التميمي البلخي، أبو إسحق، زاهد مشهور، ثقة ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز، وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة مات ودفن في سوفنن (حصن من بلاد الروم). الأعلام ١/ ٣١؛ وتهذيب ابن عساكر ٢/ ١٦٧؛ والبداية والنهاية ١٠/ ١٣٥؛ وحلية ٧/ ٣٦٧ ثم ٨/ ٣؛ والرسالة القشيرية ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

Marfat.com

عنه: أتاه رجل بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها وقال: تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك. ولله درّ القائل حيث قال:

ولست بميّال إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر

وعن الإمام الجليل السيد الحفيل عبد الله بن المبارك[1] رضي الله عنه: أنه سُئِلَ؟ مَن الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمَن الملوك؟ قال: الزهّاد، قيل: فمَن السَّفَلَة؟ قال: الذي يأكل بدينه. وعن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال: طلبت أبناء الدنيا الراحة في الدنيا فأخطؤوا، ولو علموا أن المُلْك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيف. وعن ذي النون المصري رضي الله عنه قال: الزّهّاد ملوك الآخرة، وهم فقراء العارفين بالله تعالى: وعن الشيخ الكبير أبي مدين الشهير رضي الله عنه قال: المُلْك مُلْكان: مُلْك البلاد، ومُلْك قلوب العباد، والملوك على الحقيقة هم الزّهّاد. وقال جماعة من العلماء منهم الإمام الشافعي رضي الله عنه: إذا أوصى إنسان بماله لأعقل الناس صرف إلى الزّهّاد في الدنيا. وقال الشيخ الكبير العارف بالله الخبير أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: من فوائد الفقر وثمراته وجود ألم الجوع والعُري والتلذّذ بهما والزيادة منهما والمنافسة فيهما. وأنشدوا في ذلك:

قالوا غدًا العيد ماذا أنت لابسه فقلت خلعة ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوباي تحتهما قلب يرى إلْفه الأعياد والجُمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاور في الثوب الذي خلعا
الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

وعن قطب الإخوان كبير الشأن أبي يزيد البسطامي[2] رضي الله عنه أنه قال: إنّ لله عبادًا لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار. وعن الشيخ الكبير بالله تعالى أبي عثمان المغربي[3] رضي الله عنه أنه قال: العارف بالله

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ١/ ١١٥؛ وفي تذكرة الحفّاظ ١/ ٢٥٣؛ وفي حلية ٨/ ١٦٢.

(٢) هو طيفور بن عيسى البسطامي (١٨٨ ـ ٢٦١ هـ = ٨٠٤ ـ ٨٧٥ م) أبو يزيد، ويقال: بايزيد، زاهد مشهورًا له أخبار كثيرة. كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر. نسبته إلى بسطام أصله منها، ووفاته فيها. وفي المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود، وأنه ربما كان أول قائل بمذهب الفناء ويُعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية. الأعلام ٣/ ٢٣٥؛ وطبقات الصوفية ٦٧ ـ ٧٤؛ ووفيات الأعيان ١/ ٢٤٠؛ وميزان الاعتدال ١/ ٤٨١؛ وحلية ١٠/ ٣٣؛ والشعراني ١/ ٦٥؛ والرسالة القشيرية ص ٣٩٥ ـ ٣٩٧.

(٣) هو أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي (توفي ٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م) واحد زمانه لم يوصف قبله مثله. صحب ابن الكاتب وحبيب المغربي وغيرهما، ولقي النهرجوري وابن الصائغ وغيرهم. مات بنيسابور وأوصى بأن يصلّي عليه أبو بكر بن فورك. (الرسالة القشيرية ص ٤٣٤).

Marfat.com

تضيء له أنوار العلم فينظر بها عجائب الغيب. وعن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي سعيد الخراز[١] رضي الله عنه أنه قال: إذا أراد الله أن يتولى عبدًا من عبيده فتح عليه باب ذكره. فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجاب، وأدخله دار الفردانية، وكشف له حجاب الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هو، فحينئذ صار العبد زمنًا فانيًا، فوقع في حفظه سبحانه وتعالى بريء من دواعي نفسه. وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه لرجل: أتحبّ أن تكون وليًا لله؟ قال: نعم، فقال: لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، وفرّغ نفسك لله تعالى وأقبل بوجهك وكليتك عليه، ليقبل عليك ويواليك. وقال الشيخ أبو نصر السراج[٢] رضي الله عنه: الناس في الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب. وأما أهل الدين فأكثر آدابهم في رياضة النفس وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات. وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلّة الالتفات إلى الخواطر، وحُسن الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور، ومقامات القرب. وقال الشيخ الكبير إمام السالكين حجة الله على العارفين، قطب المقامات، كثير الكرامات أبو محمد سهل بن عبد الله[٣] رضي الله عنه: أعمال البرّ كلها في صحائف الزاهدين. قلت: هذا قول عارف صديق في نهاية التصديق، وبيانه مختصرًا أن أهل الدنيا يخرج بعضهم بعض ماله في بعض أعمال البرّ، وهو يحبّ كثرة المال واتّساعه، ويتعرّض للفتنة ويشغله عن أنواع الطاعة، والزّهّاد خرجوا عن الكل لله تعالى بالفعل والنيّة بغضًا للدنيا وتفرّغًا للطاعات السَّنِيَّة، وجمعوا بين العبادات القلبية والبدنية والمالية، واطّلع الحقّ سبحانه وتعالى على قلوبهم، فلم يجد فيها حبًّا لغيره، فأكرمهم بقربه، ووهب لهم ما لا تفهمه العقول من فضله وخيره، اللّهمّ لا

---

(١) هو أحمد بن يحيى الخراز، أبو سعيد (توفي ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م) من مشايخ الصوفية. بغدادي نسبته إلى خرز الجلود. قيل: إنه أول مَن تكلّم في علم الفناء والبقاء. له تصانيف في علوم القوم. منها «كتاب الصدق، أو الطريق إلى الله» ومن كلامه: إذا بكت أعين الخائفين فقد كاتبوا الله بدموعهم. الأعلام ١/ ١٩١؛ وشذرات الذهب ٢/ ١٩٢؛ واللباب ١/ ٣٥١؛ والرسالة القشيرية ص ٤٠٩.

(٢) هو عبد الله بن علي الطوسي (توفي ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨ م) أبو نصر السراج، زاهد، كان شيخ الصوفية على طريق السُّنّة. له كتاب «اللمع» في التصوف. الأعلام ٤/ ١٠٤؛ وشذرات الذهب ٣/ ٩١؛ وكشف الظنون ١٥٦٢؛ وهدية العارفين ١/ ٤٤٧.

(٣) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري (٢٠٠ ـ ٢٨٣ هـ = ٨١٥ ـ ٨٩٦ م) أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال. له كتاب في «تفسير القرآن» مختصر، وكتاب «رقائق المحبّين» وغير ذلك. الأعلام ٣/ ١٤٣؛ وطبقات الصوفية ص ٢٠٦؛ والوفيات ١/ ٢١٨؛ وحلية ١٠/ ١٨٩؛ والرسالة القشيرية ص ٤٠٠ ـ ٤٠١.

Marfat.com

تحرمنا خيرك لشرّنا، وهب لنا من فضلك العظيم، واجعل بك شغلنا بجاه نبيّك محمد الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، إنك الملك المنّان ذو الفضل العظيم. فهذه قطرة من بحار فضائلهم اقتصرت عليها، وإن يكن في بعض الأحاديث التي ذكرتها ضعف، ففي الأحاديث الصحيحة كفاية. منها قوله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[1] أخرجاه في الصحيحين كما ذكرنا، وقوله ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه»[1] أخرجاه أيضًا في الصحيحين كما تقدّم، وقوله ﷺ: «قمت على باب الجنة، فكان عامّة مَن دخلها المساكين، وأصحاب الجَدّ محبوسون»[1] أخرجه مسلم في صحيحه كما مضى، وقوله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»[1] أخرجه الترمذي في جامعه، وقال: حديث حسن صحيح كما ذكرناه، وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة، ويكفي حاله ﷺ وما كان عليه من النظر، ورفض الدنيا كما هو مشهور في الأحاديث، وكذلك حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء والسّلف الصالحين رضي الله عنهم. وقال الإمام الكبير العارف بالله الخبير، المحقّق الورع الشهير أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي[2] رضي الله عنه، بعد أن ذكر العلماء المائلين إلى الدنيا: يزعمون أن أصحاب محمد ﷺ كانت لهم أموال، فيحتجّ المغرورون بذكر الصحابة رضي الله عنهم ليعذرهم الناس على جمع المال، وقد دهاهم الشيطان وما يشعرون، ويحك أيها المفتون احتجاجك بمال عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه مكيدة من الشيطان، ينطق بها على لسانك لتهلك، لأنك متى زعمت أن أخيار الصحابة رضي الله عنهم أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة، فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه، فقد أزريت بسيدنا محمد ﷺ وبالمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه، فقد زعمت أن رسول الله ﷺ لم ينصح أمته إذ نهاهم عن جمع المال، كذبت وربّ السماء على رسول الله ﷺ، بل كان ﷺ للأمة ناصحًا، وعليهم مشفقًا، وبهم رؤوفًا رحيمًا؛ ويحك أيها المفتون هذا عبد الرحمٰن بن

(١) سبق تخريج هذه الأحاديث.

(٢) هو الحارث بن أسد المحاسبي (توفي ٢٤٣هـ = ٨٥٧ م) أبو عبد الله، من أكابر الصوفية. كان عالمًا بالأصول والمعاملات، واعظًا مبكيًا، وله تصانيف في الزهد والرّد على المعتزلة وغيرهم. وُلِدَ ونشأ في البصرة، ومات ببغداد، وهو أستاذ البغداديين في عصره. من كتبه «آداب النفوس» وشرح المعرفة» و«البعث والنشور» و«الخلوة والتنقل في العبادة» وغير ذلك. الأعلام ٢/ ١٥٣؛ وتهذيب التهذيب ٢/ ١٣٤؛ وصفة الصفوة ٢/ ٢٠٧؛ وحلية ١٠/ ٧٣؛ وابن خلكان ١/ ١٢٦؛ وتاريخ بغداد ٨/ ٢١١؛ والرسالة القشيرية ص ٤٢٩.

Marfat.com

عوف رضي الله عنه في فضله وتقاه وصنائعه المعروفة، وبذله الأموال في سبيل الله تعالىٰ مع صحبته لرسول الله ﷺ وبشراه بالجنة، يوقف في عرصة[1] القيامة وأهوالها بسبب مال اكتسبه من حلال للتعفّف وصنائع المعروف، وأنفق منه قصدًا، وأعطى في سبيل الله سبحانه، منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين، وصار يحبو في آثارهم حبوًا، فما ظنك بأمثالنا الغرقى في فتن الدنيا؟ وبعد: فالعجب كلّ العجب من كلّ مفتون متمرّغ في تخاليط الشُّبهات والسّحت، يكالب على أوساخ الناس، ويتقلّب في الشهوات والزينة والمباهاة وفتن الدنيا ثم يحتجّ بعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه، ثم قال المحاسبي رضي الله عنه بعد كلام طويل حسن ذكر فيه الصحابة رضي الله عنهم: كانوا للمسكنة محبين، ومن خوف الفقر آمنين، وبالله تعالى في أرزاقهم واثقين، وبمقادير الله عزّ وجلّ مسرورين، وفي البلاء راضين، وفي الرخاء شاكرين، وفي الضرّاء[2] صابرين، وفي السرّاء[3] حامدين، وكانوا لله متواضعين، وعلى أنفسهم مؤثرين، وعن حبّ العلوّ والتكاثر ورعين، وكانوا إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحبًا بشعار الصالحين، فبالله عليك أكذلك أنت؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم، حالك ضدّ أحوالهم، تطغى عند الغنى، وتبطر عند الرخاء، وتفرح عند السرّاء، وتغفل عند أداء شكر النعماء، وتقنط عند الضرّاء، وتسخط عند البلاء، ولا ترضى بالقضاء، وتبغض الفقر، وتأنف من المسكنة، وتجمع المال لتنعم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذّاتها، ولقد كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منك فيما حرّم الله عليك، وكانوا للزلّة الصغرى أشدّ استعظامًا منك من كبار المعاصي، فليت أطيب أموالك وأحلّها مثل شبهات أموالهم، وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا من حسناتهم أن لا تقبل، وليت صومك مثل إفطارهم، وسهرك مثل نومهم، وليت حسناتك مثل واحدة من حسناتهم، ويحك ينبغي لك أن ترضى بالبلغة[4]، وتعتبر بذوي الأموال إذا وقفوا للسؤال، وتسبق في الرعيل[5] الأول في زمرة المصطفى ﷺ لا حبس عليك ولا حساب، فقد قال ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام»[6]. انتهى كلام المحاسبي رحمه الله، وهذا بعض كلامه. وقال بعض الشيوخ الكبار: رأيت النبي ﷺ في المنام وهو يحدّثني بفضائل الفقراء، وشرف الفقير على الغني، فحفظت من قوله ﷺ أنه قال لي: «حسبك أنّ عائشة رضي الله عنها تدخل

(١) عرصة الدار: ساحتها.
(٢) الضراء: الشدّة والفقر والعذاب.
(٣) السرّاء: الخير والنعمة يُسرّ بها.
(٤) البلغة: ما يكفي من العيش، ولا يزيد منه شيء.
(٥) يقال: فلان في الرعيل الأول؛ أي: من السابقين.
(٦) سبق تخريجه.

Marfat.com

الجنة قبل أغنيائها بخمس مئة عام، وإن ابنتي فاطمة رضوان الله عليها تدخل الجنة قبل عائشة بأربعين سنة، لأنها نالت من الدنيا أقل من عائشة رضوان الله عليهما»[1]. وروينا عن الشيخ العارف الجليل المعظم أبي عبد الرحمٰن حاتم الأصم[2] رضي الله عنه أنه دخل الرّيّ ومعه ثلاث مئة وعشرون رجلاً يريدون الحج، وعليهم جباب[3] الصوف، وليس معهم جراب[4] ولا طعام، فدخلوا على رجل من التجار متقشف[5] يحبّ المساكين، فأضافهم تلك الليلة فلما كان من الغد قال الرجل لحاتم: ألك حاجة؟ فإني أريد أن أعود فقيهًا لنا هو عليل، فقال حاتم: عيادة المريض فيها فضل، والنظر إلى الفقيه عبادة، وأنا أجيء أيضًا معك، وكان العليل محمد بن مُقاتل قاضي الرّيّ، فلما جاؤوا إلى الباب إذا هو يُشرِق حُسْنًا، فبقي حاتم متفكّرًا يقول: يا ربّ عالم على هذا الحال؟ ثم أذن لهم فدخلوا، فإذا دار قوراء لها سعة وفيها ستور، فبقي حاتم رضي الله عنه متفكّرًا ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه، فإذا بفرش وطيئة، وهو راقد عليها، وعند رأسه غلام وبيده مذبّة، فقعد الرازي وحاتم قائم، فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس، فقال: لا أجلس فقال لعلّ لك حاجة؟ فقال: نعم، فقال: ما هي؟ قال: مسألة أسألك عنها، فقال: سَلْ، قال: قم فاستوِ جالسًا حتى أسألك، فاستوى جالسًا، قال حاتم رضي الله عنه: علمك هذا من أين أخذته؟ قال: من الثقات حدّثوني به، قال: عمّن؟ قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ، قال: وأصحاب رسول الله ﷺ عمّن؟ قال: عن النبي ﷺ، قال: والنبي ﷺ عمّن؟ قال: عن جبريل عليه السلام، قال: وجبريل عليه السلام عمّن؟ قال: عن الله عزّ وجلّ، قال حاتم: ففيما أدّاه جبريل عن الله تبارك وتعالى إلى النبي ﷺ، وأدّاه النبي ﷺ إلى أصحابه رضي الله عنهم، وأصحابه إلى الثقات، والثقات إليك، هل سمعت مَن كان في داره أميرًا وكان في داره الثروة والمتاع

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/ ٢٠؛ ٤/ ٤٧)، ومسلم في (الصحيح العيدين ١٩)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ٢٣١)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ١١٧)، وابن حجر في (فتح الباري ٢/ ٤٤٠، ٤٤٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٥٥؛ ٦/ ٤٩٣، ٥٥١)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٧/ ٤٣٨، ١٠/ ٥٦٤)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ٢/ ٢/ ١٠٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٨٤٧٣)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٦/ ٦٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٢٩٤)، والذهبي في (الطب النبوي ١١٤)، والألباني في (آداب الزفاف ١٦٨).

(٢) هو أبو عبد الرحمٰن، حاتم بن علوان المعروف بالأصم (توفي ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م)، من أكابر مشايخ خراسان وكان تلميذ شقيق، وأستاذ أحمد بن خضرويه. ويقال: إنه لم يكن أصم، وإنما تصامم مرة فسمّي بذلك. (الرسالة القشيرية ص ٣٩٣).

(٣) جباب: (ج) الجبة: ثوب طويل واسع الكُمّين مشقوق المقدم، يُلبَس فوق الثياب.

(٤) الجِراب: وعاء يُحفظ فيه الزاد ونحوه (ج) جُرب وأجربة.

(٥) المتقشف: المتزهّد أو المتبلغ بالطعام القليل وبالمرقع.

Marfat.com

الحسن، وكانت داره واسعة كانت له عند الله تعالى المنزلة الكبرى؟ قال: لا، قال: فكيف سمعت؟ قال: سمعت مَن زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وقدّم لآخرته وأحبّ المساكين كانت له عند الله المنزلة الكبرى العالية، قال: فأنت بمَن اقتديت؟ أبالنبي ﷺ وبأصحابه الصالحين؟ أم بفرعون وهامان؟ يا علماء السوء، مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها، فيقول: العالم على هذه الحالة، لا أكون أنا شرًّا منه، ثم خرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضًا. وأنشدوا في أن السعادة[1] بالتقوى لا بالدنيا ولا بجمع المال:

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد

فتقوى الله خيرًا الزاد ذخرًا ... وعند الله للأتقى مزيد

وما لا بدّ أن يأتي قريب ... ولكن الذي يمضي بعيد

قلت: وحاتم الأصمّ المذكور رضي الله عنه من كبار شيوخ الصوفية، وقد اجتمع به الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وسمع كلامه وسأله، فأجابه واستحسن جوابه. ولم تزل العلماء الصلحاء قديمًا وحديثًا يعتقدون طائفة الصوفية ويزوورنهم ويتبرّكون بمجالستهم ودعائهم وآثارهم، من ذلك ما جاء عن الإمام سفيان الثوري[2] في مجالسته لرابعة[3] رضي الله عنها وتأدّبه معها. وما جاء عن الإمامين: الشافعي، وأحمد في مجالستهما لشيبان الراعي رضي الله عنهم، وحكايته المشهورة معهما، فقد روينا أن الإمام أحمد كان عند الشافعي، فجاء شيبان الراعي، فقال أحمد: أُريد يا أبا عبد الله أن أُنبّه هذا على نقصان علمه ليشتغل بتحصيل بعض العلوم، فقال له الشافعي: لا تفعل، فلم يسمع، فقال لشيبان: ما تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة، ولم يدرِ أيّ صلاة نسيها، ما الواجب عليه يا شيبان؟ فقال شيبان: يا أحمد هذا قلب غفل عن الله، فالواجب أن يُؤدَّب حتى لا يغفل عن مولاه ثم يعيدهنّ بعد، فغشي على أحمد.

---

(١) السعادة: نقيض الشقاوة، وهي الرضاء التام بما تناله النفس من الخير.

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧ ـ ١٦١ هـ = ٧١٦ ـ ٧٧٨ م) من بني ثور بن عبد مناة من مضر، أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث. كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى وخرج من الكوفة، ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيًا. له من الكتب «الجامع الكبير والصغير» في الحديث وكتاب في «الفرائض». الأعلام ٣/ ١٠٤ ـ ١٠٥؛ وطبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٧؛ وحلية ٦/ ٣٥٦ ثم ٧/ ٣؛ وتهذيب التهذيب ٤/ ١١١ـ ١١٥.

(٣) هي رابعة بنت إسماعيل العدوية (توفيت ١٣٥ هـ = ٧٥٢ م) أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية صالحة مشهورة، من أهل البصرة، ومولدها بها. لها أخبار في العبادة والنسك ولها شعر. توفيت بالقدس. الأعلام ٣/ ١٠؛ ووفيات الأعيان ١/ ١٨٢؛ والدّر المنثور ٢٠٢، والشريشي ٢/ ٢٣١.

Marfat.com

وفي رواية أخرى: فالواجب أن يُؤدَّب بإعادة الخمس، فلما أفاق أحمد من غشيته، قال الإمام الشافعي: ألم أقل لك لا تحرّك هذا؟ وفي روايّة أخرى أنه سأله عن الزكاة أيضًا في كم تجب؟ فقال شيبان: أما على مذهبكم فتجب في الإبل في كذا وكذا، وفي البقر في كذا وكذا، وفي الغنم في كذا وكذا وفي الفضة في كذا وكذا وفي الذهب في كذا وكذا، وفي الزرع والثمار في كذا وكذا، وأما على مذهبي فالكل له، وستجيء حكايته فيما بعد مع الإمام سفيان الثوري رضي الله تعالى عنهما لمّا اعترض لهم الأسد في طريق الحج. وكذلك روينا أن فقيهًا من أكابر الفقهاء كانت حلقته بجنب حلقة الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي بكر الشبلي[1] رضي الله عنه في جامع المنصور، وكان يقال لذلك الفقيه أبو عمران، وكان يتعطل عليه وعلى أصحابه حلقتهم بكلام الشبلي، فسأل أصحاب أبي عمران يومًا الشبلي عن مسألة في الحيض وقصدوا إخجاله فذكر مقالات الناس في تلك المسألة والخلاف فيها، فقام أبو عمران وقبّل رأس الشبلي وقال: يا أبا بكر استفدت في هذه المسألة عشر مقالات لم أسمعها، وكان عندي من جملة ما قلت ثلاثة أقاويل. وكذلك روينا أنه اجتاز أبو العباس بن سريج الفقيه الإمام الشافعي المذهب الملقب بالباز[2] الأشهب[3]، بمجلس الأستاذ الإمام العارف بحر المعارف، أبي القاسم الجنيد رضي الله عنهما، فسمع كلامه، فقيل له: ما تقول في هذا؟ فقال: لا أدري ما أقوله، ولكني أقول: أرى لهذا الكلام صولة ليست بصولة مبطل؛ وما مات ابن سريج حتى اعتقد الصوفية واستحسن طريقهم. وقال بعضهم: حضرت مجلس أبي العباس بن سريج فتكلم في الفروع والأصول بكلام حسن أعجبت منه، فلما رأى إعجابي قال: أتدري من أين هذا؟ هذا من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد. وقيل لعبد الله بن سعيد بن كحلان: أنت تتكلم على كلام كل أحد، وههنا رجل يقال له: الجنيد، فانظر هل تعرض عليه، فحضر حلقته فسأل الجنيد عن التوحيد[4]، فأجابه فتحيّر عبد الله وقال: أعِد عليّ ما قلت، فأعاده ولكن لا بتلك العبارة، فقال عبد الله: هذا شيء آخر لم أحفظه فأعده عليّ مرة أخرى، فأعاده بعبارة أخرى، فقال عبد الله: ليس يمكنني حفظ ما تقول فأمله عليّ،

---

(١) هو دلف بن جحدر الشبلي (٢٤٧ ـ ٣٣٤ هـ = ٨٦١ ـ ٩٤٦ م) ناسك كان في مبدأ أمره واليًا في دنباوند، وولي الحجابة للموفق العباسي، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة فاشتهر بالصلاح. له شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة. أصله من خراسان، ونسبته إلى قرية «شبلة» ومولده بسرّ مَن رأى، ووفاته ببغداد. اشتهر بكنيته. واختلف في اسمه ونسبه. الأعلام ٢/ ٣٤١؛ ووفيات الأعيان ١/ ١٨٠؛ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٨٩؛ والرسالة القشيرية ص ٤١٩ ـ ٤٢٠.

(٢) البازُ: أحد الكواسر من الطير، من الفصيلة الصقرية ورتبة الجوارح يستخدم في الصيد.

(٣) شهب: خالط بياضه سواد فهو أشهب وهي شهباء.

(٤) انظر حديث القشيري عن التوحيد في الرسالة القشيرية ص ٢٩٨ ـ ٣٠٣.

Marfat.com

فقال: إن كنت أُجريه فأنا أُمليه، فقام عبد الله وقال بفضله، واعترف بعلوّ شأنه. وأنشد بعضهم:

أنعي إليك قلوبًا طالما هطلت سحائب الوحي فيها أبحر الحكم

وقيل لأبي القاسم الجنيد: ممّن استفدت هذه العلوم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله عزّ وجلّ ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأشار إلى درجة في داره. وقال رضي الله تعالى عنه: لو علمت أن لله تبارك وتعالى علمًا تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه وأخذته. وقال أيضًا رضي الله تعالى عنه: ما أخذنا التصوّف من القيل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات، وكثرة الذكر لله عزّ وجلّ، وأداء فروضه وواجباته وسُننه، والاتّباع لجميع ما أمر به، والانتهاء عن جميع ما نهى عنه. ورُوِيَ أن النجيب بن النجيب أبا المعالي إمام الحرمين رضي الله تعالى عنه كان يدرس يومًا في المسجد بعد صلاة الصبح، فمرَّ به بعض شيوخ الصوفية ومعه أصحابه من الفقراء، وقد دعوا إلى بعض المواضع، فقال إمام الحرمين في نفسه: ما شغل هؤلاء إلا الأكل والشرب والرقص؛ فلما رجع الشيخ من الدعوة مرّ عليه وقال: يا فقيه: ما تقول فيمن يصلي الصبح وهو جُنُب، ويقعد في المسجد ويدرس العلوم ويغتاب الناس، فذكر إمام الحرمين أنه كان عليه غسل، ثم حَسُنَ اعتقاده بعد ذلك في الصوفية. ورُوِيَ أن الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه كان مع جلالة قدره يكثر التردّد إلى بعض الصوفية العارفين، فقيل له: أتتردّد لرواية عند هذا الشيخ؟ فقال: عنده رأس الأمر تقوى الله، أو قال معرفة الله. وكذلك لمّا سعى بالصوفية إلى بعض الخلفاء أمر بضرب رِقابهم؛ فأما الجنيد فتستر بالفقه، وكان يفتي على مذهب أبي ثور، وأما الشحام والرقام والنوري فقبض عليهم وبسط النطع[1] لضرب رقابهم، فتقدم الشيخ العارف بالله أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه، فقال له السيّاف: أتدري لماذا تبادر؟ فقال: نعم، فقال: وما يعجلك؟ فقال: أوثر أصحابي بحياة ساعة فتحيّر السيّاف وأنهى الأمر إلى الخليفة، فتعجب الخليفة ومَن عنده من ذلك! وكان القاضي عنده، فاستأذن الخليفة أن يذهب إليهم ليبحث معهم ويختبر حالهم، فأذِنَ له الخليفة في ذلك فأتاهم، وقال: يخرج إليّ واحد منكم حتى أبحث معه فخرج إليه أبو الحسين النوري، فألقى عليه القاضي مسائل فقهية، فالتفت عن يمينه ثم التفت عن يساره ثم أطرق ساعة، ثم أجابه عن الكلّ، ثم جعل يقول: وبعد، فإن لله عبادًا إذا قاموا قاموا بالله، وإذا نطقوا نطقوا بالله، وسرد كلامًا كثيرًا أبكى القاضي، ثم سأله القاضي عن التفاته، فقال:

(١) النطع: بساط من جلد، كثيرًا ما يُقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل (ج) أنطاع ونطوع.

Marfat.com

سألتني عن المسائل ولا أعلم لها جوابًا، فسألت عنها صاحب اليمين فقال: لا علم لي، ثم سألت عنها صاحب الشمال فقال: لا علم لي، فسألت قلبي فأخبرني قلبي عن ربي، فأجبتك بذلك، فأرسل القاضي إلى الخليفة يقول له: إن كان هؤلاء زنادقة فليس على وجه الأرض مسلم. وكذلك جاء جماعة من فقهاء اليمن إلى الشيخ الكبير بحر الحقائق وموضح الدقائق، العارف بالله تعالى أبي الغيث بن جميل قدّس الله روحه ونوّر ضريحه ونفعنا والمسلمين ببركته يمتحنونه في شيء، فلما دنوا منه قال: مرحبًا بعبيد عبدي، فاستعظموا ذلك، فلقوا شيخ الطريقين وإمام الفريقين الفقيه العالِم العارف بالله أبا الذبيح إسماعيل بن محمد الحضرمي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، وأخبروه بما قاله الشيخ أبو الغيث لهم، فضحك وقال: صدق أنتم عبيد الهوى، والهوى عبده. وكان الشيخ أبو الغيث المذكور أُميًا ويحضر مجلسه الفقهاء ويسألونه المسائل الدقيقة فيجيبهم. وللمشايخ مع الفقهاء حكايات يطول ذكرها، وسنذكر شيئًا من ذلك إن شاء الله تعالى في حكايات الكتاب. وقال الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه في رسالته المشهورة: أما بعد، فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافّة من عباده بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله عليهم أجمعين، جعل قلوبهم معادن أسراره، واختصّهم من بين الأمة بطوالع أنواره، صفاهم من الكدورات البشرية، ورقاهم إلى مجال المشاهدات لما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفّقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، وهذا من بعض كلامه؛ ثم قال في آخر الرسالة: والناس إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة[1]، فأما الذي للناس غيب فلهم ظهور، وأما الذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال، وهم كما قال القائل:

ليلي بوجهك مشرق ... وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلا ... م ونحن في ضوء النهار[2]

قال ولم يكن عصر من الأعصار في مدة الإسلام وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة ممّن له علمٌ في التوحيد وإمامة القوم، إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبرّكوا به[3]. انتهى كلامه. ولله درّ قائلهم في هذه الأبيات:

كانت لقلبي أهواء مفرّقة ... فاستجمعت مُذ رأتك العين أهوائي

---

(١) وذلك بعمارة باطنهم بالأخلاق الحميدة، وبُعدهم عن الأخلاق الذميمة، ومراقبتهم لربهم في أعمالهم.

(٢) سُدف: جمع سدفة: وهي الظلمة.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٧٨.

Marfat.com

وصار يحسدني مَن كنت أحسده ۞ وصرت مولى الورى مُذْ صرت مولائي
تركت للخلق دنياهم ودينهم ۞ شغلاً بحبك يا ديني ودنيائي

ولله درّ القائل الآخر:

فأجسامهم في الأرض قتلى بحبهم ۞ وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري
قلوبهم جوالة بمعسكر ۞ به أهل ودّ الله كالأنجم الزهر

ولله درّ القائل الآخر:

على مثل حدّ السيف تسري إلى العُلا ۞ فمَن زاغ لا أرض تقلّ ولا سما
فمَن فاز بالتوفيق فالله صانه ۞ ولولا جميل اللطف والله ما نما

ولله درّ القائل الآخر:

إذا جيش الأحباب جيشًا من الجفا ۞ بنينا من الصبر الجميل حصونا
وإن ركبوا خيل الصدود مغيرة ۞ أقمنا عليها للوصال كمينا
وإن جرّدوا أسيافهم لقتالنا ۞ لقيناهم بالذلّ مدرّعينا
وإن لم يروا في ودّنا ووصالنا ۞ صبرنا على أحكامهم ورضينا

ولله درّ القائل الآخر:

ولو طردوني كنت عبدًا لعبدهم ۞ وإن أبعدوني زدت في الحبّ والودّ
ولي عندهم هجر كما حكم الهوى ۞ وهم أهل فضل لي ومنزلة عندي

ولله درّ القائل الآخر:

وكنت قديمًا أطلب الوصل منهم ۞ فلما أتاني الحلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلب له ۞ فإن قربوا فضل وإن أبعدوا عدل
وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم ۞ وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

ولله درّ القائل:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدّثي ۞ وأبحت جسمي مَن أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ۞ وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ولله درّ القائل الآخر:

فليتك تحلو والحياة مريرة ۞ وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ۞ وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحّ منك الودّ يا غاية المنى ۞ فكلّ الذي فوق التراب تراب

ولله درّ القائل الآخر:

نفس المحبّ على الأسقام صابرة ... لعلّ مسقمها يومًا يداويها
لا يعرف الشوق إلاّ مَن يكابده ... ولا الصبابة إلا مَن يعانيها
الله يعلم أنّ النفس قد تلفت ... شوقًا إليك ولكني أسليها
فنظرة منك يا سؤلي ويا أملي ... أشهى إليّ من الدنيا وما فيها

وقال آخر:

إن كان سفك دمي أقصى مرادكم ... فما غلت نظرة منكم بسفك دمي

Marfat.com

الفصل الثاني
في إثبات كرامات الأولياء[1]
رضي الله تعالى عنهم

وظهور الكرامات على الأولياء جائز عقلاً وواقع نقلاً. أما جوازه عقلاً فإنه ليس بمستحيل في قدرة الله عزّ وجلّ، بل هو من قبيل الممكنات كظهور معجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، هذا مذهب أهل السُنَّة من المشايخ العارفين، والنظار الأصوليين، والفقهاء والمحدّثين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وتصانيفهم ناطقة بذلك شرقًا وغربًا وعجمًا وعربًا. ثم القول الصحيح المحقّق المختار عند جمهور الأئمة المحققين من أهل السُنَّة، أن كل ما جاز للأنبياء من المعجزات، جاز للأولياء مثلها من الكرامات، بشرط عدم التحدّي، ولا يرد على ذلك القرآن للزومه التحدّي، ولا يصحّ قول مَن يقول: إن ذلك يؤدّي إلى الالتباس بين الكرامات والمعجزات، لأن المعجزة يجب على النبيّ ﷺ أن يتحدّى بها ويُظهرها؛ والكرامة يجب على الوليّ أن يخفيها ويسرّها، إلا عند الضرورة، أو إذن، أو حال غالب لا يكون له فيه اختيار، أو لتقوية يقين بعض المريدين، كما فعل بعضهم، غرف عسلاً من الجوّ ووضعه في فم مريد له. ورُوِيَ أن رجلاً أرى غيره الكعبة من بلاد بعيدة. وآخر أرى بعض المنكرين الكعبة يطوف بها، وقد سمعنا سماعًا محققًا أن جماعة منهم شوهدت الكعبة تطوف بهم طوافًا محققًا. ورأيت بعضًا ممّن شاهد ذلك من الثقات الأتقياء، بل من السادات العلماء، وغير ذلك مما يطول ذكره، وما ذهب إليه الإمام أبو إسحق الإسفراييني رحمه الله تعالى من إثبات بعض الكرامات دون بعض، فهو مخالف لمذهب الجمهور الصحيح المشهور. وأما وقوع ذلك نقلاً، أعني ظهور الكرامات، فقد جاء في القرآن وفي الأخبار والآثار بالإسناد ما يخرج عن الحصر والتعداد. فمن ذلك في القرآن، ما أخبر الله تعالى عن مريم بنت عمران رضي الله

---

(١) انظر حديث القشيري عن كرامات الأولياء في الرسالة ص ٣٥٣ ـ ٣٥٩.

Marfat.com

تعالى عنها في قوله عزّ وجلّ: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٣٧]. وقوله سبحانه وتعالى لمريم: ﴿وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًّا﴾ [مريم: ٢٥] وكان في غير أوان الرّطب كما جاء في التفسير. ومن ذلك ما أخبر الله عزّ وجلّ من العجائب على يد الخضر عليه الصلاة والسلام مع موسى النبيّ ﷺ. وكذلك قصة ذي القرنين رضوان الله عليه، وتمكين الله سبحانه وتعالى له ما لم يمكنه لغيره. وكذلك قصة أهل الكهف رضي الله تعالى عنهم، والأعاجيب التي ظهرت من كلام الكلب معهم وغير ذلك. وكذلك قصة آصف بن برخيا رضي الله تعالى عنه مع سُليمان ﷺ في عرش بلقيس في قوله تعالى: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك﴾ [النحل: ٤٠] وكلّ هؤلاء المذكورين ليسوا بأنبياء. ومن ذلك في الأخبار، الحديث الصحيح المشهور في الصحيحين، حديث جريج الراهب(١) الذي كلّمه الطفل في المهد حين قال له: يا غلام مَن أبوك؟ فقال: فلان الراعي. ومن ذلك حديث أصحاب الغار(٢) الذين انطبقت عليهم الصخرة، وهو حديث صحيح متفق على صحته، وهو مشهور في الصحيحين، وفي آخره «فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»(٣). ومن ذلك حديث البقرة التي حمل عليها صاحبها أو راكبها على اختلاف الرواية، فالتفتت إليه فكلمته، فقالت: إني لم أُخلَق لهذا، ولكني خُلِقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله تعجبيًا وفزعًا: أبقرة تتكلم! فقال رسول الله ﷺ: «فإني أُومن بذلك أنا وأبو بكر وعمر»(٤). وهذا أيضًا حديث صحيح مشهور مذكور في الصحيحين وغيرهما، وهو متفق على صحته، أعني اتفقوا على تكلّم البقرة المذكورة، وإن اختلفوا في بعض ألفاظ الحديث. ومن ذلك الحديث الصحيح المتفق على صحته المذكور في الصحيحين في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه مع ضيفه الذي قال فيه: وإيم الله ما كنّا نأخذ لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها، فأكلوا حتى شبعوا وصارت أكثر مما كانت قبل

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٥٧. (٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/١١٩)، ومسلم في الصحيح (الذكر والدعاء ١٠٠)، وابن حجر في (فتح الباري ٤/٤٤٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/١٠٢)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/٥١)، وصاحب (الأذكار النووية ٣٥٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/٤٤٠).

(٤) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/٢١٢؛ ٥/١٥)، ومسلم في (الصحيح ١٨٥٧، ١٨٥٨)، والحميدي في (المسند ١٠٥٤)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/١٨)، والبغوي في (شرح السُّنَّة ١٤/٩٧)، والبخاري في (الأدب المفرد ٩٠٢).

Marfat.com

ذلك، فنظر إليها أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقال لامرأته: يا أُخت بني فراس ما هذا؟ قالت: لا وقرّة عيني، لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرّات. ومن ذلك أيضًا الحديث الصحيح المتفق على صحته، المخرج في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون، فإن يكُ في أمتي أحد منهم فإنه عمر»[١]. ومن ذلك أيضًا ما صحّ عن عُمر رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا سارية[٢] الجبل الجبل، في حال خطبته في يوم الجمعة، فبلغ صوته إلى سارية في ذلك الوقت، فتحذّر من العدوّ في مكان من الجبل في تلك الساعة، فكان في ذلك لعمر كرامتان بيّنتان: إحداهما ما كشف له عن حال سارية وأصحابه من المسلمين، وحال العدوّ؛ والثانية: بلوغ صوته إلى سارية من بلاد بعيدة. ومن ذلك الحديث المتفق على صحته في سعد بن أبي وقاص[٣] الذي قال فيه أبو سعدة: أصابتني دعوة سعد. أخرجاه في الصحيحين. ومن ذلك الحديث المتفق على صحته أيضًا في سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل[٤] رضي الله تعالى عنه الذي قال فيه للتي ادّعت عليه أنه أخذ شيئًا من أرضها، فقال: اللّهمّ إن كانت كاذبة فأعْمِ بصرها واقتلها في أرضها، فما ماتت حتى ذهب بصرها، وبينما هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت. أخرجاه أيضًا في الصحيحين. ومن ذلك الحديث الصحيح حديث البخاري الذي قال فيه: قالت: والله ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب رضي الله عنه، فوالله لقد وجدته يومًا يأكل قطفًا من عنب في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيبًا، يعني بهذه المرأة بنت الحارث بن عامر بن

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٥٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٦٠٢٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٢٣).

(٢) سارية بن زنيم (توفي ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م) كناني دئلي صحابي، من الشعراء القادة الفاتحين (الرسالة القشيرية ص ٣٥٦). ومعنى هذا القول أي الزم الجبل واصعده، ففي ذلك نجاتك من أعدائك الذين أحاطوا بك.

(٣) هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري (٢٣ ق.هـ ٥٥ هـ = ٦٠٠ ـ ٦٧٥ م) أبو إسحٰق، الصحابي الأمير، فاتح العراق، ومدائن كسرى، وأول مَن رمى بسهم في سبيل الله، وأحد الستة الذين عيّنهم عمر للخلافة، وأحد العشرة المُبشّرين بالجنة، شهدَ بدرًا وافتتح القادسية ونزل أرض الكوفة فجعلها خططًا لقبائل العرب، وظلّ واليًا عليها مدة عمر بن الخطاب، وأقرّه عثمان زمنًا ثم عزله، فعاد إلى المدينة. مات في قصره بالعقيق. وله في كتب الحديث ٢٧١ حديثًا. الأعلام ٣/ ٨٧؛ والتهذيب ٣/ ٤٨٣؛ وصفة الصفوة ١/ ١٣٨؛ وحلية ١/ ٩٢.

(٤) انظر ترجمته في الأعلام ٣/ ٩٤، وطبقات ابن سعد ٣/ ٢٧٥، وتهذيب ابن عساكر ٦/ ١٢٧، وصفة الصفوة ١/ ١٤١، وحلية ١/ ٩٥، وذيل المذيل ١٤.

نوفل كما ذكر في الحديث. ومن ذلك الحديث الصحيح حديث البخاري أيضًا في أُسيد بن حضير(١) وعباد بن بشر(٢) رضي الله تعالى عنهما الذي قال فيه: خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما، فلما افترقا صار مع كلّ واحد منهما واحد حتى أتى أهله. ومن ذلك الحديث الصحيح حديث الرجل الذي سمع صوتًا في السّحاب يقول: اسقِ حديقة فلان. وما جاء أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال للأسد الذي منع الناس الطريق: تنحّ، فبصبص(٣) بذنبه، وذهب فمشى الناس، فقال ابن عمر رضي الله تعالى عنه، صدق رسول الله ﷺ: «مَن خاف الله خوّف الله منه كلّ شيء». ومن ذلك ما جاء أن رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرميّ(٤) رضي الله تعالى عنه في غزاة، فحالَ بينهم وبين الموضع قطعة من البحر، فدعا الله باسمه الأعظم، فمشوا على الماء. وما جاء أنه كان بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله تعالى عنهما قصعة، فسبّحت حتى سمعا التسبيح. وما جاء أن عمران بن الحصين رضي الله تعالى عنه كان يسمع تسليم الملائكة عليه، حتى اكتوى فانحبس عنه ذلك سنة، ثم أعاده الله عليه. ومن ذلك الحديث الصحيح، حديث مسلم المتقدّم ذكره «رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه». قلت: ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكفى دليلاً. وقد ورد عن السّلف من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم ما بلغ حدّ الاستفاضة، وقد صنّف العلماء في ذلك كتبًا كثيرة. وسيأتي حديث أويس(٥) إن شاء الله تعالى فيما بعد، وحكايات كثيرة عن السلف

---

(١) هو أسيد بن الحضير بن سماك بن عتيك الأوسي (توفي ٢٠ هـ/ ٦٤١ م) أبو يحيى، صحابي كان شريفًا في الجاهلية والإسلام، يُعدّ من العقلاء وذوي الرأي، وكان يسمى الكامل. شهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الاثني عشر، وشهد أحدًا فجرح سبع جراحات وثبت مع رسول الله ﷺ حين انكشف الناس عنه، وشهد الخندق والمشاهد كلها وفي الحديث: «نعم الرجل أسيد بن حضير». توفي في المدينة، وله ١٨ حديثًا. الأعلام ١/ ٣٣١؛ وطبقات ابن سعد ٣/ ١٣٥؛ وتهذيب التهذيب ١/ ٣٤٧؛ وصفة الصفوة ١/ ٢٠١.

(٢) هو عباد بن بشر بن وقش الأشهلي الخزرجي الأنصاري (٣٣ ق.هـ ـ ١٢ هـ = ٥٩١ ـ ٦٣٣ م) صحابي، من أبطالهم. أسلم في المدينة، وشهد المشاهد كلها، وكان رسول الله ﷺ يبعثه إلى القبائل يصدّقها (يجمع الصدقات)، وجعله على مقاسم حُنين، واستعمله على حرسه بتبوك. استشهد يوم اليمامة. الأعلام ٣/ ٢٥٧؛ وتهذيب التهذيب ٥/ ٩٠؛ والمحبر ٢٨٢.

(٣) بصبص: حرّك ذنبه طمعًا أو ملقًا أو خوفًا.

(٤) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ٢٤٥؛ وفي البدء والتاريخ ٥/ ١٠٢؛ والإصابة ت ٥٦٤٤.

(٥) هو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني (توفي ٣٧ هـ/ ٦٥٧ م) من بني قرن بن ردمان بن ناجية بن مراد، أحد النسّاك العبّاد المتقدمين، من سادات التابعين، أصله من اليمن يسكن القِفار والرمال، وأدرك حياة النبي ﷺ ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة، وشهد وقعة صفّين مع عليّ، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها. الأعلام ٢/ ٣٢؛ وابن=

Marfat.com

والخلف في الكرامات. فإن قيل: ما بال الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يشتهر عنهم من الكرامات الكثيرة مثل ما اشتهر عن الأولياء بعدهم؟. فالجواب، ما أجاب به الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لما قيل له: يا أبا عبد الله، إن الصحابة لم يُرْوَ عنهم من الكرامات مثل ما قد رُوِيَ عن الأولياء والصالحين، فكيف هذا؟ فقال: أولئك كان إيمانهم قويًا فما احتاجوا إلى زيادة شيء يقوّون به، وغيرهم كان إيمانهم ضعيفًا لم يبلغ إيمان أولئك، فقوّوا بإظهار الكرامات لهم. قلت: وفي هذا المعنى قال بعض الشيوخ الكبار في كرامات مريم ابنة عمران كانت في بدايتها يتعرّف إليها بخرق العادات بغير سبب تقوية لإيمانها، وتكميلاً ليقينها، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا، فلما قوي إيمانها، وكمل يقينها، ردّت إلى السبب، وقيل لها: ﴿وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا﴾ [مريم ٢٥]. وكذلك قال الشيخ الإمام العارف بالله المحقق، شيخ الطريقة ولسان الحقيقة شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: وخرق العادة إنما يكاشف به لموضع ضعف يقين المكاشف رحمة من الله تعالى لعباده ثوابًا معجلاً لهم، وفوق هؤلاء قوم ارتفعت الحجب عن قلوبهم، وباشر بواطنهم روح اليقين [illegible] المعرفة، فلا حاجة لهم إلى مدد من المخرقات، ورؤية القدرة [illegible] المعنى ما نقل عن أصحاب رسول الله ﷺ كثير من ذلك إلا القليل [illegible] المتأخرين من المشايخ والصادقين أكثر من ذلك، لأن أصحاب رسول الله ﷺ [illegible] صحبة النبي ﷺ، ومجاورة نزول الوحي، وتردد الملائكة [illegible] وعاينوا الآخرة، وزهدوا في الدنيا، وتزكت نفوسهم، وانخلعت عاداتهم [illegible] مرايا قلوبهم، فاستغنوا بما أعطوا عن رؤية الكرامة [illegible] من قوة اليقين هذا المبلغ، يرى في إجراء عادة الحكمة [illegible] ويرى القدرة مكمنة، بل منجلية من سجف الحكمة [illegible] وتكشفت له [illegible] المستغرب [illegible] القدرة يغني يقينه [illegible] عن القدرة، قال: وقد تكون للأولياء أنواع من الكرامات [illegible] وشفاء من بمرضهم، وتطوى لهم الأرض، وقد تنقلب لهم الأعيان، وقد [illegible] في الضمير [illegible] بعض الحوادث قبل [illegible] الله ﷺ. [illegible] حظ من الصحبة [illegible] متابعته ﷺ. قال الله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

= [illegible] فتح العروس [illegible] ١٩.

[آل عمران: ٣١]. قال: وكرامات الأولياء من تتمة معجزات الأنبياء، وكلّ رسول كان له أتباع ظهرت لهم كرامات ومخرقات للعادات، هذا بعض كلامه رضي الله تعالى عنهم. وقال الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: وكلّ نبيّ ظهرت كرامته على واحد من أمته، فهي معدودة من جملة معجزاته. قال: ثم هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة، وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمان عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة، أو تخليصا من عدوّ، أو سماع خطاب من هاتف أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة. انتهى كلام الأستاذ أبي القاسم رحمه الله تعالى. قلت: فإن قال قائل: تشتبه الكرامات بالسحر؟ فالجواب ما أجاب به المشايخ العارفون العلماء المحقّقون في الفرق بينهما، أن السحر يظهر على أيدي الفسّاق والزنادقة والكفّار الذين هم على غير الالتزام بالأحكام الشرعية، ومتابعة السُنّة. وأما الأولياء فهم الذين بلغوا في متابعة السُنّة وأحكام الشريعة وآدابها الدرجة العليا فافترقا، وقد تقدّم الفرق بين الكرامات والمعجزات. قلت: والناس في إنكار الكرامات مختلفون. فمنهم مَن ينكر كرامات الأولياء مطلقًا، وهؤلاء أهل مذهب معروف عن التوفيق مصروف. ومنهم مَن يكذّب بكرامات أولياء زمانه، ويصدّق بكرامات الأولياء الذين ليسوا في زمانه، كمعروف[1] وسهل والجنيد وأشباههم رضي الله تعالى عنهم، فهؤلاء كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذليّ رضي الله تعالى عنه: والله ما هي إلا إسرائيلية، صدّقوا بموسى، وكذّبوا بمحمد ﷺ، لأنهم أدركوا زمنه. ومنهم مَن يصدّق بأن لله تعالى أولياء لهم كرامات، ولكن لا يصدّق بأحد معين من أهل زمانه، فهؤلاء محرومون أيضًا، لأن مَن لم يسلم لواحد معين لم ينتفع بأحد. نسأل الله تعالى التوفيق وحُسْن الخاتمة في عافية، لنا وللمسلمين ولمشايخنا ووالدينا وأمة محمد ﷺ أجمعين. وسُئِلَ بعض العلماء الكبار عن كرامات الأولياء، فقال: ومَن ينكر هذا وإن كنت لم تعرف من هذا شيئًا ولم تعقله، فارجع إلى أن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وفي معناه أنشدوا:

إذا كنت المكذّب يا جهول ... عن الآيات تصدّقك العقول

(١) هو معروف بن فيروز الكرخي (توفي ٢٠٠ هـ/ ٨١٥ م) أبو محفوظ، أحد أعلام الزهّاد والمتصوفين كان من موالي الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم. ولد في كرخ بغداد ونشأ وتوفي ببغداد. اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرّك به، ولابن الجوزي كتاب في «أخباره وآدابه». الأعلام ٢٦٩/٧؛ وطبقات الصوفية ٨٣ ـ ٩٠؛ ووفيات الأعيان ١٠٤/٢؛ وصفة الصفوة ١٧٩/٢؛ وتاريخ بغداد ١٩٩/١٣؛ والرسالة القشيرية ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

Marfat.com

فكن بالفهم ترجع نحو شيء　　له الذين المصدق والرسول
بأن إلهنا ما شاء يقضي　　قدير ليس يعجزه المهول

قلت: والعجب كلّ العجب ممّن ينكر الكرامات، وقد جاءت في الآيات الكريمات والأحاديث الصحيحات، والآثار المشهورات، والحكايات المستفيضات الصادرات عن العيان والمشاهدات من السلف والخلف، وبلغت في الكثرة والشهرة في جميع البلاد مبلغًا يخرج عن الحصر والتعداد. ثم إن كثيرًا من المنكرين لو رأوا الأولياء والصالحين يطيرون في الهواء لقالوا هذا سحر، أو قالوا هؤلاء شياطين، ولا شكّ أن مَن حُرِمَ التوفيق فكذّب بالحقّ غيبًا وحدسًا كذّب به عيانًا وحسًّا، كما قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ولو نزّلنا عليك كتابًا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ [الأنعام: ٧] فواعجباه! كيف ينسب السحر وفعل الشياطين إلى الأولياء المقرّبين، والأبرار الصالحين الزاهدين العابدين الصابرين الشاكرين الخائفين الراجين المتقين الورعين المتوكلين الراضين المخبتين العارفين المطهرين من الصفات المذمومات، المتحلّين بمحاسن الصفات المحمودات، المتخلّقين بأخلاق المولى جلّ وعلا، المستمرّين في طاعة الله تعالى، المتأدّبين بآداب الشريعة الشريفة والسُّنّة الغرّاء، المرتفعين عن حضيض الرخص إلى معالي عزائم ذروة العُلى، المُقبِلين على المولى المُعرِضين عن الدنيا، بل وعن الأخرى، الذين كنست بنفوسهم المزابل لما أماتوها لتحيا، فأحياها الحيّ القيّوم، وجمال جلاله لقلوبهم تجلّى لما جاهدوا في الله تعالى حقّ جهاده، أنجز لهم ما وعدهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فيا ليت شعري مَن أولى بهذه الآية، وبقوله تعالى: ﴿وبشّر المخبتين الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَت قلوبهم﴾ [الحج: ٣٤] وبقوله سبحانه: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَت قلوبهم وإذا تُلِيَت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال: ٢]، وبقوله عزّ وجلّ: ﴿إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [النحل: ٩٩] وبقول رسول الله ﷺ في الصحيحين: «الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيّرون، وعلى ربهم يتوكلون»[١] وهل هؤلاء أهل العزائم، أم هم المترخصون؟ وبقوله ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر»[٢] الحديث الصحيح المشهور، وبقوله ﷺ لمّا رأى مصعب بن عمير[٣] رضي الله

(١) أخرجه البخاري (طب ١٧ ـ ٤٢)، ومسلم (إيمان ٣٧٢، ٣٧٤)، والترمذي (قيامة ١٦)، وأحمد بن حنبل ١/٢٧١، ٣٢١، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٥٤؛ ٤/٤٣٦، ٤٤١، ٤٤٣.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشي (توفي ٣ هـ/ ٦٢٥ م) من بني عبد الدار،=

Marfat.com

تعالى عنه متجرّدًا في إهاب[1] كبش دعاه حبّ الله ورسوله إلى ما ترون، وبقوله ﷺ لمّا سُئِل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2] الحديث الصحيح المشهور، وهل هذا إلا للمراقبين الحاضرين، وبقوله ﷺ: «إن البذاذة من الإيمان»[3] يعني بها رثاثة الهيئة، وترك فاخر اللباس، وهل هذا إلا للمتقشفين الزاهدين وغير ذلك، كحديث أُويس رضي الله تعالى عنه، وما كان فيه من رثاثة الحال والتوحّش والانعزال، وغير ذلك مما لا يمكن فيه الاستيعاب، ولا يسع بعض هذا الكتاب من أولى بهذه المذكورات وأشباهها، ومن المشكور الممدوح بحُسْن ثنائها أهل هذه الأوصاف المذكورات المحمودات، أم أهل أضدادها من الصفات المذمومات؟ فأيّ الفريقين أولى بالهداية، أهل المجاهدات أم غيرهم؟ وقد قال الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وأيّهما أولى بعزل سلطان الشيطان عنه، أهل التوكّل أم غيرهم؟ وقد قال الله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [النحل: ٩٩] وأيّهما أولى بالرجولية، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ [النور: ٣٧]، أم الذين قال الله فيهم: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ [التكاثر: ١]؟ وأيّ الفريقين أولى بقوله ﷺ في الحديث الصحيح «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[4]؟ وأيّهما أولى بفساد الدين: أهل الحرص والطمع،

Marfat.com

= صحابي شجاع. من السابقين إلى الإسلام، أسلم وكتم إسلامه فعلم به أهله فحبسوه فهرب مع مَن هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة وهاجر إلى المدينة، فكان أول مَن جمع الجمعة فيها، وعرف فيها بالمقرىء، وشهد بدرًا، وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد، وكان يلقّب «مصعب الخير». الأعلام ٢٤٨/٧؛ وطبقات ابن سعد ٣/ ٨٢؛ والإصابة ت ٨٠٠٤؛ وصفة الصفوة ١/ ١٥٢؛ أسد الغابة ٤/ ٣٦٨؛ وحلية ١/ ١٠٦.

(١) الإهاب: الجلد المغلّف لجسم الحيوان، أو ما لم يدبغ منه (ج) أهب.

(٢) أخرجه البخاري (إيمان ٣٧)، (تفسير سورة ٣١، ٢)، ومسلم (إيمان ١، ٥)، وأبو داود (سنة ١٦)، والترمذي (إيمان ٥، ٦)، وابن ماجه (مقدمة ٩)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٤٢٦؛ ٤/ ١٢٩، ١٦٤.

(٣) أخرجه الألباني في (السلسلة الصحيحة ٣٤١)، وابن ماجه في (السنن ٤١١٨)، والحاكم في (المستدرك ١/ ٩)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ٢٤٦)، والسيوطي في (جمع الجوامع ١٠٢٨٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٦١٩، ٥٦٢٢)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ٤٨٧؛ ٤/ ١٥١) والبخاري في (التاريخ الكبير ٩/ ٣)، وابن عبد البر في (التمهيد ٣/ ٢٥٥؛ ٥/ ٥١)، والعراقي في (المغني عن حمل الآثار ٣/ ٣٤٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣١٠؛ ٨/ ٣٨٠؛ ٩/ ٣٥٧).

(٤) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٧٦)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣/ ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٦٠)، والدارمي في (السنن ٢/ ٥٠، ٣٠٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٤١)، (بغوي ٢/ ٣١٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٤٤، ١٤٥، ٢٣٨؛ ٩/ ٩٢)، والمنذري في (الترغيب=

أم أهل الزهد والورع؟ وأيهما أولى بقوله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ [العلق: ٧] الأغنياء أم الفقراء؟ وأيّهما أولى بقوله ﷺ: «إن الأكثرين هم الأقلّون يوم القيامة»[١] الحديث المتفق على صحته أهل المال والثروة، أم أهل الفقر والقلّة؟ وأيّهما عباد الرحمٰن المذكورون في سورة الفرقان والذين قال فيهم الملك المنان: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢] وأيّهما عبيد الدنيا والشيطان اللعين الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿ومَن يعش عن ذكر الرحمٰن نقيّض له شيطانًا فهو له قرين﴾ [الزخرف: ٣٦] والذين قال فيهم النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار والدرهم»[٢] وأيّهما أولى باتّباع السُّنَّة والاقتداء بالشريعة: أهل الزهد والجدّ والأخذ بالعزائم الرفيعة، أم أهل الرخص والتواني وحبّ الدنيا الوضيعة الذين يحسبون أن السُّنَّة في متابعة الحظوظ النفسية، ولا يدرون أن أشرف الاتّباع رفض الدنيا والاتّصاف بالصفات السَّنِيَّة، فكم من زاعم أنه مُقتَدٍ بالسُّنَّة ومتّبعها وهو تارك للفروض ومضيّعها، كما قال السيد الجليل العارف بشر بن الحارث رضي الله تعالى عنه لمّا قيل له: الناس يقولون إنك تارك للسُّنَّة يعنون ترك التزوّج، فقال: قل لهم: أنا مشغول بالفرض عن السُّنَّة. وهل الفرض المتعيّن إلا إزالة الصفات المذمومات من القلب من الحقد والحسد والرياء والعجب والكِبَر والأمل والغِيبة والنميمة والكذب والتصنّع والسّمعة والخيلاء والشحّ والنفاق، وغير ذلك من رذائل الأخلاق التي تطهر منها أهل الخوف والإشفاق والأكياس الحذّاق، أم الفرض المذكور معرفة البيوع والطلاق التي قدّمها الجهّال الأحماق، وهل يشرق النور في مرآة القلوب المصقولة

= والترهيب ٢/ ٥٤٠، ٣/ ٥٤٨، ٤/ ١٧٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٨١)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٢٢٦، ٤/ ١٠٣).

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/ ١٥٢، ٨/ ١١٧)، ومسلم في الصحيح (الزكاة ٣٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٩٩، ٥/ ١٥٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ١٨٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتّقين ٤/ ١١، ٨/ ١٤٥)، والبغوي في (شرح السُّنَّة ١/ ٩٩)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ٥٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ١٨٦)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٥/ ٦٥، ٧/ ٢٣٤)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٤/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه في (السّنن ٤١٣٥، ٤١٣٦)، والبيهقي في (السّنن الكبرى ٩/ ١٥٩، ١٠/ ٢٤٥)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤٨، ٢٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٥٦، ٨/ ١٥٢، ١٠/ ٧٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٢٤٧)، وابن كثير في (التفسير ٢/ ١٧٦، ٧/ ٢٩٣)، والقرطبي في (التفسير ١٦/ ٢٣٣، ١٨/ ١٤١)، والسيوطي في (الدّر المنثور ٢/ ١١٥)، وابن حجر في (تغليق التعليق ٩٥٢)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٦١)، والشجري في (الأمالي ٢/ ١٥٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٤٦، ٣/ ٢٣٠، ٤/ ٣٧٦)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٨/ ٥٣).

بالزهد والتقوى، أم المظلمة بالذنوب والعيوب والصدأ؟ وهل يستوي ذمّ ﴿ولا تُطِع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ [الكهف: ٢٨] ومدح الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، أم هل يستوي مَن باع دينه بدنياه، وبذل نفسه في هواه، وقال لسان حاله في معناه:

بذات النفس في طلب المعاني ... معالي المجد في جاه ومال

ومن باع دنياه بدينه رابحًا، وبذل نفسه في حبّ مولاه سامحًا، وقال لسان حاله مطربًا وسائحًا ما قلت تائبًا محبًا:

يا سادتي إن قبلتم مهجتي ودمي ... بنظرة في الجمال الغالب العالي
فقد أنلتم جميل الفضل عبدكم ... وقد ربحت ببيع الدون بالغالي

قلت: وقد تمّت المقدمة الموعودة، وها أنا أبتدىء إن شاء الله تعالى بحكايات الصالحين المحمودة، ولست ألتزم في ذلك ترتيبًا بينهم في التقديم، لا بالفضائل ولا بالأسنان ولا بالأمكنة ولا بالأزمان وقد أجمع في الحكاية الواحدة بين حكايتين أو أكثر، إما لصغر الحكاية، أو للمناسبات، أو لكونها صدرت عن شخص واحد في بعض الحالات، وقد أُغيِّر بعض الألفاظ في بعض الحكايات، إما باختصار، أو بتقديم وتأخير، أو بإصلاح شعر مختلّ، عند مَن هو خبير في حكم الوزن والإعراب، أو في حكم الشرع والآداب، وقد أحذف الشعر من بعض الحكايات لكونه غير مناسب، أو عاريًا عن الحُسْن، أو ركيكًا ليس السمع فيه براغب. وقد أودعت هذا الكتاب شيئًا من نسيجي المهلهل، بعضه أنشأته جديدًا، وبعضه من نسيجي الأوّل، وفي عدم جودته قلت:

يقولون لِمَ لا قلت شعرًا تفيده ... فقلت لأني إن أقل لا أجيده
إذا رُمْتُ غزلان المعاني نَفَرْنَ من ... شباك اصطيادي وابن عرس تصيده[1]
فلا الجيد العالي العزيز يريدني ... ولا الدنيّ الدون الدنيء أُريده

وأنا أسأل الله الكريم، البَرّ الرحيم، أن يرزقنا التوفيق والهدى والسلامة عن الزيغ والرّدى، وأن ينفعنا بعباده الصالحين، ويجعلنا من حزبه المفلحين، وأن ينفع بهذا الكتاب، ويعظم به الأجر الثواب، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، ويهب لنا من فضله العظيم، وأحبابنا والمسلمين آمين، إنه الملك الدّيّان، ذو الطول والإحسان، وهو حسبنا ونِعْمَ الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

---

(١) ابنُ عِرْس: حيوان لاحم ذو فِراء يفتك بالدجاج ونحوها (ج) بنات عرس.

Marfat.com

حكايات الصالحين رضي الله تعالى عنهم: وأُقدِّم عليها كالشاويش لها هذه القصيدة المسمّاة: الشهد الجالي: في فضل الصالحين ومقامهم العالي:

أيا عاشقًا عالي جمال صفاتهم ... وحالي حلى فيهم صلاح فوائقِ
وعالي مقامات وأحوال سادة ... وزاهي كرامات عِظام خوارقِ
ومكنون أسرار وباهي معارف ... ومشهود أنوار بواهٍ بوارقِ
ووصل لأحباب وراح محبة ... إذا شمّها في الغرب مَن في المشارقِ
تمايل نشوانًا بها طول دهره ... فكيف بمَن منها بكاساتها سقي
لهم في الهوى كم من غريب عجائب ... وكم من لطيفات المعاني دقائقِ
وكم من شواجٍ للقلوب رقائق ... وكم من معانٍ للعلوم حقائقِ
وكم من جهيد للنفوس مخالف ... وكم من مليح للعقول موافقِ
تسمع حكايات يطيب سماعها ... ويحلو كطعم الشّهد في ثغر ذائقِ
كساها جمال القوم حُسنًا به كست ... كتابي وكم طيب من القوم عابقِ
وخمس مئين عدّها في كتابنا ... نجاب زهت يختارها كلّ حاذقِ
تنزّه برؤيا حُسنها حين تجتلي ... عرائسها اللائي سبت لبّ عاشقِ
فها هي في روض الرياحين قد بَدَت ... بغالي جمال فائق الحُسْن رائقِ
محاسن غرّ سادة لا ينالها ... سوى كلّ كفء في المحبة صادقِ
أبَت ترتضي خطابها غير ممهر ... لها الصدق في الدنيا ونفس مفارقِ
فإن كنت للمهر الذي عنّا قادرًا ... فنافس وسابق نحوها كلّ سابقِ
وإن كنت مثلي عاجزًا فارضَ بالدّنا ... فبالدّون يرضى الدُّون عند العلائقِ
رعى الله مَن أمسى وأضحى مشمّرًا ... لنيل المعالي قاطعًا كلّ عائقِ
إلى أن عَلاَ فوق المقامات في العُلى ... ونال المنى من قُرْبِ مولى الخلائقِ
فطوبى له في حضرة القدس يجتلي ... جمال جلال جلّ عن وصف ناطقِ
ويسقى كؤوس الوصل من خمرة الهوى ... فيهنّيه ما يلقى هناك وما لقي

(الحكاية الأولى: عن أبي الفيض ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه) قال: وصف لي رجل من السادة باليمن قد برز على الخائفين. وسَمَا على المجتهدين، بسيما بين الناس معروف، وباللّبّ والحكمة والتواضع والخشوع موصوف. قال: فخرجت حاجًا إلى بيت الحرام، فلما قضيت الحج قصدت زيارته لأسمع من كلامه وأنتفع

Marfat.com

بموعظته أنا وأناس كانوا معي يطلبون ما أطلب من البركة، وكان معنا شاب عليه سيما الصالحين ومنظر الخائفين. وكان مصفرّ الوجه من غير سقم، أعمش[1] العينين من غير رمد، يحبّ الخلوة ويأنس بالوحدة. تراه كأنه قريب عهد بمصيبة، وكنّا نعذله على أن يرفق بنفسه، فلا يُجيب قولنا وعذلنا، ولا يزداد إلا مجاهدة واجتهادًا، ولسان حاله يقول:

أيّها العاذلون في الحبّ مهلاً ... حاشَ لي عن هواه أن أتسلى
كيف أسلو وقد تزايد وجدي ... وتبدّلت بعد عزّي ذلاّ
قيل: تبلى فقلت: تبلى عظامي ... وسط لحدي وحبّكم ليس يبلى[2]
حبّكم قد شربته في فؤادي ... في قديم الزمان مُذْ كنت طفلا

قال: ولم يزل ذلك الشاب في جملتنا حتى انتهى معنا إلى اليمن، وسألنا عن منزل الشيخ فأرشدنا إليه، فطرقنا الباب فخرج إلينا كأنما يخبر عن أهل القبور، فجلسنا إليه، فبدأه الشاب بالسلام والكلام فصافحه وأبدى له البِشْر والترحيب من دوننا، وسلّمنا كلّنا عليه، ثم تقدّم إليه الشاب وقال: يا سيدي إن الله قد جعلك وأمثالك أطباء لأسقام القلوب، ومُعالِجين لأوجاع الذنوب، وبي جرح قد نغل[3]، وداء قد استمكن وأعضل، فإن رأيت أن تتلطف بي ببعض مراهمك فافعل، فأنشد الشيخ هذه الأبيات:

إن داء القلوب داء عظيم ... كيف لي بالخلاص من داء ذنبي
هل طبيب مناصح لي فإني ... أعجز الخلق والأطباء طبي
آه واخجلتي ويا طول حزني ... من وقوفي إذا وقفت لربي
وانقطاع الجواب مني ولِمَ لا ... وبلائي قد جلّ عن كل خطب

فقال الشاب للشيخ: فإن رأيت أن تتلطف بي ببعض مراهمك فافعل، فقال له الشيخ: سَلْ عمّا بدا لك، فقال له: ما علامة الخوف من الله تعالى؟ قال: أن يؤمنك خوف الله من كل خوف غير خوفه، فانتفض الفتى جزعًا ثم خرّ مغشيًا عليه ساعة، فلما أفاق قال: رحمك الله متى يتيقن العبد خوفه من الله؟ قال: إذا أنزل نفسه من

---

(١) عَمِشَتْ عينه: ضعف بصرها مع سيلان دمعها في أكثر الأوقات، فهو أعمش وهي عمشاء (ج) عُمْش.
(٢) اللحد: شق يكون في جدار القبر، يوضع فيه الميت (ج) لحود.
(٣) نَغِل الجرح: فسد. أو برىء وفيه شيء من نغل.

Marfat.com

الدنيا منزلة العليل السقيم، فهو محتّم من أكل الطعام مخافة طول السقام، وتصبر على مضض[1] الدواء مخافة طول الضنا، قال: فصاح للشاب صيحة ظننا أن روحه قد خرجت، ثم قال: يرحمك الله ما علامة المحبة لله تعالى؟ فقال: يا حبيبي إن درجة المحبة لله رفيعة، فقال الشاب: أُحبّ أن تصفها لي، فقال: يا حبيبي إن المحبّين لله تعالى شقّ لهم عن قلوبهم فأبصروا بنور القلوب إلى جلال عظمة الإله المحبوب، فصارت أرواحهم روحانية، وقلوبهم حجبية، وعقولهم سماوية تسرح بين صفوف الملائكة الكرام، وتشاهد تلك الأمور باليقين والعَيان، فعبدوه بمبلغ استطاعتهم له، لا طمعًا في جنته ولا خوفًا من ناره، فشهق الشاب شهقة فمات رحمة الله تعالى عليه، فجعل الشيخ يقبّله ويبكي ويقول: هذا تصرّع الخائفين، هذه درجة المُحِبّين، هذه روح حنّت فأنّت فسمعت فاشتاقت فشهقت فماتت. وأنشد بعضهم:

على قدر علم المرء يعظم خوفه ... فلا عالِم إلا من الله خائف
فآمن مكر الله بالله جاهل ... وخائف مكر الله بالله عارف

(الحكاية الثانية: عن ذي النون المصري أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا أسير في نواحي الشام إذ وقعت إلى روضة خضراء وفي وسطها شاب قائم يصلي تحت شجرة تفاح، فتقدّمت إليه وسلّمت عليه، فلم يردّ عليّ السلام، فسلّمت ثانيًا، فأوجز في صلاته ثم كتب في الأرض بإصبعه:

منع اللسان من الكلام لأنه ... كهف البلاء وجالب الآفات
فإذا نطقت فكن لربك ذاكرًا ... لا تنسه واحمده في الحالات

قال ذو النون رضي الله تعالى عنه: فبكيت طويلاً، وكتبت بأصبعي في الأرض:

وما من كاتب إلا سيبلى ... ويُبقي الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء ... يسرّك في القيامة أن تراه

قال: فصاح الشاب صيحة فارق الدنيا فيها، فقمت لآخذ في غسله ودفنه، فإذا بقائل يقول: خلّ عنه، فإن الله عزّ وجلّ وعده أن لا يتولى أمره إلا الملائكة. قال ذو النون: فمِلْتُ إلى شجرة فركعت عندها ركعات، ثم أتيت الموضع الذي مات فيه الشاب فلم أجد له أثرًا ولا عرفت له خبرًا، رضي الله تعالى عنه.

---

(١) المضض: وجع المصيبة.

(الحكاية الثالثة: عنه أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس[1]، إذ سمعت صوتًا وهو يقول: ذهبت الآلام عن أبدان الخدّام، ولهت بالطاعة عن الشراب والطعام، وألِفت أبدانهم طول القيام بين يدي الملك العلاّم؛ قال رضي الله تعالى عنه: فتتبّعت الصوت فإذا بشاب أمرد قد عَلاَ وجهه اصفرار، يميل مثل الغصن إذا ميّلته الريح، عليه شملة[2] قد اتّزر بها، وأخرى قد اتّشح بها؛ فلما رآني توارى عني بالشجر، فقلت له: أيها الغلام ليس الجفاء من أخلاق المؤمنين، فكلّمني وأوصِني، فخرّ ساجدًا لله تعالى، وجعل يقول: هذا مقام مَن لاذ بك، واستجار بمعرفتك، وألِفَ محبتك، فيا إله القلوب وما تحويه من جلال عظمتك، احجبني عن القاطعين لي عنك، ثم غاب عني، فلم أرَه رضي الله تعالى عنه:

وقال أيضًا رضي الله تعالى عنه: بينما أنا أسير بين جبال الشام، إذا أنا بشيخ على تلعة[3] من الأرض قد سقط حاجباه على عينيه كِبرًا، فسلّمت عليه، فردّ عليَّ السلام، ثم جعل يقول: يا مَن دعاه المذنبون فوجدوه قريبًا، ويا مَن قصده الزاهدون فوجدوه حبيبًا، ويا مَن استأنس به المجتهدون فوجدوه مُجيبًا، ثم أنشأ يقول:

وله خصائص مصطفون لحبّه ... اختارهم في سالف الأزمان

اختارهم من قبل فطرة خلقه ... فهم ودائع حكمة وبيان

(الحكاية الرابعة: عن الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه) قال: حضرت إملاك بعض الأبدال من الرجال ببعض الأبدال من النساء، فما كان في جماعة من حضر أحد إلا وضرب بيده إلى الهواء وأخذ شيئًا فطرحه من درّ وياقوت وما أشبهه. قال الجنيد: فضربت بيدي، فأخذت زعفرانًا[4] فطرحته، فقال لي الخضر عليه الصلاة والسلام: ما كان في الجماعة مَن أهدى ما يصلح للعرس غيرك. وقال بعض العارفين: كوشفت بأربعين حوراء رأيتهنّ يتساعين في الهواء، عليهنّ ثياب من فضة

(١) بيت المقدس: مدينة في فلسطين يقدسها اليهود والمسيحيون والمسلمون فيحجّون إليها من جميع الأقطار، لليهود حائط المبكي، وللمسيحيين كنيسة القيامة، وللمسلمين المسجد الأقصى وقبّة الصخرة. (الرسالة القشيرية ص ١٠٧ ـ ١٠٨).

(٢) الشملة: ثوب يُشتمل به (ج) شمال.

(٣) التَّلعة: ما ارتفع من الأرض وأشرف. أو ما انهبط منها (ضد).

(٤) الزعفران: نبات بصلي عطري معمّر من الفصيلة السوسنية، منه أنواع برية ونوع زراعي صبغي طبي مشهور. زهره أحمر إلى الصفرة (ج) زعافر.

Marfat.com

وذهب وجوهر، فنظرت إليهنَّ نظرة، فعوقبت أربعين يومًا، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء، فوقهنَّ في الحُسْنِ والجمال، وقيل لي: انظر إليهنَّ، فسجدت وغمضت عينيَّ في السجود، قلت: أعوذ بك مما سواك، لا حاجة لي بهذا، ولم أزل أتضرَّع حتى صرفهنَّ عنّي.

(**الحكاية الخامسة: عن الشيخ عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه**) قال: أصابتني علّة في ساقي، فكنت أتحامل عليها للصلاة، فقمت عليها من الليل، فأجهدت وجعًا، فجلست ثم لففت إزاري[1] في محرابي[2]، ووضعت رأسي عليه ونمت، فبينما أنا كذلك، إذ أنا بجارية تفوق الدُّمى حُسْنًا وجمالاً، تخطر بين جَوَارٍ مزينات حتى وقفت عليّ وهنَّ خلفها، فقالت لبعضهنَّ: ارفعنه ولا توقظنه، فأقبلن نحوي فاحتملنني وأنا أنظر إليهنَّ في منامي، ثم قالت لغيرهنَّ من الجواري اللاتي معها: افرشن له، ومهِّدن له، ووطِّئن له ووسِّدنه، قال: ففرشن تحتي سبع حشايا لم أر لهنَّ في الدنيا مثلاً، ووضعن تحت رأسي مرافق خضرًا حِسانًا، ثم قالت اللاتي حملنني: اجعلنه على الفرش رويدًا لا تهجنه، قال: فجعلنني على تلك الفرش وأنا أنظر إليها، وما تأمرهنَّ به من شأني، ثم قالت: أحففنه بالريحان[3]، فأُتِيَ بياسمين[4] فحففن به الفرش، ثم قامت إليَّ فوضعت يدها على موضع العلّة التي كنت أجد في ساقي، فمسحت ذلك المكان بيدها ثم قالت: قم شفاك الله إلى صلاتك غير مضرور، فاستيقظت والله كأني قد نشطت من عقال، فما اشتكيت تلك العلّة بعد ليلتي تلك، ولا ذهب من قلبي حلاوة منطِقها بقولها: قم شفاك الله إلى صلاتك غير مضرور.

(**الحكاية السادسة: عن عبد الواحد أيضًا رضي الله تعالى عنه**) قال: نمت عن وِردي[5] ليلة، فإذا أنا بجارية لم أرَ أحسن منها وجهًا، عليها ثياب حرير خضر، وفي رِجليها نعلان يسبحان، والزمامان يقدسان، وهي تقول: يا ابن زيد جدّ في طلبي فإني في طلبك، ثم جعلت تقول:

مَن يشتريني ومَن يكن سَكَني ... يأمن في ربحه من الغبن

---

(١) الإزار: كساء يغطي النصف الأسفل من البدن (ج) أُزر.

(٢) المحراب: صدر البيت وأكرم موضع فيه أو هو مقام الإمام في المسجد أو الغرفة.

(٣) الريحان: كل نبت طيب الرائحة من أنواع المشموم أو هو جنس من النبات طيب الرائحة من الفصيلة الشفوية.

(٤) الياسمين: جنس نباتات من الفصيلة الزيتونية والقبيلة الياسمينية. تُزرَعُ لزهرها. ويُستخرَج دهن الياسمين من زهر بعض أنواعها.

(٥) الوِرْد: النصيب من القرآن أو الذِّكر.

Marfat.com

قال: فقلت يا جاريةً ما ثمنك؟ فأنشأت تقول:

محبة الله ثم طاعته — وطول فكر يُشاب بالحزن

فقلت: لمَن أنت يا جارية؟ فقالت:

لمالك لا يردّ لي ثمنًا — مِن خاطِب قد أتاه بالثمن

قال: فانتبه عبد الواحد وآلى على نفسه أن لا ينام الليل، وكان من الجماعة الذين صلّو الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة من السّلَف الصالح رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم.

(الحكاية السابعة): رُوِيَ أن الشيخ مطهرًا السعديّ رضي الله تعالى عنه بكى شوقًا إلى الله تعالى ستين سنة، فرأى في المنام كأنه بجنب نهر يجري بالمسك الأذفر[1]، حافتاه شجر اللؤلؤ وقضبان الذهب، وإذا بجَوَارٍ مزيّنات يقلن بصوت واحد: سبحان المسبِّح بكل لسان سبحانه، سبحان الموجود بكل مكان سبحانه، سبحان الدائم في كلّ الأزمان سبحانه، قال: فقلت: مَن أنتنّ؟ فقلن: خَلْقٌ مَن خَلقِ الرحمٰن سبحانه، فقلت: ما تصنعن هٰهنا؟ فقلن:

برانا إلٰه الناس ربّ محمد — لقوم على الأقدام بالليل قُوَّم
يناجون ربّ العالمين إلٰههم — فتسري هموم القوم والناس نُوَّم

(الحكاية الثامنة: عن الشيخ أبي بكر الضرير رضي الله تعالى عنه) قال: كان في جِواري شابّ حَسَن الوجه، يصوم النهار ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، فجاءني يومًا وقال: يا أستاذ إني نمت عن وِردي الليلة، فرأيت كأن محرابي قد انشقّ، وكأني بجَوَارٍ قد خرجن من المحراب، لم أرَ أحسن منهنّ وجهًا، وإذا فيهنّ واحدة شوهاء فوهاء، لم أرَ أقبح منها منظرًا، فقلت لمَن أنتنّ؟ ولمَن هذه؟ فقلن: نحن لياليك التي مضت، وهذه ليلة نومك، ولو متّ في ليلتك هذه، لكانت هذه حظّك، ثم أنشأت الشوهاء تقول:

اسأل لمولاك واردُدني إلى حالي — فأنت قبّحتني من بين أشكالي
لا ترقدنّ الليالي ما حييت فإن — نمت الليالي فهي الدهر أمثالي
نحن السرور لمَن نال السرور بنا — جوف الظلام بسكنى المنزل الغالي
فقد أردت بخير إذ وعظت بنا — فأبشر فأنت من المولى على بالِ

---

(١) المسك: ضرب من الطيب، وهو مادة دهنية عطرة سمراء اللون يفرزها أيّل المسك. ويقال: مسك أذفر: أي جيد.

Marfat.com

قال: فأجابتها جارية من الحِسان تقول:

أبشر بخير فقد نلت المنى أبدًا ... في جنة الخُلْد في روضات جنّات
نحن الليالي اللوائي كنت تسهرها ... تتلو القرآن بترجيع ورنّات
نحن الحِسان اللواتي كنت تخطبنا ... جوف الظلام بلوعات وزفرات
أبشر فقد نلت ما ترجوه من ملك ... برّ يجود بأفضال وفرحات
غدًا تراه تجلّى غير محتجب ... تدني إليه وتحظى بالتحيّات

قال: ثم شهق شهقة خرّ ميتًا، رحمة الله تعالى عليه.

(الحكاية التاسعة: عن بعض العارفين) قال: نمت ليلة عن حزبي، فرأيت في المنام جارية حسناء لم أرَ أحسن منها وجهًا، ولا أطيب منها ريحًا، فناولتني رقعة في يدها فقالت: اقرأ ما فيها، فقرأته، فإذا هو:

لذذت بنومة عن خير عيش ... مع الولدان في غُرَف الجنان
تعيش مخلدًا لا موت فيها ... وتبقى في الجِنان مع الحِسان
تيقظ من منامك إنّ خيرًا ... من النوم التهجّد بالقرآن

قال: فاستيقظت مرعوبًا، فوالله ما ذكرتها قطّ إلا طار نومي، رحمه الله تعالى.

(الحكاية العاشرة): رُوِيَ أن الشيخ السريّ السقطي[1] رضي الله تعالى عنه، دخل عليه أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه وهو يبكي، فقال له: ما يُبكيك؟ فقال: جاءتني البارحة الصبية، فقالت: يا أبتِ هذه ليلة حارّة، وهذا الكوز[2] أعلّقه هٰهنا لك حتى يبرد، فقلت: نعم، قال السريّ رضي الله تعالى عنه: فغلبتني عيناي، فنمت فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء، فقلت: لمَن أنت؟ فقالت: لمَن لا يشرب الماء المبرّد في الكيزان، فانتبهت وتناولت الكوز وضربت به الأرض. قال الجنيد رضي الله تعالى عنه: فرأيت الخزف[3] المكسور لم يرفعه أحد حتى عفى عليه التراب. وقال الشيخ أبو سُليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: نمت عن وِردي ليلة، فإذا أنا بحوراء تقول: يا أبا سليمان تنام وأنا أربي لك في الخيام منذ خمس مئة عام، أو كما قالت من الكلام.

---

(١) هو السّري بن المغلس السقطي (توفي ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م) أبو الحسن، من كبار المتصوفة. بغدادي المولد والوفاة، وهو أول مَن تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته وهو خال الجنيد. الأعلام ٣/ ٨٢؛ وطبقات الصوفية ٤٨ ـ ٥٥؛ والوفيات ١/ ٢٠٠؛ وتهذيب ابن عساكر ٦/ ٧١ ـ ٧٩؛ وصفة الصفوة ٢/ ٢٠٩؛ وحلية ١٠/ ١١٦، والرسالة القشيرية ص ٤١٧ ـ ٤١٩.

(٢) الكوز: إناء من فخار، أصغر من الإبريق، له أُذن يُشرَب به الماء (ج) أكواز وكيزان.

(٣) الخزف: ما عُمِلَ من الطين وشُوِيَ بالنار فصار فخارًا.

Marfat.com

(الحكاية الحادية عشرة: عن الشيخ عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه) قال: بينما نحن ذات يوم في مجلسنا هذا، قد تهيأنا للخروج إلى الغزو، وقد أمرت أصحابي أن يتهيئوا لقراءة آيتين فقرأ رجل في مجلسنا ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ [التوبة: ١١١] فقام غلام في مقدار خمس عشرة سنة أو نحو ذلك، وقد مات أبوه وورّثه مالاً كثيرًا، فقال: يا عبد الواحد بن زيد ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ [التوبة: ١١١] فقلت: نعم يا حبيبي، فقال: إني أُشهِدُك أني قد بعت نفسي ومالي بأن لي الجنة، فقلت له: إن حدّ السيف أشدّ من ذلك وأنت صبيّ، وأنا أخاف أن لا تصبر وتعجز عن ذلك، فقال: يا عبد الواحد، أُبايع الله تعالى بالجنة، ثم أعجز أنا؟ أُشهِدُ الله تعالى أني قد بايعته، أو كما قال رضي الله تعالى عنه: قال عبد الواحد: فتقاصرت إلينا أنفسنا، وقلنا: صبيّ يعقل، ونحن لا نعقل، فخرج من ماله كله، وتصدّق به إلا فرسه وسلاحه ونفقته؛ فلما كان يوم الخروج، كان أول مَن طلع علينا، فقال: السلام عليك يا عبد الواحد، فقلت: وعليك السلام ربح البيع. ثم سرنا وهو معنا يصوم النهار ويقوم الليل ويخدمنا ويخدم دوابّنا ويحرسنا إذا نمنا، حتى إذا انتهينا إلى دار الروم، فبينا نحن كذلك إذا به قد أقبل وهو ينادي: واشوقاه إلى العيناء المرضية، فقال أصحابي: لعله وسوس لهذا الصبي واختلط عقله، فقلت: حبيبي وما هذه العيناء المرضية؟ فقال: إني غفوت غفوة فرأيت كأنه أتاني آتٍ فقال لي: اذهب إلى العيناء المرضية فهجم بي على روضة فيها نهر من ماء غير آسن[1]، وإذا على شطّ النهر جوارٍ عليهنّ من الحليّ والحُلَل ما لا أقدر أن أصفه، فلما رأينني استبشرن بي وقلن هذا زوج العيناء المرضية، فقلت: السلام عليكنّ أفيكنّ العيناء المرضية؟ فقلن: نحن خدمها وإماؤها امضِ أمامك. فمضيت أمامي فإذا أنا بنهر من لبن لم يتغيّر طعمه، في روضة فيها من كل زينة، فيها جوارٍ لمّا رأيتهنّ افتتنت بحُسنهنّ وجمالهنّ؛ فلما رأينني استبشرن بي وقلن: هذا والله زوج العيناء المرضية، فقلت: السلام عليكنّ أفيكنّ العيناء المرضية؟ فقلن: وعليك السلام يا وليّ الله نحن خدمها وإماؤها فتقدم أمامك، فتقدمت فإذا أنا بنهر من خمر لذّة للشاربين وعلى شطّ الوادي جَوارٍ أنسينني مَن خلفت، فقلت: السلام عليكنّ أفيكنّ العيناء المرضية؟ قلن: لا، نحن خدمها وإماؤها امضِ أمامك، فمضيت فإذا أنا بنهر آخر من عسل مصفّى وجَوارٍ عليهنّ من النور والجمال ما أنساني ما خلفت، فقلت: السلام عليكنّ أفيكنّ العيناء المرضية؟ قلن: يا وليّ الله نحن خدمها وإماؤها فامضِ أمامك، فمضيت أمامي فوصلت إلى خيمة من درّة بيضاء، وعلى باب الخيمة جارية عليها من الحليّ والحلل ما لا أقدر أن أصفه، فلما رأتني استبشرت ونادت

---

(١) أسن الماء: تغيّر فلم يُشرَب فهو آسن.

Marfat.com

مَن في الخيمة أيتها العيناء المرضية هذا بعلك قد قَدِمَ، قال: فدنوت من الخيمة ودخلت، فإذا هي قاعدة على سرير من ذهب مكلّل بالدّرّ والياقوت، فلما رأيتها افتتنت بها وهي تقول: مرحبًا بك يا وليّ الرحمٰن، قد دنا لك القدوم علينا، فذهبت لأعتنقها، فقالت مهلاً، فإنه لم يأن لك أن تعانقني، لأن فيك روح الحياة، وأنت تفطر الليلة عندنا إن شاء الله تعالى، قال فانتبهت يا عبد الواحد ولا صبر لي عنها، قال عبد الواحد: فما انقطع كلامنا حتى ارتفعت لنا سَرِيَّة من العدوّ، فحمل الغلام عليهم فعددت تسعة من العدوّ قتلهم وكان هو العاشر، فمررت به، وهو يتشحط في دمه وهو يضحك ملء فيه حتى فارق الدنيا رضي الله تعالى عنه: ولله درّ القائل:

يا مَن يعانق دنيا لا بقاء لها — يمسي ويصبح مغرورًا وغرارا
هلاّ تركت من الدنيا معانقة — حتى تعانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها — فينبغي لك أن لا تأمن النارا

(الحكاية الثانية عشرة): حُكِيَ عن بعض الصالحين أنه عبد الله عزّ وجلّ أربعين سنة، فلما كان في بعض الليالي أخذته دلّة على الله عزّ وجلّ فقال: إلٰهي أرني ما قد أعددت لي في الجنة وأخبرني ما قد أعددت لي من الحور العين الحِسان، فما استتمّ الكلام حتى انشقّ المحراب فخرجت منه حورية لو خرجت إلى الدنيا لفتنت مَن فيها، فقال لها: إنسية أنت أم جنيّة؟ فأنشأت تقول:

شكوتَ إلى المولى وقد علم الشكوى — وأعطاك ما ترجو وقد كشف البلوى
وأرسلني أنسًا إليك وإنني — أُناجيك طول الليل لو تسمع النجوى

فقال: يا جارية لمَن أنت؟ فقالت: أنا لك، فقال: كم لي مثلك حورية؟ قالت: مئة حورية، ولكل حورية مئة خادمة، ولكل خادمة مئة وصيفة[1]، ولكل وصيفة مئة قهرمانة، ففرح وقال: يا حورية، هل أعطى أحد أكثر مني؟ قالت: يا مسكين عطاؤك عطاء البطالين الذين يقولون أستغفر الله العظيم فيغفر لهم، ثم يستغفرون الله تعالى عند غروب الشمس فيغفر لهم، ثم أنشأت تقول:

وله خصائص مصطفون لحبّه — اختارهم في سالف الأزمان
اختارهم من قبل فطرة خلقه — فهم ودائع حكمة وبيان

وأنشدت أيضًا تقول:

نشرت له أعلام حب حبيبهم — فتبايعوا وتناهبوا الأعلاما

---

(١) الوصيفة: الخادمة (ج) وصائف.

يا حسنهم في ظلّ عرش مليكهم ... كلٌّ يقود من النجيب زماما
حتى إذا صاروا بحضرة قدسه ... كشف المليك حجابه إكراما
فهم الملوك العارفون بربهم ... والدائبون ببابه خدّاما

قلت: وهذه خمسة أبيات قلتها وألحقتها بهذه الأبيات الأربعة:

من عال ياقوت وزاهي جوهر ... يعلوه نور يسكنون خياما
ومع الحِسان الحور عين لو بدت ... ليلاً أنارت بالجمال ظلاما
ولعطّرت كل الوجود وزخرفت ... ولمات كلٌّ بالجمال غراما
يا حسنها بين الجواري عندما ... تمشي لتلقى قادمين كراما
يجزون غرفات بها فوق المنى ... وتحية يلقونها وسلاما

(الحكاية الثالثة عشرة: عن الشيخ عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه) قال: كنت في مركب فطرحتنا الريح إلى الجزيرة وإذا فيها رجل يعبد صنمًا، فقلنا له: يا رجل من تعبد؟ فأومأ إلى الصنم، فقلنا له: إن إلٰهك هذا مصنوع وعندنا مَن يصنع مثله، ما هذا بإلٰه يُعبد، قال: فأنتم مَن تعبدون؟ قلنا: نعبد الذي في السماء عرشه، وفي الأرض بطشه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه، تقدّست أسماؤه وجلت عظمته وكبرياؤه، قال: وما أعلمكم بهذا؟ قلنا: وجّه إلينا هذا الملك رسولاً كريمًا، فأخبرنا بذلك، قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: لمّا أدّى إلينا الرسالة، قبضه الملك إليه واختار له ما لديه، قال: فهل ترك عندكم من علامة؟ قلنا: نعم، ترك عندنا كتاب الملك، قال: فأروني كتاب الملك فإنه ينبغي أن تكون كتب الملوك حِسانًا، فأتيناه بالمصحف، فقال: ما أعرف هذا، فقرأنا عليه سورة، فلم يزل يبكي حتى ختمنا السورة، فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يُعصى، ثم أسلم وحَسُن إسلامه، وعلّمناه شرائع الدين وسُوَرًا من القرآن، فلما كان الليل صلّينا العشاء وأخذنا مضاجعنا، فقال: يا قوم هذا الإلٰه الذي دللتموني عليه إذا جنّ الليل ينام؟ قلنا: لا ينام يا عبد الله، هو عظيم حيّ قيّوم لا تأخذه سِنَة ولا نوم، قال: فبئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام، فأعجبنا كلامه؛ فلما عزمنا على الانصراف عنه قال: خذوني معكم فأخذناه، فلما قَدِمنا عبادان قلت لأصحابي: هذا قريب عهد بالإسلام، فجمعنا دراهم وأعطيناه، فقال: ما هذا؟ قلنا: دراهم تنفقها، فقال: لا إلٰه إلا الله، دللتموني على طريق لم تسلكوها، أنا كنت في جزيرة أعبد صنمًا من دونه فلم يضيّعني وأنا لا أعرفه، فكيف يضيّعني الآن وأنا أعرفه؟ فلما كان بعد ثلاثة أيام قيل لي إنه في الموت، فأتيته فقلت له: هل لك من حاجة؟ قال: قد قضى حوائجي مَن جاء بكم إلى الجزيرة، قال عبد الواحد: فغلبتني عيناي فنمت عنده، فرأيت روضة خضراء فيها قبّة وفي القبّة سرير وعلى السرير جارية حسناء لم يُرَ أحسن منها وهي تقول: بالله إلا

ما عجّلتم به إليَّ فقد اشتدّ شوقي إليه، فاستيقظت فإذا به قد فارق الدنيا، رحمه الله تعالى، فغسلته وكفّنته وواريته، فلما كان الليل رأيت في منامي تلك الروضة، وفيها تلك القبّة، وفي القبّة ذلك السرير، وعلى السرير تلك الجارية وهو إلى جانبها وهو يقرأ هذه الآية ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنِعْمَ عُقبى الدار﴾ [الرعد: ٢٣] رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الرابعة عشرة: عن الشيخ أبي عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه) قال: كنت عند الشيخ أبي إسحٰق إبراهيم بن ظريف، فأتى إليه إنسان فسأله، هل يجوز للإنسان أن يعقد على نفسه عقدة لا يحلّها إلا بنيل مطلوبه؟ فقال له: نعم، واستدلّ بحديث أبي لبابة الأنصاري رضي الله تعالى عنه في قصة بني قُريظة، وقوله ﷺ: «أما إنه لو أتاني لاستغفرت له، ولكنه إذ قد فعل ذلك بنفسه فدعوه حتى يحكم الله تعالى فيه»[(١)] قال: فسمعت هذه المسألة وعقدت على نفسي أني لا أتناول شيئًا إلا بإظهار قدرة، فمكثت ثلاثة أيام وكنت إذ ذاك أعمل صناعتي في الحانوت، فبينا أنا جالس على الكرسي إذ ظهر لي شخص بيده شيء في إناء، فقال لي: اصبر إلى العشاء تأكل من هذا، ثم غاب عني، فينما أنا في وِردي بين العشاءين إذا انشقّ الجدار وظهرت لي حوراء بيدها ذلك الإناء الذي كان بيد ذلك الشخص فيه شيء يشبه العسل، فتقدّمت إليَّ وألعقتني[(٢)] منه ثلاثًا فصعقت وغشي عليّ، ثم أفقت وقد ذهبت ولم يطب لي بعد ذلك طعام ولا شراب وأُشرِبَ قلبي تلك الصورة، فما استحسنت بعدها شخصًا ولا كنت أتمكن من سماع كلام الخلق، وأقمت على ذلك مدة.

(الحكاية الخامسة عشرة: عن مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه): أنه كان يومًا ماشيًا في أزقّة البصرة[(٣)]، فإذا هو بجارية من جواري الملوك راكبة ومعها الخدم، فلما رآها مالك نادى أيتها الجارية أيبيعك مولاك؟ فقالت: كيف قلت يا شيخ؟ قال: قلت أيبيعك مولاك؟ قالت: ولو باعني كان مثلك يشتريني؟ قال: نعم وخيرًا منك، فضحكت وأمرت به أن يُحمَل إلى دارها، فحُمِلَ فدخلت إلى مولاها فأخبرته، فضحك وأمر أن يُدخَل به إليه، فأُدخِل فأُلقيت له الهيبة في قلب السيد، فقال: ما حاجتك؟ فقال: بعني جاريتك، قال: أو تطيق أداء ثمنها؟ قال: قيمتها عندي نواتان مسوّستان، فضحكوا وقالوا: كيف كان ثمنها عندك هذا؟ قال: لكثرة عيوبها، قال: وما عيوبها؟ قال: إن لم تتعطّر

---

(١) أخرجه القرطبي في (التفسير ١٤/ ١٤٠).

(٢) ألعقه العسل ونحوه: جعله يلعقه.

(٣) البصرة: مرفأ في العراق على شط العرب، ومنه يصدر بترول العراق بحرًا. ازدهرت في القرن التاسع أيام العباسيين، وكانت مع الكوفة مهدًا للدروس اللغوية العربية، وهي مسقط رأس حسن البصري والأشعري والحريري. (الرسالة القشيرية ١٠٨).

Marfat.com

ذفرت، وإن لم تَسْتَك بخرت، وإن لم تمتشط وتدّهن قَمُلَت وشَعُثَت، وإن عمّرت عن قليل هرمت، ذات حيض وبول وأقذار وحزن وغمّ وأكدار، ولعلها لا تودّك إلا لنفسها، ولا تحبّك إلا لتنعمها، لا تفي بعهدك ولا تصدق في ودّك، ولا تخلف عليها أحدًا بعدك إلا رأته مثلك، وأنا أجد بدون ما سألت في جاريتك من الثمن جارية خلقت من سلالة الكافور[1] والمسك والزعفران والجوهر والنور لو مُزِجَ بريقها أجاج[2] لطاب، ولو دعى بكلامها ميت لأجاب، ولو بَدَا مِعصَمها للشمس لأظلمت دونه وكسفت، ولو بدا في الظلمات لأنارت به وأشرقت، ولو واجهت الآفاق بحليّها وحُللها لتعطّرت بها وتزخرفت، نشأت في رِياض المسك والزعفران وقضبان الياقوت والمرجان، وقصرت في خيام النعيم وغُذّيت بماء التسنيم[3]، لا تخلف عهدها ولا تبدل ودّها، فأيّهما أحقّ بدفع الثمن؟ قال: الذي وصفت؟ قال: فإنها الموجودة الثمن، القريبة الخطب في كلّ زمن، قال: فما ثمنها رحمك الله؟ قال: اليسير المبذول لنَيل الخطير المأمول، أن تتفرّغ في ليلك ساعة، فتصلي ركعتين تُخلِصهما لربك، وأن تضع طعامك فتذكر جائعك فتؤثره لله عزّ وجلّ على شهوتك، وأن ترفع عن الطريق حجرًا أو قذرًا، وأن تقطع أيامك بالبلغة والقلّة، وترفع همّك عن دار الغرور والغفلة فتعيش في الدنيا بعزّ القناعة، وتأتي إلى موقف الكرامة آمنًا غدًا، وتنزل في الجنة دار النعيم في جِوار الملك الكريم مخلدًا، فقال الرجل: يا جارية، أما سمعت ما قال شيخنا هذا؟ قالت: نعم، قال: أفصدق أم كذب؟ قالت: بل صدق وبرّ ونصح، قال: فأنت إذن حرّة لوجه الله تعالى، وضيعة كذا وكذا صدقة عليك، وأنتم أيها الخدّام أحرار، وضيعة كذا وكذا لكم، وهذه الدار بما فيها صدقة مع جميع مالي في سبيل الله تعالى، ثم مدّ يده إلى ستر خشن كان على بعض أبوابه فاجتذبه وخلع جميع ما كان عليه واستتر به، فقالت الجارية: لا عيش لي بعدك يا مولاي، فرمت بكسوتها ولبست ثوبًا خشنًا وخرجت معه، فودّعهما مالك بن دينار ودَعَا لهما، وأخذا طريقًا غيره، فتعبّدا جميعًا حتى جاء الموت، فنقلهما على حال العبادة رحمة الله عليهما.

(الحكاية السادسة عشرة: عن جعفر بن سليمان رحمه الله تعالى) قال: مررت أنا ومالك بن دينار رضي الله تعالى عنه بالبصرة؛ فبينما نحن ندور فيها مررنا بقصر يعمر، وإذا شاب جالس ما رأيت أحسن وجهًا منه، وإذا هو يأمر ببناء القصر ويقول افعلوا واصنعوا، فقال لي مالك: أما ترى إلى هذا الشاب وحُسْن وجهه وحرصه على هذا

---

(١) الكافور: شجر كبير من الفصيلة الغارية، ينبت في الهند والصين. تُتّخذ منه مادة عطرية بلّورية الشكل يميل لونها إلى البياض تُستعمل في الطب، وهو أصناف كثيرة (ج) كوافير.
(٢) الأجاج: الشديد الملوحة أو المرارة. (٣) التسنيم: ماء في الجنة.

Marfat.com

البناء، ما أحوجني إلى أن أسأل ربي أن يخلصه، فلعله يجعله من شباب أهل الجنة؛ يا جعفر ادخل بنا إليه، قال جعفر: فدخلنا إليه فسلّمنا عليه، فردّ السلام ولم يعرف مالكًا، فلما عرفه قام إليه، فقال: ألك حاجة؟ فقال: كم نويت أن تنفق على هذا القصر؟ قال: مئة ألف درهم، فقال: ألا تعطيني هذا المال فأضعه في حقه، وأضمن لك على الله عزّ وجلّ قصرًا في الجنة خيرًا من هذا القصر بولدانه وخدمه وقببه وخيمة من ياقوتة حمراء مرصّعة بالجواهر، ترابه الزعفران وملاطه[1] المسك أفيح من قصرك هذا، لا يخرب أبدًا، ولم تمسّه يد، ولم يَبْنِه بانٍ، بل قال له الجليل سبحانه: كن فكان، قال: فأجّلني الليلة وبكّر عليّ غدًا، فقال: نعم، قال جعفر: فبات مالك وهو يفكر في ذلك الشاب، فلما كان وقت السَّحَر دعا فأكثر من الدعاء، فلما أصبحنا غدونا فإذا بالشاب جالس على باب قصره، فلما عاين مالكًا هشّ إليه ثم قال: ما تقول فيما قلت بالأمس؟ قال: تفعل؟ قال: نعم، فأحضر البدر، ودعا بدواة وقرطاس[2] ثم كتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما ضمن مالك بن دينار لفلان بن فلان: إني قد ضمنت لك على الله تعالى قصرًا بدل قصرك بصفته كما وصفت، والزيادة على الله تعالى، واشتريت لك بهذا المال قصرًا في الجنة، أفيح من قصرك هذا، في ظلّ ظليل بقرب العزيز الجليل، ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الشاب، وحملنا المال، فما أمسى مالك حتى ما بقي مقدار قوت ليلة، وما أتى على الشاب أربعون يومًا حتى وجد مالك رضي الله عنه كتابًا موضوعًا في المحراب عندما انفتل من صلاة الغداة، فأخذه ونشره فإذا في ظهره مكتوب بلا مداد: هذه براءة من الله العزيز الحكيم لمالك بن دينار، وفّينا الشاب القصر الذي ضمنت له وزيادة سبعين ضعفًا، قال: فبقي مالك رضي الله تعالى عنه متعجّبًا وأخذ الكتاب، فقمنا فذهبنا إلى منزل الشاب فإذا الباب مسودّ والبكاء في الدار، فقلنا: ما فعل الشاب؟ قالوا: مات بالأمس، فأحضرنا الغاسل فقلنا له: ما فعلت أنت غسلته؟ قال: نعم، قال مالك: فحدّثنا كيف صنعت؟ قال: قال لي قبل الموت: إذا أنا متّ وغسلتني وكفّنتني اجعل هذا الكتاب بين كفني وبدني، فجعلت الكتاب بين كفنه وبدنه ودفنته معه، فأخرج مالك الكتاب، فقال الغاسل هذا الكتاب بعينه والذي قبضه، لقد جعلته بين كفنه وبدنه بيدي، قال: فكثر البكاء، فقام شاب فقال: يا مالك خذ مني مائتي ألف درهم واضمن لي مثل هذا، قال: هيهات كان ما كان وفات ما فات، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال: فكان مالك كلما ذكر الشاب بكى ودعا له، رحمة الله تعالى عليه.

(١) الملاط: الطين يُجعَل بين ساقي البناء أو ما يُطلى به الحائط من طين ونحوه.
(٢) الدّواة: المحبرة (ج) دوىً، ودويّ. القرطاس: الصحيفة التي يُكتَب فيها.

Marfat.com

(الحكاية السابعة عشرة: عن محمد بن السماك رضي الله تعالى عنه) قال: كان موسى بن محمد بن سليمان الهاشمي من أنعم بني أمية عيشًا وأرخاهم بالاً؛ يعطي نفسه شهوتها من صنوف اللذَّات في المأكل والمشرب والمَلبَس والطيب والجواري والغلمان، ليست له فكرة ولا همّة إلا في الذي هو فيه من عيشته ولذّته، وكان شابًا جميلاً، وجهه كاستدارة القمر، وكانت نعمة الله عليه سابغة[1] يستغلّ في كلّ حول نحوًا من ثلثمائة ألف درهم وثلاثة آلاف دينار، يصرف هذا كله فيما هو فيه من النعيم، وكان له مستشرف عالٍ يقعد فيه بالعشيات ويشرف فيه على الناس، له أبواب مشرّعة إلى الجادة[2]، وأبواب مشرّعة إلى بساتينه، وقد ضرب فيه قبّة عاج[3] مضببة بالفضة، مطليّة بالذهب، وهو على سرير عليه غلالة قصب، وعلى رأسه عمامة مكلّلة باللآلىء، ومعه في القبة ندماؤه وإخوانه، وقد وقف على رأسه الخدم والقينات بحذائه في مجلس خارج من القبة يراهنّ، إذا اشتهى سماع القينات نظر نحو الستارة، وإن أراد سكوتهنّ أومأ بيده إلى الستارة فأمسكن، هذا دأبه إلى أن يذهب الليل ويذهب عقله، فتخرج الندماء ويخلو مع مَن شاء، فإذا أصبح اشتغل بالنظر إلى اللاعبين بين يديه بالشطرنج[4] والنرد[5]، ولا يذكر بين يديه موت ولا مرض ولا سقم ولا شيء فيه ذكر الغمّ إلا ذكر الفرح والسرور والنوادر التي تضحك، ويتطيّب كل يوم بأنواع الطّيب والمشمومات مما يكون في أوانه حتى مضت له سبع وعشرون سنة، فبينما هو ذات ليلة في قبّته وقد مضى بعض الليل إذ سمع نغمة من حلق شجيّ خلاف ما يسمع من مطربيه، فأخذ بقلبه ولها عمّا كان فيه، وأومأ إليهم أن أمسكوا وأخرج رأسه من بعض طاقات القبّة إلى جهة الجادة يتسمّع الذي وقع بقلبه، فإذا النغمة ربما سمعها وربما خَفِيَت عليه، فصاح بغلمانه وقال: اطلبوا صاحب هذا الصوت، وكان قد عمل فيه الشراب، فخرج الغلمان يطوفون، فإذا هم بشاب نحيل الجسم دقيق العنق مصفرّ اللون ذابل الشفتين شعث الرأس، قد لصق بطنه بظهره، وعليه طمران[6] لا يتوارى بغيرهما، حافي القدمين قائم في المسجد يناجي ربه سبحانه وتعالى، فأخرجوه من المسجد، وانطلقوا به، لا يكلّمونه حتى وقفوا به بين يديه، فنظر إليه فقال: مَن هذا؟ فقالوا: صاحب النغمة التي سمعت، قال: أين أصبتموه؟ قالوا: في المسجد قائمًا يصلي

---

(١) أسبغ الله عليه النعمة: أتمها وأكملها.
(٢) الجادة: الطريق الأعظم تتفرع منه الطرق، أو وسط الطريق (ج) جواد.
(٣) العاج: ناب الفيل.
(٤) الشطرنج: لعبة تُلعب على رقعة ذات أربعة وستين مربعًا وتمثّل دولتين متحاربتين، ولها اثنتان وثلاثون قطعة مختلفة تمثل الملكين والوزيرين والخيّالة والقِلاع والفِيَلَة والجنود (مع). (هندية).
(٥) النَّرد: لعبة وضعها أحد ملوك الفُرس وتُعرَف بطاولة اللعب (مع).
(٦) الطِّمْرُ: الثوب الخَلَق البالي (ج) أطمار.

Marfat.com

ويقرأ، فقال: أيها الشاب ما كنت تقرأ؟ قال كلام الله عزّ وجلّ، قال: فأسمعني تلك النغمة، فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ [الانفطار: ١٣] إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿عينًا يشرب بها المقرّبون﴾ [المطفّفين: ٢٨] أيها المغرور إنها خلاف مجلسك ومستشرفك وفرشك، إنها أرائك مفروشة بفرش مرفوعة، بطائنها من استبرق[١] على رفرف خضر وعبقريّ حسان يشرف وليّ الله تعالى منها على عينين تجريان في جنتين فيهما من كل فاكهة زوجان، لا مقطوعة ولا ممنوعة، في عيشة راضية، في جنة عالية لا يسمع فيها لاغية، فيها عين جارية، فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق[٢] مصفوفة، وزرابيّ[٣] مبثوثة، في ظلال وعيون، أكلها دائم وظلّها، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار، نار وأيّ نار؟ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون في ضلال وسُعُر، يوم يُسحَبون في النار على وجوههم، ذوقوا مسّ سقر، في سموم وحميم وظلٍّ من يحموم، يودّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبتهِ وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، ومَن في الأرض جميعًا ثم يُنجيه، كلا إنها لظَى نزّاعة للشوى، تدعو مَن أدبر وتولى، وجمع فأوعى، في جهد جهيد، وعذاب شديد، ومقت من ربّ العالمين، وما هم منها بمخرجين، فقام الهاشمي من مجلسه، وعانق الشاب، وبكى وصاح وقال: انصرفوا عني، وخرج إلى صحن داره، وقعد على حصير مع الشاب، ينوح على شبابه، ويندب نفسه، والشاب يعظه إلى أن أصبح، وقد عاهد الله تعالى أن لا يعود لمعصيته أبدًا؛ فلما أصبح أظهر توبته، ولزم المسجد والعبادة، وأمر بالذهب والفضة والجواهر والملابس فبِيعَت كلها، وتصدّق بها، وقطع الأُجراء عن نفسه، وردّ الضِّياع المقتطعة، وباع ضياعه وعبيده وجواريه، وأعتق مَن اختار العتق وتصدّق به كله، ولبس الصوف الخشن وأكل الشعير، وكان يحيي الليل كله ويصوم النهار، حتى كان يزوره الصالحون والأخيار ويقولون له: ارفق بنفسك فإن المولى كريم، يشكر اليسير، ويُثيب عليه الكثير فيقول: يا قوم أنا أعرف بنفسي، جرمي عظيم إن عصيت مولاي في الليل والنهار، ويبكي ويُكثِر البكاء، ثم خرج حاجًا على قدميه حافيًا، ما عليه إلا خيشة، وما معه إلا ركوة[٤] وجراب[٥]، حتى قدِمَ مكة وقضى حجّه، فأقام بها إلى أن توفي رحمه الله تعالى، وكان يدخل الحجر بالليل وينوح على نفسه ويقول: سيدي كم لم أراقبك في خلواتي، كم أبارزك بالمعاصي، سيدي ذهبت حسناتي

---

(١) الاستبرق: الديباج الغليظ.
(٢) النمارق: (ج) النُّمرق: الوسادة الصغيرة، أو الوسادة الصغيرة يجعلها الراكب تحته على الرَّحل.
(٣) الزرابي: (ج) الزِّربية: البساط أو السجادة. أو الوِسادة تُبسَط ليُتَّكأ عليها.
(٤) الركوة: إناء صغير من جلد يُشرَب به الماء (ج) رِكاء وركوات.
(٥) الجِراب: وعاء يُحفَظ فيه الزاد ونحوه (ج) جُرب وأجربة.

Marfat.com

وبقيت تبعاتي فالويل لي يوم ألقاك، والويل لي ثم الويل لي من صحيفتي إذا نشرت، مملوءة من فضائحي وخطيئاتي، بل حلّ لي الويل من مقتك إياي وتوبيخك لي في إحسانك إليّ. ومقابلة نعمتك بالمعاصي وأنت مطّلع على فعالي؛ سيدي إلى مَن أهرب إلا إليك، وإلى مَن ألتجىء وعلى من أعتمد إلا عليك؟ سيدي إني لا أستأهل أن أسألك الجنة، بل أسألك بجودك وكرمك وفضلك أن تغفر لي وترحمني فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة، وأنشدوا في هذا المعنى:

عصيتك جاهلاً يا ذا المعالي ... ففرّج ما ترى من سوء حالي
إلى من يرجع المملوك إلا ... إلى مولاه يا مولى الموالي

وقد ألحقت هذين البيتين بثالث فقلت:

فإنك أهل مغفرة وعفو ... وتوّاب ومفضال النَّوال

(الحكاية الثامنة عشرة): حُكِيَ أنه كان لهارون الرشيد[(١)] ولد قد بلغ من العمر ست عشرة سنة، وكان قد وافق الزهّاد والعبّاد، وكان يخرج إلى المقابر ويقول: قد كنتم قبلنا وقد كنتم تملكون الدنيا، فما أراها مُنجيتكم وقد صرتم إلى قبوركم، فيا ليت شعري ما قلتم وما قيل لكم؟ ويبكي بكاءً شديدًا، وكان رضي الله تعالى عنه ينشد:

تروّعني الجنائز كل يوم ... ويحزنني بكاء النائحات

فلما كان في بعض الأيام مرّ على أبيه وحوله وزراؤه وكبار دولته وأهل مملكته، وعليه جبّة صوف وعلى رأسه مِئزر صوف، فقال بعضهم لبعض: لقد فضح هذا الولد أمير المؤمنين بين الملوك، فلو عاتبه لعله يرجع عمّا هو عليه، قال: فكلّمه في ذلك وقال: يا بنيّ لقد فضحتني بما أنت عليه، فنظر إليه ولم يجبه، ثم نظر إلى طائر وهو على شرافة من شراريف القصر، فقال: أيها الطائر، بحقّ الذي خلقك إلا جئت على يديّ، فانقضّ الطائر على كفّ الغلام، ثم قال له: ارجع إلى موضعك، فرجع إلى موضعه، فقال: بحقّ من خلقك إلا ما سقطت في كفّ أمير المؤمنين، فما نزل، فقال له الغلام: أنت الذي فضحتني بحبك الدنيا، وقد عزمت على مفارقتك، ففارقه ولم يتزوّد منه بشيء إلا مصحف كريم وخاتم، وانحدر إلى البصرة، وكان يعمل مع الفعلة في الطين، وكان لا يعمل إلا يوم السبت بدرهم[(٢)]

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٨/٦٢؛ وفي البداية والنهاية ١٠/٢١٣؛ واليعقوبي ٣/١٣٩؛ والذهب المسبوك للمقريزي ٤٧ ـ ٥٨؛ وابن الأثير ٦/٦٩؛ والطبري ١٠/٤٧ ـ ١١٠.

(٢) الدرهم: (مع) فارسية: الفضة المطبوعة المُتعامَل بها، أو هي وِحدة للوزن قديمة تعادل في مصر (٣,١٢) غرامًا، وفي دمشق (٣,٢) غرامًا. وأطلقها المولدون على النقود كافة (ج) دراهم.

Marfat.com

ودانق[١] يتقوّت في كل يوم دانقًا، قال أبو عامر البصري: وقد كان وقع في جداري حائط، فخرجت أطلب مَن يعمل لي في الحائط، إذ رأيت غلامًا لم أرَ أحسن منه وجهًا وبين يديه زنبيل[٢] وهو يقرأ في مصحف، فقلت له: يا غلام أتعمل؟ فقال: ولِمَ لا أعمل وللعمل خُلِقتُ؟ ولكن أخبرني في أيّ الأعمال تستعملني؟ فقلت: في الطين، فقال: بدرهم ودانق وأصلّي صلاتي فقلت لك ذلك، ثم مضيت به إلى العمل وتركته يعمل، فلما كان المغرب جئته فوجدته قد عمل عمل عشرة رجال، فوزنت له درهمين، فقال: يا أبا عامر ما أصنع بهذا؟ وأبى أن يقبل، فوزنت له درهمًا ودانقًا، فلما كان الغد خرجت إلى السوق في طلبه فلم أجده، فسألت عنه، فقيل لي: إنه لا يعمل إلا يوم السبت ولا تراه إلا يوم السبت الثاني، فأخّرت العمل إلى السبت الثاني، ثم أتيت السوق فإذا هو على تلك الحال، فسلّمت عليه ثم عرضت عليه العمل، فقال كمقالته الأولى، فمضيت به إلى العمل، فوقفت أنظر إليه من بعيد وهو لا يراني، فأخذ كفًّا من الطين وتركه على الحائط وإذا الحجارة يتركّب بعضها على بعض، فقلت: هكذا أولياء الله تعالى مُعانون؛ فلما أراد أن ينصرف وزنت له ثلاثة دراهم فأبى أن يقبل إلا درهمًا ودانقًا، فوزنت له ذلك؛ فلما كان السبت الثالث جئت إلى السوق فلم أره، فسألت عنه، فقيل لي: له ثلاثة أيام وجع في خرابة يعالج سكرات الموت، فوهبت أُجرة لمَن يدلّني عليه، ومشينا حتى وقفنا عليه، في خراب بلا باب، وإذا هو مغشيٌّ عليه، فسلّمت عليه وإذا تحت رأسه نصف لَبِنَة وهو في حال الموت، فسلّمت عليه ثانية فعرفني، فأخذت رأسه وجعلتها في حِجري، فمنعني من ذلك وأنشأ يقول:

يا صاحبي لا تغترر بتنعّم ... فالعمر ينفد والنعيم يزول
وإذا علمت بحال قوم مرّة ... فاعلم بأنك عنهم مسؤول
وإذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول

ثم قال: يا أبا عامر إذا فارقت روحي جسدي، فغسّلني وكفّني في جبتي هذه، فقلت: يا حبيبي ولِمَ لا أكفّنك في ثياب جديدة، فقال لي: الحيّ أحوج إلى الجديد من الميت، الثياب تبلى والعمل يبقى، وخُذ زنبيلي ومِئزري فادفعهما للحفّار، وخذ هذا المصحف والخاتم وامض بهما إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد، ولا تدفعهما إلا من يدك إلى يده وقل له: يا أمير المؤمنين معي وديعة من غلام غريب وهو يقول لك: لا تموتنّ على غفلتك هذه أو قال: على غرّتك هذه، ثم خرجت روحه رضي الله تعالى عنه، فعلمت أنه ولد الخليفة وعملت بجميع ما أوصاني به، وأخذت المصحف والخاتم

---

(١) الدانق: سدس الدرهم (ج) دوانق ودوانيق. (٢) الزنبيل: القفة (ج) زنابيل.

ودخلت بغداد، وقصدت قصر الخليفة هارون الرشيد، ووقفت على موضع مُشرِف؛ فخرج موكب عظيم فيه تقدير ألف فارس، ثم تبعه عشرة مواكب في كلّ موكب ألف فارس، وخرج أمير المؤمنين في الموكب العاشر؛ فناديت بقرابتك من رسول الله ﷺ يا أمير المؤمنين إلا ما وقفت لي قليلاً، فلما رآني قلت: يا أمير المؤمنين معي وديعة من غلام غريب، ثم دفعت إليه المصحف والخاتم وقلت له: هذا ما أوصاني به، فنكس رأسه وأسبل دمعته وأوصى عليّ بعض الحجّاب وقال: ليكن هذا عندك إلى أن أسألك عنه: فلما رجع هو وأصحابه أمر بالستور فرُفِعَت، ثم قال للحاجب: هات الرجل وإن كان يجدّد عليّ أحزاني، فقال لي الحاجب: يا أبا عامر إن أمير المؤمنين محزون مهموم، فإذا أردت أن تكلمه عشر كلمات فاجعلها خمسًا، فقلت: نعم ودخلت عليه، فإذا مجلسه خالٍ، فلما رآني قال: اذنُ مني، يا أبا عامر، فدنوت منه، فقال: أتعرف ولدي؟ قلت: نعم، قال: في أيّ شيء كان يعمل؟ قلت: في الطين والحجارة، قال: استعملته أنت؟ قلت: نعم، فقال: استعملته وله اتصال برسول الله ﷺ؟ فقلت: المعذرة لله تعالى ثم إليك يا أمير المؤمنين، فإني ما علمت مَن هو إلا عند وفاته، قال: أنت غسلته بيدك؟ قلت: نعم، قال: هات يدك، فأخذها ووضعها على صدره وهو يقول: بأبي كيف كفّنت العزيز الغريب؟ ثم أنشأ يقول:

يا غريبًا عليه قلبي يذوب ... ولعيني عليه دمع سكوب
يا بعيد المكان حزني قريب ... كدر الموت كل عيش بطيب
كان بدرًا على قضيب لجين[1] ... فهوى البدر في الثرى والقضيب

قال: ثم تجهز وخرج إلى البصرة وأنا معه حتى انتهى إلى القبر، فلما رآه غشي عليه، فلما أفاق أنشد هذه الأبيات:

يا غائبًا لا يؤوب من سفره ... عاجله موته على صغره
يا قرّة العين كنت لي أنسًا ... في طول ليلي نعم وفي قصره
شربت كأسًا أبوك شاربها ... لا بد من شربها على كبره
أشربها والأنام كلهم ... مَن كان من بدوه ومن حضره
فالحمد لله لا شريك له ... قد كان هذا القضاء من قدره

قال أبو عامر: فلما كان تلك الليلة، قضيت وِردي واضطجعت، وإذا بقبّة من نور عليها سحاب من نور، وإذا قد كشف السحاب فإذا الغلام ينادي: يا أبا عامر جزاك الله عني خيرًا، فقلت: يا ولدي إلى ماذا صرت؟ قال: إلى ربٍّ كريم راضٍ غير غضبان؛ أعطاني ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وآلى على نفسه أن لا

(١) اللّجين: الفضة.

Marfat.com

يخرج عبد من الدنيا مثل خروجي إلا أكرمه مثل كرامتي، فاستيقظت فرحًا به وبما قال لي، وبشّرني به رضي الله تعالى عنه. قلت: وقد حكيت هذه الحكاية على غير هذه الصفة من طريق آخر، قال الراوي: سُئِلَ هارون الرشيد عنه فقال: إنه وُلِدَ لي قبل أن أبتلي بالخلافة، فنشأ نشئًا حسنًا، وتعلّم القرآن والعلم؛ فلما وُلِّيتُ الخلافة تركني ولم يَنَل من دنياي شيئًا، فدفعت إليه أمه هذا الخاتم وهو ياقوت يساوي مالاً كثيرًا، وقلت لها: تدفعين هذا إليه؟ وكان برًّا بأمه رحمة الله تعالى عليه.

(الحكاية التاسعة عشرة: عن عبد الله بن مهران رحمه الله تعالى) قال: حجّ هارون الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أيامًا، ثم ضرب بالرحيل، فخرج الناس وخرج بهلول المجنون رضي الله تعالى عنه فيمن خرج، فجلس بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به، إذ أقبلت هوادج[١] هارون فكفّ الصبيان عن الولوع به، فلما جاء هارون نادى البهلول بأعلى صوته: يا أمير المؤمنين، يا أمير المؤمنين، فكشف هارون السجاف[٢] بيده وقال: لبّيك يا بهلول لبّيك يا بهلول، فقال: يا أمير المؤمنين، حدّثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال: «رأيت النبي ﷺ بمِنى على جمل وتحته رَحْل[٣] رثّ، فلم يكن ضرب ولا طرد ولا إليك إليك، وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبّرك وتجبّرك»[٤]. فبكى هارون حتى سقطت الدموع على الأرض ثم قال: يا بهلول زدنا يرحمك الله تعالى، فقال:

هب أنك قد ملكت الأرض طرًّا ... ودان لك العباد فكان ماذا؟

أليس غدًا مصيرك جوف قبر ... ويحثو الترب هذا ثم هذا؟

فبكى هارون ثم قال: أحسنت يا بهلول، هل غيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، رجل آتاه الله مالاً وجمالاً فأنفق من ماله وعفّ في جماله كتب في خالص ديوان الله تعالى من الأبرار، فقال: أحسنت يا بهلول مع الجائزة، فقال: اردد الجائزة على مَن أخذتها منه فلا حاجة لي فيها، قال: يا بهلول إن يكن عليك دَين قضيناه فقال: يا أمير المؤمنين لا يقضي دَين بدَين، اردد الحق إلى أهله، واقضِ دَين نفسك من نفسك، فقال: يا بهلول فنجري عليك ما يكفيك، فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال: يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عباد الله تعالى فمُحال أن يذكرك وينساني. فأسبل هارون السجاف ومضى:

---

(١) الهوادج: مفردها الهودج: مقصورة من الخشب ذات قبّة توضع على ظهر الجمل تكون مركبًا للنساء.

(٢) السّجاف: الستر أو ما يُركّب على حواشي الثوب (ج) سُجُف.

(٣) الرّحل: ما يوضع على ظهر البعير أو الناقة لركوب الرجال.

(٤) أخرجه ابن ماجه (مناسك ٤).

(الحكاية العشرون): حُكِيَ أنه لمّا خرج هارون الرشيد حاجًا إلى مكة، فُرِشَ له من جوف العراق إلى الحرم لبود[١] مرعزي[٢]، وكان حلف أن لا يحجّ إلا راجلاً، فاستند يومًا إلى ميل وقد تعب، وإذا بسعدون المجنون قد عارضه وهو يقول:

هب الدنيا تواتيكا أليس الموت يأتيكا فما تصنع بالدنيا
وصل الميل يكفيكا ألا يا طالب الدنيا دع الدنيا لشانيكا
كما أضحكك الدهر كذاك الدهر يبكيكا

قال: فشهق هارون الرشيد شهقة خرّ مغشيًا عليه حتى فاتته ثلاث صلوات، فلما أفاق طلبه فلم يقع له على أثر وبقي متلهفًا عليه. ويُروَى أن هارون قال في حجته هذا الكلام: الركوب على الخنافس[٣] ولا المشي على الطنافس[٤].

(الحكاية الحادية والعشرون: عن محمد بن الصباح رحمه الله تعالى) قال: خرجنا نستسقي[٥] بالبصرة، فلما أصحرنا إذا نحن بسعدون المجنون قاعدًا على الطريق، فلما رآني قام وقال لي: أين؟ قلت: نستسقي، قال: بقلوب سماوية، أم بقلوب خاوية؟ قلت: سماوية، قال: فاجلسوا هٰهنا واستسقوا، فجلسنا حتى ارتفع النهار وما تزداد السماء إلا صحوًا ولا الشمس إلا حرًّا فنظر إلينا وقال: يا بطّالون لو كانت قلوبكم سماوية لسقيتم، ثم توضأ وصلّى ركعتين ولحظ إلى السماء بطرفه فتكلم بكلام لم أفهمه، فوالله ما استتمّ كلامه حتى رعدت السماء وأبرقت وأمطرت مطرًا جيدًا، فسألناه عن الكلام الذي تكلم به فقال: إليكم عني، إنما هي قلوب حنّت فرنّت فعاينت فعلمت وعملت وعلى ربها توكلت، ثم أنشأ يقول:

أعرض عن الهجران والتمادي وارحل لمولى مُنعِم جواد
ما العيش إلا في جِوار قوم قد شربوا من صافي الوداد

(الحكاية الثانية والعشرون: عن مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه) قال: دخلت جبّانة[٦] البصرة فإذا أنا بسعدون المجنون رضي الله تعالى عنه، فقلت له: كيف حالك

---

(١) اللبود: (ج) اللبدة: ما تلبد من شعر أو صوف أو نحوهما أو: غطاء من أغطية الرأس يُتّخذ من الصوف المتلبّد.
(٢) المرعزيّ: نوع من المعزى جيد الشعر.
(٣) الخنافس: (ج) الخنفساء: حشرة سوداء من مغمدات الأجنحة، أصغر من الجُعل، منتنة الريح.
(٤) الطنافس: (ج) الطنفسة: البساط.
(٥) استسقى فلان: طلب السُّقيا. وهو أن يطلب الإنسان من الله تعالى إنزال المطر عند شدّة الحاجة إليه.
(٦) الجبّانة: المقبرة والصحراء.

وكيف أنت؟ فقال: يا مالك كيف يكون حال مَن أصبح وأمسى يريد سفرًا بعيدًا بلا أُهْبة ولا زاد، ويُقدِم على ربّ عدل حاكم بين العباد، ثم بكى بكاءً شديدًا، فقلت: ما يُبكيك؟ فقال: والله ما بكيت حرصًا على الدنيا ولا جزعًا من الموت والبلاء، ولكن بكيت ليوم مضى من عمري لم يَحْسُن فيه عملي، أبكاني والله قلّة الزّاد وبُعْدُ المفازة والعقبة الكؤود، ولا أدري بعد ذلك أصير إلى الجنة أم إلى النار؟ فسمعت منه كلام حكمة فقلت: إن الناس يزعمون أنك مجنون، فقال: وأنت اغتررت بما اغترّ به بنو الدنيا، زعم الناس أني مجنون وما بي جُنّة، ولكن حبّ مولاي قد خالط قلبي وأحشائي، وجرى بين لحمي ودمي وعظامي، فأنا والله من حبّه هائم مشغوف، فقلت: يا سعدون فلِمَ لا تجالس الناس وتخالطهم؟ فأنشأ يقول:

كُن من الناس جانبًا وارضَ بالله صاحبا
قلّب الناس كيف شئـ ـت تجدهم عقاربا

وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

وما زلت مُذ لاح المشيب بمفرقي أفتّش عن هذا الورى ثم أكشف
فما إن عرفت الناس إلا ذممتهم جزى الله خيرًا كل مَن لست أعرف
فما كل مَن تهوى يحبك قلبه ولا كل مَن تحبب يكن لك مُنصِف
وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت تألف

(الحكاية الثالثة والعشرون: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه)

قال: بينما أنا أطوف وقد هدأت العيون ببيت الله الحرام إذ أنا بشخص قد حاذى البيت وهو يقول: ربّ عبدك المسكين الطريد الشريد من بين يديك، أسألك من الأمور أقربها ومن الطاعات أحبّها، وأسألك بأصفيائك من خلقك الكرام من الأنبياء عليه الصلاة والسلام، إلا سقيتني بكأس محبتك، وكشفت عن قلبي أغطية جهل معرفتك، حتى أرقى بأجنحة الشوق إليك، فأناجيك في أركان الحق بين رِياض العرفان، ثم بكى حتى سمعت وقع دموعه على الحصى ثم ضحك وانصرف، فتبعته وقلت في نفسي: هذا إما عارف وإما مجنون، فخرج من المسجد وأخذ نحو خراب مكة ثم التفت إليّ وقال: ما لك ارجع أمامك، فقلت: ما اسمك يرحمك الله؟ قال: عبد الله. قلت: ابن مَن؟ قال: ابن عبد الله، قلت: قد علمت أن الخلق كلهم عبيد الله وبنو عبيده، فما اسمك؟ قال: سمّاني أبي سعدون، قلت: المعروف بالمجنون؟ قال: نعم، قلت: فمَن القوم الذين سألت الله تعالى بهم وبحرمتهم؟ قال: أولئك قوم ساروا إلى الله تعالى سيرًا مَن نصب المحبة بين عينيه وتجرّدوا تجرّد مَن أخذت الزبانية بقلبه ثم التفت إليّ وقال: يا ذا النون، قلت: نعم، قال: بلغني أنك تقول قل شيئًا أسمع

Marfat.com

من أسباب المعرفة، قلت: أنت الذي يقتبس من علمك؟ فقال: حق السائل الجواب، ثم أنشأ يقول:

قلوب العارفين تحنّ حتى تحلّ بقربه في كل راح
صفت في ودّ مولاها فليست لها عن ودّ مولاها براح

(الحكاية الرابعة والعشرون) قيل: كان سعدون المجنون رضي الله تعالى عنه يدور في شوارع البصرة ويقف على كل دار مرّ بها ويقرأ ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ [الحج: ١] ويبكي وينشد:

فلو لم يكن شيء سوى الموت والبلى وتفريق أعضاء ولحم مبدد
لكنت حقيقًا يا ابن آدم بالبكا على نائبات الدهر مع كل مسعد

وكان إذا اشتدّ به الجوع أنشد:

إلهي أنت قد آليت حقًّا بأنك لا تضيع من خلقتا
وأنك ضامن للرزق حتى تؤدي ما ضمنت كما قسمتا
وإني واثق بك يا إلهي ولكنّ القلوب كما علمتا

وكان عليه جبّة صوف مكتوب على كمّها الأيمن سطر:

عصيت مولاك يا سعيد ما هكذا تفعل العبيد

وعلى الكمّ الأيسر مكتوب سطران:

تبًّا لمن قُوته رغيف يأتي به السيد اللطيف
يعصي إلهًا له جلال وهو به راحم رؤوف

ومن خلفه سطران:

كل يوم يمرّ يأخذ بعضي يذهب الأطيبين شيء ويمضي
نفس كُفّي عن المعاصي وتوبي ما المعاصي على العِباد بفرضِ

ومن بين يديه سطران:

أيها الشامخ الذي لا يرام نحن من طينة عليك السلام
إنما هذه الحياة متاع ثم موت به تساوي الأنام

وعلى عكّازه[1] مكتوب سطران:

اعمل وأنت بذي الدنيا على وَجَل واعلم بأنك بعد الموت مبعوث

(١) العُكازة: عصا يُتَوكأ عليها (ج) عكاكيز وعكازات.

Marfat.com

واعلم بأنك ما قدّمت من عمل يُحصَى عليك وما خلفت موروث

فقيل له: أنت حكيم لست بمجنون، فقال: أنا مجنون الجوارح لست بمجنون القلب، ثم ولّى هاربًا رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الخامسة والعشرون: عن أبي الجوال المغربي رحمه الله تعالى) قال: كنت جالسًا مع رجل صالح ببيت المقدس وإذا قد طلع علينا شاب والصبيان حوله يقذفونه بالحجارة ويقولون: مجنون، فدخل المسجد وهو ينادي: اللَّهمَّ ارحمني من هذه الدار، فقلت له: هذا كلام حكيم فمن أين لك هذه الحكمة؟ فقال: مَن أخلص له الخدمة أورثه طرائف الحكمة، وأيّده بأسباب العصمة وليس بي جنون وزلق بل قلق وفرق، ثم جعل يقول:

هجرت الورى في حبّ مَن جاد بالنّعم وعفت الكرى شوقًا إليه فلم أنم
وموّهت ذهني بالجنون على الورى لأكتم ما بي من هواه فما انكتم
فلما رأيت الشوق بالحبّ بائحًا كشفت قناعي ثم قلت: نعم نعم
فإن قيل مجنون فقد جنّني الهوى وإن قيل مسقام فما بي من سقم
وحقّ الهوى والحبّ والعهد بيننا وحُرمة روح الأنس في حندس الظلم[1]
لقد لامني الواشون فيك جهالة فقلت لطرفي أفصح العذر فاحتشم
فعاتبهم طرفي بغير تكلم وأخبرهم أن الهوى يورث السقم
فبالحلم يا ذا المنّ لا تبعدنني وقرب مزاري منك يا بارىء النسم

قال: فقلت: أحسنت لقد غلط مَن سمّاك مجنونًا فنظر إليَّ وبكى وقال أو لا تسألني عن القوم كيف وصلوا فاتصلوا؟ قلت: بلى أخبرني، فقال: طهّروا الأخلاق، ورضوا منه بيسير الأرزاق، وهاموا من محبته في الآفاق واتّزروا بالصدق وارتدوا بالإشفاق، وباعوا العاجل الفاني بالآجل الباقي، وركبوا في ميدان السباق، وشمّروا تشمير الجهابذة[2] الحذّاق، حتى اتصلوا بالواحد الرزّاق، فشرّدهم في الشواهق وغيبهم عن الخلائق، لا تؤويهم دار ولا يقرّ بهم قرار، فالنظر إليهم اعتبار ومحبتهم افتخار، وهم صفوة أبرار ورهبان أحبار، ومدحهم الجبار ووصفهم النبي المختار، إن حضروا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا وإن ماتوا لم يشهدوا، ثم أنشأ يقول:

كن من جميع الخلق مستوحشًا مستأنسًا بالواحد الحق

(١) الحندس: الظلمة.

(٢) الجهابذة: (ج) الجهبذ: النقّاد الخبير بغوامض الأمور.

واصبر فبالصبر تنال المنى		وارضَ بما يجري من الرزق
واحذر من النطق وآفاته		فآفة المؤمن في النطق
وجدّ في السير وشمّر كما		شمّر أهل السّبق للسّبق
أولئك الصفوة ممّن سَمَا		وخيرة الله من الخلق

قال: فأُنسيت الدنيا عند حديثه، ثم ولّى هاربًا وأنا متأسف عليه رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية السادسة والعشرون: عن ابن القصاب الصوفي رحمه الله تعالى) قال: دخلنا جماعة إلى المارستان[١]، فرأينا فيه فتًى مُصابًا شديد الهوس[٢]، فولعنا به وزدنا في الولع فاتبعناه، فصاح وقال: انظروا إلى ثياب مطرزة وأجساد معطرة، قد جعلوا الولع بضاعة والسّخف صناعة، وجانبوا العلم رأسًا، ليسوا من الناس ناسًا، فقلنا له: أفتُحسِن العلم فنسألك؟ فقال: إي والله إني لأُحسِن علمًا جمًّا فاسألوني، فقلنا: مَن السخيّ في الحقيقة؟ فقال: الذي رزق أمثالكم وأنتم لا تُساوون قُوت يوم، فضحكنا وقلنا: مَن أقلّ الناس شكرًا؟ فقال: مَن عُوفِيَ من بَلِيّة ثم رآها في غيره، فترك العبرة والشكر واشتغل بالبطالة واللهو، قال: فكسر قلوبنا، وسألناه عن بعض الخصال المحمودة فقال: خلاف ما أنتم عليه، ثم بكى وقال: يا ربّ إن لم تردّ عليّ عقلي فرُدَّ عليّ يدي لعلي أصفع كل واحد من هؤلاء صفعة، فتركناه وانصرفنا.

(الحكاية السابعة والعشرون: عن عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه) قال: سألت الله عز وجلّ ثلاث ليالٍ أن يُريني رفيقي في الجنة، فقيل لي: يا عبد الواحد رفيقك في الجنة ميمونة السوداء، فقلت: وأين هي؟ فقيل لي: في بني فلان بالكوفة فخرجت إلى الكوفة وسألت عنها، فقالوا: هي مجنونة ترعى غُنَيمات، فقلت: أُريد أن أراها فقالوا: اخرج إلى الجبّانة فخرجت فإذا هي قائمة تصلّي وإذا بين أيديها عكاز وعليها جبّة صوف مكتوب عليها: لا تُباع ولا تُشتَرى، وإذا الغنم مع الذئاب فلا الذئاب تأكل الغنم ولا الغنم تخاف من الذئاب، فلما رأتني أوجزت في صلاتها ثم قالت: ارجع يا ابن زيد فليس الموعد هٰهنا إنما الموعد غدًا، فقلت: يرحمك الله مَن أعلمك أني ابن زيد؟ فقالت: أما علمت أن الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف؟ فقلت لها: عِظِيني، فقالت: واعجبًا لواعظ يُوعَظ، إنه بلغني ما من عبد أعطي من الدنيا شيئًا فابتغى إليه ثانيًا إلا سلبه الله حبّ الخلوة معه وبدّله بعد

---

(١) المارستان (مع): المصحة أو المستشفى (ج) مارستانات.

(٢) الهوس: طرف من الجنون.

Marfat.com

القُرْب بُعْد أو بعد الأنس وحشة، ثم أنشأت تقول:

يـا واعـظًـا قـام لاحـتـسـاب ... تـزجـر قـومًـا عـن الـذنـوب
تـنـهـى وأنـت الـسـقـيـم حـقًّـا ... هـذا مـن الـمـنـكـر الـعـجـيـب
لـو كـنـت أصـلـحـت قـبـل هـذا ... عـيـبـك أو تـبـت مـن قـريـب
كـان لـمـا قـلـت يـا حـبـيـبـي ... مـوضـع صـدق مـن الـقـلـوب
تـنـهـى عـن الـغـيّ والـتـمـادي ... وأنـت فـي الـنـهـي كـالـمـريـب

فقلت لها: إني أرى هذه الذئاب مع الغنم، فلا الغنم تفزع من الذئاب ولا الذئاب تأكل الغنم، فلأيّ شيء هذا؟ فقالت: إليك عني، فإني أصلحت ما بيني وبين سيدي، فأصلَحَ ما بين الذئاب والغنم رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها آمين.

(الحكاية الثامنة والعشرون: عن أبي الربيع) قال: بتّ أنا ومحمد بن المنكدر[1] وثابت البناني عند ريحانة المجنونة رضي الله تعالى عنها وعنهم أجمعين، قال: فقامت أول الليل وهي تقول:

قـام الـمـحـبّ إلـى الـمـؤمـل قـومـة ... كـاد الـفـؤاد مـن الـسـرور يـطـيـر

فلما كان جوف الليل سمعنا هاتفًا يقول:

لا تـأنـسـنّ بـمَـن تـوحـشـك نـظـرتـه ... فـتـمـنـعـنّ مـن الـتـذكـار فـي الـظـلـم
واجهد وكدّ وكن في الليل ذا شجن ... يـسـقـيـك كـأس وداد الـعـزّ والـكـرم

فلما ذهب الليل نادت: واحزناه؛ واسلباه، فقلت: مِمَّ ذا؟ فقالت:

ذهـب الـظـلام بـأنـسـه وبـإلـفـه ... لـيـت الـظـلام بـأنـسـه يـتـجـدّد

(الحكاية التاسعة والعشرون: عن عتبة الغلام رضي الله تعالى عنه) قال: خرجت من البصرة فإذا أنا بخباء[2] أعراب قد زرعوا زرعًا، وإذا بخيمة مضروبة، وإذا في الخيمة جارية مجنونة عليها جبّة صوف مكتوب عليها لا تُباع ولا تُشترَى فدنوت منها فسلّمت عليها فلم تردّ عليّ السلام ثم سمعتها تقول:

أفـلـح الـزاهـدون والـعـابـدونـا ... إذا لـمـولاهـم أجـاعـوا الـبـطـونـا

---

(١) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير بن عبد العزّى القرشي التيمي (٥٤ ـ ١٣٠ هـ = ٦٧٤ ـ ٧٤٨ م) المدني، زاهد، من رجال الحديث من أهل المدينة. أدرك بعض الصحابة وروى عنهم. له نحو مئتي حديث. الأعلام ٧/ ١١٢؛ وتاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ١٥٥ ـ ١٥٨؛ وتهذيب التهذيب ٩/ ٤٧٣.

(٢) الخِباء: البيت من الشعر أو الوبر يُقام على عمودين أو ثلاثة، وما فوق ذلك فهو بيت (ج) أخبية.

Marfat.com

أسهروا الأعين القريحة فيه ... فمضى ليلهم وهم شاهدونا
حيّرتهم محبة الله حتى ... حسب الناس أن فيهم جنونا
هم ألبا ذوو عقول ولكن ... قد شجاهم جميع ما يعرفونا

قال: فدنوت إليها فقلت: لمَن الزرع؟ فقالت: لنا إن سلم، فتركتها وأتيت بعض الأخبية، فأرخت السماء مطرًا كأفواه القرب، فقلت: والله لآتينّها وانظر قصتها في هذا المطر، فإذا بالزرع قد غرق وإذا هي قائمة وهي تقول: والذي أودع قلبي من صروف صفاء ومودّة محبتك إن قلبي ليوقنَ منك بالرضا، ثم التفتت إليّ وقالت: يا هذا إنه الذي زرعه فأنبته، وأقامه فسنبله، وركبه فشققه، وأرسل عليه غيثًا فسقاه، واطّلع عليه فحفظه، فلما دنا حصاده أهلكه؛ ثم رفعت رأسها نحو السماء وقالت: كلّ العباد عبادك وأرزاقهم عليك فاصنع ما شئت، فقلت لها: كيف صبرك؟ فقالت: اسكت يا عتبة إنَّ إلٰهي لغنيّ حميد، في كلّ يوم منه رزق جديد، الحمد لله الذي لم يزل يفعل بي أكثر مما أُريد، قال عتبة: فوالله ما ذكرت كلامها إلا هيَّجني وأبكاني.

(**الحكاية الثلاثون: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه**) قال: وصف لي رجل من أهل المعرفة في جبل لكام[1]، فقصدته فسمعته يقول بصوت حزين في بكاء وأنين:

يا ذا الذي أنس الفؤاد بذكره ... أنت الذي ما إن سواك أُريد
تفنى الليالي والزمان بأسره ... وهواك غضّ في الفؤاد جديد

قال ذو النون: فتبعت الصوت فإذا بفتى حَسَن الوجه حَسَن الصوت، وقد ذهبت تلك المحاسن وبقيت رسومها، نحيل قد اصفرّ واحترق، وهو يشبه الوله الحيران، فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام وبقي شاخصًا يقول:

أعميت عيني عن الدنيا وزينتها ... فأنت والروح مني غير مفترق
إذا ذكرتك وافى مقلتي أرق ... من أول الليل حتى مطلع الفلق
وما تطابقت الأحداق عن سنة ... إلا رأيتك بين الجفن والحدق

ثم قال: يا ذا النون ما لك وطلب المجانين قلت: أوَ مجنون أنت؟ قال: قد سمعت به. قلت مسألة، قال: سَل، قلت: أخبرني ما الذي حبَّب إليك الانفراد وقطعك عن المؤانسين وهيَّمك في الأودية والجبال؟ فقال: حبي له هيَّمني، وشوقي إليه هيَّجني،

---

(١) جبل اللكام: الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس. (الرسالة القشيرية ص ١٥٢، ومعجم البلدان ٥/ ٢٢).

Marfat.com

ووجدي به أفردني، ثم قال: يا ذا النون أعجبك كلام المجانين؟ قلت: إي والله وأشجاني، ثم غاب عني فلا أدري أين ذهب رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الحادية والثلاثون: عن ذي النون المصري أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: بلغني أن بجبل المقطم[1] جارية متعبّدة فأحببت لقاءها، فخرجت إلى المقطم أطلبها فلم أجدها، فلقيت جماعة من المتعبّدين فسألتهم عنها، فقالوا: أتترك العقلاء وتسأل عن المجانين؟ فقلت: دلّوني عليها وإن كانت مجنونة، قالوا: هي في الوادي الفلاني، فذهبت إلى الوادي فلما أشرفت عليه سمعت صوتًا حزينًا وهو يقول:

يا ذا الذي أنس الفؤاد بذكره أنت والذي ما إن سواك أريد

قال: فاتبعت الصوت فإذا بجارية جالسة على صخرة عظيمة، فسلّمت عليها، فردّت عليّ السلام وقالت: يا ذا النون ما لك وللمجانين تطلبهم؟ فقلت لها: وأنت مجنونة؟ فقالت: لو لم أكن مجنونة لَمَا نُودِيَ عليّ بالجنون، فقلت لها: ما الذي جنَّنك؟ قالت: يا ذا النون، حبّه جنَّني، وشوقه هيَّمني، ووجده أقلقني، لأن الحبّ في القلب والشوق في الفؤاد والوجد في السّرّ، فقلت: يا جارية، الفؤاد غير القلب؟ فقالت: نعم، الفؤاد نور القلب، والسّرّ نور الفؤاد؛ فالقلب يحبّ، والفؤاد يشتاق، والسّرّ يجد، قلت: وما يجد؟ قالت: يجد الحقّ، قلت: وكيف يجد الحقّ؟ قالت: يا ذا النون وجدان الحقّ بلا كيف، ثم أنشأت تقول:

إن كنت بالوجد موجودًا فلا وجدت نفسي وجودك إلا بعد موجودي

فقلت: يا جارية، ما صدق وجدانك للحقّ؟ فبكت بكاءً شديدًا حتى كادت نفسها تفيض، ثم غشي عليها فلما أفاقت نادت تقول: أوّاه أوّاه منك، ثم أنشأت تقول:

فوجدي به وجد بوجد وجوده ووجد وجود الواجدين لهيب
لئن متّ حقًّا في محبة سيدي فإنّ المنايا في الفؤاد تطيب

ثم صاحت صيحة وقالت: هكذا يموت الصادقون، وغشي عليها ساعة، فحرّكتها فإذا هي ميتة، فطلبت شيئًا أحفر لها به قبرًا، فإذا هي قد غيّبت عني، فلم أجدها رحمة الله عليها.

---

(١) جبل المُقَطَّم: وهو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة ويسمى في كل موضع باسم. (معجم البلدان ٥/ ١٧٦).

Marfat.com

(الحكاية الثانية والثلاثون: عن الفضيل بن عياض[١] رضي الله تعالى عنه) قال: مكثت في جامع الكوفة[٢] ثلاثة أيام، لم أطعم طعامًا ولم أشرب شرابًا، فلما كان اليوم الرابع هزني الجوع، فبينما أنا جالس، إذ دخل عليّ من باب المسجد رجل مجنون وبيده حجر كبير، وفي عنقه غلّ ثقيل، والصبيان من ورائه، فجعل يجول في المسجد حتى إذا حاذاني جعل يتفرّس[٣] فيّ، ففزعت في نفسي منه، فقلت: إلهي وسيدي، أجعتني وسلّطت عليّ من يقتلني؟ فالتفت إليّ وقال:

محلّ نبات الصبر فيك غريزة   فيا ليت شعري هل لصبرك آخر

قال الفضيل: فزال عني جزعي، وطار عني هلعي، وقلت: يا سيدي لولا الرجاء لم أصبر، قال: فأين مستقرّ الرجاء[٤] منك؟ قلت: بحيث مستقرّ هموم العارفين، قال: أحسنت والله يا فضيل، إنها لقلوب الهموم عمرانها، والأحزان أوطانها، عرفته فاستأنست به وارتحلت إليه؛ فعقولهم صحيحة، وقلوبهم غارقة، بالأنوار مشرقة، وأرواحهم بالملكوت الأعلى معلّقة، ثم ولّى وأنشأ يقول:

فهام وليّ الله في القفر سائحًا   وحطّت على سير القدوم رواحله
فعاد بخير قد جرى في ضميره   تذوب به أحشاؤه ومفاصله

قال الفضيل: فوالله لقد بقيت عشرة أيام لم أطعم طعامًا، ولم أشرب شرابًا وجدًا بكلامه، فطوبى[٥] لمن استوحش من الخلق، وأنس بالحقّ. وأنشد بعضهم:

أنست بوحدتي ولزمت بيتي   فطاب الأنس لي وصفا السرور
وأدّبني الزمان فلا أبالي   هجرت فلا أزارُ ولا أزور

---

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي (١٠٥ ـ ١٨٧ هـ = ٧٢٣ ـ ٨٠٣ م) أبو علي شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء. كان ثقة في الحديث. وُلِدَ في سمرقند، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها، ثم سكن مكة وتوفي بها. الأعلام ٥/ ١٥٣؛ وطبقات الصوفية ٦/ ١٤؛ وتذكرة الحفاظ ١/ ٢٢٥؛ وتهذيب ٨/ ٢٩٤؛ وصفة الصفوة ٢/ ١٣٤؛ وحلية ٨/ ٨٤؛ وابن خلكان ١/ ٤١٥؛ والرسالة القشيرية ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥؛ والجواهر المضية ١/ ٤٠٩.

(٢) الكوفة: مدينة في العراق على الشاطىء الغربي للفرات أسّسها سعد بن أبي وقّاص بعد القادسية ٦٣٨ م. واتخذها العباسيون عاصمة ٧٤٩ م. وتقلص ظلّها بعد تأسيس بغداد. أنجبت علماء ومحدّثين ونحويين. كانت مع البصرة مركزًا للثقافة العربية. (الرسالة القشيرية ص ٢٨٨).

(٣) تفرّس فيه: تثبّت ونظر.

(٤) الرجاء: الأمل (نقيض اليأس). انظر حديث القشيري عن الرجاء برسالته ص ١٣١ ـ ١٣٨.

(٥) الطوبى: الحُسنى، والخير، وكل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال، وغنى بلا فقر.

Marfat.com

ولست بسائل ما عشت يومًا		أسار الجند أم ركب الأمير

وأنشد آخر:

كفاني من اللّذّات أن لا يروعني		وزير ولا يسطو عليّ أمير

(الحكاية الثالثة والثلاثون: عن الشبلي رضي الله تعالى عنه) قال: مرّ بي بهلول المجنون في بعض الأيام وهو خارج إلى الجبّانة، ومعه قصبة قد جعلها فرسه، وبيده مقرعة وهو يعدو، فقلت: إلى أين يا بهلول، فقال: إلى العرض على الله عزّ وجلّ، قال: فجلست حتى رجع وقد انكسرت القصبة، واحمرّت عيناه من البكاء، فقلت له: ما كان منك؟ قال: وقفت بين يديه على أن يكتبني من الخدّام فلما عرفني طردني، قلت: هذا القول من بهلول قول عارف محبّ مقبول، صدر من قلب حزين بالخوف مشغول ـ وفي معنى العرض والردّ والقبول أسرت في هذه العشرة الأبيات أقول:

عرضنا على المولى ونحن عبيد		فمنّا شقيّ ردّه وسعيد
فمَن كان منّا ليس يصلح خادمًا		فعن بابه بالطّرد ذاك بعيد
ومَن كان يصلح فهو في قدس حضرة		قريب ومقبول هناك حميد
حبيب له جاه عريض ورفعة		ومجد على مرّ الجديد جديد
أولئك خدّام كِرام وسادة		ونحن عبيد السوء بئس عبيد
فيا غبننا يوم التغابن عندما		يقابلهم وعد ونحن وعيد
ترى الناس إلا هم سكارى وما هم		سكارى ولكنّ العذاب شديد
تحيط بنا الأهوال من كل جانب		إلى أن كأنّا بالعقار نميد
وهم ركبوا نجبًا من النور في الهوا		تطير إلى الربّ الكريم وفود
ولا فزع يحزنهم بل بقربه		لهم فرح يحلو هناك وعيد

قيل: مثل الصالحين وما زيّنهم الله به دون غيرهم، مثل جند قال لهم الملك تزيّنوا للعرض عليّ غدًا، فمَن كانت زينته أحسن كانت منزلته عندي أرفع، ثم يرسل الملك في السرّ بزينة من عنده، ليس عند الجند مثلها، إلى خواصّ مملكته وأهل محبته، فإذا تزينوا بزينة الملك فخرّوا على سائر الجند عند العرض على الملك، فهذا مثل مَن وفّقهم الله للأعمال الصالحات.

(الحكاية الرابعة والثلاثون): قال السريّ السقطيّ رضي الله تعالى عنه: خرجت يومًا إلى المقابر، فإذا ببهلول المجنون، فقلت له: أيّ شيء تصنع هٰهنا؟ قال: أجالس قومًا لا يؤذونني وإن غبت لا يغتابوني، فقلت له: ألا تكون جائعًا؟ فولّى

Marfat.com

عني وأنشأ يقول:

تجوع فإن الجوع[1] من علم التقى ... وإن طويل الجوع يومًا سيشبع

وقيل لآخر من عقلاء المجانين، وقد أقبل من بعض المقابر: من أين جئت؟ فقال: من عند هذه القافلة النازلة، قيل له: ماذا قلت لهم وماذا قالوا لك؟ قال: قلت لهم: متى ترحلون؟ فقالوا: حين تقدمون. ـ وقيل لآخر: لِمَ لا تصلي؟ فتكلم بكلام عجيب غريب وأنشد شعرًا:

يقولون زرنا واقض واجب حقنا ... وقد أسقطت حالي حقوقهم عني

إذا هم رأوا حالي ولم يأنفوا لها ... ولم يأنفوا منها أنفت لهم مني

وأنشد بعضهم شعرًا:

يقولون مجنون ولو علموا بما ... أُقاسيه من فرط الجوى بسطوا العذرا

وسُئل بعضهم عن هؤلاء المجانين وما يتكلمون به من الحكمة والمعرفة فقال: إنَّ هؤلاء كان لهم فضل وعقل، فلما أخذ الله عقلهم أبقى عليهم فضلهم.

(الحكاية الخامسة والثلاثون: عن عطاء رضي الله تعالى عنه) قال: دخلت سوقًا من الأسواق، فإذا أنا بجارية يُنادى عليها، فاشتريتها بسبعة دنانير على أنها مجنونة، وجئت بها إلى منزلي، فلما كان الليل وقد مضى بعضه، رأيتها قد توضأت واستقبلت القبلة تصلّي، فسمعتها تختنق بالدموع وتقول: إلٰهي بحبك لي إلا ما رحمتني، فتحققت جنونها، وقلت يا جارية لا تقولي هكذا، ولكن قولي بحبي لك، فقالت: إليك عني يا بطال، فوحقّ حقه لو لم يحبني ما أنامك وأقامني، ثم سقطت على وجهها وجعلت تقول:

الكرب مجتمع والقلب محترق ... والصبر مفترق والدمع مستبق

كيف القرار على مَن لا قرار له ... مما جناه الهوى والشوق والقلق

يا ربّ إن كان شيء فيه لي فرج ... فامنن عليّ به ما دام بي رمق

ثم نادت بأعلى صوتها: إلٰهي كانت المعاملة بيني وبينك سرًا، والآن قد علم المخلوقون، فاقبضني إليك، ثم شهقت شهقة فارقت الدنيا، رحمة الله تعالى عليها.

---

(١) قيل في الجوع بالرسالة القشيرية ص ١٤١: الجوع من صفات القوم، وهو أحد أركان المجاهدة، فإن أرباب السلوك قد تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل، ووجدوا ينابيع الحكمة في الجوع، وكثرت الحكايات عنهم في ذلك.

Marfat.com

(الحكاية السادسة والثلاثون: عن الشبلي رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت مجنونًا في بعض الطرقات والصبيان خلفه يرجمونه بالحجارة وقد أدموا وجهه، وشجّوا رأسه، فزجرتهم عنه، فقالوا: يا شيخ دعنا نقتله، فإنه كافر، قلت: ما بدا لكم من كفره؟ قالوا: يزعم أنه يرى ربه ويحادثه، فقلت أمسكوا عليَّ قليلاً، ثم تقدّمت إليه، فوجدته يتحدث ويضحك ويقول في أثناء ذلك هذا جميل منك، تسلّط عليَّ هؤلاء الصبيان يفعلون بي هكذا؟ فقلت له: يا أخي هؤلاء الصبيان يقولون عنك شيئًا، قال: يا شبلي ما يقولون؟ قلت: يقولون إنك تزعم أنك ترى ربّك وتحادثه، فصاح صيحة عظيمة، ثم قال: يا شبلي وحقّ مَن تيّمني بحبه وهيّمني بين بُعده وقربه، لو احتجب عني طرفة عين لتقطّعت من ألم البين، ثم ولّى عني مسرعًا وهو يقول:

خيالك في عيني وذكرك في فمي   ومثواك في قلبي فأين تغيب

قلت: الصواب في هذا البيت أن يُقال:

جمالك في عيني وذِكرك في فمي   وحبك في قلبي فأين تغيب

لأن بعض ألفاظ البيت الذي قاله لا يجوز في صفات الخالق سبحانه وتعالى.

(الحكاية السابعة والثلاثون: عن محمد بن محبوب رحمه الله تعالى) قال: كنت في شارع المارستان، فإذا بغلام قد غُلّ وقُيِّد، فقال لي: يا ابن محبوب، أتراه بعد الغلّ والقيد راضيًا عني، كل ذلك في حبه، ثم بكى وأنشأ يقول:

من ذنوبي يحقّ لي أن أنوحا   لم تدع لي الذنوبُ قلبًا صحيحا
أخلقت مهجتي أكفّ المعاصي   ونعاني المشيب نعيًا صريحا
كلما قلت قد بَرِيَ جرح قلبي   عاد قلبي من الذنوب جريحا
إنما الفوز والنعيم لعبد   جاء في الحشر آمنًا مستريحا

(الحكاية الثامنة والثلاثون: عن عليّ بن عبدان رحمه الله تعالى) قال: كان عندنا مجنون يجنّ بالنهار، ويفيق بالليل، ويصلي ويناجي ربه إلى الصباح، فقلت له يومًا: منذ كم جننت؟ قال: منذ عرفت، ثم أنشأ يقول:

أنا الذي ألبسني سيدي   لمّا تقرَّبت لباس الوداد
فصرت لا آوي إلى مؤنس   إلا إلى مالك رازق العباد

قال: فخرجت فإذا أنا به ذاهل العقل، فدخل وقال: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾ [الكهف: ٦٢] فعلمت أنه جائع، فقدّمت إليه طعامًا، فأكل ثم شرب، وأنشأ يقول:

عليك اتّكالي لا على الناس كلهم   وأنت بحالي عالم ليس تعلم

Marfat.com

وأقسمت أنّي كلما جعت سيدي ستفتح لي بابًا فأُسقى وأُطعم

فقلت له: أوصني بوصية، فأنشأ يقول:

الزم الخوف مع الحز ن وتقوى الله تربح واترك الدنيا جميعا
إن تقوى الله أرجح واجتهد في ظلمة اللي ل إذا ما الليل جنح
واقرع الباب قليلاً فلعلَّ الباب يفتح

وقيل لبعضهم: علّمني شيئًا أنتفع به، فقال: فرّ منهم ولا تأنس بهم، فيتمّ اتصالك، ويقلّ عذابك، فقلت زدني، قال:

الزم الصدق والتقى واترك العجب والرِّيا
واغلب النفس والهوى تُرزَق السؤل والمنى

فقلت: حسبك رضي الله تعالى عنك.

(الحكاية التاسعة والثلاثون: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت في جبل لبنان في كهف رجلاً أبيض الرأس واللحية، أشعث أغبر نحيفًا نحيلاً، وهو يصلي، فسلّمت عليه بعدما سلّم من الصلاة، فردَّ عليَّ السلام وقام إلى الصلاة، فما زال راكعًا وساجدًا حتى صلّى العصر، ثم استند إلى حجر، وجعل يسبِّح الله ولا يكلّمني، فقلت له: رحمك الله، ادعُ الله عزّ وجلّ لي، فقال: آنسك الله بقربه، فقلت له: زدني، فقال: يا بنيّ مَن آنسه الله بقربه أعطاه أربع خِصال عزًّا من غير عشيرة، وعلمًا من غير طلب، وغنًى من غير مال وأُنسًا من غير جماعة، ثم شهق شهقة فلم يفق إلا بعد ثلاثة أيام، ثم قام فتوضأ وسألني: كم فاته من صلاة؟ فأخبرته فقال:

إن ذكر الحبيب هيَّج شوقي ثم حبّ الحبيب أذهل عقلي

وقد استوحشت من ملاقاة المخلوقين، وأنست بربّ العالمين، انصرف عني بسلام، فقلت له: يرحمك الله، وقفت عليك ثلاثة أيام رجاء الزيادة، وأُريد موعظة منك وبكيت، فقال: أحبب مولاك، ولا تُرِد بحبه بدلاً، فالمحبّون لله هم تيجان العباد وعلم الزّهاد، وهم أصفياء الله وأحباؤه وعباده وأولياؤه، ثم صرخ صرخة وفارق الدنيا، فما كان إلا هنيهة[١] فإذا نحن بجماعة من العباد ينحدرون من الجبل، فتولّوه حتى واروه تحت التراب، فسألت ما اسم هذا الشيخ؟ فقالوا: شيبان المصاب، رحمه الله تعالى ونفعنا به.

---

(١) هنيهة: يقال: أقام هنيهة أو هنية؛ أي: قليلاً من الزمان.

Marfat.com

(الحكاية الأربعون: عن ذي النون أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا جالس في بعض أودية بيت المقدس، إذ سمعت صوتًا يقول: يا ذا الأيادي التي لا تُحصى، ويا ذا الجود والبقاء، متّع بصر قلبي في الجَوَلان في جبروتك، واجعل همّتي متّصلة بجود لطفك يا لطيف، وأعذني من مسالك المتجبِّرين بجلال بهائك يا رؤوف واجعلني لك في الحالين خادمًا وطالبًا، وكن لي يا منوّر قلبي وغاية طلبي في القصد صاحبًا، قال: فطلبت الصوت فإذا هي امرأة كأنها كالعود المحترق، وعليها درع من الصوف وخمار من شعر، قد أضناها الجهد، وأفناها الكمد، وذوّبها الحبّ، وقتلها الوجد، فقلت: السلام عليك، فقالت: وعليك السلام يا ذا النون، فقلت: لا إلـه إلا الله، كيف عرفتِ اسمي ولم تَرَيني؟ قالت: كشف لي عن سرّه الحبيب، فرفع عن قلبي حجاب العمى فعرّفني اسمك، فقلت: ارجعي إلى مناجاتك، فقالت: أسألك يا ذا النور والبهاء أن تصرف عني شرّ ما أجد، فقد استوحشت من الحياة، ثم خرّت ميتة، فبقيت متحيّرًا متفكّرًا، فأقبلت عجوز كالولهانة، فظرت إليها، ثم قالت: الحمد لله الذي أكرمها، فسألتها مَن هي؟ فقالت: أنا زهراء الولهانة، وهذه ابنتي، توهم الناس منذ عشرين سنة أنها مجنونة، وإنما قتلها الشوق إلى ربّها عزّ وجلّ، رضي الله تعالى عنها.

وأنشد بعضهم:

قالوا: جننت بمَن تهوى فقلت لهم: ... ما لـذّة الـعـيـش إلا لـلـمـجـانـيـن

(الحكاية الحادية والأربعون: عن الشيخ أبي عبد الله الإسكندري رضي الله تعالى عنه) قال: كنت بجبل لكام أسيح راجيًا رؤية الرجال أو النساء من القوم الصالحين، فجمع الله لي مرادي، فأوّل مَن لقيت امرأة، وقد سمعتني أنشد هذه الأبيات:

يـا جيرة الـحيّ مـن شـرقـي ذي سـلـم ... هـل عـودة لـلـيـالـيـنـا عـلـى الـعـلـم
أيام شـمـلـي بـكـم يـا سـلـم مـجـتـمـع ... وحـبـل وُدّي لـديـكـم غـيـر مـنـصـرم
ناشدتك الله إن جزت العقيق[1] ضحى ... فـأقـرّ الـسـلام عـلـيـهـم غـيـر مـحـتـشـم
وقـل تـركـت صـريـعًـا فـي ديـاركـم ... مـيـتًـا كـحـيّ يـعـيـر الـسـقـم ذا سـقـم

قال: فلما رأيتها قلت في نفسي: لو كان اجتماعي برجل كان أحسن من امرأة، فقالت: يا أبا عبد الله ما رأيت أعجب من حالك! أيريد الاجتماع بالرجال مَن لم يصل إلى مقامات النساء؟ فقلت: ما أكثر دعواك، فقالت: تحرم الدعاوى بغير بيّنة، فقلت: فما الذي لك من البيّنة؟ قالت: هو لي كما أُريد، لأني له كما يريد، قلت: فأريد الساعة

---

(١) العقيق: الوادي الذي شقه السَّيل قديمًا فوسعه.

Marfat.com

سمكًا مشويًا طريًا، قالت: هذا من نزول مقامك وافتجاعك في غذائك وطعامك، وهلاَّ سألته أن يهب لك من الشوق جناحًا تطير به إليه كطيراني، ثم طارت وتركتني، فوالله ما رأيت أمرّ من ذلّي، وأحلى من عزّها، فعدوت خلفها وقلت: يا سيدتي بالذي أعطاك ومنعني، وجاد عليك وخذلني، جودي عليَّ بدعوة، فقالت: أنت لا تريد إلا دعوة الرجال، ثم أنشدت:

ما الجزع وما الغضا وما نعمان لولاك وما طويلع والبان
ما ينفعني العقيق والسكان إن لم أركم بالحمى سكان

فقلت لها: إن لم يكن الدعاء، فزوّديني منك بنظرة، وقلت:

قفي زوّديني نظرة من جمالك وإلا دعيني سائرًا مع جمالك
رقولي لحادي العيس هذا أسيرنا ترفق بصبّ والهٍ متهالك(١)
وجودي على المشتاق يومًا بنظرة وفاءً له إنّ الوفاء من فِعالك

فقالت: إن الذي أنا فيه من الخطر، أولى من اشتغالك بالنظر، قلت والدعاء لا بدّ منه، قالت: في غداتك تلقى السيد الداعي، والمولى المُجيب الواعي، والمليح المقبول في المساعي، ثم مرّت ولحلو العيش أمرت، وغابت عني وما غابت، بل بسهام حالها رمت قلبي فأصابت، ثم بتُّ ليلتي ببليَّتي، وقد بلبلت بشرف بالها بلبالي، وقطعت لما قطعت بسيف حبها أوصالي؛ فلما كان من الغد، إذا أنا برجل يزحف وعليه آثار المآثر، وبه من الحب ثائر، فقلت: إن كان الرجل المُشار إليه كما ذكرت فهو هذا، فأقبل بإقباله وقبوله عليّ، وقال: نعم هو هو، قلت: يا سيدي فلعلّ إرفادي بدعوة يكون لي بها عند الحبيب حظوة، فقال: يا أبا عبد الله فاتك دعاء مَن ليس لها دعوى، أما كان عندك من بصر البصيرة ما تعرف به ريحانة الكوفية، ولكن يا أبا عبد الله، ما أقدر أن أدعو لك حتى تصل إلى مقام مجانيننا، وفي غد تراهم وتؤمن بما من الوجد اعتراهم، ثم غاب عني فلم أره، فأدركني من الوجد ما لا أعبر به، ولا أقدر على فراغي منه، ثم أنشد لسان حالي:

أنا شيخ الهوى بزاوية الحبّ ومَن يدّعي الغرام مُريدي
والذي مات بالغرام شهيدًا ذاك في شُرعة الهوى من شهودي
وفقيه مدرّس سُنن العشـ ـق فمَن ذا الذي يكون مُعيدي

---

(١) الحادي: الذي يسوق الإبل بالحداء (الحداء: الغناء للإبل). العيس: كرام الإبل، أو الإبل البيض التي يخالط بياضها شقرة أو ظلمة خفية.

Marfat.com

وإذا مـا ادّعـى الـمـحـبـة قـوم | دع دعـاويـهـم فـهـم مـن عـبـيـدي
يـا أُهـيـل الـهـوى إلـيَّ هـلـمّـوا | أنـا سـلـطـانـكـم وأنـتـم جـنـودي
قـلـت لـلـقـلـب قـد مُـلـئـتَ غـرامًـا | فـأجـاب الـفـؤاد هـل مـن مـزيـدِ
سَـكـرة الـحـبّ أيـن مـنـهـا خـلاصـي | لـيـس عـن سَـكـرة الـهـوى مـن مَـحـيـدِ
وإذا أنـكـر الـعـذول غـرامـي | فـالـهـوى سـائـقـي ودمـعـي شـهـودي

فلما كان من الغد. إذا بقارىء يقرأ ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ [التوبة: ١١٨] بصوت رخيم من قلب حزين رحيم، يكاد سامعه يذوب شوقًا، ومستحديه يتولّه جنونًا وعشقًا، ومُجاريه لا يجاريه سعيًا وسبقًا: فالمطرود يناديه بحضرة ناديه؛ كم تسعد وأشقى، فقلت: وقد استعبدني بحُسْن صوته رقًا، بالذي جاد بنعمة النغمة حقًّا، أرفق بقلب شقّه خوف الفراق شقًّا، وجعله على لبّة أطيار العشق عنقًا، وصيَّره صريعًا على مصارع أبواب أرباب الوصل والوصول ملقى. قال: فبرز لي رجل قد خنقه الحبّ خنقًا، وقال: ما تريد بالمجنون الذي دمعه لا يرقا، وجنونه لا يُداوَى ولا يرقى، وعمره في الطريق ينادي الحريق، فما يرى نحو الغريق سحابًا ولا برقًا، ولكن قد أحالوك عليّ في الدعاء بنسبة الجنون بيننا وفقًا، فعليك بجناب المجانين وانشُق من حبّهم نشقًا، والزم سُنَّة سيدنا محمد ﷺ صلاة تدوم وتبقى، واحذر أن تخرج عنها فتسمع منه وقد غضب سحقًا سحقًا، فقلت: أوصني، فقال: ارحم نفسك من الذنوب فإنها ضعيفة، وارفق بها رفقًا، وإياك ودنياك، فإنها تجعل أعالي أبنائها ببحرها غرقى، وأوساطهم شرقى، وأدناهم حرقى، ومع هذا متّعك الله قبولاً ووصولاً وصدقًا، وجعلك من قوم رضي الله تعالى عنهم، فقال عزّ من قائل: «أولئك هم المؤمنون حقًّا» ولا أحرمك لذّة النظر، ولا جعلك ممّن يقنع بعد العيان بالخبر، ففهمت ما أشار إليه رحمة الله تعالى عليه.

(الحكاية الثانية والأربعون: عن ذي النون رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا أسير في جبل أنطاكية، إذ أنا بجارية كأنها مجنونة، وعليها جبّة صوف، فسلّمت عليها فردّت عليّ السلام، ثم قالت: ألست ذا النون؟ فقلت: عافاك الله كيف عرفتيني؟ فقالت: عرفتك بمعرفة حبّ الحبيب، ثم قالت: أريد أن أسألك عن مسألة، قلت: سَلي، قالت: أيّ شيء السخاء[1]؟ قلت: البذل والعطاء، قالت: هذا السخاء في الدنيا، فما السخاء في الدين؟ قلت: المسارعة إلى طاعة ربّ العالمين، قالت: فإذا

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٤٧ ـ ٢٥٤.

Marfat.com

سارعت إلى طاعة المولى فهو أن يطّلع على قلبك وأنت لا تريد منه شيئًا؛ ويحك يا ذا النون، إني أريد أن أطلب منه شيئًا منذ عشرين سنة فأستحي منه مخافة أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب الأجرة، ولكن أعمل تعظيمًا لهيبته وعزّ جلاله، ثم مرّت وتركتني رضي الله تعالى عنها.

(الحكاية الثالثة والأربعون: عن ذي النون أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا أسير في تيه[1] بني إسرائيل، إذ أنا بجارية سوداء قد استلبها الوَلَه من حبّ الرحمن، شاخصة ببصرها نحو السماء، فقلت: السلام عليك يا أُختاه، فقالت: وعليك السلام يا ذا النون، فقلت لها: من أين عرفتني يا جارية؟ فقالت: يا بطال إن الله عزّ وجلّ خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام، ثم أدارها حول العرش، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، فعرفت روحي روحك في ذلك الجولان، وأنشدت تقول:

إنّ القلوب لأجناد مجنّدة ... لله في الغيب والأهواء تختلف

فما تعارف منها فهو مؤتلف ... وما تناكر منها فهو مختلف

قال ذو النون رضي الله تعالى عنه: فقلت: إني لأراك حكيمة، علّميني شيئًا مما علّمك الله، فقالت: يا أبا الفيض ضع على جوارحك ميزان القسط حتى يذوب كل ما كان لغير الله تعالى ويبقى القلب مصفًى ليس فيه غير الربّ عزّ وجلّ، فحينئذ يقيمك على الباب، ويوليك ولاية جديدة، ويأمر الخزّان لك بالطاعة، فقلت: يا أُختاه زيديني، فقالت: يا أبا الفيض خذ من نفسك لنفسك، وأطِع الله تعالى إذا خلوت يجبك إذا دعوت، رضي الله تعالى عنها ورحمها.

(الحكاية الرابعة والأربعون: عن أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه) قال: حججت على الوحدة، فجاورت بمكة، فكنت إذا جنّ الليل دخلت الطواف، وإذا بجارية تطوف وتقول:

أبى الحبّ أن يخفى وكم قد كتمته ... فأصبح عندي قد أناخ وطنبا

إذا اشتدّ شوقي هام قلبي بذكره ... وإن رمت قُربًا من حبيبي تقرّبا

ويبدو فأفنى ثم أحيا به له ... ويسعدني حتى ألذّ وأطربا

---

(١) التيه: اسم الصحراء الواقعة على الحدود المصرية الفلسطينية داخل شبه جزيرة سيناء، وهو الموضع الذي ضلّ فيه موسى عليه السلام مع قومه، وهي أرض بين أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة. (الرسالة القشيرية ص ١٨١).

Marfat.com

قال: فقلت لها يا جارية، أما تتقين الله في مثل هذا المكان تتكلمين بهذا الكلام؟ فالتفتت إليّ وقالت يا جنيد:

لـولا الـتـقـى لـم تـرنـي أهـجـر طـيـب الـوسـن إنّ الـتّـقـى شـرّدنـي
كـمـا تـرى عـن وطـنـي أفـرّ مـن وجـدي بـه حـبّـه هـيّـمـنـي

ثم قالت: يا جنيد، أنت تطوف بالبيت أم بربّ البيت؟ فقلت: أطوف بالبيت، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: سبحانك سبحانك، ما أعظم مشيئتك في خلقك، خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار، ثم أنشأت تقول:

يطوفون بالأحجار يبغون قربة إليك وهم أقسى قلوبًا من الصخر
وتاهوا فلم يدروا من التّيه مَن هم وحلّوا محل القرب في باطن الفكر
فلو أخلصوا في الودّ غابت صفاتهم وقامت صفات الودّ للحق بالذكر

قال الجنيد: فغشي عليّ من قولها، فلما أفقت لم أرها رضي الله تعالى عنها.

(الحكاية الخامسة والأربعون: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه) قال: لقيت امرأة في تيه بني إسرائيل، عليها مدرعة[١] من شعر، وخمار من صوف، وفي كفّها عكاز من حديد، فقلت: السلام عليك ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، ما للرجال وخطاب النساء عافاك الله، فقلت: أنا أخوك ذو النون المصري، فقالت: مرحبًا حيّاك الله بالسلام، قلت: ما تصنعين هٰهنا؟ قالت: كلما أتيت إلى بلد يعصي فيه الحبيب ضاق عليّ ذلك البلد، فأنا أطلب بقعة طاهرة، أخرّ عليها ساجدة أُناجيه بقلب ذاب من شدّة الشوق إلى لقائه، قلت: ما سمعت أحدًا يذكر الحبيب أحسن من ذكرك، فأيّ شيء المحبة[٢]؟ فقالت: سبحان الله أنت الحكيم الواعظ وتسألني عن المحبة؟ أوّل المحبة يبعث على الكدّ الدائم، حتى إذا وصلت أرواحهم إلى أعلى الصفاء جرّعهم من محبته لذيذ الكؤوس، ثم صرخت وخرّت مغشيًا عليها، فلما أفاقت رضي الله تعالى عنها قالت:

أُحـبـك حـبـيـن حـبّ الـهـوى وحـبًـا لأنـك أهـل لـذاكـا
فـأمـا الـذي هـو حـبّ الـهـوى فـذِكْـرٌ شـغـلـت بـه عـن سـواكـا
وأمـا الـذي أنـت أهـل لـه فـكـشـفـك لـلـحـجـب حـتـى أراكـا
ولا حـمـد فـي ذا ولا ذاك لـي ولـكـن لـك الـحـمـد فـي ذا وذاكـا

(١) المدرعة: ثوب من الصوف.
(٢) انظر حديث القشيري عن المحبة في الرسالة ص ٣١٧ ـ ٣٢٩.

Marfat.com

(الحكاية السادسة والأربعون: عن محمد بن رافع[1] رحمه الله) قال: أقبلت من بلاد الشام، فبينما أنا في بعض الطريق، رأيت فتى عليه جبّة من صوف، وبيده ركوة، فقلت: أين تريد؟ قال: لا أدري، فقلت: من أين جئت؟ فقال: لا أدري، فظننته موسوسًا، فقلت: من خلقك؟ فاصفرّ لونه حتى كأنه صبغ بالزعفران، ثم قال: خلقني مَن لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، فقلت: يرحمك الله أنا من إخوانك، وممّن يأنس إلى أمثالك، فلا تنقبض مني، فقال: إني والله أودّ لو أجاز لي ترك الجماعات حتى أنفرد في شاهق منيف صعب المرتقى، أو في غار لعلّي أجد قلبي ساعة يسلو عن الدنيا وأهلها، فقلت: وما جنت عليك الدنيا حتى استحقّت منك هذا البغض؟ فقال: جناياتها العمى عن جناياتها، فقلت: هل من دواء تعالج به من هذا العمى الذي حجب عني ما يُراد بي؟ فقال: ما أراك تقدر على هذا العلاج فاستعمل من الدواء أيسره، فقلت: صف لي دواءً لطيفًا، قال: فما داؤك؟ قلت: حبّ الدنيا، فتبسّم وقال: أيّ داء أعظم من هذا، ولكن اشرب السموم الطّرية، والمكاره الصعبة، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم من الصبر الذي لا جزع فيه، والتعب الذي لا راحة فيه، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم الوحشة التي لا أنس فيها، والفرقة التي لا اجتماع معها، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم السّلو عمّا تريد، والصبر عمّا تحبّ، فإن أردت فاستعمل هذا، وإلا فتأخر واحذر الفتن فإنها كقطع الليل المظلم، قلت له: فدلّني على عمل يقرّبني إلى الله عزّ وجلّ، فقال: يا أخي قد نظرت في جميع العبادات، فلم أرَ أرفع، أو قال أنفع من الفرار من الناس، وترك مخالطتهم، يا أخي رأيت القلب عشرة أجزاء، فتسعة مع الناس، وجزء مع الدنيا، فمَن قوي على الانفراد حاز تسعة أجزاء من القلب، ثم غاب عني فلم أره، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية السابعة والأربعون: عن بعض الصالحين رضي الله تعالى عنهم) قال: مررت بطبيب وبين يديه جمع من الناس، وهو يصف لهم ما يشربون، فتقدّمت إليه فجسّ يدي جسًّا لطيفًا وقال لي:

أرى بك داء ليس يبلغه وصفي ... ولكن بحمد الله يبريك ذو اللطفِ
فصحت من الآلام صيحة مغرم ... صدقت وقد أظهرت جملة ما أخفي
فجد لي بوصف فيه برئي من الضنا ... فقد حلّ ما بي من سقامي ومن ضعفي

---

(١) هو محمد بن رافع بن أبي زيد القشيري بالولاء (توفي ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م) أبو عبد الله النيسابوري زاهد، من ثقات المحدّثين. كان شيخ عصره في خراسان. روى عنه البخاري ١٧ حديثًا ومسلم ٣٦٢ حديثًا. الأعلام ٦/ ١٢٤؛ وتهذيب التهذيب ٩/ ١٦٠؛ وتذكرة السامع ١٥٠ ـ ١٥١.

Marfat.com

قال: فأطرق ساعة ثم قال: خذ عروق الفقر مع ورق الصبر، مع إهليلج[1] التواضع، ثم ألقِ الجملة في ظرف اليقين، واجعل عليه ماء الخشية والحياء، وأوقد تحته نار الحزن والشجى، ثم صفه بمنخل المراقبة في جام[2] الرضا، وامزجه بشراب التوكّل، وتناوله بكفّ الصدق، واشربه بكأس الاستغفار، وتمضمض بعده بماء الورع، واجعل حميتك في ترك الحرص والطمع، فإنك إن فعلت هذا رجوت لك الشفاء إن شاء الله تعالى. وأنشدوا:

قل للطبيب إذا ما جئت تسأله ... هل في علومك ما يشفي من الكمدِ
إني مرضت بأوزاري وفجعتها ... وليس بي ألم أشكوه في جسدي

(الحكاية الثامنة والأربعون) قيل: مرّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه في بعض شوارع البصرة، فإذا هو بحلقة كبيرة والناس حولها يمدّون إليها الأعناق ويشخصون إليها بالأحداق، فمضى إليهم لينظر ما سبب اجتماعهم؟ فإذا فيهم شابّ حَسَن الشباب، نقيّ الثياب، عليه هيبة الوقار وسكينة الأخيار، وهو جالس على كرسي والناس يأتونه بقوارير من الماء، وهو ينظر في دليل المرضى، ويصف لكلّ واحد منهم ما يوافقه من أنواع الدواء، فتقدّم إليه وقال: السلام عليك أيها الطبيب ورحمة الله وبركاته، هل عندك شيء من أدوية الذنوب، فقد أعيا الناس داؤها يرحمك الله؟ فأطرق الطبيب برأسه إلى الأرض، ولم يتكلم، فناداه ثانية كذلك فلم يتكلم، فناداه ثالثة كذلك، فرفع الطبيب رأسه بعد ما ردّ السلام، فقال: أو تعرف أدوية الذنوب بارك الله فيك؟ قال: نعم، قال: صِفْ وبالله التوفيق، قال: تعمد إلى بستان الإيمان، فتأخذ منه عروق النيّة، وحَبّ الندامة، وورق التدبّر، وبزر الورع، وثمر الفقه، وأغصان اليقين، ولبّ الإخلاص، وقشور الاجتهاد، وعروق التوكّل، وأكمام الاعتبار، وسيقان الإنابة، وترياق[3] التواضع، تأخذ هذه الأدوية بقلب حاضر، وفهم وافر، بأنامل التصديق، وكفّ التوفيق، ثم تضعها في طبق التحقيق، ثم تغسلها بماء الدموع، ثم تضعها في قِدْر الرجاء، ثم تُوقِد عليها بنار الشوق، حتى ترغي زبد[4] الحكمة، ثم تفرغها في صِحاف الرِّضا، وتروّح عليها بمراوح الاستغفار، وينعقد لك من ذلك شربة جيدة، ثم تشربها في مكان لا يراك فيه أحد إلا الله تعالى، فإن ذلك يُزيل عنك الذنوب حتى لا

---

(١) الإهليلج: جنس شجر هندي. من أنواعه ما يسمى الإهليلج الهندي في مصر، والهندي الشعيري في الشام، والأملج في شبه الجزيرة العربية، تُستعمل ثماره لتنظيف جهاز الهضم (مع) فارسية.
(٢) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة ونحوها، وقد غلب استعماله في قدح الشراب (ج) جامات.
(٣) الترياق: دواء ضد السمّ يمنع امتصاص السمّ في المعدة والأمعاء.
(٤) رغا اللبن ونحوه: صارت له رغوة. الزَّبد: ما يعلو الماء وغيره من الرغوة.

Marfat.com

يبقى عليك ذنب، ثم أنشأ الطبيب يقول:

يا خاطب الحوراء في خدرها ... شمّر فتقوى الله في مهرها
وكُن مُجِدًا لا تكن وانيًا ... وجاهد النفس على صبرها

ثم شهق شهقة فارق بها الحياة الدنيا، فقال رضي الله تعالى عنه: والله إنك لطبيب الدنيا وطبيب الآخرة، ثم أمر بتجهيزه ودفنه رحمة الله تعالى عليه.

(الحكاية التاسعة والأربعون: عن ذي النون رضي الله تعالى عنه) قال: مررت ببعض الأطباء وحوله جماعة من الرجال والنساء، وهو يصف لكل واحد منهم ما يوافقه من الدواء، فدنوت إليه، وسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، فقلت له: يرحمك الله، صِف لي دواء الذنوب، وكان حكيمًا حاذقًا، فأطرق ساعة، ثم قال لي: إن وصفت لك تفهم؟ فقلت: نعم إن شاء الله تعالى، فقال: خذ عروق الفقر، مع ورق الصبر، مع إهليلج التواضع، مع بليلج الخضوع مع دهن بنفسج[1] الهيبة، مع خطمية[2]، المحبة مع تمر هندي[3] السكينة، مع ورد الصدق، فإذا جمعت هذه الأوصاف، فاجعلها في قِدْر الإحكام، وصبّ فوقها من ماء الأحكام، وأوقد تحتها بنار الاشتياق والاحتراق، وحرّكها بأصطام العظمة حتى يزبد زبد الحكمة، فإذا صفا بصفاء الفكر، فاجعله في جام الذِّكر، وصفّه براووق الرضا، واجعل فيه محمودة الإنابة، وغضّ مقل الجدّ في العمل، واشربه في حانوت الخلوة، وتمضمض بماء الوفاء، وغيّر فاكَ بسِواك الخوف والجوع، وشمّ تفاح القناعة، وامسح شفتيك بمنديل الإعراض عمّا سوى الله تعالى، فهذه شربة تُحبِط الذنوب، وتقرّب من علاّم الغيوب.

(الحكاية الخمسون): حُكِيَ عن بعضهم أنه مرض وضعف، واصفرّ لونه، فقيل له: ألا ندعو لك طبيبًا يداويك من هذا المرض؟ فقال: الطبيب أمرضني، ثم أنشد:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ... والذي بي أصابني من طبيبي

وقال ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه: إن لله عبادًا نصبوا أشجار الخطايا نصب أعينهم، وسقوها بماء التوبة، فأثمرت ندمًا وحزنًا، فجُنُّوا من غير جنون، وتبلدوا من غير عيّ ولا بكم، وإنهم لهم البلغاء الفصحاء العارفون بالله تعالى وبرسوله ﷺ، ثم

---

(١) البنفسج: نوع من الرياحين عطر الرائحة، وهو نبات من الفصيلة البنفسجية من ذوات الفلقتين الكثيرة التويجات، يُزرع للزينة ولأزهاره (مع) تكلمت به العرب وورد في الشعر وله استعمالات طبية.
(٢) الخطمية: واحدة الخطمي: جنس نبات من فصيلة الخبازيات. فيه أنواع بريّة كثيرة وفيه نوع زراعي مشهور هو الخطمي الوردي أو الدمشقي.
(٣) التمر الهندي: ثمر شجر من الفصيلة القرنية، ينبت في البلاد الحارة، شرابه حامض نافع.

Marfat.com

شربوا بكأس الصفا، فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولّهت قلوبهم في الملكوت، وجالت فكرهم بين سرايا حجب الجبروت[١]، واستظلّوا تحت أوراق الندم، وقرؤوا صحيفة الخطايا، فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علوّ الزّهد بسلّم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العُلى حتى أناخوا في رياض النعيم، وخاضوا في بحر الحياة، وردموا خنادق الجزع، وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم، واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا في سفينة العطية، وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رِياض الراحة ومعدن العزّ والكرامة. وقال رضي الله تعالى عنه: اللّهمّ اجعلني من الذين تاهت أرواحهم في الملكوت، وكشف لهم حجاب الجبروت، فخاضوا في بحر اليقين، وتنزّهوا في ظهر رياض المتّقين، وركبوا في سفينة التوكّل، وأقلعوا بشِراع التوسّل، وساروا بريح المحبة في جداول قرب العزّة، وحطوا بشاطىء الإخلاص، فنبذوا الخطايا، وحملوا الطاعات برحمتك يا أرحم الراحمين.
وأنشد بعضهم:

ركب المحبّ إلى الحبيب سفينة ... تجري من الخطرات في أمواج
في سرّ سرّ السرّ سرًّا أقلعت ... في لجّ بحر زاخر عجاج
يا حُسنها تجري به متفرّدًا ... بعلومه في جنح ليل داج
فالقلب مشكاة وفيه زجاجة ... قد علقت بسلاسل المنهاج
متوقد بالنور من زيتونة ... تسقي سراجًا فاق كلّ سراج

وفي شيء من هذه المعاني قلت: لمّا جاءتهم عناية الفضل تركوا الفضول، وسافروا إلى منازل الوصول، وركب السادات على خيل السعادات، واستعانوا في سفرهم على سلوك الطريق بزاد التقوى المعجون بماء التوفيق، وراضوا خيلهم في رياض الرياضة، وضمروها وألجموها بِلجام منع الالتفات إلى غير مولاها، وزجروها وضربوها بسوط[٢] الخوف، وحرّكوها بأعمال الشوق، وركضوها إلى غاية المنى في ميدان السوق، ونالوا بمواضي عزائم الهِمَم العوالي عزيز مكرمات مجد المعالي، باجتلاء بيض عرائس الأنوار في جنّات سرور معارف الأسرار، بعدما جاهدوا في سلوك الطريق عساكر الهوى لما عرضوا للصدّ والتعويق، وذبحوا نفوس الهوى بسيوف المخالفة، وطعنوا فرسان الطبع برِماح ترك العادات السالفة، وطهروا بماء الدموع الطهور نجاسات الذنوب

---

(١) الجبروت: صيغة مبالغة بمعنى القدرة والسلطة والعظمة.
(٢) السّوط: ما يُضرب به من جلد مضفور ونحوه (ج) سياط وأسواط.

Marfat.com

والعيوب وسائر الشرور، حتى صحّت لهم العبادة المفتقرة إلى الطهارة كالصلاة، وداووا قلوبهم من أمراض علل حبّ الدنيا وسائر الحظوظ والجاه، وأحرقوا أشجار خبثها بنار حزن القلب الأوّاه، وطيّبوها بماء ورد الأوراد، وأحيوا ميّتها بذِكْر الله. واعجباه، كيف نعرف تلك المواهب والأحوال ولا نتداوى من الدّاء العضال[1] الذي بيننا وبينها حال، فنبرأ مثلهم من الأسقام التي أمرضت منّا القلوب، ونصبر على مرارة المراهم التي صبروا عليها حتى نشفى مثلهم، وتزول عنا عِلل العيوب، لقد عجزنا ومِلنا إلى الهوى وألف العادة، ولم نخرج عن الرعونات والطِّباع التي خرج عنها السادة، فلم نتّعظ بوعظ ولم ننزجر عن نهي، ولم نأتمر بأمر، وذلك من سوء حظّ أنفسنا ولم تساعدنا السعادة وإلا فنحن نعرف مراهم الدّاء التي تداوى بها السعداء. وفيها قلت في بعض القصائد منشدًا:

فدرياق تقوى مع سفوف رياضة ... ومع غارقون الذِّكر مغلى عزائم
مراهم أسقام القلوب نوافع ... بها برء معلول وإيقاظ نائم
وأركان بنيان الرياضة عزلة ... وجوع وصمت مع سُهاد مداوم
وليس طبيب في جميع الورى سوى ... طبيب قلوب أو طبيب معالم
فهذا يداوي الناس من داء جهلهم ... وذهنًا نأى عنه الذكا غير فاهم
بفتق لرتق في غوامض مشكل ... ورتق لفتق من طعان مخاصم
عن السُّنَّة الغرَّاء يذبّ مجاهدًا ... بأبيض مسلول من العلم صارم
وهذاك يشفي قلب كل معلل ... بداء هوى طبع النفوس الظوالم
فيشتمّ طيبًا فاح من جانب الحِمى ... لذلك مزكوم الهوى غير شامم
وينظر نورًا من جمال محيّر ... ويسمع تكليمًا حَلا من منادم
ويطعم من طعم الهوى ما يشوقه ... وليس بمشتاق له غير طاعم
فمَن ذاق طعم الحبّ يشتاق للقا ... ليهنا بعيش للأحبة ناعم
فيا أسفا يا حسرتا يا مصيبتا ... ويا ضيعة الأعمال سوق المواسم
كما لم نكن كالغير أهلاً لقربه ... لقد فاتنا كل المنى والمكارم
نموت ولم ننظر جمال جلاله ... ولم ندرِ طعم الحبّ مثل البهائم
فلو شاهدت ذاك الجمال عيوننا ... سكرنا وغبنا عن جميع العوالم
ومِلنا نَشاوى من شراب محبة ... وباح بمكتوم الهوى كلّ كاتم
ونحن حجبنا عن عجائب قدرة ... ونور وأسرار وطيب تنادم

(١) العُضال: الشديد المُعجِز. يقال: داء عضال، أي: شديد أعيا الأطباء.

Marfat.com

فما العيش إلا ذاك لا عيش عزّة | وليلى لا سلمى ولا أُم سالم
وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشأ | ويرجى لعبد قارع الباب لازم
فيا ربّ وفِّق واعفِ وافتح وعافِنا | وصلِّ على المختار من آل هاشم

وقلت في ذلك المعنى في أخرى:

فجرّد لسيف الصدق بعد تجرّد | لذكر وفكر حبّ عن كل مشغل
به النفس إن رامت هواها وحاولت | خلافًا ولم ترجع إلى الطاعة اقبل
وداوم ولازم قرع باب مؤملاً | فما خيّب المولى رجاء مؤمل
وصابر فما نال العُلا غير صابر | وقل واعظًا للنفس عند التململ
مع الصبر إحدى حسنيين مناك أو | منايا كرام فاصبري وتحمّلي
وداوِ لسقم القلب واعمر خرابه | بدهن رياضات وثوب معجّل
وأحرق بنار الحزن أشجار خبثه | وفي سيل عين كلّ أوساخه اغسل
وطيِّب بوذ الورد واجعله صالحًا | لسكنى أراضٍ منه طابت وأجبل
فيوحي إلى الأسرار كالنحل ربّها | أن اتخذي منها بيوتًا بها احللي
ويوحي لسُحُب الجُود من فيض فضله | بوابل غيث الغوث من رحمتي اهطل
فيحيي الحياة منه شِعابًا وأنجدًا | وأرضًا ويجري كلّ عين ومنهل(١)
ويُنبت أشجار المعارف موحيًا | إليها بزاكي تمرك الطيب احملي
فيُزهر أنوارًا لوامع برقها | أضاءت لكل الكون علو وأسفل
بمِصباح قلب في زجاجة صدره | بمشكاته من زيت تقواه مشعل(٢)
ويُثمِر خوخ الخوف في روضة الرّضا | وإجاص إخلاص وتين التوكّل
وأرطاب حبٍّ قد جَنَتها يد الهوى | وأعناب أشواق بها القلب ممتلي
ورمّان إجلال وتفاح هيبة | وموز الحيا مُبدي رجاء السفرجلِ
جنان جنان عارف بمعارف | جنى من جناها كل دانٍ مذلّل
فيا طرف قلب عش برؤياك طرفة | ويا نفسه أحلى نفيس له كلي
ويا طيب عَيشٍ ناعم مَن رآك لم | يرى عيش غير عيش منكل
وما ذاقك الحاكي ولا شمّ أو رأى | ولكن بأخبار الصدوق المعدّلِ
طفيلي حال في زري فضوله | حكى فضل حال الأوليا بالتطفلِ(٣)

---

(١) الشِّعاب: (ج) الشعب: الطريق في الجبل أو الانعراج بين جبلين أو مسيل الماء في بطن الأرض
الأنجد: (ج) النجد: ما ارتفع من الأرض وصلب من تل أو جبل ونحوه.
(٢) المِشكاة: ما يُحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح.
(٣) الطفيلي: الذي يغشىٰ الولائم والمجالس ونحوها بلا دعوة.

Marfat.com

وقلت في ذلك المعنى في أخرى:

وعبدك الهوى يمتاز من عبد ربّه ... لدى شُهرة أو عند صدم بليّة
بكبر البلا يبدو من التّبر حُسنه ... ويبدو نحاس النّحس في كلّ محنة[1]
خلا من حلي قوم كِرام تدرّعوا ... دروع الرّضا والصبر في كلّ شدّة
ولاقوا طعان النفس في معرك الهوى ... وراحوا وقد أرووا مواضي الأسنّة
وساقوا جياد الجدّ عند اشتياقهم ... وأرخوا لها نحو العُلا للأعنّة
سموا فاجتلوا بيض المعالي عواليًا ... ببيض العوالي في القصور العليّة
مقامات قوم أتعبوا النفس في السّرى ... فأضحوا ملوك الدهر فوق الأسرّة
بذل أنيلوا العزّ والجهد راحة ... وفقر غنى والحزن كلّ مسرّة
وطيب عيش بالطوى ثم بالظما ... شراب كؤوس حاليات هنية
بجنّات وصل في رياض معارف ... لهم ذللت منها قطوف تدلّت
جنوا من جناها زاكيًا لا يذوقه ... من الخلق إلا كلّ نفس زكية
تسلّت عن الدنيا وماتت عن الهوى ... وغسلها في موتها ماء دمعة
وصلّت عليها صالحات فِعالها ... وقد كُفِّنت في بيض أثواب توبة
وشيلت على نعش انتعاش إلى البقا ... بقبر خمول شقّ في أرض غربة
وقوّمها في البعث باعث عقلها ... وحاسبها في كلّ مثقال ذرّة
وألزمها تمشي صراط استقامة ... دقيقًا كحدّ السيف إن عنه زلّت
هوت جوف نار الهجْر والبُعد والقلى ... وإن ثبتت سارت بجنّات وصِلة
ونالت مُناها والسعادات كلها ... فيا سعد نفس أدركت ما تمنّت
إلهي تفضل بالعطا واكشف الغطا ... وكلّ الخطايا فاغفر ومُنّ بجنة
وصلّ على خير الأنام وآله ... وأصحابه والحمد لله تمت

قلت: وهذه الأقوال أقوال بغير أفعال كما قال بعض الرجال ما يأتي ذكره قريبًا، وأستغفر الله من هذا الحال، ومن كل حال، وأسأله التوفيق لصالح الأعمال، وحُسْن الخاتمة عند منتهى الآجال.

(الحكاية الحادية والخمسون: عن سريّ رضي الله تعالى عنه) قال: بينما نحن نسير في بعض بلاد الشام، إذ قال واحد منّا: هٰهنا عابد، فميلوا بنا إليه، لعلّ الله يسخّره يكلّمنا، فملنا إليه، فوجدناه يبكي، فقلنا له: ما يُبكي العابد؟ فقال: ما لي لا أبكي وقد توعرت الطريق، وقلّ السالكون فيها وهجرت الأعمال وقلّ الراغبون فيها، وقلّ الحقّ

(١) التبر: فتات الذهب أو الفضة قبل أن يُصاغا فإذا صِيغا فهما ذهب وفضة.

ودرس هذا الأمر فلا أراه إلا في لسان كلّ بطّال ينطق بالحكمة ويفارق الأعمال، قد افترش الرخصة وتمهّد التأويل، واعتلّ بزَلل العاصين، ثم صاح صيحة وقال: كيف سكنت قلوبهم إلى روح الدنيا، وانقطعت عن روح ملكوت السماء؛ ثم جعل يقول: واغماه من فتنة العلماء، واكرباه من حيرة الأدلاّء، وجالَ جولة ثم قال: أين الأبرار من العلماء، بل أين الأخيار من الزّهّاد؟ ثم بكى وقال: شغلهم والله طول الأمل عن ردّ الجواب، وعن ذكر الجنة والنار والثواب، والعقاب وطول الحساب، ثم قال: أستغفر الله من شهوة الكلام، تنحّوا عنّي، فخلّيناه يبكي، وقد مُلِئنا منه غمًّا وهمًّا رضي الله تعالى عنه. وأنشد بعضهم:

وغير تقيّ يأمر الناس بالتّقى ... طبيب يداوي الناس وهو عليل

وقلت في هذا المعنى في ذمّ نفسي:

بعلم لا بأعمال وقول ... بلا فعل وندب لا انتداب
أمور غير فعّال وناه ... فعول للمناهي ذو ارتكاب

وقلت أيضًا:

إلٰهي لئن لم تعفُ فالويل كله ... لعبد مسيء ذي ضلال وباطل
تعلم علمًا ليس فيه بعامل ... وكم قال من قول وليس بفاعل
فإن تنتقم من ظالم شرّ ظالم ... فعدل أتى من عادل خير عادل
وإن تعفُ منك العفو فضل أتت به ... سحائب جود جاد بالخصب هاطل
على مجدب عطشان لهفان مقفر ... فقير إلى غوث بغيث ووابل

(الحكاية الثانية والخمسون: عن بعضهم) قال: رأيت عند قبر النبيّ ﷺ تسعة من الأولياء، فتبعتهم، فالتفت إليّ أحدهم وقال لي: أين تمرّ؟ فقلت: أسير معكم لحبّي فيكم، فإني سمعت عمّن زرتموه ﷺ أنه قال: «المرء مع مَن أحبّ»[1] فقال أحدهم: إنك لن تقدر على المسير إلى هذا الموضع الذي نقصده، فإنه لا يقدر عليه إلا مَن بلغ سنة أربعين سنة، فقال آخر: دعه لعلّ الله يرزقه، فسرتُ معهم والأرض تطوي من تحتنا

(١) أخرجه البخاري (أدب ٩٦)، ومسلم (برّ ١٦٥)، والترمذي (زهد ٥٠)، (دعوات ٩٨)، والدارمي (رقاق ٧١)، وأحمد بن حنبل ١/ ٣٩٢؛ ٣/ ١٠٤، ١١٠، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٥، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٩٤؛ ٤/ ١٠٧، ١٦٠، ٢٣٩، ٢٤٩، ٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٥.

Marfat.com

ضيًا. والحبّ يقول للعشاق هيا. وأنشدوا في المعنى:

والله مــا جــئـتــكــم زائــرًا   إلا رأيـت الأرض تــطـوي لِـيَـه
ولا انـثـنـى عـزمـي عـن بـابـكـم   إلا تــعــثّــرت بــأذيــالِــيَــه

قال: فلم نزل كذلك حتى انتهينا إلى مدينة مبنيّة بالذهب والفضة، وأشجارها متعانقة، وأنهارها مطّردة رائقة، وفواكهها كثيرة فائقة، فدخلنا وأكلنا من ثمرها، وأخذت معي ثلاث تفاحات، فلم يمنعوني من أخذها، فسألتهم عند الانصراف عن المدينة، فقالوا: هذه مدينة الأولياء، إذا أرادوا التنزّه ظهرت لهم أينما كانوا، ما دخلها أحد قبل الأربعين غيرك؛ فلما دخلنا مكة[1] أعطيت الدامغاني تفاحة، فقذفها، فلامني أصحابي وقالوا: اردد ما أعطيت إلى مكانه، وكنت كلما جُعتُ أكلت من التفاحة وهي لا تتغير، ورجعت إلى أهلي وقد بقيت معي تفاحة واحدة، وهي التي ادّخرتها لنفسي، فعانقتني أختي وقالت: أين الذي أطرفتنا به من سفرك؟ فقلت: وما الذي أطرفكم به وأنا بعيد عن الدنيا وعن الراحة؟ فقالت: أين التفاحة؟ فعميت عليها وقلت: وأيّ تفاحة؟ قالت: يا مسكين والله لقد أدخلوني تلك المدينة وأنا بنت عشرين سنة، وأما أنت فلم ترها إلا بعد أن طردوك، وأنا والله جذبت إليها جذبة، وخطبت إليها خطبة، قلت: وأيّ أخت فالبدل الكبير منهم يقول لي: لم يدخلها أحد لم يبلغ أربعين سنة غيرك، قالت: نعم من المريدين، وأما المرادون فيدخلونها ولا يرضون بها، ومتى شئت أريتكها، فقلت: قد شئت، فقالت: يا مدينة احضري، فوالله لقد رأيت المدينة بعينها تتدلّى إليها وترفّ عليها، فمدّت يدها وقالت: أين تفاحك؟ قال: فتساقط عليّ من التفاح ما علاني فضحكت ثم قالت: مَن عنده من المُلك هذا يحتاج إلى تفاحتك؟ قال: فاستحقرت والله نفسي عند ذلك، وما كنت أعلم أن أُختي منهم رضي الله تعالى عنها وعنهم. وأنشدوا في المعنى:

الـشـوق يـنـمـو والـغـرام يـزيـد   والـسـقـم يـكـتـم والـشـفـاء بـعـيـد
وقـديـم عـهـدي ثـابـت لا يـنـقـضي   أزعـمـتـم أن الـغـرام جـديـد
لا والـغـويـر وسـاكـنـيـه ورامـة   وطـويـلـع والـبـان حـيـن يـمـيـد
وحـيـاة مَـن عـرج الـلـوا من لـعـلـع   والـرقـمـتـيـن ومـا حَـوَتـه زرود[2]

(١) مكة المكرمة: مدينة في المملكة العربية السعودية. أحد الحرمين. كانت في الجاهلية محطة هامة لتجارة القوافل بين اليمن والشام وفيها الكعبة المعظّمة. وغدت في الإسلام مركز الحج وقبلة المصلّين. (الرسالة القشيرية ص ١٤١).

(٢) لعلع؛ جبل كانت به وقعة لهم. وقيل: لعلع: منزل بين البصرة والكوفة. (معجم البلدان ٤/ ١٨) الرقمتان: قريتان بين البصرة والنباج بعد ماوية تلقاء البصرة وبعد حفر أبي موسى تلقاء النباج، وهما=

Marfat.com

ما حلت عن عهدي ولا خنت الهوى وعلى القطيعة صابر وجليد
وإذا ترنّم طائر في أيكة أبكي أسًى ويلذّ لي التغريد[١]
وأنوح إذ ناح الحمام على اللوا شوقًا إلى وادي الغضا وأميد[٢]
يا بانة الجرعاء من وادي النقا بان الكرى وتزايد التسهيد
إلا رحمتِ مولهًا حلف الضنا كتم الغرام ومقلتاه شهود
ويظلّ في عرصات نجد مرشدًا قلبًا يراه الوجد فهو فقيد
يبكي بنعمان ورملة عالج ويحبّ ساكنة الخبا ويريد
يخفي هواه خيفة وتسترا عن عاذل والعذل ليس يفيد

(الحكاية الثالثة والخمسون: عن الشيخ أبي الربيع المالقي رضي الله عنه) قال: سمعت بامرأة من الصالحات في بعض القرى اشتهر أمرها، وكان من دأبنا أن لا نزور امرأة، فدعت الحاجة إلى زيارتها للاطّلاع على كرامة قد اشتهرت عنها، وكانت تدعى بالفضة، فنزلنا القرية التي هي بها، فذكر لنا أن عندها شاة تحلب لبنًا وعسلاً. فاشترينا قدحًا جديدًا لم يوضع فيه شيء، فمضينا إليها، وسلّمنا عليها، ثم قلنا لها: نريد أن نرى هذه البركة التي ذُكِرَت لنا عن هذه الشاة التي عندكم، فأعطتنا الشاة فحلبناها في القدح، فشربنا لبنًا وعسلاً؛ فلما رأينا ذلك سألناها عن قصة الشّاة، فقالت: نعم كانت لنا شويهة ونحن قوم فقراء ولم يكن لنا شيء، فحضر العيد، فقال لي زوجي وكان رجلاً صالحًا: نذبح هذه الشاة في هذا اليوم، فقلت له: لا تفعل فإنه قد رُخِّصَ لنا في الترك، والله تعالى يعلم حاجتنا إليها، فاتفق أنه استضاف بنا في ذلك اليوم ضيف، ولم يكن عندنا قِرى[٣]، فقلت له: يا رجل هذا ضيف، وقد أمرنا الله بإكرامه، فخذ تلك الشاة فاذبحها، قالت: فخفنا أن تبكي عليها صغارنا، فقلت له: أخرجها من البيت إلى وراء الجدار، فاذبحها فلما أراقَ دمها قفزت شاة على الجدار، فنزلت إلى البيت، فخشيت أن تكون قد انفلتت منه، فخرجت لأنظرها فإذا هو يسلخ الشاة فقلت له: يا رجل عجبًا، وذكرت له القصة، فقال: لعلَّ الله تعالى أن يكون قد أبدلنا خيرًا منها، فكانت تلك تحلب اللبن، وهذه تحلب اللبن والعسل ببركة إكرامنا الضيف، ثم قالت: يا أولادي إن شُوَيهتنا هذه ترعى في قلوب المُريدين، فإذا طابت قلوبهم طاب لبنها، وإن تغيَّرت تغيَّر لبنها فطيِّبوا

= على شفير الوادي. (معجم البلدان ٣/ ٥٨). زرود: جبل. ويوم زرود: من أيام العرب مشهور بين تغلب وبين يربوع. (معجم البلدان ٣/ ١٣٠).

(١) الأيكة: الشجر الكثير الملتفّ (ج) أيك.

(٢) الغضى: شجر كثير خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمانًا طويلاً لا ينطفىء بسرعة، وفحمه صلب ماذ الغصن: تمايل، وماد الرجل: تثنى وتبختر.

(٣) القِرىٰ: ما يقدم إلى الضيف.

Marfat.com

قلوبكم يطِب لكم كل شيء طلبتموه رضي الله عنها. قلت: وقد سألني بعض أهل العلم والأخبار: ماذا تعني بالمريدين؟ فظهر لي والله أعلم أنها تعني بالمريدين نفسها وزوجها، ولكن أطلقت لفظًا ظاهره العموم مع إرادة التخصيص تسترًا وتحريضًا للمريدين على تطييب قلوبهم، إذ بطيب القلوب يحصل كل طيب محبوب من الأنوار والأسرار، ولذّة العيش بمنادمة الملك الغفّار؛ والمعنى: لمّا طابت قلوبنا طاب ما عندنا، فطيّبوا قلوبكم يطِب لكم ما عندكم، ولو لم يكن الأمر كذلك بل المراد عموم المريدين، لكان يطيب اللبن من سائر الغنم، ولو خبث قلبهما لما نفعهما طيب قلوب المريدين، وإذا طابا هما لم يضرّهما خبث قلوب المريدين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(الحكاية الرابعة والخمسون: عن بعض أصحاب السريّ رضي الله عنه) قال: كان لسريّ تلميذة، ولها ولد عند المعلم، فبعث به المعلم إلى الرحا، فنزل الصبيّ في الماء فغرق، فأعلم المعلم سريًا بذلك، فقال السريّ: قوموا بنا إلى أُمه، فمضوا إليها وتكلم السريّ معها في علم الصبر، ثم تكلم في علم الرّضا، فقالت: يا أستاذ وأيّ شيء تريد بهذا؟ فقال لها: إن ابنك قد غرق، فقالت: ابني؟ فقال: نعم، فقالت: إن الله عزّ وجلّ ما فعل هذا، ثم عاد السريّ في كلامه في الصبر والرّضا، فقالت: قوموا بنا، فقاموا معها حتى انتهوا إلى النهر، فقالت: أين غرق؟ فقالوا: هٰهنا، فصاحت به: ابني محمد، فأجابها لبّيك يا أُماه، فنزلت وأخذت بيده فمضت به إلى منزلها، فالتفت السريّ إلى الجنيد وقال: أيّ شيء هذا؟ قال الجنيد رضي الله عنه: أقول، قال: قل، قال: إن المرأة مراعية لما لله عزّ وجلّ عليها، وحُكْم مَن كان مُراعيًا لِمَا لله عز وجل عليه أن لا يُحدِث عليه حادثة، حتى يُعلمه بذلك، فلما لم تكن حادثة لم يُعلِمها بذلك، فأنكرت فقالت: إن ربي عزّ وجلّ ما فعل هذا رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها.

(الحكاية الخامسة والخمسون: عن أبي عامر الواعظ رضي الله تعالى عنه) قال: بينا أنا جالس بمسجد رسول الله ﷺ، إذ جاءني غلام أسود برقعة، فقرأتها فإذا فيها: أسعدك الله يا أخي بمسامرة الفكرة، ونعّمك بمؤانسة العبرة، وأفردك بحبّ الخلوة، وأيقظك من الغفلة؛ يا أبا عامر أنا أخ من إخوانك، بلغني قدومك، فسُرِرتُ بذلك، واشتقتُ إلى رؤيتك ومجالستك وسماع محادثتك، وبي من الشوق ما لو كان فوقي لأظلّني، ولو كان تحتي لأقلّني سألتك بالذي حباك بالبلاغة ألا ما ألحفتني جناح التوصّل بزيارتك والسلام. قال أبو عامر: فقمت مع الرسول حتى أتى بي إلى قباء[1]، فأنزلني منزلاً رحيبًا خربًا

(١) قباء: وهي قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير وهناك مسجد التقوى عامر قدّامه رصيف وفضاء حسن وآبار وبها مسجد الضرار يتطوّع العوام بهدمه. (معجم البلدان ٤/ ٣٠٢).

Marfat.com

وقال: قف هٰهنا حتى أستأذن لك، فوقفت، فخرج إليّ وقال لي: لج فدخلت فإذا بيت مفرد في الخربة له باب من جريد[1] النخل، وإذا بشيخ قاعد مستقبل القِبلة، تخاله من الوَلَه مكروبًا، ومن الخشية محزونًا، قد ظهرت في وجهه أحزانه، وذهبت من البكاء عيناه، ومرضت أجفانه، فسلّمت عليه، فردَّ عليَّ السلام، وإذا به أعمى مُقعَد مسقام، فقال: يا أبا عامر، غسل الله تعالى من أدران الذنوب قلبك، لم يزل قلبي إليك توّاقًا، وإلى استماع الموعظة منك مشتاقًا، وبي جرح نغل قد أعيا الواعظين دواؤه، وأعجز المتطبّبين شفاؤه، وقد بلغني نفع مراهمك للجِراح والآلام، فبادر رحمك الله في إيقاع الترياق، ولو كان مرّ المذاق، فإني ممَّن يصبر على ألم الدواء رجاء الشفاء، قال أبو عامر: فنظرت إلى منظر بهرني، وسمعت كلامًا أفظعني، ففكّرت طويلاً، وتأتّى لي من الكلام وسهل من صعوبته ما راق للأفهام، وحصل به للسامع المرام، فقلت: يا شيخ ارمِ ببصر قلبك في ملكوت السماء، وأجِل سمع معرفتك في سكان الأرجاء، وانقل حقيقة إيمانك إلى جنة المأوى، فترى ما أعدّ الله تعالى فيها للأولياء، ثم تشرف على نار لظى، فترى ما أعدّ الله فيها للأشقياء؛ فشتّان ما بين الدارين، ليس الفريقان في الموت سواء. قال: فأنّ أنّة وصاح صيحة وزفر زفرة، والتوى وبكى حتى أروي الثّرى وقال: يا أبا عامر وقع والله داؤك على دائي، وأرجو أن يكون عندك شفائي، زِدني يرحمك الله، قال: فقلت: يا شيخ إن الله تعالى عالِم بسَريرتك، مُطَّلع على حقيقة ضميرك، شاهدك في خلوتك بعينه حيث كنت عند استتارك من خلقه ومبارزته، فصاح صيحة كصيحته الأولى ثم قال: مَن لفقري، مَن لفاقتي، مَن لذنبي، مَن لخطيئتي؟ أنت لي يا مولاي، وإليك منقلبي ومثواي، ثم خرّ ميتًا رحمه الله، فخرجت لي جارية عليها مدّرعة من صوف وخِمار من صوف قد ذهب السجود بجبهتها وأنفها، وتورّمت لطول القيام قدماها واصفرّ لونها، فقالت: أحسنت والله يا حادي قلوب العارفين، ومُثير أشجان غليل المحزونين، لا نسي لك هذا المقام ربّ العالمين، هذا الشيخ والدي مبتلي بالسقم منذ عشرين سنة: صلّى حتى أقعد، وبكى حتى عمي، وكان يتمناك على الله تعالى ويقول: حضرت مجلس أبي عامر، فأحيا موات فكري وطرد وسن نومي، فإن سمعته ثانيًا قتلني، فجزاك الله من واعظ خيرًا، ومتّعك من حكمته بما أعطاك، ثم أكبّت على أبيها تقبّل بين عينيه وتبكي وتقول: يا أبتي يا أبتاه يا مَن أعماه البكاء على ذنبه، يا أبتي يا أبتاه يا مَن قتله ذِكر وعيد ربه، يا أبتي يا أبتاه يا حليف الحرقة والبكاء، يا أبتي يا أبتاه يا جليس الابتهال والدعاء، يا أبتي يا أبتاه، يا صريع المذكّرين والخطباء، يا أبتي يا أبتاه يا قتيل الوُعّاظ والحكماء، قال أبو عامر: فأجبتها، فقلت: أيتها الباكية الحَيرَى، والنائحة الثكلى، إن أباك نحبه قد

---

(١) الجريدة من النخل: كالقضيب من الشجرة وهي السعفة نزع عنها خوصها.

Marfat.com

قُضيَ، ووردَ دار الجزاء، وعاين كل ما عمل وعليه يُحصَى في كتاب عند ربٌ لا يضلّ ولا ينسى؛ فمُحسِنٌ فله الزلفى[1]، ومُسيء فوارِد دار مَن أساء؛ فصاحت الجارية كصيحة أبيها وجعلت ترشح عرقًا، ثم ماتت رحمهما الله تعالى، فصلَّينا عليهما ودفناهما، وسألت عنهما، فقيل لي: هما من ولد الحسين بن عليّ بن أبي طالب[2] رضوان الله عليهم أجمعين، فما زلت جزعًا مما جنيت عليهما حتى رأيتهما في المنام، وعليهما حلّتان خضراوان، فقلت: مرحبًا بكما وأهلاً وسهلاً، فما زلت حذرًا مما وعظتكما به، فما صنع الله بكما؟ فقال الشيخ:

أنت شريكي في الذي نلته ... مستأهلاً ذاك أبا عامر
وكلّ مَن أيقظ ذا غفلة ... فنصف ما يُعطاه للآمر
مَن ردّ عبدًا مذنبًا كان كمَن ... راقب ربّ العزّة القاهر
واجتمعا في دار عدن وفي ... جوار ربّ سيد غافر

يا أبا عامر وردت على ربٌ كريم راضٍ غير غضبان، فأسكنني الجنان وزوّجني من الحور والحِسان فاحرص يا أبا عامر أن تُكثِر من الاستغفار في كلّ وقت، وفي الليل عند الأسحار تجاور الربّ العزيز الغفّار. وأنشد بعضهم:

إذا أمسى وسادي من تراب ... وبتّ مجاور الربّ الرحيم
فهنّوني أصيحابي وقولوا ... لك البشرى قدمت على كريم

(الحكاية السادسة والخمسون: عن بهلول رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا ذات يوم في بعض شوارع البصرة، وإذا بصبيان يلعبون بالجوز واللوز[3]، وإذا بصبي ينظر

Marfat.com

---

(١) الزلفى: المنزلة والدرجة والقربة.

(٢) هو الحسن بن علي بن أبي طالب (٤ - ٦١ هـ = ٦٢٥ - ٦٨٠ م) الهاشمي القرشي العدناني، أبو عبد الله السبط الشهيد، ابن فاطمة الزهراء. ولد في المدينة ونشأ في بيت النبوّة وهو الذي تأصّلت العداوة بسببه بين بني هاشم وبني أمية حتى ذهبت بعرش الأمويين، وذلك أن معاوية لمّا مات وخلفه ابنه يزيد، تخلّف الحسين عن مبايعته ورحل إلى مكة في جماعة من أصحابه، ودعاه إلى الكوفة أشياعه فيها على أن يبايعوه بالخلافة فأجابهم وخرج من مكة وعلم يزيد بسفره فوجّه إليه جيشًا اعترضه في كربلاء فنشب قتال عنيف أصيب الحسين فيه بجراح شديدة وسقط عن فرسه فقتله سنان بن أنس النخعي، وقيل: الشمر بن ذي الجوشن وأرسل رأسه ونساؤه وأطفاله إلى دمشق، كان مقتله يوم الجمعة عاشر المحرم. الأعلام ٢/٢٤٣؛ وتهذيب ابن عساكر ٤/٣١١؛ وابن الأثير ٤/ ١٩؛ وصفة الصفوة ١/٣٢١.

(٣) الجوز: جنس شجر مثمر من الفصيلة الجوزية، وهو غني بالمادة الدهنية ويستعمل في الأطعمة والحلويات. اللوز: شجر مثمر من فصيلة الورديات، شبيه بالمشمش، إلا أن لبّ ثمرته يبقى يابسًا، حبّته مستطيلة لذيذة الطعم، منه البري، ومنه الزراعي، واللوز إما حلوًا أو مرّ، يبقى طويلاً ولا=

إليهم ويبكي، فقلت: هذا صبيّ يتحسّر على ما في أيدي الصبيان ولا شيء معه فيلعب به، فقلت له: أي بني ما يُبكيك؟ أشتري لك من الجوز واللوز ما تلعب به مع الصبيان؟ فرفع بصره إليّ وقال: يا قليل العقل ما للعب خُلِقنا، فقلت: أي بنيّ فلماذا خلقنا؟ قال: للعلم والعبادة، قلت: من أين لك ذلك بارك الله تعالى فيك؟ قال: من قوله عزّ وجلّ ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥] قلت له: أي بنيّ إني أراك حكيمًا فعِظني وأوجز، فأنشأ يقول:

أرى الدنيا تجهز بانطلاق ... مشمّرة على قدم وساقِ
فلا الدنيا بباقية لحيّ ... ولا حيّ على الدنيا بباقي
كأنّ الموت والحدثان فيها ... إلى نفس الفتى فرسا ساقِ
فيا مغرور بالدنيا رويدًا ... ومنها خذ لنفسك بالوثاقِ

قال بهلول رضي الله تعالى عنه: ثم رمق السماء بعينيه، وأشار إليه بكفّيه ودموعه تنحدر على خدّيه، وأنشأ يقول:

يا مَن إليه المبتهل ... يا مَن عليه المتّكل ... يا مَن إذا ما آمل ... يرجوه لم يخط الأمل

قال: فلما أتمّ كلامه، خرّ مغشيًا عليه، فرفعت رأسه إلى حجري، ونفضت التراب عن وجهه بكمّي، فلما أفاق قلت له: أي بنيّ ما نزل بك وأنت صبيّ صغير لم يكتب عليك ذنب قال: إليك عني يا بهلول، إني رأيت والدتي توقد النار بالحطب الكبار فلا يتّقد لها إلا بالصغار وأنا أخشى أن أكون من صغار حطب جهنم، فقلت له: أي بنيّ أراك حكيمًا فعِظني وأوجز، فأنشأ يقول:

غفلت وحادي الموت في أثري يحدو ... فإن لم أرح يومًا فلا بدّ أن أغدو
أنعم جسمي باللباس ولينه ... وليس لجسمي من لباس البلي بدُّ
كأني به قد مرّ في برزخ البلى ... ومن فوقه ردم ومن تحته لحد[1]
وقد ذهبت مني المحاسن وانمحت ... ولم يبقَ فوق العظم لحم ولا جلدُ
أرى العمر قد ولّى ولم أدرك المنى ... وليس معي زاد وفي سفري بُعْدُ
وقد كنت جاهرت المهيمن عاصيًا ... وأحدثت أحداثًا وليس لها ردُّ
وأرخيت خوف الناس سترًا من الحيا ... وما خفت من سرّي غدًا عنده يبدو
بلى خفته لكن وثقت بحلمه ... وأن ليس يعفو غيره فله الحمدُ

= يفسد. تُصنع منه أصناف من الحلوى.

(١) البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى يوم البعث.

Marfat.com

فلو لم يكن شيء سوى الموت والبلى ولم يكُ من ربي وعيد ولا وعدُ
لكان لنا في الموت شغل وفي البلى عن اللهو لكن زال عن رأينا الرشدُ
عسى غافر الزلآت يغفر زلّتي فقد يغفر المولى إذا أذنب العبدُ
أنا عبد سوء خنت مولاي عهده كذلك عبد السوء ليس له عهدُ
فكيف إذا أحرقت بالنار جثتي ونارك لا يقوى لها الحجر الصلد[1]
أنا الفرد عند الموت والفرد في البلى وأبعث فردًا فارحم الفرد يا فردُ

قال بهلول: فلما فرغ من كلامه وقعت مغشيًا عليّ، وانصرف الصبيّ؛ فلما أفقت نظرت إلى الصبيان فلم أره معهم، فقلت لهم: مَن يكون ذلك الغلام؟ قالوا: وما عرفته؟ قلت: لا، قالوا: ذاك من أولاد الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، قلت: قد عجبت من أين تكون هذه الثمرة إلا من تلك الشجرة؟ نفعنا الله تعالى به وبآبائه آمين.

(الحكاية السابعة والخمسون عن بشر الحافي رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت رجلاً عشية عَرَفَة[2] غلبه الوله وهو يبكي وينتحب انتحابًا شديدًا، وهو يقول:

سبحان مَن لو سجدنا بالعيون له على شبا الشوك والمحمى من الإبرِ
لم نبلغ العشر من معشار نعمته ولا العشير ولا عشرًا من العشرِ

وأنشد أيضًا:

كم قد زللت فلم أذكرك في زللي وأنت يا مالكي بالغيب تذكرني
كم أكشف الستر جهلاً عند معصيتي وأنت تلطف بي حلمًا وتسترني

قال: ثم غاب عني وحجب فلم أره، فسألت عنه، فقيل لي: هو أبو عبيد الخوّاص أحد الخواصّ له سبعون سنة ما رفع وجهه إلى السماء، فقيل له في ذلك، فقال: إني لأستحي أن أرفع إلى المُحسِن وجهًا مُسيئًا رضي الله عنه، واعجباه من مُطيع يتذلّل ويستحي مع إحسانه، ومن عاصٍ يتدلّل ولا يستحي مع عصيانه. اللّهمّ لا تحرمنا النظر إلى وجهك الكريم، وانفعنا ببركة أوليائك الصالحين، واحشرنا معهم في الدارين آمين.

---

(١) الصّلد: الصلب الأملس.
(٢) عرفة: جبل قرب مكة يقف عليه الحجّاج يوم التاسع من ذي الحجة، ويوم عرفة غير منوّن ولا تدخله الألف واللام.

(الحكاية الثامنة والخمسون: عن مالك بن دينار رضي الله عنه) قال: خرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام، وإذا بشاب يمشي في الطريق بلا زاد ولا ماء ولا راحلة، فسلَّمت عليه فردّ عليَّ السلام، فقلت: أيها الشاب من أين؟ قال: من عنده، قلت: وإلى أين؟ قال: إليه، قلت: وأين الزاد؟ قال: عليه، قلت: إن الطريق لا تقطع إلاّ بالماء والزّاد، فهل معك شيء؟ قال: نعم، قد تزوّدت عند خروجي بخمسة أحرف، فقلت: وما هذه الخمسة أحرف؟ قال: قوله تعالى: ﴿كهيعصٓ﴾ [مريم: ١]. قلت: وما معنى ﴿كهيعصٓ﴾؟ قال: أما الكاف فهو الكافي، وأما الهاء فهو الهادي، وأما الياء فهو المؤوي، وأما العين فهو العالم، وأما الصاد فهو الصادق، فمَن كان مُصاحبًا كافيًا وهاديًا ومؤويًا وعالمًا وصادقًا لا يضيع ولا يخشى ولا يحتاج إلى حمل الزاد والماء؛ قال مالك: فلما سمعت كلام هذا الشاب نزعت قميصي على أن أُلبسه إياه فأبى أن يقبله وقال: أيها الشيخ: العُري خير من قميص الدنيا، حلالها حساب، وحرامها عقاب، وكان إذا جنّه الليل رفع وجهه إلى السماء وقال: يا مَن تسرّه الطاعات، ولا تضرّه المعاصي، هَبْ لي ما يسرّك، واغفر لي ما لا يضرّك، فلما أحرم الناس ولبّوا، قلت: لِمَ لا تلبّي، فقال: يا شيخ أخشى أن أقول لبيك، فيقول لا لبيك ولا سعديك، ولا أسمع كلامك، ولا أنظر إليك، ثم مضى فما رأيته إلا في مِنًى وهو يقول:

إنَّ الحبيب الذي يرضيه سفك دمي	دمي حلال له في الحلّ والحرمِ
والله لو علمت روحي بمَن علقت	قامت على رأسها فضلاً عن القدمِ
يا لائمي لا تلمني في هواه فلو	عاينت منه الذي عاينت لم تلمِ
يطوف بالبيت قوم لو بجارحة	بالله طافوا لأغناهم عن الحرمِ
ضحّى الحبيب بنفسي يوم عيدهم	والناس ضحّوا بمثل الشّاء والنَّعمِ
للناس حجٌّ ولي حجٌّ إلى سكني	تُهدَى الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي

ثم قال: اللّهمّ إنَّ الناس ذبحوا وتقرّبوا إليك، وليس لي شيء أتقرّب به إليك سوى نفسي، وقد أهديتها إليك فتقبّلها مني، ثم شهق شهقة فخرّ ميتًا رحمه الله تعالى، وإذا بقائل يقول: هذا حبيب الله، هذا قتيل الله قتل بسيف الله، فجهّزته وواريته، وبتّ تلك الليلة متفكّرًا في أمره، فرأيته في منامي، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: فعل بي كما فعل بشهداء بدر، وزادني، فقلت: لِمَ زادك؟ قال: لأنهم قتلوا بسيوف الكفّار، وأنا قتلت بمحبة الجبار رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به.

Marfat.com

(الحكاية التاسعة والخمسون: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت في البادية شابًا حدثًا كأنه سبيكة[1] فضة، قد ولع بجسمه الوله يريد الحجّ، فصحبته وأوصيته، وذكرت له بُعْد المسافة، فأنشأ يقول:

بعيد على الكسلان أو ذي ملالة ... فأما على المشتاق غير بعيد

وقيل: لمّا وقف الشبلي رضي الله تعالى عنه بعرفات لم ينطق بشيء حتى غربت الشمس، فلما جاوز العَلَمين هَمَلَت عيناه بالدموع، وأنشأ يقول:

أروح وقد ختمت على فؤادي ... بحبك أن يحلّ به سواكا
فلو أني استطعت غمضت طرفي ... فلم أنظر به حتى أراكا
وفي الأحباب مختصّ بوجد ... وآخر يدعي معه اشتراكا
إذا انسكبت دموع في خدود ... تبيّن مَن بكى ممَّن تباكى

وقال الفُضيل بن عيّاض رضي الله تعالى عنه والناس وقوف بعرفات: ما تقولون؟ لو قصد هؤلاء الوفد بعض الكرماء يطلبون منه دانقًا، أكان يردّهم؟ قالوا: لا، قال: فقال: والله للمغفرة في جنب كرم الله أهون على الله عزّ وجلّ من الدانق في جنب كرم ذلك الرجل. ووقف الفُضيل رضي الله تعالى عنه أيضًا في بعض حجّاته ولم ينطق بشيء، فلما غربت الشمس قال: واسوأتاه وإن عفوت.

(الحكاية الستون: عن إبراهيم بن المهلب السائح رضي الله تعالى عنه) قال: بينا أنا أطوف، فإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: سيدي بحبك إلا رددت عليَّ قلبي؟ فقلت لها: يا جارية من أين تعلمين أنه يحبك؟ فقالت: بالعناية القديمة جيّش في طلبي الجيوش وأنفق الأموال، حتى أخرجني من بلاد الشرك وأدخلني في التوحيد، وعرّفني نفسه بعد جهلي إياه، فهل هذا يا إبراهيم إلا لعناية ومحبة، قلت: فكيف حبك له؟ قالت: أعظم شيء وأجلّه، قلت: وكيف هو؟ قالت: هو أرقّ من الشراب، وأحلى من الجلاّب[2]، ثم ولّت وهي تقول:

وذي قلق لا يعرف الصبر والعزا ... له مقلة عبرا أضرّ بها البكا
وجسم نحيل من شجى لوعة الهوى ... فمَن ذا يداوي المستهام من الضنا
ولا سيما والحبّ صعب مرامه ... إذا عطفت منه العواطف بالقنا

---

(١) السبيكة: القطعة المذوّبة المسبوكة من الذهب أو الفضة ونحوها. (ج) سبائك.
(٢) الجُلاّب: ماء الورد (مع).

(الحكاية الحادية والستون: عن بعض الصالحين رضي الله تعالى عنه) قال: كانت إلى جنبي عجوز قد أضنتها العبادة، فسألتها أن ترفق بنفسها، فقالت: يا شيخ أما علمت أن رفقي بنفسي غيَّبني عن باب المولى، ومَن غاب عنه مشتغلاً بالدنيا عرّض نفسه للمِحَن والبلوى، وما قدر عملي إذا عملت واجتهدت، فكيف إذا قصرت، ثم قالت: واسوأتاه من حسرة السباق وفجعة الفراق. فأما حسرة السباق: فإذا قام القائمون من قبورهم ركب الأبرار نجائب الأنوار، وساروا إلى قصور من العزّ والجلال، ورفعت لهم منازل المحبّين، وقدّمت بين أيديهم نجائب المقرّبين، وبقي المسبوق في جملة المحزونين، فعند ذلك ينقطع فؤاده حسرةً وتأسّفًا، ويذوب ندامةً وتلهفًا. وأما فجعة الفراق: فعند تمييز الناس بالجمع والإفراق؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى إذا جمع الخلق في صعيد واحد، أمر ملكًا ينادي: أيها المجرمون امتازوا، إنّ المتقين قد فازوا، وهو قوله تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ [يٓس: ٥٩] فيميّز الرجل من زوجته، والولد من والديه، والحبيب من حبيبه؛ هذا يحمل مبجلاً إلى جنّات النعيم، وهذا يُساق مسلسلاً مغلولاً إلى عذاب الجحيم، وقد طال منهم التلفّت والوداع، ودموعهم تجري كالأنهار بفجعة الانقطاع، وأنشدوا في البين والفراق:

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا ... ورأيت كيف نكرّر التوديعا
لعلمت أنّ من الدموع محدثًا ... ورأيت من عتب الحديث دموعا

قلت: وقد أبدلت هذا البيت الثاني ببيت يناسب فراق الآخرة.وحال الباكين فيها فقلت:

لعلمت أن من الدموع لأنهرا ... تجري وعاينت الدماء دموعا

(الحكاية الثانية والستون: عن مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت في بعض الأيام شابًا عليه آثار الدعاء ونور الإجابة، ودموعه تتساقط على وجهه فعرفته، وكنت أعهده بالبصرة ذا نعمة، فبكيت لما رأيت من حاله على تلك الصفة، وبكى الآخر لما رآني وبدأني بالسلام وقال: يا مالك بالله عليك إلا ذكرتني في وقت خلواتك، وسألت الله لي التوبة والمغفرة لعلّه يرحمني ويغفر لي، ثم أنشأ يقول:

وعرّض بذكري حين تسمع زينب ... وقل ليس يخلو ساعة منك باله
عساها إذا ما مرّ ذكري بسمعها ... تقول فلان عندكم كيف حاله

قال مالك رضي الله تعالى عنه: ثم ولّى ودموعه تستبق، فلما دخلت أشهر الحجّ توجهت إلى مكة، فبينما أنا في المسجد الحرام إذ رأيت حلقة يجتمع الناس إليها، وإذا بفتى يتضرّع وقد قطع على الناس طوافهم بكثرة بكائه، فوقفت عليه أنظر مع الناس إليه،

Marfat.com

فإذا هو الرجل صاحبي، فسُررت به وسلَّمت عليه، وقلت له: الحمد لله الذي أبدلك بخوفك أمنًا، وأعطاك ما تتمنى، قال: فأنشد يقول:

فساروا بلا خوف إلى خيف أمنهم ... فلما أناخوا في مِنى بلغوا المنى
تمنّوا فأعطاهم مناهم وصانهم ... بتوبته الخلصا عن الفحش والخنا[(١)]
وسامح عن كل الذنوب التي جرت ... وما اجترح العبد المسيء وما جنى
أدار عليهم ساقي القوم خمرة ... فنادوا مَن الساقي فقال لهم: أنا
أنا الله فادعوني أنا الله ربكم ... لي المجد والعلياء والملك والسنا

قال مالك: ثم قلت له: بالله عليك أطلعني على أمرك كيف كان؟ فقال: ما كان إلا خيرًا دعاني بفضله، فأجبته، وأعطاني كل ما منه طلبته، وأنشأ يقول:

ولما دعني قلت أهلاً ومرحبًا ... بوصلك ما أحلى هواك وأعذبا
وحقك أنت السؤل والقصد والمنى ... وإن لامني فيك العذول وأطنبا
فقلبي ما اشتاق الأراك لأجله ... ولا أرض نعمان ولا الحيف أوقبا[(٢)]
كذاك النقا والبان والجزع واللوا ... بهم إن حدا الحادي وغنّى وأطربا
وإن عرضوا يومًا بسعدى وزينب ... فما اشتقتُ سعدى لا ولا رمت زينبا
لئن ذكرت تلك المنازل سادتي ... فقصدي دون الكلّ ساكنة الخبا

قال مالك: ثم عاد إلى طوافه وتركني ومضى، فلم أره ولم أجد له خبرًا.

(الحكاية الثالثة والستون: عن بعض الصالحين) قال: حججت سنة من السنين وكانت سنة كثيرة الحرّ والسّموم، فلما كان ذات يوم وقد توسطنا أرض الحجاز[(٣)]، انقطعت عن الحاجّ، وغفوت قليلاً فلم أشهر إلا وأنا وحدي في البرية فلاحَ لي شخص أمامي، فأسرعت إليه فلحقته، وإذا به غلام أمرد لا نبات بعارضيه، كأنه القمر المنير أو الشمس الضاحية، وعليه أثر الدلال والتّرف، فقلت له: السلام عليك يا غلام، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا إبراهيم، فعجبت منه كلّ العجب، ورابني أمره، فلم أتمالك أن قلت له: يا سبحان الله من أين عرفتني ولم ترني قبلها، فقال لي: يا

---

(١) الخنا: الفحش في الكلام.
(٢) الأراك: شجر كثير الفروع من الفصيلة الزيتونية، ينبت بريًا في شبه جزيرة العرب وفي فلسطين وتتخذ المساويك من فروعه ومن عروقه.
(٣) الحجاز: بلاد في شبه جزيرة العرب. يحدّها خليج العقبة شمالاً، والبحر الأحمر غربًا، ونجد شرقًا وعسير جنوبًا، وهي تنقسم إلى سلسلة جبال مشرفة على بطائح نجد وساحل تهامة. (الرسالة القشيرية ص ٣٣٦).

Marfat.com

إبراهيم ما جهلت مُذ عرفت، ولا قطعت مُذ وصلت، فقلت له: ما الذي أوقفك في هذه البرية في مثل هذه السنة الكثيرة الحرّ والقيظ[١]، فأجابني يا إبراهيم ما أنست بسواه ولا رافقت غيره، وأنا منقطع إليه بالكلّيّة مُقِرٌّ له بالعبودية فقلت له من أين المأكول والمشروب؟ فقال: تكفل لي به المحبوب، فقلت: والله إني خائف عليك لأجل ما ذكرت لك، فأجابني ودموعه تنحدر على خدّيه كاللؤلؤ[٢] الرطب، وأنشأ يقول:

مَن ذا يخوفني بالبرّ أقطعه ... إلى المحبّ وقد قدّمت إيمانا
الحبّ أقلقني والشوق أزعجني ... ولا يخاف محبّ الله إنسانا
فلو أجوع فذكر الله يشبعني ... ولا أكون بحمد الله عطشانا
وإن ضعفت فوجد منه يحملني ... من الحجاز إلى أقصى خراسانا[٣]
فهل لصغرى تكون اليوم تحقرني ... دع عنك عذلك لي قد كان ما كانا

قال: فقلت له: سألتك بالله يا غلام إلا ما أعلمتني بحقيقة عمرك، فقال: لقد آليت عليّ بأجلّ الأيمان عندي، عمري ثنتا عشرة سنة، ثم قال: يا إبراهيم ما الذي ألجأك إلى ذلك؟ تسألني عن عمري؟ فقد أخبرتك بحقيقته، فقلت: والله لقد دهشني ما سمعت منك، فقال: الحمد لله على ما أولانا من نعمه، وفضّلنا على كثير من عباده المؤمنين، قال: فتعجبت من حُسن وجهه، وبهاء طلعته، وحلاوة منطقه، وقلت: سُبحان الله الخالق المصوّر، فأطرق الغلام رأسه إلى الأرض مليًا، ثم رفع رأسه إلى السماء ينظرني شزرًا[٤]، وأنشأ يقول:

ويحي إذا كان الجحيم جزائي ... ماذا يحلّ ببهجتي وبهائي
يبلى العذاب محاسني ويشينها ... ويطول مني في الجحيم بكائي
ويقول لي: الجبار جلّ جلاله ... يا عبد سوء أنت من أعدائي
بارزتني وعصيت أمري جاهلاً ... أنسيت عهدي ثم يوم لقائي
وترى وجوه الطائعين كأنها ... بدر بَدَا في ليلة الظلماء

(١) القيظ: شدة الحرّ.
(٢) اللؤلؤ: الدّر، وهو يتكوّن في الأصداف في بعض البحار، ويغوص الصيّادون عليه في مغاوص معلومة يكثر استخراجه في بلدان الخليج العربي وغيرها.
(٣) خراسان: بلاد قديمة في آسيا، وهي مؤلّفة من (خور) بمعنى شمس و(أسان) بمعنى مشرق. اشتهر منها نيسابور وهراة وبلخ ومرو. غزاها الضحاك ٦٥٦م، وحشد فيها أبو مسلم الخراساني ودعاة العباسيين ٧٤٨م الجيوش التي قضت على الخلافة الأموية. (الرسالة القشيرية ص ١٤٣).
(٤) الشُزر: نظرة الإعراض، أو الغضب، أو الاستهانة. يقال: نظر إليه شزرًا.

Marfat.com

كشف الحجاب فعاينوه فأدهشوا ونسوا نعيمهم وكلّ رخاءِ
وكساهم حُلل المهابة والرّضا وحبا الوجوه بنضرة وبهاءِ

ثم قال: يا إبراهيم اعلم أن المنقطع، مَن قطعه الحبيب، والمواصل مَن أخذ من الطاعة بنصيب ولكن أنت المنقطع عن الحاجّ يا إبراهيم، فقلت له: نعم، أنا ذاك، وأنا أسألك بالله إلا ما دعوت لي أن ألحق مَن سبقني من أصحابي، قال: فنظرت الغلام قد لمح بطرفه إلى السماء، وتكلم بكلمات حرّك بها شفتيه، فعند ذلك لحقني سنة من النوم وأغمي عليّ، فلم أفق إلا وأنا في وسط الحاج وزميلي يقول لي: يا إبراهيم احذر أن تقع عن الراحلة[1]، ولم أعرف أصعد الغلام إلى السماء أم نزل في الأرض، فلما وافينا مكة ودخلت الحرم، إذا أنا بالغلام وهو متعلق بأستار الكعبة، وهو يبكي ويقول:

تعلقت بالأستار والبيت زرته وأنت بما في القلب والسرّ أعلم
أتيت إليه ماشيًا غير راكب لأني على صغري محبّ متيّم
هويتك طفلاً حيث لا أعرف الهوى فلا تعذلوني أني متعلم
وإن كان قد حانت إلٰهي منيتي لعلي بوصل منك أحظى وأغنم

قال: فأرخى نفسه ووقع ساجدًا وأنا أنظر إليه، فأتيته فحرّكته، فإذا هو قد قضى نحبه، رضي الله تعالى عنه، قال: فتأسفت عليه كل الأسف، ومضيت إلى راحلتي، وأخذت ثوبًا واستعنت بمَن يساعدني عليه حتى أُواريه، فأتيت إليه فلم أجده، فسألت عنه الحجاج فلم أجد مَن قال: إنه رآه حيًا ولا ميتًا فعلمت أنه مستور عن أعين الخلق، وأنه لم يره غيري، فأتيت إلى مكاني وغفوت قليلاً، فرأيته في المنام في موكب عظيم، وهو في أوّلهم، وعليه من النور والحلل ما لا أُحسِن أن أصفه، فقلت له: ألست صاحبي؟ فقال: نعم، فقلت له: ألست متّ؟ قال: كان ذلك، فقلت له: والله لقد طلبتك أن أكفّنك وأُصلّي عليك فلم أجدك، فقال: يا إبراهيم اعلم أن الذي من بلدي أخرجني، وبحبه شوّقني، وعن أهلي غرّبني هو كفّنني وما أحوجني، فقلت له: ما الذي فعل بك إلٰهك بعد ذلك؟ قال: أوقفني بين يديه، وقال لي: ما بغيتك؟ فقلت: إلٰهي وسيدي أنت بغيتي ومناي، فقال لي: أنت عبدي حقًا حقًا، ولك عندي أن لا أحجب عنك ما تريد، فقلت: أريد أن تشفعني في القرن الذي أنا فيه، فقال: شفعتك فيه، ثم إنه صافحني، فاستيقظت بعد المصافحة من منامي وأصبحت وقضيت ما كان عليّ من فرائض الحجّ ونسكه، ولم يقرّ قلبي من ذكر الغلام وتأسّفي عليه، وسرت في جملة الحاجّ، فلم أرَ أحدًا إلا ويقول لي: يا إبراهيم لقد أزعجت الناس من طيب رائحة يدك. وقال بعض

(١) الراحلة: النجيب من الإبل ذكرًا أو أنثى، الصالح للأسفار والأحمال (ج) رواحل.

Marfat.com

المحدّثين لهذا الخبر: لم تزل رائحة الطيب تخرج من يد إبراهيم حتى قضى نحبه، رحمة الله عليه.

(الحكاية الرابعة والستون: عن إبراهيم الخوّاص[١] رضي الله تعالى عنه) قال: حججت سنة من السنين، فبينما أنا أمشي مع أصحابي، إذ عارضني عارض في سرّي يقتضي الخلوة وخروجًا عن الطريق الجادّة، فأخذت طريقًا غير الطريق الذي عليه الناس، فمشيت ثلاثة أيام بلياليهنّ ما خطر على سرّي ذكر طعام ولا شراب ولا حاجة، فانتهيت إلى برية خضراء فيها من كل الثمرات والرياحين، ورأيت في وسطها بحيرة، فقلت: كأنها الجنة، وبقيت متعجبًا؛ فبينما أنا كذلك أتفكر، إذا أنا بنفر قد أقبلوا سيماهم سيما الآدميين، عليهم المرقعات الحِسان، والفوط[٢] الملاح، فحفوا بي وسلّموا عليّ، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته أين أنا وأنتم؟ ثم وقع بخاطري بعد سؤالي لهم أنهم من الجنّ، وأن البقعة بقعة غريبة، فقال قائل منهم: قد جرت بيننا مسألة واختلفنا فيها، ونحن نفرٌ من الجنّ قد سمعنا كلام الله عزّ وجلّ من سيدنا محمد ﷺ ليلة العقبة[٣]، وسلبتنا نغمة كلامه جميع أمور الدنيا، وقد قيّض الله لنا هذه البحيرة في هذه البرية، قلت: وكم بيننا وبين الموضع الذي تركت فيه أصحابي، فتبسم بعضهم وقال: يا أبا إسحٰق إن لله عزّ وجلّ أسرارًا وعجائب، إن الموضع الذي أنت فيه لم يحضره آدميّ قبلك إلا شاب من أصحابكم توفي هٰهنا وذلك قبره، وأشار إلى قبره على شفير[٤] البحيرة، حوله روضة ورياحين لم أرَ مثلها قبل، ثم قال: بينك وبين القوم الذين فارقتهم مسيرة كذا وكذا من شهر، أو قال كذا وكذا من سنة، والله أعلم أيهما ذكر إبراهيم؛ قال: قلت: أخبروني عن الشاب، فقال قائل منهم: بينما نحن قعود على شفير البحيرة نتذاكر المحبة ونتحاور فيها إذا بشخص قد أقبل إلينا وسلّم علينا، فرددنا عليه السلام، وقلنا له: من أين أقبل الشاب؟ قال: من مدينة نيسابور، قلنا له: ومتى خرجت منها؟ قال: منذ سبعة أيام، قلنا له: وما الذي أزعجك على الخروج من وطنك؟ قال: سمعت قول الله تعالى: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا

---

(١) هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل (توفي ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م) أبو إسحٰق الخواص، صوفي، كان أوحد المشايخ في وقته. من أقران الجنيد. ولد في سُرَّ مَن رأى ومات في جامع الريّ. له كتب مصنّفة. والخواص: بائع الخوص. الأعلام ١/ ٢٨؛ وتاريخ بغداد ٦/ ٧؛ والرسالة القشيرية ص ٤١١.

(٢) الفوط: (ج) الفوطة: المئزر.

(٣) العقبة التي بويع فيها النبي ﷺ بمكة فهي عقبة بين منى ومكة بينها وبين مكة نحو ميلين وعندها مسجد ومنها تُرمَى جمرة العقبة. (معجم البلدان ٤/ ١٣٤).

(٤) الشفير: شفير الوادي: جانبه وحرفه وناحيته من أعلاه.

تنصرون﴾ [الزّمر: ٥٤] قلنا له: فما معنى الإنابة، وما معنى التسليم، وما معنى هذا العذاب؟ فقال: الإنابة، أن يرجع بك منك إليه. قلت: ولم يذكر التسليم في الأصل الذي نقلت منه، ولعله أن تسلم نفسك له، وتعلم أنه أولى بك منك، قال: ثم قال: والعذاب، وصاح صيحة عظيمة فمات فواريناه، وهذا قبره رضي الله تعالى عنه، قال إبراهيم: فتعجبت مما وصفوا، ثم دنوت من قبره، فإذا عند رأسه طاقة نرجس(١) كأنها رحى(٢) عظيمة، وعلى قبره مكتوب: هذا قبر حبيب الله، قتيل الغيرة، وعلى ورقه مكتوب صفة الإنابة، قال: فقرأت ما على النرجس مكتوب، فسألوني أن أفسّره لهم، ففسّرته لهم، فوقع فيهم الطرب، فلما أفاقوا وسكنوا قالوا: قد كفينا جواب مسألتنا، قال: ووقع عليّ النوم، فما انتبهت إلا وأنا قريب من مسجد عائشة رضي الله تعالى عنها، وإذا في وطائي(٣) طاقة ريحان، فبقيت معي سنة كاملة لم تتغيّر، فلما كان بعد أيام فقدتها رضي الله تعالى عنه وعنهم.

(الحكاية الخامسة والستون: عن بعض الصالحين) قال: خرجت مرّة إلى الحجّ، فنمت ذات ليلة مقمرة، فسمعت صوت شخص ضعيف يقول لي: يا أبا إسحٰق قد انتظرتك من الغداة، فدنوت منه، فإذا هو شاب نحيل الجسم، كأنما أشرف على الموت وحوله رياحين كثيرة، منها ما أعرفه ومنها ما لا أعرفه، فقلت له: من أين أنت؟ فسمّى لي بلده وقال: قد كنت في عزّ وثروة، فطالبتني نفسي بالعزلة، فخرجت هائمًا إلى البراري والقِفار، وها أنا قد أشرفت على الموت، وسألت الله أن يقيّض لي وليًّا من أوليائه، وأرجو أنك هو، فقلن له: ألك والدان؟ قال: نعم وإخوة وأخوات، فقلت: هل اشتقت إليهم أو ذكرتهم؟ قال: لا إلا اليوم أردت أن أشمّ ريحهم فاحتوشتني السّباع والبهائم وبكين معي وحملن إليّ هذه الرياحين، قال إبراهيم: فأقبلت حيّة عظيمة وفي فمها نرجس كثير، فقالت: دع شرّك عنه، فإن الله مطّلع على أوليائه وأهل طاعته، فغشي عليّ، فما أفقت حتى خرجت روحه رضي الله تعالى عنه، ثم وقع عليّ سُبات، فانتبهت وأنا على الجادة، فلما قضيت الحجّ دخلت بلده التي ذكر، فاستقبلتني امرأة بيدها ركوة ماء ما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأتني قالت: يا أبا إسحٰق كيف رأيت الشاب فإني في انتظارك منذ ثلاثة أيام، قال: فذكرت لها القصة إلى أن قلت: قال: أردت أن أشمّ

---

(١) النرجس: جنس نباتات بصلية حولية من فصيلة النرجسيات. أنواعه كثيرة العدد يعيش ويجود في جميع الأتربة الزراعية، ومنه أنواع تزرع لجمال زهرها وطيب رائحتها. وزهرته تُشبَّه بها الأعين. واحدتها: نرجسة.

(٢) الرحىٰ: الأداة التي يطحن بها. أو حجرها المستدير.

(٣) الوِطاء: خلاف الغطاء؛ أي: ما تفترشه.

Marfat.com

ريحهم، فصاحت وقالت: آه بلغ الشمّ وخرجت روحها فخرج أتراب[1] لها عليهنّ المرقعات والفوط، فتولين أمرها رحمة الله تعالى عليهم.

(الحكاية السادسة والستون): حُكِيَ أنه ركب جماعة من التجار في البحر متوجهين إلى الحج، فانكسر المركب وضاق وقت الحجّ، وفيهم إنسان معه بضاعة بخمسين ألفًا، فتركها وتوجّه إلى الحجّ، فقالوا له: لو أقمت في هذا المكان لعلّ أن تخرج لك بعض بضاعتك، فقال: والله لو حصلت لي الدنيا كلها ما اخترتها على الحجّ، ورؤية مَن يشهده من أولياء الله تعالى بعد أن رأيت منهم ما رأيت، قالوا: وما رأيت منهم؟ قال: كنّا مرة متوجّهين إلى الحج، فأصابنا عطش في بعض الأيام، وبلغت الشربة كذا وكذا، ودرت في الركب من أوّله إلى آخره فلم يحصل لي ماء لا ببيع ولا غيره، وبلغ العطش مني الجهد، فتقدمت قليلاً وإذا أنا بفقير معه عكاز وركوة، وقد ركّز العكاز في ساقية بركة، والماء ينبع من تحت العكاز، ويجري في الساقية إلى البركة، فجئت إلى البركة فشربت وملأت قربتي[2]، ثم أعلمت الركب فاستقوا كلهم منها وتركوها وهي تطفح، قال: فهل يسمح بفوت مشهد يشهده مثل هؤلاء القوم رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية السابعة والستون: عن أبي عبد الله الجوهري رضي الله تعالى عنه) قال: كنت سنة في عرفات، فلما كان في آخر الليل نمت فرأيت مَلَكين نزلا من السماء، فقال أحدهما لصاحبه: كم وقف هذه السنة؟ قال له صاحبه: ست مئة ألف، فلم يقبل منهم إلا ستة أنفس، قال: فهممت أن ألطم وجهي وأنوح على نفسي، فقال له الآخر: ما فعل الله تعالى في الجميع قال: نظر الكريم إليهم بعين الكرم، فوهب لكلّ واحد منهم مئة ألف وغفر لستّ مئة ألف بستة أنفس، ﴿وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

(الحكاية الثامنة والستون: عن علي بن الموفق رضي الله تعالى عنه) قال: جلست يومًا في الحرم وقد حججت ستين حجة، فقلت في نفسي: إلى متى أتردد في هذه المسالك والقِفار؟ فغلبتني عيناي، فنمت فإذا أنا بقائل يقول لي: يا ابن الموفق هل تدعو إلى بيتك إلا مَن تحبّ، فطوبى لمَن أحبّه المولى وحمله إلى المقام الأعلى، وأنشأ يقول:

دعوت إلى الزيارة أهل ودّي ... ولم أطلب بها أحدًا سواهم
فجاؤوني إلى بيتي كرامًا ... فأهلاً بالكرام ومَن دعاهم

---

(١) التّرب: المماثل في السن ذكرًا كان أو أنثى (ج) أتراب.

(٢) القِربة: وعاء من جلد يُخرَز من جانب واحد.

Marfat.com

ورُوِيَ عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه أنه قال: رأيت شابًا عند الكعبة يُكثِر الركوع والسجود، فدنوت منه وقلت له: إنك تُكثِر الصلاة، فقال: أنتظر الإذن بالانصراف، قال: فرأيت رقعة سقطت عليه فيها: من العزيز الغفور إلى العبد الصادق الشكور، انصرف مغفورًا لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية التاسعة والستون: عن بعض الصالحين) قال: بينما أنا جالس عند الكعبة إذ جاء شيخ قد شال ثوبه على وجهه، ودخل إلى زمزم[1] فاستقى منها بركوة كانت معه، وشرب فأخذت فضلته، فشربت فإذا هو ماء مخلوط بعسل لم أذق شيئًا قطّ أطيب منه، قال: فالتفتّ لأنظره فإذا هو قد ذهب، قال: ثم عدت من الغد فجلست عند البئر، وإذا الشيخ قد أقبل وثوبه مسدول على وجهه، ودخل من باب زمزم، واستقى دلوًا وشرب، فأخذت فضلته فشربت منها، فإذا لبن ممزوج بسكر، فم أذق شيئًا أطيب منه، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية السبعون: عن سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه) قال: مخالطة الوليّ للناس ذلّ، وتفرّده بالله عزّ، وقلّما رأيت وليًا لله تعالى إلا منفردًا. إن عبد الله بن صالح كان له سابقة وموهبة من الله جزيلة، وكان يفرّ من الناس من بلد إلى بلد حتى أتى مكة فطال مقامه فيها، فقلت له: لقد طال مقامك بها، قال لي: لِمَ لا أُقيم بها ولم أرَ بلدًا ينزل فيه من الرحمة والبركة أكثر من هذا البلد؟ والملائكة تغدو فيها وتروح، وإني أرى فيه أعاجيب كثيرة، وأرى الملائكة يطوفون بالبيت على صور شتّى لا يقطعون ذلك، ولو قلت كلّ ما رأيت لصغرت عنه عقول قوم ليسوا بمؤمنين، فقلت له: أسألك بالله إلا ما أخبرتني بشيء من ذلك؟ فقال: ما من وليّ لله تعالى صحّت ولايته إلا وهو يحضر هذا البلد في كل ليلة جمعة لا يتأخر عنه فمقامي هنا لأجل مَن أراه منهم. ولقد رأيت رجلاً يقال له: مالك بن القاسم الجيلي، وقد جاء ويده غمرة، فقلت له: إنك قريب عهد بالأكل، فقال لي: أستغفر الله تعالى، فإني منذ أسبوع لم آكل، ولكن أطعمت والدتي وأسرعت لألحق صلاة الفجر، وبينه وبين الموضع الذي جاء منه تسع مئة فرسخ[2]، فهل أنت مؤمن بذلك؟ قلت: نعم، قال: الحمد لله الذي أراني مؤمنًا. قلت: وقدر تسع مئة فرسخ مئة وسبع عشرة مرحلة، وذلك مسيرة ثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يومًا في مجرّد سير النهار دون الليل، أو قال الليل دون النهار، وقد أخبرني بعضهم أنه يرى حول الكعبة الملائكة والأنبياء والأولياء عليهم السلام، وأكثر ما يراهم ليلة الجمعة، وكذلك ليلة

---

(١) زمزم: بئر بمكة عند الكعبة غير منصرف للعلمية والتأنيث.

(٢) الفرسخ: فرسخ الطريق: مسافة تبلغ ثلاثة أميال هاشمية، والميل الهاشمي ٥٧٦٠ مترًا (ج) فراسخ (مع) فارسي.

الاثنين وليلة الخميس، وعدّد لي جماعة كثيرة من الأنبياء والأولياء، وذكر أنه يرى كلّ واحد منهم في موضع معين يجلس فيه حول الكعبة، ويجلس معه أتباعه من أهله وقرابته وأصحابه؛ وذكر أن نبيّنا ﷺ يجتمع عنده من أولياء الله تعالى خلق لا يُحصي عددهم إلا الله تعالى، ولم يجتمع على سائر الأنبياء كذلك. وذكر أن إبراهيم وأولاده ﷺ يجتمعون ويجلسون بقرب باب الكعبة بحذاء مقامه المعروف وموسى وجماعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بين الركنين اليمانيين، وعيسى وجماعة منهم عليهم الصلاة والسلام في جهة الحجر، ورأى فيه قبر إسماعيل عليه الصلاة والسلام وجماعة من الملائكة عليهم الصلاة والسلام عند الحجر الأسود(١)، ورأى سيد الخلق أجمعين المُرسَل رحمة للعالمين، تاج الأصفياء وخاتم الأنبياء سيدنا محمدًا ﷺ وعليهم أجمعين جالسًا عند الركن اليماني مع أهل بيته وأصحابه وأولياء أمته. وذكر أنه رأى إبراهيم وعيسى عليهما الصلاة والسلام أكثر الأنبياء محبة لأُمة محمد ﷺ وأكثرهم فرحًا بفضلهم وأنسهم بهم، ورأى في بعض الأنبياء غيرة من فضلهم، وذكر أسرارًا كثيرة منها ما ذِكره يطول، ومنها ما لا تحمله بعض العقول. قلت: ولا تستبعد الغيرة المذكورة، فقد كان من غيرة موسى عليه الصلاة والسلام وبكائه ليلة المعراج ما كان، والغيرة في الخير محمودة، وإنما يذمّ الحسد. وما ذكره عن إبراهيم وعيسى عليهما الصلاة والسلام مناسب لحالهما وكثرة ودّهما لهذه الأمة، يعرف ذلك مَن له الاطّلاع على الأخبار والآثار، بل يفهم ذلك من القرآن، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(الحكاية الحادية والسبعون): حُكِيَ أنه حجّ هشام بن عبد الملك(٢) قبل أن يلي الخلافة، فاجتهد أن يستلم الحجر الأسود فلم يمكنه، وجاء زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب(٣)، رضوان الله عليهم أجمعين، فوقف الناس له وتنحّوا عنه، حتى استلم، فقيل لهشام: مَن هذا؟ قال: لا أعرفه، فقال الفرزدق(٤):

---

(١) الحجر الأسود: حجر في الكعبة يستلمه الحُجاج عند طوافهم. ويكنّى به عن الحرمان والخيبة.

(٢) انظر ترجمته في الأعلام ٨/٨٦، وفي ابن الأثير ٥/٩٦، والطبري ٨/٢٨٣، وتاريخ الخميس ٢/٣١٨ ـ ٣٢٠.

(٣) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي (٣٨ ـ ٩٤ هـ = ٦٥٨ ـ ٧١٢ م) أبو الحسن الملقب بزين العابدين، رابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، وأحد مَن كان يُضرَب بهم المثل في الحلم والورع. يقال له: «علي الأصغر» للتمييز بينه وبين أخيه «علي الأكبر». مولده ووفاته بالمدينة. الأعلام ٤/٢٧٧، ووفيات الأعيان ١/٣٢٠، وابن سعد ٥/١٥٦، وصفة الصفوة ٢/٥٢، وحلية ٣/١٣٣.

(٤) هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي (توفي ١١٠ هـ = ٧٢٨ م) أبو فراس، الشهير بالفرزدق شاعر من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل، ومهاجاته لها أشهر من أن تُذكَر. وقد جمع شعره في «ديوان». توفي في بادية البصرة=

لكني أعرفه، وأنشد يقول:

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا النقيّ التقيّ الطاهر العلم
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
ما قال لا قطّ، إلا في تشهّده ... لولا التشهّد كانت لاءه نعم
إذ رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
إن عدّ أهل التّقى كانوا أئمتهم ... أو قيل مَن خير أهل الأرض؟ قيل: هم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجدّه أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك مَن هذا بضائره ... العرب تعرف مَن أنكرت والعجم
يغضي حياء ويغضي من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم

ورُوِي أن زين العابدين رضي الله تعالى عنه كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة، ولا يدع صلوات الليل في السفر والحضر، وكان إذا توضأ اصفرّ لونه، وإذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: أتدرون بين يدي مَن أقوم. وكان رضي الله عنه إذا هاجت الريح سقط مغشيًا عليه. ووقع حريق في بيت هو فيه وهو ساجد، فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول الله النار النار، فما رفع رأسه حتى طُفِئَت، فقيل له في ذلك لمّا رفع رأسه، فقال: ألهتني عنها النار الأخرى. وكان رضي الله تعالى عنه يقول: اللَّهمّ إني أعوذ بك أن تحسن في لوامع العيون علانيتي وتقبح سريرتي. وكان رضي الله تعالى عنه يقول: إن قومًا عبدوا الله عزّ وجلّ رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وقومًا عبدوه شكرًا فتلك عبادة الأحرار. وكان رضي الله تعالى عنه لا يحبّ أن يعينه على طهوره أحد، كان يستقي الماء لطهوره، ويخمره قبل أن ينام، فإذا قام من الليل بدأ بالسّواك[1] ثم يتوضأ ويأخذ في صلاته ويقضي ما فاته من وِرد النهار بالليل، وإذا مشى لا تجاوز يده فخذه، ولا يخطر بيده. وكان رضي الله تعالى عنه يقول: عجبت للمتكبّر الفخور الذي كان بالأمس نطفة، ويكون غدًا جيفة؛ وعجبت كل العجب لمَن شكّ في الله تعالى وهو يرى خلقه؛ وعجبت كل العجب لمَن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى؛ وعجبت كل العجب لمَن عمل لدار الفناء وترك دار البقاء. وكان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين معايشهم، فلما مات فقدوا ما كانوا يؤتون به بالليل، لأنه كان رضي الله تعالى عنه ينفق سرًا، ويظنّ الجاهل به

= وقد قارب المئة. الأعلام ٨/ ٩٣، وابن خلكان ٢/ ١٩٦، ومعاهد التنصيص ١/ ٤٥، وخزانة البغدادي ١/ ١٠٥.

(١) السّواك: عدد الأراك الذي تنظف به الأسنان بالدّلك (ج) سوك.

أنه نجيل، فلما مات وجدوه كان ينفق على أهل مئة بيت. وقال ابنه محمد الباقر[١] رضي الله تعالى عنهما: أوصاني أبي، فقال: لا تصحبنّ خمسة ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق: لا تصحبنّ فاسقًا فإنه يبيعك بأكلة فما دونها، قلت: يا أبت وما دونها؟ قال: يطمع فيها ثم لا ينالها. ولا تصحبنّ البخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه. ولا تصحبنّ كذّابًا، فإنه بمنزلة السراب[٢] يبعد عنك القريب، ويقرّب منك البعيد. ولا تصحبنّ أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك. وقد قيل: عدوّ عاقل خير من صديق أحمق. ولا تصحبنّ قاطع رحم فإني وجدته ملعونًا في ثلاثة مواضع من كتاب الله تعالى. ورُوِيَ أنه تكلم رجل في زين العابدين وافترى عليه، فقال له زين العابدين: إن كنت كما قلت فاستغفر الله تعالى، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله تعالى لك، فقام إليه الرجل معتذرًا وقبّل رأسه وقال: جعلت فداك، لست كما قلت فاستغفر لي، قال: غفر الله لك، فقال الرجل: «الله أعلم حيث يجعل رسالته» ولقد أحسن القائل:

وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف حقه ... وأتبع فيه الحقّ والحقّ لازم
وأما الذي مثلي فإن زلّ أو هفا ... تفضلت إن الحرّ بالفضل حاكم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ... مقالته عرضي وإن لام لائم
سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه عليّ الجرائم

وأقبل خادم لزين العابدين مسرعًا بشِواء من التنور لضيف عنده، فسقط من يده على بنيّ له صغير، فأصاب رأسه فقتله، فقال زين العابدين رضي الله تعالى عنه: أنت حرّ لأنك لم تتعمده، وأخذ في جهاز ابنه. ودخل عليّ محمد بن أُسامة بن زيد في مرضه، فجعل محمد يبكي، فقال له زين العابدين رضي الله تعالى عنه: ما شأنك؟ قال: عليّ دين، قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، فقال: هو عليّ. وخرج يومًا من المسجد فلقيه رجل فسبّه، فثارت إليه العبيد والموالي، فقال لهم زين العابدين: مهلاً عن الرجل، ثم أقبل عليه وقال: ما ستر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل، فألقى عليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد

(١) هو محمد بن علي زين العابدين بن الحسين الطالبي الهاشمي القرشي (٥٧ ـ ١١٤ هـ = ٦٧٦ ـ ٧٣٢ م) أبو جعفر الباقر. خامس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان ناسكًا عابدًا، له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال. ولد بالمدينة، وتوفي بالحميمة ودفن بالمدينة. الأعلام ٦/ ٢٧٠ ـ ٢٧١؛ وتذكرة ١/ ١١٧؛ وتهذيب ٩/ ٣٥٠؛ ووفيات ١/ ٤٥٠؛ وصفة الصفوة ٢/ ٦٠.

(٢) السَّراب: ما يُرى في نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء يلصق بالأرض، ويُضرب به المثل في الكذب والخداع.

Marfat.com

ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول ﷺ. قلت: لا يتوهم غرّ أنهم كانوا أهل دنيا ينفقون منها الأموال، إنما كانوا أهل سخاء وفتوّة وفضل ومروءة وجود مكارم النبوّة، كانت تأتيهم الدنيا فيُخرجونها في العاجل وفيهم يصدق قول القائل:

وهم ينفقون المال في أوّل الغنى ... ويستأنفون الصبر في آخر الصبر
إذا نزل الحيّ الغريب تقارعوا ... عليه فلم يدرِ المقلّ من المثري

وقال آخر:

تعوّد بسط الكفّ حتى لو أنه ... ثناها لقبض ألم تطعه أنامله
فلو لم يكن في كفّه غير نفسه ... لجاد بها فليتقّ الله سائله
هو البحر من أيّ النواحي أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله

وقال آخر:

كم للمواسم من سفعاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف النطق والبصر
ممَّن يعدك تكفي فقد والده ... كالفرخ في الوكر لم ينهض ولم يطر

وقال آخر:

إن الكريم ليخفي عنك عسرته ... حتى تراه غنيًا وهو مجهود
والبخيل على أمواله علل ... زرق العيون عليها أوجه سود

وقال حسان بن ثابت[1] رضي الله تعالى عنه لمّا قال رسول الله ﷺ لحيّ من الأنصار: «مَن سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الحرّ بن قيس على بخل فيه، فقال رسول الله ﷺ: وأيّ داء أدوأ من البخل، بل سيدكم عَمرو بن الجموح»[2]، فسمع حسان رضي الله تعالى عنه مقالة رسول الله ﷺ، فأنشأ يقول:

يقول رسول الله والحقّ قوله ... فقال لنا: ماذا تعدون سيدا؟
فقلنا له: حرّ بن قيس على الذي ... نبخله فينا وقد نال سوددا
فقال: وأيّ الداء أدوا من التي ... رميتم بها حرًا وغلّ بها يدا؟

---

(١) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري (توفي ٥٤ هـ = ٦٧٤ م) أبو الوليد، الصحابي، شاعر النبي ﷺ وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. واشتهرت مدائحه في الغسانيين وملوك الحيرة قبل الإسلام، وعَمِيَ قُبَيل وفاته. لم يشهد مع النبي ﷺ مشهدًا لعلّة أصابته. توفي في المدينة، وفي «ديوان شعره» ما بقي محفوظًا منه. الأعلام ٢/ ٧٥ ـ ١٧٦؛ وتهذيب التهذيب ٢/ ٢٤٧؛ ومعاهد ١/ ٢٠٩؛ وخزانة البغدادي ١/ ١١١.

(٢) أخرجه البخاري (خمس ١٥)، (مغازي ٧٣)، وأحمد بن حنبل ٣/ ٣٠٨.

وسوّد عمرو بن الجموح لجوده وحقّ لعمرو ذي الندى أن يسوّدا
إذا جاءه السؤال أنهب ماله وقال: خذوه إنه عدة غدا
فلو كنت يا حرّ بن قيس على التي على مثلها عمرو لكنت المسوّدا

فتبسّم رسول الله ﷺ من شِعره وقال: «إنَّ من الشعر لحِكَمًا»[1]، ورُوِيَ «لحكمة»[2] وقال الإمام الحفيل السيد الجليل ابن المبارك رضي الله تعالى عنه: سخاء النفس عمّا في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

(الحكاية الثانية والسبعون): حُكِيَ عن أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين أنه خرج حاجًا، فلما دخل المسجد الحرام نظر إلى البيت فبكى حتى علا صوته، فقيل له: إن الناس ينظرون إليك، فلو رفقت بصوتك قليلاً، فقال: ولِمَ لا أبكي لعلّ الله تعالى ينظر إليّ برحمة فأفوز بها عنده غدًا؟ ثم طاف بالبيت وصلّى خلف المقام ورفع رأسه من السجود، فإذا موضع سجوده مبتلّ بدموع عينيه. وقال لبعض أصحابه: إني لمحزون، وإن لمشتغل القلب، فقيل له: وما حزنك وما شغل قلبك؟ قال: إنه مَن دخل قلبه صافي خالص دين الله تعالى شغله عمّا سواه، وما عسى أن تكون الدنيا؟ هل هي إلا مركب ركبته، أو ثوب لبسته، أو امرأة أصبتها، أو أكلة أكلتها، أو كما قال رضي الله تعالى عنه. وقال: إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة، وأكثرهم معونة، إن نسيت ذكروك، وإن ذكرت أعانوك، قوّالون بحقّ الله تعالى، قوّامون بأمر الله عزّ وجلّ، فأنزل الدنيا بمنزلة منزل نزلت به وارتحلت عنه، أو كمال أصبته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء، وأنشد:

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذّة فأفنيتها هل أنت إلا كحالم؟

وقال رضي الله تعالى عنه: إن الغنى والعزّ يجولان في قلب المؤمن، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكّل استوطناه. قلت: يعني، وإن لم يجدا فيه توكّلاً رحلا

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣/ ٩٨، ١٢٢، ٢٥٨؛ ٤/ ٢٥٤؛ ٨/ ١٨، ٣١٤؛ ١٠/ ٣٤٩؛ ١٤/ ٤٩)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٤٢٥)، والعقيلي في (الضعفاء ١/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه الزبيدي في (اتحاف السادة المتقين ١/ ٢٤٩؛ ٦/ ٤٧١، ٤٧٧؛ ٧/ ٤٩٤)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٣٩٨؛ ٤/ ٤٣٠)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ٢٦٩)، (بغوي ٥/ ١٣٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٦؛ ٢/ ٢٧١)، وابن كثير في البداية والنهاية ٩/ ٤٥)، (خلال ٢٣٤، ٢٣٥).

Marfat.com

عنه، وفي معنى ذلك قلت:

يجول الغنى والعزّ في قلب مؤمن ... فإن ألفيا جوف القلوب توكلا
أقاما فأمسى العبد بالله ذا غنى ... عزيزًا وإن لم يلفياه ترحّلا

وقوله: مَن دخل قلبه صافي خالص دين الله عزّ وجلّ شغله عمّا سواه، أشار بذلك إلى المحبة، لأن صافي خالص دين الله يستلزم محبة الله حقيقة في القلب الذي حلّ فيه، فحينئذ يشتغل بالمحبوب عمّا سواه، فلا يسمع ولا يبصر إلا الله، ومنه قول القائل:

حبيب قلبي به سمعي به بصري

وعليه يدلّ الحديث: «حبك للشيء يعمي ويصمّ»[1]. وقال عبد الله بن عطاء رحمه الله: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علمًا منهم عند محمد بن عليّ بن الحسين رضي الله تعالى عنهم. وقال بعض أهل اللغة: إنما لُقّب محمد بن عليّ بن الحسين بالباقر، لتبقّره وتوسّعه في العلم، يقال: بقرت الشيء بقرًا: أي فتحته ووسعته، وسُمّي الأسد باقرًا، لأنه يبقر بطن فريسته. وقال محمد بن عليّ رضي الله تعالى عنهما: كان لي أخ في عيني عظيمًا، وكان الذي عظّمه في عينيّ صغر الدنيا في عينه.

(الحكاية الثالثة والسبعون: عن الليث بن سعد[2] رضي الله تعالى عنه) قال: حججت ماشيًا سنة ثلاث عشرة ومئة، فأتيت مكة، فلما صلّيت العصر رقيت أبا قبيس فإذا برجل جالس وهو يدعو، فقال: يا ربّ يا ربّ حتى انقطع نفسه، ثم قال: يا ربّاه يا ربّاه حتى انقطع نفسه، ثم قال: يا ألله يا ألله حتى انقطع نفسه، ثم قال: يا حيّ يا حيّ حتى انقطع نفسه، ثم قال: يا رحمٰن يا رحمٰن حتى انقطع نفسه، ثم قال: يا رحيم يا رحيم حتى انقطع نفسه، ثم قال: يا أرحم الراحمين حتى انقطع نفسه سبع مرّات، ثم قال: اللّهمّ إني أشتهي العنب فأطعمنيه، وإن بُردَيّ قد خَلِقا - يعني ثوبيه -؛ قال الليث: فوالله ما استتمّ كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنبًا، وليس على وجه الأرض يومئذ عنب، وبُردَين موضوعين، فأراد أن يأكل، فقلت: أنا شريكك، فقال: ولِمَ؟ قلت: لأنك كنت تدعو وأنا أؤمن، فقال لي: تقدّم وكُل ولا تخبأ منه شيئًا، فتقدّمت وأكلت معه شيئًا لم آكل قطّ مثله، وإذا به عنب وبُردَين فأكلت حتى شبعت والسلّة لم ينقص منها شيء، ثم قال لي: خذ أحبّ البُردَين إليك، فقلت له: أما البُردان فأنا غنيٌّ عنهما، فقال لي:

---

(١) أخرجه أبو داود (أدب ١١٦)، وأحمد بن حنبل ٥/ ١٩٤؛ ٦/ ٤٥٠.

(٢) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن الفهمي (٩٤ - ١٧٥ هـ = ٧١٣ - ٧٩١ م) بالولاء، أبو الحارث إمام أهل مصر في عصره، حديثًا وفقهًا. أصله من خراسان، ومولده في قلقشندة، ووفاته في القاهرة وكان من الكرماء الأجواد، وله تصانيف. الأعلام ٥/ ٢٨٤؛ ووفيات الأعيان ١/ ٤٣٨؛ وتهذيب التهذيب ٨/ ٤٥٩؛ وتذكرة الحفّاظ ١/ ٢٠٧؛ وحلية ٧/ ٣١٨؛ وتاريخ بغداد ١٣/ ٣.

توارَ عني حتى ألبسهما، فتواريت فاتّزر بأحدهما وارتدى بالآخر، ثم أخذ البُردَين اللذين كانا عليه، فجعلهما على يده ونزل فاتبعته، حتى إذا كان بالمسعى[١] لقيه رجل فقال: اكسني كساك الله يا ابن رسول الله حلّة من حُلَل الجنة، فدفعهما إليه، فلحقت الرجل فقلت له: مَن هذا؟ قال: جعفر بن محمد، فطلبته لأسمع منه شيئًا لأنتفع به، فلم أجده رضي الله تعالى عنه.

وقال الإمام سفيان الثوريّ رضي الله تعالى عنه: سمعت جعفر بن محمد الصادق[٢] رضي الله تعالى عنه يقول: لقد عزّت السلامة حتى لقد خَفِيَ مطلبها، فإن تكُ في شيء فيوشك أن تكون في الخمول، فإن لم توجد في الخمول، فيوشك أن تكون في التخلّي، وليس كالخمول، فإن لم تكن في التخلّي فيوشك أن تكون في الصمت، وليس كالتخلّي، فإن لم توجد في الصمت فيوشك أن تكون في كلام السّلف الصالح، والسعيد مَن وجد نفسه في خلوة.

ورُوِيَ أنه طلبه الخليفة أبو جعفر المنصور[٣] وقد تغيظ عليه وتواعده بالقتل، فلما دخل عليه تهدّده وأوعده وقال له: اتخذك أهل العراق إمامًا، يجبون إليك زكاة أموالهم، وتلحد في سلطاني وتبغيه الغوائل، قتلني الله إن لم أقتلك؛ فقال رضي الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين إن سُليمان عليه السلام أُعطِيَ فشكر، وإن أيوب عليه السلام ابتُلِيَ فصبر، وإن يوسف عليه السلام ظلم فغفر، فذهب غيظ المنصور وشرّه، وجاء سروره وخيره، فرضي عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه، وأثنى عليه؛ فلما خرج من عنده قيل له: ماذا قلت حين دخلت؟ قال: قلت: اللّهمّ احرسني بعينك التي لا تنام واكنفني بكنفك الذي لا يرام، واغفر لي، أو قال: وارحمني بقدرتك عليّ، لا أهلك وأنت رجائي، اللّهمّ إنك أجلّ وأكبر مما أخاف وأحذر، اللّهمّ بك أدفع في نحره، وأعوذ بك من شرّه. وقال رضي الله تعالى عنه: حدّثني أبي عن جدّي أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن أنعم الله عليه بنعمة فليحمد الله، ومَن استبطأ الرزق فليستغفر الله، ومَن أحزنه أمر، فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم»[٤].

---

(١) المسعى: السعي ومكانه (ج) مساع.

(٢) هو جعفر بن محمد الباقر بن علّي بن زين العابدين بن الحسين السبط (٨٠ ـ ١٤٨ هـ = ٦٩٩ ـ ٧٦٥ م) الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقّب بالصادق، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، ولقّب بالصادق لأنه لم يُعرف عنه الكذب قطّ. له «رسائل» مجموعة في كتاب. الأعلام ٢/١٢٦؛ ووفيات الأعيان ١/١٠٥؛ وصفة الصفوة ٢/٩٤؛ وحلية ٣/١٩٢.

(٣) أنظر ترجمته في الأعلام ٤/١١٧؛ وابن الأثير ٥/١٧٢ ثم ٦/٦؛ والطبري ٩/٢٩٢ ـ ٣٢٢.

(٤) أخرجه البخاري (أذان ٧)، (تهجد ٢١)، (قدر ٧)، (دعوات ٥١، ٦٨)، ومسلم (صلاة ١٢)،=

Marfat.com

(الحكاية الرابعة والسبعون: عن شقيق البلخيّ[1] رضي الله تعالى عنه) قال: خرجت حاجًا في سنة تسع وأربعين ومئة، فنزلت القادسية[2]، فبينما أنا أنظر إلى الناس وزينتهم وكثرتهم، نظرت فتى حسَن الوجه فوق ثيابه ثوب صوف مشتملاً بشملة وفي رِجليه نعلان، وقد جلس منفردًا، فقلت في نفسي: هذا الفتى من الصوفية يريد أن يكون كَلاً على الناس في طريقهم، والله لأمضينّ إليه ولأُوبخنّه، فدنوت منه، فلما رآني مُقبِلاً قال: يا شقيق «اجتنبوا كثيرًا من الظن إنّ بعض الظنّ إثم» وتركني ومضى، فقلت في نفسي: إنّ هذا لأمر عظيم قد تكلم على ما في نفسي ونطق باسمي، ما هذا إلا عبد صالح، لألحقنه ولأسألنه أن يحللني، فأسرعت في أثره فلم ألحقه، وغاب عن عيني، فلما نزلنا واقصة إذا به يصلي وأعضاؤه تضطرب، ودموعه تجري، فقلت: هذا صاحبي أمضي إليه وأستحلّه، فصبرت حتى جلس وأقبلت نحوه، فلما رآني مُقبِلاً قال: يا شقيق اقرأ ﴿وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى﴾ [طٰه: ٨٢] ثم تركني ومضى، فقلت: إنّ هذا الفتى لمن الأبدال، قد تكلم على سرّي مرّتين، فلما نزلنا إلى مِنى إذا بالفتى قائم على البئر وبيده ركوة يريد أن يستقي، فسقطت الركوة من يده في البئر وأنا أنظر إليه، فرأيته قد رمق السماء وسمعته يقول:

أنت ربي إذا ظمئت من الما ... ء وقوتي إذا أردت الطعاما

اللّهمّ أنت تعلم يا إلٰهي وسيدي ما لي سواها، فلا تعدمني إياها، قال شقيق رضي الله تعالى عنه: فوالله لقد رأيت البئر وقد ارتفع ماؤه، فمدّ يده وأخذ الركوة وملأها ماء وتوضأ وصلّى أربع ركعات، ثم مال إلى كثيب[3] من رمل، فجعل يقبض بيده ويطرحه في الركوة ويحرّكه ويشرب، فأقبلت إليه وسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، فقلت: أطعمني من فضل الله ما أنعم الله تعالى به عليك فقال: يا شقيق لم تزل نعمة الله تعالى

= مساجد ١٣٩)، (ذكر ٣٢، ٤٤، ٤٦)، وأبو داود (صلاة ٣٦، ١٣٥)، (وتر ٢٤ ـ ٢٦)، (طب ٢٤)، (أدب ٩٩، ١٠٣)، والترمذي (دعوات ٢٦، ٣٦، ١١٣)، والنسائي (أذان ٣٦)، (افتتاح ٣٢)، (سهو ٨٣)، (قيام الليل ٩).

(١) هو شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي (توفي ١٩٤ هـ = ٨١٠ م) أبو عليّ، زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراسان. ولعله أول مَن تكلم في علوم الأحوال (الصوفية) بكور خراسان، وكان من كبار المجاهدين. استشهد في غزوة كولان (بما وراء النهر). الأعلام ٣/ ١٧١؛ وطبقات الصوفية ٦١ ـ ٦٦؛ والوفيات ١/ ٢٢٦؛ وحلية ٨/ ٥٨؛ والشعراني ١/ ٦٥.

(٢) القادسية: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا وبينها وبين العذيب أربعة أميال. وبهذا الموضع كان يوم القادسية بين سعد بن أبي وقاص والمسلمين والفرس في أيام عمر بن الخطاب في سنة ١٦ من الهجرة. (معجم البلدان ٤/ ٢٩١).

(٣) الكثيب: التل من الرمل (ج) أكثبة وكثبان وكثب.

Marfat.com

علينا ظاهرة وباطنة، فأحسِن ظنّك بربك ثم ناولني الركوة، فشربت منها، فإذا سويق[1] وسكر، فوالله ما شربت قطّ ألذّ منه ولا أطيب منه ريحًا، فشبعت ورويت وأقمت أيامًا لا أشتهي طعامًا ولا شرابًا، ثم لم أره حتى دخلنا مكة فرأيته ليلة في جنب قبّة الشراب في نصف الليل يصلّي بخشوع وأنين وبكاء، فلم يزل كذلك حتى ذهب الليل؛ فلما رأى الفجر جلس في مصلاّه يسبّح ثم قام فصلّى؛ فلما سلّم من صلاة الصبح طاف بالبيت أسبوعًا، وخرج فتبعته، فإذا له حاشية وأموال، وهو على خلاف ما رأيته في الطريق، ودار به الناس من حوله يسلّمون عليه، فقلت لبعض مَن رأيته بالقرب منه: مَن هذا الفتى؟ فقال: هذا موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب[2] رضوان الله عليهم أجمعين، فقلت: قد عجبت أن تكون هذه العجائب والشواهد إلا لمثل هذا السيد.

(الحكاية الخامسة والسبعون: عن الشيخ أبي سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه)

قال: دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيرًا عليه خرقتان يسأل شيئًا، فقلت في نفسي: مثل هذا يكون كَلاًّ على الناس، فنظر إليّ وقال: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ [البقرة: ٢٣٥] فاستغفرت في سرّي، فناداني وقال: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾ [الشورى: ٢٥]. وقال بعضهم: كنت أسير في البادية مع القافلة، فرأيت امرأة تمشي بين يدي القافلة، فقلت: هذه ضعيفة سبقت القافلة لئلا تنقطع، كان معي دريهمات فأخرجتها من جيبي وقلت لها: خذيها فإذا نزلت القافلة فاطلبيني لأجمع لك شيئًا تكترين به مركوبًا يحملك، فمدّت يدها وقبضت شيئًا من الهواء، فإذا في يدها دراهم، فناولتني إياها وقالت: أنت أخذتها من الجيب ونحن أخذناها من الغيب، رضي الله تعالى عنها. وسمعت امرأة متعلقة بأستار الكعبة تنشد هذه الأبيات:

يا حبيب القلوب ما لي سواكا   فارحم اليوم زائرًا قد أتاكا
عِيلَ صبري وزاد فيك اشتياقي   وأبى القلب أن يحبّ سواكا[3]

---

(١) السويق: طعام يُتّخذ من دقيق الحنطة أو الشعير (ج) أسوقة.

(٢) هو موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر، أبو الحسن (١٢٨ ـ ١٨٣ هـ = ٧٤٥ ـ ٧٩٩ م) أبو الحسن سابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان من سادات بني هاشم. ومن أعبد أهل زمانه، وأحد كبار العلماء الأجواد، ولد في الأبواء وسكن المدينة، فأقدمه المهدي العباسي إلى بغداد ثم ردّه إلى المدينة وبلغ الرشيد أن الناس يبايعون للكاظم فيها، فلما حج مرّ بها فاحتمله معه إلى البصرة وحبسه عند واليها ثم نقله إلى بغدا فتوفي فيها سجينًا وقيل: قتل. الأعلام ٧/٣٢١؛ ووفيات الأعيان ٢/١٣١؛ والبداية والنهاية ١٠/١٨٣؛ وصفة الصفوة ١/١٠٣.

(٣) عِيلَ صَبْرُهُ: نَفِدَ.

Marfat.com

أنت سؤلي وبغيتي ومرادي ليت شعري متى يكون لقاكا
ليس قصدي من الجنان نعيمًا غير أني أريدها لأراكا

(الحكاية السادسة والسبعون: عن الشيخ أبي عبد الرحمٰن بن خفيف رضي الله تعالى عنه) قال: دخلت بغداد قاصدًا الحجّ في رأسي النخوة الصوفية، يعني حدّة الإرادة وشدّة المجاهدة واطّراح ما سوى الله تعالى، قال: ولم آكل أربعين يومًا، ولم أدخل على الجنيد. وخرجت ولم أشرب، وكنت على طهارتي، فرأيت ظبيًا[1] في البرية على رأس بئر وهو يشرب وكنت عطشانًا. فلما دنوت من البئر ولّى الظبي، وإذا الماء في أسفل البئر، فمشيت وقلت: يا سيدي ما لي عندك محلّ هذا الظبي. فسمعت قائلاً يقول من خلفي: جرّبناك فلم تصبر، ارجع فخذ الماء إن الظبي جاء بلا ركوة ولا حبل، وأنت جئت بالركوة والحبل، فرجعت فإذا البئر ملآنة، فملأت ركوتي، وكنت أشرب منها وأتطهّر إلى المدينة، ولم ينفد الماء؛ فلما رجعت من الحجّ دخلت الجامع، فلما وقع بصر الجنيد عليّ قال: لو صبرت ساعة لنبع الماء من تحت قدميك.

(الحكاية السابعة والسبعون: عن بعضهم): أنه كان يمشي في البرية فإذا هو بفقير يمشي حافي القدمين حاسر الرأس[2]، عليه خرقتان متّزر بإحداهما مُرْتَدٍ بالأخرى، ليس معه زاد ولا ركوة، قال: فقلت في نفسي: لو كان مع هذا ركوة وحبل إذا أراد الماء توضأ وصلّى كان خيرًا له، ثم لحقت به وقد اشتدت الهاجرة[3]، فقلت له يا فتى: لو جعلت هذه الخرقة التي على كتفك على رأسك، تتّقي بها الشمس كان خيرًا لك، فسكت ومشى؛ فلما كان بعد ساعة قلت له: أنت حافٍ ما ترى في نعلي، تلبسها ساعة وأنا ساعة؟ فقال: أراك كثير الفضول، ألم تكتب الحديث، قلت: بلى، قال: فلم تكتب عن النبيّ ﷺ «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[4] فسكت ومشينا، فعطشت ونحن على ساحل البحر، فالتفت إليّ وقال: أنت عطشان؟ فقلت: لا، فمشينا ساعة وقد كظّني العطش ثم التفت إليَّ وقال: أنت عطشان؟ فقلت: نعم وما تقدر تعمل معي في مثل هذا الوضع؟ فأخذ الركوة مني ودخل البحر وغَرَفَ الماء وجاءني به، وقال: اشرب، فشربت ماء أعذب من ماء النيل وأصفى لونًا، وفيه حشيش، ولله درّ القائل:

إذا وردوا الأطلال تاهت بهم عجبًا وإن لمسوا عودًا زَها غصنه رطبا

---

(١) الظبي: جنس حيوانات من ذوات الأظلاف والمجوّفات القرون، من فصيلة البقريات، أشهرها الظبي العربي الذي يقال له: الغزال الأعفر (ج) ظباء وأظب وظُبي.
(٢) حاسر الرأس: مكشوف الرأس. (٣) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحرّ.
(٤) أخرجه الترمذي (زهد ١١)، وابن ماجه (فتن ١٢)، والموطأ (حسن الخلق ٣)، (كلام ١٧).

Marfat.com

وإن وطئوا يومًا على ظهر صخرة لأنبتت الصماء من وطئهم عشبا
وإن وردوا البحر الأجاج لشربة لأصبح ماء البحر من ريقهم عذبا

قال: فقلت في نفسي: هذا وليّ لله تعالى ولكني أدعه حتى إذا وافينا المنزل سألته الصحبة، فوقف وقال: أيما أحبّ إليك، تمشي أو أمشي؟ فقلت في نفسي: إن تقدّم فاتني ولكني أتقدّم أنا وأجلس في بعض المواضع فإذا جاء سألته صحبة، فقال: يا أبا بكر إن شئت تقدم واجلس، وإن شئت تأخر فإنك لا تصحبني، ومضى وتركني، فدخلت المنزل وكان به صديق لي، وعندهم عليل، فقلت لهم: رشّوا عليه من هذا الماء، فرشّوا عليه، فبرأ بإذن الله تعالى، وسألتهم عن الشخص، فقالوا: ما رأيناه رضي الله تعالى عنه ونفع به.

(الحكاية الثامنة والسبعون: عن الشيخ فتح الموصلي رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت في البادية غلامًا لم يبلغ الحلم يمشي ويحرّك شفتيه، فسلّمت عليه فردّ الجواب، فقلت له: إلى أين يا غلام؟ فقال: إلى بيت الله الحرام، قلت له: فبماذا تحرّك شفتيك؟ قال: بالقرآن، فقلت: فإنه لم يَجْرِ عليك قلم التكليف، قال: رأيت الموت يأخذ مَن هو أصغر مني سنًا، فقلت: خطوك قصير وطريقك بعيد، فقال: إنما عليّ نقل الخُطا، وعلى الله الإبلاغ، فقلت: أين الزّاد والراحلة؟ فقال: زادي يقيني، وراحلتي رِجلاي، قلت: أسألك عن الخبز والماء، فقال: يا عمّاه أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل معك زادك؟ فقلت: لا؟ قال: إن سيدي دعا عباده إلى بيته وأذِنَ لهم في زيارته، فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم، وإني استقبحت ذلك، فحفظت الأدب معه، أفتراه يضيّعني؟ فقلت: كلا وحاشا، ثم غاب عن عيني فلم أره إلا بمكة، فلما رآني قال: يا شيخ أنت بعدُ على ذلك الضعف في اليقين؟ ثم أنشأ يقول:

مالك العالمين ضامن رزقي فلماذا أُكلّف الخلق رزقي
قد قضى لي بما عليّ ومالي مالكي في قضائه قبل خلقي
صاحب البذل والندى في يساري ورفيقي في عُسرتي حُسْن صدقي
فكما لا يردّ عجزي رزقي فكذا لا يجرّ رزقي حِذقي

(الحكاية التاسعة والسبعون: عن بعضهم) قال: بقيت في برية الحجاز أيامًا لم آكل شيئًا، فاشتهيت باقلا[1] حارًا وخبزًا من باب الطاق[2]، فقلت: أنا في البرية، وبيني وبين

(١) الباقلاء: الفول.
(٢) باب الطّاق: محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي، تُعرَف بطاق أسماء. (معجم البلدان ١/٣٠٨).

Marfat.com

العراق مسافة بعيدة، فلم أتمّ خاطري حتى نادى أعرابي من بعيد: يا باقلاً حارّ وخبز، فتقدمت إليه وقلت له: عندك باقلاً حارّ؟ قال: نعم، وبسط مئزرًا كان عليه، وأخرج خبزًا وباقلاً حارًا وقال لي: كل، فأكلت، ثم قال: كل، فأكلت، ثم قال لي ثالثة: كل، فأكلت؛ فلما قال الرابعة قلت: بحقّ الذي بعثك لي في هذه البرية إلا ما قلت لي مَن أنت؟ فقال: الخضر، وغاب عني فلم أره، سلام الله ورضوانه عليه.

(**الحكاية الثمانون: عن شقيق البلخي رضي الله تعالى عنه**) قال: رأيت في طريق مكة مُقعدًا يزحف على الأرض، فقلت له: من أين أقبلت؟ قال: من سمرقند[1]، قلت: وكم لك في الطريق؟ فذكر أعوامًا تزيد على العشرة، فرفعت طرفي إليه أنظر متعجّبًا، فقال لي: يا شقيق ما لك تنظر إليّ، فقلت: متعجبًا من ضعف مهجتك وبُعْد سفرتك! فقال لي: يا شقيق أما بُعْد سفرتي فالشوق يقرّبها؛ وأما ضعف مهجتي فمولاي يحملها، يا شقيق أتعجب من عبد ضعيف يحمله المولى اللطيف، وأنشأ يقول:

أزوركم والهوى صعب مسالكه ... والشوق يحمل مَن لا مال يسعده
ليس المحبّ الذي يخشى مهالكه ... كلا ولا شدّة الأسفار تُقعده

(**الحكاية الحادية والثمانون: عن بعض الصالحين**) قال: رأيت في الطريق غلامًا شابًا نحيف الجسم دقيق الساقين وهو يبكي ويقول: واشوقاه لمَن يراني ولا أراه، فقلت له: مَن هو؟ فأنشد يقول:

ولي حبيب بلا كيف ولا شبه ... ولي مقام بلا ربع ولا خيم
أتيت من دار عشق لا أمثلها ... من عند مَن لم أطق شرحًا له بفم

قال: ثم غشي عليه زمانًا، فحرّكناه فوجدناه قد مات، رضي الله تعالى عنه. ورُوِيَ أن الشيخ نجم الدين الأصبهاني رضي الله تعالى عنه خرج مع جنازة بعض الصالحين بمكة، فلما دفنوه وجلس الملقّن يلقّنه ضحك الشيخ نجم الدين، وكان من عادته لا يضحك، فسأله بعض أصحابه عن ضحكه، فزجره؛ فلما كان بعد ذلك قال: ما ضحكك، إلا لأنه لمّا جلس الملقّن على القبر سمعت صاحب القبر يقول: ألا تعجبون من ميت يلقّن حيًا؟ رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم أجمعين.

(**الحكاية الثانية والثمانون: عن الشيخ المزني الكبير رضي الله تعالى عنه**) قال: كنت بمكة، فوقع بي انزعاج، فخرجت أريد المدينة؛ فلما وصلت إلى بئر ميمونة رضي الله

(١) سمرقند: مدينة مسلمة في الجمهورية الأزبكية السوفياتية، خرّبها جنكيزخان ١٢٢٩ م ثم استولى عليها تيمورلنك وتوفي فيها. (الرسالة القشيرية ص ٣٩٨).

Marfat.com

تعالى عنها إذا بشاب مطروح وهو في النزع، فقلت: قل لا إله إلا الله، ففتح عينيه وأنشأ يقول:

أنا إن متّ فالهوى حشو قلبي وبداء الهوى تموت الكِرام

ثم مات، قال: فغسلته وكفّنته وصلّيت عليه، فلما فرغت من دفنه سكن ما كان بي من إرادة السفر، فرجعت إلى مكة رضي الله تعالى عنهما. وقال بعضهم: كان عندنا فتًى بمكة عليه أطمار رثّة، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا، فوقعت محبته في قلبي، ففتح لي بمئتي درهم من وجه حلال، فحملتها إليه ووضعتها على طرف سجادته، وقلت له: إني فتح لي بهذه من وجه حلال، فاصرفها في بعض حوائجك، فنظر إليّ شزرًا ثم قال: إني اشتريت هذه الجلسة مع الله تعالى على الفراغ بسبعين ألف دينار غير الضياع والمستغلاّت، تريد أن تخدعني عنها بهذه وقام وبدرها وقعدت ألتقطها فما رأيت كعزّه حين مرّ، ولا كذلّي حين كنت ألتقطها، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الثالثة والثمانون: عن بعضهم) قال: كنت بالمدينة، فجئت عند القبر الشريف فإذا برجل أعجميّ كبير الهامة[1] يودّع النبي ﷺ، فتبعته لمّا خرج، فلما بلغ مسجد ذي الحليفة[2] صلّى ولبّى، فصلّيت ولبّيت وخرجت خلفه، فالتفت فرآني وقال: ما تريد؟ فقلت: أريد أن أتبعك فأبى، فألححت عليه، فقال: إن كان ولا بدّ فلا تضع قدمك إلا على أثر قدمي، فقلت: نعم، فمشى فأخذ على غير الطريق، فلما مرّ هزيع[3] من الليل إذا بضوء سِراج، فالتفت إليّ فقال: هذا مسجد عائشة فتقدّم أنت أو أتقدّم أنا؟ فقلت: ما تختار، فتقدم ونمت أنا، حتى إذا كان وقت السَّحَر دخلت مكة فطفت وسعيت، وجئت عند الشيخ أبي بكر الكتاني[4] رضي الله تعالى عنه وجماعة من الشيوخ عنده قعود، فسلّمت عليهم، فقال لي الكتاني: متى قَدِمت؟ قلت: الساعة، قال: من أين؟ قلت: من المدينة، قال: كما لك عنها؟ قلت: البارحة، فنظر بعضهم إلى بعض، فقال لي الكتاني: مع مَن جئت؟ قلت: مع رجل من حاله وقصته كذا وكذا، قال: ذاك أبو جعفر الدامغاني وهذا في حاله قليل، ثم قال: قوموا فاطلبوه، ثم قال لي: يا ولدي قد علمت أن هذا ليس حالك، ثم قال: كيف كنت تحسّ بالأرض

---

(١) الهامة: الرأس.

(٢) الحليفة: ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة. (معجم البلدان ٢/ ٢٩٥).

(٣) الهزيع من الليل: الطائفة منه، أو نحو الثلث أو الربع الأول منه (ج) هُزع.

(٤) هو أبو بكر محمد بن علي الكتاني (توفي ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م) بغدادي الأصل، صحب الجنيد والحراز والنوري، وجاور بمكة المكرمة إلى أن مات. (الرسالة القشيرية ص ٤٢٧).

Marfat.com

تحت قدميك؟ قلت: مثل الموج إذا دخل تحت السفينة، رضي الله تعالى عنه ونفع به آمين.

(الحكاية الرابعة والثمانون: عن سُفيان بن إبراهيم رحمه الله تعالى) قال: لقيت إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه بمكة شرّفها الله تعالى في سوق الليل عند مولد النبي ﷺ وهو يبكي، فألجأته إلى ناحية من الطريق، قال: فسلّمت عليه وصلّيت عنده وقلت له: ما هذا البكاء يا أبا إسحٰق؟ فقال: خير، فعاودته مرّة ثانية وثالثة؛ فلما أطلت عليه السؤال قال لي يا سفيان إن أنا أخبرتك بخبر تبوح به أم تستر عليّ؟ فقلت له: يا أخي قل ما شئت، قال: اشتهت نفسي سكباجًا[1] منذ ثلاثين سنة وأنا أمنعها جهدي؛ فلما كان البارحة غلبني النوم، وإذا أنا بشاب من أحسن الناس وجهًا، وبيده قدح أخضر، يعلو منه البخار ورائحة السكباج، فأجمعت همّتي عنه، فقرب مني وقال: يا إبراهيم كل، فقلت: ما آكل شيئًا تركته لله عزّ وجلّ فقال لي: ولا إن أطعمك الله تعالى؟ قال: فما كان لي والله جواب إلا البكاء، فقال لي: كل يرحمك الله، فقلت له: قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا ما نعلم، فقال لي: كل عافاك الله، فإنما ناولني هذا رضوان وقال لي: يا خضر اذهب بهذا الطعام فأطعمه لنفس إبراهيم بن أدهم فقد رحمها الله على طول صبرها على ما يحمّلها من منعها شهواتها، ثم قال: فالله عزّ وجلّ يطعمها وأنت تمنعها، يا إبراهيم إني سمعت الملائكة يقولون: مَن أُعطِيَ فلم يأخذ طلب ولم يُعْطَ، فقلت: إن كان كذلك فها أنا بين يديك لم أحلّ بالعهد مع الله تعالى، وإذا بفتًى آخر قد ناوله شيئًا وقال: يا خضر لقّمه، فلم يزل يطعمني بيده، فانتبهت وحلاوة ذلك في فمي ولون الزعفران في شفتي، فدخلت زمزم فغسلت فِيَّ فلا الطعم ذهب ولا أثر الزعفران، قال سفيان: قلت له: فأرني فإذا أثره لم يذهب، فقلت: يا مَن يطعم مناع الشهوات إذا صححوا المنع لأنفسهم، يا مَن ألزم قلوب أوليائه التصحيح، يا مَن سقى قلوبهم من شراب محبته، أترى لسفيان عندك ذلك؟ قال: ثم أخذت يد إبراهيم ورفعتها إلى السماء وقلت: اللّهمّ بقدر هذه الكفّ وقدر صاحبها وحُرمته عندك، وبالجُود الذي وجده منك، يا ألله، جُد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك برحمتك يا أرحم الراحمين، وإن لم يستحقّ ذلك منك يا ربّ العالمين.

(الحكاية الخامسة والثمانون): حُكِيَ عن إبراهيم بن أدهم أيضًا رضي الله تعالى عنه أنه حجّ إلى بيت الله الحرام، فبينما هو في الطواف وإذا بشاب حَسَن الوجه، قد أعجب الناس حُسنه وجماله، فصار إبراهيم ينظر إليه ويبكي، فقال بعض أصحابه: ﴿إنّا لله وإنّا

(١) السّكْباج: طعام يُعمَل من اللحم والخل مع توابل. القطعة منه سكباجة (مع).

Marfat.com

إليه راجعون﴾ غفلة دخلت على الشيخ بلا شكّ، ثم قال: يا سيدي ما هذا النظر الذي يخالطه البكاء؟ فقال له إبراهيم: يا أخي إنني عقدت مع الله تعالى عقدًا لا أقدر أفسخه. وإلا كنت أُدني من هذا الفتى مني وأُسلم عليه، فإنه ولدي وقرّة عيني، تركته صغيرًا وخرجت فارًا إلى الله تعالى، وها هو قد كبر كما ترى، وإني لأستحي من الله تعالى أن أعود لشيء خرجت عنه، وتركته له عزّ وجلّ، وأنشد:

ولا عرضت لي نظرة مُذ عرفته — مدى الدهر إلا كان لي حيث أنظرُ
أغار على طرفي له فكأنني — إذا رام طرفي غيره لست أُبصرُ
أيام ذخري وسؤلي وعدّتي — ودادك في قلبي إلى يوم أُحشَرُ

ثم قال لي: امضِ وسلِّم عليه لعلّي أتسلى بسلامك عليه، وأُبرد نارًا على كبدي، فأتيت الفتى وقلت له: بارك الله لأبيك فيك، فقال: يا عمّ وأين أبي، إن أبي قد خرج فارًّا إلى الله تعالى ليتني أراه ولو مرّة واحدة وتخرج نفسي بعد ذلك، هيهات هيهات[1]، وخنقته العبرة وقال: والله أودّ لو أني رأيته وأموت في مكاني، ثم بكى وأنشد يقول:

لقد حكم الزمان عليّ حتى — براني في هواك كما تراني
حبيبي إن بعدت فإن قلبي — على مرّ الزمان إليك داني
وإن بعدت ديارك عن دياري — فشخصك ليس يبرح عن عياني
لقد أسكنت حبك في فؤادي — مكانًا ليس يعرفه جناني
كأنك قد ختمت على ضميري — فغيرك لا يمرّ على لساني

قال: ثم رجعت إلى إبراهيم وهو ساجد في المقام، وقد بلّ الحصى بدموعه وهو يتضرّع إلى الله تعالى ويبكي ويقول:

هجرت الخلق طرًّا في هواكا — وأيتمت العيال لكي أراك[2]
فلو قطّعتني في الحبّ أربًا — لَمَا سكن الفؤاد إلى سواكا[3]

قال: فقلت له: ادعُ له، فقال: حجبه الله عن معاصيه، وأعانه على ما يُرضيه.

(الحكاية السادسة والثمانون: عن الشيخ أبي بكر الدقاق[4] رضي الله تعالى عنه)

قال: بقيت بمكة عشرين سنة، وكنت أشتهي اللبن، فغلبتني نفسي، فخرجت إلى

---

(١) هيهات وهيهات) اسم فعل بمعنى بَعُد. (٢) الطُرُّ: الجماعة.
(٣) الإرب: العضو الكامل.
(٤) هو أبو علي الحسن بن علي النيسابوري المعروف بالدقاق. وهو أستاذ عبد الكريم القشيري.

عسفان[1]، فاستضفت حيًا من أحياء العرب، فوقعت عيني على جارية حسناء أخذت بقلبي، فقال: يا شيخ لو كنت صادقًا لذهبت عنك شهوة اللبن، فرجعت إلى مكة، وطُفتُ بالبيت، فرأيت في منامي يوسف الصدّيق ﷺ، فقلت له: يا نبيّ الله أقرّ الله عينك بسلامتك من زليخا، فقال لي: يا مبارك بل أنت أقرّ الله عينك بسلامتك من العسفانية، ثم تلا يوسف ﷺ ﴿ولِمَن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمٰن: ٤٦] بصوت رخيم. وأنشدوا:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وقال بعضهم: لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وإنما يمكن الخروج عن النفس بالله تعالى. وقال: استرح مع الله تعالى، ولا تسترح عن الله، فإن مَن استراح مع الله نجا، ومن استراح عن الله هلك، والاستراحة مع الله تعالى تروّح القلب بذِكره، والاستراحة عن الله تعالى: مداومة الغفلة. وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عليّ الترمذي الحكيم[2] رضي الله تعالى عنه: ذكر الله تعالى يرطب القلب ويليّنه، فإذا خلا عن الذكر أصابته حرارة النفس ونار الشهوات، فيقسو وييبس، وامتنعت الأعضاء من الطاعة، فإذا مددتها انكسرت كالشجرة إذ يبست لا تصلح إلا للقطع، وتصير وقودًا للنار، أعاذنا الله الكريم منها. وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفضل رضي الله تعالى عنه: العجب ممّن يقطع الأودية والمفاوز والقفار ليصل إلى بيته وحرمه، لأن فيه آثار أنبيائه؛ كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه، فإن فيه آثار مولاه. وقال الشيخ أبو تراب النخشبي رضي الله تعالى عنه: من شغل مشغولاً بالله عن الله أدركه المقت في الوقت، أو كما قال: نعوذ بوجهه الكريم من مقته وعذابه الأليم.

(الحكاية السابعة والثمانون: عن بعضهم) أنه سافر للحجّ على قدم التجرّد، وعاهد الله سبحانه أن لا يسأل أحدًا شيئًا، فلما كان في بعض الطريق مكث مدة لا يفتح عليه

---

(١) عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة وقيل: عسفان بين المسجدين وهي من مكة على مرحلتين. (معجم البلدان ٤/ ١٢١ ـ ١٢٢).

(٢) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله (توفي نحو ٣٢٠ هـ = نحو ٩٣٢ م) الحكيم الترمذي، باحث صوفي، عالم بالحديث وأصول الدين من أهل «ترمذ» نفي منها بسبب تصنيفه كتابًا خالف فيه ما عليه أهلها من كتبه «نوادر الأصول في أحاديث الرسول» و«الفروق» و«غرس الموحدين» و«المناهي» و«شرح الصلاة» و«المسائل المكنونة» وغير ذلك. الأعلام ٦/ ٢٧٢؛ ولسان الميزان لابن حجر ٥/ ٣٠٨؛ ومفتاح السعادة ٢/ ١٧٠؛ وطبقات السبكي ٢/ ٢٠؛ وكشف الظنون ١/ ٩٣٨؛ والرسالة القشيرية ص ٤٠٠.

بشيء فعجز عن المشي ثم قال في نفسه: هذا حال ضرورة تؤدي إلى تهلكة بسبب الضعف المؤدي إلى الانقطاع، وقد نهى الله عن الإلقاء إلى التهلكة، ثم عزم على السؤال، فلما همّ بذلك انبعث من باطنه خاطر ردّه عن ذلك العزم، ثم قال: أموت ولا أنقض عهدًا بيني وبين الله تعالى، فمرّت القافلة وانقطع واستقبل القبلة مضطجعًا ينتظر الموت، فبينما هو كذلك، إذا بفارس قائم على رأسه، معه إداوة[1] فيها ماء، فسقاه وأزال ما به من الضرورة وقال له: تريد القافلة؟ فقال: وأين مني القافلة؟ فقال: قم وسار معه خطوات، ثم قال: قف هٰهنا والقافلة تأتيك، فوقف وإذا بالقافلة مقبلة من خلفه.

قلت: وسيأتي الجواب في خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى عن إنكار مَن أنكر هذه الحكاية وأشباهها.

(الحكاية الثامنة والثمانون): حُكِيَ أنه كان شاب يطوف بالكعبة، ويشتغل بالصلاة على النبي ﷺ، فقيل له: هل عندك في هذا شيء؟ قال: نعم، خرجت أنا وأبي حاجّين، فمرض أبي في بعض المنازل، ومات واسودّ وجهه وازرقّت عيناه وانتفخ بطنه، فبكيت وقلت: ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾، مات أبي في أرض غربة هذه الموتة؛ فلما كان الليل غلبني النوم، فرأيت النبي ﷺ وعليه ثياب بيض، ورائحة طيبة عطرة، فدَنا من أبي ومسح على وجهه، فصار أشدّ بياضًا من اللبن، ثم مسح على بطنه فعاد كما كان، ثم أراد أن ينصرف، فقمت إليه وأمسكت بردائه وقلت: يا سيدي بالذي أرسلك إلى أبي رحمة في أرض غربة مَن أنت؟ فقال: أوَ ما تعرفني؟ أنا مُحمد رسول الله، كان أبوك هذا كثير المعاصي والذنوب، غير أنه كان يكثر الصلاة عليَّ؛ فلما نزل به ما نزل استغاث بي فأغثته، وأنا غياث لمَن يُكثِر الصلاة عليَّ في دار الدنيا. قلت: وفي مدحه ﷺ خطرت لي هذه الأبيات عند كتب هذه الحكاية في الشفاعة:

عليك صلاة الله يا ملجأ الورى ... إذا أقبلت يوم الحساب جهنمُ
وراموا شفيعًا يُستَغاث بجاهه ... له شرف العلياء رحب مكرّمُ
وقالوا لأهل العزم في الرّسل مَن لها ... فليس سواكم يا أُولي العزم يعزمُ
فعنها خليل والكليم تأخرا ... وعيسى وقبل القوم نوح وآدمُ
فخير الكِرام الرّسل عنها تأخروا ... أتيت إليها بالندا تتقدّمُ
أغثت جميع الخلق إذ كنت رحمة ... بُعِثتُ لكلّ العالمين ليرحموا
فأنت الذي في الحشر تحت لوائه ... جميع البرايا للأنام مقدّمُ

يا أكرم الخلق ما لي من الوذ به
سوى[illegible]

(١) الإداوة: إناء صغير من جلد يُحمَل فيه الماء (ج) أداوى.

Marfat.com

(الحكاية التاسعة والثمانون: عن أبي الحسن السرّاج) قال: خرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام، فبينما أنا أطوف، وإذا بامرأة قد أضاء حُسْن وجهها، فقلت: والله ما رأيت إلى اليوم قطّ نضارةً وحُسنًا مثل هذه المرأة، وما ذاك إلا لقلة الهمّ والحزن، فسمعت ذلك القول مني فقالت: كيف قلت هذا يا رجل؟ والله إني لوثيقة بالأحزان، ومكلومة الفؤاد بالهموم والأشجان، ما يُشركني فيها أحد، فقلت: وكيف ذاك؟ فقالت: ذبح زوجي شاة ضحينا بها، ولي ولدان صغيران يلعبان، وعلى ثدي طفل يرضع، فقمت لأصنع لهم طعامًا إذ قال ابني الكبير للصغير ألا أريك كيف صنع أبي بالشاة؟ قال: بلى، فأضجعه وذبحه وخرج هاربًا نحو الجبل، فأكله الذئب، فانطلق أبوه في أثره يطلبه فأدركه العطش فمات، فوضعت الطفل وخرجت إلى الباب أنظر ما فعل أبوهم، فدبَّ الطفل إلى البرمة[1] وهي على النار فوضع يده فيها فصبّها على نفسه وهي تغلي، فانتثر لحمه عن عظمه، فبلغ ذلك ابنة لي كانت عند زوجها فرمت بنفسها إلى الأرض فوافقت أجلها، فأفردني الدهر من بينهم، فقلت لها: كيف صبرك على هذه المصائب العظيمة؟ فقالت: ما من أحد ميّز بين الصبر والجزع إلا وجد بينهما منهاجًا متفاوتًا، أما الصبر بحُسْن العلانية فمحمود العاقبة. وأما الجزع فصاحبه غير معوّض، ثم أعرضت عني وهي تنشد:

صبرت وكان الصبر غير معوّل ... وهل جزع يجدي عليّ فأجزع
صبرت على مَن لو تحمّل بعضه ... جبال شرود أصبحت تتصدّع
ملكت دموع العين حتى رددتها ... إلى ناظري فالعين في القلب تدمع

(الحكاية التسعون: عن إبراهيم الخوّاص رضي الله تعالى عنه) قال: عطشت في بعض أسفاري وسقطت من العطش، فإذا أنا بماء رُشّ على وجهي، ففتحت عينيّ فإذا برجل حسن الوجه راكب على دابّة شهباء[2]، فسقاني الماء وقال: كن رفيقي، فما لبثت إلا يسيرًا حتى قال لي: ما ترى؟ فقلت: أرى المدينة، فقال: انزل فاقرأ على رسول الله ﷺ السلام وقل له: أخوك الخضر يُقرئك السلام. وقال الشيخ أبو الخير[3] الأقطع رضي الله تعالى عنه: قَدِمتُ مدينة رسول الله ﷺ فأقمت خمسة أيام ما ذُقت ذواقًا، فتقدمت إلى القبر الشريف وسلّمت على النبيّ ﷺ، وعلى أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وقلت: يا رسول الله أنا ضيفك الليلة، وتنحيت ونمت خلف المنبر، فرأيته ﷺ في المنام وأبو بكر رضي الله تعالى عنه عن يمينه وعمر رضي الله تعالى عنه عن شماله،

---

(١) البُرمة: القِدْر تُنحَت من الحجر (ج) بُرَم، وبِرام، وبُرْم.
(٢) شهب: خالط بياضه سواد فهو أشهب وهي شهباء.
(٣) هو أبو الخير الأقطع (توفي ٣٤٠ هـ / ٩٥٢ م) مغربي الأصل، سكن تينات، وله كرامات وفراسة حادة، وكان كبير الشأن. (الرسالة القشيرية ص ٣٩٤).

Marfat.com

وعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه بين يديه، فحرّكني عليّ رضي الله تعالى عنه وقال لي: قم فقد جاء رسول الله ﷺ، فقمت إليه وقبّلت بين عينيه، فدفع إليّ رغيفًا فأكلت نصفه، وانتبهت وفي يدي والله نصفه. وأنشد بعضهم:

أحنّ إلى نَوْح الحمام إذا غنّى | وأشتاق للوادي وأصبو إلى المغنى
ويعجبني مرّ النسيم لأنه | يحدّث عن نجد حديثًا له معنى
ويخبر عن زوّار ليلى بأنهم | رأوا عند بانات النقا وجهها الأسنى
بعيشك إن جئت الخيام فقف بها | وقل لمليح الحيّ إني به مُضنى
وعرّض بذِكري عنده فلعله | يرقّ لمشتاقٍ إلى ربعه حنّا
متى بقِبا تقضي منيّة عاشق | ويُدفن في سلع ويمسي له سكنى[1]
تملّك قلبي حبّ مَن سكن الحِمى | فقلبي يهواه وعقلي به جنّا
تكامل معناه فأصبح فاتنًا | ألا يا له بدرًا حوى الحسن والحسنى
عليه صلاة الله ما لاح بارق | وما ناح طير في الغصون وما غنّى

(الحكاية الحادية والتسعون: عن أبي جعفر الصفّار رضي الله تعالى عنه) قال: تُهتُ في البادية أيامًا، فعطشت مدة وضعفت، فرأيت رجلاً نحيفًا فاتحًا فاه، ينظر إلى السماء، فقلت له: ما هذه الوقفة؟ فقال مالك: والدخول بين المولى والعبيد، ثم أشار بيده وقال: هذه الطريق، فسرت نحو إشارته، فما مشيت إلا قليلاً حتى رأيت رغيفين على أحدهما قطعة لحم حارّ، وهناك كوز فيه ماء، فأكلت حتى شبعت، وشربت حتى رويت، ثم رجعت إليه وقلت: ما التصوّف[2]؟ فتبسم ثم قال: لائح لاح فاصطلم[3] فاستباح، يعني كشفًا يردّ على الأسرار فيخطب العبد، ويستبيح منه كل ما كان له من مال وغيره، حتى لا يؤثِر لنفسه شيئًا، والاصطلام: محلّ القهر ونعت الحيرة، وصفة الدهشة رضي الله تعالى عنه. قلت: وإلى هذا الاصطلام المذكور أشار الشيخ أبو الغيث اليمني المشهور رضي الله تعالى عنه بقوله: أهل الحضرة على أربعة أقسام: رجل خُوطِبَ فصار كله أُذنًا، ورجل أشهد فصار كله عينًا، ورجل مصطلم تحت أنوار التجلّي، والرابع لسان حال الشفاعة وهو أكمل.

---

(١) سلع: جبل بسوق المدينة، وقيل: موضع بقرب المدينة أو حصن بوادي موسى عليه السلام (معجم البلدان ٣/ ٢٣٦).

(٢) التصوف: هو علم تُعرَف به أحوال تزكية النفس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية، فموضوعه (التزكية والتصفية والتعمير).

(٣) اصطلم القوم: أبادهم من أصلهم.

Marfat.com

(الحكاية الثانية والتسعون: **عن عليّ بن الموفق رضي الله تعالى عنه**) قال: حججت سنة من السنين في محمَل[1]، فرأيت رجالاً يمشون، فأحببت المشي معهم، فنزلت وأركبت واحدًا في محمَلي ومشيت معهم، فتقدمنا إلى البريد، وعدلنا عن الطريق فنمنا، فرأيت في منامي جواري معهنّ طشوت[2] ذهب وأباريق فضة يغسلن أرجل المشاة، فبقيت أنا، فقالت إحداهنَّ لصواحبها: أليس هذا منهم؟ قلن: هذا له محمل، فقالت: بلى هو منهم، لأنه أحبّ المشي معهم، فغسلن رِجليّ فذهب عني كلّ تعب كنت أجده.

(الحكاية الثالثة والتسعون: **عن عليّ بن الموفق أيضًا رضي الله تعالى عنه**) قال: حججت نيِّفًا وخمسين حجة وجعلت ثوابها للنبي ﷺ ولأبي بكر وعُمر وعُثمان وعليّ رضي الله تعالى عنهم ولأبويّ، وبقيت حجة، فنظرت إلى أهل الموقف بعرفات وضجيج أصواتهم، فقلت: اللّهمَّ إن كان في هؤلاء مَن لا تقبل حجّته فقد وهبت له هذه الحجة ليكون ثوابها له، فبتّ تلك الليلة بالمزدلفة[3]، فرأيت ربي عزّ وجلّ في المنام، فقال لي: يا عليّ بن الموفق، عليّ تتسخى[4]؟ قد غفرت لأهل الموقف ومثلهم وأضعاف ذلك، وشفعت كلّ رجل منهم في أهل بيته وخاصته وجيرانه، وأنا أهل التقوى وأهل المغفرة.

(الحكاية الرابعة والتسعون: **عن ذي النون المصريّ رضي الله تعالى عنه**) قال: ركبنا مرة في ركب، وركب معنا شاب صبيح وجهه يُشرق، فلما توسطنا فقد صاحب المركب كيسًا فيه مال، ففتش كلّ مَن في المركب؛ فلما وصلوا إلى الشاب ليفتشوه، وثب وثبة من المركب حتى جلس على أمواج البحر، وقام له الموج على مثال السرير، ونحن ننظر إليه من المركب وقال: يا مولاي إن هؤلاء اتهموني، وأنا أُقسم عليك يا حبيب قلبي أن تأمر كل دابّة في هذا المكان أن تُخرِج رأسها وفي أفواهها جواهر. قال ذو النون رضي الله تعالى عنه: فما تمّ كلامه حتى رأينا دوابّ البحر أمام المركب قد أخرجت رؤوسها، وفي فم كل واحدة منهنّ جوهرة تتلألأ وتلمع، ثم وثب الشاب من الموج إلى البحر وجعل يتبختر على متن الماء ويقول: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥] حتى غاب عن بصري، قال: فحملني هذا على السياحة، وذكرت قول النبي ﷺ: «لا يزال في

---

(١) المحمل: الهودج.

(٢) الطشوت: (ج) الطشت: إناء كبير مستدير من نحاس أو نحوه لغسل الأيدي.

(٣) المزدلفة: موضع بين عرفات ومنى، قيل: سُمِّيت بذلك لاقتراب الناس من منى بعد الإفاضة من عرفات.

(٤) تسخى: تكلف السخاء.

Marfat.com

أمتي ثلاثون قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمٰن ﷺ، كلما مات واحد أبدل الله تعالى مكانه واحدًا»[١].

(الحكاية الخامسة والتسعون: عن إبراهيم الخوّاص رضي الله تعالى عنه) قال: دخلت البادية فأصابتني شدّة، فكابدتها وصابرتها؛ فلما دخلت مكة داخلني شيء من الإعجاب، فنادتني عجوز من الطواف: يا إبراهيم كنت معك في البادية فلم أُكلِّمك لأني لم أُرد أن أشغل سرّك عنه، أخرج هذا الوسواس[٢] عنك. وقال الشيخ أبو الحسين المزين[٣] رضي الله تعالى عنه: دخلت البادية على التجريد[٤] حافيًا حاسرًا، فخطر ببالي أنه ما دخل البادية في هذه السنة أحد أشدّ تجريدًا مني، فجذبني إنسان من ورائي، وقال: يا حجّام كم تحدّث نفسك بالأباطيل. وأنشدوا:

نظرت في الراحة الكبرى فلم أرها ... تُنال إلا على جنسٍ من التعب
والجدّ منها بعيد في تطلّبها ... فكيف تدرك بالتقصير واللعب

وقال بعضهم: هجر النفس: مواصلة الحقّ، ومواصلة النفس: هجر الحقّ. وقيل: الهجر نيران، والوصل جنان. وأنشدوا:

والهجر لو سكن الجنان تحوّلت ... نِعَم الجِنان على العبيد جحيما
والوصل لو سكن الجحيم تحوّلت ... نِقَم الجحيم على العباد نعيما

وقال بعضهم: إن الله تعالى وهب لكل عبد من معرفته مقدارًا وجملة على مقدار ما وهب له من المعرفة لتكون معرفته عونًا له على حمل بلائه.

(الحكاية السادسة والتسعون: عن بعض الصالحين رضي الله تعالى عنهم) قال: رأيت سمنون[٥] في الطواف وهو يتمايل، فقبضت على يده وقلت له: يا شيخ بموقفك بين يديه إلا أخبرتني بالأمر الذي أوصلك إليه؛ فلما سمع ذلك بذكر الموقف بين

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٩٨٦)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ١٨٠).

(٢) الوسواس: جمع وساوس، وهو الاسم من وسوس يعني الشيطان، أو مرض يحدث من غلبة السوداء ويختلط معه الذهن، أو حديث النفس مما يخطر بالقلب من شرّ أو مما لا خير فيه.

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد المزين (توفي ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م) من بغداد، من أصحاب سهل بن عبد الله والجنيد والطبقة، مات بمكة المكرمة مجاورًا، وكان ورعًا كبيرًا. (الرسالة القشيرية ص ٤٣٢).

(٤) التجريد: التعرية من الثياب.

(٥) هو سمنون بن حمزة الخواص (توفي نحو ٢٩٠ هـ = نحو ٩٠٣ م) أبو الحسن، أو أبو بكر، صوفي ناسك من الشعراء. له مقطوعات في غاية الجودة. وهو من أهل البصرة، سكن بغداد وتوفي بها. الأعلام ٣/ ١٤٠؛ وحلية ١٠/ ٣٠٩؛ وتاريخ بغداد ٩/ ٢٣٤؛ والرسالة القشيرية ص ٤٠٧.

Marfat.com

يديه، سقط مغشيًا عليه فلما أفاق أنشد:

ومكتئب لجّ السقام بجسمه | كذا قلبه بين القلوب سقيم
يحقّ له لو مات خوفًا ولوعة | فموقفه يوم الحساب عظيم

ثم قال: يا أخي آخذت نفسي بخمس خِصال أحكمتها. فأما الخصلة الأولى: أمتّ مني ما كان حيًا، وهو هوى النفس؛ وأحييت مني ما كان ميتًا وهو القلب. وأما الثانية: فإني أحضرت ما كان عني غائبًا، وهو حظي من الدار الآخرة، وغيّبت عني ما كان عندي حاضرًا وهو نصيبي من الدنيا. وأما الثالثة: فإني أبقيت ما كان فانيًا عندي وهو التقي، وأفنيت ما كان باقيًا عندي وهو الهوى. وأما الرابعة: فإني أنست بالأمر الذي منه تستوحشون، وفررت من الأمر الذي إليه تسكنون، ثم ولّى عني وهو يقول:

روحي إليك بكلّها قد أقبلت | لو كان فيك هلاكها ما أقلعت
تبكي عليك تخوّفًا وتلهفًا | حتى يُقال من البكاء تقطعت
فانظر إليها نظرة بتعطف | فلطالما متّعتها فتمتعت

(الحكاية السابعة والتسعون: عن الشيخ أبي الربيع رضي الله تعالى عنه) قال: كنّا جماعة من الفقراء بمكة، وكان فيهم رجال لهم سياحات وأحوال عهدوها من أنفسهم، وكنت قد وقف مني بحثي عن نفسي، على أني لم أجد لي عملاً صالحًا، ففكرت في نفسي، هل لي حال أنتظره في المستقبل يردّ عليّ، فوجدتني فقيرًا منه، فقلت: من العجز انتظار ما لم يكن، فتعلقت بفعل ما يلزمني في الوقت، فوجدت أنه ليس عمل صالح أفضل من الطواف، فكنت أكثر منه، فكان بعضهم يقول لي: إلى متى تدور كحمار ساقية، أفي كل هذا العمل أنت واجد قلبك؟ قلت: لا، ولا أعرف لي قلبًا أجده، ولا أعرف لي مكانًا فأطلبه، ولكني سمعت قوله تعالى: ﴿وليطوّفوا بالبيت العتيق﴾ [الحج: ٢٩] فأنا أعمل على ظاهر من الأمر.

(الحكاية الثامنة والتسعون: رُوِيَ عن الشيخ أبي يعقوب البصريّ رضي الله تعالى عنه) أنه قال: جُعتُ مرة في الحرم عشرة أيام، فوجدت ضعفًا، فجذبتني نفسي أن أخرج إلى الوادي لعلي أجد شيئًا أسكِن به جوعي، فخرجت فوجدت سلجمة[1] مطروحة متغيرة، فأخذتها فوجدت في قلبي منها وحشة، وكأنّ قائلاً يقول لي: جُعتَ عشرة أيام، فآخرتك يكون حظّك سلجمة مطروحة متغيِّرة، فرميت بها ودخلت المسجد، فقعدت فإذا برجل جاء فجلس بين يديّ، ووضع قمطرة[2]، وقال: هذه لك صرّة فيها خمس مئة

(١) السلجمة: واحدة السَّلجم: نبات يُعرَف باللفت.
(٢) القِمَطْر: ما تُصان به الكتب، وهو كالمحفظة التي يحملها الطالب وغيره (ج) قماطر.

Marfat.com

دينار، فقلت له: كيف خصصتني بها؟ فقال: اعلم أنّا كنّا في البحر منذ عشرة أيام، فأشرفت السفينة على الغرق، فنذر كلّ واحد منّا نذرًا: إن خلّصنا الله تعالى أن يتصدّق بشيء، ونذرت أنا إن خلّصني الله تعالى أن أتصدّق بهذه الخمس مئة دينار على أوّل مَن يقع عليه بصري من المُجاورين، وأنت أوّل مَن لقيته، فقلت: افتحها، ففتحتها فإذا فيها كعك سميذ[1] مصري ولوز مقشّر وسكر كعاب، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا، وقلت: رُدّ الباقي على صبيانك هدية مني إليهم، وقد قبلتها، ثم قلت في نفسي: رزقك يا نفس سُيِّرَ إليك منذ عشرة أيام وأنت تطلبينه من الوادي. وأنشدوا:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي ... أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إليه فيعييني تطلبه ... ولو قعدت أتاني لا يعيبني

(الحكاية التاسعة والتسعون: **عن بنان الحمال[2] رضي الله تعالى عنه**) قال: كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد، فجاءتني امرأة وقالت: يا بنان أنت حمّال تحمل على ظهرك وتتوهم أنه لا يرزقك، قال: فرميت بزادي، ثم أتى عليّ ثلاثة أيام لم آكل، فوجدت خلخالًا[3] في الطريق، فقلت في نفسي: أحمله حتى يأتي صاحبه، فربما يعطيني شيئًا، فإذا بتلك المرأة، فقالت: أنت تاجر تقول: يجيء صاحبه، فآخذ منه شيئًا، ثم رمت إليّ شيئًا من الدراهم، وقالت: أنفقها، فاكتفيت بها إلى قريب من مصر. وأنشدوا:

كم من قويّ قويّ في تقلبه ... مهذّب الرأي عنه الرزق منحرف

وكم ضعيف ضعيف في تقلّبه ... كأنه من خليج البحر يغترف

هذا دليل على أن الإله له ... في الخلق سرّ خفيّ ليس ينكشف

(الحكاية المئة: عن الشيخ أبي بكر الكتاني رضي الله تعالى عنه) قال: جرت مسألة بمكة أيام الموسم في المحبة، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد رضي الله تعالى عنه أصغرهم، فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه وذرفت عيناه ثم قال: المحبّ عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، قد أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرّك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله

---

(١) الشّميذ: السميد: وهو لباب الدقيق أو ضرب من الطحين الأبيض الخشن.

(٢) هو أبو الحسن بُنان بن محمد الجمال (توفي ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م) واسطي الأصل، أقام بمصر، كان عظيم الشأن وصاحب كرامات. (الرسالة القشيرية ص ٤٠٤).

(٣) الخلخال: حلية كالسّوار تلبسها المرأة في رِجلها (ج) خلاخيل.

ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا من مزيد، حبّرك الله يا تاج العارفين.
وأنشد بعضهم في المحبة:

إذا فرّقت بين المُحِبِّين سلوة ... فحبّك لي حتى أموت قرين
سأصفيك وذي إن حييت وإن أمت ... هواك لعظمي في التراب رهين

(الحكاية الأولى بعد المئة: عن الضحاك بنَ مزاحم[1] **رضي الله تعالى عنه)** قال: خرجت في ليلة جمعة أريد المسجد الجامع في الكوفة، وكانت ليلة زاهرة مُقمِرة، فإذا أنا بشاب في بعض رِحاب المسجد ساجد وهو يجود بالبكاء، فلم أشكّ أنه وليّ من أولياء الله تعالى، فقربت منه لأسمع ما يقول، فإذا هو يقول:

عليك يا ذا الجلال معتمدي ... طوبى لمَن كنت أنت معناه
طوبى لمَن بات خائفًا وجِلاً ... يشكو إلى ذي الجلال بلواه
وما به علّة ولا سقم ... أكثر من حبه لمولاه
إذا خلا في الظلام مبتهلاً ... أجابه الله ثم لبّاه

قال: فلم يزل يكرّر، عليك يا ذا الجلال معتمدي، وهو يبكي، وأنا أبكي رحمة لبكائه، ثم ذكر كلامًا معناه أنه رأى نورًا وسمع قائلاً يقول:

لبّيك عبدي فأنت في كنفي ... وكلّ ما قلت قد سمعناه
صوتك تشتاقه ملائكتي ... وذنبك الآن قد غفرناه

قلت: لعلّ هذه الرؤية والسّماع المذكورين وقعا في حال النوم أو في حال حالّ وغيبة، والله أعلم، قال: فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، فقلت له: بارك الله لك في ليلتك وبارك فيك مَن أنت يرحمك الله، قال: أنا راشد بن سليمان، فعرّفته بما كنت سمعت من أمره وخبره وكنت أتمنى لقياه، فلم أقدر على ذلك حتى يسّر الله تعالى، فقلت له: هل لك في صحبتي؟ فقال: هيهات وهل يأنس بالمخلوقين مَن تلذّذ بمناجاة ربّ العالمين، أما والله لو خرج على أهل عصرنا هذا أحد من المشايخ أصحاب النيّات الصحيحة لقال هؤلاء أحزاب لا يؤمنون بيوم الحساب، قال: ثم غاب عن بصري، فلم أدرِ أفي السماء صعد أم في الأرض نزل، فأشفقت على مفارقته، ثم سألت الله تعالى أن يجمع بيني وبينه قبل الموت؛ فلما كان في بعض الأعوام خرجت حاجًا إلى بيت الله

---

(١) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني (توفي ١٠٥ هـ = ٧٢٣ م) أبو القاسم مفسّر، كان يؤدّب الأطفال. له كتاب في «التفسير». توفي بخراسان. الأعلام ٣/ ٢١٥؛ وميزان الاعتدال ١/ ٤٧١؛ وتاريخ الخميس ٢/ ٣١٨؛ والمحبر ٤٧٥.

Marfat.com

الحرام، فإذا أنا به في ظلّ الكعبة، ونفر يقرؤون عليه سورة الأنعام؛ فلما نظرني تبسّم وقال: هذا لطف العلماء، وذاك تواضع الأولياء، ثم قام إليّ وعانقني وصافحني، وقال: هل سألت الله تعالى أن يجمع بيننا قبل الموت؟ فقلت: نعم، فقال: الحمد لله ربّ العالمين على ذلك، فقلت له: رحمك الله، أخبرني عمَّا رأيت تلك الليلة وسمعت، فشهق شهقة ظننت أنه قد انفتق حجاب قلبه، وخرّ مغشيًا عليه، ونفر الرهط الذين كانوا يقرؤون عليه، فلما أفاق قال: يا أخي هل يغيب عنك ما لله تعالى في قلوب أهل محبته من المهابة عن تفسير تلك الإجابة، فقلت له: فما هؤلاء النفر الذين كانوا حواليك؟ قال: أولئك نفر من الجنّ لهم عليّ حُرمة لقديم صحبة؛ فهم يقرؤون عليّ القرآن، ويحجّون معي في كل عام، ثم ودّعني وقال: يا أخي جمع الله بيني وبينك في الجنة حيث لا فرقة ولا تعب ولا حزن ولا نصب(١)، ثم غاب عن عينيّ فلم أره رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الثانية بعد المئة): حُكِيَ أنَّ عابدًا من عبّاد الحرم كان يأتيه رجل كل ليلة بقرصين يفطر عليهما، ولا يشتغل بغير الله عزّ وجلّ، فقالت له نفسه يومًا: سكنت في القوت إلى هذا المخلوق، ونسيت رازق المخلوقين، ما هذه الغفلة؟ فلما أتاه الرجل بالقرصين ردّهما عليه، فانصرف عنه وبقي الفقير ثلاثة أيام لم يفتح عليه بشيء من القوت فشكا ذلك إلى ربّه سبحانه وتعالى، فرأى تلك الليلة في النوم وأنه واقف بين يدي الله تعالى، فقال له: يا عبدي ولِمَ رددت ما أرسلت به إليك مع عبدي؟ فقال: يا ربّ لمّا وقع في نفسي من السكون إلى غيرك، فقال: يا عبدي فمَن أرسله إليك؟ قال: أنت يا ربّ، قال: فأنت تأخذه ممّن قال: منك، قال: فخذ ولا تعد، ثم رأى الرجل المتصدّق كأنه واقف بين يدي الله سبحانه وتعالى، فقال له: عبدي لِمَ منعت عبدي قوته؟ قال: يا ربّ قد علمت ذلك، فقال: يا عبدي أنت لمَن تعطي، قال: لك يا ربّ، قال: فاجر الفقير على عادته، وابق على عادتك وثوابك الجنة، رضي الله تعالى عنهما. وفي هذا المعنى قلت في بعض القصائد:

فكلّ جميل أو جمال فجوده	وصنعته عن حكمة ذات إتقان
فلا نعمة إلا ومن عنده أتت	إليك وإن جاءتك من عند إنسان

(الحكاية الثالثة بعد المئة: عن أحمد بن أبي الحواري(٢) رضي الله تعالى عنه) قال: كنت مع أبي سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه في طريق مكة، فسقطت مني

---

(١) النّصب: التعب.

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري (توفي ٢٣٠ هـ/ ٨٤٥ م) من أهل دمشق، صحب أبا سليمان الداراني وغيره. (الرسالة القشيرية ص ٤١٠).

Marfat.com

السطيحة، فأخبرت أبا سليمان بذلك، فقال: يا رادّ الضالّة ارْدُد علينا الضالّة، فلم ألبث حتى أتى رجل يقول: مَن سقطت منه سطيحة، فنظرتها فإذا هي سطيحتي، فأخذتها، فقال أبو سليمان: حسبت أن يتركنا بلا ماء يا أحمد، فمشينا قليلاً، وكان برد شديد وعلينا الفراء، فرأينا رجلاً عليه طمران رثّان وهو يترشح من العرق، فقال له أبو سُليمان: نواسيك ببعض ما علينا، فقال: الحرّ والبرد خلقان من خلق الله تعالى إن أمرهما غشياني، وإن أمرهما تركاني، وأنا أسير في هذه البادية منذ ثلاثين سنة ما ارتعدت ولا انتفضت يُلبِسني فيحًا من محبته في الشتاء، ويُلبِسني في الصيف مذاق برد محبته، يا دارانيّ تشير إلى ثوب وتدع الزهد تجد البرد، يا دارانيّ تبكي وتصيح وتستريح إلى الترويح؟ فمضى أبو سُليمان رضي الله تعالى عنه وقال: لم يعرفني غيره، قيل في هذه الحكاية ما معناه: إنه لمّا حقّق الله سبحانه يقين أبي سليمان في ردّ السطيحة، صانه عن العجب بما أراه تعالى من حال هذا الرجل حتى صغر في عينه حال نفسه، وتلك سُنّة الله تعالى في أوليائه يصونهم عن ملاحظة الأعمال، ويصغر في أعينهم ما يصفو لهم من الأحوال، رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية الرابعة بعد المائة: عن بعضهم) قال: رأيت في الطواف كهلاً قد أجهدته العبادة وبيده عصًا وهو يطوف معتمدًا عليها، فسألته عن بلده، فقال: خراسان، ثم قال لي: في كم تقطعون هذه الطريق؟ قلت: في شهرين أو ثلاثة، فقال: أفلا تحجّون في كلّ عام؟ فقلت له: وكم بينكم وبين هذا البيت؟ قال: مسيرة خمس سنين، فقلت: والله إن هذا لهو الفضل المُبين والمحبة الصادقة، فضحك وأنشأ يقول:

زر مَن هويت وإن شطّت بك الدار ... وحال مَن دونه حجر وأستار
لا يمنعك بعدٌ عن زيارته ... إنّ المحبّ لمَن يهواه زوّار

(الحكاية الخامسة بعد المئة: عن بعضهم) قال: رأيت فتًى في طريق مكة يتبختر في مشيته كأنه في صحن داره، فقلت له: ما هذه المشية يا فتى، فقال: هذه مشية الفتيان خدّام الرحمٰن، وأنشد:

أتيته بك افتخارًا غير أني ... أذوب من المهابة عند ذكرك
ولو أني قدرت لمت شوقًا ... وإجلالاً لأجل عظيم قدرك

فقلت له: وأين زادك وراحلتك؟ فنظر إليّ مُنكِرًا لقولي ثم قال: يا هذا أرأيت عبدًا ضعيفًا قاصدًا مولًى كريمًا حمل إلى بيته طعامًا وشرابًا لو فعل ذلك لأمر الخدّام بطرده عن بابه إنّ المولى جلّت قدرته لمّا دعاني إلى القصد إليه، رزقني حُسْن التوكّل عليه، ثم غاب عني فما رأيته بعد، رضي الله تعالى عنه.

Marfat.com

(الحكاية السادسة بعد المئة: عن بعضهم) قال: كنت بمكة، فرأيت فقيرًا يطوف بالبيت، فأخرج من جيبه رقعة ونظر فيها؛ فلما كان في اليوم الثاني والثالث كان يفعل ذلك، فطاف في يوم من الأيام، ونظر في الرقعة وتباعد قليلاً وسقط ميتًا، فأخرجت الرقعة من جيبه فإذا فيها مكتوب: واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا، رضي الله تعالى عنه، ونفع به.

وحُكِيَ عن أبي العباس الخضر رضوان الله تعالى عليه، أنه سأله بعض الأبدال: هل رأيت وليًا لله تعالى أرفع منك درجة؟ قال: نعم، دخلت مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، فرأيت عبد الرزاق وحوله جماعة يستمعون الحديث، وفي زاوية المسجد فتى جالس واضع رأسه على ركبتيه، فقلت له: أيها الشاب أما ترى الجماعة يسمعون أحاديث الرسول ﷺ من عبد الرزاق، فهلاً سمعت معهم، فلم يرفع رأسه إليّ ولا اكترث بي ولكن قال: هناك مَن يسمع من عبد الرزاق، وهنا مَن يسمع من الرزّاق لا من عبده، قال الخضر: فقلت: إن كان ما تقول حقًّا فمَن أنا؟ فرفع رأسه إليَّ وقال: إن كانت الفراسة حقًّا، فأنت الخضر، فعلمت أنَّ لله تبارك وتعالى أولياء لا أعرفهم، لعلوّ رتبتهم رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية السابعة بعد المئة: عن بعضهم) قال: كنّا في المدينة نتكلم في بعض الأوقات في آيات الله تعالى المنعم بها على عباده من أوليائه وأهل ودّه وقربه من أصفيائه، وكان رجل ضرير بالقرب منّا يسمع ما نقول، فتقدّم إلينا وقال: أنِستُ بكلامكم، اعلموا أنه كان لي عيال وأطفال، فخرجت إلى البقيع[١] أحتطب، فرأيت شابًا عليه قميص من كتان[٢]، ونعله في أصبعه، فتوهّمت أنه تائه، فقصدت أن أسلبه ثوبه، فقلت له: انزع ما عليك، فقال لي: مُرّ في حفظ الله تعالى، فقلت له: الثانية والثالثة، فقال: ولا بدَّ، قلت: ولا بدّ، فأشار بأصبعيه إلى عينيّ فسقطتا، فقلت له بالله عليك مَن أنت؟ فقال: أنا إبراهيم الخوّاص، رضي الله تعالى عنه. قلت: وإنما دعا إبراهيم الخوّاص رضي الله تعالى عنه على اللصّ بالعمى، ودعا إبراهيم بن أدهم للذي ضربه بالجنة، لأن الخوّاص أشهد من اللصّ أنه لا يتوب إلا بعد العمى، فرأى العقوبة أصلح له؛ وابن أدهم لم يشهد توبة الضارب له في عقوبته، فتفضل عليه بالدعاء له فتوّة منه وكرمًا، فحصلت البركة والخير بدعائه للضارب، فأتاه مستغفرًا معتذرًا، فقال له إبراهيم:

(١) البقيع: المكان المتّسع فيه شجر أو أصول شجر.
(٢) الكتان: نبات من الفصيلة الكتانية، حولي يزرع في المناطق المعتدلة والدفيئة، يزيد ارتفاعه على نصف متر، زهرته زرقاء جميلة، وثمرته مدوّرة تُعرَف باسم بزر الكتان يُعتَصر منها زيت، تُنسَج من ألياف الكتان بعض الثياب.

Marfat.com

الرأس الذي يحتاج إلى الاعتذار تركته ببلخ[1]، يعني أن نخوة الشرف وكبر الرياسة كان في رأسي حين كنت أجول في ميدان الخيلاء والاستكبار على فرس حبّ الجاه وزينة الدنيا في بلخ، والآن قد خرج ذلك من رأسي، واستبدلت بالخيلاء والاستكبار تواضع المسكنة والانكسار، وخلعت خلعة الحمقى المنسوجة من غزل الغرور والعطب، وحلية السفهاء المصوغة من نحاس النحاسة والتيه والطرب، ولبست خلعة الشرف الأبدي المنسوجة من غزل الزهد وورع أهل التحقيق، وخضوع العبودية والافتقار بمغزل التوفيق، وتحلّيت بحلية الأولياء المصوغة من جواهر المعارف ويواقيت الأدب، وفيروزج[2] محاسن أهل الطريق، وسقيت براح المحبة على بساط مشاهدة الحبيب، فلا أُبالي بخفاء جندي وأنا من الملك قريب، إذا حصل من ليلى قبول وإقبال، وأنزل المحبّ في موضع عالٍ، وشاهد حسن جمال غال، فليس يحزن إذا نبحه كلب من كلاب الحيّ أو عليه صال. وفي ذلك قلت نائبًا عن لسان الحال:

إذا ما كلاب الحيّ فينا تنابحت	أُناسًا ومن ليلى قبول وإقبال
برؤيا الجمال الغال منها لنا المنى	ومنها لنا في المنزل العال إنزال

(الحكاية الثامنة بعد المئة): قال المؤلف كان الله له: أخبرني بعض الثقات من أهل اليمن أنه خرج للحجّ مع بعض الصالحين من أهل بلده، فلما بلغوا جدّة[3] اكتروا جمالاً يركبونها إلى مكة، وساروا مع القافلة، فعرض لهم بعض أولاد سلاطين مكة، وأخذ الجباية من تلك القافلة حتى لم يبقَ إلا نحن، فطالبنا بالجباية ولزم جِمالنا، فقال له الشيخ الصالح: أطلِق الجِمال فأبى، ثم كرّر عليه مرارًا وهو يأبى ويزداد غيظًا، ثم قال: وحقّ رأس أبي ما أُطلِقكم إلا بكذا وكذا، وذكر شيئًا كثيرًا، فقال له الشيخ: وحقّ مولاي ما نعطيك شيئًا، ثم قال الشيخ: سيروا، قال: فسرنا، وبقي ذلك الجابي على فرسه لا يقدر يتحرّك، فأرسل نحو الشيخ بعض غلمانه يسأله العفو عنه ويُطلقه مما أصابه من العقوبة، فأجابه الشيخ إلى ذلك، فانطلق حينئذ ومشى به الفرس بعد أن كان لا يستطيع المشي، رضي الله تعالى عنه وعن جميع الصالحين، ونفعنا بهم وببركاتهم آمين.

---

(١) بلخ: كانت القصبة السياسية لولاية خراسان، ثم أصبحت المركز الثقافي والديني لمملكة طخارستان، فتحها الأحنف بن قيس عام ٦٥٣ م. اجتاحتها قبائل أنكيزخان ١٢٢٠ م فدمرتها. (الرسالة القشيرية ص ٣٩٢).

(٢) الفيروزج: حجر كريم غير شفاف، أزرق اللون بلون السماء أو أميل إلى الخضرة يُتحلّى به (مع).

(٣) جدة: بلد على ساحل بحر اليمن، وهي فرضة مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليالٍ. (معجم البلدان ٢/ ١١٤).

Marfat.com

(الحكاية التاسعة بعد المئة): حُكِيَ عن بشر الحافي رضي الله تعالى عنه أنه جاءه نفر فسلّموا عليه، فقال: مَن أنتم؟ قالوا: نحن من الشام، جئنا نسلّم عليك ونريد الحجّ، فقال: شكرًا لله تعالى ولكم، قالوا: تخرج معنا لنحجّ في صحبتك فأبى، فألحّوا عليه، فقال: إذا عزمتم على ذلك فيكون على ثلاثة شروط: أن لا نحمل معنا شيئًا، ولا نسأل أحدًا شيئًا، وإن أُعطينا لا نقبل شيئًا؛ فقالوا: أما لا نحمل ولا نسأل فنعم، وأما إن أُعطينا لا نقبل فلا نستطيع ذلك، فقال: كأنكم خرجتم من بيوتكم متوكّلين على مزاوِد الحجّاج، لا متوكلين على الله تعالى، دعوني وحالي وروحوا إلى أشغالكم، ثم قال: أحسن الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أُعطِيَ لا يقبل، فذلك من الروحانيين، أو قال مع الروحانيين. وفقير لا يسأل، وإن أُعطِيَ قَبِل، فذلك يوضع له موائد في حضرة القدس. وفقير يسأل، وإن أُعطِيَ قَبِل قدر الكفاية، فكفّارته صدقه. وحُكِيَ أنه أتى أيضًا إلى بشر رضي الله تعالى عنه جماعة من الصوفية، عليهم المرقّعات فقال: يا قوم اتقوا الله ودعوا هذا اللباس؛ فإنكم تعرفون به، فسكتوا إلا شابًا منهم فإنه قال: والله لنلبسنّها ثم لنلبسنّها ثم لنلبسنّها حتى يكون الدين كله لله، فقال: أحسنت يا شاب مثلك يصلح له أن يلبسها رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية العاشرة بعد المئة: عن بعضهم) قال: رأيت فقيرًا وَرَدَ على بئر ماء في البادية فأدلى ركوته فيها، فانقطع حبله ووقعت الركوة فيها، فأقام زمانًا وقال: وعزّتك لا أبرح إلا بركوتي، أو تأذن لي بالانصراف عنها، قال: فرأيت ظبية عطشانة جاءت إلى البئر ونظرت فيها، ففاض الماء وطفح على البئر، وإذا بركوته على فم البئر، فأخذها وبكى وقال: إلٰهي ما كان لي عندك محلّ ظبية؟ فهتف به هاتف يقول: يا مسكين جئت بالركوة والحبل، وجاءت الظبية ذاهبة عن الأسباب لتوكّلها علينا. قال بعضهم: سقى الله الظبية المذكورة ببركة وقفة الفقير على باب انبساطه مع مولاه، وأقسم أنه لا يبرح إلا بركوته، فأبرّ الله قَسَمَه بصورة ورود الظبية تهذيبًا لأخلاق أوليائه، واهتمامًا بترك الأسباب، واعتناء بالمسبِّب الوهّاب عزّ وجلّ.

(الحكاية الحادية عشرة بعد المئة): رُوِيَ أنه سُئِلَ الشيخ أبو الخير الأقطع رضي الله تعالى عنه عن عجائب الأحوال فقال: أعجب ما رأيت، أنه أدخل عبد أسود رأسه في مرقعته في جامع طرسوس[1]، وخطر بباله الحرم وزيارة الكعبة، فأخرج رأسه وهو في الحرم وقال عبد الواحد بن زيد لأبي عاصم البصري رضي الله تعالى عنهما: كيف صنعت حين طلبك الحجّاج؟ قال: كنت في غرفتي فدقّوا عليّ الباب ودخلوا، فدفعت

---

(١) طرسوس: مدينة في تركيا (قيليقيا) كانت من العواصم، فتحها المأمون ٧٨٨ م وفيها دُفن.

Marfat.com

بي دفعة، فإذا أنا على أبي قبيس[(١)] بمكة، فقال له عبد الواحد: من أين كنت تأكل؟ قال: كانت تأتي إليَّ عجوز وقت إفطاري بالرغيفين اللذين كنت آكلهما بالبصرة، فقال عبد الواحد: تلك الدنيا أمرها الله تعالى أن تخدم أبا عاصم، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الثانية عشرة بعد المئة): قال بعضهم: كنّا عند الشيخ أبي محمد الجريري[(٢)] رضي الله تعالى عنه فقال: هل منكم مَن إذا أراد الحقّ سبحانه وتعالى أن يُحدث في المملكة حدثًا أعلمه قبل أن يُبديه؟ قلنا: لا، قال: ابكوا على قلوب لا تجد من الله تعالى شيئًا. وقيل: اعتلّ بعضهم فحمل إليه دواء في قدح، فأخذه ثم قال: وقع اليوم في المملكة حدث لا آكل ولا أشرب حتى أعلم ما هو؟ فورد الخبر بعد أيام أنَّ القرمطي دخل مكة في ذلك اليوم وقتل بها مقتلة عظيمة؛ فلما ذكرت هذه الحكاية لابن الكاتب قال: هذا عجب، فقال له الشيخ أبو عثمان المغربي رضي الله تعالى عنه: ليس هذا بعجب، فقال أبو عليّ بن الكاتب: فايش خبر مكة اليوم؟ فقال: هو ذا يتحارب الطلحيون وبنو الحسن، ويقدّم الطلحيون عبدًا أسود، عليه عمامة حمراء، وعلى مكة اليوم عمامة على مقدار الحرم، فكتب ابن الكاتب إلى مكة، فكان كما ذكر أبو عثمان رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به.

(الحكاية الثالثة عشرة بعد المئة: عن أبي جعفر الحداد أستاذ الجنيد رضي الله تعالى عنهما) قال: كنت بمكة، فطال شعري ولم يكن معي قطعة، فتقدّمت إلى مزين توسّمت فيه الخير، وقلت: تأخذ شعري لله تعالى، فقال: نعم وكرامة، وكان بين يديه رجل من أبناء الدنيا، فصرفه وأجلسني وحلق شعري، ثم دفع إليّ قرطاسًا فيه دراهم وقال: تستعين بهذه على بعض حوائجك، فأخذتها وعقدت أن أدفع إليه أوّل شيء يفتح به عليّ، قال: فدخلت المسجد فاستقبلني بعض إخواني وقال لي: جاء بعض إخوانك بصُرَّة من البصرة فيها ثلاث مئة دينار جعلها لك في سبيل الله، فأخذت الصّرّة وحملتها إلى المزيّن، وقلت: هذه ثلاث مئة دينار تصرفها في بعض أمورك، فقال: ألا تستحي يا شيخ، تقول لي: احلق شعري لله ثم آخذ عليه شيئًا؟ انصرف عافاك الله تعالى، رضي الله تعالى عنهما.

(الحكاية الرابعة عشرة بعد المئة: عن الشيخ الشبلي رضي الله تعالى عنه) قال: قال خاطري يومًا: أنت بخيل، فقلت: ما أنا ببخيل، فقال: بل أنت بخيل، فنويت أن أوّل

---

(١) أبو قبيس: هو اسم الجبل المشرف على مكة. (معجم البلدان ١/ ٨٠).

(٢) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري (نسبة إلى جرير بن عباد من بني بكر بن وائل) من كبار أصحاب الجنيد أقعد بعد الجنيد في مكانه، وقد صحب سهل بن عبد الله، وكان عالمًا بعلوم هذه الطائفة. (الرسالة القشيرية ص ٤٠٢).

Marfat.com

شيء يُفتَح به عليّ أُعطيه أوّل فقير ألقاه، فما تمّ هذا الخاطر حتى دخل عليّ فلان سمّاه بخمسين دينارًا، فأخذتها وخرجت، فأوّل مَن لقيت فقير ضرير، أو قال: أكمه بين يدي مزين يحلق له شعره، فناولته ذلك، فقال: أعطها المزين، فقتل: إنها دنانير، فرفع رأسه إليَّ وقال: ما قلنا لك إنك بخيل، فناولتها المزين، فقال: منذ قعد بين يديّ هذا الفقير عقدت مع الله تعالى عقدًا أني لا آخذ على حلاقته شيئًا، قال: فأخذتها وذهبت بها إلى البحر ورميت بها فيه، وقلت: فعل الله تعالى بك وفعل، ما أحبَّكِ أحد إلا أذلّه الله تعالى، رضي الله تعالى عن الثلاثة ونفعنا بهم آمين. قلت: وسيأتي الجواب في خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى عن إنكار مَن أنكر هذه الحكاية.

(الحكاية الخامسة عشرة بعد المئة: عن إبراهيم الخوّاص رضي الله تعالى عنه) قال: دخلت البادية مرة فرأيت نصرانيًا على وسطه زنار[١]، فسألني الصحبة، فمشينا سبعة أيام ثم قال لي: يا راهب الحنيفية هات ما عندك من الانبساط، فقد جعنا، فقلت: إلٰهي لا تفضحني مع هذا الكافر، فرأيت طبقًا عليه خبز وشِواء ورطب وكوز ماء، فأكلنا وشربنا، ومشينا سبعة أيام، ثم بادرت وقلت: يا راهب النصرانية هات ما عندك، فقد انتهت النوبة إليك، فاتكأ على عصاه ودعا، وإذا بطبقين عليهما أضعاف ما كان على طبقي، قال: فتحيّرت وتغيّرت وأبيت أن آكل، فألحّ عليّ فلم أُجبه، فقال: كُل فإني أُبشرك ببشارتين: إحداهما أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وحلّ الزنار. والأخرى قلت: اللّٰهمّ إن كان لهذا العبد حظ عندك، فافتح علينا قال: فأكلنا وشربنا ومشينا وحججنا وأقمنا سنة، ومات رحمه الله تعالى ودفن بالبطحاء، رضي الله تعالى عنه. وقال الخوّاص رضي الله تعالى عنه: دواء القلب في خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وقيام الليل وخلاء الباطن، والتضرّع عند السحر، ومُجالسة الصالحين رضي الله تعالى عنهم.

(الحكاية السادسة عشرة بعد المئة): رُوِيَ أنه قيل لحُذيفة المرعشيّ رحمه الله تعالى: ما أعجب ما رأيْت من إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه قال: بقينا في طريق مكة لم نجد طعامًا، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب، فنظر إليَّ إبراهيم بن أدهم وقال: يا حذيفة أرى بك الجوع، فقلت: هو ما رأى الشيخ، فقال: عليّ بداوة وقرطاس، فجئت به فكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، أنت المقصود بكل حال، والمشار إليه بكب معنى:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ... أنا جائع أنا قانع أنا عاري

---

(١) الزنار: حزام أو خيط غليظ من الحرير بقدر الإصبع يُشدّ على الوسط (ج) زنانير.

Marfat.com

هي ستة وأنا الضمين بنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها ... فأجِرْ عبيدك من دخول النارِ

ثم دفع إليّ الرقعة وقال: اخرج ولا تعلّق قلبك إلا بالله تعالى، وادفع الرقعة إلى أوّل من يلقاك، قال: فخرجت، فأوّل مَن لقيني رجل على بغلة، فناولته الرّقعة، فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال: ما فعل صاحب هذه الرّقعة؟ فقلت: في المسجد الفلاني، فدفع إليّ صُرّة فيها ستّ مئة دينار، ثم لقيت رجلاً آخر فقلت له: مَن صاحب هذه البغلة؟ قال: نصراني، فجئت إلى إبراهيم بن أدهم فأخبرته بالقصة، فقال: لا تمسّها فإنه يجيء الساعة؛ فلما كان بعد ساعة جاء النصرانيّ وأكبّ على إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه، وأسلم. ولله درّ القائل:

يكون أجاجًا دونكم فإذا انتهى ... إليكم تلقى طيبكم فيطيب

(الحكاية السابعة عشرة بعد المئة: عن الشيخ أبي حمزة الخراساني[1] رضي الله تعالى عنه) قال: حججت سنة من السنين، فبينما أنا أمشي إذ وقعت في بئر، فنازعتني نفسي أن أستغيث، فقلت: لا والله لا أستغيث، فما استتمّ هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال نسدّ رأس هذه البئر لئلا يقع فيها أحد، فأتوا بقصب وبارية وسدّوا رأس البئر فطمسوه، فهممت أن أصيح، ثم قلت في نفسي: والله لا أصيح، أدعو مَن هو أقرب منهما وسكت؛ فبينما أنا بعد ساعة إذا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رِجله، وكأنه يقول تعلّق بي في همهمة[2] منه كنت أعرف منه ذلك، فتعلّقت به فأخرجني، فإذا هو سَبُع، فمرّ وهتف بي هاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن، نجّيناك من التّلف بالتّلف فمشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكشف الغطا ... وأغنيتني بالفهم منك عن الكشفِ
تلطّفت في أمري فأبديت شاهدي ... إلى غائبي واللطف يدرك باللطفِ
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما ... تبشّرني بالغيب أنك في الكفّ
أراني وبي من هيبتي لك وحشة ... فتؤنسني باللطف منك وبالعطفِ
وتحيى مُحبًا أنت في الحبّ حتفه ... وذا عجب كون الحياة مع الحتفِ

قلت: وسيأتي الجواب في الخاتمة عن إنكار مَن أنكر هذه الحكاية وأشباهها إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو أبو حمزة الخراساني (توفي ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م) أصله نيسابوري، من محلة ملقاباذ، من أقران الجنيد والخراز وأبي تراب النخشبي، وكان ورعًا ديّنًا. (الرسالة القشيرية ص ٤٠٩).
(٢) الهمهمة: الكلام الخفي أو ترديد الصوت في الصدر من الهمّ. أو كل صوت معه بحح.

Marfat.com

(الحكاية الثامنة عشرة بعد المئة): رُوِيَ أن إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه كان يعمل في الحصاد ويحفظ البساتين، فجاء يومًا جندي وطلب منه أن يعطيه شيئًا من الفواكه، فأبى أن يعطيه، فقلب الجندي سوطه وضرب رأسه، فطأطأ له إبراهيم رأسه وقال: اضرب رأسًا طالما عصى الله عزّ وجلّ؛ فلما عرفه الجندي اعتذر إليه، فقال إبراهيم: إنَّ الرأس الذي يحتاج إلى الاعتذار تركته ببلخ. وقال رضي الله تعالى عنه لرجل وهو في الطواف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ستّ عقبات: أُولاها تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدّة. والثانية تغلق باب العزّ وتفتح باب الذلّ. والثالثة تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد. والرابعة تغلق باب النوم وتفتح باب السهر. والخامسة تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر. والسادسة تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت. وأنشدوا:

إنَّ لله عبادًا فُطَنَا ... طلّقوا الدنيا وخافوا الفِتَنا
نظروا فيها فلما عرفوا ... أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لجّة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سُفُنا

(الحكاية التاسعة عشرة بعد المئة: عن عبد الله بن المبارك[1] رضي الله تعالى عنه) قال: كنت بمكة وقد لحق الناس قحط، واستمرّ إمساك المطر عنهم، فخرج الناس يستسقون في المسجد الحرام، ولم يبقَ أحد من الصغار والكبار، وكنت في الناس مما يلي باب بني شيبة، وإذا بعبد أسود قد أقبل، وعليه قطعتا خيش قد اتّزر بإحداهما، وألقى الأخرى على عاتقه، فانتهى إلى موضع خفيّ بحذائي، فسمعته يقول: إلٰهي قد أخلَقَت الوجوه كثرة الذنوب، ومساوي الأعمال، وقد منعتنا غيث السماء لتؤدّب الخليقة بذلك، فأسألك يا حليمًا ذا أناة، يا مَن لا يعرف عباده منه إلا الجميل، أن تسقيهم الساعة، فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى استوت السماء بالغمام، وأقبل المطر من كلّ مكان، وجلس مكانه يسبّح، وأخذت أبكي؛ فلما قام اتّبعته حتى عرفت موضعه، فجئت إلى الفُضيل بن عيّاض رضي الله تعالى عنه فقال: ما لي أراك كئيبًا؟ قلت: سبقنا إليه غيرنا، فتولاّه دوننا، قال: وما ذاك؟ فقصصت عليه القصة، فصاح وسكت وقال: ويحك يا ابن المبارك خذني إليه، فقلت: قد ضاق الوقت وسأبحث عن شأنه؛ فلما كان من الغد صلّيت الغداة وخرجت أُريد الموضع، فإذا بشيخ على الباب قد بسط له وهو جالس؛ فلما رآني عرفني وقال: مرحبًا بك يا أبا عبد الرحمٰن ما حاجتك فقلت له:

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٤/١١٥؛ وفي تذكرة الحفاظ ١/٢٥٣؛ وحلية ٨/١٦٢؛ وشذرات ١/٢٩٥.

Marfat.com

احتجت إلى غلام أسود، فقال: نعم عندي عدة، فاختَر أيهم شئت، وصاح يا غلام فخرج غلام جلد، فقال: هذا محمود العاقبة أرضاه لك، فقلت: ليس هذا حاجتي، فما زال يخرج لي واحدًا بعد واحد حتى أخرج لي الغلام المذكور، فلما بصرت به بدرت له عيناي بالنظر، فقال: هذا هو؟ قلت: نعم، قال: ليس لي إلى بيعه من سبيل، قلت: ولِمَ؟ قال: قد تبرّكت بموضعه في هذه الدار، وذلك أنه لا يرزؤني[1] شيئًا؟ قلت: ومن أين طعامه؟ قال: يكتسب من فتل الشريط نصف دانق أو أقلّ أو أكثر فهو قُوته، فإن باعه في يومه وإلا طوى ذلك اليوم، وأخبرني الغلمان عنه أنه لا ينام الليل الطويل، ولا يختلط بأحد منهم، وهو مهتمّ بنفسه وقد أحبّه قلبي، فقلت: أنصرف إلى سُفيان الثوريّ وإلى فُضيل بن عياض بغير قضاء حاجة؟ فقال: إن ممشاك عندي كبير، خذه بما شئت، فاشتريته وأخذت به نحو دار الفضيل، فمشيت ساعة، ثم قال لي: يا مولاي. قلت: لبّيك، فقال: لا تقل لي لبّيك، فإن العبد أولى بأن يلبّي مولاه، قلت: ما حاجتك يا حبيبي؟ قال: أنا ضعيف البدن لا أطيق الخدمة، وقد كان لك في غيري سعة، وقد أخرج إليك مَن هو أجلد مني، فقال: لا يراني الله تعالى أستخدمك، ولكن أشتري لك منزلاً وأزوّجك وأخدمك أنا بنفسي، فبكى بكاء كثيرًا، فقلت: ما يُبكيك؟ فقال: أنت لم تفعل بي هذا إلا وقد رأيت بعض متصلاتي بالله تبارك وتعالى، وإلا فلِمَ اخترتني من بين أولئك الغلمان؟ فقلت له: ليس بي حاجة إلى هذا، فقال: سألتك بالله إلا أخبرتني؟ فقلت: بإجابة دعوتك، فقال لي: أحسبك إن شاء الله تعالى رجلاً صالحًا، إن لله عزّ وجلّ خِيرة من خلقه لا يكشف شأنهم إلا لمَن أحبّ من عباده، ولا يظهر عليهم إلا لمَن ارتضى من خلقه، ثم قال: ترى أن تقف عليّ قليلاً، فإنه قد بقيت عليّ ركعات من البارحة، قلت: هذا منزل فضيل قريب، قال: لا، هٰهنا أحبّ إلى أمر الله عزّ وجلّ لا يؤخر؛ فدخل المسجد فما زال يصلي حتى أتى على ما أراد، ثم التفت إليّ وقال: يا أبا عبد الرحمٰن هل من حاجة؟ قلت: لِمَ؟ قال: إني أُريد الانصراف، قلت: إلى أين؟ قال: إلى الآخرة، فقلت: لا تفعل دعني أُسَرّ بك فقال: إنما كانت تطيب الحياة حيث كانت المعاملة بيني وبينه، فأما إذا اطّلعت عليها فسيطّلع عليها غيرك، ولا حاجة لي في ذلك، ثم خرّ لوجهه فجعل يقول: إلٰهي اقبضني الساعة الساعة فدنوت منه فإذا هو قد مات، فوالله ما ذكرته قطّ إلا طال حزني، وصغرت الدنيا في عيني، رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به. قلت: وفي أمثاله أقول:

عبيد لمولاهم تعالى وغيرهم ... عبيد الهوى بين الفريقين كالثرى
وعلوّ الثريا في ارتفاع مقامهم ... بهم يدفع الله البلايا عن الورى

---

(١) رزأته رزيئة: أصابته مصيبة.

Marfat.com

(الحكاية العشرون بعد المئة: عن محمد بن الحسين البغدادي رضي الله تعالى عنه)

قال: حججت في بعض السنين، فبينما أنا أدور في شوارع مكة، وإذا أنا بشيخ قابض على يد جارية متغيِّر لونها، نحيل جسمها، وعلى وجهها نور ساطع، وضياء لامع، وهو ينادي: هل من طالب؟ هل من راغب؟ هل من زائد على عشرين دينارًا وأنا بريء من كلّ عيب، قال: فدنوت منه وقلت له: الثمن قد عرفناه، فما العيب؟ قال: اعلم أنها جارية مهيومة مهمومة، قائمة ليلها، صائمة نهارها، لا تأكل طعامًا ولا تشرب شرابًا، قد أَلِفَتْ الانفراد والوحدة في كلّ أرض وبلدة، فلما سمعت كلامه أحبّ قلبي الجارية، فاشتريتها بالثمن المذكور، ورحت بها إلى منزلي، فرأيت الجارية مُطرِقة إلى الأرض، ثم رفعت رأسها إليّ وقالت: يا مولاي الصغير من أين أنت يرحمك الله؟ قلت: من العراق؟ قالت: من أيّ العراق من البصرة أم من الكوفة؟ فقلت: لا من البصرة ولا من الكوفة، فقالت: لعلك من مدينة السلام بغداد، قلت: نعم، قالت: بخ بخ[1] مدينة الزّهّاد والعبّاد، قال: فتعجبت وقلت: جارية ينادي عليها من حجرة إلى حجرة، من أين لها معرفة بالزّهّاد والعباد؟ ثم أقبلت عليها شبه الملاعب لها وقلت لها: ومَن تعرفين منهم؟ قالت: أعرف مالك بن دينار، وبِشر الحافي، وصالحًا المريّ، وأبا حاتم السجستاني[2]، ومعروفًا الكرخيّ، ومحمد بن الحسين البغدادي، ورابعة العدوية، وشعوانة، وميمونة، فأقبلت عليها وقلت لها: من أين لك معرفة هؤلاء؟ قالت: يا فتى كيف لا أعرفهم وهم والله أطباء القلوب، ومَن يدلّ المحبّ على المحبوب، ثم أنشأت تقول:

قوم همومهم بالله قد علقت ... فما لهم هِمَم تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حُسْن مطلبهم للواحد الصمد

ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذّات والولد

ولا لباس لثوب فائق أنِق ... ولا التزايد في الأموال والعدد

قال: فقلت لها: يا جارية، أنا محمد بن الحسين، قالت: لقد سألت الله تعالى أن يجمع بيني وبينك يا أبا عبد الله، ما فعل حُسْن صوتك الذي كنت تحيي به قلوب المُريدين، وتبكي به عيون السامعين؟ فقلت: باقٍ على حاله، قالت: فبالله عليك أسمِعني شيئًا من القرآن، فقرأت بسم الله الرحمٰن الرحيم، فصرخت صرخة عظيمة وغشي عليها،

---

(١) بَخْ: كلمة تُقال في المدح والرضا بالشيء وتكرر للمبالغة فإن وصلت كسرت ونوّنت (بخٍ بخٍ).

(٢) هو سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني (توفي ٢٤٨ هـ = ٨٦٢ م) من كبار العلماء باللغة والشعر، من أهل البصرة كان المبرّد يلازم القراءة عليه. له نيّف وثلاثون كتابًا منها كتاب «المعمرين» و«النخلة» و«الشجر والنبات» و«الأضداد» و«الشوق إلى الوطن» وغير ذلك. الأعلام ٣/١٤٣؛ والوفيات ١/٢١٨؛ والفهرست لابن النديم ١/٥٨؛ وآداب اللغة ٢/١٨٥.

Marfat.com

فرششت على وجهها الماء، فأفاقت ثم قالت: يا أبا عبد الله هذا اسمه، فكيف لو عرفته وفي الجنان رأيته، اقرأ يرحمك الله فقرأت ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ [الجاثية: ٢١] فقالت: يا أبا عبد الله ما عبدنا وثنًا ولا قبلنا صنمًا، اقرأ يرحمك الله، فقرأت: ﴿إنّا أعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ [الكهف: ٢٩] فقالت: يا أبا عبد الله لقد ألزمت نفسك القنوط، روّح قلبك بين الرجاء والخوف، اقرأ يرحمك الله، فقرأت ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة﴾ [عبس: ٣٨] وقرأت أيضًا ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢] فقالت: واشوقاه إلى لقائه يوم يتجلى لأوليائه، اقرأ يرحمك الله، فقرأت ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدّعون عنها ولا ينزفون﴾ إلى قوله: ﴿لأصحاب اليمين﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ٣٨] فقالت: يا أبا عبد الله أراك قد خطبت الحور العين، فهل بذلت من مهورهنّ شيئًا؟ فقلت: دلّيني يا جارية فإني مفلس، فقالت: عليك بقيام الليل وصيام النهار، وحبّ الفقراء والمساكين، ثم أنشأت تقول:

يا خاطب الحوراء في خدرها ... وطالبًا ذاك على قدرها
انهض بجدّ لا تكن وانيًا ... وجاهد النفس على صبرها
وقم إذا الليل بَدَا شطره ... وصم نهارًا فهو من مهرها
فلو رأت عيناك إقبالها ... وقد بَدَت رمّانتا صدرها
وهي تماشي بين أترابها ... وعقدها يُشرِق في نحرها
لهان في عينيك هذا الذي ... تراه في دنياك من زهرها

قال: ثم غشي عليها، فرششت على وجهها الماء، فأفاقت ثم أنشأت تقول:

إلٰهي لا تعذّبني فإني ... مُقِرٌّ بالذي قد كان مني
فكم من زلّة لي في الخطايا ... غفرت وأنت ذو فضل ومنّ
يظنّ الناس بي خيرًا وإني ... لشرّ الناس إن لم تعفُ عني
وما لي حيلة إلا رجائي ... لعفوك إن عفوت وحُسْن ظني

قال: ثم غشي عليها، فدنوت منها فإذا هي قد ماتت رحمة الله تعالى عليها، فاغتممت لذلك غمًّا شديدًا، وخرجت إلى السوق لآخذ في جهازها، فلما رجعت إذا هي قد كُفِّنَت وحُنِّطَت[1] وعليها حلّتان خضراوان من حلل الجنة، مكتوب بالنور على الكفن

---

(١) التحنيط: حِفظ هيكل جسم الميت من التلف بوسائل مختلفة.

سطران: السطر الأول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، والسطر الثاني: ﴿إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [يونس: ٦٢]، قال: فحملتها أنا وأصحابي وصلّينا عليها ودفنّاها، وقرأت عند رأسها سورة يَس ورجعت إلى محرابي باكي العين حزين القلب على فراقها، فصلَّيت ركعتين ونمت، فرأيت الجارية في الجنة، وعليها الحلل، وهي في مزج من زعفران أفيح، عليها حُلل السُندس[١] والاستبرق، وعلى رأسها إكليل مرصّع بالدرّ والجوهر، وفي رِجليها نعلان من الياقوت الأحمر يفوح منها رائحة المسك والعنبر، ووجهها أضوأ من الشمس والقمر، فقلت لها: مهلاً يا جارية ما الذي أبلغك هذه المنزلة؟ قالت: حبّ الفقراء والمساكين، وكثرة الاستغفار ونقل الأذى عن طريق المسلمين، ثم أنشأت تقول:

طوبى لمَن سهرت في الليل عيناه ... وبـات ذا قـلـق فـي حـبّ مـولاه
وناح يـومًا عـلى تـفـريطه وبـكـى ... خـوفًـا لـمـا قد جناه من خـطـايـاه
وقام يـرعـى نـجـوم الـلـيـل مـنـفـردًا ... خـوف الـوعـيـد وعـيـن الله تـرعـاه

(الحكاية الحادية والعشرون بعد المئة: عن بعض أهل العلم) قال: كانت تختلف إليَّ في بعض الأحيان جارية لها وضاءة وعليها حياء، تسألني عن شرائع الإسلام وأمور الدين، فأُجيبها وألطف بها، وكان حالها يميل إلى التستّر والكتمان، وكان يعجبني سمتها وحُسْن حالها؛ فبينما أنا بعد مدة مارّ بالسوق، إذ رأيت الجارية وقد قبض على يدها إنسان وهو ينادي عليها: مَن يشتري الجارية بعيبها؟ فقلت لها: ألستِ التي كنت تسأليني عن أمور الدين وشرائع الإسلام فأطرقت رأسها وأشارت به نعم، فقلت له: خلّ يدك عنها، فقال: يا سيدي لا أقدر فإن سيدها مجوسي[٢] وقد أغضبته؛ فبينما أنا أتكلم معه إذا بسيدها قد أقبل، فتقدمت إليه وقلت له: صف لي صفة جاريتك، واذكر لي ما الذي تكرهه منها، قال: أخبر الشيخ أن الأبعد مجوسي يعبد النار والنور، وقد كنت استحسنت هذه الجارية لما رأيت من عقلها وجمالها، فاشتريتها بثمن جزيل، وكنت أراها كثيرة العبادة والتعظيم لمعبودنا، مُحِبّة طائعة لآلهتنا، حتى كانت ليلة من الليالي مرَّ بنا رجل من أهل ملّتكم، وقرأ شيئًا من كتابكم، فما هو إلا أن سمعت ما قرأه فصاحت صيحة عظيمة، فدهشنا، وأنشدت:

طـرق الـسـمـع يـا أهـيـل المصلي، ... خـبـر مـنـكـم فـزاد اشـتـيـاقـي
مـحـكـم الـنـقـل قـد رَوَتـه ثـقـات ... مـسـنـد بـالـرواة والاتـفـاقِ

---

(١) السُندس: ضرب من رقيق الديباج أو الحرير المنسوج الذي يتلوّن ألوانًا.
(٢) المجوس: معرّب عن (منج كوش) بالفارسية، ومعناها: صغير الأذنين، وهم أمة يعبدون الشمس أو النار وواحدهم مجوسي.

Marfat.com

عندما شمت بارقًا من حلاكم   حنّ قلبي إلى لذيذ التلاقي
وكتمت الوشاة ما بي من الوجـ   ـد ومن لوعتي وحرّ احتراقي
أنا أفنى بكم وتبلى عظامي   ورسيس[1] الغرام في القلب باقي

قال: فدهشنا وهي باهتة نسألها، فلا تردّ جوابًا، إلا أنها هجرتنا وتركت عبادة آلهتنا وأبت أن تأكل طعامنا، وإذا جنّ عليها الليل صلّت إلى قبلتكم، وكم نهيناها فلم تنته، وقد أذهبت نضارتها وغيّرت حالها، ولم يحصل لنا بها انتفاع، ولم نستطع أن نردّها عمّا هي عليه، وقد عزمت على بيعها قال: فقلت لها: الأمر كذلك؟ فأشارت برأسها نعم، فقلت في نفسي: إنما عابها من جهلها، فأنشدت:

يعيبون ما لو أنهم فطنوا به   لكانوا أشدّ الناس حبًّا لما عابوا

فقلت لها: أيّ آية قرئت عليك؟ قالت: قول ربكم تبارك وتعالى: ﴿ففرّوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلـٰهًا آخر إني لكم منه نذير مبين﴾ [الذاريات: ٥٠، ٥١] قالت: فمنذ سمعت هذه عدمت صبري وظهر بي ما ترى من أمري، وأنشدت:

ما بين منعرج اللوى والوادي   يا صاحبي ضحى عدمت فؤادي
ورجعت ذا وَلَهٍ وكم من عاشق   مقتول عشق ما له من فادي
يا أهل نجد ارحموا ذا لوعة   ما بين أطناب الخيام ينادي[2]
ولهان لا يصغي لعذل عواذل   ظمآن من ماء التوصل صادي
ما هبّ لي منكم نسي مخبر   بالوصل فيه منائح الإسعادِ
إلا سعيت مبادرًا للقائكم   ومنعت عيني من لذيذ رقادي
وإذا نطقت بذكر غزلان النقا   أو زينب أو علوة وسعادِ
فلأنتم قصدي وغاية مطلبي   ولأنتم دون الجميع مرادي
لا شيء يشبهكم تعالى ذكركم   عن قول ذي زيغ وذي إلحادِ

قال: فقلت لها: لو أسمعتك تمام الآيات؟ فقالت: إن كنت تُحسِنها فاقرأها، فقرأت عليها حتى انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ما أُريد منهم من رزق وما أُريد أن يطعمون إن الله هو الرزّاق ذو القوّة المتين﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٨] فقالت: أحسنت حسبك ما ضمنه الإله المعبود، ثم قلت لسيدها: هل لك أن تقبض ثمنها مني؟ فقال: إن ثمنها جزيل ولي ابن عمّ قد تعلق بها وقصدني

---

(١) الرّسِيس: يقال: به رسيس الحُمى؛ أي: أول مسّها، أو أثرها.
(٢) الأطناب: (ج) الطنب: حبل طويل تشدّ به الخيمة والسرادق ونحوها.

Marfat.com

فيها، يروم أن ترجع عمّا هي عليه من الخاطر الذي قد اعتراها، وهو مجوسي من أهل الملّة، قال: فبينما هو يخاطبني إذ قد أقبل ابن عمه، فقال: أنا أردّها عمّا هي عليه، فدفعها إليه؛ فلما علمت ذلك، قالت: يا شيخ لا تسمع كلامه ليكوننّ لي وله شأن عظيم يُطلِعكَ إلٰهك عليه؛ فلما كان بعد مدة رأيت سيدها المجوسي الذي ذهب بها يصلي معنا في المسجد، فقلت له: ألست سيد الجارية؟ قال: بلى، قلت: كيف كان الخبر؟ قال: خير خبر، مضيت بالجارية إلى منزلي وخرجت لحاجة، فلما رجعت وجدتها قد نصبت كرسيًا وجلست عليه، وجعلت تذكر الله تعالى وتوحّده، وتحذّر أهلي وتنهاهم عن عبادة النار وتصف الجنة، فخشيت أن تفسد علينا ديننا، فقلت: أخذت هذه الجارية طمعًا أن أفسد عليها دينها، فإذا هي تفسد علينا ديننا، وقصصت قصتها على صاحب لي، وقلت له: ما تشير عليّ أن أفعل؟ قال: أودعها مالاً وخذه من ورائها واطلبه منها لتثبت لك عليها الحجة، ثم اضربها، قال: فأودعتها كيسًا فيه خمس مئة دينار، فاشتغلت على عادتها في عبادتها فأخذت الكيس وهي لا تشعر وطلبته منها، فوثبت إلى الموضع الذي وضعته فيه، وإذا بالكيس في موضعه، فناولتني إياه، فتعجبت من ذلك وقلت في نفسي: أنا أخذت الكيس وهذا آخر، فلا شكّ بعد العيان، هذا يدلّ على قدرة إلٰهها الذي تعبده، فآمنت بإلٰهها وأسلمت أنا وصاحبي وأهلي كلهم، وأطلقت سبيلها كما اختارت، رضي الله تعالى عنها ونفع بها، وما زالت تكتم الغرام حتى أظهر الله تعالى حالها للأنام، كما أنشد لسان حالها:

كتمت الوشاة غرامي بكم وحبكم في حشى أضلعي وموّهت عنكم بوادي النقا
وسكان رامة والأجرع ولولاكم ما ذكرت اللوى ولا حنّ قلبي إلى لعلع[1]

(الحكاية الثانية والعشرون بعد المئة: عن سريّ السقطي رضي الله تعالى عنه) قال: سهرت ليلة من الليالي وقلقت قلقًا شديدًا، فلم أطق الغمض مع ما حرمته من التهجّد، فلما صليت صلاة الصبح، خرجت لا يقرّ لي قرار، فوقفت في الجامع أستمع بعض القصاص لعلّي أجد لقلبي راحة، فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة، فمضيت ووقفت ببعض الوعّاظ، فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة، فقلت: أمضي إلى بعض أطباء القلوب، ومَن يدلّ المحبّ على المحبوب، فمضيت، فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة، فقلت أمضي إلى أهل الشرط أعتبر بمَن يعاقب في الدنيا، فمضيت فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة، فقلت أمضي إلى المارستان لعلّي أتروّع وأنزجر بمَن ابتلى، فلما ولجت

---

(١) رامة: وهي منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة ومنه إلى إمرة، وهي آخر بلاد بني تميم، وبين رامة وبين البصرة اثنتا عشرة مرحلة. (معجم البلدان ٣/١٨).

Marfat.com

المارستان وجدت قلبي قد انفسح، وصدري قد انشرح، وإذا أنا بجارية من أنضر الناس وجهًا، عليها أطمار حسنة رفيعة، وشممت منها رائحة عطرية عفيفة المنظر وسيمة الخطر. وهي مقيدة الرّجلين، مغلولة اليدين؛ فلما رأتني تغرغرت[1] عيناها بالدموع، وأنشأت تقول:

أعيذك أن تغلّ يدي ... بغير جريمة سبقت
تغلّ يدي إلى عنقي ... وما خانت وما سرقت
وبين جوانحي كبد ... أحسّ بها قد احترقتِ
وحقك يا مني قلبي ... يمينًا برّة صدقت
فلو قطّعتها قطعًا ... وحقك عنك ما رجعت

قال السريّ رضي الله تعالى عنه: فلما سمعت كلامها قلت لصاحب المارستان: ما هذه؟ قال: مملوكة اختلّ عقلها، فحبسها مولاها لعلها تنصلح، فلما سمعت كلام القيِّم اغرورقت عيناها بالدموع، ثم جعلت تقول:

معشر الناس ما جننت ولكن ... أنا سكرانة وقلبي صاحي
أغللتم يدي ولم آتِ ذنبًا ... غير جهدي في حبه وافتضاحي
أنا مفتونة بحبّ حبيب ... لست أبغي عن بابه من براحِ
فصلاحي الذي زعمتم فسادي ... وفسادي الذي زعمتم صلاحي
ما على من أحبّ مولى الموالي ... وارتضاه لنفسه من جناحِ

قال رضي الله تعالى عنه: فسمعت كلامًا أقلقني وأشجاني وأحرقني وأبكاني؛ فلما رأت دموعي قالت: يا سريّ هذا بكاؤك على صفته، فكيف لو عرفته حقّ معرفته؟ ثم أغمي عليها ساعة، فلما أفاقت جعلت تقول:

ألبستني ثوب وَصْلٍ طاب ملبسه ... فأنت مولى الورى حقًا ومولائي
كانت بقلبي أهواء مفرّقة ... فاستجمعت مُذْ رأتك العين أهوائي
مَن غصّ داوى بشرب الماء غصّته ... فكيف يصنع مَن قد غُصّ بالماءِ
قلبي حزين على ما فات من زللي ... والنفس في جسدي من أعظم الداءِ
والشوق في خاطري مني وفي كبدِ ... والحبّ مني مصون في سويدائي
إليك منك قصدت الباب معتذرًا ... وأنت تعلم ما ضمّته أحشائي

فقلت لها: يا جارية، قالت: لبيك يا سريّ، قلت: من أين عرفتيني؟ قالت: ما جهلت مذ عرفت ولا فترت مذ خدمت، ولا انقطعت مذ وصلت، وأهل الدرجات يعرّف

---

(١) تغرغرت عينه بالدمع: تردد فيها الدمع.

Marfat.com

بعضهم بعضًا، قلت: أسمعك تذكرين المحبة، فلمن تحبين؟ قالت: لمَن تعرّف إلينا بنعمائه، وجادَ علينا بجزيل عطائه، فهو قريب إلى القلوب محبّ لطلب المحبوب، سميع عليم، بديع حكيم، جواد كريم، غفور رحيم، فقلت لها: مَن حبسك هٰهنا؟ فقالت: يا سريّ حاسدون تعاونوا وتعاقدوا وتراسلوا، ثم شهقت شهقة حتى ظننت أنها قد فارقت الحياة، ثم أفاقت وأنشأت تقول:

قلبي أراه إلى الأحباب مرتاحا سكران من حبّ الرّاح بالهوى باحا
يا عين جودي بدمع خوف هجرهم فربّ دمع أتى للخير مفتاحا
ورُبَّ عين رآها الله باكية بالخوف منه تنال الروح والرّاحا
لله عبد جنى ذنبًا فأحزنه فبات يبكي ويذري الدمع سفاحا
مستوحش خائف مستيقن فطن كأن في قلبه للنور مصباحا

قال السريّ رضي الله تعالى عنه: فقلت لقيّم المارستان: أطلقها، ففعل، فقلت اذهبي حيث شئت، قالت: يا سريّ إلى أين أذهب وما لي عنه مذهب؛ إن حبيب قلبي قد ملّكني لبعض مماليكه، فإن رضي مالكي ذهبت وإلا صبرت واحتسبت، فقلت: هذه والله أعقل مني، فبينما هي تخاطبني، إذ دخل مولاها، فقال للقيّم: أين تحفة؟ قال: هي داخل وعندها سريّ السقطي رضي الله تعالى عنه، قال: ففرح ودخل وسلّم عليّ ورحّب بي وعظّمني، فقلت له: هي أولى بالتعظيم مني، فما الذي تكره منها؟ فقال: أمور كثيرة، لا تأكل ولا تشرب، ذاهلة العقل مدهوشة اللبّ، ولا تنام ولا تدعنا ننام، كثيرة الفكر، سريعة العَبرة، ذات زفرة وحنين، وبكاء وأنين، وهي بضاعتي اشتريتها بكل مالي بعشري ألف درهم، وأملت أن أربح فيها مثل ثمنها لحُسْن صنعتها، قال: قلت: وما صنعتها؟ قال: مطربة، قلت: ومنذ كم كان بها هذا الدّاء؟ قال: منذ سنة، قلت: وما كان بدؤه؟ قال: بينما العود في حجرها وهي تغني وتقول:

وحقك لا نقضت الدهر عهدًا ولا كدرت بعد الصفو ودًا
ملأت جوانحي والقلب وجدًا فكيف ألذُّ أو أسلو وأهدا
فيا مَن ليس لي مولى سواه تراك تركتني في الناس عبدا

ثم كسرت العود وقامت وبكت وانتحبت، فاتهمتها بمحبة إنسان، فكشفت عن ذلك فلم أجد له أثرًا، فقلت لها: أهكذا كان الحديث؟ فأجابتني بلسان طلق، وقلب محترق، وهي تقول:

خاطبني الحقّ من جناني فكان وعظي على لساني قرّبني منه بَعْدَ بُعْدِ
وخصّني الله واصطفاني أجبت لمّا دعيت طوعًا ملبيًا للذي دعاني
وخفت مما جنيت قدما فوقع الحبّ بالأماني

Marfat.com

قال السريّ السقطي رضي الله تعالى عنه: فقلت له: عليّ الثمن وأزيدك، فصاح وقال: وافقراه من أين لك ثمن هذه الجارية وأنت رجل فقير؟ فقلت له: لا تعجل عليّ تكون في المارستان حتى آتي بثمنها، ثم ذهبت باكي العين حزين القلب، والله ما عندي من ثمنها درهم، وبقيت طول الليل أتضرّع وأبكي، وأدعو الله عزّ وجلّ، فلم أطعم غمضًا وأقول: يا ربّ إنك تعلم سرّي وجهري، وقد عوّلت على فضلك فلا تفضحني عند مالكها، فبينما أنا في المحراب وإذا بقارع يقرع الباب، فقلت: مَن بالباب؟ فقال: حبيب من الأحباب جاء في سبب من الأسباب بأمر الملك الوهّاب، ففتحت الباب، وإذا برجل معه أربعة غلمان وشمعة، فقال لي: يا أستاذ أتأذن لي في الدخول؟ فقلت: ادخل، فدخل فقلت له: مَن أنت؟ فقال: أحمد بن المثنى، قد أعطاني مَن إذا أعطى لا يبخل بالعطاء، كنت الليلة نائمًا، فهتف بي هاتف يقول لي: احمل خمس بدرات[1] إلى السريّ تطيب بها نفسه، ويشتري بها تحفة، فإن لنا بها عناية، فسجدت شكرًا لله على ما أولاني من نعمة، وجلست أتوقع الفجر، فلما صلّيت الصبح خرجت وأخذت بيد أحمد ومضيت به إلى المارستان، فإذا الموكل بها يلتفت يمينًا وشمالاً؛ فلما رآني قال: مرحبًا ادخل، فإن لها عند الله تعالى عناية، هتف بي البارحة هاتف وهو يقول:

إنـهـا مـنّـا بـبـال ليس تخلو من نوال قـربـت ثـم تـرقـت وعلت في كلّ حال

قال السريّ رضي الله تعالى عنه: فلما رأتنا تحفة تغرغرت عيناها بالدموع، وقالت: شهرتني بين المخلوقين، ثم أنشأت تقول:

قـد تـصـبـرت إلـى أن عـيـل فـي حـبّـك صـبـري ضـاق مـن قـيـدي وغـلّـي
وامـتـهـانـي فـيـك صـدري لـيـس يـخـفـى عـنـك أمـري يـا مـنـى سـؤلـي وذخـري

قال: فبينما نحن جلوس، إذ دخل مولاها وهو باكي العين حزين القلب متغيّر اللون، فقلت له: لا تبكِ فقد جئناك بما وزنت وربح خمسة آلاف، فقال: لا والله، فقلت: ربح عشرة آلاف، فقال: لا والله، فقلت: وربح المثل، فقال: لو أعطيتني الدنيا ما قبلت، هي حرّة لوجه الله تعالى، فقلت له: ما القصة؟ فقال: يا أستاذ وُبِّختُ البارحة، أُشهِدُكَ أني قد خرجت من جميع مالي هاربًا إلى الله تعالى، اللّهمّ كن لي في السعة كفيلاً، وبالرزق حميلاً، فالتفت إلى ابن المثنى فرأيته يبكي، فقلت له: وما يُبكيك؟ فقال: كأنّ الحقّ ما رضيني لما ندبني إليه أُشهِدُكَ أني قد تصدّقت بجميع مالي لوجه الله تعالى، فقلت: ما أعظم بركة تحفة على الجميع، فقامت تحفة، فنزعت ما كان

(١) البَدرة: كيس فيه مقدار من المال كانوا يتعاملون به أو يقدّمونه في العطايا ويختلف باختلاف العهود.

Marfat.com

عليها، ولبست مدرعة من شعر وخرجت وهي تبكي، فقلنا لها: قد أطلقكِ الله تعالى فما يُبكيكِ؟ فأنشأت تقول:

هربت منه إليه بكيت منه عليه وحقه هو مولى
لا زلت بين يديه حتى أنال وأحظى بما رجوت لديه

قال: ثم خرجنا من الباب، فلما صرنا في بعض الطريق طلبناها فلم نجدها، ومات ابن المثنى في الطريق، ودخلت أنا ومولاها مكة، فبينما نحن في الطواف إذ سمعت كلام مجروح من كبد مقروح وهو يقول:

محبّ الله في الدنيا سقيم تطاول سقمه فدواه داه
سقاه من محبته بكأس فأرواه المهيمن إذ سقاه
فهام بحبه وسما إليه فليس يريد محبوبًا سواه
كذاك مَن ادّعى شوقًا إليه يهيم بحبه حتى يراه

فتقدمت إليها، فلما رأتني قالت: يا سريّ، قلت: لبّيك مَن أنت يرحمك الله؟ قالت: لا إله إلا الله، وقع التناكر بعد المعرفة، أنا تحفة فإذا هي كالخيال، فقلت: يا تحفة ما الذي أفادك الحقّ بعد انفرادك عن الخلق، فقالت: آنسني بقربه وأوحشني من غيره، فقلت لها: مات ابن المثنى، فقالت: رحمه الله تعالى لقد أعطاه مولاه من الكرامات ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، وهو بجواري في الجنة، فقلت: جاء مولاك الذي أعتقك معي، فدعت بدعاء خفيّ، فلم يكن بأسرع ما عاينتها تلقاء الكعبة ميتة، فلما نظرها سيدها لم يتمالك أن سقط على وجهه، فحرّكته فإذا هو قد قضى نحبه، فأخذت في جهازهما ودفنتهما رحمة الله تعالى عليهما.

(الحكاية الثالثة والعشرون بعد المئة: عن أبي هاشم المذكور رحمه الله تعالى) قال: أردت البصرة، فجئت إلى سفينة اكتريتها، وفيها رجل ومعه جارية، فقال الرجل: ليس هٰهنا موضع لك، فسألته الجارية أن يحملني؛ ففعل، فلما سرنا دعا الرجل بالغداء، فوضع فقال: ادعوا ذلك المسكين ليتغدى معنا، فجئت على أني مسكين، فلما تغدينا قال: يا جارية هات شرابك، فشرب وأمرها أن تسقيني، فقلت: يرحمك الله إن للضيف حقًّا، فتركني، فلما دبّ فيه النبيذ[1]، قال: يا جارية هات عودك، وهات ما عندك، فأخذت العود، فغنّت وقالت:

وكنّا كغصني بانة ليس واحد يزول على الحالات عن رأي واحد
تبدّل بي خلا فخاللت غيره وخلّيته لما أراد تباعدي

---

(١) النبيذ: شراب مُسكِر يُتّخذ من عصير العنب أو التمر أو غيرهما، (ج) أنبذة.

Marfat.com

فلو أن كفي لم تردني أبنتها فلم يصحبنها بعد ذلك ساعدي
ألا قبح الرحمن كل مماذق يكون أخًا في الخصب لا في الشدائد

فالتفت إلى الرجل وقال: أتُحسِن مثل هذا؟ فقلت: أحسن خيرًا منه، فقرأت ﴿إذا الشمس كُوِّرت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سُيِّرَت وإذا العِشار عُطِّلت﴾ [التكوير: ١ ـ ٤] فجعل الشيخ يبكي، فلما انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿وإذا الصُّحف نُشِرت﴾ [التكوير: ١٠] قال: يا جارية اذهبي فأنت حرّة لوجه الله تعالى، وألقى ما معه من الشراب في الماء وكسر العود، ثم عاد إليَّ فاعتنقني، وقال: يا أخي أترى أن الله يقبل توبتي؟ فقلت: إن الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين، وواخيته في الله، واصطحبنا بعد ذلك أربعين سنة حتى مات، فرأيته في المنام فقلت له: إلى ماذا صرت؟ فقال: إلى جنة المأوى، فقلت: بماذا؟ قال: بقراءتك عليَّ ﴿وإذا الصحف نُشِرَت﴾ [التكوير: ١٠]، وأنشدوا:

بادر إلى التوبة الخلصاء مجتهدًا والموت ويحك لم يمدد إليك يدا
فإنما المرء في الدنيا على خطر إن لم يكن ميتًا في اليوم مات غدا

(الحكاية الرابعة والعشرون بعد المئة: عن إسماعيل بن عبد الله الخزاعي رحمه الله تعالى) قال: قدِم رجل من المهالبة من البصرة أيام البرامكة في حوائج له، فلما فرغ منها انحدر إلى البصرة ومعه غلام له وجارية؛ فلما صار في دجلة إذا بفتى على ساحل دجلة عليه جبّة صوف وبيده عكازة ومِروَد[1]، فسأل الملاّح أن يحمله إلى البصرة ويأخذ منه الكِراء، فأشرف المهلبي، فلما رآه رقّ له وقال للملاّح: قرِّب واحمله معه على الظلل، فحمله؛ فلما كان وقت الغداء دعا بالسُّفرة وقال للملاّح: قل للفتى يأتي يتغدى معنا، فأبى أن يأتي إليه، فلم يزل يطلب إليه حتى أتى فأكلوا، حتى إذا فرغوا ذهب الفتى ليقوم، فمنعه الرجل، ثم دعا بالشراب فشرب قدحًا، ثم سقى الجارية قدحًا، ثم عرض على الفتى فأبى، فسقى الجارية وقال: هات ما عندك، فأخرجت عودًا لها في غشاء، فهيّأته وأصلحته، ثم غنّت فقال: يا فتى تُحسِن مثل هذا؟ قال: أُحسِن ما هو أحسَن من هذا، فافتتح الفتى وقرأ: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمَن اتقى ولا تظلمون فتيلاً أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيَّدة﴾ [النساء: ٧٧ و٧٨] وكان الفتى حَسَن الصوت، فرمى الرجل بالقدح في الماء وقال: أشهد أن هذا أحسن مما سمعت، فهل غير هذا؟ قال: نعم ﴿وقل الحقّ من ربكم فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا

(١) المِروَد: الميل من الزجاج أو المدن يُكتحل به.

Marfat.com

يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ [الكهف: ٢٩] فوقع في قلبه موقعًا، فرمى ظرف الشراب بما فيه من الماء وكسر العود، ثم قال: يا فتى أهٰهنا فرج؟ قال: نعم ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر: ٥٣] فصاح صيحة عظيمة وخرّ مغشيًا عليه، فنظروا فإذا هو قد فارق الدنيا رحمه الله تعالى وكان رجلاً معروفًا، فحمل إلى منزله واجتمع الناس، فما رأيت جنازة أكثر جماعة من جنازته رحمه الله تعالى. قال: وبلغني أن الجارية المغنية تدرّعت الشعر فوق الصوف، وجعلت تصوم النهار وتقوم الليل، فمكثت أربعين يومًا، ثم مرّت بهذه الآية في بعض الليالي ﴿وقل الحق من ربكم فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر إنّا أعدتنا للظالمين نارًا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ [الكهف: ٢٩] فلما كان الصبح وجدوها ميتة، رحمها الله تعالى.

(الحكاية الخامسة والعشرون بعد المئة: عن بعضهم) قال: كنّا نمشي على شاطىء الأبلة[1] في الليل والقمر طالع، فمررنا بقصر جندي وفيه جارية تضرب بالعود، وإلى جانب القصر فقير عليه خرقتان، فسمع الفقير الجارية، وهي تغني وتقول:

في سبيل الله ودّ كان مني لك يبذل ... كل يوم تتلوّن غير هذا بك أجمل

فصاح الفقير فقال: أعيديه يا جارية بحقّ مولاك الكبير، فهذا حالي مع الله تعالى، فنظر صاحب الجارية إلى الفقير فقال لها: اتركي العود وأقبلي عليه فإنه صوفي، فجعلت تقول البيتين وتردّدهما والفقير يقول: هذا حالي مع الله تعالى، والجارية تقول وتردّد إلى أن صاح الفقير صيحة وخرّ مغشيًا عليه، قال: فحرّكناه فإذا هو ميت، رضي الله تعالى عنه، فنزل صاحب القصر فأدخله القصر، فاغتممنا عليه وقلنا: هذا يكفّنه بكفن غير طيب، فصعد صاحب القصر، وكسر كل ما كان بين يديه، فقلنا: ما بعد هذا إلا خيرًا، فمضينا إلى الأبلة وأعلمنا الناس؛ فلما أصبحنا رجعنا إلى القصر، وإذا الناس مُقبِلون من كلّ وجه إلى الجنازة، فكأنما نودِيَ في البصرة حتى خرج القضاة والعدول وغيرهم، والجندي يمشي خلف الجنازة حافيًا حاسر الرأس حتى دُفن؛ فلما همّ الناس بالانصراف قال الجندي للقاضي والشهود: اشهدوا أن كلّ جارية لي حرّة لوجه الله تعالى، وكل ضياعي وعقاري حبس في سبيل الله، وفي صندوقي أربعة آلاف دينار هي في سبيل الله عزّ وجل، ثم نزع الثوب الذي كان عليه، فرمى به وبقي في سراويله، فأعطى ثوبين اتّزر

---

(١) الأبلة: بلدة على شاطىء نهر دجلة في زاوية الخليج، وهي أقدم من البصرة. قال الأصمعي: جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الأبلة. (الرسالة القشيرية ص ٣٤٦).

Marfat.com

بواحد واتّشح بالآخر، وهام على وجهه، فكان بكاء الناس عليه أكثر من بكائهم على الميت. وقال بعضهم: رأيت في تيه بني إسرائيل رجلاً قد أنحَلَتْهُ العبادة حتى صار كالشن[1] البالي، فقلت له: ما الذي بلغ بك إلى هذه الحالة؟ فنظر إليّ متعجّبًا من سؤالي، فقال: يا هذا ثقل الأوزار، وخوف النار، والحياء من الملك الجبار. قال بعضهم في ذلك:

لما ذكرت عذاب النار أزعجني ... ذاك التذكّر عن أهلي وأوطاني
وصرت في القفر أرعى الوحش منفردًا ... كما تراني على وجدي وأحزاني
وذا قليل لمثلي بعد جرأته ... فما عصى الله عبد مثل عصياني
نادوا عليّ وقولوا في مجالسكم ... هذا المُسيء وهذا المجرم الجاني
فما ارعويت ولا قصرت من زللي ... ولا غسلت بماء الدمع أجفاني

(الحكاية السادسة والعشرون بعد المئة: عن عبد الله بن الأحنف رحمه الله تعالى)

قال: خرجت من مصر أُريد الرملة[2] لزيارة الروذباري رضي الله عنه، فرآني عيسى بن يونس المصري رحمه الله تعالى، فقال لي: هل أدلّك؟ قلت: نعم، فقال: عليك بصور، فإن فيها شيخًا وشابًا قد اجتمعا على حال المراقبة، فلو نظرت إليهما نظرة لأغنتك باقي عمرك، قال: فدخلت عليهما وأنا جائع عطشان وليس عليّ ما يسترني من الشمس، فوجدتهما مستقبِلين القبلة، فسلّمت عليهما وكلّمتهما فلم يكلّماني، فقلت: أقسمت عليكما بالله إلا ما كلّمتماني، فرفع الشيخ رأسه وقال: يا ابن الأحنف ما أقلّ شغلك حتى تفرّغت إلينا، ثم أطرق، فأقمت بين يديهما حتى صلّينا الظهر والعصر، فذهب عني الجوع والعطش، فقلت للشاب: عِظني بشيء أنتفع به، فقال: نحن أهل المصائب، ليس لنا لسان العِظَة، فأقمت عندهما ثلاثة أيام بلياليهنّ لم نأكل فيها ولم نشرب؛ فلما كان عشية اليوم الثالث قلت في نفسي: لا بدّ من سؤالهما في وصية أنتفع بها باقي عمري، فرفع الشاب رأسه وقال: عليك بصحبة مَن يذكّرك الله تعالى بنظره، ويعظك بلسان فعله لا بلسان قوله، ثم التفتّ فلم أرهما رضي الله تعالى عنهما ونفع بهما، وأنشد لسان الحال:

شدّوا المطايا قبيل الصبح وارتحلوا ... وخلفوني على الأطلال أبكيها

---

(١) الشَّنُّ: القِربة الخلق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها (ج) شنان.

(٢) الرملة: بلدة في فلسطين، شمالي شرقي القدس، أسّسها سليمان بن عبد الملك ٧,١٦ م استعمرها الصليبيون ١٠٩٩ م. (الرسالة القشيرية ص ٤٠٣).

Marfat.com

(الحكاية السابعة والعشرون بعد المائة: عن أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه) قال: رأيت إبليس في المنام نعوذ بالله منه وهو عريان، فقلت له: أما تستحي من الناس؟ فقال: أهؤلاء عندك من الناس؟ قلت: نعم، قال: لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم تلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس غير هؤلاء، قلت: مَن هم؟ قال: قوم في مسجد الشونيزية[1] قد أضنوا جسدي وأحرقوا كبدي، كلما هممت بهم أشاروا لله تعالى، فأكاد أحترق. قال الجنيد رضي الله تعالى عنه: فلما استيقظت من النوم أتيت ذلك المسجد، فإذا أنا بثلاثة رجال قد جعلوا رؤوسهم في مرقعاتهم، فلما أحسّوا بي أخرج واحد منهم رأسه وقال: يا أبا القاسم، لا يغرّنّك حديث إبليس الخبيث لعنه الله، ثم ردّ رأسه رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم.

(الحكاية الثامنة والعشرون بعد المئة: عن الجنيد أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: كنت جالسًا في مسجد الشونيزية أنتظر جنازة أُصلّي عليها، وأهل بغداد على طبقاتهم جلوس ينتظرون الجنازة، فرأيت فقيرًا عليه أثر النسك، فقلت في نفسي: لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه عن سؤال الناس كان أجمل؛ فلما انصرفت إلى منزلي، وكان لي شيء من الوِرد في الليل من البكاء والصلاة وغير ذلك، فثقل على جميع أورادي، فسهرت وأنا قاعد، وغلبتني عيني فنمت فرأيت ذلك الفقير جاؤوا به على خوان[2] ممدود، وقالوا لي: كُل لحمه فقد اغتبته، وكشف لي عن الحال، فقلت: ما اغتبته، إنما قلت في نفسي شيئًا، فقيل لي: ما أنت ممّن نرضى منك بمثله، اذهب فاستحلّه، فأصبحت ولم أزل أتردّد حتى رأيته في موضع يلتقط من الماء أوراقًا مما يتساقط من غسل البقل، فسلّمت عليه، فقال: هل تعود يا أبا القاسم؟ فقلت: لا، فقال: غفر الله لنا ولك، رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية التاسعة والعشرون بعد المئة: عن إبراهيم الخوّاص رضي الله تعالى عنه) قال: كنت في جبل لكام، فرأيت رمّانًا فاشتهيته، فدنوت منه وأخذت منه واحدة، فشققته فوجدته حامضًا، فمضيت وتركت الرّمّان، فرأيت رجلاً مطروحًا قد اجتمع عليه الزنابير[3]، فقلت: السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا إبراهيم، قلت: كيف عرفتني؟ فقال: مَن عرف الله تعالى لا يخفى عليه شيء، قلت له: أرى لك مع الله حالاً، فلو

---

(١) الشونيزية: مقبرة ببغداد بالجانب الغربي دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين. (معجم البلدان ٣/ ٣٧٤).

(٢) الخوان: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل فإذا وضع عليه الطعام فهو مائدة (ج) أخونة وخون.

(٣) الزنابير: (ج) الزنبور: جنس حشرات من فصيلة الزنبوريات، أنواعه عديدة منها الزنبور الكبير (الدبور) وهو كبير القدّ واسع الانتشار، يلسع الإنسان إن ضايقه ولسعته مؤلمة مؤذية.

Marfat.com

سألته أن يقيك ويحميك من هذه الزنابير، فقال: وأرى لك مع الله تعالى حالاً، فلو سألته أن يقيك ويحميك من شهوة الرّمّان، فإن لدغ شهوة الرّمّان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا، قال إبراهيم: فتركته ومشيت، وأنشد في ذلك:

نون الهوان من الهوى مسروقة فأسير كلّ هوى أسير هوان

قلت: قوله: مَن عرف الله لا يخفى عليه شيء، أيّ شيء توجّه إليه أو قصده أو تعلق به أو أطلعه الله تعالى عليه أو نحو ذلك من تخصيص اللفظ العامّ الواقع في الكلام الفصيح، إذ لا يمكن حمل لفظه على العموم، وقد قال الشيوخ العارفون المحقّقون، رضي الله تعالى عنهم: يجوز أن يعرّف العارف بالله تعالى الأشياء من حيث الجملة لا من حيث التفصيل.

(الحكاية الثلاثون بعد المئة: عن إبراهيم الخوّاص رضي الله تعالى عنه) قال: كنت ببغداد وهناك جماعة من الفقراء، فأقبل شاب ظريف طيب الرائحة حَسَن الخلقة، حَسَن الوجه، فقلت لأصحابنا: يقع لي أنه يهودي، فكره الأصحاب قولي، فخرجت وخرج الشاب، ثم رجع إليهم وقال: إيش، قال الشيخ: فاحتشموه، فألحّ عليهم، فقالوا: قال الشيخ إنك يهودي، قال إبراهيم: فجاءني وأكبّ على يدي وأسلم، فقيل: له في ذلك؟ فقال: نجد في كتبنا أن الصدّيق لا تخطىء فراسته، فقلت في نفسي: امتحن المسلمين فتأملتهم، فقلت: إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة يوجد لأنهم يقولون بترك ما سوى الله، فلما اطّلع هذا الشيخ عليّ فتفرّس فيَّ علمت أنه صديق، وصار الشاب من كبار الصوفية، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الحادية والثلاثون بعد المئة: عن أبي العباس بن مسروق[1] رضي الله عنه)

قال: قَدِمَ علينا شيخ وكان يتكلم علينا في هذا الشأن بكلام حَسَن عذب بالخاطر الجيد، ويقول لنا: كلّ ما وقع لكم في خاطركم، فقولوا لي، فوقع في خاطري أنه يهودي، وكان الخاطر يقوى على ذلك ولا يزول، فذكرت ذلك للجريري، فكبر ذلك عليه، فقلت لا بدّ أن أُخبر الرجل بذلك، فقلت له: أما أنت فقلت لنا ما وقع لكم في خواطركم فقولوا لي، وقد وقع في خاطري أنك يهودي، فأطرق رأسه ساعة ثم رفعه وقال: صدقت، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، وقال: وقد مارست جميع المذاهب وكنت أقول: إن كان مع قوم شيء من الصدق فهو مع هؤلاء، فداخلتكم لأختبركم، فوجدتكم على الحقّ، فحَسُنَ إسلامه رحمه الله تعالى.

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق (توفي ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ م) من أهل طوس، سكن بغداد وصحب الحارث المحاسبي وسري السقطي، توفي في بغداد. (الرسالة القشيرية ص ٤٣٢).

Marfat.com

(الحكاية الثانية والثلاثون بعد المئة: عن أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه) قال: كان السريّ يقول لي: تكلم على الناس وكان في قلبي حشمة من الكلام على الناس، وكنت أتّهم نفسي في استحقاق ذلك حياء، فرأيت النبيّ ﷺ في المنام في ليلة جمعة، فقال لي: تكلم على الناس، فانتبهت وأتيت باب السريّ قبل أن أصبح، فدققت عليه الباب فقال لي: لم تصدّقنا حتى قيل لك ذلك، فقعد للناس في الجامع بالغداة، فانتشر في الناس أن الجنيد قعد يتكلم على الناس، فوقف عليه غلام نصراني متنكّر وقال: أيها الشيخ ما معنى قول رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تبارك وتعالى»(١)؟ فأطرق الجنيد رأسه ثم رفعه، فقال: أسلم، فقد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام وقطع الزنار وتاب الله عليه، اللّهمّ تُب علينا يا كريم.

(الحكاية الثالثة والثلاثون بعد المئة): حُكِيَ عن الشبلي رضي الله تعالى عنه، أنه خرج ذات يوم على أصحابه، وكانوا أربعين رجلاً، فقال لهم: يا قوم إن الله تبارك وتعالى قد تكفّل بأرزاق العباد، فقال عزّ من قائل: ﴿ومَن يتّقِ الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومَن يتوكّل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣] فتوكّلوا على الله عزّ وجلّ وتوجّهوا إليه ولا تتوجّهوا إلى سواه، ثم تركهم ومضى، فأقاموا ثلاثة أيام لم يفتح عليهم بشيء، فلما كان في اليوم الرابع دخل عليهم الشيخ، فقال: يا قوم، إن الله تبارك وتعالى قد أباح السبب للعباد، فقال: عزّ من قائل: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً في مناكبها وكُلوا من رزقه﴾ [الملك: ١٥] فانظروا إلى أصدقكم نيّة، فليخرج عسى أن يأتيكم بشيء من القوت، فاختاروا واحدًا منهم فقيرًا، فخرج يمشي في جانبي بغداد، فلم يفتح له بشيء من القوت، فأخذه الجوع وأعياه المشي، فجلس عند دكان طبيب نصراني، عليه من الناس خلق كثير، وهو يصف لهم الأدوية، فنظر إلى الفقير فقال: ما بك وما علّتك؟ فكره أن يشكو الجوع إلى نصراني، فمدّ يده فجسّها، فقال: علّتك هذه أنا أعرفها وأعرف دواءها، ثم التفت إلى غلامه فقال له: امضِ إلى السوق فائتني برطل خبز ورطل شِواء ورطل حلواء، فمضى الغلام إلى السوق وأتاه بذلك، فأخذه النصراني وناوله الفقير، وقال له: هذا دواء مرضك عندي، فقال له الفقير: إن كنت صادقًا في

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧)، وأبو حنيفة في (المسند ١/ ١٨٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ٩٤؛ ٦/ ١١٨)، والطبراني في (المعجم الكبير ٨/ ١٢١)، (بغوي ١٤/ ٣١)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٧٩؛ ٤/ ٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٤٤؛ ٧/ ٢٥٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٢/ ٣٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٧٣٠)، وابن حجر في (لسان الميزان ٥/ ١١٥٤)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٨٠٩٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٢)، والسيوطي في (الدّر المنثور ٤/ ١٠٣)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/ ١٢٩).

Marfat.com

حكمتك فهذه العلة بأربعين رجلاً، فقال النصراني لغلامه: ارجع إليّ السوق مسرعًا وائتني بأربعين رطلاً مثلما أتيتني به، فأسرع الغلام فأتى بذلك جميعه، فأعطاه الفقير وأمر حمّالاً أن يحمله معه إلى موضعه، وقال للفقير: اذهب به إلى الفقراء الأربعين الذين ذكرت، فذهب الفقير والحمّال معه إلى أن وصل إلى أصحابه، والنصراني يتبعه من بعيد ليختبر صدقه؛ فلما دخل الدويرة التي فيها أصحابه، وقف النصراني خلف طاق[1] خارج الباب فوضع الطعام ونادوا الشيخ أبا بكر الشبلي وقدّموا الطعام بين يديه، فشال الشيخ يده عنه وقال: يا فقراء سرّ عجيب في هذا الطعام، ثم أقبل على الفقير الذي أتى بالطعام وقال: أخبرني عن قصة هذا الطعام، فحكى له القصة بكمالها، فقال لهم الشبلي: أترضون أن تأكلوا طعام نصراني وصلكم به ولم تكافئوه، فقالوا: يا سيدنا وما مكافأته؟ قال: تدعون له قبل أن تأكلوا طعامه، فدعوا له وهو يسمع؛ فلما رأس النصراني إمساكهم عن الطعام مع حاجتهم إليه وسمع ما قال لهم الشيخ، قرع الباب، ففتحوا له، فدخل وقطع زناره وقال: يا شيخ مُدَّ يدك، فأنا أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله ﷺ، فأسلم وحَسُنَ إسلام النصراني وصار من جملة أصحاب الشبلي رضي الله تعالى عنهم.

(الحكاية الرابعة والثلاثون بعد المئة): حُكِيَ عن الشبلي أيضًا رضي الله تعالى عنه أنه اعتلّ فحمل إلى المارستان، وكتب عليّ بن عيسى[2] الوزير إلى الخليفة في ذلك، فأرسل الخليفة إليه مقدّم الأطباء، وكان نصرانيًا ليداويه، فما أنجحت مداواته، فقال الطبيب للشبلي: والله لو علمت أن مداواتك في قطعة لحم من جسدي ما عسر عليّ ذلك، فقال الشبلي رضي الله تعالى عنه: دوائي في دون ذلك، فقال الطبيب: وما هو؟ قال: تقطع الزنار، فقال الطبيب: أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله ﷺ، فأخبر الخليفة بذلك فبكى وقال: أنفذنا طبيبًا إلى مريض، وما علمنا أنّا أنفذنا مريضًا إلى طبيب، قلت: هذا هو الطبيب، وحكمته هي الحكمة التي بها العِلَل تزول، وفيه وفي أمثاله أقول:

إذا ما طبيب الجسم أصبح قلبه ... عليلاً فمَن ذا الطبيب طبيب
فقل هم أولو العلم اللدني وحكمة ... إلـهية تشفى بتلك قلوب

(الحكاية الخامسة والثلاثون بعد المئة): حُكِيَ عن إبراهيم الخوّاص رضي الله عنه أنه كان إذا أراد سفرًا لم يُعلِم أحدًا ولم يذكره، وإنما يأخذ ركوته ويمشي، قال

---

(١) الطّاق: ما جعل كالقوس من الأبنية من قنطرة ونافذة وما أشبه (ج) طاقات وطيقان.

(٢) انظر ترجمته في الأعلام ٤/٣١٧، وفي تاريخ بغداد ١٢/١٤.

Marfat.com

حامد الأسود: فبينما نحن معه في مسجد، إذ تناول ركوته ومشى فاتبعته؛ فلما وافينا القادسية قال لي حامد: فبينما نحن معه في المسجد، إذ تناول ركوته ومشى فاتبعته؛ فلما وافينا القادسية قال لي حامد: إلى أين؟ قلت: يا سيدي خرجت لخروجك، قال: إني أُريد مكة إن شاء الله تعالى، قلت: وأنا أُريد مكة إن شاء الله تعالى؛ فلما كان بعد ثلاثة أيام إذا بشاب قد انضمّ إلينا، فمشى معنا يومًا وليلة لا يسجد لله عزّ وجلّ سجدة، فعرّفت إبراهيم وقلت: إن هذا الغلام لا يصلي، فجلس وقال له: يا غلام ما لك لا تصلي، والصلاة أوجب عليك من الحجّ؟ فقال: يا شيخ ما عليّ الصلاة، قال: ألستَ بمسلم؟ قال: لا، قال: فأيّ شيء أنت؟ قال: نصراني، ولكن إشارتي في النصرانية إلى التوكّل، وادّعت نفسي أنها قد أحكمت حال التوكُل فلم أصدّقها فيما ادّعت حتى أخرجتها إلى هذه الفلاة التي ليس فيها موجود غير المعبود، أثير ساكني، وأمتحن خاطري فقام إبراهيم ومشى وقال: دعه يكون معك، فلم يزل يسيّرنا حتى وافينا بطن مرّ، فقام إبراهيم فنزع خلقانه فطهّرها بالماء، ثم جلس فقال له: ما اسمك؟ فقال: عبد المسيح، فقال: يا عبد المسيح هذا دهليز[1] مكة، يعني الحرم، وقد حرّم الله تعالى على أمثالك الدخول إليه، فقال: ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ [التوبة: ٢٨] والذي أردت أن تستكشف به نفسك قد بان لك، فاحذر أن تدخل مكة، فإذا رأيناك بها أنكرنا عليك، قال حامد: فتركناه ودخلنا مكة، وخرجنا إلى الموقف، فبينما نحن جلوس بعرفات، إذا به قد أقبل عليه ثوبان وهو مُحرِم يتصفّح الوجوه حتى وقف علينا، فأكبّ على إبراهيم يقبّل رأسه، فقال له: ما وراءك يا عبد المسيح؟ فقال: أهيهات أنا اليوم عبد لمَن المسيح عبد له، فقال إبراهيم: حدّثني حديثك، قال: لمّا سافرتم وتركتموني، جلست مكاني حتى أقبلت قافلة الحاجّ، فقمت وتنكّرت في زيّ المسلمين كأني مُحرِم، فساعة وقعت عيني على الكعبة اضمحلّ عني كل دين سوى دين الإسلام، فأسلمت واغتسلت وأحرمت، وها أنا أطلبك يومي، فالتفت إليّ إبراهيم وقال: يا حامد انظر بركة الصدق في النصرانية كيف هداه إلى الإسلام، ثم صحبناه حتى مات بين الفقراء رحمة الله تعالى عليه. وفي الصوفية الصادقين قلت هذه الأبيات:

سلام على السادات من كلّ صادق ... لـه مـسـرح فـي مـعـرك ومـراح
صفا ثم صوفي فهو صوفي مخيم ... على باب سعدى ليس عنه براح
تلافي طعان النفس في نيل وصلها ... ومن دونـهـا بـيـض حـمـت ورمـاح
على حدّ سيف الصدق يسعون للعلا ... لـتـجـلـى لـهـم بـيـض هـنـاك صـبـاح

---

(١) الدهليز: (مع) فارسية: المدخل بين الباب والدار (ج) دهاليز.

Marfat.com

سقتهم حميا الوصل من كرم حُسْنها إذا شمّها أهل الصبابة صاحوا
وناحوا وساحوا ثم فاحوا بنشرها عبير ومكتوم المحبة باحوا

(الحكاية السادسة والثلاثون بعد المئة: عن أبي عبد الله بن خفيف[1] رضي الله تعالى عنه) قال: كنت مدة مديدة أسيح على وجه الأرض للالتقاء بالبدلاء، فسئمت من السياحة والسفر، فرجعت إلى بلد إصطخر[2] فارس، فدخلت دويرة الصوفية، فرأيت جماعة من المشايخ، وبين أيديهم مأكول، وهم تسعة نفر، منهم الحسن بن أبي سعد وأبو الأزهر بن حيان وجماعة، فوقفت ساعة فتوضأت، فلما فرغت وسّعوا لي، فقعدت معهم وتناولت مما كانوا يأكلون ثم تفرّقنا، فرقدت رقدة، فرأيت النبي ﷺ في المنام يقول لي: يا ابن خفيف مَن كنت تطلبهم وترجو مُجالستهم هم هؤلاء في هذا البلاد وأنت منهم، فطالبتني نفسي أن أُخبر القوم بما رأيت، فعَلاني منهم وقار وهيبة، فلم ألبث ساعة من النهار حتى قابلني الشيخ أبو الحسن بن أبي سعد، وقال لي: يا أبا عبد الله أخبرهم بما رأيت في المنام، فأخبرتهم، فتفرّقوا في البلدان حين فَشَا الخبر رضي الله تعالى عنهم وعن سائر الصالحين آمين.

(الحكاية السابعة والثلاثون بعد المئة: عن بعضهم) قال: سافرت شرقًا وغربًا طمعًا أن أكتحل بالأبدال، فوافيت ساحل البصرة عشاء، فتيامنت[3] من الطريق، وقربت من الساحل لأكون قريبًا من الماء، فرأيت عشرة نفر قعودًا على السجادات لم أرَ معهم الركي والآلات التي تكون مع الصوفية، فقاموا كلهم واستقبلوني وعانقوني، ثم جلسوا كلهم مُطرقين لا ينظر بعضهم إلى بعض إلى وقت غروب الشمس، فقام واحد من الجماعة ودخل البحر، ولم أعلم كيف كان حاله، غير أنه أتى بإحدى عشرة سمكة مشويّة، ولم أرَ نارًا ولا حطبًا، فقام واحد منهم، فطرح عند كل واحد سمكة، وتفرّد هو بسمكة أعظمها، وتفرّقوا عن المجلس، واشتغل كلّ واحد منهم بحاله، ولم يتفرّغ أحد لأحد، فلما دنا الصبح أذّن المؤذّن وصلّوا الصبح جماعة وأخذوا سجاداتهم، فدخلوا البحر ومشوا في البحر على الماء، فأراد خادمهم الذي طرح السمك بين أيديهم وتخصّص بالكبيرة أن يسير معهم ويمشي على الماء، فغاص في البحر، فالتفوا إليه وقالوا: يا فلان من خاننا فليس منّا، وكنت أنظر إليهم من بعيد وأتحسّر على فراقهم، وأخذت الركوة ومشيت، وتركت ذلك الخادم في موضعه، رضي الله تعالى عنهم.

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي (٢٧٦ ـ ٣٧١ هـ = ٨٩٠ ـ ٩٨٢ م) صحب رويمًا والجريري وأحمد بن عطاء وغيرهم. كان شيخ الشيوخ وواحد زمانه. (الرسالة القشيرية ص ٤٢٠).
(٢) إصطخر: بلدة بفارس وهي من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها. (معجم البلدان ١/ ٢١١).
(٣) تيامن: ذهب ذات اليمين.

Marfat.com

(الحكاية الثامنة والثلاثون بعد المئة: عن الشيخ عبد الله بن عبيد العباداني رضي الله تعالى عنه) قال: كنت في مسجد عبادان[1] بعد صلاة العشاء الآخرة، وفي الصف الأوّل ثلاثة نفر قد صلّوا معنا ثم خرجوا نحو البحر، فوقع لي أنهم أولياء، فتبعتهم، فلما وصلوا إلى البحر امتدّ لهم فيه مثل الشراك[2] من فضة، فمرّوا عليه، فوضعت رِجلي عليه لأتبعهم فغاصت في الماء فقعدت أبكي ومضوا، وانصرفت إلى المسجد؛ فلما كان وقت الصبح إذا بهم في الصفّ الأول، فجلسوا في المسجد إلى أن صلّوا العشاء الآخرة، ثم خرجوا نحو البحر، فامتدّ لهم فيه مثل الشراك من فضة، فرمّوا عليه، فوضعت رِجلي على الماء فغاصت في الماء، فقعدت أبكي ومضوا وانصرفت إلى المسجد؛ فلما كان من اليوم الثالث إذا بهم في المسجد في الصفّ الأول، فقلت في نفسي: يا نفس منك أتيت، لو كان فيك خير لمررت معهم، وعلم الله تعالى مني الصدق، فخرجوا في الوقت الذي يخرجون فيه كل ليلة، فامتدّ لهم فيه مثل الشراك من فضة، فمرّوا عليه، فوضعت رِجلي على الماء، فمررت معهم وأخذ واحدًا منهم بيدي، فإذا هم سبعة أنفس، كل ثلاث ليالٍ ينزل عليهم سبع سمكات، وكانت تلك الليلة الثالثة، فإذا مائدة عليها ثمان سمكات، فقعدت معهم آكل، فقلت لواحد منهم: لو كان لنا ملح؟ فقال لي: أواه أنت منهم، بلى لست منهم، فأخذ بيدي فإذا أنا في المشرعة، وما رأيتهم بعد ذلك، وأنا أسأل الله حُسْن التوفيق رضي الله تعالى عنهم ونفع بهم آمين.

(الحكاية التاسعة والثلاثون بعد المئة: عن عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه) قال: اشتريت غلامًا للخدمة؛ فلما جنّ الليل طلبته في داري، فلم أجده والأبواب مغلقة على حالها فلما أصبحت جاء وأعطاني درهمًا منقوشًا عليه سورة الإخلاص، فقلت له: من أين لك هذا؟ فقال: يا سيدي لك عندي كل يوم درهم مثل هذا، على أنك لا تطلبني في الليل، فكان يغيب كل ليلة، ويأتي في الصبح بمثل ذلك؛ فلما كان في بعض الأيام جاء إليّ جيراني وقالوا: يا عبد الواحد بعْ غلامك فإنه نبّاش القبور، فغمّني ذلك وقلت لهم: ارجعوا فأنا أحفظه في هذه الليلة، فلما كان بعد صلاة العشاء قام ليخرج، فأشار إلى الباب المغلق، فانفتح ثم أشار إليه فانغلق، وقصد إلى الباب الثاني ففعل مثل ذلك، ثم قصد إلى الباب الثالث ففعل مثل ذلك وأنا أنظر إليه، فخرج فتبعته ومشيت وراءه حتى بلغ إلى أرض ملساء، فنزع ثيابه ولبس مسحًا، وصلّى إلى الفجر ورفع رأسه إلى السماء وقال: يا سيدي الكبير هات أُجرة سيدي الصغير، فوقع عليه درهم من السماء، فأخذه

---

(١) عبادان: مدينة على الخليج العربي الإسلامي، مركز تكرير النفط الإيراني ومرفأ تصديره. (الرسالة القشيرية ص ٤٠١).

(٢) الشِّراك: سير النعل على ظهر القدم (ج) شُرك وأشرك.

Marfat.com

وتركه في جيبه، فتحيَّرت في أمره ودُهِشتُ بحاله، وقمت وتوضأت وصلَّيت ركعتين واستغفرت الله تعالى مما خطر ببالي، ونويت أن أعتقه، ثم إني طلبته فلم أجده، فانصرفت حزينًا وما كنت أعرف تلك الأرض، فإذا أنا بفارس على فرس أشهب، فقال لي: يا عبد الواحد، ما قعودك هٰهنا؟ قلت: من شأن كذا وكذا، فقال: أتدري كم بينك وبين بلدك؟ قلت: لا، قال: مسيرة سنتين للراكب المسرع، فلا تبرح من هذا المكان حتى يرجع إليك عبدك، فإنه يأتيك في هذه الليلة، قال: فلما جنّ الليل، إذا به قد أقبل ومعه طوفرية عليها من كلّ الطعام، قال لي: كُل يا سيدي ولا تعد إلى مثلها، فأكلت، وقام فصلّى إلى الفجر، ثم أخذ بيدي فتكلم بكلام لم أفهمه وخَطَا معي خطوات وإذا أنا واقف على باب داري، فقال: يا سيدي أليس قد نويت أن تعتقني؟ قلت: وهو كذلك، قال: فأعتقني وخذ ثمني وأنت مأجور، ثم أخذ حجرًا من الأرض وأعطانيه، فإذا هي قطعة ذهب، ومضى الغلام وبقيت متحسّرًا على فراقي له، ثم اجتمعت بجيراني، فقالوا: ما فعلت بالنبّاش؟ قلت: ذاك نبّاش النور لا نبّاش القبور، ثم حدّثتهم بما شاهدته منه من الكرامات، فبكوا وتابوا مما خطر ببالهم، رضي الله تعالى عنهم ونفع بهم.

(الحكاية الأربعون بعد المئة: عن إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت بالبصرة مملوكًا في السوق يُنادَى عليه، مَن يشتري هذا الغلام بعيوبه، وهي ثلاث خصال: لا ينام الليل، ولا يأكل بالنهار، ولا يتكلم إلا بما لا بدّ منه، قال إبراهيم: فقلت للغلام أراك عارفًا به، قال إبراهيم: لو عرفته ما اشتغلت بغيره، قال: فعلمت أنه من العارفين، فقلت للبائع: بكَم هذا الغلام؟ فقال: بما أردت فإنه مجنون، فأعطيته ثمنه وقلت في نفسي: يا ربّ إني قد أعتقته لوجهك الكريم، فالتفت إليّ وقال: يا إبراهيم إن كنت قد أعتقتني في الدنيا من الرقّ فقد أعتقك الله في الآخرة من النار، ثم غاب عني فلم أره رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الحادية والأربعون بعد المئة: عن بعض الصالحين) أنه قال: اشتريت عبدًا فقلت له: ما اسمك؟ فقال: يا مولاي ما سمّيتني، فقلت له: ما الذي تعمل؟ قال: يا مولاي ما به أمرتني، فقلت له: ما الذي تأكل؟ فقال: يا مولاي ما أطعمتنى؟ فقلت له: فما لك إرادة في شيء؟ فقال: وأيّ إرادة تكون للعبد مع مولاه؟ قال: فأبكاني وذكّرني حالي مع مولاي، فقلت له: يا هذا لقد أدّبتني مع سيدي، فأنشأ يقول:

لو تمّ لي كوني لعبدك خادمًا ... ما كنت أطلب فوق ذاك نعيما
فارحم بفضلك ذلّتي وتحيّري ... فكذا عرفتك مُحسِنًا ورحيما

(الحكاية الثانية والأربعون بعد المئة): حُكِيَ عن بعضهم أنه دُعِيَ إلى دار مرار كثيرة ساعة واحدة، كلما وصل إلى الباب ردّه الداعي وهو طيب بذلك لم يظهر منه

Marfat.com

انزعاج، فتعجّب الداعي من حلمه وصبره، واستعظم ذلك منه، فقال له: لا تستعظم مني صفة هي صفة الكلاب، فإنه كلما دُعِيَ أجاب، وإن طُرِدَ ذهب، وإنما فعل ذلك به اختبارًا له رضي الله تعالى عنه. وعن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه قال: في الكلب عشر خصال ينبغي لكل مؤمن أن تكون فيه: الأولى أن يكون جائعًا، فإنها من آداب الصالحين. والثانية: أن لا يكون له مكان معروف، وذلك من علامات المتوكّلين. والثالثة: أن لا ينام من الليل إلا قليلاً وذلك من صفات المُحِبِّين. والرابعة: إذا مات لا يكون له ميراث، وذلك من صفات الزاهدين. والخامسة: أن لا يترك صاحبه وإن جفاه وضربه، وذلك من علامات المُريدين الصادقين. والسادسة: أن يرضى من الأرض بأدنى موضع، وذلك من علامات المتواضعين. والسابعة: إذا تغلب على مكانه تركه وانصرف إلى غيره، وذلك من علامات الراضين. والثامنة: إذا ضرب وطرد وطرح له كسرة أجاب ولم يحقد على ما مضى، وذلك من علامات الخاشعين. والتاسعة: إذا حضر الأكل جلس بعيدًا ينظر، وذلك من علامات المساكين. والعاشرة: أنه إذا ارتحل عن مكان لا يلتفت إليه، وهذه من علامات المحزونين.

(الحكاية الثالثة والأربعون بعد المئة: عن بعضهم) قال: كنا جماعة في بعض البلاد، فخرجنا إلى باب البلد في بعض الأيام، فتبعنا كلب من البلد؛ فلما بلغنا الباب إذا نحن بدابّة ميتة؛ فلما نظر الكلب إليها رجع إلى البلد، ثم عاد بعد ساعة ومعه نحو من عشرين كلبًا، فجاءت إلى الميتة وأكلت منها، وذلك الكلب قائم ينظر من بعيد إلى أن فرغت الكلاب من الأكل وقضت وطرها[(١)] وصدرت، فورد وأكل مما بقي من سؤرها[(٢)] من العظام، وما بقي عليها ثم انصرف.

(الحكاية الرابعة والاربعون بعد المئة): حُكِيَ عن بعضهم أنه رأى كلابًا في كهف في بعض الجبال مقيمة فيه، لا تخرج منه ولا تدخل البلد إلا يومًا واحدًا في الأسبوع تدخل فتأكل من المزابل ثم تعود إلى الجبل ولا تزال فيه إلى مثل ذلك اليوم، ثم تدخل البلد وتأكل من المزابل، ثم تخرج إلى مكانها، وهكذا دأبها، فأقام معها مدة يخرج معها يوم خروجها إلى البلد، ويأكل معها من المزابل مما يحصل له أكله، ثم يعود معها إلى الجبل فحصل له بتلك الكلاب رياضة وآداب. وقال بعض الصالحين: وقد جاز عليه قوم معهم كلاب الصيد، فنبحتها كلاب الدرب، فقال: سبحان الله، كأن هذه حادثت هذه، فقالت: هذه الأهلية لكلاب الصيد يا مساكين رغبتنّ في نعيم الملوك فسخّروكنّ، ولو

---

(١) الوطر: الحاجة والبغية (ج) أوطار.

(٢) السؤر: بقية الشيء، وأكثر ما يستعمل في الطعام والشراب (ج) أسآر.

Marfat.com

قنعتنّ بالمنبوذ مثلنا كنتنّ مخليات، فقالت لها كلاب الصيد: خَفِيَ عليكنّ حالنا نحن لما رأوا فينا آلة الخدمة حبسونا للخدمة، وقاموا لنا بالكفاية، فقالت الأهلية: فالواحد منكنّ إذا كبر خلى وصار معنا، قالت كلاب الصيد لأنه قصر فيما يجب عليه، وكلّ مَن قصر فيما يجب عليه طرد. اللَّهمَّ لا تطردنا عن بابك، ولا تعاقبنا بسخطك وعذابك.

(الحكاية الخامسة والأربعون بعد المئة): رُوِيَ أن أُويسًا القرني رضي الله تعالى عنه كان يقتات من المزابل ويكتسي منها، فنبحه يومًا كلب على مزبلة، فقال له أُويس: كُل مما يليك وأنا آكل مما يليني ولا تنبحني، فإن جزت على الصراط فأنا خير منك، وإلا فأنت خير مني وكان أهله يقولون: هو مجنون، وأقاربه يستخفّون به ويستهزؤون، والصغار به يتولّعون، وبالحجارة له يرجمون، وفيه أقول:

سقى الله قومًا من شراب وداده ... فهاموا به من بين بادٍ وحاضر
يظنهم الجهّال جُنُّوا وما بهم ... جنون سوى حبّ على القوم ظاهر
سُقُوا بكؤوس الحبّ راحًا من الهوى ... فراحوا سكارى بالحبيب المسامر
يناجون في ظلمة الليل عندما ... به قد خلوا منهم أُويس بن عامر
شهير يماني حوى المجد والعُلا ... لنا فيه عالي الفخر عند التفاخر

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يحبّ من خلقه الأتقياء الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رؤوسهم، المغبرّة وجوههم، الخمصة بطونهم، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المنعّمات لم يُنكَحوا، وإن غابوا لم يُفتَقَدوا، وإن طلعوا لم يُفرَح بطلعتهم؟ وإن مرضوا لم يُعادوا، وإن ماتوا لم يُشهَدوا، قلنا: يا رسول الله كيف لنا برجل منهم، قال: ذلك أُوَيس القرني، قالوا: يا رسول الله وما أُوَيس القرني؟ قال: أشهل ذو صهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، آدم شديد الأدمة، ضارب بذقنه إلى صدره، رام ببصره إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يبكي على نفسه، ذو طمرين لا يؤبَه له، متّزر بإزار صوف ورداء صوف، مجهول في أهل الأرض معروف في أهل السماء، لو أقسم على الله تعالى لأبرّه، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد: ادخلوا الجنة، وقيل لأُوَيس: قف فاشفع، فيشفّعه الله عزّ وجلّ في مثل عدد ربيعة ومُضَر، يا عمر ويا عليّ إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه أن يستغفر لكما يغفر الله تعالى لكما»[1] قال: فمكثا يطلبانه عشر سنين لا يقدران عليه؛ فلما كان في آخر السنة التي انتقل فيها عمر رضي الله تعالى عنه قام على جبل أبي قبيس، فنادى بأعلى

(١) أخرجه ابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/١٦٦).

Marfat.com

صوته: يا أهل اليمن أفيكم أُوَيس؟ فقام شيخ كبير طويل اللحية، فقال: إنّا لا ندري ما أُوَيس، ولكن ابن أخ لي يقال له: أُوَيس، وهو أخمل ذكرًا وأقلّ مالاً وأهون أمرًا من أن نرفعه إليك، وإنه ليرعى إبلنا، حقير بين أظهرنا، فعمي عليه عمر كأنه يريده وقال: أين ابن أخيك هذا بحرمنا هو؟ قال: نعم، قال: وأين يُصاب؟ قال: بأراك عرفات؛ قال: فركب عمر وعليّ رضي الله تعالى عنهما مسرعين إلى عرفات، فإذا هو قائم يصلي إلى شجرة والإبل حوله ترعى، فشدّا حماريهما ثم أقبلا إليه فقالا: السلام عليك ورحمة الله، فخفَّف أويس رضي الله تعالى عنه من الصلاة، ثم ردّ السلام عليهما، فقالا: مَن الرجل؟ قال: راعي إبل وأجير قوم، قالا: لسنا نسألك عن الرعاية ولا عن الإجارة، ما اسمك؟ قال: عبد الله، قالا: قد علمنا أن أهل السمٰوات والأرض جميعًا عبيد الله، فما اسمك الذي سمّتك به أُمك؟ قالا: يا هذان ما تريدان إليّ؟ قالا: وصف لنا رسول الله ﷺ أويسًا القرني، فقد عرفنا الصهوبة والشهولة، وأخبرنا أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء، فأوضحها لنا، فإن كانت بك فأنت هو، فأوضح منكبه فإذا اللمعة، فابتدراه يقبّلانه وقالا: نشهد أنك أويس القرني، فاستغفر لنا يغفر الله لك، فقال: ما أخصّ باستغفاري نفسي، ولا أحدًا من ولد آدم، ولكنه في البرّ والبحر من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات مَن هو مُستَجاب الدعوة، فقالا لا بدّ من ذلك، فقال: يا هذان قد شهد الله لكما حالي، وعرّفكما أمري، فمَن أنتما؟ فقال عليّ رضي الله تعالى عنه: أما هذا فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وأما أنا فعليّ بن أبي طالب، فاستوى أُوَيس قائمًا وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وأنت يا ابن أبي طالب، فجزاكما الله تعالى عن هذه الأمة خيرًا، فقالا: وأنت، فجزاك الله عن نفسك خيرًا، فقال له عمر: مكانك رحمك الله حتى أدخل مكة، فآتيك بنفقة من عطائي وفضل كسوة من ثيابي، هذا المكان ميعاد بيني وبينك، فقال: يا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك لا أراك بعد اليوم، فعرّفني ما أصنع بالنفقة وما أصنع بالكسوة، أما ترى عليّ إزارًا من صوف ورِداء من صوف متى تراني أخرقهما، أما ترى أن نعليّ مخصوفتان، متى تراني أبليهما، أما ترى أني قد أخذت من رعايتي أربعة دراهم، متى تراني آكلها يا أمير المؤمنين، إن بين يديّ ويديك عقبة كؤودًا لا يجاوزها إلا كلّ ضامر مخفّ مهزول، فأخفّ يرحمك الله؛ فلما سمع ذلك عمر ضرب بدرّته[1] الأرض ثم نادى بأعلى صوته: ألا ليت عمر لم تلده أُمه، يا ليتها كانت عقيمًا لم تعالج حملها، ألا مَن يأخذها بما فيها ولها، يعني الخلافة، ثم قال: يا أمير المؤمنين خذ أنت هٰهنا حتى آخذ أنا هٰهنا، فولّى عمر ناحية مكة، وساق أُوَيس إبله فوافى القوم، فأعطاهم إبلهم، وخلى الرعاية وأقبل

(١) الدِّرّة: السوط يُضرَب به (ج) درر.

Marfat.com

على العبادة حتى لحق بالله عزّ وجلّ، وفي صحيح مسلم أن عُمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُوَيس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرىء منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها برّ لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل، ثم ساق الحديث إلى أن ذكر اجتماع عمر وعليّ به رضي الله تعالى عنهما؛ وقوله له: فاستغفر لي فاستغفر له، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحبّ إليّ»(١) وهذا بعض الحديث. وفي رواية لمسلم عن عُمر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن خير التابعين رجل يقال له: أُوَيس، وله والدة، وكان به بياض، فمُرُوهُ فليستغفر لكم»(٢). وقول أُوَيس: غَبراء الناس بفتح الغين المعجمة وإسكان الباء الموحّدة وبالمدّ، وهم فقراؤهم وصعاليكهم ومَن لا يعرف عينه من أخلاطهم. قلت: وقوله ﷺ: «إن أُوَيسًا خير التابعين» صريح بأنه خيرهم مطلقًا، ودليل على أن النفع اللازم قد يكون أفضل من المتعدّي، وأن علماء الباطن العارفين بالله تعالى أفضل من علماء الظاهر العارفين بأحكام الله سبحانه. ورُوِيَ عن علقمة بن مرثد رضي الله تعالى عنه قال: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين، منهم أُوَيس القرنيّ رضي الله تعالى عنه، ظنّ أهله أنه مجنون، فبنوا له بيتًا على باب دارهم، فكانت تأتي عليه السنة والسّنون لا يرون له وجهًا، وكان طعامه مما يُلتَقَط من النّوى، فإذا أمسى باعه لإفطاره؛ فلما ولّى عُمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال بالموسم: أيها الناس قوموا، فقاموا، فقال: اجلسوا إلا مَن كان من اليمن فجلسوا، فقال: اجلسوا إلا مَن كان من مراد فجلسوا، فقال: اجلسوا إلا مَن كان من قرن، فجلسوا إلا رجلاً، وكان عمّ أُوَيس، فقال له عمر: أقرني أنت؟ قال: نعم، قال: أفتعرف أُوَيسًا؟ قال: وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما فينا أحمق ولا أجنّ ولا أحوج منه، فبكى عمر ثم قال: بك لا به، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل الجنة بشفاعته مثل ربيعة ومُضَر»(٣). ورُوِيَ عن عمّار بن يوسف الضبي قال:

---

(١) أخرجه العقيلي في (الضعفاء ١/ ١٣٧)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ٦/ ١١٣)، ومسلم في (الصحيح ١٩٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (فضائل الصحابة ٢٢٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣٨)، والحاكم في (المستدرك ٣/ ٤٠٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٢٤)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ١٦٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٤٠٥٣)، وصاحب (ميزان الاعتدال ١٠٤٨)، وابن حجر في (لسان الميزان ١٤٤٩)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ٦/ ١١٣)، والبيهقي في (دلائل النبوّة ٦/ ٣٧٦).

(٣) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣٧٨٣٢).

Marfat.com

قال رجل لأُويس القرني: كيف أصبحت أو كيف أمسيت؟ فقال: أصبحت أحبّ الله وأمسيت أحمد الله، وما نسأل عن حال رجل إذا أصبح ظنّ أنه لا يُمسي، وإذا أمسى ظنّ أنه لا يصبح؛ إن الموت وذِكره لم يدع لمؤمن فرحًا، وإن حقّ الله تعالى في مال المسلم لم يدع له في ماله فضة ولا ذهبًا، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدع لمؤمن صديقا، نأمرهم بالمعروف ويشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك أعوانًا من الفاسقين، حتى والله لقد رموني بالعظائم وإيم الله لا أدع أن أقوم لله فيهم بحقه، ثم أخذ الطريق، يعني مشى وخلاني؟ ورُوِيَ عن هرم بن حيان[1] رضي الله تعالى عنه قال: بلغني حديث أُويس، فقَدِمت الكوفة، فلم يكن لي همّ إلا طلبه حتى سقطت عليه جالسًا على شاطىء الفرات نصف النهار يتوضأ، فعرفته بالنعت الذي نُعِتَ لي، فإذا رجل نحيل شديد الأدمة، أشعث محلوق الرأس، مَهيب المنظر، فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، ونظر إليّ ومددت يدي إليه لأُصافحه، فأبى أن يصافحني. قلت: وفي انقباض أويس رضي الله تعالى عنه وما كان فيه من رثاثة الحال والتوحّش والانعزال، وما نسب إليه الجهّال من الجنون والاختلال وما كان فيه من التقشّف والابتذال وغير ذلك من سائر الأحوال، أظهر دليل لمَن نحا ذلك النحو من الفقراء الصادقين، ولا مبالاة بإنكار مَن ينكر عليهم، ويزعم أن ذلك خلاف السُّنّة، ولم يدرِ أن السُّنّة العظمى هي ترك الدنيا، والإعراض عن الورى، والإقبال على المولى، وترك العلائق كلها سوى الله عزّ وجلّ. قال هرم بن حيان: فقلت: رحمك الله يا أُويس وغفر لك، كيف أنت؟ ثم خنقتني العَبرة من حبي إياه ورقّتي عليه، لما رأيت من حاله حتى بكى وبكيت، فقال: وأنت فحيّاك الله يا هرم بن حيان كيف أنت يا أخي؟ مَن دلّك عليّ؟ قلت: الله، قال: لا إله إلا الله ﴿سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾ [الإسراء: ١٠٨] فقلت: ومن أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم ولا رأيتني؟ قال: نبّأني العليم الخبير، عرفت روحي روحك حين كلّمت نفسي نفسك، إن المؤمنين يعرف بعضهم بعضًا، ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا، وإن نأت بهم الدار، وتفرّقت بهم المنازل. قلت: حدّثني رحمك الله عن رسول الله ﷺ، قال: إني لم أُدرك رسول الله ﷺ، ولم يكن لي معه صحبة، بأبي وأمي رسول الله ﷺ، ولكني قد رأيت رجالاً رأوه، ولست أُحبّ أن أفتح على نفسي هذا الباب أن أكون محدّثًا أو قاضيًا أو

---

(١) هو هرم بن حيان العبدي الأزدي (توفي بعد ٢٦ هـ = بعد ٦٤٧ م) قائد فاتح، من كبار النسّاك من التابعين، كان أمير بني عبد القيس في الفتوح، وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان بأرض فارس كان من سكان البصرة. مات في إحدى غزواته. الأعلام ٨/ ٨٢؛ وطبقات ابن سعد ٧/ ٩٥؛ وصفة الصفوة ٣/ ١٣٧؛ وأسد الغابة ٥/ ٥٧.

Marfat.com

مُفتيًا، في نفسي شغل عن الناس، فقلت: أي أخي اقرأ عليّ آيات من كتاب الله تعالى أسمعها منك، وأوصِني بوصية أحفظها عنك، فإني أُحبك في الله فأخذ بيدي وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، قال: ربي وأحقّ القول قول ربي، وأصدق الحديث حديث ربي، ثم قرأ ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق﴾ إلى قوله: ﴿العزيز الرحيم﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٤٢] فشهق شهقة وأنا أحسبه قد غشي عليه، ثم قال: يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك أن تموت أنت، فإما إلى الجنة وإما إلى النار، ومات أبوك آدم وماتت أُمك حوّاء، يا ابن حيان مات نوح نبيّ الله، ومات إبراهيم خليل الله، ومات موسى نجيّ الله، ومات داود خليفة الرّحمٰن، ومات محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء، ومات أبو بكر رضي الله تعالى عنه خليفة رسول الله ﷺ، ومات أخي وصديقي عُمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقلت له: يرحمك الله تعالى إن عمر رضي الله تعالى عنه لم يمت، قال: بلى، قد نعاه الناس ونعاه إليَّ ربي تبارك وتعالى، ونعى إليَّ نفسي، وأنا وأنت في الموتى، ثم صلّى على النبي ﷺ، ودعا بدعوات خِفاف، ثم قال: هذه وصيتي إليك، كتاب الله ونعي المرسلين، ونعي صالحي المؤمنين؛ فعليك بذكر الموت، ولا يفارقن قلبك طرفة عين ما بقيت، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم، وانصح للأمة جميعًا، وإياك أن تفارق الجماعة فتفارق دينك وأنت لا تعلم، فتدخل النار، ادعُ لي ولنفسك، ثم قال: اللّٰهمَّ إن هذا زعم أنه يحبّني فيك وزارني من أجلك، فعرّفني وجهه في الجنة، وأدخله عليّ دارك دار السلام، واحفظه في الدنيا ما دام حيًا، وأرضِه من الدنيا باليسير، واجعله لما أعطيته من نِعَمِك من الشاكرين، واجزه عني خيرًا، ثم قال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، لا أراك بعد اليوم يرحمك الله تعالى، فإنّي أكره الشُّهرة، والوحدة أحبّ إليّ، لأني كثير الغمّ ما دمت مع هؤلاء الناس حيًا، فلا تسأل عني ولا تطلبني، واعلم أنك مني على بال وإن لم أرك وتَرَني، واذكرني وادعُ لي، فإني سأدعو لك وأذكرك إن شاء الله تعالى، فانطلق أنت هٰهنا حتى آخذ أنا هٰهنا، فحرصت أن أمشي معه ساعة فأبى عليّ ففارقته، فجعلت أبكي وهو يبكي وأنظر إليه حتى دخل بعض السّكك، ثم سألت عنه بعد ذلك وطلبته فلم أجد أحدًا يخبرني عنه بشيء، وما أتت عليّ جمعة إلا وأنا أراه في المنام مرّة أو مرّتين. قلت: وإنما قال أُوَيس رضي الله تعالى عنه: ومات محمد ﷺ، ولم يقل رسول الله ﷺ كما قال في الأنبياء قبله، لأن فضله معروف، والمعروف بكمال الشرف والسّؤدد لا يحتاج أن يمدح ويمجّد، ألا ترى أن أصحابنا إذا ذكروا الإمام الشافعي رضي الله عنه قالوا: قال الشافعي، وإذا ذكروا بعض أصحابه قد يذكرون فضله فيقولون: قال الإمام الحفيل السيد الجليل أو نحو ذلك، وكان قد يمدح بعض الأمراء عند ذكره تعريفا بفضله، ولا يفعل ذلك بالسلطان،

لأن الشيء إذا اشتهر بكمال الفضل أو الشرف، لا يحتاج إلى أن يُمدَح ويُعرَف، لأنه إذا مُدِحَ يحتاج إلى مدح كثير، وربما وقع في مدحه تقصير، فكانت شُهرة قدره مُغنية عن ذِكره؛ وقوله رضي الله تعالى عنه: ونعي المرسلين، ونعي صالحي المؤمنين، يعني ذكر موتهم. ورُوِيَ عن أصبغ[1] رحمه الله تعالى قال: كان أُويس رضي الله تعالى عنه إذا أمسى يقول: هذه الليلة ليلة الركوع، فيركع حتى يصبح، وكان يقول: هذه الليلة ليلة السجود، فيسجد حتى يصبح، وكان إذا أمسى تصدّق بما في بيته من الفضل من الطعام والشراب، ثم يقول: اللَّهمَّ مَن مات جوعًا فلا تؤاخذني به، ومَن مات عاريًا فلا تؤاخذني به. ورُوِيَ عن نصر بن إسماعيل رحمه الله تعالى قال: كان أُويس رضي الله تعالى عنه يلتقط الكسر من المزابل فيغسلها ويتصدّق ببعضها، ويأكل بعضها ويقول: «اللَّهمَّ إني أبرأ إليك من كل كبد جائع. ورُوِيَ عن عبد الله بن سلمة قال: غزونا أذربيجان[2] في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأُوَيس القرني معنا، فلما رجعنا مرض فحملناه، فلم يستمسك فمات، فنزّلناه فإذا قبر محفور وماء مسكوب، وكفن وحنوط، فغسلناه وكفّنّاه وصلّينا عليه، ودفنّاه ومشينا، فقال بعضنا لبعض: لو رجعنا فعلّمنا القبر فرجعنا إلى القبر، فإذا لا قبر ولا أثر، ورُوِيَ عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى قال: نادى مُنادٍ يوم صفّين[3]: أفي القوم أُوَيس القرني؟ فوجد في القتلى من أصحاب عليّ رضي الله تعالى عنهم أجمعين، والله تعالى أعلم.

(الحكاية السادسة والأربعون بعد المئة): حُكِيَ أن الربيع بن خيثم رضي الله تعالى عنه قيل له في منامه: إن ميمونة السوداء زوجتك في الجنة؛ فلما أصبح سأل عنها، فدلّ عليها فإذا هي ترعى غنمًا، فقال: لأقيمنّ عندها أنظر عملها، فأقام عندها فرآها لا تزيد على الفريضة، فإذا أمست جاءت إلى عنز لها، فحلبت ثم شربت ثم حلبت ثم سقته إياه، فقال لها في اليوم الثالث: يا هذه لِمَ لا تسقيني من غير هذه العنز قالت: يا عبد الله إنها ليست لي، قال: فلِمَ تسقيني من هذه؟ قالت: إن هذه مُنِحْتها أشرب من لبنها وأسقي مَن شئت، فقال: يا هذه ليس لك من العمل أكثر مما أرى، قالت: لا إلا أني ما

---

(١) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م). انظر ترجمته في: الأعلام ٦/ ٢٦ ـ ٢٧؛ وفي تذكرة الحفّاظ ١/ ٣٢٩؛ وتهذيب التهذيب ٩/ ٢٥؛ والوفيات ١/ ٤٤٧.

(٢) أذربيجان: حدّها من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدّها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجيل، والطرم، وهو إقليم واسع. (معجم البلدان ١/ ١٢٨).

(٣) صفّين: موضع بقرب الرقّة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقّة وبالس، وكانت وقعة صفّين بين عليّ رضي الله عنه، ومعاوية في سنة ٣٧ في غرّة صفر. (معجم البلدان ٣/ ٤١٤).

أصبحت ولا أمسيت على حال قطّ فتمنّيت سواها رِضًا بما قسم الله تعالى لي، فقال: يا هذه أعَلمتِ أني رأيت في المنام أنك زوجتي في الجنة، قالت: فأنت الربيع بن خيثم؟ قال: نعم، فقيل للراوي: كيف علمتِ هذا؟ قال: لعلها رأت في منامها مثل ما رأى. قلت: ما قاله الراوي صحيح لأنه يحتمل، ولكن لا ينحصر ذلك في المنام بل يجوز أن يكون كشف لها في اليقظة بأن قيل لها ذلك، فسمعت أو شهدت، فرأت في حال سكر الأحوال الواردة عليهم المشهورة عنهم. وقد أخبرني بعضهم أنه قيل له في اليقظة زوّجتك في الجنة فلانة من الصالحات المشهورات، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية السابعة والأربعون بعد المئة: عن الشيخ أبي محمد الحريري رضي الله تعالى عنه) قال: حضر باب داري باز أشهب فلم أصده، ومكثت أربعين سنة أنصب حبالي عليه لعلّي أظفر به أو بمثله، فما ظفرت، فقيل: وما ذاك البازي الأشهب؟ قال: رجل دخل علينا الرباط بعد صلاة العصر شاب مصفرّ اللون أشعث الشعر حاسر الرأس حافي القدمين، فجدّد الوضوء وصلّى، ثم جلس ووضع رأسه في جيبه إلى المغرب؛ فلما صلّى معنا المغرب جلس كذلك وإذا رسول الخليفة يستدعينا في دعوة، فقمت إلى الشاب وقلت له: هل لك أن توافقنا إلى دار الخليفة؟ فرفع رأسه وقال: ليس لي قلب إلى دار الخليفة، ولكن أشتهي عصيدة[1] حارّة، فاطّرحت قوله حيث لم يوافق الجماعة، والتمس شهوته، وقلت في نفسي: هذا قريب عهد بالطريقة لم يتأدّب بعد، ومضيت إلى دار الخليفة فأكلنا وسمعنا وتفرّقنا آخر الليل؛ فلما دخلت الرباط رأيت الشاب على تلك الحالة، فجلست على سجادتي ساعة، فلهجت عيناي في النوم، وإذا جماعة وقائل يقول: هذا رسول الله ﷺ والأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام، فدنوت إليه لأُسلِّم لعيه، فولّى بوجهه عني مُعرِضًا، فكرّرت عليه وهو يُعرِض عنّي ولا يلتفت ولا يُجيب، فخفتُ من ذلك، فقلت: يا رسول الله، ما الذي أذنبت حتى تُعرِض عني بوجهك، فقال رسول الله ﷺ: فقير من أمتي اشتهى عليك شهوة فتهاونت به، فاستيقظت مرعوبًا، وقمت نحو الفقير فلم أجده، وسمعت صوت الباب فخرجت في طلبه، فإذا به قد خرج، فناديته يا فتى اصبر حتى تحضر شهوتك التي طلبتها، فالتفت إليّ وقال: إذا اشتهى عليك فقير شهوة لا توصلها إليه حتى يستشفع إليك بمئة ألف نبيّ وأربعة وعشرين ألف نبيّ، فلا حاجة به إليها، ثم تركني ومضى، رضي الله تعالى عنه ونفع به آمين، وأنشد:

طلبت الغنى من صاحبي فأجابني إن الفقير إلى الغني بغيض

(١) العصيدة: دقيق يُخلَط بالسمن ثم يُطبَخ (ج) عصائد.

(الحكاية الثامنة والأربعون بعد المئة: عن سريّ السقطي رضي الله تعالى عنه) قال: قعدت يومًا أتكلم بجامع المدينة، فوقف على شاب حَسَن الثياب، فاخر الثياب ومعه أصحابه، فوعظت، فسمعني أقول في وعظي: عجبًا لضعيف كيف يعصى قويًا، فتغيّر لونه وانصرف؛ فلما كان من الغد جلست في مجلسي، وإذا به قد أقبل فسلّم وصلّى ركعتين وقال: يا سريّ سمعتك بالأمس تقول: عجبًا لضعيف كيف يعصى قويًا، فما معناه؟ فقلت: لا أقوى من المولى، ولا أضعف من العبد وهو يعصيه، فنهض فخرج، ثم أقبل من الغد وعليه ثوبان أبيضان وليس معه أحد وقال: يا سريّ كيف الطريق إلى الله تعالى؟ فقلت: إن أردت العبادة فعليك بصيام النهار وقيام الليل، وإن أردت الله عزّ وجلّ فاترك كلّ شيء سواه تصل إليه، ولا تسكن إلا المساجد والخراب والمقابر، فقام وهو يقول: والله لا سلكت إلا أصعب الطرق، وولّى خارجًا؛ فلما كان بعد أيام أقبل إليّ غلمان كثيرة، فقالوا: ما فعل أحمد بن يزيد الكاتب؟ فقلت: لا أعرفه إلا أن رجلاً جاءني من صفته كذا وكذا، فجرى لي معه كذا وكان لا أعلم حاله، فقالوا: بالله عليك متى عرفت حاله فعرّفناه، ودلّنا على داره، فبقيت سنة لا أعرف له خبرًا، فبينما أنا ذات ليلة بعد العشاء الآخرة جالس في بيتي، وإذا بطارق يطرق الباب، فأذِنتُ له بالدخول، فإذا أنا بالفتى عليه قطعة من كسائي في وسطه، وأخرى على عاتقه، وبيده زنبيل فيه نوى، فقبّل بين عينّ وقال: يا سريّ أعتقك الله من النار كما أعتقتني من رقّ الدّنيا، فنظرت فأومأت إلى صاحبي أن امضِ إلى أهله فأخبرهم، فمضى فإذا بزوجته قد جاءت ومعها ولده وغلمانه، فدخلت وألقت الوالد في حجره، وعليه حليّ وحُلل وقالت له: يا سيدي أرملتني وأنت حيّ، وأيتمت ولدك وأنت حيّ، قال السريّ: فنظر إليّ وقال: يا سريّ ما هذا وفاء، ثم أقبل عليهما وقال: والله إنكما لثمرة فؤادي وحبيبة قلبي، وإن هذا ولدي لأعزّ الخلق عليّ غير أن هذا سريّ رضي الله تعالى عنه أخبرني أن مَن أراد رضا الله قطع كل ما سواه، ثم نزع ما على الصبيّ وقال: ضعي هذا فى الأكباد الجائعة والأجساد العارية، وقطع قطعة من كسائي فلفّ بها الصبي، فقالت المرأة: والله لا أرى ولدي في هذه الحالة، وانتزعته منه، فحين رآها قد اشتغلت به نهض وقال: ضيّعتم عليّ ليلتي بيني وبينكم الله، وولّى خارجًا، وضجّت الدار بالبكاء، فقالت امرأته: إن عاد يا سريّ أو سمعت له خبرًا فأعلمني، فقلت: إن شاء الله تعالى؛ فلما كان بعد أيام أتتني عجوز فقالت: يا سريّ بالشونيزية غلام يسألك الحضور، فمضيت فإذا أنا به مطروح تحت رأسه لَبِنَة، فسلّمت عليه ففتح عينيه وقال: يا سريّ تُرى يغفر لي تلك الجنايات؟ فقلت: نعم، فقال: يغفر لمثلي؟ فقلت: نعم، قال: أنا غريق، قلت: هو مُنجي الغرقى، فقال: عليّ مظالم، فقلت في الخبر: «إنه يؤتى بالتائب يوم القيامة ومعه خصومه، فيقال لهم خلّوا عنه، فإن الله تعالى يعوّضكم»، فقال: يا سريّ معي دراهم من

Marfat.com

لقط النوى، إذا أنا متّ فاشتر ما أحتاج إليه وكفّني، ولا تُعلِم أهلي لئلا يغيّروا كفني بحرام، فجلست عنده قليلاً، ففتح عينيه وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون ثم مات رحمة الله تعالى عليه، فأخذت الدراهم فاشتريت ما يحتاج إليه وسرت نحوه، فإذا الناس يهرعون، فقلت: ما الخبر؟ فقيل: مات وليّ من أولياء الله تعالى نريد أن نصلي عليه، فجئت فغسلته وصلّينا عليه ودفناه؛ فلما كان بعد مدة وفد أهله يستعلمون خبره، فأخبرتهم بموته، فأقبلت امرأته باكية، فأخبرتها بحاله، فسألتني أن أُرِيها قبره، فقلت: أخاف أن تغيّروا أكفانه، فقالت: لا والله، فأريتها القبر فبكت، وأمرت بإحضار شاهدين، فأُحْضِرا، فأعتقت جواريها، ووقفت عقارها، وتصدّقت بمالها، ولزمت قبره حتى ماتت رحمة الله تعالى عليها. وأنشدوا:

بانَ الذين تجنبوا الأشغالا ... بذلوا النفوس وأنفقوا الأموالا
تركوا النساء كأنهنّ أرامل ... قبل الممات وأيتموا الأطفالا
وتجوّعوا وتعطشوا وتضمروا ... طلب السباق وخفّفوا الأثقالا
وتعزّبوا وتغرّبوا عن أهلهم ... حذر الفوات وفكّكوا الأغلالا
فطموا عن الدنيا نفوسًا طالما ... كانت تتيه على النعيم دلالا
خافوا البيات فشمّروا بعزيمة ... طلب النجاة وكابدوا الأهوالا
حتى إذا بليت ضنا أجسادهم ... ولقوا شجونًا في السري وكلالا
وردوا جنان مليكهم فحباهم ... رتبًا تفوق الفرقدين منالا[1]

(الحكاية التاسعة والأربعون بعد المئة): حُكِيَ أنه كان سبب خروج إبراهيم بن أدهم عن أهله وماله وجاهه ورياسته ـ وكان من أبناء الملوك ـ أنه خرج يومًا يصطاد فأثار ثعلبًا أو أرنبًا، فبينما هو في طلبه، إذ هتف به هاتف، ألهذا خلقت، أم بهذا أمرت؟ ثم هتف به هاتف من قربوس[2] سرجه وقال: والله ما لهذا خُلِقت ولا بهذا أُمرت، فنزل عن مركوبه وصادف راعيًا لأبيه، فأخذ جبّة الراعي وكانت من صوف، فلبسها وأعطاه فرسه وما معه ثم دخل البادية، وكان من شأنه ما كان رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الخمسون بعد المئة): حُكِيَ أن الشيخ أبا الفوارس شاه بن شجاع الكرماني رضي الله تعالى عنه خرج للصيد وهو يومئذ ملك كرمان[3]، فأمعن في الطلب

(١) الفرقد: اسم لنجمين من نجوم الدّب الأصغر، وهما فرقدان.
(٢) القَرَبُوسُ: حنوّ السرج؛ أي: قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد، ومن مؤخره (ج) قرابيس.
(٣) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. (معجم البلدان ٤/ ٤٥٤).

Marfat.com

حتى وقع في برية مقفرة وحده، فإذا هو بشاب راكب على سبع وحوله سِباع؛ فلما رأته ابتدرت نحوه، فزجرها الشاب عنه؛ فلما دنا إليه سلّم عليه وقال له: يا شاه ما هذه الغفلة عن الله، اشتغلت بدنياك عن آخرتك، وبلذّتك وهواك عن خدمة مولاك، إنما أعطاك الله الدنيا لتستعين بها على خدمته فجعلتها ذريعة إلى الاشتغال عنه، فبينما الشاب يحدّثه، إذ خرجت عجوز بيدها شربة ماء، فناولتها للشاب، فشرب ودفع باقيه إلى شاه، فشربه وقال: ما شربت شيئًا ألذّ منه ولا أبرد ولا أعذب، ثم غابت العجوز فقال الشاب: هذه الدنيا وكّلها الله تعالى إلى خدمتي، فما احتجت إلى شيء إلا أحضرته إلى حين يخطر ببالي، أما بلغك أن الله تعالى لمّا خلق الدنيا قال لها: يا دنيا اخدمي مَن خدمني، واستخدمي مَن خدمك؛ فلما رأى ذلك تاب، وكان منه ما كان رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به. وأنشد بعضهم:

خدمت لما قد قصرت من خدمك	ودار عندي السرور من نِعَمك
وكانت الحادثات تطرقني	فاحتشمتني إذ صرت من حشمك

(الحكاية الحادية والخمسون بعد المئة): عن مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه، أنه سُئِلَ عن سبب توبته، فقال: كنت شرطيًا، وكنت منهمكًا على شرب الخمر، ثم إني اشتريت جارية نفيسة، ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتًا فشغفت بها؛ فلما دبّت على الأرض ازدادت حبًا في قلبي، وألِفَتني وألِفتها، فكنت إذا وضعت المُسْكِر جاءت إليّ وجاذبتني إياه وأهرقته على ثوبي؛ فلما تمّ لها سنتان ماتت، فأكمدني الحزن عليها؛ فلما كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة جمعة بتّ ثَمِلاً من الخمر، ولم أصلّ صلاة العشاء، فرأيت كأنّ أهل القبور قد خرجوا، وحشر الخلائق وأنا معهم، فسمعت حِسًا من ورائي، فالتفتّ فإذا أنا بتنّين[1] أعظم ما يكون أسود أزرق، قد فتح فاه مسرعًا نحوي، فمررت بين يديه هاربًا فزعًا مرعوبًا، فمررت في طريقي، فإذا أنا بشيخ نقيّ الثياب طيب الرائحة، فسلّمت عليه فردّ عليّ السلام، فقلت له: أجِرْني وأغثني، فقال: أنا ضعيف وهذا أقوى مني وأنا ما أقدر عليه، ولكن مرّ وأسرع، فلعلّ الله تعالى أن يسبّب لك مَن يُنجيك منه، فولّيت هاربًا على وجهي، فصعدت على شرف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى أهوالها وكدت أهوى فيها من فزعي من التنّين الذي في طلبي، فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها، فاطمأننت إلى قوله، ورجعت ورجع التنّين في طلبي، فصاح بي صائح، فأتيت الشيخ فقلت له: يا شيخ

(١) التنين: ضرب من الحيّات العظيمة، و(في الأساطير) حيوان أسطوري يجمع بين صفات الزواحف والطير، له مخالب أسد وجناحا نسر، وذنب أفعى، ويتخذ في بعض البلاد رمزًا قوميًا (ج) تنانين.

Marfat.com

سألتك أن تُجيرني من هذا التنّين فلم تفعل؟ فبكى الشيخ وقال: أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل، فإن فيه للمسلمين ودائع، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك فنظرت إلى جبل مستدير فيه كوى مخرّقة وسُتور معلّقة على كل كُوَّة مِصراعان من الذهب الأحمر مرصّعة بالياقوت مكلّلة بالدرّ، وعلى كلّ مصراع ستر الحرير، فلما نظرت إلى الجبل هربت إليه والتنّين ورائي، حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا، فلعلّ لهذا البائس فيكم وديعة تُجيره من عدوّه، فإذا الستور قد رُفِعت، والمصاريع قد فُتحت، فأشرف عليّ أطفال بوجوه كالأقمار، وقرب التنّين مني، فتحيّرت في أمري، فصاح بعض الأطفال: ويحكم أشرِفوا كلكم فقد قرب منه، فأشرفوا فوجًا بعد فوج، فإذا بابنتي التي ماتت قد أشرفت عليّ معهم، فلما رأتني بكت وقالت: أبي والله، ثم وثبت في كفّة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يديّ، فمدّت يدها الشمال إلى يدي اليمين فتعلّقت بها، ومدّت يدها اليمين إلى التنّين فولّى هاربًا، ثم أجلستني وقعدت في حِجري، وضربت بيدها اليمين إلى لحيتي وقالت يا أبت: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذِكر الله وما نزل من الحق﴾ [الحديد: ١٦] فبكيت وقلت: يا بُنيّة وأنتم تعرفون القرآن؟ قالت: يا أبت نحن أعرف به منكم، قلت: فأخبريني عن التنّين الذي أراد هلاكي، قالت: ذلك عملك السوء الخبيث قوّيته فتقوّى، فأراد أن يغرقك في النار، قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي، قالت: يا أبت ذلك عملك الصالح أضعفته، فضعف حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء، قلت: يا بُنيّة وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنّا فيه إلى أن تقوم الساعة، ننتظركم تقدمون علينا فنشفع فيكم، فانتبهت فزعًا مرعوبًا؛ فلما أصبحت فارقت ما كنت عليه، وتُبت إلى الله عزّ وجلّ، وهذا سبب توبتي رضي الله تعالى عنه. قلت: وقد جاء في الحديث أن عمل الإنسان يُدفَن معه في قبره، فإن كان العمل كريمًا أكرم صاحبه، وإن كان لئيمًا أسلمه: أي إن كان عملاً صالحًا آنس صاحبه وبشّره ونوّر عليه قبره ووسّعه وحماه من الشدائد والأهوال، وإن كان عملاً سيئًا أفزع صاحبه وروّعه، وأظلم عليه قبره وضيّقه وعذّبه، وخلّى بينه وبين الشدائد والأهوال والعذاب والوبال. وقد سمعت عن بعض الصالحين في بعض بلاد اليمن أنه لمّا دفن بعض الموتى وانصرف الناس عنه، سمع في القبر ضربًا ودقًا عنيفًا، ثم خرج من القبر كلب أسود، فقال له الشيخ الصالح: ويحك إيش أنت؟ قال: أنا عمل الميت، قال: فهذا الضرب فيك أم فيه؟ قال: بل فيّ، وجدت عنده سورة يٓس وأخواتها، فحالت بيني وبينه، وضربت وطردت. قلت: لمّا قوي عمله الصالح غلب عمله القبيح وطرده عنه، بكرم الله ورحمته، ولو كان عمله القبيح أقوى لغلبه وأفزعه وعذّبه، نسأل الله الكريم لطفه ورحمته وعفوه وعافيته لنا ولأحبابنا ولأصحابنا ولكافّة المسلمين آمين.

Marfat.com

(الحكاية الثانية والخمسون بعد المئة): حُكِيَ عن بعض العصاة أنه مات، فلما حفروا له قبرًا وجدوا فيه حيّة عظيمة، فحفروا له قبرًا آخر فوجدوها فيه، ثم كذلك قبرًا بعد قبر إلى أن حفروا نحوًا من ثلاثين قبرًا، وفي كلّ ذلك يجدونها فيه؛ فلما رأوا أنه لا يقدر أن يهرب من الله هارب ولا يغلبه غالب دفنوه معها، وهذه الحية هي عمله كما ذكرنا في حكاية مالك بن دينار، نسأل الله الكريم حُسْن الخاتمة في عفو وعافية في الدين والدنيا والآخرة، إنه المنّان الكريم البرّ الرحيم. آمين يا رب العالمين

(الحكاية الثالثة والخمسون بعد المئة: عن أبي إسحٰق الفزاري رحمه الله تعالى)
قال: كان رجل يُكثِر الجلوس إلينا ونصف وجهه مغطى، فقلت له: إنك تُكثِر الجلوس إلينا ونصف وجهك مغطًى، أطلعني على هذا، فقال: وتعطيني الأمان؟ قلت: نعم، قال: كنت نبّاشًا فدفنت امرأة، فأتيت قبرها فنبشت حتى وصلت إلى اللبن فرفعته، ثم ضربت بيدي إلى الرداء، ثم ضربت بيدي إلى اللفافة فجررتها، فجعلت تجرّها، فقلت: أتراها تغلبني؟ فجثيت على ركبتي، فجررت اللفافة فرفت يدها فلطمتني، وكشف عن وجهه فإذا أثر خمس أصابع في وجهه، فقلت له: ثم ما فعلت؟ قال: ثم رددت عليها لفافتها وإزارها، ثم رددت اللبن ثم التراب وجعلت على نفسي أن لا أنبش قبرًا ما عشت، قال: فكتبت إلى الأوزاعي بذلك، فكتب إليّ الأوزاعي: سَلْه ويحك عمّن مات من أهل التوحيد ووجهه إلى القِبلة، فسألته عن ذلك فقال: أكثرهم حوّل وجهه عن القِبلة، فكتبت بذلك إلى الأوزاعي، فكتب إليّ: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ثلاث مرات؛ أما مَن حوّل وجهه عن القِبلة فإنه مات على غير السُّنَّة، انتهى كلامهم. قلت: لعلّ الإمام الأوزاعي رضي الله تعالى عنه أراد بالسُّنَّة هٰهنا ملّة الإسلام. والمعنى والله أعلم أن الإصرار على المعاصي يجرّ كثيرًا من العُصاة إلى الموت على الكفر والعياذ بالله عزّ وجلّ، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون﴾ [الروم: ١٠] كان عاقبة الإساءة التكذب بآيات الله والاستهزاء بها، وذلك هو الكفر أعاذنا الله منه، وسأذكر شيئًا من ذلك الآن.

(الحكاية الرابعة والخمسون بعد المئة): رُوِيَ أن بعض الناس حضرته الوفاة، فكان كلما قيل له: قل لا إله إلا الله، قال:

يا ربّ قائلة يومًا وقد تعبت ... أين الطريق إلى حمام منجاب

وذلك أن امرأة خرجت في بعض الأيام تريد حمامًا يُقال له: حمام منجاب، فلم تعرف الطريق وتعبت من المشي، فصادفت رجلاً على باب داره، فسألته عن الحمام، فقال: هو هذا، وأشار إلى داره؛ فلما دخلت أغلق عليها الباب، فلما عرفت أنه قد خدعها أظهرت السرور وقالت له: اذهب هات لنا من السوق ما نطيّب به وقتنا، فبادر

إلى ذلك، وترك الباب مفتوحًا، فخرجت بخديعة حتى تخلّصت بها من خداعه الباطل بارك الله فيها، وذلك بفضل الله عليها وحفظه إياها؛ فلما رجع الرجل على نيّة الفجور بها لم يلقَ في بيته إلا الويل والثبور، فخرج على رأسه هائمًا يدور وينشد البيت المذكور حتى جعله عوضًا عن شهادة أن لا إلٰه إلا الله وهو في غمرات الموت محضور، نستجير من ذلك بالله الكريم الغفور.

(الحكاية الخامسة والخمسون بعد المئة): رُوِيَ عن آخر أيضًا أنه كان حِرفته بيع الحشيش[١] وهو غافل عن الله تعالى؛ فلما حضرته الوفاة كان كلما قيل له: قل لا إلٰه إلا الله، قال: حزمة بفلس[٢]. وكان بعض الشيوخ بعد ذلك يقول لأصحابه: أكثِروا من الشهادة حتى تموتوا عليها كما مات على هذه الكلمة التي عاش عليها. ورُوِيَ عن بعض الأخيار من أهل تلاوة القرآن الكريم أنه لمّا حضرته الوفاة، كانوا كلما قالوا له: قل لا إلٰه إلا الله، قال: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم طٰه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طٰه: ٢] إلى قوله تعالى: ﴿الله لا إلٰه إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ [طٰه: ٨] فلم يزل يُعيدها كلما أعادوا عليه إلى أن مات على هذه الآية الكريمة الجليلة العظيمة. قلت: وكلّ ما ذكرنا يحقّق ما ورد أنه يموت المرء على ما عاش عليه، ويُحشَر على ما مات عليه، نسأل الله الكريم التوفيق للطاعة، والموت على الإسلام والسُّنَّة والجماعة لنا ولإخواننا ووالدينا وأولادنا والمسلمين آمين.

(الحكاية السادسة والخمسون بعد المئة): حُكِيَ أن امرأة من المتعبّدات يُقال لها: باهية لمّا أشرفت على الموت رفعت رأسها إلى السماء وقالت: يا ذخري وذخيرتي ومَن عليه اعتمادي في حياتي ومماتي، لا تخذلني عند الموت، ولا تُوحشني في قبري؛ فلما ماتت كان لها ولد يأتي قبرها في كل ليلة جمعة ويوم جمعة، ويقرأ عند قبرها شيئًا من القرآن ويدعو لها ويستغفر لها ولأهل المقابر، قال: فرأيتها في المنام، فسلّمت عليها وقلت لها: يا أُمّاه كيف أنت وكيف حالك؟ فقالت: يا بُنَيّ إن للموت كربة شديدة، وأنا بحمد الله في برزخ مفروش فيه الريحان، وموسّد فيه السندس والاستبرق إلى يوم القيامة، فقلت: ألكِ حاجة؟ قالت: نعم يا بنيّ لا تدع ما كنت عليه من زيارتنا والقراءة والدعاء لنا، فإني يا بنيّ أُسَرُّ بمجيئك إلينا ليلة الجمعة ويوم الجمعة إذا أقبلت يقول لي الموتى: يا باهية هذا ابنك قد أقبل، فأُسَرّ بذلك، ويُسَرُّ مَن حولي من الموتى، قال: فكنت أزورها في كل ليلة جمعة ويومها، وأقرأ عندها شيئًا من القرآن وأقول: آنس الله

---

(١) الحشيش: نبات مخدِّر (مو)، وغلبت الحشيشة على بزر القِنَّب الهندي، وهو من مغيبات العقول.
(٢) الفَلْس: عُملة يُتعامَل بها مضروبة من غير الذهب والفضة (ج) فلوس وأفلس.

Marfat.com

وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن سيئاتكم، وزاد بعضهم: وتقبّل حسناتكم؛ قال: فبينما أنا ذات ليلة نائم إذا بخلق كثير قد جاؤوني فقلت: مَن أنتم وما حاجاتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر جئناك نشكرك ونسألك أن لا تقطعنا من تلك القراءة والدعوات فما زلت أقرأ لهم وأدعو لهم بهنّ كل ليلة جمعة ويومها. قلت: وما ذِكر في هذه الحكاية من نفع قراءة القرآن للموتى يؤيد قول مَن قال من العلماء بذلك، ويؤيده أيضًا ما سنذكره الآن إن شاء الله.

(الحكاية السابعة والخمسون بعد المئة): ذكر بعض أهل العلم أن رجلاً رأى في النوم أهل القبور في بعض المقابر قد خرجوا من قبورهم إلى ظاهر المقبرة، وإذا بهم يلتقطون شيئًا ما يُدرَى ما هو؟ قال: فتعجبت من ذلك، ورأيت واحدًا منهم جالسًا لا يلتقط شيئًا، فدنوت منه وسألته ما الذي يلتقط هؤلاء؟ فقال: يلتقطون ما يهدي إليهم المسلمون من قراءة القرآن والصدقة والدعاء، قال: فقلت له: فلِمَ لا تلتقط أنت معهم؟ فقال: أنا غنيّ عن ذلك، فقلت: بأيّ شيء؟ قال: بختمة يقرؤوها ويهديها إليّ ولدي في كل يوم وليلة، فقلت: وأين هو؟ فقال: هو شاب يبيع الزلابية[1] في السوق الفلاني، قال: فلما استيقظت ذهبت إلى السوق حيث ذكر فإذا بشاب يبيع الزلابية ويحرّك شفتيه، فقلت: بأيّ شيء تحرّك شفتيك؟ قال: أقرأ القرآن وأهديه إلى والدي في قبره، قال: فلبثت مدة من الزمان ثم رأيت الموتى قد خرجوا من القبور يلتقطون كما تقدّم، وإذا بالرجل الذي كان لا يلتقط معهم صار يلتقط معهم، فاستيقظت وتعجبت من ذلك، ثم ذهبت إلى السوق لأتعرّف خبر ولده، فوجدته قد مات رحمه الله تعالى.

(الحكاية الثامنة والخمسون بعد المئة): رُوِيَ أن بعض النساء توفيت، فرأتها في النوم امرأة تعرفها، وإذا عندها تحت السرير آنية من نور مغطاة، فسألتها ما في هذه الآنية؟ قالت: فيها هدية أهداها إليّ أبو أولادي البارحة، فلما استيقظت المرأة ذكرت ذلك لزوج الميتة، فقال: قرأت البارحة شيئًا من القرآن وأهديته إليها. قلت: وقد بلغني أن بعض الموتى في بلاد اليمن رآه بعض أصحابه في النوم، قال: وكنت قد أهديت إليه شيئًا من القرآن، فقال: سلّم لي على فلان وقل له جزاه الله عني خيرًا كما أهدى إليّ شيئًا من القرآن. وروى بعض العلماء في بعض مصنفاته ما معناه: أن الشيخ الإمام مفتي الأنام عزّ الدين بن عبد السلام رضي الله عنه سُئِلَ بعد موته في منام رآه السائل ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يُهدَى من قراءة القرآن للموتى؟ فقال: هيهات، وجدت الأمر بخلاف ما كنت أظنّ، رحمه الله تعالى.

---

(١) الزّلابية: حلواء تُصنَع من عجين رقيق يُقلى ويُحلّى بالسكر أو العسل أو الدبس (د).

(الحكاية التاسعة والخمسون بعد المئة: عن صالح المريّ رضي الله عنه) قال: أقبلت ليلة جمعة إلى الجامع لأُصلي فيه صلاة الفجر، فمررت بمقبرة، فجلست عند قبر فغلبتني عيني، فنمت، فرأيت في نومي كأن أهل المقبرة قد خرجوا من قبورهم، فقعدوا حلقًا حلقًا يتحدّثون وإذا بشاب عليه ثياب دنسة قعد في جانب المقبرة مغمومًا مهمومًا فريدًا بنفسه، فلم يلبثوا إلا ساعة حتى أقبلت ملائكة على أيديهم أطباق مغطاة بمناديل كأنهنّ من نور، فكلما جاء أحدًا منهم طبق، أخذه ودخل في قبره، حتى بقي الفتى في آخر القوم فلم يأته شيء، فقام حزينًا ليدخل في قبره، فقلت له: يا عبد الله ما لي أراك حزينًا، وما الذي رأيت؟ قال: يا صالح هل رأيت الأطباق؟ قلت: نعم، فما هي؟ قال: تلك صدقات الأحياء ودعاؤهم لموتاهم، يأتيهم ذلك في كل ليلة جمعة ويومها، ثم ذكر كلامًا طويلاً ذكر فيه أن له والدة اشتغلت عنه بالدنيا وتزوّجت والتهت، وإنه يحقّ له أن يحزن، إذ ليس له مَن يذكره، فسأله صالح عن منزل والدته أين هو؟ فوصف له الموضع؛ فلما أصبح صالح ذهب وسأل عنها، فأرشد إليها، فكلّمها من خلف الستر، وقصّ عليها القصة، فبكت حتى تحدّرت دموعها على خدّها، ثم قالت: يا صالح ذاك ولدي وفلذة من كبدي، ومَن كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحِجري له حِواء، قال: ثم دفعت إليّ ألف درهم وقالت لي: تصدّق بها على حبيبي وقرّة عيني، ولست أنساه من الدعاء والصدقة في باقي عمري إن شاء الله تعالى، قال: فتصدّقت بالألف عنه، فلما كان في الجمعة الأخرى أقبلت أُريد الجامع، فأتيت المقبرة واستندت على قبر فخفقت برأسي، وإذا بالقوم قد خرجوا، وإذا بالفتى عليه ثياب بيض وهو فرح مسرور، فأقبل نحوي حتى دنا مني وقال: يا صالح، جزاك الله عني خيرًا، قد وصلت إليّ الهدية قلت له: أنتم تعرفون يوم الجمعة؟ قال: نعم، وإن الطيور في الهواء لتعرفه وتقول: سلام سلام ليوم صالح، يعني يوم الجمعة أعاد الله علينا من بركته.

(الحكاية الستون بعد المئة: عن مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت قومًا بالبصرة يحملون جنازة وليس معهم أحد ممّن يشيّع الجنازة، فسألتهم عنه، فقالوا: هذا رجل من كبار المذنبين العُصاة المُسرفين، قال: فصلّيت عليه وأنزلته في قبره ثم انصرفت إلى الظلّ، فنمت فرأيت مَلَكين قد نزلا من السماء، فشقّا قبره ونزل أحدهما إليه وقال لصاحبه: اكتبه من أهل النار، فما فيه جارحة سَلِمَت من المعاصي والأوزار، قال: فقال له صاحبه: يا أخي لا تعجل عليه، اختبر عينيه، قال: اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بالنظر إلى محارم الله عزّ وجلّ، قال: فاختبر سمعه، قال: قد اختبرته فوجدته مملوءًا بسماع الفواحش والمُنكَرات، قال: فاختبر لسانه، قال: اختبرته فوجدته مملوءًا بالخوض في المحظورات وارتكاب المحرّمات، قال: فاختبر يديه، قال: قد اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بتناول الحرام وما لا يحلّ من اللذّات والشهوات، قال:

Marfat.com

فاختبر رِجليه، قال: قد اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بالسعي في النجاسات والأمور المذمومات، قال: يا أخي لا تعجل عليه ودعني أنزل إليه، فنزل المَلَك الثاني إليه، وأقام عنده ساعة وقال لصاحبه: يا أخي قد اختبرت قلبه فوجدته مملوءًا إيمانًا، فاكتبه مرحومًا سعيدًا، ففضل المولى سبحانه وتعالى يستغرق ما عليه من الذنوب والخطايا. وأنشدوا:

لـمّـا رأوه مُـبـعـدًا عـن طـاعـتـي ... حـكـمـوا بـأنـي لا أجـود بـرحـمـتـي

حلمي أجلّ ولن يضيق على الورى ... مَـن ذا يـحـدّ أوامـري ومـشـيـئـتـي

قلت: إنما حصلت هذه السعادة لهذا المذكور بعناية سابقة، وما تحصل هذه لكل عاصٍ، فـلا تغترّ بهذا، فالعُصاة كلهم في خطر المشيئة، بل الطائعون لا يدرون بماذا يُختَم لهم، نسأل الله الكريم حُسْن الخاتمة والمغفرة، والعفو والعافية في الدنيا والآخرة، ويسلم لنا الدين ولأحبابنا ولسائر المسلمين آمين.

(الحكاية الحادية والستون بعد المئة: عن بعضهم) قال: سألت الله عزّ وجلّ أن يُريني مقامات أهل المقابر، فرأيت ليلة من الليالي كأن القيامة قد قامت، والقبور قد انشقّت، وإذا منهم النائم على السندس، ومنهم النائم على الحرير والديباج[1]، ومنهم النائم على السرر، ومنهم النائم على الريحان، ومنهم الضاحك، ومنهم الباكي، فقلت: يا ربّ لو شئت ساويت بينهم في الكرامة، قال: فنادى مُنادٍ من أهل القبور: يا فلان هذه منازل الأعمال، أما أصحاب السندس فهم أهل الخلق الحسن، وأما أصحاب الحرير والديباج فهم الشهداء، وأما أصحاب الريحان فهم الصائمون، وأما أصحاب الضحك فهم أصحاب التوبة والإنابة، وأما أصحاب البكاء فهم المذنبون، وأما أصحاب المراتب فهم المتحابون في الله تعالى انتهى كلامه. قلت: هكذا في الأصل الذي نقلت منه، أعني فسّر أصحاب المراتب، ولم يتقدم للمراتب ذكر، وقد تقدّم ذكر السّرر ولم يفسّر أصحابها بعد مَن هم، فلعله أراد بالمراتب السّرر المتقدّم ذكرها؛ وأما حقيقة المراتب فهي المناصب الشريفة والمقامات العالية المنيفة، ولا شكّ أن أصحاب السّرر المذكورة أشرف مرتبة وأعلى منزلة ممّن على الأرض وإن كان أهل الأرض على الحرير وغيره، مع أن السّرر المذكورة المعدّة للإكرام، والمرتبة العالية لا تخلو من الفرش العزيزة الغالية وإن لم تذكر معها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إخوانًا على سُرر متقابلين﴾ [الحجر: ٤٧] ولم يذكر الفرش في هذه الآية، ومعلوم أن السّرر المذكورة عليها الفرش المذكورة في آيات أخرى. وإذا قال قائل جلس الملك على سريره، وجلسنا عنده علم من ذلك شيئان:

---

(١) الديباج: نسيج من الحرير ملوّن ألوانًا (ج) ديابيج ودبابيج.

Marfat.com

أحدهما أن السرير مفروش وإن لم يذكر ذلك. والثاني أن الملك إنما جلس على السرير ليرتفع على مَن عنده برفعة المجلس مع رفعة الملك، ولا يرضى أن يجلس معه غيره على السرير، ولا يجلس هو مع غيره على الأرض في الغالب. ولمّا دخل الأحنف بن قيس[1] على بعض الوُلاة لبعض مصالح المسلمين جلس معه على السرير بغير إذنه، فرأى الأحنف الغضب في وجهه، فقال الأحنف: واعجباه كيف يتكبَّر مَن يغسل العذرة[2] بيده كل يوم مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أكثر من ثلاث كيف يتكبّر على مثله، ولمّا دخل عبد المطّلب على بعض الملوك أرى منه الملك منظرًا حسنًا، وخبر من سيادته وحسبه من قريش مخبرًا شريفًا ومنطقًا لسنًا، فأجلّه الملك وأكرمه، وكره أن يُجلِسه على الأرض، ويجلس هو على السرير، وكره أيضًا أن يُجلِسه معه على السرير فيشاركه في سرير الملك ومجلس العلوّ، فنزل الملك عن سريره وجلس مع عبد المطّلب على الأرض وقضى له حاجته التي طلب وبجله، وخصّه بمرتبة عالية على المراتب، فعلى هذا يكون المتحابون في الله تعالى أفضل من سائر المذكورين في هذه الحكاية، وقد تقدّم حديث الترمذي الصحيح، قال الله عزّ وجلّ: «المتحابون في الله لهم منابر من نور يغبطهم النبيّون والشهداء»[3] والحديث الصحيح في الموطأ «يقول الله عزّ وجلّ: وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ والمتباذلين فيّ»[1] فقد ظهر من هذين الحديثين ما يؤيد المنام المذكور أنهم أصحاب المراتب، وناهيك بها من مراتب، وأكرم بها من مناصب احتوت على شرف جلّ قدره، وعظم فخره، مع ما لهم من العيش الأهنى والجمال الأسنى والنعيم المقيم في جوار المولى الكريم، زادهم الله من نِعَمه، وتكرّم علينا وعليهم بكرمه، والمسلمين آمين. وأما ذكر السّرر في المنام المذكور، وذكر منابر النور في الحديث الصحيح المشهور، فليس بينهما تناقض ولا قادح محذور؛ فالمنابر تكون في القيامة، والسّرر تكون في القبور كما رأى في المنام المذكور، وكما هو في الحكايات الآتيات مسطور.

(الحكاية الثانية والستون بعد المئة): روينا عن بعض مَن يحفر القبور من الثقات رحمه الله أنه حفر قبرًا في بعض البلاد، فأشرف فيه على إنسان جالس على سرير وبيده مصحف يقرأ فيه، وربما قال: وتحته نهر يجري، فغشي عليه وأخرجوه من القبر ولم يعلموا ما أصابه، ثم أفاق في اليوم الثاني، أو في قال في الثالث، فأخبرهم بما رأى، فسأله بعض الناس أن يدلّه على ذلك القبر، فعزم على ذلك، فلما كان في الليل رأى

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام ١/٢٧٦ ـ ٢٧٧؛ وابن سعد ٧/٦٦؛ وابن خلكان ١/٢٣٠؛ وتهذيب ابن عساكر ٧/١٠.

(٢) العَذِرة: الغائط.

(٣) سبق تخريجهما.

Marfat.com

صاحب القبر في النوم وهو يقول: أقسم بالله عليك لئن دللت أحدًا على قبري ليصيبنّك كذا وكذا، فاستيقظ وتاب مما نوى، وعَمِيَ عليهم القبر، فلم يعلموا أين هو، رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الثالثة والستون بعد المئة: عن منصور بن عمّار رضي الله عنه) قال: رأيت في بعض الأيام شابًا يصلّي صلاة الخائفين، فقلت في نفسي: لعلّ هذا الشاب وليّ من أولياء الله، فوقفت حتى فرغ من صلاته، ثم سلّمت عليه، فردَّ عليّ السلام فقلت له: ألم تعلم أن في جهنم واديًا يقال له ﴿لظى نزّاعة للشوى تدعو مَن أدبر وتولى وجمع فأوعى﴾ [المعارج: ١٦] فشهق الشاب شهقة فخرّ مغشيًا عليه؛ فلما أفاق قال: زدني، فقلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غِلاظ شِداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [التحريم: ٦] قال: فخرّ ميتًا، فكشفت عنه ثيابه، فإذا على صدره مكتوب: أي بقلم القدرة ﴿فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية﴾ [الحاقة: ٢١] قال: فلما كان في الليلة الثالثة رأيته في المنام جالسًا على سرير وعلى رأسه تاج، فقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ قال: غفر لي وأعطاني مثل ثواب أهل بدر وزادني، فقلت له: بِمَ زادك؟ قال: لأنهم قتلوا بسيف الكفّار، وأنا قتلت بكلام الملك الجبار.

(الحكاية الرابعة والستون بعد المئة): قال المؤلف عامله الله بلطفه ورحمته في دنياه وآخرته: رأيت في النوم كأن قبرًا مفتوحًا فدخلت فيه، فإذا هو واسع، ولا أرى فيه أحدًا إلا أرجل سرير، فرفعت طرفي فإذا السرير عالٍ وعليه شخص نائم، فقلت: ما أقبح فِعال بني الدنيا ما يتركون الرعونة والترفّه حتى بعد الموت يدخلون في القبور السّرر للموتى، فإذا بصاحب السرير يناديني إليه، فلم أقدر أصعد لكون السرير عاليًا علوًا مُفرِطًا، ثم إنه سهّل لي طريق من جانب القبر، فصعدت فيه كما يصعد الدرج، حتى حاذيت النائم على السرير، فإذا هي والدتي رحمها الله تعالى وجزاها عنّي أفضل الجزاء، فسلّمت عليّ سلامًا بغاية الشفقة البالغة والرحمة والرأفة الكاملة، وسألتني عن أخ لي كان حيًا، وأما إخوتي الذين خلفتهم ثم ماتوا قبل المنام المذكور، فلم تسألني عنهم. وهذا يؤيد ما رُوِيَ أن الموتى يعلمون بمَن مات من الأحياء، ويسألون مَن قَدِمَ عليهم من الموتى عن أحوال أهل الدنيا، ثم إنها ودّعتني بعد السلام والسؤال المذكورين، فانتبهت ووجدت الشجن بذلك السلام وتلك الشفقة مدة طويلة، حتى إذا ذكرت ذلك وجدت تأثيره في قلبي بعد سنين.

(الحكاية الخامسة والستون بعد المئة) قال المؤلف أحسن الله خاتمته: رؤية الموتى في خير أو شرّ نوع من الكشف، يُظهِر الله للأحياء حال الموتى لتبشير أو موعظة أو

لمصلحة للميت من إيصال خير إليه، أو قضاء دَين عليه أو غير ذلك، ثم هذه الرؤية قد تكون في النوم وهو الغالب، وقد تكون في اليقظة، وذلك من كرامات الأولياء الذين هم أصحاب أحوال ومقامات عوال، ينظرون إلى الموتى في اليقظة وقت ما يريد الله لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك حكايات صحيحات يطول ذكرها. من ذلك ما قدّمناه عن الشيخ نجم الدين الأصفهاني رضي الله عنه، أنه سمع الميت يقول: ألا تعجبون من ميت يلقّن حيًا، لمّا قعد الملقّن يلقّنه كما مضى. ومنها: ما أخبرني به بعض الصالحين عن الشيخ العارف بالله بحر المعارف ذي الكرامات العظيمة والمناقب الكريمة، الفقيه الإمام رفيع المقام أبي الذبيح إسماعيل بن محمد اليمني المشهور بالحضرمي، رضي الله عنه ونفعنا به، أنه مرّ على بعض المقابر في بلاد اليمن، فبكى بكاءً شديدًا وعلاه حزن وترح، ثم ضحك ضحكًا حميدًا وعلاه في الحال سرور وفرح، فتعجب الناس الحاضرون هنالك، وسألوه عن ذلك، فقال رضي الله عنه: كشف لي عن أهل هذه المقبرة، فرأيتهم يعذّبون، فحزنت وبكيت لذلك، ثم تضرّعت إلى الله سبحانه وتعالى فيهم، فقيل لي: قد شفّعناك فيهم، فقالت صاحبة هذا القبر: وأنا معهم يا فقيه إسماعيل أنا فلانة المغنية، فضحكت وقلت: وأنت معهم، ثم إنه أرسل إلى الحفّار وقال: مَن في هذا القبر القريب العهد؟ فقال: فلانة المغنية التي تشفع لها الشيخ، نفع الله تعالى بها.

(الحكاية السادسة والستون بعد المئة) قال المؤلف غفر الله له: أخبرني الثقات أن الشيخين الكبيرين العارفين بالله الشهيرين، كبيري شيوخ اليمن، المقدّمين في وقتهما على شيوخ الزمان: الشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي، والشيخ أبي الغيث بن جميل، قدّس الله روحهما، ونوّر ضريحهما، وأعاد علينا من بركاتهما، جاءهما بعض الفقراء للصحبة بعد موتهما، فخرج الشيخ محمد من قبره وصحب الذي أتاه، وأخذ عليه العهد والشروط في كلام يطول شرحه؛ وأخرج الشيخ أبو الغيث يده من القبر وصحب الذي أتاه، وفي الحكاية كلام يطول، رضي الله عنهم ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية السابعة والستون بعد المئة) قال المؤلف غفر الله له: أخبرني بعض أهل العلم عن الفقيه الإمام محبّ الدين الطبري[1] رحمة الله عليه أنه كان مع الشيخ العارف بالله الفقيه الإمام إسماعيل بن محمد الحضرمي المذكور أوّلاً في مقبرة زبيد، قال

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري (٦١٥ ـ ٦٩٤ هـ = ١٢١٨ ـ ١٢٩٥ م) أبو العباس، محبّ الدين، حافظ فقيه شافعي متفنّن، من أهل مكة مولدًا ووفاة، وكان شيخ الحرم فيها. له تصانيف منها «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» و«القرى لقاصد أم القرى» و«الأحكام» وغير ذلك. الأعلام ١/ ١٥٩؛ والنجوم الزاهرة ٨/ ٧٤؛ وشذرات ٥/ ٤٢٥؛ وطبقات الشافعية ٥/ ٨.

Marfat.com

المحبّ: فقال لي: يا محبّ الدين أتؤمن بكلام الموتى؟ قلت: نعم، قال: فإن صاحب هذا القبر يقول لي: أنا من حشو الجنة. وقال المؤلف: وحكاياتهم في هذا المقام تطول في اليقظة والمنام، ومن المنامات ما رأيت في ذلك، أن بعض شيوخي وكان من العلماء الصالحين توفي، فرأيته في النوم وهو لابس في ساقيه خلخالين، نصف كل واحد منهما ذهب والنصف الآخر فضة في جهة الطول وليس بينهما لحمة ولا انفصال أصلاً، أعني الذهب والفضة، وهما يحيّران العقل بحُسنهما، وهو يتبختر في مشيته، فانتبهت وكأني إلى الآن لم أجد حلاوة حُسْن الخلخالين اللذين صاغتهما يد القدرة. وسألت بعض الصوّاغ هل يمكن الصيغة على الصفة المذكورة؟ قال: ما نقدر ولا يمكن ذلك، ولا بدّ أن يبقى بينهما فصل ظاهر، فعلمت أنه لا يقدر مخلوق على صنعة الخالق القادر سبحانه وتعالى.

(الحكاية الثامنة والستون بعد المئة) قال المؤلف كان الله له، وبلغه من الخير أمله، وختم بالصالحات عمله: رأيت والدي رحمه الله وغفر له وجزاه عني أفضل الجزاء بعد موته في المنام، وكأنه عتبان عليّ لكونه مات وأنا غائب عنه غيبة بعيدة المكان، طويلة الزمان، فقلت له: أما علمت أن يعقوب عليه السلام غاب عنه ابنه دهرًا طويلاً، وقلت كذا وكذا سنة، وهو صابر، فقال: يا ولدي وتشبّهنا بالأنبياء، أو قال: صبرنا كصبر الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام؟ ثم رأيته بعد ذلك في أوّل ليلة من رجب وهي ليلة الجمعة بعد أن قرأت على قبره القرآن الكريم، فبشّرني وسُرَّ بلقائي وقال: الحمد لله الذي منَّ عليَّ بثلاث خِصال: الأولى: الاجتماع بك، ثم انتبهت قبل أن يذكر لي الخصلتين الأُخريين، عامله الله بلطفه وعفوه وحلمه ومغفرته وفضله وكرمه وإيّانا وجميع المسلمين آمين. قلت: مذهب أهل السُنّة أن أرواح الموتى ترجع في بعض الأوقات من علّيين أو سجّين[1] إلى أجسادهم في قبورهم عندما يريد الله تعالى، وخصوصًا في ليلة الجمعة ويومها، ويجلسون ويتحدثون، وينعم أهل النعيم، ويعذّب أهل العذاب، وتختصّ الأرواح دون الأجساد بالنعيم ما كان منها في علّيّين وفي العذاب ما كان منها في سجّين، وفي القبر يشترك الروح والجسد في النعيم والعذاب عندما تعود الروح إلى الجسد، إلا ليلة الجمعة ويومها، فإنه بلغنا أنهم لا يعذّبون فيها رحمة من الله وشرفًا للوقت. قلت: ويحتمل أن يكون رفع العذاب في هذا الوقت المذكور عن عُصاة المسلمين دون الكفّار لأمرين: أحدهما أن الكافر مخلّد في العذاب دون المسلم. والثاني أن المسلم كان يعتقد فضل الجمعة وبركتها دون الكافر والله أعلم. وقد تظاهرت أدلّة الشرع من الأخبار والآثار

(١) السِّجّين: وادٍ في جهنم.

Marfat.com

الصحيحة الشهيرة على النعيم والعذاب في القبور ونعيم الأرواح التي في علّيين، وعذاب الأرواح التي في سجّين على حسب السعادة والشقاوة، وكل هذا لا يحيله العقل، ويطول ذكر ما صحّ فيه من النقل وأدلتنا من المنقول والمعقول موضع ذكرها كتب الأصول، ففي ميدانها اتّساع في العرض والطول تجول فيه خيل الاحتجاج السوابق وتصول، وتضرب بالبيض المواضي والقنا، ويطعن شواجر بالنصول، فهنالك جيش السُّنَّة غالب مؤيد، وجيش البدع مغلوب مخذول، نسأل الله الكريم التوفيق والهدى، ونعوذ به من الخذلان والرّدى، ثم هذا الذي ذكرت من النعيم والعذاب للأرواح والأجساد، أو للأرواح خاصة إنما هو في البرزخ؛ أما بعد البعث، فإن الروح والجسد معًا يشتركان في العذاب أو النعيم بإجماع المسلمين خلافًا للفلاسفة الكفّار الذين قالوا: تُبعَث الأرواح دون الأجساد وهم الصابئون[1]، وأشدّ منهم كفرًا الفلاسفة الطبيعيون الذين أنكروا بعث الأجساد والأرواح معًا، وأشدّ كفرًا من القسمين المذكورين. القسم الثالث من الفلاسفة وهم الدهريون الذين أنكروا بعث الأرواح والأجساد، وأنكروا الصانع جلّ وعزّ عن قولهم وجهلهم وكفرهم علوًّا كبيرًا، وتبارك وتقدّس في ذاته وصفاته عن كلّ نقص، كبيرًا كان أو صغيرًا، وخصّنا بالمخصوص بالمقام المحمود، واللواء المعقود، سيد الأصفياء وخاتم الأنبياء بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسِراجًا مُنيرًا، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

(الحكاية التاسعة والستون بعد المئة): حُكِيَ عن الشيخ أبي عليّ الروذباري[2] رضي الله تعالى عنه أنه ورد عليه جماعة من الفقراء، فاعتلّ واحد منهم، وبقي في علّته أيامًا، فملّ أصحابه من خدمته، وشكوا ذلك إلى الشيخ أبي عليّ ذات يوم، فخالف الشيخ على نفسه وحلف أن لا يتولى خدمته غيره، فتولّى خدمته بنفسه أيامًا ثم مات الفقير، فغسله بيده وكفّنه وصلّى عليه ودفنه؛ فلما أراد أن يفتح رأس كفنه عند إضجاعه في القبر رآه وعيناه مفتوحتان إليه، وقال له: يا أبا عليّ لأنصرنك بجاهي يوم القيامة، كما نصرتني في مخالفتك نفسك.

(الحكاية السبعون بعد المئة: عن الشيخ أبي سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه) قال: كنت بمكة، فجُزت يومًا بباب بني شيبة، فرأيت شابًا حَسَن الوجه ميتًا، فنظرت في

---

(١) الصّابئون: قوم يعبدون الكواكب أو مَن يتركون دينهم ويدينون بدين آخر، والصابئة بلغة أهل العراق يُعرَفون باسم (الصُّبَّة) مُحَرَّفة عن الصُّبَّا.

(٢) هو أبو علي أحمد بن محمد الروذباري (توفي ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ م) بغدادي أقام بمصر ومات فيها صحب الجنيد والنوري وابن الجلاء والطبقة، وكان أعلم المشايخ في الطريقة. (الرسالة القشيرية ص ٤١٦).

Marfat.com

وجهه فتبسّم في وجهي، وقال لي: يا أبا سعيد، أما علمت أن الأحباب أحياء وإن ماتوا، وإنما ينقلون من دار إلى دار. وقال أبو يعقوب السنوسي رضي الله تعالى عنه: جاءني مُريد بمكة وقال: يا أستاذ أنا غدًا أموت وقت الظهر، فخذ هذا الدينار فاحفر لي بنصفه وكفّني بنصفه؛ فلما كان وقت الظهر جاء فطاف، ثم تباعد ومات، فغسلته ووضعته في اللحد، ففتح عينيه، فقلت له: أحياة بعد الموت؟ فقال: أنا حيّ، وكلّ مُحبّ لله حيّ، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الحادية والسبعون بعد المئة: عن بعضهم) قال: غسلت ميتًا مريدًا، فأمسك إبهامي وهو على المغتسل، فقلت: يا بنيّ خلّ يدي فأنا أدري أنك لست بميت، وإنما هي نقلة من مكان إلى مكان، فخلّى عن يدي. قلت: وبلغني أن بعض الموتى قصّ غاسله أظفاره، فخاف عليه في بعض الأظفار، فجذب الميت أصبعه، أخبرني الغاسل بذلك، وبأنه رآه يتبسّم ويُضيء وجهه، والغاسل المذكور امرأة والميت امرأة، وكلتاهما من الصالحات إن شاء الله تعالى. وقال الشيخ ابن الجلاء رضي الله تعالى عنه: لما مات أبي ضحك على المغتسل، فلم يجسر أحد يغسله وقالوا: إنه حيّ حتى جاء رجل من أقرانه فغسله رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

(الحكاية الثانية والسبعون بعد المئة: عن بعضهم) قال: كنّا في مركب، فمات رجل عليل كان فيه، فأخذنا في جهازه وأردنا إلقاءه في البحر، فرأيت البحر قد انشقّ نصفين، ونزلت السفينة إلى الأرض، فخرجنا وحفرنا له قبرًا ودفنّاه؛ فلما فرغنا، استوى الماء، وارتفعت السفينة وسرنا. وقيل: مات فقير في بيت مظلم، فلما أرادوا غسله تكلّفوا في طلب السراج، فسطع لهم من كوّة البيت نور أضاء البيت فغسلوه، فلما فرغوا ذهب الضوء كأن لم يكن.

(الحكاية الثالثة والسبعون بعد المئة: عن بعضهم) قال: رأيت أبا تراب النخشبي رضي الله تعالى عنه ميتًا في البادية قائمًا مستقبلاً للقبلة لا يمسكه شيء، فأردت أن أحمله وأواريه في التراب فما قدرت على رفعه، وسمعت هاتفًا يقول: دع وليّ الله مع الله. ورُوِيَ أنه لما حضرت وفاة الشيخ أبي عليّ الروذباري رضي الله تعالى عنه فتح عينيه وقال: هذه أبواب السماء قد فتحت، وهذه الجنان قد زُيِّنَت، وهذا قائل يقول لي: يا أبا عليّ قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تردها، وأنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواكا ... بعين مودّة حتى أراكا
ولا استحسنت في نظري جمالاً ... ولا أحببت حبًّا غير ذاكا
ولا استلذذت في الدنيا لذيذًا ... ولا لي بغية إلا رضاكا
فمُنَّ بنظرة فضلاً ومنًّا ... وبلّغنا المنى حتى أراكا

Marfat.com

(**الحكاية الرابعة والسبعون بعد المئة: عن بعضهم**) قال: لمّا مات ابن الجلاء رضي الله تعالى عنه، نظروا إليه فإذا هو يضحك، فقال الطبيب: إنه حيّ، ثم جسّه[1] فقال: إنه ميت، ثم كشف عن وجهه فقال: لا أدري أهو حيّ أو ميت. وقيل: إن عبد الله بن المبارك فتح عينيه عند الوفاة، ثم ضحك فقال: لمثل هذا فليعمل العاملون، رضي الله تعالى عنه. وقال الشيخ أبو محمد الجريري رضي الله تعالى عنه: كنت عند الجنيد رضي الله تعالى عنه في حال نزعه وكان يوم جمعة، وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت له: أفي هذا الحال يا أبا القاسم؟ قال: ومَن أولى بذلك مني، وهو ذا تُطوى صحيفتي.

(**الحكاية الخامسة والسبعون بعد المئة: عن محمد بن حامد رضي الله تعالى عنه**) قال: كنت جالسًا عند الإمام أحمد بن خضرويه[2] رضي الله تعالى عنه وهو في النزع، وقد أتى عليه خمس وتسعون سنة، فسأله بعض أصحابه عن مسألة، فدمعت عيناه وقال: يا بنيّ باب كنت أدقّه خمسًا وتسعن سنة، هو ذا يفتح لي الساعة، لا أدري أيفتح بالسعادة أم بالشقاوة، وآن لي أوان الجواب، وكان عليه سبع مئة دينار وحضر غرماؤه، فنظر إليهم وقال: اللّهمّ إنك جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال، وأنت تأخذ عليهم وثيقتهم، وقد قلت ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠] فاقضِ دَيني وأرضِ عني خصومي، إنك على كل شيء قدير، فدقّ الباب داقّ وقال: أين غرماء أحمد؟ فخرجوا، فقضى عنه دَينه، ثم خرجت روحه، رضي الله تعالى عنه.

(**الحكاية السادسة والسبعون بعد المئة: عن بعضهم**) قال: إنَّ رجلاً قال للشبلي رضي الله تعالى عنه: لِمَ تقول الله، ولا تقول لا إلـه إلا الله؟ فقال: لا أبغي به بدلاً، فقال: يا أبا بكر أُريد أعلى من هذا، فقال: أخشى أن أُوخذ في وحشة الحجاب، فقال: أريد أعلى من ذلك، فقال: قال الله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ [الأنعام: ٩١]، فزعق الرجل فخرجت روحه، فتعلق أولياء الميت بالشبلي، وادّعوا عليه طلب ثأره، فحمل إلى مجلس الخليفة، فخرجت الرسالة إليه، فسأله عن دعواهم عليه، فقال الشبلي: روح حنّت فرنت، ودُعِيَت فأجابت، وسمعت فأنابت، فما ذنبي أنا؟ فصاح الخليفة وقال: خلّوه فلا ذنب له.

---

(١) جسّ الشيء: لمسه ومسّه بيده ليتعرّفه.

(٢) هو أبو حامد، أحمد بن خضرويه البلخي (توفي ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م) من كبار مشايخ خراسان، وكان كبيرًا في الفتوة، صحب أبا تراب النخشبي، قَدِمَ نيسابور وزار أبا حفص، وخرج إلى بسطام في زيارة أبي يزيد البسطامي، وكان أبو يزيد يقول عنه: أستاذنا أحمد. (الرسالة القشيرية ص ٤١٠).

Marfat.com

(الحكاية السابعة والسبعون بعد المئة: عن الشيخ أبي الحسن المزني رضي الله تعالى عنه) أنه قال لبعضهم في النزع: قل لا إله إلا الله، فتبسّم وقال: إياي تعني، وعزّة مَن لا يذوق الموت ما بيني وبينه إلا حجاب العزّة، وانطفأ من ساعته. وكان المزني يأخذ بلحيته ويقول: حجّام مثلي يلقّن أولياء الله الشهادة، واخجلتاه منه، وكان يبكي إذا ذكر هذه الحكاية. وقيل للأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقًا. وقال الشيخ أبو محمد رويم[(١)] رضي الله تعالى عنه: حضرت وفاة أبي سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه وهو يقول:

حنين قلوب العارفين إلى الذِّكر ... وتذكارهم عند المناجاة للسرِّ
أُديرت كؤوس المنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي السكرِ
همومهم جوّالة بمعسكر ... به أهل ودّ الله كالأنجم الزّهرِ
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري
وما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرّجوا عن مسّ بوس ولا ضرّ

رضي الله تعالى عنه وعنهم، ونفعنا بهم أجمعين والمسلمين آمين.

(الحكاية الثامنة والسبعون بعد المئة: عن خلف بن سالم رحمه الله تعالى) قال: قلت لأبي عليّ بن المغيرة: أين مأواك؟ قال: في دار يستوي فيها العزيز والذليل، قلت: وأين هذه الدار؟ قال: المقابر، قلت: أما تستوحش من ظلمة الليل؟ قال: إني أذكر ظلمة اللحد ووحشته فتهوّن عليّ ظلمة الليل، قلت له: فربما رأيت في المقابر شيئًا تنكره، قال: ربما، ولكن في هول الآخرة ما يشغل عن هول المقابر. وأنشدوا ما وجدوا مكتوبًا على بعض القبور:

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه ... لقاؤك لا يُرجى وأنت قريب
تزيد بلى في كلّ يوم وليلة ... وتبلى كما تبلى وأنت حبيب

(الحكاية التاسعة والسبعون بعد المئة: عن الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه) قال: سمعت إمام الحرمين رضي الله تعالى عنه يحكي عن الأستاذ أبي بكر، يعني الإمام ابن فورك[(٢)] رضي الله تعالى عنه قال: كان لي صاحب أيام التعلّم،

---

(١) هو رويم بن أحمد بن يزيد بن رويم (توفي ٣٣٠ هـ = ٩٤١ م) صوفي شهير، من جلّة مشايخ بغداد. من كلامه: «الصبر ترك الشكوى، والرضى استلذاذ البلوى». الأعلام ٣/٣٧؛ وطبقات الصوفية ص ١٨٠؛ والرسالة القشيرية ص ٣٩٠.

(٢) هو محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري (توفي ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م) الأصبهاني، أبو بكر، واعظ=

Marfat.com

وكان مبتدئًا كثير الجهد في التعلّم تقيًا متعبّدًا، وكان لا يحصل له مع الاجتهاد إلا القليل، فكنّا نتعجب من حاله، فمرض فلزم مكانه بين الأولياء في الرباط ولم يدخل بيت المرضى، وكان يجتهد مع مرضه، فاشتدّ به الحال وأنا بجانبه، فبينما هو كذلك، إذ شَخَصَ ببصره إلى السماء، ثم قال: يا ابن فورك: لمثل هذا فليعمل العاملون، فتوفي عند ذلك رحمه الله تعالى.

(**الحكاية الثمانون بعد المئة: عن مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه**) قال: إنه دخل على جار له احتضر فقال: يا مالك جبلان من النار بين يديّ أُكَلَّف الصّعود عليهما، قال مالك: فسألت أهله ما كان فعله؟ فقالوا: كان له مكيالان، يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فدعوت بهما فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما، ثم سألت الرجل، فقال: ما يزداد الأمر إلا شدة. ورُوِيَ عن بعضهم أنه قال لبعض الناس وهو في النزع وكان يعامل الناس بالميزان: قل لا إله إلا الله، فقال: ما أقدر أقولها، لسان الميزان على لساني يمنعني من النطق بها، قال: فقلت له: أما كنت تُوَفّي الوزن؟ قال: بلى، ولكن ربما يقع في الميزان شيء من الغبار ولا أشعر به.

(**الحكاية الحادية والثمانون بعد المئة: عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه**) قال: لمّا مات أحمد بن حنبل رأيته في النوم وهو يمشي ويتبختر في مشيته، فقلت له: يا أخي أيّ مشية هذه؟ قال: هذه مشية الخدّام في دار السلام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وألبسني نعلين من ذهب وقال لي: هذا جزاء قولك: القرآن كلام الله مُنَزَّل غير مخلوق وقال: يا أحمد قم حيث شئت، فدخلت الجنة فإذا بسفيان الثوري رضي الله تعالى عنه له جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة، وهو يقرأ هذه الآية ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء فنِعْمَ أجْر العاملين﴾ [الزمر: ٧٤] فقلت له: إيش خبر عبد الواحد الورّاق رضي الله تعالى عنه؟ فقال: تركته في بحر من النور في مركب من النور يُزار به الملك الغفور، فقلت: ما فعل الله ببشر بن الحارث؟ قال: بخ بخ، ومَن مثل بشر، تركته بين يدي الملك الجليل، والملك الجليل سبحانه مُقبِل عليه، وهو يقول: كُلْ يا مَن لم يأكل، واشرب يا مَن لم يشرب، وانعَم يا مَن لم ينعم. وقال بعضهم: رأيت معروفًا الكرخي رضي الله تعالى عنه في النوم كأنه تحت العرش،

= عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية، سمع بالبصرة وبغداد، وحدّث بنيسابور وبنى فيها مدرسة، وتوفي على مقربة منها، فنقل إليها. من كتبه «مشكل الحديث وغريبه» و«الحدود» و«التفسير» و«غريب القرآن» وغير ذلك. الأعلام ٦/ ٨٣؛ والسبكي في الطبقات الكبرى ٣/ ٥٢ ـ ٥٦؛ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٠؛ والرسالة القشيرية ص ٩.

Marfat.com

والحقّ عزّ وجلّ يقول لملائكته: مَن هذا؟ فقالوا: أنت أعلم به يا ربّ، فقال: هذا معروف الكرخي، سكر من حبي فلا يفيق إلا بلقائي. وقال الربيع بن سليمان رحمه الله تعالى: رأيت الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه بعد وفاته في المنام، فقلت له: يا أبا عبد الله ما فعل الله بك؟ قال: أجلسني على كرسي من ذهب، ونثر عليّ اللؤلؤ الرطب. وقال بعض الأخيار: رأيت الشيخ أبا إسحٰق إبراهيم بن عليّ بن يوسف الشيرازي[1] رضي الله تعالى عنه في المنام بعد وفاته، وعليه ثياب بيض وعلى رأسه تاج، فقلت له: ما هذا البياض؟ فقال: شرف الطاعة، قلت: والتاج؟ قال: عزّ العلم. وقال الشيخ العارف أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: رأيت النبي ﷺ في النوم فقال لي: باهى الله موسى وعيسى ﷺ بالإمام الغزالي رضي الله عنه وقال: أفي أمّتكما خبر كهذا؟ قالا: لا، رضي الله تعالى عنه وعن جميع الأولياء والعلماء ونفع بهم أجمعين آمين.

(الحكاية الثانية والثمانون بعد المئة: عن بلال الخوّاص رضي الله تعالى عنه) قال: كنت في تيه بني إسرائيل، وإذا برجل يُماشيني، فتعجبت منه، ثم أُلهِمتُ أنه الخضر رضوان الله تعالى عليه، فقلت له: بحقّ الحقّ مَن أنت؟ قال: أخوك الخضر، فقلت له: أُريد أن أسألك، فقال: سَلْ، فقلت: ما تقول في الشافعي؟ فقال: هو من الأوتاد، فقلت: ما تقول في أحمد بن حنبل؟ فقال: رجل صدّيق، فقلت: ما تقول في بشر بن الحارث؟ فقال: لم يخلف بعده مثله، فقلت: بأيّ وسيلة رأيتك؟ قال: ببرّك لأمك.

(الحكاية الثالثة والثمانون بعد المئة: عن بعضهم): أنه رأى بشر بن الحارث في النوم بعد وفاته، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وأباح لي نصف الجنة وقال: كُل يا مَن لم يأكل، واشرب يا مَن لم يشرب، وقال لي: يا بشر لو سجدت على الجمر ما أدّيت شكر ما جعلته لك في قلوب عبادي. وفي رواية أخرى أنه قال: لقد قبضتك يوم قبضتك وليس على وجه الأرض أحد أحبّ إليّ منك. قلت: وهذا يؤيد قول الخضر رضي الله تعالى عنه: لم يخلف بعده مثله.

---

(١) هو إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي الشيرازي (٣٩٣ ـ ٤٧٦ هـ = ١٠٠٣ ـ ١٠٨٣ م) أبو إسحٰق العلاّمة المناظر. ولد في فيروزاباد وانتقل إلى شيراز فقرأ على علمائها، وانصرف إلى البصرة ومنها إلى بغداد فأتمّ ما بدأ به من الدرس والبحث، وظهر نبوغه في علوم الشريعة الإسلامية، وبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية على شاطىء دجلة. له تصانيف كثيرة منها «التنبيه» و«المهذب» و«التبصرة» و«طبقات الفقهاء» و«اللمع» وغير ذلك. الأعلام ١/ ٥١؛ وطبقات السبكي ٣/ ٨٨؛ ووفيات الأعيان ١/ ٤؛ واللباب ٢/ ٢٣٢.

(الحكاية الرابعة والثمانون بعد المئة: عن بعض الصالحين) قال: كان لي ابن استشهد فلم أره في المنام إلا ليلة توفي عمر بن عبد العزيز[1] رضي الله تعالى عنه تراءى لي تلك الليلة، فقلت: يا بنيّ ألم تكُ ميتًا، فقال: لا ولكنني استشهدت وأنا حيّ عند الله أُرزَق، فقلت له: ما جاء بك؟ فقال: نودي في أهل السماء: ألا لا يبقى نبيّ ولا صدّيق ولا شهيد إلا ويحضر الصلاة على عمر بن عبد العزيز، فجئت لاشهد الصلاة، ثم جئتكم لأسلّم عليكم.

(الحكاية الخامسة والثمانون بعد المئة: عن بعض الصالحين) أنه رأى الإمام سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه في النوم بعد موته، فقال: كيف حالك يا أبا عبد الله؟ قال: فأعرض عني، قال: ليس هذا زمان الكِنى، فقلت: كيف حالك يا أبا سفيان؟ فأنشد:

نظرت إلى ربي عيانًا فقال لي ... هنيئًا رضائي عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قوّامًا إذا أظلم الدجا ... بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أيّ قصر أردته ... وزرني فإني عنك غير بعيد

(الحكاية السادسة والثمانون بعد المئة): حُكِيَ أنه لمّا مات سهل بن عبد الله التستري رضي الله تعالى عنه، أكبّ الناس على جنازته، وكان في البلد رجل يهودي قد نيّف على السبعين سنة فسمع الضجّة، فخرج لينظر ما الخبر، فلما نظر إلى الجنازة قال: أترون ما أرى؟ قالوا: وما ترى؟ قال: أرى أقوامًا ينزلون من السماء يتبرّكون بالجنازة، ثم أسلم وحَسُنَ إسلامه رحمه الله ونفعنا بجميع الصالحين آمين.

(الحكاية السابعة والثمانون بعد المئة: عن خادمة رابعة العدوية رضي الله تعالى عنها) قالت: كانت رابعة تصلّي الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت هجعة في مصلاّها حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فَزِعة: يا نفس إلى كم تنامين، وإلى كم لا تقومين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور[2]، قالت: وكان هذا دأبها إلى أن ماتت؛ فلما حضرتها الوفاة دعتني وقالت: لا تؤذني بموتي أحدًا، وكفّنيني في جبّتي هذه، وكانت جبّة من شعر تقوم فيها إذا هدأت العيون، قالت: فكفناها بتلك الجبّة وفي خمار صوف كانت تلبسه، قالت: فرأيتها في المنام عليها حلّة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر، لم أرَ شيئًا قط أحسن منهما، قلت: يا رابعة ما فعلت في الجبّة التي كفّنّاك بها، والخمار الصوف؟

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٥/ ٥٠؛ وفي فوات الوفيات ٢/ ١٠٥؛ وتهذيب التهذيب ٧/ ٤٧٥؛ وحلية ٥/ ٢٥٣ - ٣٥٣.

(٢) يوم النشور: يوم القيامة.

قالت: إنه والله نُزِعَ عني وأُبدِلْتُ به هذا الذي ترينه، وطويت أكفاني وختم عليها، ورفعت في علّيين ليكون لي ثوابها يوم القيامة، فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟ فقالت: وما هذا عندما رأيت مما أعدّ الله من كرامات الله عزّ وجلّ لأوليائه، قلت: فمُريني بأمر أتقرّب به إلى الله تعالى، فقالت: عليك بكثرة ذِكرِه، فإنه يوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك.

(الحكاية الثامنة والثمانون بعد المئة): رُوِيَ عن أحمد بن أبي الحواري رضي الله تعالى عنه قال: كان لرابعة أحوال شتّى، يعني زوجته رابعة الشامية، قال: فمرّة يغلب عليها الحبّ ومرّة يغلب عليها الأنس، ومرّة يغلب عليها الخوف، فسمعتها في حال الحبّ تقول:

حبيب ليس يعدله حبيب ... وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصري وشخصي ... ولكن عن فؤادي ما يغيب

وسمعتها في حال الأنس تقول:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدّثي ... وأبحتُ جسمي مَن أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانسي ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وسمعتها في حال الخوف تقول:

وزادي قليل ما أراه مبلغي ... للزاد أبكي أم لطول مسافتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي فيك أين مخافتي

قال: وقلت لها وقد قامت بليل: ما رأينا مَن يقوم الليل كله غيرك، فقالت: سبحان الله مثلك يتكلم بهذا، إنما أقوم إذا نوديت، قال: فجلست آكل في وقت قيامها، فجعلت تذكرني، فقلت لها: دعينا نتهنى بطعامنا، فقالت: ليس أنا وأنت ممّن يتنغص عليه الطعام عند ذِكر الآخرة، وقالت لي: لست أحبك حبّ الأزواج، إنما أحبّك حبّ الإخوان، وكانت إذا طبخت قدرًا قالت: كلها يا سيدي فما نضجت إلا بالتسبيح، قال: وقالت لي: اذهب فتزوّج، فتزوّجت ثلاثًا، وكانت تطعمني اللحم وتقول: اذهب بقوّتك إلى أهلك، وقالت: ربما رأيت الجنّ يذهبون ويجيئون، وربما رأيت الحور العين رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها. قلت: الظاهر والله أعلم أن هذه الرؤية المذكورة كانت في اليقظة، فأما رؤية المنام فلغير الأولياء، وهذه رابعة الشامية زوجة ابن أبي الحواري كما ذكرناه، وليست رابعة العدوية البصرية التي تقدّمت، وبعض أهل العلم يقول: هذه الشامية رابعة بالياء المثناة المنقوطة بنقطتين من تحت، وبعضهم يقول بنقطة واحدة كرابعة البصرية، رضي الله تعالى عنهما ونفع بهما أجمعين.

Marfat.com

(الحكاية التاسعة والثمانون بعد المئة): ذُكِرَ أن شعوانة رضي الله تعالى عنها قد كبرت حتى انقطعت عن الصلاة والعبادة، فأتاها آتٍ في منامها فقال:

اذري دموعك إذ ما كنت شاجية ... إن النياحة لا تشفي الحزينينا
جدّي وقومي وصومي الدهر دائبة ... فإنما الدأب مَن فعل المطيعينا

فأخذت بالترنم والبكاء وراجعت العمل، رضي الله تعالى عنها تردّد وكانت هذا البيت فتبكي وتبكي النساء معها ثم تقول:

لقد أمِن المغرور دار مقامه ... ويوشك يومًا أن يخاف كما أمن

ورُوِيَ أنه أتاها الفُضيل بن عيّاض رضي الله تعالى عنه لمّا قَدِمَت، وسألها أن تدعو له، فقالت: يا فضيل أما بينك وبين الله تعالى سريرة، ما إن دعوته استجاب لك، فشهق الفضيل شهقة وخرّ مغشيًّا عليه، رضي الله تعالى عنهما ونفع بهما.

(الحكاية التسعون بعد المئة): رُوِيَ أن عمرة امرأة حبيب العجمي رضي الله تعالى عنهما كانت توقظه بالليل وتقول: قم يا رجل قد ذهب الليل وبين يديك طريق بعيد، وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدّامنا وبقينا نحن، قال بعض الصالحين: تزوّجت امرأة، فكانت إذا صلّت العشاء لبست ثيابها وتطيّبت وتبخّرت، ثم تأتيني فتقول: ألكَ حاجة؟ فإن قلت: نعم كانت معي، وإن قلت: لا قامت فنزعت ثيابها ثم صفّت قدميها حتى تصبح.

(الحكاية الحادية والتسعون بعد المئة): حُكِيَ أنه كان لبعض الملوك جارية يقال لها: جوهرة فأعتقها، فمرّت بأبي عبد الله الترابي رضي الله تعالى عنه وهو في كوخ له يتعبّد، فتزوّجت به وتعبّدت معه، فرأت في المنام خِيامًا مضروبة، فقالت: لمَن ضُرِبَت هذه الخيام؟ فقيل: للمتهجّدين بالقرآن، فكانت بعد لا تنام، وكانت توقظ زوجها وتقول: يا أبا عبد الله قد سارت القافلة. وأنشد بعضهم:

أراني بعيد الدار لم أقرب الحمى ... وقد نصبت للساهرين خيام
علامة طردي طول ليلي نائم ... وغيري يرى أن المنام حرام

(الحكاية الثانية والتسعون بعد المئة): حُكِيَ أن ملك كرمان خطب بنت الشيخ شاه الكرماني رضي الله تعالى عنه، فاستمهله ثلاثة أيام، ثم أقبل شاه يطوف المساجد، فرأى غلامًا يُحسِن صلاته؛ فلما فرغ قال: يا غلام ألك زوجة؟ قال: لا، فقال: فهل لك في زوجة تقرأ القرآن وتصلّي وتصوم وهي جميلة نظيفة عفيفة؟ فقال: ومَن يزوّجني؟ فقال: شاه: أنا أزوّجك، فخذ بدرهم خبزًا وبدرهم أدمًا وبدرهم طيبًا والأمر مفروغ منه، فعقد

Marfat.com

له عليها؛ فلما دخلت بيت الغلام رأت رغيفًا يابسًا على رأس جرّة، فلما رأت ذلك قالت: ما هذا؟ فقال لها: رغيف بقي من أمس فتركته لأفطر عليه؛ فلما سمعت ذلك ولّت راجعة، فقال الشاب: قد عرفت أن بنت شاه الكرماني لا تقنع لفقري ولا ترضى بي لها بعلاً، فقالت: إن بنت شاه ليس خروجها من منزلك لفقرك، بل لضعف يقينك، ولست أعجب منك، إنما أعجب من أبي كيف قال زوّجتك من شاب عفيف، كيف وصف بالعفّة مَن لا يعتمد على الله تعالى إلا مع ادّخار رغيف، فقال الشاب: أنا عن هذا معتذر، فقالت: أما العذر فأنت أعرف بشأنك، وأما أنا فلا أقيم في بيت فيه مطعوم، فإما أن أخرج أنا وإما أن تُخرِج الرغيف من البيت، فتصدّق الشاب بالرغيف رضي الله تعالى عنهما. قلت: هذا التزويج المذكور صدر من الشيخ الجليل العارف بالله شاه بن شجاع الكرماني المذكور بعد ما زهد في الملك، ودخل في طريق القوم، وقد تقدّمت حكايته قبل في ذلك، وقد حكيت هذه الحكاية في كتاب الإرشاد على غير هذا الوجه، ولكن اختلاف الحكايتين متقارب، ويليق بهذه المرأة المذكورة قول القائل:

ولو كان النساء كمَن ذكرنا ... لفضلت النساء على الرجال
فلا التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال

(الحكاية الثالثة والتسعون بعد المئة): حُكِيَ أن بعض العباد المرابطين بعسقلان قام ذات ليلة يريد التهجّد على السطح، فإذا هو بهاتف يهتف من البحر يقول: يا معشر العباد، قسمت العبادة ثلاثة أجزاء، أوّلها: قيام الليل، وثانيها: صيام النهار، وثالثها: الدعاء والتسبيح والاستغفار، وهذا خير القسمة، فخذوا منه بالحظّ الأوفر، فسقط العابد على وجهه لما دخله من الصوت رضي الله تعالى عنه. وحُكِيَ أن إبليس نعوذ بالله منه تمثّل ليحيىٰ بن زكريا عليه السلام فلوى عنه وجهه، فأوحى الله تعالى إلى يحيىٰ عليه السلام أن سله، فإنه يصدقك، فسأله عن مسائل منها أن قال له: هل قدرت عليّ قطّ؟ قال: نعم ليلة واحدة امتلأت بطنك من الطعام فنمت عن وِردك، فقال يحيىٰ: إذًا لا أشبع من طعام أبدًا، فقال إبليس نعوذ بالله منه: وإذًا لا أنصح أحدًا أبدًا. وأنشد بعضهم:

وكم من أكلة منعت أخاها ... بأكلة ساعة أكلات دهرِ
وكم من طالب يسعى لشيء ... وفيه هلاكه لو كان يدري

قلت: ذكر بعض المصنفين هذين البيتين بعد هذه الحكاية، وليس ذلك مناسبًا لحال يحيىٰ عليه السلام، وإنما يناسب أكلاً يورث تخمة(١) تحرّم أكلات بعدها، كما

---

(١) التُّخمة: الداء يصيب الإنسان من الطعام الذي يثقل على المعدة فتضعف عن هضمه، أو من امتلاء=

Marfat.com

يتفق لكثير من الناس، ولكني أقول في هذا المعنى:

وكم من أكلة حرمت كثيرًا من الخيرات في طاعات مولى
ولذات بخلوات تجلّى بها المولى وقد ناجاه ليلا

(الحكاية الرابعة والتسعون بعد المئة): حُكِيَ عن يحيىٰ بن زكريا عليه السلام أنه شبع مرة من خبز شعير، فنام عن حزبه تلك الليلة، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيىٰ هل وجدت دارًا خيرًا لك من داري، أو جِوارًا خيرًا لك من جِواري؟ وعزّتي وجلالي لو اطّلعت في الفردوس(١) اطّلاعة لذاب جسمك ولزهقت نفسك اشتياقًا إلى الفردوس، ولو اطّلعت في جهنم اطّلاعة لبكيت الصديد(٢) بعد الدموع، ولبست الحديد بعد المسوح(٣).

وأنشدوا:

اقتنع بالقليل تحيا غنيًا إن مَن يطلب الكثير فقير
إن خبز الشعير بالماء والملـ ـح لمَن يطلب النجاة كثير

(الحكاية الخامسة والتسعون بعد المئة): حُكِيَ عن الجنيد رضي الله تعالى عنه قال: كنت في مسجد الجامع مرّة، فإذا برجل قد دخل إلينا وصلّى ركعتين، ثم امتدّ ناحية من المسجد وأشار إليّ، فلما جئته قال لي: يا أبا القاسم إنه قد حان لقاء الله تعالى ولقاء الأحباب، فإذا فرغت من أمري فسيدخل عليك شاب مغنٍّ، فادفع إليه مرقعتي وعصاي وركوتي، فقلت: إلى مغنٍّ؟ وكيف يكون ذلك؟ قال: إنه قد بلغ رتبة القيام بخدمة الله تعالى في مقامي؛ قال الجنيد: فلما قضى الرجل نحبه، وفرغنا من مواراته إذا نحن بشاب مصري قد دخل علينا وسلّم وقال: أين الوديعة يا أبا القاسم؟ فقلت: وكيف ذاك؟ أخبرنا بذلك، قال: كنت في مشربة بني فلان، فهتف بي هاتف أن قم إلى الجنيد وتسلّم ما عنده وهو كيت وكيت(٤)، فإنك قد جعلت مكان فلان الفلاني من الأبدال، قال الجنيد: فدفعت إليه ذلك، فنزع ثيابه واغتسل، ولبس المرقعة، وخرج على وجهه نحو الشام رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية السادسة والتسعون بعد المئة): حُكِيَ أن شابًا من أهل الصلاح والخير أمر بمعروف ونهى عن منكر، فشقّ فيه على هارون الرشيد، فأمر به فجعل في بيت

= المعدة (ج) تخمات وتخم.

(١) الفردوس: حديقة في الجنة. (٢) الصديد: الدم المختلط بالقيح في الجرح.

(٣) المسوح: (ج) المسح: الكساء من شعر أو ثوب الراهب.

(٤) كيت وكيت: يُكنى بها عن الحديث والخبر: يقال: تكلم فلان كيت وكيت؛ أي: كذا وكذا ولا تستعملان إلا مكررتين بالعطف أو بدونه.

Marfat.com

وسدّ عليه بابه ومنافذه ليهلك فيه، فلما كان بعد خمسة أيام قال بعض الناس للرشيد: رأيت الرجل الذي أمرت بسدّ الباب عليه يتفرّج في البستان الفلاني، فأمر هارون الرشيد بإحضاره، فلما حضر قال: مَن أخرجك من البيت؟ قال: الذي أدخلني البستان، قال: ومَن أدخلك البستان؟ قال: الذي أخرجني من البيت، فقال الرشيد: هذا عجيب، فقال الشاب: وأيّ أمر ربك ليس بعجيب؟ فبكى الرشيد وأمر بالإحسان إليه، وأن يركب الفرس الخاصّ، وأن ينادي بين يديه: هذا عبد أعزّه الله أراد هارون إهانته فلم يقدر إلا على إكرامه واحترامه، رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به. وفي هذا المعنى قلت:

إذا أكرم الرحمـٰن عبدًا بعزّه ... فلن يقدر المخلوق يومًا يهينه
ومَن كان مولاه العزيز أهانه ... فلا أحد بالعزّ يومًا يعينه

(الحكاية السابعة والتسعون بعد المئة: عن بعض أهل عبادان) قال: ملح الماء عندنا نيّفًا وستين سنة، وكان عندنا رجل من أهل الساحل له فضل، ولم يكن في الصهاريج[1] شيء، وحضرت صلاة المغرب، فهبطت لأتوضأ للصلاة من النهر، وذلك في رمضان في حرّ شديد، فإذا به يقول: سيدي أرضيت عملي حتى أتمنى عليك، أرضيت طاعتي حتى أسألك، سيدي غسالة الحمام كثير لمَن عصاك، سيدي لولا أني أخاف غضبك لم أذق الماء، ثم أخذ بكفّه فشرب شرابًا مالحًا، فتعجبت من صبره على ملوحته، ثم أخذت من الموضع الذي أخذ منه فإذا هو مثل السكر، فشربت حتى رويت. قال: وأخبرني أنه رأى في المنام كأنّ رجلاً يقول له: قد فرغنا من بناء دارك لو رأيتها قرّت عيناك، وقد أمرنا بتنجيزها والفراغ منها إلى سبعة أيام، واسمها دار السرور، فأبشر بخير؛ قال: فلما كان في اليوم السابع وهو يوم الجمعة بكر للوضوء، فنزل في النهر فزلق فغرق، فأخرجناه بعد الصلاة ودفناه، فرأيته في المنام بعد ثالثة وعليه حُلل خضر، فسألته عن حاله فقال: أنزلني الكريم في دار السرور فيما أعدّ لي فيها، فقلت له: صِف لي، فقال: هيهات هيهات، يعجز الواصفون عن وصف ما فيها، فليت عيالي يعلمون أنه قد هُيّـئ لهم منازل معي فيها كلّ ما اشتهت أنفسهم، نعم وإخواني وأنت معهم إن شاء الله تعالى رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. وأنشدت ريحانة رضي الله تعالى عنها:

إلـٰهي لا تعذبني فإني ... أؤمّل أن أفوز بخير دار
وأنت مجاور الأبرار فيها ... فيا طوبى لهم في ذا الجِوار

(١) الصهاريج: (ج) الصهريج: حوض كبير يجتمع فيه الماء ويُطلق اليوم على أسطوانة ضخمة من المعدن ينقل فيها الماء أو النفط على مركبة.

(الحكاية الثامنة والتسعون بعد المئة: عن سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه)

قال: أول ما رأيت من العجائب والكرامات أني خرجت يومًا إلى موضع خالٍ، فطاب لي المقام فيه فوجدت من قلبي قُرْبًا إلى الله تعالى، وحضرت الصلاة، وأردت الوضوء، وكانت عادتي من صباي تجديد الوضوء لكل صلاة، فكأني اغتممت لفَقْد الماء، فبينما أنا كذلك، وإذا دُبٌّ يمشي على رِجليه كأنه إنسان معه جرّة خضراء قد أمسك بيديه عليها، فلما رأيته من بعيد توهّمت أنه آدميّ حتى دَنَا مني رسلّم عليّ، ووضع الجرّة بين يديّ، فجاءني اعتراض العلم، فقلت: هذه الجرّة والماء من أين هو؟ فنطق الدُّبّ وقال: يا سهل إنّا قوم من الوحوش قد انقطعنا إلى الله تعالى بعزم المحبة والتوكّل، فبينما نحن نتكلم مع أصحابنا في مسألة، إذ نودينا: ألا إن سهلاً يريد ماء ليجدّد الوضوء، فوضعت هذه الجرّة بيدي، وإذا بجنبي مَلَكَان، فدنوت منهما فصبًا فيها هذا الماء من الهواء وأنا أسمع خرير الماء. قال سهل: فغشي عليّ، فلما أفقت إذا بالجرّة موضوعة ولا علم لي بالدُّبّ أين ذهب وأنا متحسّر إذ لم أكلّمه، فتوضأت، فلما فرغت أردت أن أشرب منها، فنوديت من الوادي: يا سهل لم يأن لك شرب هذا الماء بعد، فبقيت الجرّة تضطرب وأنا أنظر إليها فلا أدري أين ذهبت.

(الحكاية التاسعة والتسعون بعد المئة: عن سهل أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال:

توضأت يوم جمعة ومضيت إلى الجامع في أيام البداية، فوجدته قد امتلأ بالناس، وهمّ الخطيب أن يرقى المنبر، فأسأت الأدب ولم أزل أتخطى رِقاب الناس حتى وصلت إلى الصفّ الأوّل فجلست، وإذا عن يميني شاب حَسَن المنظر طيب الرائحة، عليه أطمار صوف؛ فلما نظر إليّ قال: كيف تجدك يا سهل؟ قلت: بخير أصلحك الله، وبقيت متفكّرًا في معرفته لي وأنا لم أعرفه؛ فبينما أنا كذلك إذ أخذني حرقان بول فأكربني، فبقيت على وَجَل خوفًا أن أتخطّى رِقاب الناس وإن جلست لم يكن لي صلاة، فالتفت إليّ وقال: يا سهل أخذك حرقان بول؟ قلت: أجل، فنزع حرامه عن منكبه فغشاني به، ثم قال: اقضِ حاجتك وأسرع تلحق الصلاة، قال: فغمي عليّ وفتحت عيني وإذا بباب مفتوح، وسمعت قائلاً يقول لي: لُج الباب يرحمك الله، فولجت وإذا بقصر مشيّد عالي البناء شامخ الأركان، وإذا بنخلة قائمة وإلى جنبها مطهرة مملوءة ماء أحلى من الشّهد، ومنزل إراقة الماء ومنشفة معلّقة وسِواك، فحللت لباسي وأرقت الماء ثم اغتسلت وتنشفت بالمنشفة وتوضأت، فسمعته يناديني ويقول: إن كنت قد قضيت أربك فقل نعم، فقلت: فنزع الحرام عني، فإذا أنا جالس بمكاني ولم يشعر بي أحد، فبقيت متفكّرًا في نفسي وأنا مكذّب ومصدّق نفسي فيما جرى، فأقيمت الصلاة وصلّى الناس، فصلّيت معهم ولم يكن لي شغل إلا الفتى لا أعرفه؛ فلما فرغ تتبّعت أثره، فإذا به قد دخل إلى درب والتفت إليّ وقال: يا سهل كأنك ما أيقنت بما رأيت؟ قلت: كلا، قال: لُج الباب

يرحمك الله، فنظرت الباب بعينه، فولجت القصر فنظرت النخلة والمطهرة والحال بعينه، والمنشفة مبلولة، فقلت: آمنت بالله، فقال: يا سهل مَن أطاع الله تعالى أطاعه كل شيء، يا سهل اطلبه تجده، فتغرغرت عيناي بالدموع، فمسحهما وفتحهما، فلم أرَ الفتى ولا القصر، فبقيت متحسِّرًا على ما فاتني منه، ثم أخذت في العبادة رضي الله تعالى عنهما، ونفعنا بهما آمين.

(الحكاية المئتان عن بعض أصحاب سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما) قال: خدمت سهلاً ثلاثين سنة، فما رأيته يضع جنبه على الفراش لا في ليل ولا في نهار، وكان يصلي صلاة الصبح بوضوء العشاء، فهرب من الناس إلى جزيرة بين عبادان والبصرة، وإنما فرّ من الناس لأن رجلاً حجّ سنة من السنين؛ فلما رجع قال لأخ له: رأيت سهل بن عبد الله في الموقف بعَرَفَة، فقال له أخوه: نحن كنا عنده يوم التروية[1] في رباطه بباب بشر الحافي، فحلف بالطلاق إنه رآه بالموقف، فقال له أخوه: قم بنا حتى نسأله، فقاما ودخلا عليه وذكرا له ما جرى بينهما من الاختلاف في هذا الحديث، وسألاه عن حكم اليمين التي حلفها، فقال سهل رضي الله تعالى عنه: ما لكم بهذا الكلام حاجة اشتغلوا بالله تعالى، وقال للحاجّ: أمسك عليك زوجك ولا تخبر بهذا أحدًا، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به.آمين.

(الحكاية الحادية بعد المئتين): حُكِيَ عن بعض الصالحين أنه كان يتكلم مع الناس ويَعِظهم فمرّ عليه في بعض الأيام يهودي وهو يخوّفهم ويقرأ قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتمًا مقضيًا﴾ [مريم: ٧١] فقال اليهودي إن كان هذا الكلام حقًّا فنحن وأنتم سواء، فقال له الشيخ: لا ما نحن سواء، بل نحن نرِد ونصدر، وأنتم تَرِدون ولا تصدرون، ننجو نحن منها بالتقوى وتبقون أنتم فيها جثيًا بالظلم، ثم قرأ الآية الثانية ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا﴾ [مريم: ٧٢] فقال اليهودي. نحن المتقون، فقال له الشيخ: كلا بل نحن، وتلا قوله تعالى: ﴿ورحمتي وَسِعَت كلّ شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأُميّ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فقال اليهودي: هات برهانًا على صدق هذا، فقال له الشيخ رضي الله تعالى عنه: البرهان حاضر يراه كل ناظر، وهو أن تطرح ثيابي وثيابك في النار، فمَن سَلِمَت ثيابه فهو الناجي منها، ومَن احترقت ثيابه فهو الباقي فيها، فنزعا ثيابهما وأخذ الشيخ ثياب اليهودي ولفّها ولفّ عليها ثيابه ورمى بالجميع في النار، ثم دخل النار فأخذ الثياب وخرج من الجانب الآخر، ثم فتحت الثياب فإذا ثياب الشيخ المسلم سالمة بيضاء قد

---

(١) يوم التروية: هو الثامن من ذي الحجة، وكان يتزوّد فيه الحجاج بالماء ويرتوون فيه لما بعد.

Marfat.com

نظّفتها النار وأزالت عنها الوسخ، وثياب اليهودي قد صارت حراقة مع أنها مستورة وثياب الشيخ المسلم ظاهرة للنار؛ فلما رأى ذلك أسلم، والحمد لله المُنعِم المنّان الذي أظهر دين الإسلام على سائر الأديان وهدانا للدين القويم، وجعلنا من أمة النبيّ الكريم الذي أرسله رحمة للعالمين ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(الحكاية الثانية بعد المئتين: عن بعضهم) قال: كنت عند الشيخ أبي محمد الجريري رحمة الله تعالى عليه، فجاءه رجل فقال له: كنت على بساط من الأنس، ففتح عليّ باب من البسط، فزللت زلّة، فحجبت عن مكاني، فكيف السبيل إلى ما كنت عليه، فبكى أبو محمد الجريري وقال: الكل في قهر هذه الخلة، لكني أنشدك أبياتًا تجد فيها جوابك، ثم أنشأ يقول:

قف بالديار فهذه آثارهم ... وابكِ الأحبة حسرة وتشوّقا
كم قد وقفت بربعها مستخبرًا ... عن أهلها متحيِّرًا أو مشفقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها ... فارقت مَن تهوى وعزّ الملتقى

(الحكاية الثالثة بعد المئتين: عن بعضهم) قال: كنت مع الجنيد رضي الله تعالى عنه، فسمع مغنيًا يغني:

منازل كنت تهواها وتألفها ... أيام أنت على الأيام منصور

فبكى الجنيد رضي الله تعالى عنه وقال: ما أطيب الألفة والمؤانسة، وما أوحش مقامات المخالفة والوحشة لا أزال أحنّ إلى بدوّ إرادتي وجِدّة سعيي، وركوبي الأهوال وجعل يقول:

خليليّ هل بالشام عين حزينة ... تبكي على نجد فإني أعينها
وأسلمها الواشون إلا حمامة ... مطوّقة ورقاء بانَ قرينها[1]

(الحكاية الرابعة بعد المئتين: عن بعض الصالحين) قال: رأيت في سياحتي أعرابية صغيرة السنّ، فقلت لها: أين تنزلون؟ فقالت: بالبادية، قلت لها: أما تستوحشون؟ فقالت: يا بطّال، وهل يستوحش مع الله مَن أنس به؟ فقلت: من أين تأكلون؟ فقالت: الله أعلم من أين يرزق عباده، يرزق مَن جحده، فكيف لا يرزق وَحَّده؟ ثم قالت: قلوب عاشت بمعرفته وطاشت بوحدانيته، وتلاشت في محبته، غذاؤهم الأنس بالله تعالى والمشاهدة، ربّانيون روحانيون، يسبّحون الليل والنهار لا يفترون.

---

(١) المطوقة: الحمامة ذات الطوق من الريش يخالف لونها. الورقاء: الحمامة التي لونها كالرماد فيه سواد (ج) ورق.

Marfat.com

(**الحكاية الخامسة بعد المئتين**): حُكِيَ أنه قيل للحسن البصري رضي الله تعالى عنه: يا أبا سعيد هٰهنا رجل لم نره قطّ إلا جالسًا وحده خلف سارية، فمضى إليه الحسن وقال: يا عبد الله أراك قد حُبِّبت إليك العُزلة، فما يمنعك من مجالسة الناس؟ فقال: أمر شغلني عن الناس، قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له: الحسن البصري تجلس إليه؟ فقال: أمر شغلني عن الناس وعن الحسن البصري، فقال له الحسن: ماذا الشغل يرحمك الله تعالى؟ فقال: إني أصبحت بين نعمة وذنب، فرأيت أن أشغل نفسي بالشكر على النعمة والاستغفار من الذنب، فقال له الحسن: يا عبد الله أنت أفقه من الناس، فالزم ما أنت عليه.

(**الحكاية السادسة بعد المئتين**): حُكِيَ أنه كان رجل يشرب مع جمع من ندمائه، فدفع إلى غلامه أربعة دراهم، وأمره أن يشتري بها شيئًا من الفواكه للمجلس، فمرّ الغلام بمجلس منصور بن عمّار الواعظ رضي الله تعالى عنه وهو يسأل الفقير عنده شيئًا ويقول: مَن يدفع إليه أربعة دراهم أدعو له أربع دعوات، فدفع الغلام الدراهم إليه، فقال منصور: ما الذي تريد أن أدعو لك، فقال لي سيد: أريد أن أتخلص من مملكته، فدعا له، فقال الأخرى، قال: أن يخلف الله عليَّ دراهمي، فدعا له، ثم قال الأخرى، قال: أن يتوب الله عليّ وعلى سيدي، فدعا، ثم قال الأخرى، فقال: أن يغفر الله تعالى لي ولسيدي ولك وللقوم، فدعا منصور، فرجع الغلام إلى سيده، فقال: ما أبطأك؟ فقصّ عليه القصة، فقال له: وبِمَ دعا؟ قال: أن تعتقني، قال: اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى، قال: وإيش الثانية؟ قال: أن يخلف الله تعالى عليّ دراهمي، فقال: لك أربعة آلاف درهم من مالي، قال: وإيش الثالثة؟ قال: أن يتوب الله تعالى عليك، قال: تبت إلى الله عزّ وجلّ، فإيش الرابعة؟ قال: أن يغفر الله تعالى لي ولك وللمذكر وللقوم، فقال: هذه ليست إليّ، فلما جنّ الليل رأى في المنام كأن قائلاً يقول له: أنت قد فعلت ما كان إليك، أفتراني لا أفعل ما كان إليّ؟ قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين وأنا أرحم الراحمين.

(**الحكاية السابعة بعد المئتين**): حُكِيَ أن سُليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام مرّ في موكبه والطير تظله والدوابّ والوحوش والأنعام والجنّ والإنس وسائر الحيوانات عن يمينه وشماله فمرّ بعابد من عباد بني إسرائيل، فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكًا عظيمًا، فسمع ذلك سليمان، فقال لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أُعطِيَ ابن داود، فإن ما أُعطِيَ ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى. وأنشد بعضهم:

إذًا ما لم تكن ملكًا مُطاعًا ... فكن عبدًا لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعًا ... كما تختار فاتركها جميعا

Marfat.com

هما شيئان من ملك ونسك يُنيلان الفتى شرفًا رفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشيء سوء هذين عاش بهما وضيعا

(الحكاية الثامنة بعد المئتين): رُوِيَ أن بعض الملوك كان متنسّكًا ثم رجع ومال إلى الدنيا ورياسة الملك، وبنى دارًا وشيَّدها وأمر بها ففُرِشَت ونُجِّدَت، واتخذ مائدة ووضع عليها طعامًا ودعا الناس، فجعلوا يدخلون ويأكلون ويشربون وينظرون إلى بنائه ويتعجبون من ذلك، ويدعون له وينصرفون، فمكث بذلك أيامًا ثم جلس هو ونفر من خاصة أصحابه فقال: قد ترون سروري بداري هذه، وقد حدّثت نفسي أن أتخذ لكل واحد من أولادي مثلها، فأقيموا عندي أيامًا أستأنس بحديثكم، وأشاوركم فيما أُريد من هذا البناء فأقاموا عنده أيامًا يلهون ويلعبون، ويشاورهم كيف يبني وكيف يصنع ويرتّب ذلك، فبينما هم ذات ليلة في لهوهم، إذ سمعوا قائلاً من أقصى الدار يقول:

يا أيها الباني الناسي منيّته لا تأمننّ فإن الموت مكتوب
على الخلائق إن سرّوا وإن حزنوا فالموت حتف لذي الآمال منصوب
لا تبنينّ ديارًا لست تسكنها وراجع النّسك كيما يغفر الحوب(١)

ففزع لذلك وفزع أصحابه فزعًا شديدًا وراعَهم، فقال: هل سمعتم ما سمعت؟ فقالوا: نعم، قال: هل تجدون ما أجد؟ قالوا: وما تجد؟ قال: مسكة على فؤادي وما أراها إلا علّة الموت، فقالوا: كلا بل البقاء والعافية، فبكى ثم أمر بالشراب فأُهريق، وبالملاهي فأُخرِجَت، أو قال فكُسرت، وتاب إلى الله تبارك وتعالى، ولم يزل يقول: الموت الموت حتى خرجت نفسه رحمة الله تعالى عليه.

(الحكاية التاسعة بعد المئتين): رُوِيَ أن ملكًا من ملوك كندة كان كثير المصاحبة للهو واللّذّات، كثير العكوف على اللعب، فركب يومًا للاصطياد أو غيره، فانقطع عن أصحابه فإذا هو برجل جالس قد جمع عظامًا من عظام الموتى وهي بين يديه يقلّبها، فقال: ما قصتك أيها الرجل، وما بلغ بك ما أرى من سوء الحال ويبس الجسم وتغيّر اللون والانفراد في هذه الفلاة؟ فقال: أما ما ذكرت من ذلك فلأني على جناح سفر بعيد، وبي موكلان مزعجان يحدوان بي إلى منزل ضنك المحلّ مظلم القعر كريه المقرّ، ثم يسلّماني إلى مصاحبة البلى ومجاورة الهلكى تحت أطباق الثرى، فلو تركت بذلك المنزل مع ضيقه ووحشته وارتعاء خشاش الأرض من لحمي حتى أعود رفاتًا وتصير أعظمي رمامًا، لكان للبلاء انقضاء وللشقاء انتهاء، ولكني أدفع بعد ذلك إلى صيحة الحشر، وأرِد أهوال ومواقف الجزاء، ثم لا أدري إلى أيّ الدارين يؤمر بي، فأيّ حال يلتذّ به مَن يكون

---

(١) الحوب: الإثم.

Marfat.com

إلى هذا الأمر مصيره؛ فلما سمع الملك كلامه، ألقى نفسه عن فرسه وجلس بين يديه وقال: أيها الرجل لقد كدّر عليّ مقالك صفو عيشي وملك قلبي، فأعد عليّ بعض قولك، واشرح لي ذلك، فقال له: أما ترى هذه العظام التي بين يديّ؟ قال: بلى، قال: هذه عظام ملوك غرّتهم الدنيا بزخرفها، واستحوذت على قلوبهم بغرورها، فألهتهم عن التأهب لهذه المصارع حتى فاجأتهم الآجال وخذلتهم الآمال وسلبتهم بهاء النعمة، وستنشر هذه العظام فتعود أجسامًا، ثم تُجازي بأعمالها، فإما إلى دار النعيم والقرار، وإما إلى دار العذاب والبوار، ثم غاب الرجل فلم يدرِ أين ذهب، وتلاحق أصحاب الملك به، وقد تغيّر لونه وتواصلت عَبراته؛ فلما جنّ عليه الليل نزع ما كان عليه من لباس الملك، ولبس طمرين وخرج تحت الليل، فكان آخر العهد به رحمه الله تعالى.

وأنشدوا:

أفنى الملوك التي كانت منعمة ... كرّ الليالي إقبالاً وإدبارا
يا راقد الليل مسرورًا بأوّله ... إنَّ الحوادث قد يطرقن أسحارا
لا تأمننّ بليل طاب أوّله ... فرُبَّ آخر ليل أجّج النار

(الحكاية العاشرة بعد المئتين): حُكِيَ أنه كان في الأمم الماضية ملك متمرّد على ربّه عزّ وجلّ، فغزاه المسلمون وأخذوه أسيرًا، فقالوا: بأيّ قتلة نقتله؟ فأجمع رأيهم على أن يجعلوا له قمقمًا[١] عظيمًا ويجعلوه فيه ويوقدوا تحته النار ولا يقتلوه حتى يُذيقوه طعم العذاب، ففعلوا ذلك به فجعل يدعو آلهته واحدًا بعد واحد: يا فلان بما كنت أعبدك أنقذني مما أنا فيه؛ فلما رأى آلهته لا تُغني عنه شيئًا، رفع رأسه إلى السماء وقال: لا إله إلا الله، ودعا مخلصًا، فصبّ الله عليه مثعب[٢] ماء من السماء، فأطفأ تلك النار، وجاءت ريح فاحتملت ذلك القمقم، وجعلت تدور به بين السماء والأرض وهو يقول: لا إله إلا الله، فقذفته إلى قوم لا يعبدون الله عزّ وجلّ وهو يقول: لا إله إلا الله، فاستخرجوه وقالوا: ويحك ما لك؟ فقال: أنا ملك بني فلان، وإنه كان من خبري وأمري كيت وكيت، وقصّ عليهم القصة فآمنوا، رحمة الله تعالى عليه وعليهم أجمعين.

(الحكاية الحادية عشرة بعد المئتين): حُكِيَ أن بعض ملوك الأمم السالفة بنى مدينة وتأنّق فيها وتغالى في حُسنها وزينتها، ثم صنع طعامًا ودعا الناس، وأجلس أُناسًا على

---

(١) القمقم: إناء من نحاس أو فضة، أو خزف صيني، يُجعل فيه ماء الزهر أو الورد (مع) ووعاء خرافي كان محبسًا للمردة من الشياطين فيما زعموا (ج) قماقم.
(٢) المَثعب: الميزاب (ج) مثاعب.

أبوابها يسألون كلّ مَن خرج هل رأيتم عيبًا؟ فيقولون: لا، حتى جاء أُناس في آخر القوم عليهم أكسية، فسألوهم هل رأيتم عيبًا؟ فقالوا: عيبين اثنين، فحبسوهم ودخلوا على الملك فأخبروه بما قالوا، فقال: ما كنت أرضى بعيب واحد ائتوني بهم، فأدخلوهم عليه فسألهم عن العيبين ما هما؟ فقالوا: تخرب الدار ويموت صاحبها، قال: أفتعلمون دارًا لا تخرب ولا يموت صاحبها؟ قالوا: نعم، فذكروا له الجنة ونعيمها، وشوّقوه إليها، وذكروا النار وعذابها وخوّفوه منها ودعوه إلى عبادة الله عزّ وجلّ، فأجابهم إلى ذلك، وخرج من ملكه هاربًا تائبًا إلى الله سبحانه وتعالى رحمة الله تعالى عليه.

(الحكاية الثانية عشرة بعد المئتين): رُوِيَ أنه تحارب ملكان من ملوك اليمن في قديم الزمان فغلب أحدهما صاحبه وقتله وشرّد أصحابه، وهُيِّئت له السّرر، وزُيِّنت له دار الملك، وتلقّاه الناس ليدخل، فبينما هو في بعض السكك يقصد دار الملك، إذ وقف له رجل يُنسَب إلى الجنون، فأنشده:

تمتع من الأيام إن كنت حازمًا ... فإنك فيها بين ناهٍ وآمر
فكم ملك قد ركم التراب فوقه ... وعهدي به بالأمس فوق المنابر
إذا كنت في الدنيا بصيرًا فإنما ... بلاغك منها مثل زاد المسافر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر

فقال له: صدقت، ونزل عن فرسه، وفارق أصحابه، ورَقِيَ الجبل، وأقسم على أصحابه أن لا يتبعه أحد، فكان آخر العهد به، وبقيت اليمن شاغرة أيامًا حتى اختير لها مَن عقد له راية الملك عليها، رحمه الله تعالى.

(الحكاية الثالثة عشرة بعد المئتين: عن بعضهم) قال: مررت ببعض القرى فإذا أنا بثلاثة قبور على بدر واحد وهي على نشز[1] من الأرض، وعليها مكتوب أبيات من الشعر على القبر الأول مكتوب:

وكيف يلذّ العيش مَن هو عالم ... بأن إله الخلق لا بدّ سائله
فيأخذ منه ظلمه لعباده ... ويجزيه بالخير الذي هو فاعله

وعلى القبر الثاني مكتوب:

وكيف يلذّ العيش مَن كان موقنًا ... بأن المنايا بغتة ستُعاجله
فتسلبه ملكًا عظيمًا وبهجة ... وتُسكنه القبر الذي هو آهله

(١) النشز: (ج) نشوز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

Marfat.com

وعلى القبر الثالث مكتوب:

وكيف يلذّ العيش مَن كان صائرًا إلى جدث يبلى الشباب منازله
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه سريعًا ويبلى جسمه ومفاصله

فقلت لشيخ جلست إليه: لقد رأيت في قريتكم عجبًا، فقال: وما هو؟ فقصصت عليه قصة القبور، قال: وحديثهم أعجب مما رأيته على قبورهم، فقلت: حدّثني، فقال: كانوا ثلاثة إخوة: أمير، وتاجر، وزاهد، فحضرت الزاهد الوفاة، فاجتمع إليه أخواه وعرضا عليه ما أحبّ من مالهما ليتصدّق به، فأبى أنْ يقبل وقال: لا حاجة لي في مالكما، ولكن أعهد إليكما عهدًا فلا تخالفا عهدي، قالا: اعهد، قال: إذا متّ فغسّلاني وكفّناني وصلّيا عليّ وادفناني على نشز من الأرض، واكتبا على قبري هذين البيتين:

وكيف يلذّ بالعيش مَن هو عالم بأن إله الخلق لا بدّ سائله
فيأخذ منه ظلمه لعباده ويجزيه بالخير الذي هو فاعله

فإذا أنتما فعلتما ذلك، فائتياني في كل يوم مرّة لعلكما تتعظان، ففعلا ذلك، كان أخوه الأمير يركب في جنده حتى يقف على قبره، فينزل ويقرأ ما عليه ويبكي، فلما كان اليوم الثالث جاء كما كان يجيء مع الجند، فنزل وقرأ وبكى كما كان يبكي؛ فلما أراد أن ينصرف سمع هدّة من داخل القبر كاد يتصدّع لها قلبه، فانصرف مذعورًا فزعًا، فلما كان الليل رأى أخاه في منامه، فقال: يا أخي ما الذي سمعت في قبرك؟ قال: تلك هذه المقمعة[1]، قيل لي: رأيت مظلومًا فلم تنصره، فأصبح مهمومًا فزعًا، فدعا أخاه وخاصّته وقال: ما أرى أخي أراد بما أوصى أن يكتب على قبره غيري، وإني أُشهدكم أن لا أُقيم بين أظهركم أبدًا، فترك الإمارة ولزم العبادة، وكان يأوي إلى الجبال والبراري حتى حضرته الوفاة مع بعض الرعاة؛ فلما بلغ ذلك أخاه أتاه وقال له: يا أخي ألا توصي؟ قال: بأيّ شيء أوصي؟ يا أخي ليس لي مال فأوصي به، ولكني أعهد إليك عهدًا إذا أنا متّ فادفنّي إلى جنب أخي، واكتب على قبري هذين البيتين:

وكيف يلذّ العيش مَن كان موقنًا بأن المنايا بغتة ستعاجله
فتسلبه مُلكًا عظيمًا وبهجة وتُسكِنه القبر الذي هو آهله

ثم زرني ثلاثة أيام بعد موتي، فادعُ الله لي لعلّ الله يرحمني، ثم مات، ففعل أخوه ما أمره به، فلما كان اليوم الثالث أتاه وبكى عنده ودعا له؛ فلما أراد أن ينصرف سمع وجبة عظيمة من داخل القبر كادت تُذهِب عقله، فرجع قلقًا، فلما كان في الليل رأى

(١) المقمعة: خشبة أو حديدة معوجّة الرأس يُضرَب بها (ج) مقامع.

Marfat.com

أخاه في المنام قد أتاه، فقال له: يا أخي جئتنا زائرًا، فقال: هيهات بعد المزار فلا مزار، واطمأنت بنا الدار، فقال: له كيف أنت؟ قال: بخير ما أجمع التوبة لكلّ خير، فقال: كيف أخي؟ قال: مع الأئمة الأبرار، قال: فما تأمرنا؟ قال: مَن قدّم شيئًا وجده، فاغتنم وجدك قبل عدمك، فأصبح معتزلاً للدنيا قد انخلع قلبه منها، وفرّق ماله، وقسم رباعه، وأقبل على طاعة الله عزّ وجل، ونشأ له ولد كامل الشباب وجهًا وكمالاً وجمالاً، فأقبل على التجارة حتى حضرت أباه الوفاة، فقال الابن: يا أبت ألا توصي؟ قال: والله يا بنيّ ما لأبيك مال يوصي به، ولكن أعهد إليك عهدًا إذا أنا متّ فادفني مع عمومتك، واكتب على قبري هذي البيتين:

وكيف يلذّ العيش مَن كان صائرًا ... إلى جدث يبلى الشباب منازله
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ... سريعًا ويبلى جسمه ومفاصله

فإذا فعلت ذلك فتعاهدني ثلاثًا، فادعُ الله لي لعلّ الله أن يرحمني، ففعل الفتى ذلك، فلما كان اليوم الثالث سمع من القبر صوتًا اقشعرّ له جلده وتغيّر لونه، فرجع إلى أهله مهمومًا أو قال محمومًا، فلما كان الليل أتاه أبوه في المنام فقال: يا بنيّ أنت عندنا عن قريب والأمر بآخره، والموت أقرب من ذلك، فاستعدّ لسفرك، وتأهّب لرحيلك، وحوّل جهازك من المنزل الذي أنت عنه ظاعن(١) إلى المنزل الذي أنت فيه مُقيم، ولا تغترّ بما اغترّ به البطّالون قبلك من طول آمالهم، فقصّروا في أمر معادهم، فندموا عند الموت أشدّ الندامة، وأسفوا على تضييع أعمالهم أشدّ الأسف، فلا الندامة عند الموت تنفعهم، ولا الأسف على التقصير أنقذهم من شرّ ما نالهم، وشدّة ما هالهم، ثم قال: يا بنيّ بادر ثم بادر ثم بادر، فأصبح الفتى وقال: ما أظنّ هذا الأمر إلا قد أظلّني، فأدّى دَينه، ولم يزل يقسم ويعطي ويتصدّق إلى أن كان اليوم الثالث من صبيحة الرؤيا، فدعا أهله وولده فودّعهم، وسلّم عليهم، ثم استقبلِ القِبلة وتشهّد شهادة الحقّ ثم مات رحمه الله تعالى، فكان الناس يزورون قبورهم ويتوسّلون بهم إلى الله تعالى في قضاء حوائجهم فتُقضى، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية الرابعة عشرة بعد المئتين: عن أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه) قال: دخلت الكوفة في بعض أسفاري، فرأيت دارًا لبعض الرؤساء وقد شفّ عليها النعيم وعلى بابها عبيد وغلمان، وفي بعض رواشنها جارية تغني وهي تقول:

ألا يا دار لا يدخلك حزن ... ولا يعبث بساكنك الزمان
فنِعْمَ الدار أنت لكل ضيف ... إذا ما الضيف أعوزه المكان

---

(١) ظعن فلان: سار وارتحل فهو ظاعن (ج) ظاعنون وظُعن.

قال: ثم مررت بها بعد مدة فإذا الباب مسودّ والجميع مبدّد، وقد ظهر عليها كآبة الذلّ والهوان، وأنشد لسان الحال:

ذهبت محاسنها وبانَ شجونها ... والدهر لا يُبقي مكانًا سالما
فاستبدلت من أنسها بتوحّش ... ومن السرور بها عزاء راغما

قال: فسألت عن خبرها، فقيل لي: مات صاحبها فآل أمرها إلى ما ترى، فقرعت الباب الذي كان لا يقرع فكلّمتني جارية بكلام ضعيف فقلت لها: يا جارية أين بهجة هذا المكان وأين أنواره وأين شموسه وأقماره وأين قصّاده وأين زوّاره؟ فبكت ثم قالت: يا شيخ كانوا فيه على سبيل العارية ثم نقلتهم الأقدار إلى دار القرار، وهذه عادة الدنيا ترحّل مَن سكن فيها، وتُسيء إلى مَن أحسن إليها، فقلت لها: يا جارية، مررت بها في بعض الأعوام وفي هذا الروشن جارية تغني:

ألا يا دار لا يدخلك حزن

فبكت وقالت: أنا والله تلك الجارية، ولم يبقَ من أهل هذه الدار أحد غيري، فالويل لمَن غرّته دنياه، فقلت لها: كيف قرّبك القرار في هذا الموضع الخراب؟ فقالت لي: ما أعظم جفاءك، أما كان هذا منزل الأحباب، ثم أنشأت:

قالوا: أَلِفت وقوفًا في منازلهم ... ونفس مثلك لا يُغني تحمّلها
فقلت: والقلب قد ضجّت أضالعه ... والروح تنزع والأشواق تبذلها
منازل الحبّ في قلبي معظّمة ... وإن خلا من نعيم الوصل منزلها
فكيف أتركها والقلب يتبعها ... حبًا لمَن كان قبل اليوم ينزلها

قال: فتركتها ومضيت وقد وقع شعرها من قلبي موقعًا، وازداد قلبي تولّعًا. قلت: إنما أعجب أبا القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه قولها لأنها ذكرت صفة الحبّ والمحبّ والمحبوب وصدقت في الوصل وصدقت في التحقّق بالحبّ الذي ذكرته وصبرت على ملازمة منزل الأحباب مع ما فيه من شعث الحال وتجدّد أحزان المصاب. وقد حُكِيَ عن بعض اللصوص أنه قطعت يده اليُمنى في السرقة، ثم سرق فقطعت رِجله اليسرى، ثم سرق فقطعت يده اليسرى، ثم سرق فقطعت رجله اليمنى كما هو حكم الشرع في ذلك، ثم سرق فعُلّق في الهواء تعزيرًا له(١)، إذ لم يبقَ بعد قطع الأعضاء الأربعة إلا التعزير على حسب ما يليق بالحال، فمرّ عليه بعض الشيوخ الصوفية وهو معلّق مقطوع يداه ورِجلاه، فقال الشيخ لأصحابه الذين معه: أنا عبد هذا الشخص، قالوا: وكيف ذلك؟

---

(١) التعزير: التوقير والتعظيم.

Marfat.com

قال: لأنه صبر على ما أصابه في طلب محبوبه ولم يردّه عنه كل ما أصابه من تعب وعقوبة. قلت: وقول الجارية في أوّل الحكاية:

ألا يـا دار لا يـدخـلـك حـزن

اغترار بسرور لم يشبه كدر في أيام إقبال الدنيا الخدّاعة، ولهو بلعب يلهى عن اكتساب الخيرات والسعي في الطاعة، أصمّهم حبّ الدنيا عن سماع قول المولى سبحانه وتعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة﴾ [محمد: ٣٦] الآية، وقوله تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ [الحجر: ٣] وقوله تعالى: ﴿أفرأيت إن متّعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ [الشعراء: ٢٠٥] وغير ذلك من الآيات الكريمات، وكذلك من الأحاديث النبويات مثل قوله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة»[١] وقوله ﷺ: «نعمت المرضعة، وبئست الفاطمة»[٢] وغير ذلك مما يطول ذكره. ومن ذلك أيضًا قول القائل:

ومَن يحمد الدنيا لعيش يسرّه ... فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيرًا همومها

وقول الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه:

ومَن يذق الدنيا فإني طعمتها ... وسيق إلينا عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورًا وباطلاً ... كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همّهنّ اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلمًا لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها

وقلت في بعض القصائد:

عجوز السوء سودًا الجسم شوّها ... وحدبًا تحت أثواب حِسان

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (ص ٢٠٩٨)، والترمذي في (السنن ٢١٩١)، وابن ماجه في (السُنن ٤٠٠٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ٣٦٤)، والبيهقي في (السُنن الكبرى ٧/ ٣٦٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ٣١١)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ١٨٤)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٣/ ٩٩؛ ١٠/ ٢٤٦، ٢٤٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٣٠٨٦، ٥١٤٥)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦١٦٦، ٦١٩٧، ٦١٩٩). والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٤٧٧، ٥٤٨٠)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ١٩٨)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٦/ ٣١٧)، والحميدي في (المسند ٣٥٣) وابن كثير في (البداية والنهاية ٦/ ٢١٨)، والسهمي في (تاريخ جرجان ١٦٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٤٧٩).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٤٧٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/ ١٢٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣١٧)، والسيوطي في (الدّر المنثور ٣/ ١٦٠).

Marfat.com

بـهـا يغتـرّ غـرّ لـم يـشـاهـد | عـيـوبًـا فـي هـواهـا ذو افـتـتـان
جميع الدهر يجري ليس يدري | بـجـسـم مـن مـحـارمـهـا مـلان
إلـى تـقـبـيـل ثـغـر لـيـس فـيـه | مـن الأسـنـان مـا غـيـر الـلـسـان
غـرور حـبـهـا رأس الـخـطـايـا | جـمـيـعًـا ذات مـكـر واخـتـيـان
تـرى عـيـشًـا هـنـيًّـا فـيـه دسّـت | سـمـومًـا تـلـك مـنـهـا مـهـلـكـان
حـسـاب طـال فـي يـوم عـبـوس | يـشـيـب الـطـفـل مـن هـول ومـان
عـقـاب فـي جـحـيـم ربّ سـلـم | بـهـا جـلـد ولـحـم نـاضـجـان

وقال بعض العارفين: لو كانت الدنيا ذهبًا فانيًا، والآخرة خزفًا باقيًا، لكان الخزف الباقي أولى بالرغبة والطلب من الذهب الفاني، فكيف والأمر بالعكس؟ يعني الدنيا هي الخزف الفاني، والآخرة هي الذهب الباقي. قلت: بل الآخرة أجلّ وأفضل من الذهب المذكور، فإنها مخلوقة من فاخر الجواهر والنور ذات اللّذّات والنعيم والسرور والحور.

وقال بعض العارفين أيضًا: في طلب الدنيا ذلّ النفوس، وفي طلب الآخرة عزّ النفوس؟ فيا عجبًا لمَن يختار الذلّ في طلب ما يفنى، ويترك العزّ في طلب ما يبقى. قلت: ولمّا كتبت حكاية الجارية المذكورة خطر لي أبيات في معارضة قولها:

ألا يـا دار لا يـدخـلـك حـزن

حيث ذكرتها بوصف الدار الآخرة التي قال الله سبحانه وتعالى إخبارًا عن أهلها ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن﴾ [فاطر: ٣٤] ثم قال في آخر كلامهم: ﴿لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسّنا فيها لغوب﴾ [فاطر: ٣٤] أي تعب وغير ذاك، وهي هذه الأبيات:

ألا يـا دار خـلـد طـبـت دارًا | نـعـيـمـك لا يـغـيّـره الـزمـان
إذا دار الـفـنـا غـرّت وأضـحـت | خـرابًـا ثـم أعـوزنـا الـمـكـان
فـنِـعْـمَ الـدار أنـت لـكـلّ ثـاوٍ | بـك الـلـذّات والـحـور الـحِـسـان
وأخـرى لا يـسـاوي تـلـك فـضـل | جِـوار الـربّ والـنـظـر الـعـيـان
تـجـلّ زاد فـي الـجِـنـان حُـسـنًـا | عـلـى حُـسْـنٍ بـه تُـنـسـى الـجِـنـان

وقـولي:

فـنِـعْـمَ الـدار أنـت لـكـل ثـاوٍ

أي مقيم، ولم أقل لكل ضيف كما قالت الجارية، لأن الدنيا دار ضيف، لأن الضيف مَن ينزل عند قوم مدة يسيرة ثم يرحل، وهكذا أهل الدنيا، كما قال القائل:

ألا إنـمـا الإنـسـان ضـيـف لأهـلـه | يـقـيـم قـلـيـلاً عـنـدهـم ثـم يـرحـل

Marfat.com

وأما الآخرة فهي دار الإقامة الأبدية، وقد سمّاها صانعها سبحانه وتعالى دار المقامة في قوله تعالى حاكيًا عن أهل الجنة ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسّنا فيها لغوب﴾ [فاطر: ٣٤ و٣٥] أي تعب والمراد دار المقام والهاء للمبالغة مثل علامة وشبهه وخطر لي أيضًا مع الأبيات المذكورة هذه القصيدة المسمّاة: اللآلىء الفاخرة في مدح الدار الآخرة:

ألا يـا دار خـلـدٍ طِبـتِ دارًا ... جمعت الحُسن مأمون الزوالِ
قـصـورًا ثـم حـورًا ثـم خـيـرًا ... مـدامًـا غـيـر مجذوذ الـنـوالِ
ولـذات وعـيـشًـا ذا نـعـيـم ... مـقـيـم لـيـس فـي دهـر ببـالـي
بـهـا مـا لـم تـرى عـيـن وتـسـمـع ... بـه أُذُن ولـم يـخـطـر بـبـالـي
خـيـام الـدّرّ فـيـهـا بـاهـيـات ... وغـرفـات مـضـيـئـات عـوالـي
بـهـا حـور حِـسـان فـائـقـات ... مُـنـيـرات مـلـيـحـات غـوالـي
يـرى مُـخٌّ لـسـاقـيـهـا عـيـانًـا ... ورا سبـعـيـن مـلبوس الـجـمـالِ
ولـو تـبـصـق بـبـحـر عـاد عـذبًـا ... فـراتًـا طـيّـبًـا لـلـشـرب حـالـي
ولـو تـبـدو بـدنـيـا عـطْـرتـهـا ... وأمسى النور للظلماء جالي
تـضـيء الـخـلـد فـي نـور ابـتـسـام ... بـوجـه الـزوج فـي زاهـي الـحِـجـالِ
تـغـنـي فـي الأرائـك رافـعـات ... بـأصـوات رخـيـمـات عـوالـي
عـلـى خـيـل ونـجـب مـن بـهـاء ... كـمـثـل الـبـرق زاروا ذا الـجـلالِ
فـلا أحـلـى وأهـنـا مـن جـمـال ... رأوا لـمّـا تـجـلـى ذو الـكـمـالِ
ونـالـوا فـي جِـوار الـرّبّ مـلـكًـا ... ورضـوانًـا ويـا لـك مـن نـوالِ
فـهـذا الـعـيـش لا عـيـش بـدنـيـا ... وهـذا الـفـخـر لا فـخـر بـمـالِ
سـيـدري كـلّ ذي فـخـر بـدنـيـا ... لـدى الأخـرى لـمَـن فـخـر الـمـعـالـي
إلـٰهـي لا تـخـيّـب يـافـعـيًّـا ... فـقـيـرًا مـن صـفـات الـخـيـر خـالـي
فـمـا لـي قـربـة إلا رجـائـي ... لـفـيـض الـفـضـل يـا مـولـى الـموالـي
ومـسـك الـخـتـم حـمـد الله ربـي ... عـلـى نـعـمـائـه فـي كـلّ حـالِ
وتـغـشـى أحـمـدًا مـولـى الـبـرايـا ... صـلاة مـع صـحـاب ثـم آلِ

(الحكاية الخامسة عشرة بعد المئتين: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه)

قال: بينما أنا أسير في جبل لكام، مررت على وادٍ كثير الأشجار والنبات، فبينا أنا واقف أتعجب من حُسْن زهرته، ومن خُضرة الشّعَب في جنباته، إذ سمعت صوتًا أهطل مدامعي، وهيَّج بلابل حزني، فاتّبعت الصوت حتى أوقفني بباب مغارة في سفح ذلك

الوادي، فإذا الكلام يخرج من جوف المغارة، فاطّلعت فيها فإذا برجل من أهل التعبّد والاجتهاد، فسمعته يقول: سبحان مَن نزّه قلوب المشتاقين في رياض الطاعة بين يديه، سبحان مَن أوصل الفهم إلى عقول ذوي البصائر، فهي لا تعتمد إلا عليه، سبحان مَن أورد حِياض المودّة نفوس أهل المحبة، فهي لا تحنّ إلا إليه، ثم أمسك فقلت: السلام عليك يا حليف الأحزان وقرين الأشجان، فقال: وعليك السلام، ما الذي أوصلك إلى مَن قد أفرده خوف المسألة عن الأنام، واشتغل بمحاسبة نفسه عن التنطّع[١] في الكلام، فقلت: أوصلني إليك الرغبة في التصفّح والاعتبار والتماس المواهب من قلوب المقرّبين والأبرار، فقال: يا فتى إن الله تعالى عبادًا قدح في قلوبهم زند الشغف نار الومق[٢]، فأرواحهم لشدة الاشتياق تسرح في رِياض الملكوت، وتنظر إلى ما ادّخر لها في حجب الجبروت، قلت: صفهم لي، قال: أولئك قوم أووا إلى كهف رحمته، وشربوا كؤوس راح محبته، ثم قال: سيدي بهم فألحقني، ولأعمالهم فوفّقني، قلت: ألا توصيني بوصية؟ قال: أحبّ الله تعالى شوقًا إلى لقائه، فإن له يومًا يتجلى فيه لأوليائه، وأنشأ يقول:

قد كان لي دمع فأفنيته وكان لي جفن فأدميته
وكان لي جسم فأبليته وكان لي قلب فأضنيته
وكان لي سيدي ناظر أرى به الخلق فأعميته
عبدك أضحى سيدي موثقًا لو شئت قبل اليوم آويته

رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين وبجميع الصالحين آمين.

(الحكاية السادسة عشرة بعد المئتين: عن ذي النون المصري أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا أسير على جبل البنان في جوف الليل إذا أنا بعريش من ورق البلوط[٣] وإذا بشاب قد أخرج رأسه من العريش بوجه أحسن من القمر، فقال: شهد لك قلبي في النوازل بنهاية الصفات الكوامل، وحيّرت القلوب في كُنه ذاتك وسكرها براح محبتك، وكيف لا يشهد لك قلبي بذلك، ولا يحسّ قلبي أن يألف غيرك، هيهات هيهات لقد خاب لديك المقصّرون عنك، ثم أدخل رأسه في عريشه، وفاتني كلامه، فلم أزل واقفًا إلى أن طلع الفجر، ثم أخرج رأسه ونظر إلى القمر، فقال أشرقت بنورك السمٰوات والأرض، وأنارت بنورك الظلمات، وحجبت جلالك عن العيون، ووصلت به معارف القلوب، ثم قال بالتجائي إليك في حزني لتنظر إليّ نظرة مَن ناديته فأجاب، فوثبت إليه فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، فقلت: يرحمك الله، أسألك عن مسألة؟

(١) تنطع في كلامه: تكلم بأقصى حلقه تكبّرًا. (٢) ومقه: أحبّه.
(٣) البَلّوط: جنس شجر من الفصيلة البلوطية ومن أهم شجر الأحراج، غليظ الساق متين الخشب.

Marfat.com

قال: لا، قلت: ولِمَ ذاك؟ قال: ما خرج روعك من قلبي، قلت: حبيبي وما الذي أفزعك مني؟ قال: بطالتك في يوم شغلك، وتركك الزاد ليوم معادك، ووقوفك على الظنون يا ذا النون، قال: فوقعت مغشيًا عليّ، فما أفقت إلا بحرّ الشمس، ثم رفعت رأسي فلم أره ولا العريش، فقمت وسرت وفي قلبي منه حسرة رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية السابعة عشرة بعد المئتين): سُئِلَ إبراهيم بن شيبان رضي الله تعالى عنه عن وصف العارف، فقال كنت على جبل[1] الطّور مع شيخي أبي عبد الله المغربي ومعنا نحو من سبعين رجلاً، فأتانا ذات يوم شاب عليه أثر الخشوع، فكنّا إذا صلّينا قام يصلّي معنا، فإذا تجاذبنا العلم قعد يستمع، فبينما نحن ذات يوم قعود تحت شجرة في مكان فيه عشب وكانت أيام الربيع فتكلم الشيخ علينا في علوم المعارف، فرأيت الشاب تنفّس، فاحترق ما بين يديه من العشب ثم غاب فلم نره بعد ذلك، فقال الشيخ: هذا هو العارف، وهذا وصفه رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به.

(الحكاية الثامنة عشرة بعد المئتين: عن بعضهم) قال: كنت في جبل لكام أطلب الزهّاد والعبّاد، فرأيت رجلاً عليه مرقعة جالسًا على حجر مُطرِقًا إلى الأرض، فقلت له: يا شيخ ما تصنع هٰهنا؟ فقال: أنظر وأرعى، فقلت له: ما أرى بين يديك إلا الحجارة فما الذي تنظر وترعى؟ فتغيّر لونه ثم نظر إليّ مغضبًا وقال: أنظر خواطر قلبي وأرعى أوامر ربي، فبحقّ الذي أظهرك عليّ إلا ما رحلت عني، فقلت له: كلّمني بشيء أنتفع به حتى أمضي عنك، فقال: مَن لزم الباب أُثبِتَ من الخدم، ومَن أكثر ذكر الذنوب أعقبه كثرة الندم، ومَن استغنى بالله تبارك وتعالى أمِنَ من العدم، ثم تركني ومضى رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به.

(الحكاية التاسعة عشرة بعد المئتين: عن بعضهم) قال: خرجت من بيت المقدس أُريد بعض القرى لحاجة، فلقيت عجوزًا عليها جبّة صوف وخمار صوف، فسلّمت عليها فردّت عليّ السلام، ثم قالت: يا فتى أين تريد؟ قلت: بعض القرى لحاجة، قالت: كم بينك وبين أهلك ومنزلك؟ قلت: ثمانية عشر ميلاً، قالت: ثمانية عشر ميلاً في طلب حاجة، إن هذه لحاجة مهمة، قلت: أجل، قالت: ألا سألت صاحب القرية أن يوجّه إليك بحاجتك ولا تتعب؟ قال: ولم أدرِ ما الذي أرادت، فقلت: يا عجوز ليس بيني وبين صاحب القرية معرفة، قالت: وما الذي أوحش بينك وبين معرفته وقطع بينك وبين

---

(١) طور سيناء: الطور بلدة في سيناء، جنوبي غربي جبل موسى على خليج السويس، تمرّ بها القوافل إلى دير كترينا. (الرسالة القشيرية ص ١٤٧).

Marfat.com

الاتصال به فعرفت الذي أرادت؟ فبكيت، فقالت: أتحبّ الله تعالى؟ قلت: نعم، قالت: أصدِقني، فقلت: إي والله إني لأحبّ الله عزّ وجلّ، قالت: فما الذي أفادك من طرائف حكمته إذ أوصلك إلى محبته؟ قال: فبقيت لا أدري ما أقول، فقالت: لعلك ممّن يحبّ أن يكتم المحبة؟ فلم أدرِ ما أقول، فقالت: يأبى الله تعالى أن يدنّس طرائف حكمته، وخفيّ معرفته، ومكنون محبته بممارسة قلوب البطّالين، قلت: يرحمك الله، لو دعوت الله عزّ وجلّ أن يشغلني بشيء من محبته، فنفضت يدها في وجهي، فأعدتُ القول، فقالت: امضِ لحاجتك، ثم قالت: لولا خوف السلب لبُحْتُ بالعجب، أوّه من شوق لا يبرأ إلا بك، وفي حنين لا يسكن إلا إليك، رضي الله تعالى عنها، ونفعنا بها آمين.

(الحكاية العشرون بعد المئتين): حُكِيَ أنه كان شابان يتعبّدان بالشام يسمّيان الصبيح والمليح لحُسْن عبادتهما، جاعا أيامًا، فقال أحدهما لصاحبه: اخرج بنا إلى الصحراء لعلنا نرى رجلاً نعلّمه بعض دينه، لعلّ الله أن ينفعنا به فخرجا، قالا: فلما أصحرنا استقبلنا أسود على رأسه حزمة حطب، فقلنا له: يا هذا مَن ربك؟ فرمى بالحزمة عن رأسه وجلس عليها، ثم قال: لا تقولا مَن ربك؟ ولكن قولا لي: أين محلّ الإيمان من قلبك؟ فنظر كل واحد منّا إلى صاحبه ثم قال لنا: اسألا اسألا، فإن المريد لا تنقطع مسائله، فلما رآنا لا نردّ جوابًا قال: اللّهمّ إن كنت تعلم أن لك عبادًا كلما سألوك أعطيتهم، فحوّل حزمتي هذه ذهبًا، فإذا هي قضبان ذهب تلمع، ثم قال: اللّهمّ إن كنت تعلم أن لك عبادًا الخمول أحبّ إليهم من الشُهرة فردّهما حطبًا فرجعت حطبًا، ثم حملها على رأسه ومضى، فلم نجترىء أن نتبعه رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الحادية والعشرون بعد المئتين: عن بعضهم) قال: صلّيت خلف ذي النون صلاة العصر، فقال: الله ثم بهت وبقي كأنه جسد ليس به روح من إجلاله لله تعالى، ثم قال: أكبر، فظننت أن قلبي قد انقطع من هيبة تكبيره. وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: سمعت بعض المتعبّدين بساحل الشام يقول: إن لله تبارك وتعالى عبادًا عرفوه بيقين من معرفته، فشمّروا قصدًا إليه احتملوا فبه المصائب لما يرجون عنده من الرغائب، صحبوا الدنيا بالأشجان وتنعّموا فيها بطول الأحزان، فما نظروا إليها بعين راغب، وما تزوّدوا منها إلا كزاد الراكب؟ خافوا البيات فأسرعوا، ورجوا النجاة فأزمعوا، وبذلوا مُهَج نفوسهم في رِضا سيدهم، ونصبوا الآخرة نصب أعينهم، وأصغوا إليها بآذان قلوبهم، فلو رأيتهم لرأيت قومًا ذبلاً شفاههم خمصًا[1] بطونهم، حزينة قلوبهم، ناحلة أجسادهم، باكية أعينهم، لم يصحبوا التعليل والتسويف، وقنعوا من الدنيا بقوت طفيف، لبسوا من

---

(١) خمص بطنه: خلا وضمر.

Marfat.com

اللباس أطمارًا بالية، وسكنوا من البلاد قفرًا خالية، هربوا من الأوطان، واستبدلوا الوحدة من الأخدان، فلو رأيتهم لرأيت قومًا قد ذبحهم الليل بسكاكين السهر، وفصل أعضاءهم بخناجر التعب، خمص البطون لطول السرى، شعث الرؤوس لفَقْد الكرى، قد وصلوا الكلال بالكلال، وتأهبوا للنقلة والارتحال، رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم آمين.
قلت: وفي مثل هؤلاء الرجال أحسن الذي قال:

أنت بالصدق قد خبرت رجالاً ... قد أطالوا البكا إذا الليل طالا
وملأت القلوب منهم بنور ... من نفيس اليقين يا مَن تعالى
وتوليتهم فكنت دليلاً ... وكسوت الجميع منهم جمالا
فإذا ما الظلام جنّ عليهم ... وصلوا بالكلال منهم كلالا
عفروا بالتراب منهم وجوهًا ... ذاك لله خشية وابتهالا[1]
هجرت للمنام منهم عيون ... فاستطار المنام عنهم وزالا
إنما لذة البكا لمريد ... أسلم الأهل والديار وجالا
خاضعًا باكيًا حزينًا ينادي ... يا كريمًا إذا استقيل أقالا

(**الحكاية الثانية والعشرون بعد المئتين: عن سعيد بن أبي عروبة[2] رضي الله تعالى عنه**) قال: حجّ الحجاج بن يوسف[3] الثقفي فنزل في بعض المياه بين مكة والمدينة، ودعا بالغداء وقال لحاجبه: انظر لي مَن يتغدّى معي واسأله عن بعض الأمر، فنظر نحو الجبل فإذا هو بأعرابيّ بين شملتين نائم، فضربه برجله وقال: ائت الأمير، فأتاه فقال له الحجاج: اغسل يدك وتغدّ معي، فقال: إنه قد دعاني مَن هو خير منك فأجبته، قال: ومَن هو؟ قال: الله تبارك وتعالى دعاني إلى الصوم فصمت، قال: في هذا الحرّ الشديد؟ قال: نعم، صمت ليوم هو أشدّ حرًا من هذا اليوم، قال: فأفطر وصم غدًا، قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد أفطرت، قال: ليس ذلك إليّ، قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه؟ قال: إنه طعام طيب، قال: لم تطيّبه أنت ولا الطبّاخ ولكن طيّبته العافية، رضي الله تعالى عنه، وفي هذا المعنى قلت:

وما طيّب الطبّاخ عَيشًا وإنما ... بعافية طاب الطعام لطاعم

---

(١) العفر: ظاهر التراب، أو التراب. وعفره بالتراب: مرّغه ودسّه.
(٢) هو سعيد بن أبي عروبة مهران، العدوي بالولاء (توفي ١٥٦ هـ = ٧٧٣ م) البصري، أبو النضر، حافظ للحديث، لم يكن في زمانه أحفظ منه، رُمِيَ بالقدر. اختلط في آخر عمره، ومات في عشر الثمانين. له مصنفات. الأعلام ٣/٩٨؛ وتهذيب التهذيب، وميزان الاعتدال ١/١٨٧.
(٣) انظر ترجمته في: الأعلام ٢/١٦٨؛ وفي معجم البلدان ٨/٣٨٢؛ ووفيات الأعيان ١/١٢٣؛ وتهذيب التهذيب ٢/٢١٠.

Marfat.com

إذا كان بي سقم فلا شيء طيب وإن لم يكن طابت جميع المطاعم

(الحكاية الثالثة والعشرون بعد المئتين): رُوِيَ أن الحجاج بن يوسف حجّ فسمع ملبيًا يلبّي حول البيت رافعًا صوته بالتلبية، وكان إذ ذاك بمكة، فقال: عليّ بالرجل، فأتى به إليه، فقال: ممّن الرجل؟ فقال: من المسلمين، فقال: ليس عن الإسلام سألتك؟ قال: فعمّ سألت؟ قال: سألتك عن البلد، قال: من أهل اليمن؟ قال: كيف تركت محمد بن يوسف، يعني أخاه، قال: تركته عظيمًا جسيمًا لباسًا ركابًا خراجًا ولاجًا، قال: ليس عن هذا سألتك، قال: فَعَمَّ سألت؟ قال: سألتك عن سيرته، قال: تركته ظلومًا غشومًا، مُطيعًا للمخلوق عاصيًا للخالق، فقال له الحجاج: ما حملك على هذا الكلام وأنت تعلم مكانه مني؟ فقال الرجل: أتراه بمكانة منك أعزّ مني بمكاني من الله تبارك وتعالى وأنا وافد بيته، ومصدّق نبيّه ﷺ، أو قال زائر بيته، وقاضٍ دَيْنه، ومُتَّبع دينه؟ فسكت الحجّاج ولم يُحسِن جوابًا، وانصرف الرجل من غير إذن، فتعلّق بأستار الكعبة وقال: اللّهمّ بك أعوذ وبك ألوذ، اللّهمّ فرجك القريب ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الرابعة والعشرون بعد المئتين: عن طاهر المقدسي رحمه الله تعالى) قال: خرجت من عسقلان أُريد غزة[1] في طلب البدلاء، فإذا أنا بفتى عليه أطمار رثّة على ساحل البحر، فكأني لم أعبأ به، فالتفت إليَّ وقال:

لا تنبُ عني بأن ترى خلقي فإنما الدّرّ داخل الصدف[2]
عملي جديد وملبسي خلق ومنتهى اللبس منتهى الصلف[3]

وقال الشيخ أبو عبد الله الدينوري رحمه الله تعالى: دخل عليّ يومًا فقير عليه آثار الضرّ، فطالبتني نفسي أن آتيه بشيء، فهممت أن أرهن نعلي، فمنعتني نفسي وقالت: كيف تتمّ لك طهارة مع الحفاء؟ فقلت: أرهن ركوتي، فمنعتني أيضًا وقالت: فبأيّ شيء تتوضأ؟ فهممت أن أرهن منديلي، فمنعتني أيضًا وقالت: تبقى مكشوف الرأس، فقلت: وما في ذاك؟ فجعلت أُراجعها في ذلك، فقام الفقير وشدّ وسطه، وأخذ عصاه بيده، ثم التفت إليّ وقال: يا خسيس الهمّة احفظ منديلك فأنا خارج، قال: فقعدت مع الله تعالى أن لا آكل الخبز حتى ألقاه، فقيل: إنه أقام بعد ذلك ثلاثين سنة لم يأكل الخبز رضي الله تعالى عنهما، ونفعنا بهما آمين.

---

(١) غزة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان. (معجم البلدان ٤/ ٢٠٢).

(٢) الصدف: صدف الدرة: غشاؤها، وهو غلاف يابس متصلّب يغطي اللؤلؤ. (ج) أصداف.

(٣) الصلف: التيه والكبرياء.

Marfat.com

(الحكاية الخامسة والعشرون بعد المئتين: عن سريّ السقطي رضي الله تعالى عنه) قال: بلغني أن امرأة كانت إذا قامت من الليل قالت: اللّهمّ إن إبليس عبد من عبيدك، ناصيته بيدك، يراني من حيث لا أراه، وأنت تراه من حيث لا يراك، اللّهمّ إنك تقدر على أمره كله، ولا يقدر على شيء من أمرك، اللّهمّ إن أرادني بشرّ فاردده، وإن كادني فكده، أعوذ بك من شرّه، وأدرأ بك في نحره، ثم بكت حتى ذهبت إحدى عينيها، فقيل لها: اتقي الله تعالى لئلا تذهب الأخرى، فقالت: إن كانت عيني من عيون أهل الجنة، فسيبدلني الله تبارك وتعالى بها ما هو أحسن منها، وإن كانت من عيون أهل النار فأبعدها الله تعالى عني، رضي الله تعالى عنها، ونفعنا بها آمين.

(الحكاية السادسة والعشرون بعد المئتين: عن أبي العباس بن مسروق رضي الله تعالى عنه) قال: كنت بالبصرة فرأيت صيادًا يصطاد السمك على بعض السواحل، وإلى جنبه ابنة له صغيرة، فكان كلما اصطاد سمكة فتركها في دوخلة له ردّت الصبية السمكة إلى الماء، فالتفت الرجل فلم يرَ شيئًا، فقال لابنته: أيّ شيء عملت بالسمك؟ فقالت: يا أبت أليس سمعتك تروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تقع سمكة في شبكة إلا إذا غفلت عن ذكر الله تبارك وتعالى»، فبكى الرجل ورمى بالسنّارة[1] رضي الله تعالى عنهما، ونفعنا بهما آمين. قلت: تعني كل مَن كان غافلاً عن ذكر الله تعالى لا تريده لنقصه وعدم بركته.

(الحكاية السابعة والعشرون بعد المئتين): رُوِيَ أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان يعس[2] المدينة، فمشى حتى أعيا، فاتكأ إلى جدار، فإذا امرأة تقول لابنة لها صغيرة: قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت: يا أماه، أوَ ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما كان من عزمته؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادى أن لا يُشاب اللبن بالماء، فقالت: امذقيه، فإنك بموضع لا يراك عُمر ولا مُنادي عُمر، فقالت الصبية: والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلا، رضي الله تعالى عنها. قلت: وهذه البُنيّة المذكورة أعجب عمر رضي الله تعالى عنه حالها، فزوّجها أحدَ أولاده، ومن ذرّيتها عُمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وسلفه وبجميع الأولياء والصالحين آمين.

(الحكاية الثامنة والعشرون بعد المئتين): رُوِيَ أنه اجتاز بعض الأمراء على باب الشيخ حاتم الأصم[3] رضي الله تعالى عنه، فاستسقى ماء، فلما شرب رمى إليهم شيئًا

(١) السُّنارة (الصُّنارة): حديدة عقفاء يُصاد بها السمك (الشِّصّ).
(٢) عسّ الرجل: طاف بالليل يحرس الناس، ويشكف عن أهل الريبة.
(٣) هو حاتم بن عنوان، أبو عبد الرحمٰن (توفي ٢٣٧ هـ = ٨٥١ م) المعروف بالأصم، زاهد، اشتهر=

من المال ووافقه أصحابه، ففرح أهل الدار سوى بُنَيّة صغيرة لحاتم، فإنها بكت، فقيل لها: ما يُبكيك؟ قالت: مخلوق نظر إلينا نظرة فاستغنينا، فكيف لو نظر إلينا الخالق سبحانه وتعالى، رضي الله تعالى عنها، ونفعنا بها آمين. ورُوِيَ أن بُنَيَّة للشيخ يحيىٰ بن معاذ الرازي رضي الله تعالى عنهما طلبت من أبيها شيئًا تأكله، فقال لها: اطلبي من ربك، فقالت: والله إني لأستحي منه أن أسأله شيئًا للأكل، رضي الله تعالى عنها.

(الحكاية التاسعة والعشرون بعد المئتين: عن أبي عبد الله الجلاء[1] رضي الله تعالى عنه) قال: اشتهت والدتي عليّ يومًا من الأيام سمكة، فمضى والدي إلى السوق وأنا معه، فاشترى سمكة ووقف ينتظر مَن يحملها له، فرأى صبيًا وقف بحذائه، وقال: يا عمّ تريد مَن يحمل لك؟ فقال: نعم، فحمل لنا ومشى معنا، فسمعنا الأذان، فقال الصبيّ: أذّن المؤذّن وأنا أحتاج أن أتطهّر وأصلّي، فإن رضيت وإلا فاحمل السمكة، ووضع الصبيّ السمكة ومرّ، فقال أبي: فنحن أولى أن نتوكل في السمكة على الله تعالى، فدخلنا المسجد وصلّينا، وصلّى الصبيّ؛ فلما خرجنا إذا بالسمكة موضوعة في مكانها، فحملها الصبيّ ومضى معنا إلى دارنا، فذكر ذلك والدي لوالدتي، فقالت: قل له يقعد حتى يأكل معنا، فقال له: أنا صائم، ثم قال: فتعود إلينا بالعشيّ، فقال: إذا حملت في اليوم مرّة فلا أحمل ثانيًا، فأدخل المسجد إلى المساء، ثم أدخل عليكم فمضى؛ فلما أمسينا دخل الصبيّ فأكلنا، فلما فرغنا دللناه على موضع الطهارة ورأيناه يؤثِر الخلوة، فتركناه في بيت، وكان بالقرب منّا امرأة زمنة؛ فلما كان في بعض الليل جاءت تمشي، فسألناها عن حالها، فقالت: قلت يا ربّ بحرمة ضيفنا عافني فقمت، قال: فمضينا نطلب الصبيّ فإذا الأبواب مغلقة كما كانت ولم نجد الصبيّ رضي الله تعالى عنه. قلت: منهم الصغار ومنهم الكبار ومنهم العبيد ومنهم الأحرار، ومنهم النساء ومنهم الرجال، ومنهم المجانين ومنهم العقلاء. ومن جملة الصغار صغير كان في بلاد اليمن من أولاد بعض المشايخ كان يلعب مع الصغار، وأيّ شيء طلبوه منه من الشهوات يحضره لهم في الحال في الموضع الذي يلعبون فيه؛ فلما علم بذلك الشيخ قال له: يا ولدي أطعمني كذا وكذا، فأطعمه،

= بالورع والتقشف. له كلام مدوّن في الزهد والحكم. من أهل بلخ. زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل وشهد بعض معارك الفتوح. مات بواشجرد. الأعلام ٢/١٥٢؛ وتاريخ بغداد ٨/٢٤١؛ والرسالة القشيرية ص ٣٩٣.

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن يحيىٰ الجلاء، بغدادي الأصل، أقام بالرملة ودمشق. وكان من أكابر مشايخ الشام، صحب أبا تراب وذا النون المصري وأبا عبيد البسري وأباه يحيىٰ الجلاء. (الرسالة القشيرية ص ٤٠٣).

فكل شيء طلبه منه أحضره في الحال، فمسح عليه وقال: بارك الله فيك أطعمني كذا وكذا، فطلب الصغير أن يحصل ذلك كالعادة، فلم يحصل شيء، ومن ذلك الوقت انسدّ عنه هذا الباب بنظر الشيخ إذ رأى ذلك أسلم له، لأنه خاف عليه الشُّهرة والعجب وغير ذلك، رضي الله تعالى عنهما.

(الحكاية الثلاثون بعد المئتين: عن ذي النون رضي الله تعالى عنه) قال: خرجت من وادي كنعان بالليل، فإذا بشخص قد أقبل إليّ وهو يقرأ ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ [الزمر: ٤٧] فلما قرب الشخص مني إذا هي امرأة عليها جبّة صوف وبرقع صوف، وفي يدها ركوة وعكاز، فقالت: مَن أنت؟ غير فزعة مني، فقلت: رجل غريب، فقالت: يا هذا وهل تجد مع الله غربة وهو مؤنس الغرباء ومُعين الضعفاء، فبكيت، فقالت: ما بكاؤك؟ فقلت: وقع الدواء على الداء، فقالت: إن كنت صادقًا في قولك فلِمَ بكيت؟ فقلت: يرحمك الله والصادق لا يبكي، فقالت: لا، فقلت: ولِمَ ذلك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب وملجأ يلجأ إليه، وما كتم القلب شيئًا أحقّ من الشهيق والزفير. وأما البكاء فهو عند الأولياء رضي الله تعالى عنهم ضعف، فبقيت متعجبًا من كلامها، فقالت: ما لك؟ قلت: متعجّبًا من كلامك، فقالت: أنسيت الدّاء الذي ذكرته قلت؟ يرحمك الله، إن رأيتِ أن تفيديني شيئًا لعلّ الله تعالى ينفعني به، قالت: فما أفادك الحكيم من الإفادة ما تستغني به عن طلب الزيادة؟ قلت: يرحمك الله ما أنا بمُستَغنٍ عن الزيادة من الأولياء السادة، قالت: صدقت يا مسكين أحبّ مولاك واشتق إليه، فإن له يومًا يتجلّى فيه ببهاء جماله، لإظهار كرامته لأوليائه وأصفيائه وأهل مودّته، فيسقيهم عندما يتجلى لهم بجمال كمال صفاته غدًا كأسًا من راح الجمال وسلسبيل الوصال، لا يظمؤون بعدها أبدًا، ثم غلب عليها الوجد فنادت: يا حبيب قلبي إلى كم تخلفني بدار لا أجد فيها صديقًا صادقًا، ثم تركتني وانحدرت في الوادي وهي تقول: إليك لا إلى النار، إليك لا إلى أهل النار، حتى انقطع صوتها عني رضي الله تعالى عنها، ونفعنا بها آمين.

(الحكاية الحادية والثلاثون بعد المئتين: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا أمشي على شاطىء النيل إذ رأيت عقربًا تدبّ فأخذت حجرًا وأردت قتلها، فهربت مُسرِعة، فوقفت على شاطىء النيل، فخرجت ضفدعة فوثبت العقرب على ظهرها، فعامت بها حتى خرجت بها إلى الجانب الآخر، فتبعتها؛ فلما بلغت البرّ نزلت عن ظهرها، وإذا برجل نائم وهو سكران، وثعبان قد أقبل إليه ليلدغه، فأسرعت العقرب إلى الثعبان فلدغته لدغة فقطع الثعبان منها قطعًا، فأيقظت ذلك الرجل من نومه، فقام فزعًا مرعوبًا؛ فلما رأى الثعبان ولّى هاربًا، فقلت له: لا تخف قد كُفِيت أمره وقصصت

عليه القصة، فأطرق برأسه ثم رفعها إلى السماء وقال: يا ربّ هكذا تفعل بمَن عصاك فكيف بمن أطاعك؟ وعزّتك وجلالك لا عصيتك بعدها أبدًا، ثم ولّى باكيًا وهو يقول:

يا راقدًا والجليل يحرسه	من كلّ سوء يدبّ في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك	تأتيك منه كرائم النِّعَم

(الحكاية الثانية والثلاثون بعد المئتين): حُكِيَ أنَّ إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه مرّ بسكران مطروح على قارعة[1] الطريق وقد طفح سكره من فمه، فنظر إليه إبراهيم وقال: أيّ لسان أصابته هذه الآفة، وقد ذكر الله عزّ وجل، ثم دنا منه وغسل فمه، فلما أفاق أخبر بما فعل إبراهيم به، فخجل وتاب وحَسُنَت توبته، فرأى إبراهيم فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول له: يا إبراهيم طهّرت لأجلنا فمه، فطهّرنا لأجلك قلبه، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الثالثة والثلاثون بعد المئتين): حُكِيَ عن بشر بن الحارث رضي الله تعالى عنه أنه سُئِلَ: ما كان بدء أمرك، لأن اسمك بين الناس كأنه اسم نبيّ؟ قال: هذا من فضل الله تعالى، كنت رجلاً عيّارًا صاحب عصبية، فوجدت يومًا قرطاسًا في الطريق، فرفعته، فإذا فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم فمسحته وجعلته في جيبي، وكان عندي درهمان ما كنت أملك غيرهما، فذهبت إلى العطّار، فاشتريت بهما غالية، وطيّبت بها القرطاس، فنمت تلك الليلة، فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول: يا بشر طيّبت اسمي، لأطيبنّ اسمك في الدنيا والآخرة، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين. وقيل: كان سبب توبة منصور بن عمّار الواعظ رضي الله تعالى عنه، أنه وجد رقعة في الطريق مكتوبًا عليها: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فلم يجد لها موضعًا يضعها فيه، فابتلعها، فسمع في النوم قائلاً يقول له: فتح عليك باب الحكمة باحترامك تلك الرقعة رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الرابعة والثلاثون بعد المئتين): حُكِيَ أنَّ بشرًا الحافي رضي الله تعالى عنه كان في زمن لهوه في داره، وعنده ندماؤه يشربون ويطربون، فاجتاز بهم رجل من الصالحين، فدقّ الباب فخرجت إليه جارية، فقال لها: صاحب هذا الدار حرّ أو عبد؟ قالت: بل حرّ قال: صدقت، لو كان عبدًا لاستعمل آداب العبودية، وترك اللهو والطرب، فسمع بشر محاورته لها، فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا، وقد ولّى الرجل، فقال للجارية: ويحك مَن كلّمك، فأخبرته بما قال، فتبعه بشر حتى لحقه، فقال له: يا

(١) قارعة الطريق: وسطه.

Marfat.com

سيدي أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية، قال: نعم، قال: أعِد عليّ الكلام، فأعاده عليه، فمرّغ بشر خدّيه على الأرض، وقال: بل عبد عبد عبد، ثم هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عُرِفَ بالحافي، فقيل له: لِمَ لا تلبس نعلين؟ قال: لأني ما صالحني مولاي إلا وأنا حافٍ، فلا أزول عن هذه الحال حتى أموت رضي الله تعالى عنه. وقيل: قالت له يومًا بعض البنات الصغار: لو اشتريت نعلين بدانقين لذهب عنك اسم الحافي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الخامسة والثلاثون بعد المئتين: عن الأستاذ أبي عليّ الدقاق رضي الله تعالى عنه) قال: مرّ بشر رضي الله تعالى عنه ببعض الناس فقالوا: هذا الرجل لا ينام الليل ولا يفطر إلا في كل ثلاثة أيام مرّة، فبكى بشر وقال: والله ما أذكر أني سهرت ليلة كاملة، ولا صمت يومًا إلا وأفطرت من ليلته، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفًا منه سبحانه وتعالى وكرمًا. وفي هذا المعنى أقول:

فسبحان مَن أبدى جميل جماله ... على عبده لطفًا وجود جواد
وأخفى المساوي والعيوب تكرّمًا ... وحلمًا تعالى ساتر العبّاد

(الحكاية السادسة والثلاثون بعد المئتين: عن فاطمة بنت أحمد أخت الشيخ أبي عليّ الروذباري رضي الله تعالى عنهما) قالت: كان ببغداد عشرة من الفتيان معهم عشرة أحداث فوجّهوا واحدًا من الأحداث في حاجة لهم، فأبطأ فحردوا عليه، فجاء وهو يضحك وبيده بطيخة، فقالوا: تبطىء وتجيء وأنت تضحك، فقال: جئتكم بأُعجوبة، قالوا: وما هي؟ قال: وضع بشر رضي الله تعالى عنه يده على هذه البطيخة فاشتريتها بعشرين درهمًا، فأخذ كلّ واحد منهم يقبّلها ويضعها على عينيه، فقال واحد منهم: أيّ شيء بلغ بشرًا رضي الله تعالى عنه هذه المرتبة؟ فقالوا: التقوى، فقال: إني أشهدكم أني تائب إلى الله تعالى، فقال: القوم كلهم مثله، ويقال: إنهم خرجوا إلى طرسوس[1] فاستشهدوا كلهم، رحمهم الله تعالى.

(الحكاية السابعة والثلاثون بعد المئتين: عن بعض أهل العلم) قال: كان عندنا ببغداد رجل من التجار كنت أسمعه يقع في الصوفية كثيرًا ثم رأيته بعد ذلك صحبهم وأنفق جميع ماله عليهم، فقلت له: أليس كنت تبغضهم؟ فقال لي: ليس الأمر على ما كنت أتوهم، قلت له: كيف ذلك؟ قال: صلّيت الجمعة يومًا من الأيام، فرأيت بشرًا الحافي رضي الله تعالى عنه خارجًا من الجامع مسرعًا، فقلت في نفسي: أنظر هذا الرجل الموصوف بالزهد ليس يستقرّ في المسجد، فتركت حاجتي وقلت: أنظر أين يذهب فتبعته

---

(١) طرطوس: بلد بالشام مشرفة على البحر قرب المرقب وعكا. (معجم البلدان ٤/ ٣٠).

فرأيته تقدم إلى الخبّاز فاشترى بدرهم خبزًا لما، فقلت: انظر إلى هذا الزاهد يشتري خبزًا لما، ثم تقدّم إلى الشواء فأعطاه درهمًا وأخذ شِواء، فزادني غيظًا، ثم تقدم إلى الحلواني فاشترى فالوذجًا بدرهم، فقلت في نفسي: والله لأنغصنّ عليه حين يجلس يأكل، فخرج إلى الصحراء وأنا أقول يريد الخضرة والماء فما زال يمشي إلى العصر وأنا خلفه، فدخل قرية ثم دخل مسجدًا فيه مريض، فجلس عند رأسه وجعل يلقمه، فقمت لأنظر إلى القرية، فغبت ساعة ثم رجعت فلم أجده، فقلت للعليل: أين بشر؟ قال: ذهب إلى بغداد، قلت: وكم بيننا وبين بغداد؟ قال: أربعون فرسخًا، يعني مسيرة خمس مراحل فقلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ما هذا الذي عملت بنفسي وليس معي ما أكتري به ولا أقدر على المشي، قال: اجلس حتى يرجع، فجلست إلى الجمعة الأخرى، فجاء بشر في ذلك الوقت ومعه شيء يأكله المريض؛ فلما فرغ قال له: يا أبا نصر هذا صحبك من بغداد وبقي عندي منذ يوم الجمعة الأولى فردَّه، قال: فنظر إليَّ كالمغضب وقال: لِم صحبتني، فقلت: أخطأت، قال: قم فامشِ، فمشيت إلى قرب المغرب؛ فلما قربنا قال: أين محلتك من بغداد؟ قلت: كذا وكذا، قال: اذهب ولا تعُد، فتبت إلى الله تعالى وصحبتهم وأنا على ذلك إن شاء الله تعالى، رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية الثامنة والثلاثون بعد المائتين): حُكِيَ عن بعض الصالحين كلام معناه أنه قال: دخلت الخلوة في أيام بدايتي، وعاهدت الله تعالى أن لا آكل شيئًا إلا بعد أربعين يومًا، فمكثت نيفًا وعشرين يومًا، واشتدّت عليّ الفاقة والضرورة، فخرجت من الخلوة ولم أشعر بنفسي إلا وأنا في السوق، وإذا بفقير يتمنى في السوق يقول: تمنيت على الله الكريم رطل خبز حواري[1] ورطل شِواء ورطل حلوى، قال: فكنت أستثقله وهو يطوف في السوق ويمرّ عليّ ولا يكلّمني وأنا أقول في نفسي: والله إن هذا ثقيل يتمنى هذه الشهوات العزيزة وأنا أطلب كسرة يابسة ما حصلت لي؛ فلما كان بعد ساعة حصل له الذي يتمنى، فجاءني به وأعطانيه وعصر بأذني وقال: مَن هو الثقيل الذي نقض العهد وخرج من الخلوة لأجل شهوة أو الذي يطلب له من الطيبات النّفاس ما يردّ عليه القوّة والحواسّ؟ ثم قال: إنَّ الذي يريد أن يطوي الأربعين يطويها بالتدريج، ولا يطويها وثبة واحدة فيثور عليه كلب الجوع ويهيج، ثم قال: لا تعد إلى هذا المذهب، وتركني وذهب، رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما آمين.

(الحكاية التاسعة والثلاثون بعد المائتين): رُوِيَ عن بعض شيوخ اليمن رضي الله تعالى عنهم أنه خرج يومًا من زبيد إلى نحو الساحل المعروف بالأهواب ومعه تلميذ له،

---

(١) الحواري: لباب الدقيق الأبيض.

Marfat.com

فمرّ بطريقه على قصب ذرّة كبار، فقال للتلميذ: خذ معك من هذا القصب، ففعل التلميذ وتعجب في نفسه وقال: ما أراد الشيخ بهذا، ولم يقل له الشيخ شيئًا حتى بلغا إلى محلة العبيد الذي يُقال لهم: السناكم يأكلون الميتات ويشربون المُسكِرات ولا يعرفون الصلوات، وإذا بهم يشربون ويلعبون ويلهون ويطربون ويغنون ويضربون، فقال الشيخ للتلميذ ائتني بهذا الشيخ الطويل الذي يضرب الطبل، فأتاه التلميذ، فقال له أجب الشيخ، فرمى بالطبل من رقبته ومشى معه إلى الشيخ، قال: فلما وقفنا بين يديه، قال الشيخ للتلميذ: اضربه بالقصب، فضربه حتى استوفى منه الحدّ، ثم قال الشيخ: امشِ أمامنا، فمشى حتى بلغوا البحر، فأمره الشيخ أن يغسل ثيابه ويغتسل، وعلّمه كيفية ذلك، وكيفية الوضوء، ففعل، ثم علّمه كيف يصلّي، وتقدّم الشيخ فصلّى بهما الظهر؛ فلما فرغوا من الصلاة قام الشيخ ووضع سجادته على البحر وقال له: تقدّم، فقام ووضع قدميه على السجادة، ومشى على الماء حتى غاب عن العين، فالتفت التلميذ إلى الشيخ وقال: وامصيبتاه واحسرتاه لي معك كذا وكذا سنة ما حصل لي شيء من هذا، وهذا في ساعة واحدة حصل له هذا المقام، وهذه الكرامات العِظام، فبكى الشيخ وقال: يا ولدي وإيش كنت أنا؟ هذا فعل الله تعالى، قيل لي: فلان من الأبدال توفي فأقم فلانًا مقامه، فامتثلت الأمر كما تمتثل الخدّام، وودِدت أنه حصل لي هذا المقام رضي الله تعالى عنه وهذا الشيخ الجليل الفاضل يقال له الشيخ: عليّ بن المرتضى من أصحاب الشيخ الكبير محمد بن أبي الباطل الذي أنشد فيه تلميذه وهو راحل، وقال لله درّه من قائل:

ليت شعري أيّ أرض أجدبت ... فسقوها بك يا وجه الفرج
ساقك الله إليها رحمة ... فبجاهك ما عليهم من حرج

يعني ساقك الله في هذا السفر إلى مكان يريد إغاثة أهله بك، ولست أدري الآن أين ذلك المكان، فلما وصل إلى عدن أقام بها مدة يسيرة وتوفي، وقبره هناك مزور مشهور، رضي الله تُعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الأربعون بعد المئتين): رُوِيَ أن الشيخ الكبير المشكور المسمى بجوهر المشهور، الذي هو في عدن مقبور رضي الله تعالى عنه كان مملوكًا فعتق، وكان يبيع ويشتري في السوق، ويحضر مجالس الفقراء ويعتقدهم وهو أُميّ، فلما حضرت وفاة الشيخ الكبير سعد الحداد المدفون بعدن رضي الله تعالى عنه، قال له الفقراء: مَن يكون الشيخ بعدك؟ قال: الذي يقع على رأسه طائر أخضر في اليوم الثالث من موتي عندما يجتمع الفقراء هو الشيخ؛ فلما توفي اجتمع الفقراء عند قبره ثلاثة أيام؛ فلما كان اليوم الثالث وفرغوا من القراءة والذِّكر، قعدوا ينتظرون ما وعدهم الشيخ، فإذا بطير أخضر وقع

قريبًا منهم، فبقي كل أحد من كبار الفقراء ينتظر ذلك ويتمناه، فبينما هم كذلك ينتظرون الوعد الكريم وما يكون فيه من تقدير العزيز العليم، وإذا بالطائر قد طار ووقع على رأس جوهر ولم يكن يخطر له ولا لأحد من الفقراء ذلك فقام إليه الفقراء ليزفّوه إلى زاوية الشيخ، وينزلوه منزلة المشيخة، فبكى وقال: كيف أصلح للمشيخة، أنا رجل سوقي وأمي لا أعرف طريق الفقراء وآدابهم، وعليّ تَبِعات، وبيني وبين الناس معاملات، فقالوا له: هذا أمر سماوي نزل ولا بدّ لك منه، والله تعالى يتولى تعليمك ومعونتك وهو يتولى الصالحين، فقال: أمهلوني حتى أمضي إلى السوق، وأبرأ من حقوق الخلق فأمهلوه، فذهب إلى دكانه ووفّى كلّ ذي حقٍّ حقه، ثم ترك السوق ولزم الزاوية ولازمه الفقراء وصار جوهرًا كاسمه، وله رضي الله تعالى عنه من الفضائل والكرامات ما يطول ذكره فسبحان المنان الكريم، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء﴾ [المائدة: ٥٤] ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ [البقرة: ١٠٥]! وقال بعض العارفين رضي الله تعالى عنه: مَن تؤلته رعاية الحقّ أجلّ ممّن تؤدّبه سياسة العلم، ولقد أحسن في هذا المقال. وقال آخر منهم: يحتاج المسافر في سفره أو قال السالك في سلوكه إلى أربعة أشياء: علم يوسوسه، وذِكر يؤنسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله. قلت: ومَن حصل له ما قاله الأول مَن تولى رعاية الحقّ لا يحتاج إلى هذه الأربعة المذكورة لأنه حينئذ يكون معلّمًا ومؤنسًا ومحفوظًا ومحمولاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(الحكاية الحادية والأربعون بعد المئتين): رُوِيَ أن ابن السماك رضي الله تعالى عنه وعظ يومًا، فأعجبه وعظه، فلما انصرف إلى منزله ونام سمع قائلاً يقول:

يا أيها الرجل المعلّم غيره ... هلاّ لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السّقامة والضنى ... ومن الضنى والدّاء أنت سقيم
وأراك تلقح بالرشاد عقولنا ... صفة وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدي ... بالوعظ منك وينفع التعليم
لا تَنْهَ عن خلق وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

فلما استيقظ حلف أن لا يعظ الناس شهرًا. وقيل: إنه اجتمع فُضَيل بن عِياض ومحمد بن السماك رضي الله تعالى عنهما، فقال الفُضَيل العالِم طبيب الدين والمال داء الدين، فإذا جرّ الطبيب الداء إلى نفسه، فكيف يداوي غيره. وفي هذا المعنى أنشدوا لبعض الفضلاء:

إن زاد مالك لم تزدد به قنعا ... أو زاد علمك لم تزدد به وجعا
آثرت دنياك مسرورًا بلذّتها ... وقد تركت التّقى والزهد والورعا
وكيف ينفع علم منك سامعه ... ولا يراك بذاك العلم منتفعا

Marfat.com

(الحكاية الثانية والأربعون بعد المئتين): حُكِيَ عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه أنه أفتى في مسألة فقال له إنسان: إنَّ الفقهاء خالفوك فيها، فقال له الحسن: ويحك، وهل رأيت فقيهًا قطّ، إنما الفقيه من زهد في الدنيا. وقال رضي الله تعالى عنه: الناس في هذه الدنيا على خمسة أصناف: العلماء هم ورثة الأنبياء، والزهّاد هم الأدلاّء، والغزاة هم أسياف الله تعالى، والتجار هم أُمناء الله عزّ وجلّ، والملوك هم رعاة الخلق، فإذا أصبح العالم طامعًا وللمال جامعًا فبمَن يقتدي؟ وإذا أصبح الزاهد راغبًا فبمَن يستدلّ ويهتدي؟ وإذا أصبح الغازي مُرائِيًا، والمُرائي لا عمل له، فمَن يظفر بالعِدا؟ وإذا كان التاجر خائنًا فمَن يؤتمَن ويرتضي؟ وإذا أصبح الملك ذئبًا فمَن يحفظ الغنم ويرعى؟ والله ما أهلك الناس إلا العلماء المُداهنون، والزهّاد الراغبون، والغُزاة المُراؤون، والتجّار الخائنون، والملوك الظالمون، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وأنشد الشيخ الصالح العالِم العامل الإمام الفاضل عبد العزيز الديريني[١] لنفسه رضي الله تعالى عنه:

إذا ما مات ذو علم وتقوى ... فقد ثلمت من الإسلام ثلمه
وموت العابد المرضيّ نقص ... ففي مرآه للأسرار نسمه
وموت العادل الملك المولى ... بحكم الحقّ منقصة وقصمه
وموت الفارس الضرغام هدم ... فكم شهدت له بالنصر عزمه[٢]
وموت فتى كثير الجود محل ... فإن بقاءه خصب ونعمه
فحسبك خمسة يُبكى عليهم ... وموت الغير تخفيف ورحمه

(الحكاية الثالثة والأربعون بعد المئتين) قال المؤلف غفر الله له: أخبرني بعض أصحاب الشيخ عبد العزيز الديريني المذكور رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع الشيخ عبد العزيز في بعض السياحات، فانتهينا إلى قبر في بعض البراري، فجلس الشيخ عبد العزيز عند القبر يبكي، فسألته عن ذلك فقال: كان صاحب هذا القبر من أولياء الله سبحانه وتعالى اتفق لي معه حكاية عجيبة، قال: فقلت له: وما هي؟ قال: عرضت لي حاجة في بعض البلاد مع بعض الناس، فسافرت لتلك الحاجة وأدركتني صلاة المغرب في الطريق، فعدلت إلى مسجد فوجدت فيه فقيرًا يصلي بجماعة، فصلّيت خلفه، وإذا به

---

(١) هو عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديريني (٦١٢ ـ ٦٩٤ هـ = ١٢١٥ ـ ١٢٩٥ م). فقيه شافعي من الزهّاد، نسبته إلى «ديرين» في غربية مصر، وقبره بها. من كتبه «التيسير في علم التفسير» و«طهارة القلوب، والخضوع لعلاّ الغيوب» وغير ذلك. الأعلام ٤/١٣؛ وطبقات الشافعية ٥/٧٥.

(٢) الضرغام: الشجاع.

Marfat.com

يلحن في قراءته، فتشوّشت من ذلك وقلت في نفسي: وأنا في الصلاة أُقيم هٰهنا أعلم هذا الفقير كيف يقرأ في صلاته، وأترك حاجتي فهذا أولى، وهذا يتعيَّن عليّ، فلما سلَّمنا من الصلاة التفت إليّ وقال: يا شيخ عبد العزيز الحق حاجتك التي جئت إليها، فإن صاحبك الذي هي عنده يريد السفر، فاذهب لحاجتك وما عليك من هذا اللحن الذي سمعته والتعليم الذي نويته، قال: فتعجبت من مكاشفته لي، وخرجت في الحال لحاجتي بإشارته، وأسرعت في السير، فلما دخلت البلدة التي فيها حاجتي وجدت صاحبي قد ركب يريد سفرًا، فلما رآني توقف حتى قضى لي حاجتي، ولو تأخرت قليلاً لفاتني مطلوبي، فازددت تعجبًا من ذلك الفقير وحبًا له، ونويت ملازمته والتماس بركته وما لبثت إلا مدة يسيرة وتوفي، وهذا قبره رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم.

(الحكاية الرابعة والأربعون بعد المئتين: عن بعض أهل العلم) قال: كنت في المصيصة[١] فإذا برجلين يتكلمان في الخلوة مع الله تعالى، فلما أرادا أن ينصرفا قال أحدهما للآخر: تعالَ نجعل لهذا العلم ثمرة ولا يكون حجة علينا، فقال له اعزم على ما شئت، فقال: عزمت على أن لا آكل ما لمخلوق فيه صنع، قال: فتبعتهما وقلت: أنا معكما، فقالا: على الشرط، قلت: على أيّ شرط شرطتما؟ فصعدا جبل لكام ودلآني على كهف وقالا تعبّد فيه، فدخلت فيه وجعل كل واحد منهما يأتيني بما قسم الله تعالى لي، وبقيت مدة ثم قلت: إلى متى أُقيم هٰهنا، أنا أسير إلى طرسوس وآكل من الحلال، وأعلّم الناس العلم وأُقرىء القرآن، فخرجت ودخلت طرسوس، فأقمت بها سنة، فإذا أنا برجل منهما قد وقف عليّ وقال: يا فلان خنت في عهدك ونقضت الميثاق، أما إنك لو صبرت كما صبرنا لوهب لك كما وُهِبَ لنا، قلت: ما الذي وُهِبَ لكما؟ قال: ثلاثة أشياء: طيّ اورض من المشرق إلى المغرب بقدم واحد، والمشي على الماء، والحجبة إذا شئنا، ثم احتجب عني، فقلت: بالذي وهب لك هذا الحال إلا ما ظهرت لي فقد شويت قلبي فظهر، وقال: سَلْ، فقلت: هل لي إلى ذلك الحال عودة؟ فقال: هيهات لا يؤتَمَن الخائن، وأنشأ يقول:

مَن سارروه فأبدى السرّ مشتهرًا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه ولم يسعد بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
ومَن أتاهم بهم لم يحجبوه به ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا
فكن بهم ولهم في كلّ نائبة ... إليهم ما بقيت الدهر هشاشا

---

(١) المصيصة: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. (معجم البلدان ٥/ ١٤٥).

Marfat.com

(الحكاية الخامسة والأربعون بعد المئتين: عن يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى) قال: بلغني أن ذا النون رضي الله تعالى عنه تعلّم اسم الله الأعظم، فخرجت من مكة قاصدًا إليه حتى وافيته في جيزة[1] مصر، فأوّل ما بصر بي رآني طويل اللحية وفي يدي ركوة كبيرة متزرًا بمئزر وعلى كتفي مئزر وفي رجلي تاسومة، فاستبشع منظري، فلما سلّمت عليه كأنه ازدراني وما رأيت منه تلك البشاشة، فقلت في نفسي: تُرى مع مَن وقعت، فجلست عنده. فلما كان بعد يومين أو ثلاثة جاءه رجل من المتكلمين فناظره في شيء من الكلام، فاستظهر على ذي النون وغلبه، فاغتممت لذلك، فتقدمت وجلست بين أيديهما، واستملت المتكلم إليّ وناظرته حتى قطعته، ثم دققت حتى لم يفهم كلامي، قال: فعجب ذو النون من ذلك وكان شيخًا وأنا أصغر منه، فقام من مكانه وجلس بين يديّ وقال: اعذرني، فإني لم أعرف مكانك من العلم وأنت آثر الناس عندي، وما زال بعد ذلك يبجّلني ويرفعني على جميع أصحابه حتى بقيت على ذلك سنة كاملة، فقلت له بعد السنة: يا أستاذ أنا رجل غريب وقد اشتقت إلى أهلي، ولي في خدمتك سنة، ووجب حقي عليك، وقيل لي: إنك تعلم الاسم الأعظم، وقد جرَّبتني وعرفتني، فإن كنت تعرفه فعلّمني إياه، قال: فسكت عني ولم يجبني بشيء وأوهمني أنه ربما علّمني، ثم سكت عني ستة أشهر؛ فلما كان بعد ذلك قال: يا أبا يعقوب أليس نعرف فلانًا صديقنا بالفسطاط الذي يأتينا وسمّى رجلاً، فقلت له: بلى، قال: فأخرج إليّ طبقًا فوقه مكبة مشدودة بمنديل، فقال لي: أُوصل هذا إلى مَن سمّيت لك بالفسطاط، فأخذت الطبق فإذا هو خفيف كأنه ليس فيه شيء، فلما بلغت الجسر الذي بين الفسطاط والجيزة قلت في نفسي: يوجّه ذو النون بهدية إلى رجل في طبق ليس فيه شيء؟ لأبصرنّ ما فيه، فحللت المنديل ورفعت المكبّة، فإذا فأرة قد نفرت من الطبق فذهبت، فاغتظت وقلت: سخر بي ذو النون، ولم يذهب وهمي في الوقت إلى ما أراد، فرجعت إليه مغضبًا، فلما رآني تبسّم وعرف القصة وقال: يا مجنون ائتمنتك على فأرة فخنتني، فكيف أأتمنك على اسم الله الأعظم قم عني فارتحل ولا أراك بعد هذا، فانصرفت عنه.

(الحكاية السادسة والأربعون بعد المئتين: عن عمر البناني رضي الله تعالى عنه) قال: مررت براهب[2] في مقبرة وفي كفّه اليمنى حصًى أبيض وفي كفّه اليسرى حصًى

---

(١) الجيزة: بليدة في غربي فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة كبيرة، واسعة، وهي من أفضل كور مصر. (معجم البلدان ٢/ ٢٠٠).

(٢) الراهب: المتعبِّد في صومعته يتخلى عن أشغال الدنيا وملاذها، زاهدًا فيها معتزلاً لأهلها (ج) رهبان.

أسود، فقلت: يا راهب ما تصنع هٰهنا؟ قال: إذا فقدت قلبي أتيت المقابر فاعتبرت بمَن فيها، فقلت: ما هذا الحصى الذي في كفّك؟ فقال: أما الحصى الأبيض إذا عملت حسنة ألقيت منها واحدة في الأسود وإذا عملت سيئة ألقيت من هذا الأسود واحدة في الأبيض، فإذا كان الليل نظرت، فإن فضلت الحسنات على السيئات أفطرت وقمت إلى وِردي، وإن فضلت السيئات على الحسنات لم آكل طعامًا ولم أشرب شرابًا في تلك الليلة، هذه حالتي والسلام عليك.

(الحكاية السابعة والأربعون بعد المئتين: عن ذي النون رضي الله تعالى عنه) قال: لقيت شيبان المصاب، فقلت له: ادعُ لي، فقال: آنسك الله بقربه، ثم شهق شهقة وغشي عليه، ولم يفِق إلا بعد يومين؛ فلما أفاق قال:

إن ذكر الحبيب هيَّج شوقي ... ثم حبّ الحبيب أذهل عقلي

وقال أيضًا رضي الله تعالى عنه:

ترى المُحبِّين صرعى في ديارهم ... كفِتية الكهف لا يدرون كم لبثوا
والله لو حلف العشاق أنهم ... قتلى من الحبّ يوم البين ما حنثوا[1]

وقيل: أتى رجل إلى العلاء بن زياد رضي الله تعالى عنه فقال له: إن آتيًا أتاني في منامي فقال لي: ائت العلاء بن زياد وقل له: كم تبكي وقد غفر لك؟ قال: فبكى ثم قال: الآن يحقّ لي أن لا أهدأ. وأنشدوا:

وما في الأرض أشقى من محبّ ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا في كلّ حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراق

وحُكِيَ عن الجنيد رضي الله تعالى عنه أنه قال: رأيت آدم عليه السلام في المنام وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك أليس قد غفر الله تعالى لك، ووعدك بالرجوع إلى الجنة؟ فناولني ورقة مكتوبة، فاستيقظت من منامي ووجدتها في يدي وإذا فيها:

أتحرقني بالنار نار مَن النوى ... ولو نار النوى أحرّ من النارِ
شغفت بجار لا بدار سكنها ... على الجار أبكي لا على سكنة الدارِ
ولم يعدني بالرجوع إلى المنى ... هلكت ولكن نلت بالوعد أوطاري

---

(١) البين: الفرقة.

Marfat.com

(الحكاية الثامنة والأربعون بعد المئتين): حُكِيَ أنَّ سالمًا الحدّاد رضي الله تعالى عنه كان من الأبدال، وكان يتردد إلى فتح الموصلي رضي الله تعالى عنه، وكان إذا سمع الأذان يتغيّر لونه ويصفرّ ويضطرب ثم يثب ويترك الحانوت مفتوحًا، وينشد:

إذا ما دعا داعيكم قمت مسرعًا … مُجيبًا لمولى جلّ ليس له مثلُ
أُجيب إذا نادى بسمع وطاعة … وبي نشوة لبَّيك يا مَن له الفضلُ
ويصفرّ لوني خيفة ومهابة … ويرجع لي عن كلّ شغل به شغلُ
وحقكم ما لذّ لي غير ذكركم … وذكر سواكم في فمي قطّ لا يحلو
متى تجمع الأيام بيني وبينكم … ويفرح مشتاق إذا جمع الشملُ
فمَن شاهدت عيناه نور جمالكم … يموت اشتياقًا نحوكم قطّ لا يسلو

(الحكاية التاسعة والأربعون بعد المئتين: عن بعض أصحاب فتح الموصلي رضي الله تعالى عنه) قال: دخلت يومًا على فتح فوجدته يبكي وقد خالطت دموعه صُفرة، فقلت له: بالله عليك يا سيدي فتح، هل بكيت الدم؟ فقال: والله لولا أنك أقسمت بالله عليّ ما أخبرتك، بكيت الدمع وبكيت الدم، فقلت: علامَ بكيت الدمع؟ قال: على تخلّفي عن الله عزّ وجلّ، فقلت: فعلامَ بكيت الدم؟ قال: على الدموع أن لا تصحّ لي، قال: فلما توفي رأيته في المنام، فقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ قال: غفر لي وقال: يا فتح بكيت كل هذا البكاء على ماذا؟ فقلت: يا ربّ على تخلّفي عن حقك، قال: والدم لِمَ بكيت؟ قلت: يا ربّ على الدموع أن لا تصحّ لي، قال: يا فتح فما أردت بهذا كله؟ وعزّتي وجلالي لقد صعد إليّ حافظاك منذ أربعين سنة بصحيفتك وما فيها خطيئة. قلت، قوله: أن لا تصحّ لي، معناه أن لا تقبل مني، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(الحكاية الخمسون بعد المئتين: عن ذي النون رضي الله تعالى عنه) قال: كنت في جبال بيت المقدس، وإذا برجل قد اتّزر بالخوف واتّشح بالرجاء، فتقدّمت إليه وسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، فقلت له: من أين أقبلت يرحمك الله؟ قال: من حظيرة الأنس، قلت: وإلى أين تريد؟ قال: إلى راحة النفس، ثم ولّى وهو يقول:

هجر الخلق كلهم وتخلّى … فهو بالله طيب الخلواتِ
قال للنفس: ساعديني وجدي … ليس نقض العهود فعل الثقاتِ
ليس مَن يطلب الحبيب فتورًا … فاسلي الدمع واهجري الترّهاتِ[1]

(١) الترّهات: (ج) الترّهة: الباطل أو القول الخالي من النفع، والتافه والمزخرف.

Marfat.com

هـل رأيـتـم مـدلّـلاً فـي عـذاب | وعـروسًـا تـواصـل الـعـبـراتِ
مـلـك جـائـع غـنـيّ فـقـيـر | مُـشـرِق وجـهـه مـن الـحـسـنـاتِ
لـم يـرم عـرسـه الـذي هـو مـاضٍ | إنـمـا رام عـرسـه الـذي هـو آتـي
فـلـعـمـري لـتـخـلـعـنّ عـلـيـه | خـلـع الـعـزّ مـع جـزيـل الـهـبـاتِ

(الحكاية الحادية والخمسون بعد المئتين: عن بعضهم) قال: خرجت في بعض حوائجي فبينما أنا في فلاة من الأرض إذا برجل يدور بشجرة شوك، ويأكل منها رطبًا، فسلّمت عليه، فقال: وعليك السلام، تقدّم وكل، فنزلت عن ناقتي وتقدّمت إلى الشجرة، فكلما أخذت منها رطبًا عادت شوكًا، فتبسّم الرجل وقال: هيهات لو أطعمته في الخلوات أطعمك الرطب في الفلوات رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين. وقال بعضهم: كنت مع ذي النون رضي الله تعالى عنه في البادية، فنزلنا تحت شجرة أُم غيلان، فقلنا: ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رطب، فتبسّم ذو النون وقال: تشتهون الرطب، وحرّك الشجرة وقال: أقسمت عليك بالذي ابتدأك وخلقك شجرة إلا ما نثرت علينا رطبًا جنيًا، ثم حرّكها فنثرت رطبًا جنيًا، فأكلنا وشبعنا. ثم نمنا وانتبهنا وحرّكنا الشجرة، فنثرت علينا شوكًا. وقال محمد بن المبارك الصوري رحمه الله تعالى: كنت مع إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه في طريق بيت المقدس فنزلنا وقت القيلولة[1] تحت شجرة رمانة، فصلّينا ركعات وسمعت صوتًا من أصل تلك الرمانة يقول: يا أبا إسحٰق أكرمنا بأن تأكل منّا شيئًا، فطأطأ إبراهيم رضي الله تعالى عنه رأسه، فقال ثلاث مرّات ثم قال: يا محمد كن شفيعنا إليه ليتناول منّا شيئًا، فقلت له: يا أبا إسحٰق لقد سمعت فقام وأخذ رمّانتين، فأكل واحدة وناولني الأخرى فأكلتها وهي حامضة، وكانت شجرة قصيرة؛ فلما رجعنا من زيارتنا إذا هي شجرة عالية ورمّانها حلو، وهي تُثمِر في كل عام مرّتين، وسمّوها رمّانة العابدين، ويأوي إلى ظلها العابدون رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية الثانية والخمسون بعد المئتين: عن بعضهم) قال: انكسرت بنا السفينة وبقيت أنا وامرأتي على لوح، وقد ولدت في تلك الحالة صبية فصاحت بي وقالت: يقتلني العطش، فقلت: هو ذا يرى حالنا، فرفعت رأسي فإذا برجل في الهواء جالس وبيده سلسلة من ذهب فيها كوز من ياقوت أحمر وقال: هاكَ اشربا، فأخذت الكوز وشربنا منه، فإذا هو أبرد من الثلج وأحلى من العسل وأطيب من المسك، فقلت له: مَن أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا عبد لمولاك فقلت: بِمَ وصلت إلى هذا؟ فقال: تركت

(١) القيلولة: نومة نصف النهار، أو الاستراحة فيه، وإن لم يكن نوم.

Marfat.com

الهوى لمرضاته فأجلسني على الهواء، ثم غاب عني فلم أره رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين. وقال بعضهم: كنّا بعسقلان وشاب يغشانا يتحدّث معنا، فإذا فرغنا قام إلى الصلاة يصلي، فودّعني وقال: أُريد الإسكندرية، فخرجت معه وناولته دريهمات فأبى أن يأخذها، فألححت عليه فألقى كفًا من الرمل في ركوته، واستقى من ماء البحر وقال كلمة، فإذا هو سويق بسكر كثير، فقال: مَن كان حاله معه مثل هذا يحتاج إلى دراهمك؟ ثم أنشأ يقول:

بحقّ الهوى يا أهل وذي تفهموا ... لسان وجود بالوجود غريب
حرام على قلب تعرّض للهوى ... يكون لغير الحقّ فيه نصيب

(الحكاية الثالثة والخمسون بعد المئتين: عن بعض أصحاب الشيخ أبي تراب النخشبي رضي الله تعالى عنه) قال: كنّا مع أبي تراب في طريق مكة، فعدل عن الطريق إلى ناحية، فقال له بعض أصحابه: يا سيدي أنا عطشان، فضرب برِجله الأرض، فإذا عين ماء زلال[1]، فقال الفتى أحبّ أن أشربه في قدح، فضرب بيده الأرض، فناوله قدحًا من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب منه وسقانا، وما زال القدح معنا إلى مكة. وقال الأستاذ أبو عليّ الدقاق رضي الله تعالى عنه: ظهرت علّة بيعقوب بن الليث[2] أعيت الأطباء، فقالوا له: في ولايتك رجل صالح يسمى سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه لو دعا لك، لعلّ الله سبحانه وتعالى يستجيب له، فاستحضره وقال له: ادعُ الله تعالى لي، فقال سهل: كيف يستجيب دعائي فيك وفي حبسك مظلومون؟ فأطلق كلّ مَن كان في حبسه، فقال سهل: اللّهمّ كما أريته ذلّ المعصية فأره عزّ الطاعة وفرّج عنه، فعوفي فعرض مالاً على سهل، فأبى أن يقبله، فقيل له: لو قبلته ودفعته إلى الفقراء، فنظر إلى الحصباء في الصحراء، فإذا هي جواهر، فقال: مَن يعطي مثل هذا يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث؟

(الحكاية الرابعة والخمسون بعد المئتين: عن سعيد بن يحيىٰ البصري رضي الله تعالى عنه) قال: أتيت عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه وهو جالس في ظلّ، فقلت له: لو سألت الله عزّ وجلّ أن يوسع عليك الرزق لرجوت أن يفعل، فقال: ربّ أعلم بمصالح عباده، ثم أخذ حصاة من الأرض وقال: اللّهمّ إن شئت أن تجعلها ذهبًا فعلت، فإذا هي والله في يده ذهب فألقاها إليّ وقال: أنفقها أنت فلا خير في الدنيا إلا

---

(١) الزُلال من الماء أو الشراب: العذب البارد الصافي السهل المرور في الحلق.

(٢) انظر ترجمته في: الأعلام ٨/ ٢٠١، ٢٠٢؛ وابن خلكان ٢/ ٣١٢؛ وابن الأثير ٧/ ٦٠ ـ ١٠٧؛ والنجوم الزاهرة ٣/ ٤٠.

Marfat.com

للآخرة. وقال أبو زيد رضي الله تعالى عنه: دخل عليّ أستاذي أبو عليّ السندي وبيده جراب، فصبّه فإذا هو جواهر، فقلت له: من أين لك ذلك؟ قال: أتيت واديًا هناك فإذا هو يُضيء كالسراج، فحملت هذا منه. وقال الشيخ أبو بكر الكتاني رضي الله تعالى عنه: كنت في طريق مكة تائهًا يومًا، فإذا بهميان[1] يلمع، فإذا به دنانير، فهممت أن أحمله وأُفرّقه على فقراء مكة، فهتف بي هاتف: إن أخذته سلبنا عنك فقرك.

(الحكاية الخامسة والخمسون بعد المئتين): حُكِيَ أنَّ حبيبًا العجميّ رضي الله تعالى عنه كانت له زوجة سيئة الخلق، فقالت له يومًا: إذا لم يفتح الله عليك بشيء فأجر نفسك، واعمل في الفاعل، فخرج إلى الجبّانة وصلّى إلى العشاء، ثم أتى بيته خجلاً من توبيخها مشغول القلب من شرّها، فقالت: أين أجرتك؟ فقال لها: إن الذي استأجرني كريم استحييت من استعجاله فمكث كذلك أيامًا يصلي في الجبانة إلى الليل، وتقول له زوجته: أين أجرتك كلّ يوم، فيقول لها استأجرني كريم فخفت من استعجاله، فلما طال عليه الحال، قالت له: اطلب أُجرتك من هذا أو أجر نفسك من غيره، فوعدها أنه يطلب الأُجرة، وخرج إلى عادته، فلما أمسى عاد إلى منزله خائفًا منها، فرأى في بيته دخانًا ومائدة منصوبة، وزوجته مستبشرة فرحة، فقالت له: قد بعث لنا الذي استأجرك ما يبعث الكرام وقال رسوله لي: قولي لحبيب يجدّ في العمل، وليعلم أنّا لم نؤخّر أجرته بخلاً ولا عدمًا، فيقرّ عينًا ويطيب نفسًا، ثم أرته أكياسًا مملوءة دنانير، فبكى حبيب وقال لزوجته: هذه الأُجرة من كريم بيده خزائن السمٰوات والأرض، فلما سمعت ذلك تابت إلى الله تعالى، وأقسمت أنها لا تعود إلى ما كانت عليه.

(الحكاية السادسة والخمسون بعد المئتين): رُوِيَ أنَّ عطاء الأزرق رضي الله تعالى عنه دفعت إليه زوجته درهمين وقالت له: اشترِ لنا دقيقًا بهما، فخرج إلى السوق، فرأى مملوكًا يبكي، فقال له: لِمَ تبكي؟ فقال: إنَّ مولاي دفع إليَّ درهمين أشتري بهما شيئًا فسقطا مني، وأخاف أن يضربني، فدفع إليه عطاء الدرهمين ومضى يصلي إلى وقت المساء، وانتظر شيئًا يفتح به عليه، فلم يفتح عليه بشيء، فقعد على دكان صديق له نجار، فقال له: خذ من هذه النجارة لعلكم تحتاجون إليها تحمون بها التنور، فليس لي شيء أوسيك به، فأخذ ذلك في جرابه ورجع إلى بيته وفتح الباب وطرح الجراب في البيت، ومضى إلى المسجد فصلّى فيه العشاء وقعد حتى مضى شيء من الليل رجاء أن ينام أهله كيلا يخاصموه، ثم جاء إلى البيت فوجدهم يخبزون الخبز، فقال لهم: من أين لكم الدقيق؟ قالوا: من الذي حملته في الجراب، ما بقيت تشتري لنا الدقيق إلا من الذي اشتريت لنا هذا منه، فقال: أفعل هذا إن شاء الله تعالى.

---

(١) الهميان: كيس تُجعَل فيه النفقة يُشدّ في الوسط (مع) (ج) همايين.

Marfat.com

(الحكاية السابعة والخمسون بعد المئتين: عن بعض الصالحين) قال: خرج رجل من عباد البصرة يشتري حزمة حطب، فسمع إقامة الصلاة في بعض المساجد، فمال إليه وترك السوق، فرأى صرّة في طريقه مكتوبًا عليها هذه الصرّة فيها مئة دينار، فتركها ولم يعرّج عليها وأقبل على صلاته ثم رجع إلى السوق فاشترى حزمة حطب ودخل بها إلى بيته؛ فلما حلّها وجد الصرّة فيها، فرفع طرفه إلى السماء وقال: اللَّهمّ كما لم تنسَ عبدك من رزقك، فاجعله لا ينساك في أوقات طاعتك وخدمتك، وجعل يقول: لو أقبلت على خدمته ونهيت نفسك عن معصيته رأيت لطائف إحسانه ونعمته. وقال بعض الفقراء: دخلت على أبي الخير، فناولني تفاحتين، فجعلتهما في جيبي، فقلت: لا أتناولهما لكن أتبرّك بهما لموضع الشيخ عندي، فكانت تجري عليّ فاقات ولا أتناولهما حتى أجهدتني الفاقة مرّة، فأخرجت واحدة فأكلتها، ثم أدخلت يدي لأُخرج الأخرى، وإذا بالتفاحتين مكانهما، فما زلت آكل منهما حتى دخلت الموصل فجزت على خرابة، وإذا بعليل ينادي من الخرابة: أشتهي تفاحة ولم يكن وقت التفاح فأخرجت التفاحتين وناولتهما إياه، فأكلهما وخرجت روحه من وقته، فعلمت أن الشيخ إنما أعطانيهما من أجل ذلك العليل.

(الحكاية الثامنة والخمسون بعد المئتين: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه) قال: كان عندنا فتى من أهل خراسان بقي عندنا في المسجد سبعة أيام لم يطعم الطعام، وكنت أعرض عليه فيأبى، فدخل ذات يوم إنسان يطلب شيئًا، فقال له الخراساني: لو قصدت الله عزّ وجلّ دون خلقه أغناك، فقال السائل: ما لي هذا المكان، فقال الخراساني: أيّ شيء تريد؟ قال: ما سدّ فاقتي وستر عورتي، فقام الخراساني إلى المحراب وصلّى ركعتين، ثم أتى بثوب جديد وطبق فيه فاكهة، فأعطاه السائل، قال ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه: فقلت له: يا عبد الله لك هذا الجاه عند الله عزّ وجلّ، وأنت منذ سبعة أيام لم تطعم شيئًا، فجثا على ركبتيه وقال: يا أبا الفيض كيف تنبسط الألسن بالمسألة، والقلوب ممتلئة بأنوار الرضا عنه؛ فقلت له والراضون لا يسألون شيئًا، فقال: منهم مَن يسأل من باب الإدلال، ومنهم مَن يسأله عناية، ومنهم مَن يسأل عطفًا على غيره، ثم أُقيمت الصلاة فصلّى معنا، وأخذ ركوته وخرج من المسجد كأنه يريد الطهارة، فلم أره بعد ذلك، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية التاسعة والخمسون بعد المئتين: عن بعضهم) قال: كنا مع إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه على ساحل البحر، فانتهينا إلى غيضة[1] فيها حطب كثير

---

(١) الغيضة: الشجر الكثير الملتف، أو الموضع يجتمع فيه الماء فيبتلعه، فينبت فيه الشجر.

Marfat.com

يابس، فقلنا: لإبراهيم: لو أقمنا الليلة هٰهنا وأوقدنا من هذا الحطب؟ فقال: افعلوا، فأوقدنا وكان معنا خبز فأكلنا: فقال واحد منّا: ما أحسن هذا الجمر لو كان لنا لحم نشويه! فقال إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه: إن الله عزّ وجلّ قادر على أن يطعمكموه، قال: فبينما نحن كذلك إذا بأسد يطرد إبلاً فلما قرب منّا وقع جمل فاندقّ عنقه، فقام إبراهيم وقال: اذبحوه فقد أطعمكم الله تعالى فشوينا من لحمه والأسد واقف ينظر إلينا. وقال إبراهيم الخراساني رضي الله تعالى عنه: احتجت يومًا إلى الوضوء، فإذا أنا بكوز من جوهر وسِواك من فضة ألين من الخز(١) فاستكتُ وتوضأت وتركتهما وانصرفت، قال: وبقيت في بعض سياحاتي أيامًا لم أرَ فيها أحدًا من الناس ولا طير ولا ذا روح، وإذا بشخص لا أدري من أين خرج، فقال لي: قل لهذه الشجرة تحمل دنانير فقلت: احملي دنانير فلم تحمل، ثم قال لها: احملي وإذا بشماريخ(٢) الشجرة دنانير معلقة فاشتغلت أنظر إليها ثم التفتّ فلم أرَ الشخص وذهبت الدنانير من الشجرة، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الستون بعد المائتين: عن بعضهم) قال: كنت أنا وصاحب لي نتعبّد في بعض الجبال، وكان صاحبي يأكل من نبات الأرض، وأما أنا فكانت ظبية تأتيني كل يوم وتدنو مني وتفتح رجليها فأشرب لبنها ثم تذهب عني، ودمنا على هذه الحالة مدة، وكان صاحبي بعيدًا مني فجاءني يومًا وقال: قد نزل بقربنا نفر من البدو فتعال بنا نمشي لعله يحمل لنا منهم شيء من لبن أو غيره، فامتنعت، فلم يزل يلحّ عليّ حتى وافقته، فذهبنا إليهم فأطعمونا من طعامهم ورجعنا وعاد كل واحد منّا إلى مكانه الذي كان فيه، ثم إني انتظرت الظبية في الوقت الذي كانت تأتيني فيه فلم تأتني، ثم انتظرتها بعد ذلك فلم تأتني وانقطعت عني، فعلمت أن ذلك بشؤم ذنبي الذي أحدثته بعد أن كنت مستغنيًا بلبنها. قلت: الظاهر والله أعلم أن الذنب الذي ذكر ثلاثة أشياء: أحدها خروجه عن التوكّل الذي قد كان دخل فيه. والثاني طمعه وعدم قناعته بالرزق الذي قد كان مستغنيًا به، والثالث أكله طعامًا خبيثًا ليس بطيب، فحرمه رزقًا طيبًا حلالاً محضًا أخرجته القدرة الإلٰهية من باب العدم، فأدخلته في باب الإيجاد بمحض الجود والكرم آتيًا من طريق باب خرق العادة كرامة لوليّ من أوليائه، أولى السعادة كان وعاؤه طيبًا يصلح للطيبات كهذه التحف المحبوبة فنجسه بنجاسة لا يطهرها إلا ماء عين التوكل بعد أن يغتسل بماء عين التوبة مع صابون الصدق في مغسلة الاستغفار على شاطىء فرات الأسحار، ثم يصفي بماء عين الصفا ويرشّ عليها ماء ورد الوفا ويقرأ عليها آية وحديث، فيسمعها بأذن قلب

---

(١) الخزّ: ما يُنسَج من الصوف والحرير، أو من الحرير وحده (ج) خزوز.

(٢) الشماريخ: (ج) الشمراخ: غصن دقيق رخص ينبت في أعلى الغصن الغليظ.

Marfat.com

موقن إيقان ﴿وَمَن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣] «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[١] ثم ينشد عنده وأذنا قلبه سامعتان هذان البيتان:

حقيقة العبد عندي في توكله ... سكون إحساسه عن كل مطلوب
وأن تراه لكل الخلق مطرحًا ... يصون أسراره عن كل محبوب

فإن لم يقدر على جميع ما وصفنا بل هو عاجز مثلنا فليعترف بما اعترفت به من نحسي وينشد ما قلته في ذمّ نفسي:

إلهي ها أنا العاصي خليًّا ... من الإحسان حاوٍ للمساوي
فلا فعلي لأقوالي ... مضاهي ولا قوة لأفعالي مساوي
كذوبًا خائنًا لم أوفِ عهدًا ... ولم أصدق بمضمون الدعاوي
فسامح مذنبًا وارحم ضعيفًا ... وآنس موحشًا في القبر ثاوي
فقد عوّدتنا السّرّاء فضلاً ... وعنا أنت للضرّاء زاري
لنا معروفك المعروف بحر ... به العطشان للغفران راوي

(الحكاية الحادية والستون بعد المئتين: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه) قال: خرجت من مصر إلى بعض القرى، فنمت في الطريق، وانتبهت وفتحت عيني فإذا أنا بقنبرة[٢] عمياء سقطت من شجرة، فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان إحداهما من ذهب والأخرى من فضة، في إحداهما سمسم، وفي الأخرى ماء ورد، أو قال ماء، فأكلت من هذه وشربت من هذه، فقلت: حسبي ولزمت الباب إلى أن قبّلني وقيل: خرج إنسان من أهل الخير لطلب الرزق في وقت حصاد الزرع، فأصابه المطر فأوى إلى كهف فوجد فيه عقابًا أعمى، فبقي متفكّرًا من أين يأكل ذلك العقاب؟ وإذا بحمامة قد دخلت تستكنّ في الكهف من المطر فوقعت فوق العقاب فأمسكها العقاب فأكلها فرجع ذلك الإنسان إلى مكانه وتوكل على الله عزّ وجلّ.

(الحكاية الثانية والستون بعد المئتين: عن بعض الأكراد ممّن كان يقطع الطريق وينهب الأموال) قال: بينما أنا وجماعة من أصحابي جلوس وقد خرجنا لقطع

---

(١) أخرجه ابن حجر في (فتح الباري ١١/٣٠٦)، والقرطبي في (التفسير ٨/١٠٧)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/١٩٧).

(٢) القبّرة: جنس طير من فصيلة القبريات تعيش في معظم البلاد الحارّة والمعتدلة، جميعها نافعة أجسامها صغيرة، مناقيرها مخروطية قصيرة، أجنحتها مستطيلة، قوتها الحشرات والبذور البرية لها أنواع كثيرة.

Marfat.com

الطريق، وانتهينا إلى مكان فيه ثلاث نخلات، واحدة منهنّ ليس فيها ثمرة، وإذا بعصفور يحمل رطبة من نخلة مثمرة إلى رأس النخلة التي ليس فيها تمر، حتى تكرّر منه ذلك عشر مرات وأنا أنظر، فخطر بقلبي أن أقوم فأنظر، فصعدت النخلة فإذا في رأسها حيّة فاتحة فاها، والعصفور يضع الرطب فيه، فبكيت وقلت: سيدي، هذه حية قد أمر نبيّك ﷺ بقتلها، فلما أعميتها أقمت لها عصفورًا يقوم لها بالكفاية وأنا عبدك أقرّ بأنك إلٰه واحد أقمتني لقطع الطريق وإخافة السبيل، فوقع بقلبي: يا فلان بابي مفتوح للتوبة، فكسرت سيفي ووضعت التراب على رأسي وصحت: الإقالة الإقالة، فإذا بهاتف يقول: قد أقلناك، فأتيت رفقائي فقالوا: ما لك أزعجتنا؟ فقلت: كنت مهجورًا وقد صولحت، وحكيت لهم القصة، فقالوا: ونحن نصالح أيضًا، فرمينا ثيابنا وسلاحنا وأحرمنا وقصدنا مكة، وقمنا نمشي ثلاثة أيام في البرية، ثم دخلنا قرية فإذا نحن بعجوز عمياء، فمررنا عليها، فسألتنا: أفيكم فلان الكردي؟ فقلنا: نعم، فأخرجت ثيابًا وقالت: مات ولدي وخلف هذه الثياب، فرأيت النبي ﷺ في النوم ثلاث ليالٍ يقول لي: أعطي هذه الثياب فلانًا الكردي، قال: فأخذتها واكتسبت بها أنا وأصحابي، ثم مضينا إلى أن أتينا مكة.

(الحكاية الثالثة والستون بعد المئتين): رُوِيَ أنَّ عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه كان يجلس إليه أُناس من قريش، فأتوه يومًا وقالوا: إنّا نخاف من الضيعة، فرفع رأسه إلى السماء وقال: اللّهمَّ إني أسألك باسمك المرتفع الذي تكرم به مَن شئت من أوليائك، وتلهمه الصفيّ من أحبابك، أن ترزقنا برزق من لدنك الساعة، تقطع به علائق الشيطان من قلوبنا وقلوب أصحابنا، إنك أنت الحنّان المنّان القديم الإحسان، اللّهمَّ الساعة الساعة، فسمعوا قعقعة[1] السقف، ثم تناثرت عليهم دنانير ودراهم، فقال عبد الواحد: استغنوا بالله عزّ وجلّ عن غيره، فأخذوا ذلك ولم يأخذ عبد الواحد منه شيئًا رحمه الله تعالى ونفع به آمين.

(الحكاية الرابعة والستون بعد المئتين): حُكِيَ أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى سُليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أن اخرج إلى ساحل البحر تُبصِر عجبًا، فخرج سليمان ومَن معه من الجنّ والإنس[2]؛ فلما وصل الساحل التفت يمينًا وشمالاً فلم يرَ شيئًا، فقال لعفريت: غص في هذا البحر ثم ائتني بعلم ما تجد فيه، فغاص ثم رجع بعد ساعة وقال: يا نبيّ الله إني غصت في هذ البحر كذا وكذا فلم أصل إلى قعره، ولا

---

(١) القعقعة: حكاية صوت السلاح.

(٢) الجن: خلقهم الله من مارج من نار، وقد سُمُّوا بذلك لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار. الإنس: البشر وواحده إنسي، والجمع أناسي.

Marfat.com

وجدت فيه شيئًا، فقال لعفريت آخر: غص في هذا البحر وائتني بعلم ما تجد فيه، فغاص ثم رجع بعد ساعة وقال مثل قول الأوّل إلا أنه غاص مثل الأول مرّتين، فقال لآصف بن برخيا وهو وزيره الذي ذكره الله تعالى في القرآن بقوله: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ [النمل: ٤٠] ائتني بعلم ما في هذا البحر، فجاءه بقبّة من الكافور الأبيض لها أربعة أبواب: باب من درّ وباب من ياقوت، وباب من جوهر وباب من زبرجد أخضر، والأبواب كلها مفتحة ولا يدخلها قطرة من الماء، وهي في داخل البحر في مكان عميق، مثل مسيرة ما غاص فيه العفريت الأوّل ثلاث مرّات، فوضعها بين يدي سليمان عليه السلام، وإذا في وسطها شاب حسن الشباب نقيّ الثياب وهو قائم يصلي، فدخل سليمان القبة، وسلم على ذلك الشاب وقال له: ما أنزلك في قعر هذا البحر؟ قال: يا نبيّ الله إنه كان أبي رجلاً مُقعَدًا وكانت أُمي عمياء، فأقمت في خدمتهما سبعين سنة، فلما حضرت وفاة أُمي قالت: اللّهمّ أطِل حياة ابني في طاعتك، ولما حضرت وفاة أبي قال: اللّهمّ استخدم ولدي في مكان لا يكون للشيطان عليه سبيل، فخرجت إلى هذا الساحل بعدما دفنتهما فنظرت هذه القبّة موضوعة، فدخلتها لأنظر حُسنها، فجاء مَلَك من الملائكة فاحتمل القبّة وأنزلني في قعر هذا البحر، قال سليمان: ففي أيّ زمان كنت أتيت هذا الساحل؟ قال: في زمان إبراهيم الخليل ﷺ، فنظر سليمان عليه السلام في التاريخ فإذا له ألفا سنة وهو شاب لا شيب فيه، قال: فما كان طعامك وشرابك داخل هذا البحر؟ قال: يا نبيّ الله يأتيني كل يوم طير أخضر في منقاره شيء أصفر مثل رأس الإنسان فآكله، فأجد فيه طعم كل نعيم في دار الدنيا، فيذهب عني الجوع والعطش والحرّ والبرد والنوم والنعاس والفترة والوحشة، فقال سليمان عليه السلام: أتحبّ أن تقعد معنا أو نردّك إلى موضعك؟ فقال: رُدَّني يا نبيّ الله، فقال: رُدَّه يا آصف، فردّه ثم التفت فقال: انظروا كيف استجاب الله دعاء الوالدين، فأُحذّركم عقوق الوالدين يرحمكم الله، اللّهمّ ألهمني برّهما.

(الحكاية الخامسة والستون بعد المئتين: عن ذي النون رضي الله تعالى عنه) قال: أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى ﷺ: يا موسى كن كالطير الوحداني يأكل من رؤوس الأشجار، ويشرب من الماء القراح، أو قال: من الأنهار، إذا جنّه الليل أوى إلى كهف من الكهوف استئناسًا بي واستيحاشًا ممّن عصاني؛ يا موسى إني آليت على نفسي أن لا أتمّ لمدّعٍ عملاً، ولأقطعنّ أمل مَن أمل غيري، ولأقصمنّ ظهر مَن استند إلى سواي، ولأطيلنّ وحشة مَن أنس بغيري، ولأعرضنّ عمّن أحبّ حبيبًا سواي؛ يا موسى إن لي عبادًا إن ناجوني أصغيت إليهم، وإن نادوني أقبلت عليهم، وإن أقبلوا عليّ أدنيتهم مني، وإن دنوا مني قرّبتهم إليّ، وإن تقرّبوا مني واصلتهم وكفيتهم، وإن والوني واليتهم، وإن صافوني صافيتهم، وإن عملوا لي جازيتهم، فأنا مدبّر أمرهم وسائس قلوبهم ومتولي

أحوالهم، لم أجعل بقلوبهم راحة في شيء لا في ذكر، فهو شفاء لأسقامهم، وعلى قلوبهم ضياء، لا يستأنسون إلا بي، ولا يحطّون رِحال قلوبهم إلا عندي، ولا يستقرّ بهم قرار في الإيواء إلا إليّ، اللّهمّ ألحقنا بهم يا ربّ العالمين. آمين ثم آمين

(الحكاية السادسة والستون بعد المئتين): حُكِيَ أنَّ رجلاً جاء إلى الفُضَيل رضي الله تعالى عنه وهو جالس في المسجد، فسلّم عليه ثم جلس عنده، فقال له الفضيل: لِمَ جئت؟ قال: للأنس بك يا أبا عليّ، فقال الفضيل: ما هي والله إلا لوحشة إما أن تقوم عني وإلا قمت عنك، فقام الرجل. وعن إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه قال: إن أدمت النظر في مرآة التوبة بانَ لك قبح المعصية. وقال: أقلّوا معرفتكم من الناس، ولا تتعرّفوا إلى مَن لم تعرفوا، وأنكروا مَن تعرفون واهربوا منهم كهربكم من السّبع الضاري، ولا تتخلّفوا عن الجمعة والجماعة. وقال بعضهم: أنتم تتعرّفون بالمناكير ونحن ننكر المعاريف. وأنشد بعضهم:

ولمّا بلوت الناس أطلب صاحبًا ... أخا ثقة عند ارتكاب الشدائد
تفكّرت في الدنيا رخاء وشدّة ... وناديت في الأحياء هل من مساعد
فلم أرَ فيما ساءني غير شامت ... ولم أرَ فيما سرّني غير حاسد

قلت: وهذا المذكور عن إبراهيم بن أدهم وغيره هو أحد مذهبين للسّلف رضي الله تعالى عنه؛ منهم مَن لا يرى اتخاذ الإخوان والتعرّف بالناس لأنه أقرب إلى السلامة من الآفات، وأبعد من تحمّل الحقوق في المخالطات، وأفرغ للاشتغال بالطاعات، ومنهم مَن يرى ذلك الظاهر أحاديث وردت في الترغيب في صحبة الإخوان المتّقين الأخيار الذين تبقى صداقتهم في الأخرى كما قال تعالى: ﴿الأخلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتّقين﴾ [الزخرف: ٦٧] اللّهمّ اجعلنا منهم. وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله تعالى عنه لمّا سُئِلَ عن طريق النجاة قال: هيهات إن بيننا وبين تلك الطريق عقبات وتلك العقبات لا تقطع إلا بالسير الحثيث، وتصحيح المعاملة، وحذف العلائق الشاغلة.

(الحكاية السابعة والستون بعد المئتين) قال بعضهم: كنا مع إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه فأتاه الناس فقالوا: يا أبا إسحق إن الأسد وقف على طريقنا فأتى إبراهيم إلى الأسد فقال له: يا أبا الحارث إن كنت أمرت فينا بشيء فامضِ لِما أمرت به، وإن لم تؤمر بشيء فتنحّ عن طريقنا، فأدبر الأسد وهو يهمهم، فقال إبراهيم: وما على أحدكم أن يقول إذا أصبح وأمسى: اللّهمّ احرسنا بعينك التي لا تنام، واحفظنا بركنك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا. وقال إبراهيم الخوّاص رضي الله تعالى عنه: كنت في البادية مرّة فسرت في وسط النهار فإذا أنا بسبع عظيم أقبل

Marfat.com

عليّ وقد نزلت تحت شجرة فاستسلمت، فلما قرب مني إذا هو يعرج، فهمهم وبرك بين يدي ووضع يده في حِجري فنظرت فإذا يده منتفخة فيها قيح ودم، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذي فيه القيح والدم وشددت على يده خرقة ومضى، فإذا أنا به بعد ساعة ومعه شبلان يبصبصان فحملا إليّ رغيفين. وقال الخوّاص أيضًا كنت في طريق مكة فدخلت إلى خرابة بالليل فإذا فيها سبع عظيم فخفت فهتف بي هاتف اثبت، فإن حولك سبعين ألف مَلَك يحفظونك.

(الحكاية الثامنة والستون بعد المئتين: عن سُفيان الثوريّ رضي الله تعالى عنه) قال: خرجت حاجًا أنا وشيبان الراعي، فلما صرنا ببعض الطريق إذا نحن بأسد قد عارضنا، فقلت لشيبان: أما ترى هذا الكلب قد عرض لنا؟ فقال: لا تخف يا سفيان فما هو إلا أن سمع الأسد كلام شيبان فبصبص وحرّك ذنبه مثل الكلب، فالتفت إليه شيبان وعرك أُذنه، فقلت له: ما هذه الشُهرة؟ فقال: وأيّ شُهرة هذه يا ثوريّ؟ لولا كراهة الشُهرة ما حملت زادي إلى مكة إلا على ظهره. وحُكِيَ أن بعضهم كان في بعض الجبال وكان إذا أصابه المطر والبرد يأتيه بعض الأُسود ويبرك عليه ويدفيه.

(الحكاية التاسعة والستون بعد المئتين): قال المؤلف غفر الله له: أخبرني بعض الإخوان الصالحين قال: غضبت على نفسي يومًا فقلت لها: اليوم أرميك في المهالك وكنت في موضع قريب من الأُسود، فجئت فاضطجعت بين شبلين صغيرين ثم أقبل أبوهما بعد ساعة وهو حامل في فمه لحمًا، فلما رآني وضعه من فمه وجلس بعيدًا مني، ثم أقبلت أُمهما وهي حاملة لحمًا أيضًا، فلما رأتني رَمَت باللحم وصاحت وحملت عليّ فتلقاها الأسد بيده ووضعها، فجلست لم يتحرّكا، فمكثا ساعة ثم جاء الأسد يمشي قليلاً قليلاً، فأخذهما بلطف ورماهما إلى أُمهما واحدًا بعد واحد. قلت: وهذا من عجيب لطف الله تعالى بأوليائه رضي الله تعالى عنه وعن سائر الصالحين.

(الحكاية السبعون بعد المئتين): رُوِيَ أنّ بعض المشايخ غضب عليه بعض الولاة، فأمر بإلقائه بين يدي الأسد، فأخذ الأسد يشمّه ولا يضرّه، أو قال: يبصبص له، فقيل للشيخ: كيف وجدت قلبك في ذلك الوقت؟ فقال: كنت أتفكر في سؤر السِّباع ولعابها، يعني في طهارته، وكلام العلماء في ذلك رضي الله تعالى عنه. وقيل: قصد جماعة من الفقهاء زيارة بعض الشيوخ، فلما أتوه صلّوا خلفه، فسمعوه يلحن في قراءته، فتغيّر اعتقادهم فيه؛ فلما ناموا أجنبوا كلهم تلك الليلة، فخرجوا في السحر يغتسلون، ووضعوا ثيابهم عند بركة ماء هناك ونزلوا في الماء، فجاء الأسد وجلس على ثيابهم، فلاقوا شدّة من شدّة البرد، فجاء الشيخ وأخذ بأُذن الأسد وقال: ما قلت لك لا تتعرّض لضيفاني؟ ثم قال لهم: أنتم اشتغلتم بإصلاح الظاهر فخفتم الأسد، ونحن اشتغلنا بإصلاح الباطن

فخافنا الأسد رضي الله تعالى عنه. قلت: سألت بعض الإخوان الصالحين المنقطعين في البراري، فقلت له: كيف كان حالك مع الأسود؟ فقال: ألبست هيبة الله فكنت أسد الأسود، وكانت إذا رأتني هربت، رضي الله تعالى عنهم. وفيهم قلت:

هم الأسد حقًا والأُسود تهابهم ... وما النمر ما أظفار فهد ونابه
وما الرمي بالنشاب ما الطعن بالقنا ... وما الضرب بالماضي الكميّ ذبابه[1]
من الله خافوا لا سواه فخافهم ... جميع جمادات الورى ودوابه
لهم هِمَم للقاطعات قواطع ... لهم قلب أعيان المداد انقلابه
لهم كلّ شيء طالع ومسخّر ... فلا قطّ يعصيهم بل الطوع دأبه
بترك الهوى أمسوا يطيرون في الهوا ... ويمشون فوق الماء من جنابه
لقد شمّروا في نيل كلّ عزيمة ... ومكرمة مما يطول حسابه
إلى أن جنوا ثمر الهوى بعدما جنى ... عليهم وصار الحبّ عذبًا عذابه
وحتى استحال المرّ في الحال حاليًا ... وحتى دنا النائي وهانت صِعابه
عليهم من الرحمٰن أزكى تحية ... وأفضل رضوان ولا زال بابه
مدا الدهر مفتوحًا لإكرام وافد ... به أقبلت تفري الفيافي ركابه[2]
ولا زال ذاك القرب والأنس والصفا ... ولا حال من دون الحبيب حجابه

(الحكاية الحادية والسبعون بعد المئتين: عن بعضهم) قال: سمعت سمنون يتكلم في المحبة وهو جالس في المسجد، إذ جاء طير صغير، فقرب منه، فلم يزل يدنو حتى جلس على يده ثم ضرب بمنقاره على الأرض حتى سال منه الدم ثم مات، وتكلم يومًا في المحبة، فتكسّرت قناديل المسجد كلها. وقال الشيخ أبو الربيع المالقي رضي الله تعالى عنه: كنت في بعض سياحاتي منفردًا، فقيّض الله لي طيرًا، إذا كان الليل ينزل قريبًا مني يبيت يسامرني، فكنت أسمعه في الليل ينطق: يا قدّوس يا قدّوس، فإذا أصبح صفّق بجناحيه وقال: سبحان الرزاق. وقال السريّ رضي الله تعالى عنه: كنت ليلة في قرية من قرى الشام، وإذ بصوت يصيح: أسأت فلا أعود؛ فلما أصبحت سألت عن الصوت، فقيل لي: إنه طائر، فقلت: ما قال له؟ قالوا: فاقد إلفه، ثم سمعت في الوقت صوتًا ولم أرَ شخصًا وهو ينشد ويقول:

طير نحيل بأرض الشام أقلقه ... ذكر الحبيب له نطق بإضمار
يقول أخطأت حتى الصبح يسعده ... صوت شجيّ ويبكي وقت أسحار

---

(١) النشاب: النَّبل.

(٢) فرى الشيء: شقه وقطعه.

Marfat.com

ورُوِيَ أن أبا مسلم الخولاني[١] رضي الله تعالى عنه كان مع المسلمين في غزاة بأرض الروم، فبعث الوالي سَرِيَّة إلى موضع، وجعل الميعاد بينه وبينها يومًا معلومًا، فجاء الميعاد ولم تقدّم السَّرِيَّة، فحزن الوالي والمسلمون، فبينما هم في الحزن وأبو مسلم يصلّي إلى رمحه المركوز في الأرض، جاء طير وجلس على رأس الرمح وقال: إنَّ السَّرِيَّة قد سَلِمَت وغنمت، وسَتَرِد عليكم يوم كذا وقت كذا، قال أبو مسلم: مَن أنت يرحمك الله؟ فقال الطير: أنا مُذهِب الحزن عن قلوب المؤمنين، فجاءت السَّرِيَّة كما ذكر.

(الحكاية الثانية والسبعون بعد المئتين: عن خير[٢] النسَّاج رضي الله تعالى عنه)

قال: كنّا في المسجد، فجاء الشبلي رضي الله تعالى عنه في حال سكره: أي في حال ورد عليه، فنظر إلينا ولم يكلمنا، وتهجّم على الجنيد رضي الله تعالى عنه وهو جالس في بيته وعنده زوجته، فأرادت أن تستتر، فقال لها الجنيد لا بأس عليك، هو غائب لا علم له بك، فصفق الشبلي على رأس الجنيد، وأنشأ يقول:

عوّدوني الوصال والوصل عذب ... ورموني بالصدّ والصدّ صعب
زعموا حين عاتبوا أنّ جرمي ... فرط حبي لهم وما ذاك ذنب
لا وحسن الخضوع عند التلاقي ... ما جزا من يحبّ ألاّ يحبّ

فاهتزّ الجنيد وقال: هو ذاك يا أبا بكر، فخرّ مغشيًا عليه، ثم بعد ساعة بكى الشبلي، فقال الجنيد لامرأته: استتري عنه فقد أفاق، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. وقال بعضهم: دخلت على الشبلي وهو ينتف اللحم من حاجبه بمنقاش، فقلت له: يا سيدي إنك تفعل هذا بنفسك ويعود ألمه إليك؟ فقال: ويحك، لي ظهرت الحقيقة ولست أطيقها، فأنا أُدخِل على نفسي الألم لعلّي أحسّ به، فيستتر ذلك عني، فلا وجدت الألم ولا ستر ذلك عني ولا لي به طاقة. وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: كنت

---

(١) هو عبد الله بن ثُوَب الخولاني (توفي ٦٢ هـ = ٦٨٢ م) تابعي، فقيه عابد زاهد. نعته الذهبي بريحانة الشام. أصله من اليمن. أدرك الجاهلية وأسلم قبل وفاة النبي ﷺ ولم يره، فقَدِمَ المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام. وفاته بدمشق، وقبره بداريّا. الأعلام ٤/٧٥؛ وتذكرة الحفاظ ١/٤٦؛ وتهذيب ١٢/٢٣٥؛ وحلية ٢/١٢٢؛ وفوات الوفيات ١/٢٠٩؛ واللباب ١/٣٩٥.

(٢) هو خير بن عبد الله النسّاج (٢٠٢ ـ ٣٢٢ هـ = ٨١٧ ـ ٩٣٤ م) متصوّف معمر، من كبار الزهّاد. أصله من سُرّ مَن رأى، نزل ببغداد وصحب الجنيد والخواص والسهل وكثيرين. ثم كان أستاذ الجماعة. أخباره كثيرة وله كلمات مأثورة. اسمه محمد بن إسماعيل وإنما سُمّي خير النسّاج من قِبل رجل استعمله في نسج الخزّ. الأعلام ٢/٣٢٦؛ والرسالة القشيرية ص ٤٣٧.

Marfat.com

أسمع السريّ رضي الله تعالى عنه يقول: قد يبلغ العبد إلى حدّ لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر به، قال: وكان في قلبي من ذلك شيء حتى بانَ لي الأمر كذلك. قلت: ومما يشهد لصحة ذلك قوله تعالى: ﴿فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ﴾ [يوسف: ٣١] جاء في التفسير: أنهنّ لم يشعرن بتقطيع أيديهنّ، وهذا في محبة مخلوق، فكيف في محبة الخالق جلّ وعلا؟ وما ينكر ذلك إلا مَن لم يذق ذلك، ولم يصدّق بأحوال القوم، وكذلك يشهد له ما اشتهر عن بعضهم أنه ظهرت برجله الأكلة، فدخل عليه الحكماء وقالوا: إن لم تقطع رِجله مات، فقالت أُمه: دعوه حتى يدخل في الصلاة، فإنه لا يحسّ بشيء إذا دخل فيها، فتركوه حتى دخل فيها ثم قطعوا رجله، ولم يشعر بذلك رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، وكذلك يشهد ما اشتهر أن الشيخ أبا حفص[1] النيسابوري الحدّاد رضي الله تعالى عنه سمع قارئًا يقرأ آية من القرآن، فورد على قلبه وارد غاب عن إحساسه، فأدخل يده في النار وأخرج الحديدة المحماة بيده، فرأى تلميذ له ذلك، فصاح يا أستاذ ما هذا؟ فنظر أبو حفص إلى ما ظهر عليه، فترك الحرفة وقام من حانوته رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. قال الشيوخ العارفون رضي الله تعالى عنهم الغيبة معناها غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغاله بما ورد عليه، ثم قد يغيب الشخص عن إحساسه بنفسه وغيره. قال أبو سعيد الخرّاز رضي الله عنه: تُهْتُ في البادية فكنت أقول:

أتيه فلا أدري من التيه مَن أنا ... سوى ما يقول الناس فيّ وفي جنسي
أتيه على حُسْن البلاد وأنسها ... فإن لم أجد شخصًا أتيه على نفسي

فسمعت هاتفًا يهتف بي ويقول:

أيا مَن يرى الأسباب أعلى وجوده ... ويفرح بالتيه الدنيء وبالأنس
فلو كنت من أهل الوجود حقيقة ... لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي
وكنت بلا حال مع الله واقفًا ... تصان عن التّذكار للجنّ والإنس

قال الشيوخ[2] رضي الله تعالى عنهم: الصحو رجوع من الغيبة إلى الإحساس، والسكر بوارد قويّ، والفرق بين السكر والغيبة أن الغيبة تكون بوارد من ذكر عقاب أو ثواب ينشئان من شدة الخوف أو قوّة الرجاء؛ وأما السكر فلا يكون إلا لأصحاب المواجيد، فإذا كوشف العبد بنعوت الجمال حصل له السكر وطرب الروح، وهام

(١) هو أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد (توفي حوالي ٢٦٠ هـ/ ٨٧٤ م) من قرية يقال لها: كورداباذ في طريق بخارى، وكان أحد الأئمة والسادة. (الرسالة القشيرية ص ٤٠٦).
(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٧١ ـ ٧٢ عند حديث القشيري عن الصحو والسكر.

القلب[1]. وأنشد:

فصحوك من لفظي هو الوصل كله   وسكرك من لحظي يبيح لك الشربا
فما ملّ ساقيها وما ملّ شارب   عقار لحاظ كأسه يسكر القلبا[2]

قالوا: وإذا كوشف بأوصاف الجلال ظهرت من سلطان الحقيقة صفة القهر. وأنشدوا:

إذا طلع الصباح كنجم راحِ   تساوى فيه سكران وصاحي

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكًا وخرّ موسى صعقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(الحكاية الثالثة والسبعون بعد المئتين): رُوِيَ أنه كان شاب يصحب الجنيد رضي الله تعالى عنه، فكان إذا سمع شيئًا من الذِّكر زعق، فقال له الجنيد يومًا: إن فعلت ذلك مرّة أخرى لم تصحبني، فكان إذا سمع يتغيّر ويضبط نفسه حتى يقطر من كلّ شعرة قطرة دم من بدنه، فلما كان بعض الأيام صاح صيحة تلفت فيها نفسه، رضي الله تعالى عنه. وقال الشيخ أبو عليّ الروذباري رضي الله تعالى عنه: جزت يومًا بقصر، فرأيت شابًا حسن الوجه مطروحًا وحوله ناس مجتمعون، فسألت عنه، فقالوا: إنه جاز بهذا القصر فسمع جارية تغني وتقول:

كبرت همّة عبد   طمعت في أن تراكا
أو ما حسب لعين   أن ترى مَن قد رآكا

فشهق ومات رحمه الله تعالى.

(الحكاية الرابعة والسبعون بعد المئتين: عن بعضهم) قال: دخل عمرو بن عثمان المكي[3] رضي الله تعالى عنه أصبهان، وكان في صحبته شاب من أهلها، وكان والده يمنعه من صحبة الصوفية، فمرض الشاب، ودخل عليه الشيخ عمرو بن

---

(١) هام القلب: أي سقط التمييز بين ما يؤلم وما يلذّ به، فالتجليات الجمالية وشهود الصفات الكمالية إذا استولت على العبد بحيث لا يشهد سوى الحق، تصير الأشياء بالنسبة إليه شيئًا واحدًا، فحينئذٍ لا يميز بين الأشياء لغلبة رؤية ما للحق عليه.

(٢) في الرسالة القشيرية ص ٧١: اللبا.

(٣) هو عمرو بن عثمان بن كرب (توفي ٢٩٧ هـ = ٩١٠ م) أبو عبد الله المكي، صوفي عالم بالأصول من أهل مكة. له مصنفات في «التصوف» وأجوبة لطفية في العبارات والإشارات. زار أصبهان ومات ببغداد. الأعلام ٨١/٥ ـ ٨٢؛ وطبقات الصوفية ٢٠٠ ـ ٢٠٥؛ وتاريخ بغداد ٢٢٣/١٢ ـ ٢٢٥؛ وحلية ٢٩١/١٠؛ والرسالة القشيرية ص ٤٣٤.

Marfat.com

عثمان ومعه قوّال، فنظر الشاب إلى الشيخ وقال: يا سيدي قل له يقول شيئًا، فقال القوّال:

ما لي مرضت فلم يعدني عائد ... منكم ويمرض عبدكم فأعود

فتمطّى الشاب على فراشه وجلس وقال للقوّال: زدني، فقال:

وأشدّ من مرضي عليّ صدودكم ... وصدود عبدكم عليّ شديد

فزاد به البرد إلى أن قام وخرج مع الجمع، فسأل عمرو بن عثمان رضي الله تعالى عنه عن ذلك؟ فقال: إن الإشارة إذا كانت قبل السماع[1] كانت من فوق، فالعليل منها يشفى؛ وإذا كانت بعد السماع كانت من تحت، فالعليل منها يهلك. قال بعضهم: أراد إشارة المنادمة إذا وردت قبل السّماع شفعت، وإذا وردت بعده أهلكت، لفَقْد القوّة كالمريض ينتكس مرضه بأدنى شيء، وإذا انتكس كان أشدّ عليه من ابتداء المرض، لفقْد قوّته، وكثيرًا ما يهلك بالانتكاس.

(الحكاية الخامسة والسبعون بعد المئتين: عن بعض السلف) قال: دخلت البادية مع خمسة نفر من الفقراء، وكان فيهم قوّال ينشد شيئًا، وكان في القوم فقير صاحب وجْد، وكان دائمًا يقول للقوّال قل ثم يتواجد، فزجرته يومًا وقلت له: كم هذا الوجد؟ فسكت عني ولم يجبني ورجع إلى حاله؛ فلما كان بعد مدة، نظرت إلى خلفي فإذا بذلك الفقير يرقص في الهواء فرجعت إليه لأستحلّ منه مما زجرته، فغاب عني وبقيت حسرة فقده في قلبي. وسُئِل أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: ما بال الإنسان يكون هادئًا، فإذا سمع السماع اضطرب؟ فقال: إن الله سبحانه وتعالى لمّا خاطب الذرّ في الميثاق الأوّل في قوله تعالى: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] استفرغت عذوبة سماع الكلام الأرواح، فإذا سمعوا السماع حرّكهم ذِكْر ذلك. وسُئِل أبو إسحٰق إبراهيم الخوّاص رضي الله تعالى عنه: ما بال الإنسان يتحرّك عند سماع غير القرآن، ويجد ما لا يجد في سماع القرآن؟ فقال: إن سماع القرآن صدمة لا يمكن لأحد أن يتحرّك فيه لشدة غلبته وسماع القول ترويح فيتحرّك فيه. وسُئِلَ ذو النون رضي الله تعالى عنه عن السّماع؟ فقال: وارد حقّ يزعج القلوب إلى الحقّ، فمَن أصغى إليه بحق تحقق، ومَن أصغى إليه بفسق تزندق. وقال أبو القاسم[2] النصراباذي: السّماع على قدر قوّة القلب وصفائه

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٣٥ ـ ٣٥٠.

(٢) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرآباذي (توفي ٣٦٩ هـ/ ٩٧٩ م) شيخ خراسان في وقته، صحب دلف الشبلي وأبا علي الروذباري والمرتعش وجاور بمكة المكرمة، وكان عالمًا بالحديث كثير الرواية. (الرسالة القشيرية ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨).

وكشفه من الله عجائب القرب والغيب. وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: الرحمة تنزل على الفقراء في ثلاثة مواطن: عند السماع، لأنهم لا يسمعون إلا عن حق، ولا يقومون إلا عن وَجْد. وعند أكل الطعام، فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة. وعند مُجاراة العلم، فإنهم لا يذكرون إلا صفة الأولياء.

(الحكاية السادسة والسبعون بعد المئتين): رُوِيَ أنه صاح الشبلي رضي الله تعالى عنه يومًا في السّماع، فقيل له في ذلك، فقال:

لو يسمعون كما سمعت كلامها ... خرّوا لعزّة ركعًا وسجودا

وسمع أيضًا منشدًا يقول:

أسائل عن سلمى فهل من مخبر ... يكون له علم بها أين تنزل

فصاح وقال: والله ما في الدارين عنه مخبر. وسمع أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه مُنشِدًا يقول:

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً ... تتحيّر الألباب دون نزوله

فتواجد وهام في الصحراء، ووقع في أجمة[1] قصب قد قطع، وبقيت أُصوله مثل السيوف، فكان يمشي عليها ويُعيد البيت إلى الغداة والدم يسير من رجليه، ثم وقع مثل السكران فورمت قدماه ومات، رحمة الله تعالى عليه.

(الحكاية السابعة والسبعون بعد المئتين: عن أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه) قال: كنت مع جماعة في جبل طور سيناء، فنزلنا على عين ماء تحت دير النصارى، وكان معنا قوّال، فقال شيئًا، فظهر وَجْد الأصحاب، فقاموا ورقصوا وصاحب الدير ينظر إلينا من فوق الدير وينادي ويقول: بالله عليكم وبحقّ الدين الحنيفي إلا جئتموني، فلم يلتفت إليه منّا أحد من طيب الوقت؛ فلما سكت الجمع وقعدوا، قال: مَن منكم الأستاذ؟ فأشاروا إليّ، فقال: يا أستاذ هذا الذي كنتم فيه من السماع والحركات والرقص خصوص في دينكم أو عموم؟ فقلت: لا بل خصوص بشرط الزهد في الدنيا، فقال: أشهد أنّ لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله ﷺ، هكذا وجدت في إنجيل عيسى عليه الصلاة والسلام أن الخواصّ من أمة محمد ﷺ يتحرّكون عند السماع بشرط الزهد في الدنيا، ويكون لباسهم الصوف والملوّنات، يرضون من الدنيا بالبلغة، هكذا نقل عنه رضي الله تعالى عنه.

---

(١) الأجمة: الشجر الكثير الملتف (ج) آجام وأجمات وأجم.

Marfat.com

(الحكاية الثامنة والسبعون بعد المئتين): حُكِيَ أن الجنيد رضي الله تعالى عنه حضر ليلة في جمع من الأصحاب في دار دُعِيَ إليها، فلما دخل الدار، رأى شخصًا أجنبيًّا بين الجماعة، فدعاه الجنيد وأعطاه بُردته وقال له: امضِ بها إلى السوق وارهنها على منوين من السكر للفقراء فلما خرج الرجل من بينهم أغلق الباب دونه وناداه: يا فلان خذ البُردة ولا ترجع إلى هٰهنا فقيل له في ذلك. فقال: اشتريت ببُردتي لكم صفاء الوقت في هذه الليلة بإخراج مَن ليس منكم من بينكم. وقال رضي الله عنه: السّماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء: الزمان، والمكان، والإخوان. ورُوِيَ عن بعضهم قال: كنت ليلة مع الأصحاب وهم مجتمعون للسّماع، فلما قال القوّال سمعوا وقاموا ورقصوا، فأنكرت عليهم بقلبي، فرأيت تلك الليلة في منامي كأنّ القيامة قد قامت ورأيت الصوفية يجوزون الصراط راقصين، والخلق قد انقطعوا عنهم، فانتبهت ونذرت مع الله تعالى نذرًا أن لا أعود أنكر عليهم أبدًا.

(الحكاية التاسعة والسبعون بعد المئتين): رُوِيَ عن الشيخ الجليل بحر الحقائق، وموضح الدقائق أبي الغيث بن جميل اليمني قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه، ونفعنا به، أنه كان ينكر السّماع، ويقاتل مَن يتعاطاه في أوّل أمره ثم رجع عن ذلك، في الآخر. وسببه أنه قَدِمَ عليه بعض المشايخ الكبار في جمع من الفقراء عازمين على أن يدخلوا عليه قريته في السّماع، فأمر أهل قريته أن يخرجوا لقتالهم بالعيدان وخرج معهم، فلما تقاربوا والقادمون في حال السّماع أخذه حال، فصار يدور كما يدور أهل السّماع الواجدون، فتعجب أصحابه منه وكلّموه في ذلك فقال: وعزّة مَن له العزّة، ما درت حتى رأيت السماء دارت. وأنشدوا:

يرنحني إليك الشوق حتى ... أميل من اليمين إلى الشمال
كما مال المعاقر عاودته ... حميا الكأس حالاً بعد حال
ويأخذني لذكراك ارتياح ... كما نشط الأسير من العقال

يعني بالمعاقر: الذي يشرب العقار وهي الخمر. ورُوِيَ أنه كان بعض الفقهاء الكبار ينكر على الشيخ الكبير العارف بالله تعالى محمد بن أبي بكر الحكمي اليمني رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، فقال الشيخ محمد للفقيه المنكر يومًا في حال السّماع: يا فقيه ارفع رأسك، فرفع رأسه فرأى الملائكة تدور في الهواء. ورُوِيَ أن الفقيه الإمام العارف بالله رفيع المقام، الورع المشكور، السيد المشهور ذا الكرامات والمجد الأثيل، أحمد بن موسى بن عُجيل اليمني الذي قيل فيه: مثل أحمد بن موسى في الأولياء، كمثل يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام في الأنبياء، لم يعصِ ولم يهمّ بمعصية، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، أنه سُئِلَ عن سماع الصوفية، فقال: إن أبحه فلست من أهله،

Marfat.com

وإن أنكره فقد سمعه مَنْ هو خير مني. قلت: جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من جميع المعاصي، وفي جواز الصغائر عليهم سهوًا اختلاف بين العلماء رضي الله تعالى عنهم، وعصمتهم المذكورة واجبة. وأما الأولياء رضي الله تعالى عنهم، فلا تجب عصمتهم، بل يجوز أن يكونوا محفوظين، ويجوز أن لا يحفظ أحد منهم، ويجوز أن يحفظ بعضهم دون بعض. ولمّا كان ابن عجيل المذكور من صغره محفوظًا، شديد الخوف كثير الاجتهاد، ملازمًا للزهد، دقيق الورع، مشهورًا بهذه المذكورات، وكان يحيىٰ عليه الصلاة والسلام من صغره مشهورًا بهذه المذكورات وغيرها من المحاسن السَّنِيَّة، شبّه هذا في جنسه بهذا في جنسه، وإذا شبّه الأدنى في جنسه بالأعلى في جنسه في وصف لم يكن الأدنى مساويًا للأعلى ولا مقاربًا له في ذلك الوصف، ولا يلزم أيضًا من كون يحيىٰ عليه الصلاة والسلام موصوفًا بهذه الصفات من صغره أن يكون أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

وقيل للشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي الحسن بن سالم رضي الله تعالى عنه: هل تنكر على أهل السّماع شيئًا؟ فقال: كيف أنكره وقد سمعته من هو خير مني، ومنهم عبد الله بن جعفر(١) الطيار، ومعروف الكرخي، والسريّ السقطي، وذو النون المصري، وأبو الحسين النوري وأبو القاسم الجنيد والشبلي، رضي الله تعالى عنهم. وقال بعض الشيوخ الكبار: إن أنكرنا السّماع أنكرنا على سبعين صدّيقًا. وقال بعض الفقهاء لبعضهم: ألم تسمع الجلاجل التي في الدفّ(٢)؟ فقال: والله ما أسمع جلاجل، وإنما أسمعها تقول: الله الله. ورُوِيَ أن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه سمع صوت ناقوس، فقال: أتدرون ما يقول؟ فقالوا: لا، فقال: إنه يقول: سبحان الله حقًا حقًا، إن المولى صمد يبقى. وكذلك كان بعض الفقهاء ينكر على الصوفية سماعهم، فدخل عليه بعضهم يومًا فوجده يدور في بيته، فقال له: يا فقيه، أراك تدور، فقال: كانت مسألة أشكلت عليّ، فاطّلعت عليها الآن فمُلئت بذلك فرحًا ولم أتمالك من الطرب، فقمت ودرت كما رأيت، فقال له: يا فقيه هذا فرحك بمسألة، فكيف تنكر على مَن فرح بالله تعالى. قلت: كم بين الفرح بالاطّلاع على حكم من أحكام الله، والفرح بالاطّلاع على تجلّي جمال الله تعالى وكمال صفاته وامتلاء القلب بمحبته والشوق إلى لقاء ذاته والطرب بذكره الحالي العذب الزّلال والغيبة بواردات الأحوال والمنازلة في

(١) انظر ترجمته في: الأعلام ٤/٧٦؛ والإصابة ت ٤٥٨٢؛ وفوات الوفيات ١/٢٠٩؛ وذيل المذيل ٢٣.

(٢) الدُّف: آلة للطرب تُصنَع على هيئة إطار من خشب خفيف يُشدّ عليه جلد رقيق وقد يكون بجوانبه صنوج نحاسية وهو من آلات الإيقاع (ج) دفوف.

Marfat.com

المقامات العوال، والشرب من راح المحبة التي فيها قائلهم، قال:

هنيًا لأهل الدير كم سكروا بها ... وما شربوا منها ولكنهم همّوا
على نفسه فليبكِ مَن ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهمُ

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: رأيت النبيّ ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله، ما تقول في السّماعات التي نحضرها في الليالي، وربما تبدو منّا الحركات فيها، فقال ﷺ: «ما من ليلة إلا وأحضر معكم، ولكن ابدؤوا بالقرآن واختموا بالقرآن». قلت: لا يغترّ جاهل بما ذكر عن الشيوخ في السّماع، فيحسب أنه يجوز لكلّ أحد، هيهات إنما هو لمَن حَدَا به حادي الشوق إلى مواطن القرب في الحضرة القدسية، خاليًا عن هوى النفس والصفات الدَّنِيَّة، متّصفًا بما أنشده أهل الأحوال السَّنِيَّة:

ولمّا حضرنا بالسرور بمجلس ... أضاءت لنا من عالم الغيب أنوار
وطافت علينا للعوارف خمرة ... يطوف بها في حضرة القدس خمار
تخامر أرباب العقول بلطفها ... فتبدو لنا عند المسرّة أسرار
فلما شربناها بأفواه كشفنا ... أضاءت لنا منها شموس وأقمار
رفعنا حجاب الأنس بالأنس عنوة ... وجاءت إلينا بالبشائر أخبار
وغبنا بها عنّا ونلنا مرادنا ... ولم يبقَ منّا بعد ذلك آثار
وخاطبنا في سكرنا عند محونا ... كريم قدير فائض الجود جبار
وكاشفنا حتى رأيناه جهرة ... بأبصار فهم لا تواريه أستار

قلت: هذا هو السّماع الحقيقي، وقد يجوز على غير هذا الوجه بشروط مذكورة في تصانيف المشايخ السالكين العارفين، ومن أحسنها تصنيفًا وترتيبًا، وأتقنها تحقيقًا وتهذيبًا: كتاب «عوارف المعارف»[1] للشيخ الجليل العالِم الرباني شهاب الدين السهرورديّ رضي الله تعالى عنه، وما أحسن ما قاله الشيخ العارف أبو عثمان الخيري رضي الله تعالى عنه: السّماع على ثلاثة أوجه: فوجه منها للمريدين المبتدئين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة، ويُخشَى عليهم الفتنة والمراءاة. والثاني للصادقين يطلبون الزيادة في أحوالهم، ويستمعون في ذلك ما يوافق أوقاتهم. والثالث لأهل الاستقامة من العارفين، فهؤلاء لا يختارون على الله فيما يَرِد عليهم من الحركة والسكون، يعني لا يختارون لأنفسهم شيئًا، بل واقفون مع اختيار الله لهم، رضي الله تعالى عنهم، وهذا

(١) كتاب «عوارف المعارف» في التصوّف للشيخ شهاب الدين أبي حفص عمر بن (محمد بن) عبد الله السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢. وهذا الكتاب مشتمل على ثلاثة وستين بابًا كلها في سِيَر القوم وأحوال سلوكهم وأعمالهم. (كشف الظنون ٢/ ١١٧٧).

Marfat.com

القسم الثالث هو الذي أشار إليه بعضهم حيث قال: إنما يصحّ السّماع لمَن عالج نفسه بأنواع الرياضات وتزكية الصفات، وفطم النفس عن المحظورات، ونزّه سرائره وقلبه عن السّموم والآفات، وتحقّقت له المعرفة بالأسماء والصفات، وعند ذلك يحتمل أن يصحّ له أخذ السّماع من المشاهدات. قلت: وكذلك لا يغترّ أحد رجلين: أحدهما يتوهم أن لي مشربًا من موارد هؤلاء الذين ذكرت، فوالله إني فقير إلى ورود مشربهم، ووالله والله إني لمحتاج إلى واحد منهم يقع عليّ منه نظرة يكون فيها نفحة من نفحات الله تعالى. والثاني يعرف فقري من ذلك الحال، ويتوهم أني أدّعيه بهذا الكلام الذي ذكرته عن هؤلاء الأقوام، فليعلم أني لا أدّعي ذلك، بل أعترف بالإفلاس والعدم. وفي ذلك قلت فيما تقدّم حين أمدح جواهر نفوس أهل العطاء والوصول، وأذمّ فلوس إفلاس نفسي، وأنادي عليها وأقول:

وكم من جوهر أحكي نفيس ... ولي وصف حكى وصف الفلوس
وكم أجلو على حسنًا وما لي ... نصيب مثل ماشطة العروسِ(١)
رضًا يا نفس تستوفي نصيبًا ... بتسليم قضا باري النفوسِ
فلو بالمدح قابلتي أميرًا ... رجعتي منه بالمال النفيس
فكيف الظنّ بالرحمٰن مُعطي ... عطايا ليس تُحصى في الطروسِ(٢)
حباكي مدح سادات البرايا ... وقد عافاك من مدح النحوسِ
ففي هذا له حمد عظيم ... عليكي فاشكري ساقي الكؤوسِ
لأحباب حباهم واصطفاهم ... كرام سادة غرّ رؤوسِ
إذا ما اليافعيّ أمسى عبيدًا ... لسادات فللأقدام بوسي
عسى يومًا يقول الفضل ذوقي ... حميًا حبهم والفرش دوسي
إلٰهي لا تخيب سعي مدحي ... لساداتي ولا معهم جلوسي
فحاشى جود رحمٰن كريم ... يردّ القاصد الراجي ببوسِ
وصلّى الله مولانا على مَن ... يغيث الخلق في يوم عبوسِ

قلت: وإذ قد أشرت إلى نفي وهم هذين الرجلين المذكورين، فها أنا أُشير إلى إثبات تحقيق الحال، وهو أن ذكري لهم وحديثي عنهم بإخبارهم تلذّذ بحكاياتهم وأشعارهم، كما أنشد بعض أخيارهم:

إيه أحاديث نعمان وساكنه ... إنّ الحديث عن الأحباب أسمار

---

(١) الماشطة: التي حِرفتها المشاطة، أو التي تُحسِن التمشيط (ج) مواشط.
(٢) الطروس: (ج) الطرس: الصحيفة.

Marfat.com

أستنشق الريح عنكم كلما نفحت ... من نحو أرضكم نكباء مِعطار

ويحصل إن شاء الله تعالى المقصود المعظم بما قاله ﷺ، أعني حديث الصحيحين المنتخب قوله ﷺ: «المرء مع مَن أحب»(١).

(الحكاية الثمانون بعد المئتين: عن أحمد بن مقاتل العكي رحمه الله تعالى) قال: لمّا دخل ذو النون المصري بغداد، اجتمع إليه الصوفية ومعهم قوّال، فاستأذنوه بأن يقول بين أيديهم شيئًا فأذِن فابتدأ يقول:

صغير هواك عذبني ... فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت في قلبي ... هوى قد كان مشتركا
أما ترثي لمكتئب ... إذا ضحك الخليّ بَكا

قال: فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر منه ولا يسقط على الأرض، ثم قام رجل من القوم يتواجد، فقال له ذو النون: الذي يراك حين تقوم وتقلبك، فجلس الرجل، قال الأستاذ أبو عليّ الدقاق رضي الله تعالى عنه: كان ذو النون رضي الله تعالى عنه صاحب إشراف على ذلك الرجل، حيث نبّهه أن ذلك ليس مقامه، وكان ذلك الرجل صاحب إنصاف حيث قبل ذلك منه، فرجع وقعد. ورُوِيَ أن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه سمع جارية تغنّي وتقول:

خليليّ ما بال المطايا كأنها ... تراها على الأعقاب بالقوم تنكص

فقال لابن علية وكان معه: كيف تسمع، أيطربك؟ فقال: لا، فقال الشافعيّ: ما لك حسّ. وحُكِيَ أن بعضهم قام ليلة إلى الصباح، يقوم ويسقط على هذا البيت والناس قيام يبكون:

بالله ردّوا فؤاد مكتئب ... ليس له من حبيبه خلف

وقد تقدمت حكاية الفقير الذي مات لما سمع جارية تقول:

في سبيل الله ودّ ... كان مني لك يبذل
كلّ يوم تتلوّن ... غير هذا لك أجمل

(الحكاية الحادية والثمانون بعد المئتين: عن أبي عبد الله بن الجلاء رضي الله تعالى عنه) قال: كان بالمغرب شيخان لهما أصحاب وتلامذة يُقال لأحدهما: جبلة، والآخر: زريق، فزار زريق يومًا جبلة في أصحابه، فقرأ رجل من أصحاب زريق شيئًا، فصاح واحد من أصحاب جبلة ومات، فلما أصبحوا قال جبلة لزريق: أين الذي قرأ بالأمس

(١) سبق تخريجه.

فليقرأ آية، فقرأ، فصاح جبلة صيحة فمات القارىء، فقال جبلة: واحد بواحد والبادي أظلم، رضي الله تعالى عنهم أجمعين. قلت: يشبه هذه الحكاية، الحكاية الآتية بعدها إن شاء الله تعالى.

(الحكاية الثانية والثمانون بعد المئتين): قال المؤلف رحمه الله تعالى: كان في بلاد اليمن شيخان: أحدهما الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أحمد بن الجعد، والآخر الشيخ الكبير العارف بالله تعالى سعيد المكنى أبا عيسى، وكان لكلّ واحد منهما أصحاب وتلامذة، فورد الشيخ أحمد المذكور في جمع من أصحابه على الشيخ سعيد في وقت جاء إلى زيارة القبور الشريفة، فوافقه الشيخ سعيد وأصحابه على الزيارة ومشوا، فلما بلغوا بعض الطريق، بَدَا للشيخ سعيد أن يرجع في هذا الوقت، ويزور في وقت آخر، فرجع هو وأصحابه إلى موضعه، وذلك في حضرموت[1]، واستمرّ الشيخ أحمد على عزمه حتى انتهى إلى مقصده، فزار ورجع والشيخ سعيد مكث أيامًا ثم خرج هو وأصحابه للزيارة المذكورة، فالتقى الشيخان وأصحابهما في الطريق، فقال الشيخ أحمد للشيخ سعيد: توجه عليك حقّ الفقراء في رجوعك، فقال: لا، ما توجّه عليّ حقّ، فقال له الشيخ أحمد: بلى، قم فأنصف، فقال الشيخ سعيد: مَن أقامنا أقعدناه، فقال الشيخ أحمد، ومَن أقعدنا ابتليناه، فأصاب كل واحد منهما ما قاله صاحبه، فصار الشيخ أحمد مقعدًا إلى أن لَقِيَ الله، وصار الشيخ سعيد مُبتَلَى في جسمه ببلاء قطع جسمه حتى لَقِيَ الله، رضي الله تعالى عنهما. وهذه لعمريَ أحوال تكلّ في جنب قطعها السيوف القاطعة، وإنما يقطع الحالان معًا إذا كان صاحبهما متكافئين أو قريبين من التكافؤ، فإن لم يكونا كذلك قطع القويّ منهما دون الضعيف، وقد يقطع السابق دون المسبوق هذا الظاهر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(الحكاية الثالثة والثمانون بعد المئتين: عن بعضهم) قال: احتبس على أهلي خروج الولد فمضيت إلى الشيخ أبي الحسن الدينوري رضي الله تعالى عنه بجام أتبرّك بخطه فيه؛ فلما كتب بسم الله الرحمٰن الرحيم انفلق الجام وسقط الشيخ مغشيًا عليه، فأتيته بجام آخر، فكان منه ما كان من الأوّل، ثم جئته بثالث ورابع وخامس فقال: يا هذا اذهب إلى غيري، فلو جئتني بما أمكن أن تجيء به لم يكن إلا ما رأيت، فإني عبد إذا ذكرت مولاي ذكرته بهيبة وحضور.

(الحكاية الرابعة والثمانون بعد المئتين): حُكِيَ أن أبا تُراب النخشبي رضي الله تعالى عنه كان معجبًا ببعض المريدين، فكان يخدمه ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول

---

(١) حضرموت: ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تُعرَف بالأحقاف وبها قبر هود عليه السلام. (معجم البلدان ٢/ ٢٧٠).

Marfat.com

بعبادته، فقال أبو تراب له يومًا: لو رأيت أبا يزيد؟ فقال: أنا عنه مشغول، فلما أكثر عليه في قوله: لو رأيت أبا يزيد، هاج وَجْد المريد فقال: ويحك وما أصنع بأبي يزيد، فقد رأيت الله عزّ وجلّ فأغناني عن أبي يزيد، قال أبو تراب: فهاج طبعي فلم أملك نفسي، فقلت: ويلك تغترّ بالله تعالى، لو رأيت أبا يزيد مرّة كان خيرًا لك من أن ترى الله عزّ وجلّ سبعين مرّة، قال: فبُهِتَ الفتى من قولي وأنكره وقال: كيف ذلك؟ فقلت له: إنك ترى الله عزّ وجلّ عندك، فيظهر لك على مقدارك، وترى أبا يزيد عند الله، فيظهر لك على مقداره. قلت: يعني يظهر لك من تجلّي صفات الجلال والجمال وغيرهما على مقدار حال أبي يزيد، قال: فعرف ما قلت، فقال: احملني إليه، فذكر قصة قال في آخرها، فوقفنا على تلّ ننتظره ليتحرّك إلينا من الغيضة، وكان يأوي إلى غيضة فيها سِباع، قال: فمرّ بنا أبو يزيد وقد قلب فروة على ظهره، فقلت للفتى: هذا أبو يزيد فانظر إليه، فنظر الفتى إليه فصعق، فحرّكناه فإذا هو ميت، فقلت لأبي يزيد: يا سيدي قتلت صاحبنا، أو قال: قلت: نظره إليك قتله، فقال: لا، ولكن صاحبك كان صادقًا، وأسكن في قلبه سرّ لم ينكشف له وصفه، فلما رآنا انكشف له سرّ قلبه، فضاق عن حمله لأنه كان في مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك، رضي الله تعالى عنه، ونفع به آمين.

(الحكاية الخامسة والثمانون بعد المئتين: عن يحيىٰ بن معاذ رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزًا[1] على صدور قدميه رافعًا أخمصيهما مع عقبيه عن الأرض، ضاربًا بذقنه على صدره، شاخصًا بعينيه، لا يطرف، قال: ثم سجد عند السحر، فأطال ثم قعد، فقال: اللّٰهمّ إن قومًا طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء، والمشي في الهواء، وطيّ الأرض، وانقلاب الأعيان، حتى عدّد نيّفًا وعشرين نوعًا من كرامات الأولياء، فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك، ثم التفت فرآني، فقال: يحيىٰ؟ قلت: نعم يا سيدي، قال: منذ متى أنت هٰهنا؟ قلت: منذ حين، فسكت، فقلت: يا سيدي حدِّثني بشيء، قال: أُحدِّثك بما يصلح لك، أدخلني الحقّ في الفلك السفلي فدوّرني في الملكوت السفلي، وأراني الأرض وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي، ،طوّف بي في السمٰوات، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه فقال: سلني أيّ شيء رأيت حتى أهبه لك، فقلت: ما رأيت شيئًا أستحسنه فأسأله، فقال: أنت عبدي حقًّا، تعبدني لأجلي صدقًا، لأفعلنّ ولأفعلنّ، فذكر أشياء، قال يحيىٰ: فهالني ذلك وعجبت منه،

(١) استوفز: نهض على ركبتيه وتهيأ للوثوب أو المضيّ، واستوفز في قعدته: انتصب فيها غير مطمئن.

فقلت له: يا سيدي لِمَ لم تسأله المعرفة وقد قال لك ملك الملوك: سَلْني م شئت؟ قال: فصاح بي صيحة وقال: اسكت ويلك، غرت عليه مني، لأني لا أُحبّ أن يعرفه سواه. وأنشد بعضهم:

ولا تـذكـر إلـيّ الـعـامـريـة إنـنـي   أغـار عـلـيـهـا من فـم الـمـتـكـلـم

(الحكاية السادسة والثمانون بعد المئتين: قال بعضهم) سألت عبد الرحمٰن بن يحيىٰ عن التوكّل[1] فقال: لو أدخلت يدك في فم التنّين حتى تبلغ الرسل لا تخاف مع الله غيره، قال: فخرجت إلى أبي يزيد لأسأل عن التوكّل، فدققت الباب، فقال: أليس لك في قول عبد الرحمٰن كفاية؟ فقلت: افتح لي الباب، فقال: إنك ما جئتني زائرًا وقد أتاك الجواب من وراء الباب ولم يفتح لي، فمضيت ولبثت سنة، ثم قصدته، فقال: مرحبًا جئتني الآن زائرًا، فبقيت عنده شهرًا، فكان لا يخطر بقلبي شيء إلا أخبرني به.

(الحكاية السابعة والثمانون بعد المئتين): رُوِيَ أن يحيىٰ بن مُعاذ الرازي كتب إلى أبي يزيد رضي الله تعالى عنهما: إنني سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته، فكتب إليه أبو يزيد: غيرك شرب بحور السمٰوات والأرض وما رُوِيَ بعد ولسانه خارج، وهو يقول: هل من مزيد. وأنشدوا في المعنى:

عـجـبـت لـمَـن يـقـول ذكـرت ربـي   وهـل أنـسـى فـأذكـر مـا نـسـيـت

شـربـت الـحـبّ كـأسًـا بـعـد كـأس   فـمـا نـفـد الـشـراب ولا رويـت

ورُوِيَ أنَّ شقيقًا البلخي وأبا تراب النخشبي قَدِما على أبي يزيد رضي الله تعالى عنهم، فقُدِمت السفرة وشاب يخدم أبا يزيد، فقال له البلخي: كل معنا يا بنيّ، أو قال: يا فتى، فقال: إني صائم فقال أبو تراب: كل ولك أجر صوم شهر، فأبى، فقال له شقيق: كل ولك أجر صوم سنة، فأبى، فقال أبو يزيد: دعوا مَن سقط من عين الله تعالى، فأخذ ذلك الشاب في السرقة بعد سنة فقطعت يده، نعوذ بالله من سخط الله.

(الحكاية الثامنة والثمانون بعد المئتين: عن زيتونة خادمة أبي الحسين النوري، وخادمة أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنهم) قالت: كان يوم بارد، فقلت للنوري: أحمل إليك شيئًا، فقال: نعم، فقلت: أيّ شيء تريد؟ فقال: خبزًا ولبنًا فحملته إليه، وكان بين يديه فحم يقلبه بيده وقد اشتعلت النار، فأخذ يأكل الخبز واللبن يسيل على يده، وعليها سواد الفحم، فقلت في نفسي: سبحانك ما أقذر أولياءك يا ربّ، ما فيهم أحد نظيف، قال: فخرجت من عنده، فتعلقت بي امرأة وقالت: سرقت لي رزمة ثياب،

---

(١) انظر حديث القشيري عن التوكّل ص ١٦٢ ـ ١٧٣.

وجرّوني إلى الشرطي، فأخبر النوري بذلك، فخرج وقال للشرطي: لا تتعرّض لها فإنها وليّة من أولياء الله تعالى، فقال الشرطي: كيف أصنع والمرأة تدّعي، قالت: فجاءت جارية ومعها الرزمة المطلوبة، فاستردّ النوري المرأة وقال لها: أتقولين بعد هذا: ما أقذر أولياءك يا ربّ؟ قالت: فقلت: قد تبت.

(الحكاية التاسعة والثمانون بعد المئتين: عن بعضهم) قال: رأيت ذا النون رضي الله تعالى عنه، وقد تقاتل اثنان: أحدهما من أولياء السلطان، والآخر من الرعيّة، فعدا الذي من الرعية على الجندي، فكسر ثنيته[1]، فتعلق الجندي به وقال: بيني وبينك الأمير، فجازوا بذي النون، فقال لهم الناس: اصعدوا إلى الشيخ، فصعدوا إليه وعرّفوه بما جرى، فأخذ الثنية وبلّها بريقه وردّها إلى فم الرجل في الموضع الذي كانت فيه، فحرّك شفتيه فتعلقت بإذن الله عزّ وجلّ، فبقي الرجل يفتش فاه فلم يجد الأسنان إلا سواء. قلت: ويشبه هذه الحكاية، الحكاية الآتية بعدها إن شاء الله تعالى.

(الحكاية التسعون بعد المئتين) قال المؤلف غفر الله له: كان إنسان في بلاد اليمن في يده سلعة دار بها على جمع من الصالحين ليدعو بذهابها عنه، فلم تذهب، فجاء إلى ابن عجيل المتقدّم ذكره رضي الله تعالى عنه فقال له: ادعُ الله لي أن يُذهِب عني هذه السلعة، وإلا ما بقيت أحسِن ظني بأحد من الصالحين، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، هات يدك ومسح عليها ولفّها بخرقة، وقال له: لا تفتحها إلى أن تصل إلى منزلك، فمشى من عنده هو ورفقاؤه، ومرّوا في طريقهم ببعض القرى، فدخلوها واشتروا منها غداءهم خبزًا ولبنًا، وفتوه فتًّا تسمّيه أهل اليمن ثرافة بالثاء المثلثة المضمومة، ثم بالراء والألف والفاء والهاء، وكانت سلعته المذكورة في كفّه اليمنى، فنسيها وفتح الخرقة وأكل، فلما فرغ من الأكل لم يجد لها أثرًا ولم يتميَّز موضعها من سائر الكفّ، وهذا معنى الحكاية، وإن لم يكن لفظها بعينه. وأكل الثرافة المذكورة بشع، وهو بخلاف السُنّة، وفيه بشاعة وقبح، ولا سيما أكل كثير من الجهّال فإنهم يتغالون في ذلك، ويفتخر كلٌّ منهم بغلب صاحبه بالأكل، بأن يحمل في كفّه أكثر من الآخر، حتى يُحكَى أن الواحد منهم يحمل بكفّه ثلاث مرات نحو المدّ الشرعي أكلاً يهول ويفجع وليست هكذا السُنّة بل السُنّة أن يأكل بصنعة وظرافة بحيث لا يلطِّخ شفتيه ولا غيرهما باللبن، ومثل هذا الأكل منه ما يكون مكروهًا، ومنه ما يكون حرامًا؛ فالحرام إذا ظلم غيره بأكل شيء من نصيبه بشركة أو نحوها، ولم يرضَ ذلك الغير بذلك الأكل، والمكروه إذا لم يظلم أحدًا؛ وهذه الخصلة وإن كانت في أهل اليمن قبيحة، فلهم لعمري

---

(١) الثنية: من الأضراس: واحدة الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل.

Marfat.com

في كثير من المحاسن المليحة: منها ما شهدت به الأحاديث الصحيحة بنصوص صريحة، وذكر هذه الخصلة المذكورة لا يَحْسُن هٰهنا إلا على جهة التنبيه والنصيحة.

(الحكاية الحادية والتسعون بعد المئتين): قال المؤلف غفر الله له: أخبرني بعض الإخوان الصالحين أنه جاء إنسان إلى الفقيه الإمام الكبير العارف بالله محمد بن حسين الخبير البجلي رضي الله تعالى عنه، وقال: سُرِقَ لي ثور، فقال له: تريد ثورك؟ قال: نعم، قال: اذهب إلى المكان الفلاني تجد فيه شيخنا يحرث لا تفكّه إلا بثورك، يعني بذلك الشيخ شيخه المشهور كبير شيوخ اليمن محمد بن أبي بكر الحكمي المتقدّم ذكره رضي الله تعالى عنه، فجاء إليه وقال له: رُدَّ لي ثوري، ولازمه ملازمة جدّ متوهمًا أنه هو السارق، إذ لا يعرف الشيخ المذكور فقال له الشيخ: مَن أمرك بهذا؟ فقال: محمد بن الحسين، ثم قال: خلّصني بثوري وخلّني من هذا الكلام، قال: أخبرني كيف صفة ثورك؟ قال: تسرق ثوري وتزعم أنك لا تعرف صفته، فتبسّم الشيخ رضي الله تعالى عنه وقال: اذهب إلى المكان الفلاني تجد فيه ثورك مربوطًا بشجرة فحلّه وخُذه، فذهب إلى ذلك المكان فوجده فيه كما ذكر الشيخ، فأخذه ورجع فرحا مسرورًا وجاء السارق ليأخذ الثور فلم يجده، فرجع محرومًا محزونًا بل مأثومًا مأزورًا، ورجع الشيخ مبرورًا مأجورًا.

(الحكاية الثانية والتسعون بعد المئتين: عن بعض السلف) قال: كان لرجل على رجل مئة دينار بوثيقة إلى أجل، فلما جاء الأجل طلب الوثيقة فلم يجدها، فجاء إلى بنان الحمال فسأله الدعاء، فقال له: أنا قد كبرت وأنا أُحبّ الحلوى اذهب فاشترِ لي رطل حلوى معقودًا وجئني به حتى أدعو لك، فذهب فاشترى له ما قال، ثم جاء به، فقال له بنان: افتح القرطاس، ففتحه فإذا بالوثيقة فيه، فقال له بنان: خذ وثيقتك، وخذ المعقود أطعمه صبيانك، فأخذهما ومضى، ولم يأخذ بنان منه شيئًا، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. وقال بنان رضي الله تعالى عنه: دخلت البرية وحدي فاستوحشت، فإذا بهاتف يهتف بي: يا بنان نقضت العهد لم تستوحش، أليس حبيبك معك.

(الحكاية التاسعة والتسعون بعد المئتين: عن بُكَير صاحب الشبلي رضي الله تعالى عنه) قال: وجد الشبلي رضي الله تعالى عنه في يوم جمعة خفّة من وجع كان فيه، فنهض إلى الجامع واتكأ على يدي حتى انتهينا إلى الورّاقين، فتلقانا رجل جاء من الرصافة، فقال الشبلي: سيكون لي غدًا مع هذا الشيخ شأن، قال: فلما كان الليل مات الشبلي رحمه الله تعالى، وقيل له: في درب السائقين شيخ صالح يغسل الموتى، فدلّوني عليه فنقرت الباب نقرًا خفيفًا، وقلت: سلام عليكم، فقال: مات الشبلي؟ فقلت: نعم، فخرج إليّ وإذا به الشيخ الذي أشار إليه الشبلي، فقلت له: لا إلٰه إلا الله تعجبًا، فقال:

Marfat.com

لا إله إلا الله، تعجب من ماذا؟ قلت: قال لي الشبلي أمس لمّا لقيناك سيكون لي غدًا مع هذا الشيخ شأن، فبحقّ معبودك من أين لك أن الشبلي قد مات؟ قال: يا أبله فمن أين للشبلي أنه يكون له معي شأن اليوم؟ رضي الله تعالى عنهما. ولمّا حضرت الشبلي الوفاة قال: عليّ درهم مظلمة وقد تصدّقت عنه بألوف، فما على قلبي شيء أعظم منه.

(الحكاية الرابعة والتسعون بعد المئتين): حُكِيَ أن امرأة إسرائيلية كان لها دار بجوار قصر الملك، وكانت تشين القصر، وكلما رامَ الملك منها أن تبيع الدار أبت أن تبيع منه، فخرجت المرأة في سفر، فأمر الملك بهدمها، فلما جاءت المرأة من السفر قالت: مَن هدم داري؟ قيل لها: الملك، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت: إلٰهي وسيدي ومولاي غبت أنا وأنت حاضر، وأنت للضعيف مُعين وللمظلوم ناصر، ثم جلست، فخرج الملك في موكبه، فلما نظر إليها قال لها: ما تنتظرين؟ قالت: أنتظر خراب قصرك، فهزأ بقولها وضحك منها، فلما جنّ عليه الليل خُسِفَ به وبقصره، ووُجِدَ على بعض حيطان القصر مكتوبًا هذه الأبيات:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما يُدريك ما صُنع الدعاء
سهام الليل لا تخطىء ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء
وقد شاء الإلٰه بما تراه ... فما للملك عندكم بقاء

ورُوِيَ عن رجاء بن كثير رحمه الله تعالى قال: كنّا قعودًا عند شيخنا في الكوفة نكتب الحديث عنه، فمرّت بنا امرأة عليها قميص صوف وكساء صوف، فقالت: السلام عليكم، ثم أشارت بيدها إلى قبّة الملك وقالت: فرحوا بقصورهم، واغتبطوا بسرورهم، وندموا على ما قدّموا في قبورهم، فلا تغترّوا إنما نحن نزرع والموت حصادنا، والقبر بيدرنا، والقيامة موعدنا، فمَن زرع خيرًا حصد سرورًا، ومَن زرع شرًّا حصد ندامة، فصبر يسير فيه غنم كثير في أيام قليلة تعقب راحة طويلة رضي الله تعالى عنها.

(الحكاية الخامسة والتسعون بعد المئتين: عن عمرو بن دينار[1] رحمه الله تعالى) قال: كان رجل من بني إسرائيل على ساحل البحر، فرأى رجلاً وهو ينادي بأعلى صوته: ألا مَن رآني فلا يظلمنّ أحدًا، قال: فدَنا منه وقال: يا عبد الله ما خبرك؟ فقال: اعلم أني كنت رجلاً شرطيًا، فجئت يومًا إلى هذا الساحل، فرأيت صيّادًا قد صاد سمكة، فسألته أن يهبها لي، فأبى، فسألته أن يبيعها مني فأبى، فضربت رأسه بسوطي وأخذت

---

(١) هو عمرو بن دينار الجمحي بالولاء (٤٦ - ١٢٦ هـ = ٦٦٦ - ٧٤٣ م) أبو محمد الأثرم، فقيه، كان مفتي أهل مكة، فارسي الأصل، من الأبناء. مولده بصنعاء، ووفاته بمكة. ثقة، ثبت له خمسمائة حديث. الأعلام ٥/٧٧، وتهذيب التهذيب ٨/٣٠، وتاريخ الإسلام للذهبي ٥/١١٤.

Marfat.com

السمكة منه، فذهبت بها في يدي معلقة، فبينما أنا ذاهب إلى منزلي قبضت السمكة على إبهامي، فرمتُ أن أُخلّص إبهامي منها فلم أقدر، فجئت إلى عيالي فعالجوا أن يخلّصوا إبهامي منها فلم يقدروا إلا بعد تعب؛ وقيل: إنما تعلّقت بإبهامه عندما قُدِّمت إليه ليأكلها. قال: فأصبح إبهامي قد ورم ثم انتفخ، وانتفخت فيه عيون من آثار أنياب السمكة، فذهبت إلى طبيب محسن، فلما نظر إبهامي قال: هذه أكلة[1] بلا شك وإن لم تقطع إبهامك هلكت، فقطعته فوقع الدّاء في كفّي، فجئت إليه فقال: وإن لم تقطع كفّك هلكت. فقطعتها، فوقع الدّاء في ذراعي، فجئته، فقال: إن لم تقطع ذراعك هلكت، فقطعت ذراعي، فوقع الدّاء في عضدي، فلما رأيت ذلك خرجت من منزلي هاربًا، فبينما أنا أسير في البلاد وأصيح كالهائم، إذ رُفِعَت لي شجرة عظيمة، فأويت إلى ظلّها، فنعست عند أصلها[2]، فأتاني آتٍ في منامي وقال لي: كم تقطع أعضاءك وترمي بها أربًا أربًا، اردُد الحقّ إلى أهله فإنك تنجو، قال: فانتبهت، وعلمت بالحقّ، وأن ذلك من قِبَل الله عزّ وجلّ. فأتيت الصياد فوجدت قد طرح شبكته، فانتظرته حتى أخرجها، فإذا فيها سمك كثير، فقلت: يا عبد الله أنا مملوك لك، قال: ومَن أنت يا ابن أخي؟ قلت: أنا الشرطي الذي ضربت رأسك بالسوط وأخذت السمكة منك، وأريته يدي، فلما رآها استعاذ من بلاء الله وسخطه، وقال لي: أنت في حِلٍّ، فتناثر الدود من عضدي، فلما هممت أن أنصرف قال: قف ما كان مني هذا عدلاً دعوت عليك في سمكة لا خطر لها فاستجيب لي، فأخذ بيدي وذهب بي إلى منزله، فدعا ابنًا له فقال: احفر هٰهنا في هذه الزاوية، فحفر فأخرج منها جرّة فيها ثلاثون ألف درهم، فأمر ابنه فعدّ لي منها عشرة آلاف درهم، وقال: استعِن بها على زمانك، واجبر بها بعض مصائبك، ثم أمره فعدّ لي عشرة آلاف أخرى وقال: اجعلها في فقراء جيرانك وقرابتك، فلما أردت أن أنصرف قلت: سألتك بالله أخبرني كيف دعوت عليّ، قال: لمّا ضربت رأسي، وأخذت السمكة مني نظرت إلى السماء وبكيت وقلت: يا ربّ خلقتني وخلقته، وجعلته قويًا وجعلتني ضعيفًا، ثم سلّطته عليّ، فلا أنت منعته من ظلمي، ولا أنت جعلتني قويًا أمتنع من ظلمه، فأسألك بالقدرة التي بها خلقته وجعلته قويًا وجعلتني ضعيفًا، أن تجعله عبرة لخلقك، رحمهما الله تعالى.

(الحكاية السادسة والتسعون بعد المئتين: عن علي بن حرب رحمه الله تعالى) قال: خرجت يومًا أنا وبعض شباب الموصل إلى الشطّ، فركبنا في زورق، فلما بعدنا من البلد، وتوسطنا الشطّ، إذا بسمكة كبيرة ظهرت من الشط إلى وسط الزورق، فقام الشباب

---

(١) الأكلة: مرض يحسّ معه صاحبه برغبة في حكّ جسمه.

(٢) الأصل: أساس الشيء الذي يقوم عليه وقاعدته ومنشؤه الذي ينبت منه وما يقابل الفرع.

ونزلوا إلى حافّة الشط ليجمعوا حطبًا برسم السمكة، فنزلت معهم، فبينما نحن نمشي على جانب الشطّ، وإذا بالقرب منّا خرابة، فذهبنا إليها نُبصِر آثارها، وإذا فيها شاب مكتوف وآخر مذبوح إلى جانبه، وبغل واقف عليه قماش، فقلنا للشاب: ما قصتك وما هذا المذبوح؟ فقال: إني كنت مُكترِيًا مع هذا المكاري صاحب هذا البغل، فعدل بي إلى هذا المكان وكتّفني كما ترون، ثم قال: لا بدّ من قتلك، فعاهدته بالله تعالى لا يظلمني ولا يربح إثمي ولا يعدمني روحي بل يأخذ القماش وهو في حِلٍ منه، وحلفت له بالله تعالى أني لا أغمز عليه أحدًا، وما زلت أُناشده الله تعالى وهو لا يفعل، فمدّ يده إلى سكّين كانت في وسطه ليجذبها، فتعسّر عليه أن تخرج من غلافها، فما زال يجذبها حتى خرجت بصعوبة فما أخطأت حلقه فذبحته فهو كما ترون وأنا على حالتي هذه، قال: فحللنا كتافه وأعطيناه البغل والقماش وراح، وعدنا إلى الزورق، فلما صعدنا قفزت السمكة إلى الشطّ، فذلك أعجب ما رأيت وسمعت، فسبحان اللطيف الخبير.

(الحكاية السابعة والتسعون بعد المئتين: عن بعض الصالحين) قال: بينما أنا أطوف بالكعبة إذا بجارية على كتفها طفل صغير وهي تنادي: يا كريم يا كريم عهدك القديم، قال: فقلت لها: ما هذا العهد الذي بينك وبينه؟ قالت: ركبت في سفينة ومعنا قوم من التجّار، فعصفت بنا ريح فغرقت السفينة وجميع مَن فيها، ولم ينجُ أحد منهم غيري وهذا الطفل في حجري على لوح، ورجل أسود على لوح آخر؛ فلما أضاء الصبح نظر الأسود إليّ وجعل يدفع الماء بيديه حتى لصق بي واستوى معنا على اللوح، وجعل يراودني عن نفسي، فقلت: يا عبد الله أما تخاف الله تعالى، نحن في بَلِيَّة لا نرجو الخلاص منها بطاعته، فكيف بمعصيته؟ فقال: دعي عني هذا، فوالله لا بدَّ لي من هذا الأمر، قالت: وكان هذا الطفل نائمًا في حجري، فقرصته قرصة فاستيقظ وبكى، فقلت له: يا عبد الله دعني أُنوِّم هذا ويكون من الأمر ما قدّره الله علينا، فمدّ الأسود يده إلى الطفل ورمى به في البحر، فرمقت السماء بطرفي وقلت: يا مَن يحول بين المرء وقلبه، حل بيني وبين هذا الأسود بحولك وقوّتك إنك على كلّ شيء قدير، فوالله ما استوعبت الكلمات حتى ظهرت دابّة من دوابّ البحر ففتحت فاها والتقمت الأسود وغاصت به في البحر، وعصمني الله منه بحوله وقوّته، وهو القادر على ما يشاء سبحانه وتعالى، قالت: وما زالت الأمواج تدفعني حتى رمتني إلى جزيرة من جزائر البحر، فقلت في نفسي: آكل من بقلها وأشرب من مائها حتى يأتي الله بأمره، فلا فرج لي إلا منه، فمكثت أربعة أيام؛ فلما كان في اليوم الخامس لاحت لي سفينة في البحر على بُعد، فعلوت على تلّ وأشرتُ إليهم بثوب كان عليّ، فخرج إليّ منهم ثلاثة نفر في زورق، فركبت معهم؛ فلما دخلت السفينة الكبرى إذا بالطفل الذي رمى به الأسود في البحر عند رجل منهم، فلم أتمالك أن

Marfat.com

ارتميت عليه وقبّلت بين عينيه، وقلت هذا: والله ولدي وقطعة من كبدي، فقال لي أهل السفينة: مجنونة أنت أم اختلّ عقلك؟ فقلت: والله ما أنا مجنونة ولا اختلّ عقلي ولكن جرى من الأمر ما هو كذا وكذا وكذا، وذكرت لهم القصة إلى آخرها؛ فلما سمعوا مني ذلك أطرقوا رؤوسهم وقالوا: يا جارية قد أخبرتينا بأمر تعجّبنا منه، ونحن أيضًا نخبرك بأمر تتعجبين منه، بينما نحن نجري بريح طيبة إذا بدابّة قد اعترضتنا ووقفت أمامنا وهذا الطفل على ظهرها، وإذا مُنادٍ ينادي: إن لم تأخذوا هذا الطفل من ظهرها وإلا هلكتم، فصعد واحد منّا على ظهرها وأخذ الطفل، فلما دخل به في السفينة غاصت الدّابّة في البحر. وقد تعجبنا من هذا ومما أخبرتينا به، وقد عاهدنا الله تعالى أن لا يرانا على معصية بعد هذا اليوم، قالت: فتابوا عن آخرهم، فسبحان الله اللطيف الخبير، جميل العوائد، سبحان مدرك الملهوف عند الشدائد، وفي هذا المعنى أقول:

يا مدركًا بسريع اللطف والفرج ... عند الشدائد للملهوف ذي الحرج
كلمحة الطرف بل أدنى تغيث ولو ... في قعر بحر وجوف الحوت في اللجج
عوائد منك يا رحمٰن جارية ... على جميل بذي معروفك البهج
عوّدتناها وكم عوّدت من نعم ... وكم بغوثك بعد البؤس مبتهج
فالخير منك نراه غير منقطع ... والشرّ لسنا نراه غير منفرج
لك المحامد يا محمود أجمعها ... هديتنا دين حقّ غير ذي عوج
بأحمد المجتبى صلّى الإلٰه على ... بدر الدّجا مع نجوم بعده سرج

(الحكاية الثامنة والتسعون بعد المئتين): رُوِيَ أنه كان على عهد رسول الله ﷺ رجلٌ يتّجر من بلاد الشام إلى المدينة، ومن المدينة إلى بلاد الشام، ولا يصحب القوافل توكّلاً على الله عزّ وجلّ، فبينما هو قد جاء من الشام إلى المدينة إذ عرض له لصّ على فرس، فصاح بالتاجر فوقف له التاجر وقال: شأنك بمالي وخلّ سبيلي، فقال له اللصّ: المال مالي وإنما أُريد نفسك قال له التاجر: ما تريد بنفسي، شأنك المال وخلّ سبيلي، فردّ عليه اللص مثل المقالة الأولى، فقال له التاجر: أنظرني حتى أتوضأ وأُصلّي وأدعو ربي عزّ وجلّ، قال: افعل ما بَدَا لك، قال: فقام التاجر وتوضأ وصلّى أربع ركعات، ثم رفع يديه إلى السماء، فكان من دعائه أن قال: يا ودود يا ودود يا ودود، ويا ذا العرش المجيد، يا مبدىء يا مُعيد، يا فعّالاً لما يريد، أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، وأسألك بقدرتك التي قدرت بها على جميع خلقك، وبرحمتك التي وَسِعَت كل شيء، لا إلٰه إلا أنت، يا مُغيث أغثني ثلاث مرّات، فلما فرغ من دعائه، إذا بفارس على فرس أشهب، وعليه ثياب خُضْر، وبيده حِربة من نور؛ فلما نظر اللصّ إلى الفارس ترك التاجر ومرّ نحو الفارس؛ فلما دنا منه شدّ الفارس على اللصّ، فطعنه طعنة أرداه عن

Marfat.com

فرسه، ثم جاء إلى التاجر فقال له: قم فاقتله، فقال له التاجر: مَن أنت؟ فما قتلت أحدًا قطّ ولا تطيب نفسي بقتله، قال: فرجع الفارس إلى اللصّ فقتله، ثم رجع إلى التاجر، وقال: اعلم أني مَلَك من ملائكة السماء الثالثة حين دعوت المرّة الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقعة، فقلنا أمر حدث، ثم دعوت الثانية، ففتحت أبواب السماء ولها شرر عظيم كشرر النار، ثم دعوت الثالثة فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الملائكة الكرام وهو ينادي: مَن لهذا المكروب، فدعوت ربي أن يولّيني قتله؛ واعلم يا عبد الله أن كل مَن دعا بدعائك هذا في كلّ كربة وكلّ شدّة وكلّ نازلة، فرّج الله تعالى عنه وأغاثه، قال: فجاء التاجر غانمًا سالمًا حتى دخل المدينة وجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بالقصة، وأخبره بالدعاء، فقال النبي ﷺ: لقد لقّنك الله أسماءه الحُسنى التي إذا دُعِيَ بها أجاب، وإذا سُئِلَ بها أعطى»[1]. قلت: هذا الحديث ذكره جماعة من الأئمة العلماء في تصانيفهم رضي الله تعالى عنهم.

(الحكاية التاسعة والتسعون بعد المئتين): رُوِيَ أنه كان في الكوفة رجل مكاري تثق به التجار ويأمنونه على أموالهم، فسافر وحده في وقت؛ فلما خرج من العمران لقيه في الطريق رجل، فقال له: أين تريد؟ فقال المكاري: أُريد بلد كذا وكذا، فقال له الرجل: لولا قلة قدرتي على الشيء لكنت رفيقك إليها، لكن إن شئت أعطيتك دينارًا على أن تحملني إليها على دابّتك، فقال له المكاري: أفعل، فأخرج له دينارًا، فأخذه وحمله على دابّته؛ فلما صار في بعض الطريق عرض لهما طريقان، فقال الراكب لصاحب الدّابّة: أيّ الطريق نأخذ؟ قال: الزم الجادة، فقال له الراكب: أليس هذا الطريق أقصد وأخصب لدابّتك، قال صاحب الدّابّة ما سلكتها قط، قال له الرجل: أنا سلكتها مرارًا كثيرة، قال: فسِر حيث شئت، فسار ساعة من النهار حتى دقّت تلك الطريق ورمتهم إلى وادٍ موحش فيه جِيَف القتلى كثيرة، فقال صاحب الدّابّة: أرى هذا الطريق قد انقطع، فنزل الرجل عن الدّابّة وأخرج سكّينًا وقصد المكاري ليقتله فقال له: لا تفعل ودونك والبغل وما عليه، قال: لا والله لا آخذ البغل حتى أقتلك، فقال له: سألتك بالله العظيم إلا ما تركتني وأخذت البغل بما عليه، فقال: لا بدّ من قتلك إلا أن يسبقني مَلَك الموت، قال: فدعني أختم عملي بركعتين ولا تعجل، فضحك من كلامه وقال: قم فافعل، فإنه فعل مثل ذلك كل مَن ترى من الجيف في هذا الوادي، فما نفعتهم صلاتهم ولا خلّصتهم مني، فعجل صلاتك، فقام يصلي، فكبّر ثم قرأ فاتحة الكتاب ثم تلجلج ولم يَدرِ ما يقول فنهره وقال عجّل لا أُمّ لك، فألهمه الله عزّ وجلّ أن يقول: ﴿أم مَن يجيب المضطرّ إذا دعاه

---

(١) أخرجه أبو داود (وتر ٢٣، ٢٧)، والترمذي (دعوات ٦٣، ٩٩)، والنسائي (سهو ٥٨)، والدارمي (فضائل القرآن ١٥)، وأحمد بن حنبل ٣/ ١٢٠، ١٥٨، ٢٤٥، ٢٢٥؛ ٥/ ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦٠.

Marfat.com

ويكشف السوء﴾ [النمل: ٦٢] فرفع صوته وهو يبكي، فإذا بفارس قد خرج من بطن الوادي وبيده رمح وفي رأسه سنان، كأنه كوكب مضيء، فجاء وقصد الرجل أسرع من اللحظة، فطعنه طعنة من ورائه خرّ بها على وجهه، ثم التهبت في مكانه الذي وقع فيه النار؛ فلما رأى ذلك صاحب الدّابّة، خرّ ساجدًا لله تعالى ما شاء الله، ثم رفع رأسه ومضى إلى الفارس وقال له: سألتك بالله الذي رحمني بك في هذا المكان مَن أنت؟ فقال الفارس: أنا عبد ﴿أم مَن يجيب المضطرّ إذا دعاه﴾ [النمل: ٦٢] اذهب حيث شئت فلا بأس عليك. وأنشد بعضهم:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا ... وقمت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت يا أملي في كلّ نائبة ... ومَن عليه لكشف الضرّ أعتمد
أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها ... ما لي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالذلّ مبتهلاً ... إليك يا خير مَن مُدَّت إليه يد
فلا تردّنها يا ربّ خائبة ... فبحر جودك يروي كلّ مَن يرد
ثم الصلاة على المختار من مضر ... محمد المصطفى ما مثله أحد

(الحكاية الثلاث مئة): رُوِيَ أنه كان شاب من بني إسرائيل لم يُرَ في زمانه أحسن منه، وكان يبيع القِفاف، فبينما هو ذات يوم يطوف بقِفافه، إذ خرجت امرأة من دار ملك من ملوك بني إسرائيل؛ فلما رأته رجعت مبادرة، فقالت لابنة الملك: إني رأيت شابًا بالباب يبيع القِفاف لم أرَ شابًا قطّ أحسن منه، فقالت لها: أدخليه، فخرجت إليه وقالت: يا فتى ادخل نشترِ منك، فدخل فأغلقت الباب دونه، ثم دخل بابًا آخر فكذلك حتى أغلقت ثلاثة أبواب ثم استقبلته بنت الملك كاشفة عن وجهها ونحرها، فقال: اشتروا حاجتكم فقالت: إنّا لم ندْعُكَ لهذا إنما دعوناك لكذا وكذا، يعني تراوده عن نفسه، فقال لها: اتقي الله، قالت: إن لم تطاوعني على ما أريد أُخبرت الملك أنك إنما دخلت عليّ تراودني عن نفسي، فوعظها فأبت، فقال: ضعوا لي وضوءًا، فقالت: أعليّ تتعلّل؟ يا جارية، ضعي له وضوءًا فوق الجوسق[1] مكان لا يستطيع أن يفرّ منه، قال: وكان من فوق الجوسق إلى الأرض أربعون ذراعًا؛ فلما صار في أعلى الجوسق قال: اللّهمّ إني دُعيتُ إلى معصيتك وإني أختار أن أرمي بنفسي من أعلى الجوسق ولا أرتكب المعصية، ثم قال: بسم الله، وألقى نفسه من أعلى الجوسق، فأهبط الله تعالى إليه مَلَكًا من الملائكة، فأخذ بضبعيه، فوقع قائمًا على رجليه؛ فلما صار في الأرض قال: اللّهمّ إن

---

(١) الجوسق: الحصن أو القصر أو البيت الصغير أو المكان الصغير يُصنع من الخشب ونحوه، ويُتّخذ في حمامات الشواطىء كما يُتّخذ مأوى للجندي وكذلك يتّخذ محلاً في مختلف الطرق لبيع الصحف والسلع الصغيرة.

شئت رزقتني رزقًا تُغنيني به عن بيع هذه القِفاف، فأرسل الله تعالى إليه جرابًا من ذهب، فأخذ منه حتى ملأ ثوبه، فلما صار في ثوبه قال: اللّهمّ إن كان هذا رزقًا رزقتنيه في الدنيا فبارك لي فيه، وإن كان يُنقِصني مما لي عندك في الآخرة فلا حاجة لي فيه، قال فنودي إن هذا الذي أعطيناك جزء من خمسة وعشرين جزءًا من أجر صبرك على إلقائك نفسك من هذا الجوسق، قال: اللّهمّ لا حاجة لي بما يُنقِصُني مما لي عندك في الآخرة، فرفع ذلك عنه، وقيل للشيطان لعنه الله تعالى: هلاّ أغويته؟ يعني بارتكاب الفاحشة، فقال: كيف أقدر أن أغوي مَن بذل نفسه لله عزّ وجلّ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين. ولله درّ القائل:

وسائل عنهم ماذا تقدمهم؟ فقلت: فضل به عن غيرهم بانوا
صانوا النفوس عن الفحشاء وابتذلوا منهنّ في طرف العلياء ما صانوا

(الحكاية الأولى بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أن بعض الأخيار الأُمناء استودعه بعض الملوك جوهرة نفيسة، فوضعها ذلك الأمين في موضع في بيته، فظفر بها ابن له صغير، فضربها بحجر، فانكسرت أربع فلق، فدخل على ذلك الرجل من الغمّ والخوف من الملك ما لا يطيق، فعزم على الهرب، فلقيه شخص فقال له: أراك محزونًا، فذكر له قصته وما أصابه من الضيق والخوف، فعلّمه هذه الأبيات الأربعة:

وكم لله من لطف خفيّ يدقّ خفاه عن فهم الذكيّ
وكم يُسرٍ أتى من بعد عُسْرٍ وفرّج كربة القلب الشجيّ
وكم أمر تُساء به صباحًا وتأتيك المسرّة بالعشيّ
إذا ضاقت بك الأحوال يومًا فثق بالواحد الفرد العليّ

وقال له قلها وكرّرها، فالفرج يأتيك من الله تبارك وتعالى، ففعل ما أمر به، فبينما هو كذلك إذا برسول الملك قد جاء وقال له: إن سَريَّة الملك حدث فيها وجع، وقال الحكماء: تكسر جوهرة أربع فلق، وتطرح في ماء وتشربه، والملك يقول لك انظر لنا صانعًا عارفًا يكسر لنا الجوهرة التي عندك أربع فلق لا تزيد ولا تنقص، وأكد عليه في ذلك، فقال: السمع والطاعة، وانفرج عنه الكرب والغمّ، وذهب عنه الخوف والهمّ، وحمد الله وشكره على ما أولاه في ذلك من النِّعَم باللطف الخفيّ والكرم، ثم حمل تلك الفلق الأربع إلى الملك، فرأى الملك له صنيعًا في ذلك وإحسانًا، فأنعم عليه وأحسن إليه، فعاد بالجائزة مسرورًا آمنًا مما كان محذورًا فسبحان اللطيف الكريم الرحمٰن الرحيم الذي يكشف الأحزان والشّرور، ويخلفها بالإحسان والسرور، سبحانه ما أقرب فرجه من المضطرّين، ورحمته من المُحسنين، تبارك الله ربّ العالمين.

(الحكاية الثانية بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أن بعض الملوك غضب على بعض الفقراء، فبنى له قبّة وجعله فيها وسدّ بابها، ولم يترك لها منفذًا، ومنعه من الطعام

Marfat.com

والشراب؛ فلما كان بعد ثلاثة أيام، وجد ذلك الفقير خارجًا في عافية طيبًا مسرورًا، فأخبر الملك بذلك، فقال: هاتوه، فلما حضر بين يديه، قال له الملك: بالذي نجّاك من هذه الشدّة وفرّج عنك هذه الكربة، وأنقذك مما كنت فيه، قل لي: ما سبب خلاصك؟ فقال له الفقير: دعاء دعوت به، قال: وما هو؟ قال: قلت: اللَّهمَّ إني أسألك يا لطيف يا لطيف يا لطيف، يا مَن وَسِعَ لطفه أهل السمٰوات والأرضين، أسألك اللَّهمَّ أن تلطف بي من خفيّ خفيّ خفيّ لطفك الخفيّ الخفيّ الخفيّ، الذي إذا لطفت به لأحد من عبادك كفى، فإنك قلت وقولك الحقّ المُبين: ﴿الله لطيف بعباده يرزق مَن يشاء وهو القويّ العزيز﴾ [الشورى: ١٩] رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الثالثة بعد الثلاث مئة: عن سريّ السقطي رضي الله تعالى عنه) قال: كان يسكن في جواري رجل من أهل القرآن صالح ورع، وكان فقيرًا ذا علّة، فاشتدّت به الفاقه والضيعة في بعض أيامه، فوقع في نفسه أن يكتب حاله في ورقة ويرفعها إلى الله عزّ وجلّ، فكتبها؛ فلما أدركه الليل انتصب في محرابه يصلّي ويدعو ويشير بالورقة إلى السماء، فلم يزل كذلك أكثر ليله، فمسّه السهر وأعياه القيام، فجلس يصلي قاعدًا إلى أن بقي من الليل قليل، فغلب عليه النوم، فرأى في منامه رجلاً حَسَن الوجه يقول له: يا أبا البشر ما هذه الغفلة التي لحقتك، ترفع إلى ربك عزّ وجلّ سوادًا في بياض، قال: فكيف أصنع؟ قال: إذا أردت ذلك، فاستمدّ بيد الشكر من بحر الذكر بقلم الصبر، واكتب على قلبك ببياض الفكر على أرهب الطلب، قال: قلت: فماذا أكتب؟ قال: قل: يا مَن أفضاله أفضل من أفضال المُفضلين، وإنعامه أنعم من إنعام المُنعِمين؛ يا مَن عجز عن شكره شكر الشاكرين، قد جرّبت غيرك من المأمولين بغيري من السائلين، فإذا كلّ قاصد إلى غيرك مردود، وكلّ طريق إلى سواك مسدود، وكلّ خير عندك موجود، وعند سواك معدوم ومفقود، قال: قلت: يا سيدي ما أحسن هذا، قال: فإن بقي في بياض بصيرتك وصَرْح عزيمتك من بقية، فاكتب: يا مَن إليه توسّلت، وعليه في السّرّاء والضّرّاء عوّلت، حاجاتي مصروفة إليك، وآمانيّ موقوفة لديك، كلّ ما وفّقتني له من خير أعمله وأطيقه، فأنت دليلي عليه وطريقه، قال: فقلت: يا سيدي وهذا حسن، قال: فإن بقي في بياض بصيرتك وصَرْح عزيمتك بقية فاكتب: يا قديرًا لا تؤوده المطالب، ويا ملكًا يرغب إليه كلّ راغب، ما زلت مصحوبًا منك بالنِّعَم، جاريًا على عادات الإحسان والكرم، يا مَن بكرمه يبلغ الكرم، ومن حمده يزيد النِّعم، قال: فقلت: يا سيدي وهذا أحسن؛ قال: فإن بقي في بياض بصيرتك، وصَرْح عزيمتك بقية فاكتب: يا مَن جعل الصبر عونًا على بلائه، وجعل الشكر مادًّا لنعمائه، أسألك صبرًا جميلاً على المِحَن، وتوفيقًا للشكر على المِنَن، فقد عظمت محنتك عن صبري، وجَلّت نعمتك عن شكري، فتفضل على إقراري بعفو أنت أوسع له وأقدر عليه، فإن لم يكن لذنبي عذر تقبله، فاجعله ذنبًا يُغفَر، ثم

Marfat.com

قال: يا أبا البشر قم في مقام التبتّل، وقف موقف التنصّل، متعرّضًا للتفضّل بخشوع التذلّل، وللقبول بلسان التوسّل إلى العزيز المتفضّل، قال: وقلت: يا سيدي ما أحسن هذا؟ قال: هو من دعاء خاصّة الملك أفهمت؟ قلت: نعم إن شاء الله، ثم مسح بيده على بطني وصدري فانتبهت وأنا ذاكر لما خاطبني به، وما ذهب عني منه حرف. قال السريّ: حدّثنا أبو البشر عند صلاة الفجر بهذا الحديث، فاستحسنّاه وكتبناه، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الرابعة بعد الثلاث مئة: عن بعض أهل العراق) قال: كنت أقرأ عند أبي بكر بن مجاهد المقريّ رضي الله تعالى عنه، فدخل عليه شيخ عليه ثياب رثّة، فسأله أبو بكر عن حال أولاده، فقال: يا أبا بكر جاءتني البارحة ابنة ثالثة، وطلب مني أهلي دانقًا يشترون به سمنًا وعسلاً يحنّكونها به، فلم أقدر عليه، فبتّ مهمومًا مغمومًا محزونًا، فرأيت النبي ﷺ في المنام، فقال: يا فلان لا تغتمّ ولا تحزن، إذا كان غدًا ادخل على عليّ بن عيسى وزير الخليفة، فأقرئه مني السلام وقل له بعلامة أنك صلّيت عليّ عند قبري أربعة آلاف مرّة يدفع إليك مئة دينار عينًا». قال الراوي: فقال لي أبو بكر: يا عبد الله في هذا فائدة وقطع على القرّاء، وأخذ بيد الشيخ ودخل به على الوزير فرأى الوزير مع ابن مجاهد شيخًا لم يعرفه، فقال له: من أين هذا يا أبا بكر؟ فقال: يدنيه الوزير ويسمع كلامه، قال: فأدناه وقال: ما خطبك أيها الشيخ؟ فقال: إن أبا بكر يعلم أن لي ابنتين وجاءتني ابنة ثالثة البارحة، فطلب مني أهلي دانقًا يشترون به سمنًا وعسلاً يحنّكونها به، فلم أقدر عليه، فبتّ مهمومًا، فرأيت النبي ﷺ في المنام وهو يقول لي كذا وكذا، وذكر ما تقدّم، قال: فاغرورقت عينا عليّ بن عيسى بالدموع وقال: صدق الله ورسوله وصدقت، أنت رجل صالح، هذا شيء ما كان يعلم به إلا الله ورسوله، يا غلام هات الكيس فأحضره بين يديه، فأخرج منه ثلاث مئة دينار، وقال: هذه المئة التي قال لك رسول الله ﷺ، وهذه مئة أخرى بشارة، وهذه مئة أخرى هدية لك، فخرج الرجل ومعه ثلاث مئة دينار، وقد زال عنه همّه وغمّه وحزنه. قلت: وكما حصل لهذا الرجل من الخير برحمة الله تعالى وبركة رسول الله ﷺ حصل ذلك الخير لوزير الخليفة عليّ بن عيسى المذكور، إذ ترك الوزارة، وعلوّ الرياسة، وظلم السلطنة، وعظمة الجبابرة، وذهب إلى مكة وجاور بها، فما ذكره رسول الله ﷺ وخصّه بذلك إلا لمّا علم الله ورسوله ما يؤول إليه أمره من الخير. وذلك أنه رُوِيَ أن عليّ بن عيسى ركب في موكب عظيم، فجعل الغرباء يقولون: مَن هذا؟ مَن هذا؟ فقالت امرأة قائمة على الطريق: إلى كم تقولون من هذا مَن هذا؟ هذا عبد سقط من عين الله فابتلاه الله بما ترون، فسمع عليّ بن عيسى ذلك، فرجع إلى منزله، فاستعفى من الوزارة وذهب إلى مكة وجاور بها رحمه الله.

Marfat.com

(الحكاية الخامسة بعد الثلاث مئة: عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت النبي ﷺ في ليلة القدر، وكانت ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان ليلة جمعة، فقال لي: يا عليّ طهّر ثيابك من الدّنس تَحْظَ بمدد الله في كلّ نفس، قال: فقلت: يا رسول الله، وما ثيابي؟ قال: اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع: خلعة المحبة، وخلعة المعرفة، وخلعة التوحيد، وخلعة الإيمان، وخلعة الإسلام؛ فمَن أحبّ الله هانَ عليه كلّ شيء، ومَن عرف الله صغر في عينيه كلّ شيء، ومَن وحّد الله لم يُشرِك به شيئًا، ومن آمن بالله أمِنَ من كلّ شيء، ومَن أسلم لله لم يعصه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قَبِلَ عذره، قال: ففهمت عند ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿وثيابك فطهّر﴾ [المدّثر: ٤] انتهى كلامه. قلت: إنما قال رسول الله ﷺ: «ومَن أحبّ الله هان عليه كلّ شيء» لأن المحبّ يذلّ نفسه لمحبوبه، فكلّ ما أصابه من تعب وشدّة هان عليه في رضا محبوبه، ولأنه لا يرى في الوجود إلا فعل المحبوب، ذي الفضل والكرم والجود وكلّ ما يفعل المحبوب محبوب، وإنما قال ﷺ: «مَن عرف الله صغر في عينيه كلّ شيء» لأن العارف بالله شهد من جلال الله وعظمته وكبريائه وقدرته ما صغر سواه من جميع بريّته، ومع هذا يعظم ويكرم ويشرف ويحترم مَن اصطفاه الله وعظّمه وشرّفه وكرّمه من الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام وسائر المصطفين من الأنام تعظيمًا لائقًا بمخلوق مخصوص بالاصطفاء والمحبة ليس بينه وبين تعظيم الخالق نسبة، وإنما قال ﷺ: «ومَن وحّد الله لم يشرك به شيئًا»[1] لأن التوحيد ينافيه الشرك، والمراد بهذا الشرك الشرك الخفيّ الذي يعرفه العارفون بالله تعالى ويحترزون منه، لئلا يقدح في توحيدهم الحقيقي الخاصّ. وأما الشرك الجليّ فيعرفه أهل التوحيد الخاصّ والعامّ، ويقدح في التوحيدين معًا. ومما يقدح في التوحيد الخاصّ دون العامّ محبة غير الله تعالى لغير الله كمحبوبات النفس وشهواتها المُباحات إذا لم يقصد بها الاستعانة على طاعة الله تعالى. وأما محبة غير الله تعالى لله عزّ وجلّ، فلا تقدح في التوحيدين معًا، وللنفس أغراض وحظوظ دقيقة خفيّة في بعض الأعمال لا يفطن لها ولا يحترز منها إلا الرجال أهل المقامات والأحوال، هي عندهم من الشرك الخفيّ. من ذلك ما قال بعضهم: مَن عبد الله طمعًا في جنته أو خوفًا من ناره، فقد أشرك به، ولكن يعبده لكونه أهلاً لأن يُعبَد ولو لم يخلق جنة ولا نارًا، تبارك وتعالى؛ وكذلك حبّ المنزلة عند الخلق، وخوف الخلق، واعتقاد نفعهم وضرّهم، والرجوع في الشدائد إليهم، وغير ذلك مما يطول فيه الكلام؛ وقد تكون حظوظ النفس المذكورة مع كونها مُباحة مندوبًا إليها في ظاهر الشرع إذا استعملها العارفون بغير نيّة صالحة، نزلوا عن مقامهم العالي

---

(١) أخرجه مسلم (إيمان ٣٨)، وأحمد بن حنبل ٣/ ٤٧٢؛ ٦/ ٣٩٤، ٣٩٥.

Marfat.com

بسببها؛ كما روينا عن الشيخ أبي الغيث رضي الله تعالى عنه أنه رآه بعد الفقراء في المنام فوق جبل عالٍ ثم رآه بعد ذلك أسفل الجبل، فسأله عن ذلك، فقال له الشيخ: اصبر حتى ترى رؤيا ثالثة، وتعالَ أعبر لك الجميع، فمكث سنة ثم رأى الشيخ برأس الجبل في مكانه الأوّل، فأخبر الشيخ بذلك، فقال الشيخ: نعم كان لي منزلة عند الله تعالى ومقام، فدنوت ذات ليلة إلى أم الفقراء، يعني زوجته، فقبّلتها قُبلة بشهوة نفس لم يكن لله تعالى فيها نيّة مني، فنزلت عن ذلك المقام كما رأيت، ثم لم أزل أكدّ وأجتهد سنة حتى رجعت إلى مقامي كما رأيت رضي الله عنه وعن سائر الأولياء، ونفعنا بهم، وإنما قال ﷺ: «ومَن آمن بالله أمِنَ من كل شيء» يعني مَن آمن بالله الإيمان الكامل، لأن مَن حصل له الإيمان الكامل حصل له التوكّل الكامل، واستولى على قلبه خوف الله تعالى وهيبته وجلاله وعظمته وكبرياؤه وقدرته وقهره وسطوته، فلم يرَ في الوجود مُعطيًا ولا مانعًا ولا ضارًا ولا نافعًا ولا خافضًا ولا رافعًا ولا مفرّقًا ولا جامعًا إلا الله الواحد الربّ الماجد، ذا الأسماء الحسنى والصفات العُلى سبحانه وتعالى، فلم يخف سواه ولم يرجُ إلا إياه، إذ كلّ الوجود في قبضته، لا يتحرّك متحرّك إلا بإرادته، وكلّ خير وشرّ ونفع وضرر بقضاء وقدر؛ فالحركات والسكنات والإرادات والخطرات من جميع المخلوقات في جميع الأمكنة والأوقات بقضاء ربّ الأرض والسمٰوات، علم ذلك علماء الظاهر بقواطع الأدلة المعقولات والمنقولات، وعَلِمه علماء الباطن بقواطع الأدلة اليقينية الحاصلة بالمكاشفات والمشاهدات، فلما شاهدوا الكل منه لم يخافوا سواه، ولم يرجوا إلا إياه، وإنما قال ﷺ: «مَن أسلم لله لم يعصه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره» لأن مَن أسلم إسلامًا صحيحًا حقيقيًا فقد استسلم لله وسلّم نفسه له وانقاد لطاعته فلا يعصيه، لأن العصيان ينافي الانقياد للطاعة والإذعان، فإن أزله الشيطان في معصية سبق بها القدر تاب إلى المولى واستغفر وأناب وإذا اعتذر مع توبة صادقة قبل المولى الكريم بفضله عذره، وتاب عليه برحمته وكرمه، وجاد عليه بالمغفرة. اللّهمّ يا ذا الجود والفضل العظيم، يا معروفًا بالمعروف والإحسان القديم، صلّ وسلّم أفضل الصلاة والتسليم على رسولك سيّدنا محمد النبيّ الكريم واجعلنا متّصفين بالأفعال كما جعلتنا واصفين بالأقوال، ووفّقنا لمحاسن الأدب وصالح الأعمال، وجُد علينا بالمغفرة الشاملة والتوبة الكاملة، والعطية السَّنِيّة الفاضلة، فإنك أنت التوّاب الرحيم ذو الجلال والإكرام، والفضل الواسع العميم برحمتك يا أرحم الراحمين.

(الحكاية السادسة بعد الثلاث مئة: عن أبي الحسن الشاذلي أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: وقع لي تردّد في بدايتي بين الانقطاع إلى الله تعالى في البراري والقِفار، وبين الرجوع إلى العمران وصحبة العلماء والأخيار، فوصف لي وليّ من أولياء الله تعالى في

Marfat.com

رأس جبل، فقصدته فوصلت إليه بعد ما أمسيت، فقلت ما أدخل عليه في هذه الليلة إلى الصبح، فبتّ على باب المغارة، فسمعته يقول من داخل المغارة: اللّهمّ إن أُناسًا من عبادك سألوك أن تسخّر لهم خلقك، فسخّرته لهم، فرضوا منك بذلك، وأنا أسألك أن تعوج عليّ خلقك حتى لا يكون لي ملجأ إلا إليك يا ربّ العالمين، فقلت: يا نفس اسمعي من أيّ بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبحت دخلت عليه فسلّمت عليه وملئت منه رعبًا وقلت له: يا سيدي كيف حالك؟ فقال: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار، فقلت له يا سيدي: أما حرّ التدبير والاختيار فأنا أعرفه وأنا فيه الآن، فما برد الرضا والتسليم ولِمَ تشكو ذلك؟ فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتهما عنه، فقلت له: يا سيدي سمعتك تقول: اللّهمّ إنّ أُناسًا من عبادك سألوك وذكرت ما تقدم، فتبسّم وقال: يا بنيّ عوض ما تقول سخّر لي، قل: كن لي أترى مَن كان له يحتاج إلى شيء آخر فما هذه الجناية؟ رضي الله تعالى عنه. قال المؤلف كان الله له: وقد سمعت بعض المشايخ الأجلّة المِلاح الجامعين بين العلم والصلاح إذا سأل منه إنسان الدعاء يقول له: كان الله لك، وهذه الكلمة لعمري وإن صغر لفظها فقد كبر قدرها، إذ هي مع وجازتها جامعة لكل المطلوبات، فإن مَن كان له الله أعطاه المحبوبات وكفاه المرهوبات، ولكن مَن كان لله كان الله له، كما أنّ مَن آثر الله آثره الله، ومَن رضي عن الله رضي الله تعالى عنه، وكذلك سائر الصفات المحمودات التي لا يقدر على الاتّصاف بها إلا مَن اصطفاه الله لحضرة قدسه، وصفاه من كدورات نفسه، ونحن نستغفر الله من أقوال بلا أفعال، ونسأله التوفيق وصلاح الحال، وحُسْن الخاتمة في المآل إنه المنّان الجواد المِفضال.

(الحكاية السابعة بعد الثلاث مئة: عن بعضهم) قال: كنت أنا والشيخ نصر الخرائطي ليلة في موضع، فتذاكرنا شيئًا من العلم، فقال الخرائطي: الذاكر لله سبحانه فائدته في أوّل ذكره أن يعلم أن الله تعالى ذكره، فبذكر الله له ذكر الله، قال: فخالفته في ذلك، فقال: لو كان الخضر عليه الصلاة والسلام هنا لشهد بصحة هذا، فلما تلفّظ بهذا اللفظ إذا نحن بشخص يجيء بين السماء والأرض حتى وصل إلينا، فسلّم وقال: صدق الذاكر لله تعالى بفضل ذكر الله سبحانه له ذكره، قال: فعلمنا أنه الخضر عليه السلام. قلت: وذكر السلام على الخضر مما اختلف فيه، وكذلك سائر الذين اختلف في نبوّتهم؛ فبعض العلماء قال: يجوز السلام عليهم، وبعضهم قال: لا يجوز ذلك، بل هو مخصوص بالأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام. وأما غيرهم فيقتصر فيهم على الترضّي والقائل الأول كأنه يقول المختلف في نبوّتهم وإن نزلوا عن درجة الأنبياء، فقد ارتفعوا عن درجة غيرهم، فلهم منزلة بين منزلتين، فكذلك لهم دعاء بين دعاءين، أعني يدعي للأنبياء والملائكة بالصلاة، والصحابة وسائر الأولياء والعلماء بالترضّي، ولهؤلاء

Marfat.com

المذكورين بما بينهما وهو السلام، وهذا القول لا بأس به إن شاء الله، بل هو حسن، وإن كان قول الأكثرين على خلافه، والخلاف في مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه في هذا معروف عند مَن يعرف المذهب، والله أعلم.

(الحكاية الثامنة بعد الثلاث مئة: عن الشيخ أحمد بن عطاء الله رضي الله تعالى عنه) قال: كلّمني جمل في مسيري إلى مكة، وذلك أني رأيت الجِمال المُحَمَّلة عليها المحامل والأثقال، وقد مدّت أعناقها في الليل، فقلت: سبحان مَن يحمل عنها ما هي فيه، فالتفت إليّ جمل منها وقال: قل جلّ الله، فقلت: جلّ الله. وقال الشبلي رضي الله تعالى عنه: اعتقدت وقتًا أني لا آكل إلا من الحلال، فكنت أدور في البراري، فرأيت شجرة تين، فمددت يدي إليها لآكل، فنادتني الشجرة احفظ عليك عقدك لا تأكل مني فإني ليهودي.

(الحكاية التاسعة بعد الثلاث مئة: عن بعض السلف رضي الله تعالى عنه) قال: غاب ابني محمد، فوجدنا عليه وَجْدًا شديدًا، فأتيت معروفًا الكرخي رضي الله تعالى عنه، فقلت له: يا أبا محفوظ إنه قد غاب عني ابني وأُمه واجدة عليه، فقال: ما تشاء؟ فقلت: ادعُ الله أن يردّه، فقال: اللّهمّ إن السماء سماؤك والأرض أرضك وما بينهما لك، ائت بمحمد، قال أبوه: فأتيت باب الشام، فإذا هو واقف، فقلت: يا محمد، فقال: يا أبت كنت الساعة بالأنبار[1]. قلت: كان معروف رضي الله تعالى عنه معروفًا بإجابة الدعوة، وقد ذكر أن الدعاء مُستجاب عند قبره، وأهل بغداد يسمّونه الترياق المجرّب، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية العاشرة بعد المئة): رُوِيَ أن امرأة جاءت إلى بعض المشايخ وقالت: إن ابني قد أسره أهل الروم، ولا أقدر على مال أكثر من دويرة[2]، ولا أقدر على بيعها، فلو أشرت إلى مَن يفديه بشيء فإنه ليس لي ليل ولا نهار ولا نوم ولا قرار، فقال: نعم انصرفي حتى أنظر في أمره إن شاء الله، وأطرق الشيخ ساعة إلى الأرض وحرّك شفتيه، ثم جاءت المرأة بعد مدة ومعها ابنها، وأخذت تدعو للشيخ وتقول قد رجع سالمًا، وله حديث عجيب يحدّثك به، فقال الشاب: كنت بين يدي ملك الروم مع جماعة من الأسرى، وكان له إنسان مستخدمنا كل يوم يُخرِجنا إلى الصحراء للخدمة، ثم يردّنا وعلينا قيود، فبينما نحن راجعون من العمل بعد المغرب مع صاحبه

---

(١) الأنبار: مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جوزجان وهي على الجبل، وقيل: مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ. (معجم البلدان ١/ ٢٥٧).

(٢) الدويرة: الدار الصغيرة.

الذي كان يحفظنا انفتح القيد من رجلي ووقع على الأرض ووصف اليوم والساعة، فوافق الوقت الذي جاءت فيه المرأة إلى الشيخ ودعا فيه لها، قال: فنهض إليّ الذي كان يحفظني وصاح عليّ وكسرت القيد، فقلت: لا بل سقط من رِجلي، فتحيَّر وأخبر صاحبه وأحضر الحداد وقيّدوني؛ فلما مشيت خطوات سقط القيد من رِجلي ثانيًا فتحيّروا في أمري فدعوا رهبانهم، فقالوا لي: ألك والدة؟ قلت: نعم، فقالوا: وافق دعاءها بالإجابة، وقالوا: أطلقك الله فلا يمكننا تقييدك، فزوّدوني وأصحبوني إلى ناحية المسلمين.

(الحكاية الحادية عشرة بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أنه كان في طبرستان(١) أمير ظالم يفتضّ الأبكار سفاحًا، فلما كان في بعض الأيام جاءت عجوز باكية إلى الشيخ أبي سعيد القصّاب، فقالت له: يا شيخ أغثني فلي بنت عاتق جميلة، وقد أرسل إليّ هذا الظالم لأصلح حالها ليأتي إلى منزلي ويفتضّها، وقد جئتك عسى أن تدعو دعوة تكفّ شرّه عنّا، فأطرق الشيخ ثم رفع رأسه وقال: يا عجوز إن الأحياء لم يبق فيهم مَن يُستَجاب له دعوة، فاذهبي إلى مقابر المسلمين، فإنك ستجدين هناك مَن يقضي حاجتك، فذهبت إلى مقابر المسلمين، فلقيها شاب حسن الصورة جميل الثياب طيب الرائحة، فسلّمت عليه، فردّ عليها السلام وقال لها: ما حالك؟ فأخبرته بما جرى، فقال: ارجعي إلى الشيخ أبي سعيد، فقولي له يدعو لك فإنه يُستَجاب له، فقالت: الأحياء يدلّوني على الموتى، والموتى يدلوني على الأحياء وليس أحد يغيثني فإلى مَن أذهب؟ فقال: انصرفي إليه وقد قضيت حاجتك بدعائه، فرجعت إليه فأخبرته بالحال، فأطرق مفكّرًا حتى عرق، فصاح صيحة وسقط على وجهه، وإذا الصوت قد وقع في المدينة أن الأمير قد ركب يتوجّه إلى دار العجوز لافتضاض ابنتها، فكبّت به فرسه فعثر واندقّت عنقه، وفرّج الله عنها وعن الناس بدعوة الشيخ؛ فلما أفاق الشيخ أبو سعيد قيل له: لماذا أحلتها على المقابر ولم تقضِ حاجتها في أول مرة؟ فقال: كرهت أن يُسفَكَ دمه بدعوتي، فأحلتها على أخي الخضر عليه الصلاة والسلام، فردّها إليّ يعرّفني جواز الدعاء عليه. وأنشدوا:

أمـا والله إن الـظـلـم شـؤم ... ومـا زال الـمُـسيء هـو الـظـلـوم
إلـى ديّـان يـوم الـديـن نـمـضـي ... وعـنـد الله تـجـتـمـع الـخـصـوم

---

(١) طبرستان: وهي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، ومن أعيان بلدانها دهستان وجرجان وأستراباذ وآمل، وهي قصبتها وسارية وهي مثلها، وشالوس وهي مقاربة لها وربما عُدّت جرجان من خراسان إلى غير ذلك من البلدان، وطبرستان في البلاد المعروفة بمازندران. (معجم البلدان ١٣/٤).

(الحكاية الثانية عشرة بعد الثلاث مئة): قال المؤلف كان الله له: أخبرني بعض الأخيار في بعض البلدان قال: حُبِسَ المطر عنّا وتعب الناس، فخرج إنسان منّا يشتري ماء، فاشتراه غاليًا، فلقي فقيرًا لا يعرفه، فقال للفقير: أما تنظر هذا الحال الذي نحن فيه، فادعُ الله لنا، قال: فقال الفقير: وبأيّ شيء أدعو لكم؟ قال: قلت: بالغيث، قال: فاحمرّ وجهه وسكت ساعة ثم صاح صيحة عظيمة، ثم خلاني وذهب، فما بلغت منزلي ولا أفرغت الماء الذي اشتريته إلا وقد جاء المطر وجرى السيل، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. قلت: وقد تقدّم الكلام في مقدمة الكتاب أنّ كرامات الأولياء من هذه الأمة من آثار معجزات النبي ﷺ ومن تتماتها، وهي لعمري عيون تجري في سائر الأقطار من بحره الزاخر التيار. وفي هذه الوجاهة في استسقاء الغمام الساكب قال فيه ﷺ عمه أبو طالب:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ﷺ وشرف وكرم وعظم.

(الحكاية الثالثة عشرة بعد الثلاث مئة: عن بعضهم) قال: كنا نمشي مع الشيخ أبي سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه على ساحل بحر صيدى[1]، فرأى أبو سعيد شخصًا من بعيد، فقال: اجلسوا لا يخلو هذا من أن يكون وليًا من أولياء الله تعالى، قال: فما لبثنا أن جاء شاب حَسَن الوجه وبيده ركوة ومعه محبرة وعليه مرقعة، فالتفت إليه أبو سعيد مُنكِرًا عليه لحمله المحبرة مع الركوة، فقال له: يا فتى كيف الطريق إلى الله عزّ وجلّ، فقال: يا أبا سعيد أعرف إلى الله طريقين: طريقًا خاصًا، وطريقًا عامًا. فأما الطريق العامّ فالذي أنت عليه وأصحابك. وأما الطريق العامّ فهلمّ ثم مشى على الماء حتى غاب عن أعيننا، فبقي أبو سعيد حيران مما رأى من كرامة الله عزّ وجلّ للشاب رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبجميع الصالحين.

(الحكاية الرابعة عشرة بعد الثلاث مئة: عن بعض المشايخ) قال: مررت يومًا على شاطىء الفرات، فعرضت لنفسي شهوة السمك الطريّ، فإذا الماء قد قذف بسمكة نحوي، وإذا رجل يعدو ويقول: أشويها لك، فقلت: نعم، فشواها فقعدت وأكلتها.
وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: جئت مسجد الشونيزية فرأيت فيه جماعة من الفقراء يتكلمون في الآيات، يعني في الكرامات، فقال فقير منهم: أعرف رجلاً لو قال لهذه الأسطوانة كوني ذهبًا نصفك وفضة نصفك كانت. قال الجنيد: فنظرت فإذا

(١) صيدا: وهي مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ (معجم البلدان ٣/ ٤٣٧).

Marfat.com

الأسطوانة نصفها فضة ونصفها ذهب. وقال بعضهم: كنت عند ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه فتذاكرنا طاعة الأشياء للأولياء، فقال ذو النون: من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور في أربع زوايا البيت، ثم يرجع إلى مكانه فيفعل، قال: فدار السرير في أربع زوايا البيت وعاد إلى مكانه، وهناك شاب قاعد فأخذ يبكي حتى مات في الوقت رضي الله تعالى عنه. وكان الفُضَيل بن عياض رضي الله تعالى عنه على جبل من جبال مِنى، فقال: لو أن وليًا من أولياء الله تعالى أمر هذا الجبل أن يميد لماد فتحرّك الجبل فقال: اسكن، فلم أردك بها إنما ضربت مثلاً فسكن، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الخامسة عشرة بعد الثلاث مئة: عن أبي عمرو الزجاجي رحمه الله تعالى) قال: دخلت على الجنيد رضي الله تعالى عنه وكنت أُريد الحجّ، فأعطاني درهمًا صحيحًا، فشددته على مِئزري، فلم أدخل منزلاً إلا وجدت فيه رفقًا، ولم أحتج إلى الدرهم، فلما حججت ورجعت ودخلت على الجنيد فمدّ يده وقال: هات فناولته الدرهم، فقال: كيف كان الختم، فقلت: كان الختم نافذًا. وقال أبو نصر السرّاج رحمه الله تعالى: دخلنا تستر[1] فرأينا في قصر سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه بيتًا كان الناس يسمّونه بيت السّباع، فسألنا الناس عن ذلك، فقالوا: كانت السّباع تجيء إلى سهل، وكان يدخلها هذا البيت ويضيفها ويطعمها اللحم، قال أبو نصر: ورأيت أهل تستر كلهم متفقين على هذا لا ينكرونه وهم الجمّ الغفير. ورُوِيَ أن أكثر أهل الرحبة ينكرون كرامات الأولياء، فركب الشيخ جابر الرحبي رضي الله تعالى عنه أسدًا يومًا ودخل الرحبة وقال: أين الذين يكذّبون أولياء الله تعالى، قال: فكفّوا بعد ذلك. قلت: ورُوِيَ أنه خرج الشيخ أبو الغيث اليمني رضي الله تعالى عنه في بدايته يومًا يحتطب، فجاء الأسد فافترس حماره، فقال له: تأكل حماري فعلى أيّ شيء أحمل حطبي، وعزّة المعبود ما أحمله إلا على ظهرك، فحمل الحطب على ظهره وساقه إلى باب البلد، ثم حطّ الحطب عنه وقال له: اذهب.

(الحكاية السادسة عشرة بعد الثلاث مئة): قال المؤلف ـ كان الله له ـ: من المشهور أن الفقراء قالوا يومًا للشيخ أبي الليث رضي الله عنه: نشتهي اللحم، فقال: اصبروا إلى اليوم الفلاني وكان يوم سوق تأتيه القوافل؛ فلما جاء ذلك اليوم جاء الخبر أن قطّاع الطريق أخذوا القافلة ثم جاء بعض القطّاع الحرامية بحبّ وجاء آخر بثور، فقال الشيخ للفقراء: تصرّفوا فيه، فتصرّفوا وأحضروا العيش، فتنحّى الفقهاء، فدعاهم الفقراء

---

(١) تستر: هي أعظم مدينة بعربستان، وهي تعريب (شوشتر)، سُمّيت بذلك لأن رجلاً من بني عجل يقال له تستر بن نون افتتحها فسُمّيت باسمه، فتحها البراء بن مالك في خلافة عمر، ثم غزاها تيمورلنك في القرن الخامس عشر الميلادي، وهي مركز تجاري هام. (الرسالة القشيرية ص ٤٠٠).

Marfat.com

للأكل فامتنعوا، فقال الشيخ للفقراء: كُلُوا فإن الفقهاء ما يأكلون الحرام، فلما فرغوا من الأكل جاء إنسان إلى الشيخ وقال: يا سيدي إني نذرت للفقراء كذا وكذا من الحبّ فأخذه الحرامية، وجاء آخر إليه أيضًا وقال: نذرت للفقراء ثورًا فنهب، فقال لهما الشيخ: قد وصل إلى الفقراء متاعهم، فبقي الفقهاء يضربون يدًا على يد متندّمين على عدم موافقة الفقراء. وكان رضي الله تعالى عنه صبّاغًا، أعني صبّاغًا للقلوب يصبغ الناس وينقلهم من الصفات الدَّنِيَّة إلى الصفات السَّنِيَّة. ورُوِيَ أنه وقفت بين يديه مغنية فغشي عليها ووقعت؛ فلما أفاقت طلبت التوبة وصَحِبَت الفقراء، وكانت من المترفِّهات، فقال لها الشيخ: إنّا نذبحك فتصبرين على الذبح؟ فقالت: نعم، فأمرها أن تسقي الماء للفقراء، فمكثت ستة أشهر تحمل الماء على ظهرها، ورآها الشيخ قد تبدّلت عن حالها الأول، ثم قالت للشيخ: إني اشتقت إلى ربي، فقال لها الشيخ: يوم الخميس تَلْقَينَ ربّك، فماتت يوم الخميس رحمها الله تعالى. وفي الشيخ أبي الغيث رضي الله تعالى عنه قلت:

لنا سيد كم ساد بالفضل سيدًا ... بكلّ مكان ثم كلّ زمان
إذا أهل الأرض فاخَروا بشيوخهم ... أبو الغيث فينا فخر كل يماني

(الحكاية السابعة عشرة بعد الثلاث مئة): قال المؤلف ـ كان الله له ـ: ومن المشهور أيضًا ما سمعناه ورواه الكبار من الشيوخ عن الشيخ الكبير العارف الربّاني المربّي عيسى المعروف بالهتار اليمني رضي الله تعالى عنه ونفعنا به أنه مرّ يومًا على امرأة بغيّ، فقال لها: بعد العشاء آتيك ففرحت بذلك وتزينت وتعجب مَن سمع منه ذلك، فلما كان بعد العشاء دخل عليها فصلّى ركعتين في البيت، ثم خرج، فقالت له: أراك خرجت، فقال: حصل المقصود، فتمزّقت عن حالها وخرجت بعد الشيخ تائبة، وخرجت عن كلّ ما تملكه، فزوّجها الشيخ ببعض الفقراء وقال: اعملوا الوليمة عصيدة ولا تشتروا لها إدامًا، ففعلوا ذلك وأحضروه إلى الشيخ، فذهب إنسان إلى أمير رفيق لتلك المرأة، فقال له: إن فلانة تابت، قال: إيش تقول؟ قال: إي والله تابت وقد تزوّجها بعد الفقراء، وأولموا بعصيدة وقد أحضروها وما معهم إدام، فأخرج له قارورتين فيهما خمر، وقال: اذهب بهما إلى الشيخ وسلّم عليه وقل له: سرّني ما سمعت، وبلغني أن ما عندكم إدام للوليمة، فخذوا هذا فتأدموا به، وأراد يستهزىء بالفقراء ويفضحهم؛ فلما دَنَا رسول الأمير من الشيخ قال له: أبطأت، ثم تناول إحدى القارورتين منه وخضّها ثم صبّها على العيش، ثم فعل بالأخرى كذلك، ثم قال للرسول: اجلس فكل، قال الرسول: فطعمت سمنًا لم أرَ أطيب منه، ثم رجع إلى الأمير وأخبره بالقصة، فجاء الأمير فرأى شيئًا حيّره، فتاب أيضًا على يد الشيخ المذكور نفع الله به و﴿ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [الحديد: ٢١].

Marfat.com

(الحكاية الثامنة عشرة بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أن رجلاً من بني إسرائيل عبدَ الله عشرين سنة ما عصاه فيها طرفة عين ثم عصاه عشرين سنة ما أطاعه فيها طرفة عين، فلما كان بعض الأيام نظر في المرآة، فرأى شيبًا في لحيته، فقال: آه آه أشيب وعيب، وعزّتك لا عُدت إلى معصيتك، وقام من وقته وتطهّر للتوبة؛ فلما جنّه الليل قال: إلٰهي أطعتك عشرين سنة وعصيتك عشرين سنة، فيا ليت شعري إن رجعت إليك هل تقبلني، فسمع صوتًا من جانب البيت يسمع الصوت ولا يرى الشخص وهو يقول: أحببتنا فأحببناك، وأطعتنا فأطعناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك. وأنشدوا:

أخلقت وجهي المعاصي عند علام العيوب سيدي شؤم المعاصي
أبعدت منك نصيبي سيدي قسوة قلبي حيّرت كلّ طبيب
يا طبيبًا للأطبا أنت عوني وطبيبي
اشفني هَب لي إلٰهي توبة تمحو ذنوبي

(الحكاية التاسعة عشرة بعد الثلاث مئة: عن عبد الله بن الفُضيل رضي الله تعالى عنه) قال: حضرت عند السريّ السقطي رضي الله تعالى عنه وهو يجود بنفسه، فلحظني بعينه فرآني أبكي، فقال لي: ما لك تبكي يا أبا محمد؟ فقلت: مما أرى بك، فقال: لا تبكِ فإني قد حسبت حسابي مع الله عزّ وجلّ، كنت أطلبه عشرين سنة حتى وجدته؛ فلما وجدته استخدمني فخدمته عشرين سنة ثم أبكاني، فبكيت عليه عشرين سنة، ثم شوّقني فاشتقت إليه عشرين سنة، ثم أفناني ففنيت به عشرين سنة، وأنا الآن أؤمّل أن أراه فأبقى له وبه ومعه، فينبغي يا أبا محمد أن تهنيني. وقال بعضهم: دخلت على سريّ السقطي رضي الله تعالى عنه، فرأيته ينكس بيته بخرقة، ويتمثّل بهذين البيتين:

وما رُمتُ الدخول عليه حتى حللت محلة العبد الذليل
وأغمضت الجفون على قذاها وصنت النفس عن قال وقيل

وقال الفُضَيل بن عيّاض رضي الله تعالى عنه: **مَن عرف الله من طريق المحبة بغير خوف هلك في البسط والإدلال، ومَن عرفه من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبُعد والاستيحاش، ومَن عرفه من طريق المحبة والخوف معًا أحبّه الله وأكرمه وقرّبه وفهّمه ومكّنه وعلّمه.** قلت: **يشهد لصحة قول الفُضَيل ما اشتهر عن المشايخ الكبار المُحِبِّين العارفين أنهم لم يزالوا وَجِلين خائفين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ونفعنا بهم.**

(الحكاية العشرون بعد الثلاث مئة): قال بعض السّلف: بينما عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يسيح في بعض بلاد الشام اشتدّ به المطر والرعد والبرق، فجعل يطلب

Marfat.com

شيئًا يلجأ إليه، فرفعت له خيمة من بعيد، فأتاها، فإذا هو بامرأة فحادَ عنها، فإذا هو بكهف في جبل، فأتاه فإذا في الكهف سبع، فوضع يده عليه، ثم قال: إلٰهي جعلت لكلّ شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى فأجابه الجليل تعالى: مأواكَ عندي في مستقرّ رحمتي، لأزوّجنّك يوم القيامة مئة حوراء خلقتها بيدي، ولأطعمنّ في عرسك أربعة آلاف عام كلّ يوم منها كعمر الدنيا، ولآمرنّ مناديًا ينادي أين الزهّاد في الدنيا احضروا عرس عيسى ابن مريم ﷺ. وقال عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه: مررت براهب في صومعة[1]، فقلت لأصحابي: قفوا، فكلّمته وقلت له: يا راهب، فكشف سترًا على باب صومعته، فقلت له: ما علم اليقين؟ فقال: يا عبد الواحد إن أحببت أن تعلم علم اليقين فاجعل بينك وبين شهوات الدنيا حائطًا من حديد وأرخي الستر.

(الحكاية الحادية والعشرون بعد الثلاث مئة: عن عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه) قال: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين، فناديته: يا راهب، فلم يجبني، فناديته ثانية فلم يجبني، فناديته ثالثة فأشرف عليّ وقال: يا هذا ما أنا براهب، إنما الراهب مَن رهب الله عزّ وجلّ في سمائه، وعظّمه في كبريائه، وصبر على بلائه، ورضي بقضائه، وحمده على آلائه، وشكره على نعمائه، وتواضع لعظمته، وذلّ لعزّته، واستسلم لقدرته، وخضع لهيبته، وفكر في حسابه وعقابه؛ فنهاره صائم، وليله قائم، قد أسهره ذكر النار، ومسألة الجبار، فذلك هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور[2]، حبست نفسي بهذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم بلساني، فقلت: يا راهب ما الذي قطع الخلق عن الله عزّ وجلّ بعد أن عرفوه؟ فقال: يا أخي لم يقطع الخلق عن الله عزّ وجلّ بعد أن عرفوه إلا حبّ الدنيا وزينتها، لأنها محلّ الذنوب والمعاصي، والعاقل مَن رمى بها عن قلبه، وتاب إلى الله تعالى من ذنبه، وأقبل على ما يقرّبه من ربه.

(الحكاية الثانية والعشرون بعد الثلاث مئة): رُوِيَ أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام صحبه رجل وقال: يا نبيّ الله أكون معك فانطلقا فانتهيا إلى شط نهر، فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين وبقي رغيف، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب منه ثم رجع فلم يجد الرغيف، فقال للرجل: مَن أخذ الرغيف؟ قال: لا أدري، فانطلق ومعه الرجل، فرأى ظبية ومعها ولدان لها، فدعا واحدًا فأتاه فذبحه واشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل ثم قال له بعد ما ذبحه وأكلا منه: قم بإذن الله عزّ وجلّ فقام، فقال للرجل: أسألك بالذي أراك هذه الآية مَن أخذ الرغيف؟ قال: لا أدري فانطلقا حتى انتهيا

---

(١) الصومعة: متعبّد الناسك ومنار الراهب إذا كان محلة مرتفعًا كأن يكون على جبل.
(٢) العقور: كلب عقور: كثير العقر.

Marfat.com

إلى مفازة، فجمع عيسى ﷺ ترابًا وكثيبًا، ثم قال له: كن ذهبًا بإذن الله عزّ وجلّ، فصار ذهبًا، فقسمه ثلاثة أقسام، فقال: ثلث لي وثلث لك، وثلث للذي أخذ الرغيف، فقال: أنا الذي أخذت الرغيف، قال: فكله لك، وفارقه عيسى عليه السلام، فانتهى إليه رجلان في المفازة ومعه الذهب، فأراد أن يأخذاه منه ويقتلاه، فقال: هو بيننا أثلاثًا، فقَبِلا ذلك، فقال: يذهب واحد إلى القرية حتى يشتري لنا طعامًا، فذهب واحد واشترى طعامًا وقال في نفسه: لأيّ شيء أُقاسمهما في هذا المال؟ أنا أجعل في هذا الطعام سُمًّا فأقتلهما وآخذ هذا المال جميعه فجعل فيه السمّ، وقالا هما فيما بينهما: لأيّ شيء نجعل له الثلث إذا رجع إلينا قتلناه واقتسمنا المال نصفين؛ فلما رجع إليهما قتلاه ثم أكلا الطعام فماتا، فبقي ذلك المال في المفازة، وأولئك الثلاثة قتلى عنده، فمرّ عليهم عيسى عليه السلام وهم على تلك الحال، فقال لأصحابه: هذه الدنيا فاحذروها. ورُوِيَ أن عيسى عليه السلام كشفت له الدنيا في صورة عجوز شمطاء[1] عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوّجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم ماتوا عنك أو كلهم طلّقكِ؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤسًا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بالماضين؟ كيف تهلكينهم واحدًا بعد واحد، فلا يكونون منك على حذر؟ قال الفُضَيل رضي الله تعالى عنه: بلغني أنّ رجلاً عرج بروحه في المنام، فرأى امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحليّ والثياب الفاخرة، وإذا بها لا يمرّ بها أحد إلا جرحته، فإذا هي إن أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس. وإن أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس، عجوز زرقاء شمطاء عمشاء، قال: فقلت لها: أعوذ بالله منك، فقالت: لا والله لا يعيذك الله مني حتى تبغض الدرهم، قلت: مَن أنت؟ قلت: أنا الدنيا، نعوذ بالله منها.

(الحكاية الثالثة والعشرون بعد الثلاثة مئة: عن إبراهيم بن بشار رضي الله تعالى عنه) قال: كنت مع إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه في سفر، وليس معنا شيء نفطر عليه ولا بنا حلية، قال: فرآني الشيخ مغتمًّا، يعني ابن أدهم، فقال لي: يا ابن بشار ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة؟ لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة ولا عن حجّ ولا عن صدقة ولا عن صلة رحم ولا عن مواساة، وإنما يسأل ويحاسب هؤلاء المساكين، يعني الأغنياء، ثم قال: إنّ الأغنياء في الدنيا فقراء في الآخرة، أعزّة في الدنيا أذلّة يوم القيامة، ولا تغتمّ ولا تحزن، فرزق الله مضمون سيأتيك، نحن والله ملوك الأغنياء، تعجلنا الراحة في الدنيا والآخرة، لا نغتمّ ولا نحزن

(١) شمط شعره: اختلط سواده ببياضه فهي شمطاء.

Marfat.com

ولا نُبالي على أيّ حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله تعالى، ثم قام إلى صلاته وقمت إلى صلاتي، فما لبثنا إلا ساعة وإذا نحن برجل قد جاءنا بثمانية أرغفة وتمر كثير فوضعه بين أيدينا وقال: كلوا رحمكم الله، فسلّم إبراهيم من صلاته وقال: كل يا مغموم يا حزين، فمرّ بنا سائل، فقال: أطعموني شيئًا لوجه الله تعالى، فأعطاه إبراهيم ثلاثة أرغفة وتمرًا وأعطاني ثلاثة أرغفة وتمرًا وأكل هو رغيفين، وقال: المواساة من أخلاق المؤمنين، ثم أنشأ يقول:

أخي نحن والله الملوك حقيقة ... لنا الملك في الدارين والعزّ والغنى
نولي ونعزل والملوك جميعهم ... لنا خدم والذلّ يجزون والعنا

(الحكاية الرابعة والعشرون بعد الثلاث مئة عن الشبلي رضي الله تعالى عنه) قال: خرجت ذات يوم أريد البادية، فرأيت شابًا صغير السنّ نحيل الجسم أشعث أغبر، عليه ثياب رثّة وهو جالس في الجبّانة يمرّغ خدّيه بين القبور، وجعل يرمق السماء تارة بعد تارة، ويحرّك شفتيه، والدموع تسيل من عينيه وهو مستغرق في الدعاء والذّكر والاستغفار، ولا يشغله شاغل عن التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد والتعظيم، فلما رأيت الشاب على تلك الحالة مالت نفسي إليه وطابت على لقائه، فتركت الطريق التي أروح عليها وقصدت نحوه؛ فلما رآني أقبلت إليه انتفض من مكانه وقام يمشي هاربًا مني، فنهضت نفسي في اتّباعه لعلّي ألحقه، فلم أقدر على إدراكه، فقلت له: رفقًا يا وليّ الله، فقال: والله لا أفعل، فقلت: بحقه إلا ما صبرت، فأشار بأصبعه لا أفعل وقال: الله، فقلت له: إن كان حقًا ما تقول أرِني صدقك مع الله تعالى، فنادى بصوت عالٍ الله الله، ووقع على الأرض مغشيًا عليه، فدنوت منه وحرّكته، فإذا هو ميت من ساعته، فتوهّمت من ذلك وتعجبت من حاله وصدقه مع الله تعالى، وقلت: يختصّ برحمته مَن يشاء، وقلت: لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، ثم تركته في موضعه وسِرتُ إلى حيٍّ من أحياء العرب لآخذ في جهازه وإصلاح شأنه، فلما رجعت إليه حجب عني فطلبته في مكانه فلم أجد له أثرًا ولا سمعت له خبرًا فبقيت متحيّرًا، وقلت: حجب عني هذا الشاب، ومَن سبقني إليه؟ فسمعت قائلاً يقول: يا شبلي قد كُفِيتَ أمر الفتى وما تولاه إلا الملائكة، فعليك أنت بعبادة ربك، وأكثِر الصدقة من مالك، فما بلغ الفتى ما بلغ إلا بصدقته يومًا في الدهر، فقلت: سألتك بالله إلا ما أخبرتني ما هي تلك الصدقة؟ فقال لي: يا شبلي إن هذا الفتى كان في أول عمره عاصيًا مذنبًا فاسقًا زانيًا، فعرض الله عليه رؤيا أفزعته وأقلقته، وهي أنه رأى في المنام أن إحليله[1] قد رجع ثعبانًا

---

(١) الإحليل: فتحة مجرى البول (ج) أحاليل.

Marfat.com

ودار بفيه، ثم أطلق من فِيه لهيب النار فأحرقه حتى عاد كالفحمة السوداء، فانتبه فزعًا مرعوبًا، وخرج فارًّا بنفسه مشتغلاً بعبادة ربّه، وله اليوم منذ رجع إلى طاعة ربه اثنتا عشرة سنة وهو على حالة التضرّع والبكاء والخشوع والخوف، فلما كان بالأمس وقف له سائل سأله قوت يوم، فخلع ثيابه وسلّمها إليه، ففرح السائل بذلك وبسط كفّيه ودعا له بالمغفرة، فأجاب الله تعالى دعاءه ببركة الصدقة التي أفرحه بها كما جاء في الحديث «اغتنموا دعوة السائل عند فرحة قلبه بالصدقة»[1].

(الحكاية الخامسة والعشرون بعد الثلاث مئة: عن أبي جعفر بن خطاب رضي الله تعالى عنه ـ وكان يقال إنه من الأبدال ـ) قال: وقف على بابي سائل، فقلت لزوجتي: هل معك شيء قالت: أربع بيضات، فقلت: ادفعيهنّ إلى السائل ففعلت، فلما انصرف السائل أهدى إليّ بعض الإخوان مخلاة فيها بيض، فقلت لزوجتي: كم فيها من بيض؟ فقالت: ثلاثون بيضة، فقلت لها: ويحك أعطيت السائل أربع بيضات فجاءك ثلاثون، أين حساب هذا؟ فقلت: هنّ أربعون إلا أن عشرًا مكسورات. وقيل في هذه الحكاية: كان ثلاث من البيض التي أعطت السائل صحيحات وواحدة مكسورة، فجاء بكل واحدة منهنّ عشر على صفتها. وحُكِيَ أن امرأة تصدّقت برغيف على سائل، ثم خرجت تحمل غداء زوجها وكان يحصد زرعه، فمرّت بروضة ومعها ابن لها، وإذا سبع قد التقم ابنها، فإذا يد قد لطمت السبع فقذف الطفل من فِيه، وإذا بمُنادٍ تسمع صوته ولا ترى شخصه يقول: خذي ولدك فقد جازيناك لقمة بلقمة.

(الحكاية السادسة والعشرون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ عن الجُنَيد رضي الله تعالى عنه أنه قال: خرجت يومًا في بعض الغزوات، وكان قد أرسل إليّ أمير الجيش شيئًا من النفقة، فكرهت ذلك ففرّقته على محاويج الغزاة، فلما كان في بعض الأيام صلّيت الظهر وجلست متفكّرًا في ذلك نادمًا على قبوله وتفريقي إياه، فغلبني النعاس فرأيت قصورًا تُبْنَى مزخرفة، ونِعَمًا طائلة، فسألت عنها؟ فقيل لي: هذه لأصحاب المال الذي فرّقته في الغزاة، فقلت: فما لي معهم شيء؟ فقيل: ذلك القصر وأشاروا إلى قصر عظيم من أحسن القصور وأعظمها، فقلت: فكيف فضلت عليهم؟ فقيل: أولئك أخرجوا المال وهم يتوقعون الثواب عليه، فكان هذا جزاءهم. وأنت فرّقت ذلك المال خائفًا وَجِلاً مُحاسِبًا نفسك نادمًا، فضاعف الله تعالى لك ذلك على ثواب سعيك. وأنشد بعضهم:

إذا كانت الدنيا تعدّ نفيسة … فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن كانت الأرزاق قسمًا مقدّرًا … فقلّة سعي المرء في الرزق أجمل

---

(١) اخرجه أحمد بن حنبل ٦، ٢، ٥.

Marfat.com

وإن كانت الأجساد للموت أُنشئت فقتل امرئٍ في الله بالسيف أفضل
وإن كانت الأموال للترك جمعها فما بال متروك به المرء يبخل

(الحكاية السابعة والعشرون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أنه كان بالريّ قاضٍ غني، فجاءه فقير يوم عاشوراء فقال له: أعزّ الله القاضي أنا رجل فقير ذو عيال، وقد جئتك مستشفعًا بحُرمة هذا اليوم لتعطيني عشرة أمنان خبزًا وخمسة أمنان لحمًا ودرهمين، فوعده القاضي بذلك إلى وقت الظهر، فجاءه فدافعه إلى العصر؛ فلما جاءه وقت العصر لم يعطه شيئًا، فذهب الفقير منكسرًا فمرّ بنصراني جالس بباب داره، فقال له: بحقّ هذا اليوم وحرمته أعطني شيئًا، فقال النصراني: وما هذا اليوم؟ فذكر له الفقير شيئًا من صفاته وحرمته، فقال له النصراني: اذكر حاجتك فقد أقسمت بعظيم الحرمة، فذكر له الخبز واللحم والدرهمين، فأعطاه من الخبز عشرة أقفزة[1] حنطة ومن اللحم مئة منّ، ومن الدراهم عشرين درهمًا، وقال: هذا لك ولعيالك ما دمت حيًا في كل شهر كرامة لهذا اليوم، فذهب الفقير إلى منزله، فلما كان الليل ونام القاضي سمع هاتفًا يقول له: ارفع رأسك، فرفع رأسه فرأى قصرًا مبنيًا بلَبِنَة من ذهب ولَبِنَة من فضة، وقصرًا آخر من ياقوتة حمراء يُرَى ظاهره من باطنه، وباطنه من ظاهره، فقال: إلهي ما هذان القصران؟ فقيل له: هذان كانا لك، لو قضيت حاجة الفقير، فلما رددته صار لفلان النصراني، قال: فانتبه القاضي مرعوبًا ينادي بالويل والثبور، فغدًا إلى النصراني، فقال له: ماذا فعلت البارحة من الخير؟ فقال له: وكيف ذلك؟ فذكر له الرؤيا، ثم قال له: بِعني الجميل الذي عملته مع الفقير بمئة ألف، فقال له النصراني: إني لا أبيع ذلك بملء الأرض كلها، ما أحسن المعاملة مع هذا الربّ الكريم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأن دينه هو الحقّ. وأنشدوا في معنى ذلك:

لا يلحقنك ضجرة من سائل فدوام عزّك أن ترى مسؤولا
لا تصرفنّ بالردّ وجه مؤمل فلخير يومك أن ترى مأمولا
واعلم بأنك عن قليل صائر خبرًا فكن خبرًا يروق جميلا
تلقى الكريم فتستدلّ ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلا

وأنشدوا أيضًا:

يا طالب العفو هذا يوم عاشورا يومٌ غدا فضله في الناس مشهورا
ما إن دعا ربه داعٍ لحاجته إلا وعاد بما يهواه مسرورا

---

(١) الأقفزة: (ج) القفيز: مكيال كان يُكال به قديمًا.

ولا أتى الله فيه مذنب خجل | إلا وأصبح ذاك الذنب مغفورا
فتب إلى الله فيه وابغِ رحمته | من قبل توقف يوم العرض مذعورا
وأنت في فرق مضن وفي عرق | تقرأ كتابك بين الخلق منشورا
فاسأل إلٰهك فيه فضل رحمته | وقف على بابه خجلان مكسورا

(الحكاية الثامنة والعشرون بعد الثلاث مئة): يُروَى عن حبيب العجمي، رضي الله عنه أنه اشترى نفسه من ربه أربع مرّات بأربعين ألف درهم وأخرج عشرة آلاف، وقال: يا ربّ اشتريت منك نفسي بهذه، ثم أخرج عشرة آلاف أخرى فقال: يا ربّ إن كنت قبلت تلك فهذه شكر لها، ثم أخرج عشرة آلاف ثالثة وقال: إلٰهي إن لم تقبل الأولى والثانية فاقبل هذه، ثم أخرج عشرة آلاف رابعة وقال: إلٰهي إن كنت قبلت الثالثة فهذه شكر لها. ورُوِيَ أنه أصاب الناس مجاعة، فاشترى حبيب رضي الله تعالى عنه طعامًا وفرّقه على المساكين، ثم خاطَ أكيسة فجعلها تحت رأسه، ثم دعا الله تبارك وتعالى فجاءه أصحاب الطعام يتقاضونه، فأخرج تلك الأكيسة فإذا هي مملوءة دراهم، فوزنها فإذا هي قدر حقوقهم، فدفعها إليهم. ورُوِيَ أنه أتاه مرّة سائل وقد عجنت امرأته عجينًا وذهبت تجيء بنار لتخبزه، فقال للسائل: خذ العجين فأخذه، فجاءت امرأته وقالت: أين العجين؟ فقال لها: ذهبوا به يخبزونه، فلما أكثرت عليه أخبرها، فقالت: سبحان الله، إنه لا بدّ لنا من شيء نأكله، فإذا برجل قد جاء بجفنة[1] عظيمة مملوءة خبزًا ولحمًا، فقالت: ما أسرع ما ردّوه عليك قد خبزوه وجعلوا معه لحمًا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. قلت: وسنذكر في الحكاية الآتية ما يشبه هذا إن شاء الله.

(الحكاية التاسعة والعشرون بعد الثلاث مئة) قال المؤلف كان الله تعالى له: كنّا جماعة في بعض الأسفار جمعت بيننا في الطريق الأقدار، فمررنا في بعض الأيام بقرية فنزلنا فيها وأرسل الجماعة حين دخلوها واحدًا منهم، فاستعار برمة فعصدوا فيها عصيدة وأكلوها إلا واحدًا منهم، فإنه غاب عنهم ولم ينادوه يأكل معهم ومعه قليل من الدقيق، فلم يجد مَن يصنعه له من صاحب معروف أو صديق، فخرج يدور بدقيقه بين البيوت لعل أحدًا يصنع له ذلك القوت فلم يجد، فبينما هو كذلك يدور وإذا بشخص ضعيف مضرور جمعت القدرة بينهما بواسطة اللطف الخفيّ من غير وعد، ونادى لسان حال الحكمة الإلٰهية: هذا رزق هذا الضعيف ورزقك يأتي فيما بعد، فدفع إليه رزقه ورجع إلى رفقته بلا غداء، فبينما هو غائب عن علم الغيب، وإذا باللطيف قد قيّض له إنسانًا دعاه من بين الجماعة، فأطعمه ثريدًا[2] ولحمًا سمينًا في تلك الساعة حتى شبع وقوي

---

(١) الجفنة: القصعة العظيمة.

(٢) الثريد: الخبز يُفَتّ ويُبَلّ بالمرق.

على المشي الكثير، فسبحان الكريم اللطيف الخبير. أيتها النفس الهلوعة الضعيفة اليقين، أما تصدّقين ويحك بوعد الحقّ المبين، أما تثقين ويلك بضمان خير ضمين، أما توقنين بقول أصدق القائلين: ﴿إنّ الله هو الرزّاق ذو القوة المتين﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿وما من دابّة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود: ٦]، ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾ [سبأ: ٣٧]، ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [الذاريات: ٢٢] ثم أتبع ذلك بقَسَم عظيم، أقسم به العظيم ربّ العالمين، مع أن قوله حقّ، ووعده صدق لا يحتاج إلى يمين، فقال عزّ من قائل: ﴿فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنتم تنطقون﴾ [الذاريات: ٢٣] أما تعلمين أن وعده الوفيّ ولطفه الخفيّ قد ضمنا للعباد في جميع البلاد بسط أيادي الجود في جميع الوجود، وساق مطايا الأرزاق من خزائن رحمة الرزّاق، القدر السابق في القدم بسوط القدرة، وقادها بزمام اللطف والكرم حتى دخلت في باب الإيجاد بعدما خرجت من باب العدم، وسارت في الوجود إلى أن وصلت إلى مَن له بالقسمة السابقة حصلت، وقطعت قلاص مواهب الخواص فيافي قفار عالم التقليب والتلوين، حتى وصلت إلى سرادقات عالم التقريب والتمكين، فبركت في مبارك البركات بالمواهب الجليلة، فحطّ عنها تحف الفوائد وطُرَف العوائد الجميلة، ثم حمل تلك التحف والطُّرَف خدّام القدرة، ودخلوا بها إلى حضرة أهل الحضرة، فنالوا بتلك المواهب أعزّ المطالب، من المقامات العالية والمعارف الغالية خصّهم بها المولى الكريم ﴿ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [الحديد: ٢١] وأنشد لسان الحال في الحال:

تبارك من عمّ الوجود بجوده ... ومَن منه فيض الفضل للخلق يغمر

ومَن خصّ أهل القرب صفوة خلقه ... بفضل عظيم وصفه ليس يقدر

فللقوم أعلام الولايات أعلمت ... بمجد وخلعات الكرامات تزهر

(الحكاية الثلاثون بعد الثلاث مئة: عن بعض الصالحين) قال: دخلت مسجدًا من المساجد أُصلّي فيه ركعتين، فإذا فيه رجل عابد ورجل من التجار جالس، فسمعت العابد يقول: يا سيدي ومولاي أشتهي عليك اليوم أن تشبعني من لون كذا وكذا من الطعام، ولون كذا وكذا من الحلواء، فقال التاجر: والله لو سألني لأعطيته ولكن هذا يحتال عليّ ويُرائيني حتى أُعطيه، والله لا أعطيه شيئًا؛ قال: فلما فرغ من دعائه نام في ناحية المسجد، وإذا برجل قد دخل المسجد ومعه قعبة[1] مغطاة، فنظر في المسجد يمينًا وشمالاً، فرأى العابد نائمًا في ناحية المسجد، فأتى إليه فأيقظه، وترك القعبة بين يديه

(١) القعب: قدح ضخم.

Marfat.com

والتاجر ينظر إليه، فوجد اللون الذي اشتهاه من الطعام والحلواء، فأكل منه قدر ما اشتهى وغطّاه وردّه، فقال التاجر للذي جاء بالقعبة: سألتك بالله هل تعرف هذا الرجل قبل هذا اليوم؟ قال: لا والله ما أعرفه، وإنما أنا رجل حمّال وكانت قد اشتهت عليّ زوجتي وابنتي هذا اللون منذ سنة، فما طالت يدي إليه، فلما كان اليوم حملت لرجل وأعطاني مثقالاً[1] من الذهب، فاشتريت به لحمًا وغيره، وأتيت به إلى منزلي، فصنعته زوجتي، فغلبتني عيناي، فنمت فرأيت النبيّ ﷺ فقال لي: قد قَدِمَ عليكم وليّ من أولياء الله تعالى وها هو في المسجد، وقد اشتهى مما عملته لأهلك، فاحمله إليه يأكل منه شهوته، ويجعل الله تعالى لك البركة فيما بقي، وأنا الكفيل لك بالجنة، فانتبهت وجئت به كما ترى، فقال التاجر: قد سمعته يسأل الله تعالى ذلك، ثم قال له: كم أنفقت على هذا الطعام؟ قال: مثقالاً، فقال التاجر: خذ مني عشرة مثاقيل واجعل لي في أجرك قيراطًا[2]، قال: لا، قال: خذ عشرين مثقالاً، قال: لا، قال: خذ خمسين مثقالاً، قال: لا، قال: خذ مئة مثقال، قال: لا، والله لا بعتُ شيئًا مما ضمنه لي رسول الله ﷺ وتكفّله ولو أعطيت الدنيا جميعًا، فلو كان لك نصيب من أجر شهوة هذا الوليّ لكنت سبقتني أنت إليه، ولكن الله يختصّ برحمته من يشاء، قال: فندم التاجر حيث لا ينفعه الندم، وخرج من المسجد كالواله على ما فاته.

(الحكاية الحادية والثلاثون بعد الثلاث مئة: عن إبراهيم الخوّاص رضي الله تعالى عنه) قال: كنت في مسجد، فرأيت فقيرًا ساكتًا ثلاثة أيام لم يتحرّك ولم يطعم ولم يشرب، وكنت أرقبه وأصبر معه، فعجزت عنه فتقدمت إليه وقلت له: ما تشتهي؟ قال: خبزًا حارًّا ومصليًا، فخرجت وتكلّفت طول نهاري حتى أُحَصِّل ما قال، فلم يتفق لي، فعدت إلى المسجد وأغلقت الباب، فلما كان بعد حين من الليل دقّ علينا الباب، ففتحته، فإذا بإنسان معه خبز حارّ ومصلية، فسألته عن السبب، فقال: اشتهى عليّ صبياني هذا، فتخاصمنا وحلفنا أن لا يأكل هذا إلا أهل المسجد، قال إبراهيم: فقلت إلٰهي إذا كنت تريد أن تطعمه فلِمَ أتعبتني طول النهار؟ رضي الله تعالى عنهما.

(الحكاية الثانية والثلاثون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أنّ عابدًا اعتكف في مسجد ولم يكن له معلوم، فقال له الإمام: لو اكتسبت لكان خيرًا لك وأفضل، فلم يُجِبه حتى أعاد عليه القول ثلاثًا، فقال له في الرابعة: بجوار المسجد رجل يهودي قد ضَمِنَ لي كل يوم

---

(١) المثقال: وزن صغير يوزن به الذهب والفضة والعِطر، وهو وزن مقداره درهم وثلاثة أسباع الدرهم.

(٢) القيراط: معيار في الوزن وفي القياس: فهو في الوزن أربع قمحات. وفي القياس جزء من أربعة وعشرين جزءًا من الفدان.

Marfat.com

رغيفين، فقال له: إن كان صادقًا في ضمانه فقعودك في المسجد خير لك، فقال: يا هذا لو لم تكن إمامًا تقف بين يدي الله تعالى وبين عباده مع هذا النقص في التوحيد لكان خيرًا لك، تفضل ضمان يهودي على ضمان الله عزّ وجلّ؟ وأنشدوا في هذا المعنى لعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه:

أتطلب رزق الله من عند غيره وتصبح من خوف العواقب آمنا
وترضى بصرّاف وإن كان مشركًا ضمينًا ولا ترضى بربك ضامنا

(الحكاية الثالثة والثلاثون بعد الثلاث مئة: عن بعض الصالحين) قال: إن الله تعالى لمّا أظهر الخلق في القِدَم أظهر لهم الصنائع كلها ثم خيّرهم فيها، فاختار كل إنسان صنعته، فلما أبداهم إلى الوجود أجرى على لسان كل واحد ما اختار لنفسه، قال: وانفردت طائفة فلم تَخْتَر شيئًا، فقال لها: اختاري، فقالت: ما أعجبنا شيء رأيناه فنختاره، فأظهر لهم مقامات العبادة، فقالت: قد اخترنا خدمتك يا مولانا، فقال: وعزّتي وجلالي لأُسخِّرَنَّهم لكم، ولأجعلنَّهم لكم خدّامًا، وعزّتي وجلالي لأُشفِّعَنَّكم غدًا فيمن عرفكم وخدمكم. وفيهم قال القائل:

تشاغل قوم بدنياهم وقوم تخلوا لمولاهم فألزمهم باب مرضاته
وعن سائر الخلق أغناهم يصفون بالليل أقدامهم وعين المهيمن ترعاهم
فما يعرفون سوى حبه وطاعته طول محياهم
فطوبى لهم ثم طوبى لهم وطوباهم ثم طوباهم

وقيل: دخل جماعة على أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه، فقالوا له: أنطلب أرزاقنا؟ فقال: إن علمتم أين هي فاطلبوها، فقالوا: أنسأل الله تعالى ذلك؟ فقال: إن علمتم أنه ينساكم فاذكروه، فقالوا: ندخل بيوتنا ونتوكل، فقال: التجربة مع الله تبارك وتعالى شكّ، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.

(الحكاية الرابعة والثلاثون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أنه خرج بعض المُريدين في طلب الرزق، فسعى حتى تعب، فوجد خربة فجلس ليستريح، فبينما هو يتصفَّح الجدران، إذ نظر في بعضها لوحًا من رخام أخضر مكتوب فيه بخط أبيض هذه الأبيات:

لمّا رأيتك جالسًا مستقبلاً أيقنت أنك للهموم قرين
ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبدًا، وما هو كائن سيكون
سيكون ما هو كائن في وقته وأخو الجهالة متعب محزون
فلعلّ ما تخشاه ليس بكائن ولعلّ ما ترجوه سوف يكون
يسعى الحريص فلا ينال بحرصه حظًا ويحظى عاجز ومهين

Marfat.com

فارفض لها وتعرَّ من أثوابها إن كان عندك للقضاء يقين
هوِّن عليك وكن بربك واثقًا فأخو التوكّل شأنه التهوين
طرح الأذى عن نفسه في رزقه لمّا تيقن أنه مضمون

قال: فقرأها ورجع إلى منزله ولم يهتمّ في الرزق بعدها رضي الله تعالى عنه. وقيل: إن أبا يزيد رضي الله تعالى عنه صلّى خلف إمام في بعض المساجد، فلما سلّم الإمام قال: يا أبا يزيد من أين تأكل؟ فقال أبو يزيد: اصبر حتى أُعيد الصلاة التي صلَّيتها خلفك حيث شككت في رازق المخلوقين، فإنه لا تجوز الصلاة خلف مَن لا يعرف الملك الرزّاق تبارك وتعالى.

(الحكاية الخامسة والثلاثون بعد الثلاث مئة: عن أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه) قال: بتّ ليلة عند السريّ رضي الله تعالى عنه، فلما كان في بعض الليل قال لي: يا جنيد أنت نائم؟ قلت: لا، قال: الساعة أوقفني الحقّ عزّ وجلّ بين يديه وقال لي: يا سريّ خلقت الخلق كلهم، فادّعوا محبتي، فخلقت الدنيا، فاشتغل بها من كل عشرة آلاف تسعة آلاف عني بالدنيا وبقي ألف، وخلقت الجنة فاشتغل بالجنة عني من الألف تسع مئة وبقي مئة فسلَّطت عليهم شيئًا من البلاء، فاشتغل عني من المئة تسعون بالبلاء وبقي عشره، فقلت لهم: أنتم لا الدنيا أردتم، ولا في الآخرة رغبتم، ولا من البلاء هربتم، فماذا تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد، فقلت: إني سأنزل عليكم من البلاء ما لا تطيقون ولا تحمله الجبال الرواسي(١)، أفتثبتون لذلك؟ فقالوا: أليس أنت الفاعل بنا وقد رضينا، بك نحمل وفيك نحمل ولك نحمل ما لا تطيقه الجبال، فقلت لهم: أنتم عبيدي حقًّا رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم. وفي رواية أخرى، قال: يا سريّ خلقت الخلق فكلهم ادّعوا محبتي، فخلقت الدنيا فهربت مني تسعة أعشارهم وبقي معي العُشر، فخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر، فسلّطت عليهم ذرّة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر، وبقي معي عشر عشر العشر، فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم، ثم ذكر نحو ما في الرواية الأولى. وقال الجنيد رضي الله تعالى عنه: نظرت يومًا إلى جسد السريّ رضي الله تعالى عنه كأنه جسد سقيم دنف(٢) مضني، فقال: لو شئت لقلت هذا من محبته، ثم غشي عليه وإذا وجهه كأنه قمر مُشرِق بعد أن كان وجهه أصفر، ثم اعتلّ فدخلت عليه أعوده، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي بي أصابني من طبيبي

---

(١) الجبال الرواسي: الجبال الشوامخ.
(٢) الدنف: المرض الملازم أو المريض نفسه يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع.

Marfat.com

قال: فأخذت المِروَحة أروّحه، فقال لي: كيف يجد روح المِروَحة مَن جوفه محترق من داخل؟ ثم أنشأ يقول:

القلب محترق والدمع مستبق — والكرب مجتمع، والصبر مفترق
كيف القرار على مَن لا قرار له — مما جناه الهوى والشوق والقلق
يا ربّ إن كان لي شيء به فرج — فامنن عليّ به ما دام بي رمق

وحُكِيَ أنه لمّا توفي السريّ رضي الله تعالى عنه رُؤِيَ في المنام فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ قال: غفر لي ولمَن حضر جنازتي وصلّى عليَّ، فقال الرائي: فإني ممن حضر جنازتك وصلّى عليك، قال: فأخرج درجًا ونظره فيه فلم يرَ لي فيه اسمًا، قلت: بلى قد حضرت، فنظر فإذا اسمي في الحاشية رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية السادسة والثلاثون بعد الثلاث مئة): رُوِيَ أن يُونس عليه السلام قال لجبريل ﷺ: دلّني على أعبد أهل الأرض، فأتى به إلى رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وهو يقول: متّعتني بهما حيث شئت، وسلبتنيهما حيث شئت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بارّ يا وَصول، فقال يونس عليه السلام: يا جبريل سألتك أن تُريني صوّامًا قوّامًا، فقال: قد كان قبل البلاء هكذا، وقد أُمِرتُ أن أسلبه عينيه، فأشار إليهما فسالتا، فقال: متّعتني بهما حيث شئت، وسلبتهما حيث شئت، أبقيت لي فيك الأمل يا بارّ يا وَصول، فقال جبريل عليه الصلاة والسلام: هلمّ تدعو وندعو معك ليردّ الله عليك يديك ورِجليك وبصرك وتعود على العبادة التي كنت عليها، فقال: ما أُحبّ ذلك، قال: ولِمَ؟ قال: إذا كان محبته في هذا فمحبته أحبّ إليّ، فقال يونس عليه الصلاة والسلام: ما رأيت أحدًا أعبد من هذا، فقال جبريل عليه الصلاة والسلام: هذه طريق لا يوصل إلى رضا الله تعالى بشيء أفضل منها. وأنشدوا:

قالت لطيف خيال زارها ومضى — بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال: خليته لو مات من ظمأ — وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت: صدقت الوفا في الحبّ عادته — يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

(الحكاية السابعة والثلاثون بعد الثلاث مئة: عن شقيق البلخي رضي الله تعالى عنه) قال: طلبنا خمسًا فوجدناها في خمس، طلبنا بركة القوت فوجدناها في صلاة الضحى، وطلبنا ضياء القبور فوجدناه في صلاة الليل، وطلبنا جواب منكر ونكير فوجدناه في قراءة القرآن، وطلبنا عبور الصراط فوجدناه في الصوم والصدقة، وطلبنا ظلّ العرش فوجدناه في الخلوة رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. وقال بعض العلماء: قلت في آخر مجلس: اللّهمّ اغفر لأقسانا قلبًا وأجمدنا عينًا، وأقربنا بالمعصية عهدًا، وكان عندنا رجل مؤنث

Marfat.com

مذنب، فوقف وقال: أعِد هذا الدعاء ثانيًا: أنا أقساكم قلبًا وأجمدكم عينًا، وأقربكم بالمعصية عهدًا، فادعُ الله تعالى كي يتوب عليّ، قال: فرأيت في الليلة الثانية كأني واقف بين يدي الله سبحانه وتعالى وهو يقول لي: سرَّني حيث أوقعت الصلح بيني وبين عبدي، قد غفرت لك وله ولأهل مجلسك أجمعين. وحُكِيَ عن بعض الصالحين أنه رُؤِيَ بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: أعطاني كتابي بيميني، فمررت بزلّة فاستحيت أن أقرأها فقلت: إلهي لا تفضحني، فقال حين عملتها ولم تستحِ مني، قد غفرت زلّتك وأدخلتك الجنة برحمتي وكرمي، سبحان السّتّار الحليم الجواد الكريم.

(الحكاية الثامنة والثلاثون بعد الثلاث مئة: عن أبي عبد الله بن شُجاع الصوفي رحمه الله تعالى) قال: كنت بمصر أيام سياحتي، فاشتاقت نفسي إلى النساء، فذكرت ذلك لبعض إخواني، فقال لي: هنا امرأة صوفية لها ابنة جميلة قد ناهزت البلوغ، قال: فخطبتها وتزوّجت بها، فلما دخلت إليها وجدتها مستقبلة القِبلة تصلي، فاستحييت أن تكون صبيّة في مثل سنّها تصلي وأنا لا أصلي، فاستقبلت القِبلة فصلّيت ما قُدّر لي حتى غلبتني عيني، فنمت في مصلاي ونامت في مصلاّها؛ فلما كان في اليوم الثاني كان مثل ذلك أيضًا، فلما طال عليّ ذلك قلت: يا هذه هل لاجتماعنا هذا معنى، قالت له: أنا في خدمة مولاي، ومَن له حقّ لا أمنعه، قال: فاستحييت من كلامها وتماديت على أمري نحو الشهر، ثم بَدَا لي السفر، فقلت: يا هذه قالت: لبّيك، قلت: إني قد أردت السفر، قالت: مُصاحَبًا بالعافية والسلامة من كلّ ما تكره، وأعطاك كلّ ما تحبّ، فقمت فلما صرت عند الباب قامت فقالت: يا سيدي كان بيننا في الدنيا عهد لم يقض بتمامه عسى في الجنة إن شاء الله تعالى يُقضى، ثم قالت: استودعتك الله تعالى خير مستودع، فودّعتها وخرجت، وسألت عنها بعد سنتين، فقيل لي: هي على أفضل مما تركتها عليه من العبادة والاجتهاد رضي الله تعالى عنهما. وقال بعض الفقراء: كانت لي امرأة من أولياء الله تعالى، وكان إذا ورد عليها الحال لا أقدر أمدّ يدي إليها، ولا أستطيع أن أتمكّن من حاجتي منها لقوّة حالها وشدّة هيبتها، فتقول لي عند ذلك: مَن هو الرجل منّا ومَن المرأة؟ فإذا ذهب عنها الحال تمكّنت ونلت منها ما شئت رضي الله تعالى عنها وعن جميع الأولياء.

(الحكاية التاسعة والثلاثون بعد الثلاث مئة: عن ذي النون رضي الله تعالى عنه) قال: اجتمعت في جبل لبنان بامرأة متعبدة وهي كالشنّ البالي كأنها تخبر عن أهل المقابر، ذات اجتهاد وعبادة، لم أرَ قطّ مثلها في العبادة، فسألتها: أين وطنك؟ فقالت: ما لي وطن إلا النار، أو يعفو العزيز الغفار؟ فقلت: يرحمك الله تعالى، هل من وصية أو فائدة، قالت: اجعل كتاب الله تعالى لك مائدة، وجالس وعده ووعيده، وشمّر عن

ساق الجدّ بالعزائم الحميدة، ودع ما يتعلق به البطّالون من الأمل الكاذب الذي لا تحقيق لهم فيه، ولا يدرون كيف العواقب فوالله لا يَرِد هذا المنزل إلا المضمرون، ولا يفوز بالسّبق إلا المشمّرون، فخذ يا أخي لنفسك فحمدت الله تعالى بمحامد لم أسمع مثلها قطّ، وصلّت على رسول الله ﷺ بصلاة لم أسمع مثلها قطّ، ودَعَت بدعاء حَسَن رضي الله تعالى عنها.

(الحكاية الأربعون بعد الثلاث مئة: عن ذي النون أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت ببعض سواحل الشام امرأة، فقلت لها: من أين أقبلت؟ فقالت: من عند أقوام ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ [السجدة: ١٦] فقلت: أين تريدين؟ قالت: إلى ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذِكر الله﴾ [النور: ٣٧] فقلت: صفيهم لي، فأنشأت تقول:

قوم همومهم بالله قد علقت ... فما لهم هِمم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حُسْن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن ينازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذّات والولد
ولا لباس لثوب فائق أنِق ... ولا لروح سرور حلّ في بلد
فهم رهائن غدران وأودية ... وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد

رضي الله تعالى عنها.

(الحكاية الحادية والأربعون بعد الثلاثة مئة: عن ذي النون أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا مارّ على شاطىء البحر إذا بجارية مكشوفة الرأس مُسفِرة الوجه بلا خمار، فقلت لها يا جارية استري وجهك بخمار، فقالت: وما يصنع الخمار بوجه قد علاه الصغار؟ ثم قالت: إليك عني يا بطال، فإني شربت البارحة بكأس المحبة، فبتّ مسرورة، فأصبحت اليوم من حبّ مولاي مخمورة، فقلت: يا جارية أوصيني، قالت: يا ذا النون عليك بالسكوت، ولزوم البيوت، والرّضا بالقوت إلى أن تموت، رضي الله تعالى عنها.

(الحكاية الثانية والأربعون بعد الثلاث مئة: عن بعض السلف) قال: رأيت شابًا في سفح جبل عليه آثار القلق ودموعه تجري، فقلت: مَن أنت؟ قال: عبد آبق من مولاه، قلت: فتعود وتعتذر، قال: العذر يحتاج إلى إقامة حجة، فكيف يعتذر المقصّر؟ قلت: تتعلق بمَن يشفع لك، قال: كل أهل الشفاعة يخافون منه، قلت: مَن هو؟ قال: مولى رباني صغيرًا فعصيته كبيرًا، فواحيائي من حُسْن صنعه إليّ وقبح عملي، ثم صاح صيحة وخرّ ميتًا فخرجت عجوز فقالت: من أعان على قتل البائس الحيران رحمه الله تعالى؟

Marfat.com

فقلت: أقيم عندك أُعينك على تجهيزه؟ قالت: خَلِّه ذليلاً بين يدي قاتله عساه يراه بغير مُعين فيرحمه، ويقبله بكرمه وجوده.

(الحكاية الثالثة والأربعون بعد الثلاث مئة): رُوِيَ أن سُليمان بن عبد الملك[1] رحمه الله تعالى قال لأبي حازم رضي الله تعالى عنه: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمّرتم الدنيا وخرّبتم الآخرة، فإنكم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب، قال: صدقت يا أبا حازم، ليت شعري ما لنا عند الله غدًا؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله عزّ وجلّ، قال: وأين أجده من كتاب الله تعالى؟ قال: من قوله تبارك وتعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجّار لفي جحيم﴾ [الانفطار: ١٤] قال سليمان: وأين رحمة الله؟ قال: ﴿قريب من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦] قال سليمان: ليت شعري كيف العرض على الله تعالى؟ قال أبو حازم: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحًا مسرورًا. وأما المُسيء فكالآبق يقدم على مولاه خائفًا محسورًا، فبكى سليمان. وسُئِل أبو حازم رضي الله تعالى عنه: كيف تصلي؟ قال: إذا قرب وقت الصلاة أسبغت الوضوء بتمام فروضه وسُننه، ثم أستقبل القِبلة وأمثل البيت الحرام بين حاجبي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، والصراط تحت قدمي، والله سبحانه وتعالى مطّلع عليّ، وأظن أن صلاتي تلك لا أُصلي بعدها وأُكبِّر بتعظيم وأقرأ بتفكّر وأركع بتذلّل وأسجد بتواضع وأسلّم على التمام وأقوم على الوجل، ثم لا أدري أتُقبَل مني أم يُضرَب بها وجهي؟ قال له السائل: منذ كم تصلي هذه الصلاة؟ قال: منذ أربعين سنة، قال: وددت لو صلّيت في عمري كله صلاة واحدة من هذه الصلاة، فأكون من الفائزين.

(الحكاية الرابعة والأربعون بعد الثلاث مئة: عن صالح المري رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت في محراب داود عليه الصلاة والسلام عجوزًا عليها مدرعة شعر، وقد كُفَّ بصرها وهي تصلّي وتبكي، قال: فتركت صلاتي، ووقفت أنظر إليها فلما فرغت من صلاتها رفعت وجهها إلى السماء وجعلت تنشد:

أنت سؤلي وعصمتي في حياتي ... أنت ذخري وعمدتي في مماتي
يا عليمًا بما أكنّ وأخفي ... وبما في بواطن الخطراتِ
ليس لي مالك سواك فأرجو ... لدفع العظائم الموبقاتِ

---

(١) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان (٥٤ ـ ٩٩ هـ = ٦٧٤ ـ ٧١٧ م) أبو أيوب، الخليفة الأموي. ولد في دمشق، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد وكان بالرملة، فلم يتخلّف عن مبايعته أحد، فأطلق الأسرى وأخلى السجون وعفا عن المجرمين، وأحسن إلى الناس. حاصر القسطنطينية، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان، وتوفي في دابق. الأعلام ٣/ ١٣٠؛ وابن الأثير ٥/ ١٤؛ والطبري ٨/ ١٢٦؛ واليعقوبي ٣/ ٣٦.

Marfat.com

قال: فسلّمت عليها وقلت لها: ما الذي أوجب ذهاب عينيك؟ قالت: بكائي على ما فرّطت في مخالفته ومعصيته وما كان من تقصيري من ذكره في خدمته، فإن عفا عني عوّضني في الآخرة خيرًا منهما، وإن لم يعفُ عني فما حاجتي بعين تحترق في النار، قال: فبكيت رحمة لها، فقالت يا صالح أيخفّ عليك أن تقرأ عليّ شيئًا من كتاب مولاي، فقد طال وعزّته شوقي إليه، قال: فقرأت ﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾ [الأنعام: ٩١] فقالت: يا صالح مَن خدمه حقّ خدمته، ثم صرخت صرخة يتصدّع قلب مَن سمعها، وسقطت على وجهها، وإذا بها قد فارقت الدنيا، قال: ثم إني رأيتها بعد ذلك في المنام وهي في حالة حسنة، فسألتها عن أمرها كيف كان؟ فقالت: لمّا قبضت أوقفني بين يديه، وقال: أهلاً بمَن قتلها الأسف على تقصيرها في خدمتي، ثم ولّت وهي تقول:

جاد لي بالذي أؤمل منه وحباني بكلّ ما أرتجيه
في نعيم ولذّة وسرور أبدًا عنده أخلد فيه

رضي الله تعالى عنها.

(الحكاية الخامسة والأربعون بعد الثلاث مئة) قال المؤلف كان الله تعالى له وغفر له: أخبرني الشيخ عليّ التكروري المدفون في القرافة[1] رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وببركته أنه حضر في وقت ميعاد السماع، فورد عليه وارد ولبث مدة أخرى أنهارًا من خمر يُسقاها ولا يروى، ليست من خمر الدنيا، رأى ذلك في اليقظة، ثم صار بعد ذلك يرى نورًا، وكان حين يُسقَى يجد قوّة وأحوالاً لولا أنه كان يمسكه عند ذلك سبعة من الرجال الأقوياء لهام ورمى نفسه في المهالك، وحين رأى النور وجد ضعفًا، وسألني: أيّ الحالين أفضل، فقلت: هذا شيء لم يبلغه حالي فكيف أتكلم في شيء لا أعرفه؟ وأنشد بعضهم:

سقوني وقالوا لا تغن ولو سقوا جبال حُنَين ما سقوني لغنت

قلت: والظاهر والله أعلم أن رؤية النور المذكور من قبيل المعرفة، وشرب الخمر المذكور من قبيل المحبة، والمعرفة أفضل من المحبة عند الأكثرين من شيوخ الطريق أهل التحقيق. وقال سمنون المحبّ في المحبة أفضل وقال: ذهب المحبّون بشرف الدنيا والآخرة لقوله ﷺ: «المرء مع مَن أحبّ»[2] قال العارفون: المحبة استهلاك في لذّة،

---

(١) القرافة: مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحال واسعة وسوق قائمة ومشاهد للصالحين وترب للأكابر. (معجم البلدان ٤/٣١٧).
(٢) سبق تخريجه.

Marfat.com

والمعرفة شهود في حيرة وفناء في هيبة. وقال الشبلي رضي الله تعالى عنه: المحبّ إن سكت هلك، والعارف إن لم يسكت هلك. وقال أبو يزيد رضي الله تعالى عنه: العارف طيار، والزاهد سيّار. وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه: حقيقة المحبة أن تهب كلّك لمَن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء.

(الحكاية السادسة والأربعون بعد الثلاث مئة): قال الشيخ أبو الربيع المالقي رضي الله تعالى عنه: كنت ليلة في المسجد مع الشيخ أبي محمد سيد بن علي الفخار رضي الله تعالى عنه، وكان من أدبي معه أن لا أقوم لورِدي حتى يقوم، فقام ليلة وتوضأ وأنا مستيقظ في مضجعي، ثم استقبل القِبلة وقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ثم أخذ في ورده يتلو القرآن، فرأيت الحائط قد انشقّ وخرج منه شخص بيده زبدية[1] بيضاء فيها شهد[2] أبيض، فكلما فتح فمه لقمه ذلك الشخص لقمة من ذلك الشهد، فتعجبت مما رأيت، فاشتغلت به عن وردي، فلما أصبحت قلت: يا سيدي رأيت كذا وكذا، فذرفت عيناه بالدموع وقال لي: ذاك طيب القرآن يا أبا سُليمان.

(الحكاية السابعة والأربعون بعد الثلاثة مئة: عن إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه) قال: أتيت بعض البلاد، فنزلت في مسجد، فلما كان العشاء الأخيرة وصلّينا أتى إمام المسجد بعد انصراف الناس، فقال: قم فاخرج حتى أغلق الباب، فقلت: أنا رجل غريب أبيت هٰهنا، فقال: الغرباء يسرقون القناديل والحصر، فلا نترك أحدًا يبيت فيه ولو كان إبراهيم بن أدهم، قلت له: أنا إبراهيم بن أدهم، وكانت ليلة شاتية، فقال: كفى ما أنت فيه حتى تكذب، ثم قال: أكثرت، وعدا على رجلي فجرّني على وجهي حتى رماني على باب تنّور حمام ومضى، فقمت فرأيت الوقاد الذي يوقد في المستوقد، فقلت: أبيت عنده، فنزلت فوجدت رجلاً عليه قطعتا خيش، فسلّمت عليه فلم يردّ السلام، بل أشار أن اجلس. فجلست وهو خائف وَجِل ينظر تارة عن يمينه، وتارة عن شماله، فداخلني الخوف منه، فلما فرغ من وقوده التفت إليّ وقال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فقلت: عجبًا لِمَ لم تسلّم عليّ حين سلّمت عليك؟ فقال: يا هذا كنت أجير قوم فخفت أن أسلّم فأشتغل بالسلام فآثم وأخون، فقلت له: فرأيتك تنظر عن يمينك وشمالك أتخاف؟ قال: نعم، قلت: مِمَّ؟ قال: من الموت لا أدري من أين يأتي أمن يميني أم من شمالي؟ قلت: فبكَم تعمل كلّ يوم؟ قال: بدرهم ودانق، قلت: فما تصنع؟ قال: أتقوّت بالدانق أنا وأهلي، وأنفق الدرهم على أولاد أخ لي، قلت: أمن أمك وأبيك؟ قال: بل

---

(١) الزبدية: إناء من الخزف المحروق، مطليّ بالميناء، يخثر فيه اللبن (مج). (ج) زبادي وزبديات.

(٢) الشّهد: العسل غير مفصول عن شمعه (ج) شهاد.

Marfat.com

أحببته في الله عزّ وجلّ ومات، فأنا أقوم بأهله وأولاده، فقلت له: هل دعوت الله عزّ وجلّ في حاجة فأجابك؟ قال: لي حاجة أنا منذ عشرين سنة أدعو الله عزّ وجلّ فيها وما قضاها، قلت: وما هي؟ قال لي: بلغني أن في العرب رجلاً تميّز عن الزاهدين وفاق العابدين، يقال له: إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه دعوت الله عزّ وجلّ في رؤيته وأموت بين يديه، فقلت: أبشر يا أخي، فقد قضى الله تعالى حاجتك وقَبِلَ دعوتك، وما رضي لي أن آتيك إلا سحبًا على وجهي، قال: فوثب من مكانه وعانقني وسمعته يقول: اللّهمّ إنك قد قضيت حاجتي وأجبت دعوتي، اللّهمّ اقبضني إليك، فأجاب الله تعالى دعوته الثانية في الحال وسقط ميتًا رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما آمين.

(الحكاية الثامنة والأربعون بعد الثلاث مئة: عن الشيخ أبي يزيد القرطبي رضي الله تعالى عنه) قال: سمعت في بعض الآثار أن مَن قال: لا إلٰه إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار، فعملت ذلك على رجاء بركة الوعد، فعملت منها لأهلي، وعملت منها أعمالاً ادّخرتها لنفسي، وكان إذ ذاك في بيت معنا شاب يقال إنه يكاشف في بعض الأوقات بالجنة والنار، وكانت الجماعة ترى له فضلاً على صغر سنّه، وكان في قلبي منه شيء، فاتفق أن استدعانا بعض الإخوان إلى منزله، فبينما نحن نتناول الطعام والشراب وهو معنا، إذ صاح صيحة منكرة، واجتمع في نفسه وهو يقول: يا عمّ هذه أُمي في النار وهو يصيح بصياح عظيم لا يشكّ مَن سمعه أنه عن أمر؛ فلما رأيت ما به من الانزعاج قلت في نفسي: اليوم أجرّب صدقه، فألهمني الله تعالى السبعين ألفًا، ولم يطّلع على ذلك أحد إلا الله تعالى، فقلت في نفسي: الأثر حقّ، والذين رووه لنا صادقون، اللّهمّ إن السبعين الألف فداء هذه المرأة أمّ هذا الشاب من النار، فما استتمت الخاطر في نفسي حتى قال لي: يا عمّ ها هي أُخرجت، الحمد لله ربّ العالمين، فحصلت لي الفائدتان: إيماني بصدق الأثر، وسلامتي من الشاب وعلمي بصدقه رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما. وأنشد الشيخ أبو العباس بن العريف رضي الله تعالى عنه لنفسه:

سلوا عن الشوق مَن أهوى فإنهم ... أدنى إلى النفس من وهمي ومن نفسي
ما زلت مُذ سكنوا قلبي أصون لهم ... لحظي وسمعي ونطقي إذ هم أنسي
فمَن رسولي إلى قلبي ليسألهم ... عن مشكل من سؤال الصبّ ملتبسِ
لأنهضنّ إلى حشري بحبهم ... ولا أكون كمَن قد خانهم ونسي

قلت: قد غيّرت بعض ألفاظ النصف الأخير من البيت الرابع فإنه قال فيه.

لا بارك الله فيمن خانهم ونسي

فكرهت هذا الدعاء، لأنّا وعموم الخلق ما عدا الخواصّ لم نزل خائنين ناسين، وإنما قوله يناسب حاله وحال غيره من الصدّيقين والصادقين، وقد حذفت أيضًا من أبياته

Marfat.com

بيتين قبل البيت الأخير لمصلحة رأيتها، وهي خوف أن يتطرّق إلى الإنكار مَن ليس له فهم معاني أهل الأسرار رضي الله تعالى عنهم، وجعلنا منهم، ونفعنا بهم.

(الحكاية التاسعة والأربعون بعد الثلاث مئة: عن أبي القاسم الجُنَيد رضي الله تعالى عنه) قال: أرقت ليلة فقمت إلى وِردي، فلم أجد ما كنت أجد من الحلاوة، فأردت أن أنام فلم أرقد فقعدت فلم أطق القعود، ففتحت الباب وخرجت وإذا رجل ملتفّ بعباءة مطروح على الطريق، فلما أحسّ بي رفع رأسه وقال: يا أبا القاسم إليّ الساعة، فقلت: يا سيدي من غير موعد؟ فقال: بلى سألت محرّك القلوب أن يحرّك إليّ قلبك، قلت: قد فعل فما حاجتك؟ قال: متى يصير داء النفس دواءها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها، فأقبل على نفسه، فقال لها: اسمعي فقد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات، فأبيت إلا أن تسمعيه من الجُنَيد، فقد سمعت، فانصرف عني ولم أعرفه ولم أقف عليه رضي الله تعالى عنهما. وقال الشيخ خير النسّاج رضي الله تعالى عنه: كنت جالسًا في بيتي، فوقع لي أن الجُنَيد بالباب، فنفيت ذلك عن قلبي، فوقع ثانيًا وثالثًا، فخرجت فإذا بالجُنَيد، فقال: لِمَ لم تخرج مع الخاطر الأول، رضي الله تعالى عنهما.

(الحكاية الخمسون بعد الثلاث مئة): رُوِيَ أنه كان كرز الجرجاني رضي الله تعالى عنه يجتهد في العبادة، فقيل له في ذلك، فقال: كم بلغكم مقدار يوم القيامة؟ قالوا: مقدار خمسين ألف سنة، قال: فكم بلغكم عمر الدنيا؟ قالوا: سبعة آلاف سنة، قال: أفيعجز أحد أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم. قلت: هذا بالنسبة إلى عمر الدنيا المذكورة. وأما بالنسبة إلى عمر الواحد إذا عمّر مئة سنة مثلاً، فإنه يكون جميع عمره بالنسبة إلى يوم القيامة خمس عشر العشر. وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله تعالى عنه: دخلت على أبي سُليمان الداراني رضي الله تعالى عنه فوجدته يبكي، فقلت له: ما يُبكيك؟ فقال: يا أحمد ولِمَ لا أبكي، وإذا جنّ الليل ونامت العيون وخلا كلّ حبيب بحبيبه، وافترش أهل المحبة أقدامهم، وجَرَت دموعهم على خدودهم وقطرت في محاريبهم، أشرف الجليل سبحانه، فنادى جبريل عليه السلام بعيني مَن تلذّذ بكلامي، ثم يناديهم ما هذا البكاء، هل رأيتم حبيبًا يعذّب أحبابه، أم كيف يجمل بي أن أُعذّب أقوامًا إذا جنّهم الليل تملّقوا إليّ؟ فوعزّتي إذا وردوا عليّ يوم القيامة لأكشفنّ لهم عن وجهي حتى ينظروا إليّ وأنظر إليهم رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم. وقيل: كان بعضهم يسأل ربه تبارك وتعالى أن يكرمه ويستره، فقام ليلة إلى الصباح يصلّي ويبتهل إلى الله تعالى، فنظر إليه بعض أصحابه، فرأى فوق رأسه قنديلاً معلّقًا من النور يتشعشع لناظريه، فقيل له في ذلك، فقال:

يا صاحب السرّ إن السرّ قد ظهرا ولا أُريد حياة بعدما اشتهرا

Marfat.com

ثم سجد فقبضه الله في سجوده، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الحادية والخمسون بعد الثلاث مئة: عن إبراهيم بن شبيب رحمه الله تعالى) قال: كنّا نتجالس في يوم الجمعة بعد صلاتها، فإذا رجل عليه ثوب واحد ملتحِف به، فجلس إلينا وألقى مسألة، فما زلنا نتكلم في الفقه حتى انصرفنا، ثم جاءنا في الجمعة المقبلة فأحببناه وسألناه عن منزله، فأخبرنا به، وسألناه عن كنيته فقال: أبو عبد الله، فرغبنا في مجلسه، فمكثنا كذلك زمانًا، ثم انقطع عنّا، فاجتمعنا إليه وأتينا قريته وسألنا عنه، فقالوا: ذاك أبو عبد الله الصياد فذهب يصطاد والآن يأتي، فقعدنا ننتظره، فإذا هو قد أقبل متزرًا بخرقة، وعلى كتفه خرقة، ومعه أطيار مذبوحة وأطيار أحياء؛ فلما رآنا تبسّم إلينا، فقلنا: قد كنت عمّرت مجلسنا، فما غيبتك عنّا؟ قال: إذا أصدقكم كان لي جار كنت أستعير منه ذلك الثوب الذي كنت آتيكم به وقد سافر، ثم قال: هل لكم أن تدخلوا المنزل فتأكلوا من رزق الله تعالى؟ قال: فدخلنا وقعدنا، فدخل إلى امرأته وسلّم إليها الأطيار المذبوحة وأخذ الأطيار الأحياء فباعها في السوق واشترى خبزًا، وجاء وقد صنعت امرأته ذلك وهيّأته، فقدّم إلينا خبزًا ولحم طير وملحًا، فأكلنا وخرجنا، فقال الجماعة بعضهم لبعض ألا تنظرون إلى حال هذا الرجل وما هو فيه من الفقر، مع فضله وصلاحه وأنتم قادرون على أن تجمعوا له ما يقوم بحاله؟ قال: فاتفقوا على أن يجمعوا له ما يقوم بحاله وما يستعين به، وانصرفنا راجعين على عزم أن نأتيه بالذي وعدوا به وهو خمسة آلاف درهم؛ فلما مررنا بالمربد إذا بأمير البصرة محمد بن سليمان قاعد في منظرة[1] له، فقال: يا غلام ائتني بإبراهيم بن شبيب، قال: فأتيته فسألني عن قصّتنا ومن أين أقبلنا، فصدقته الحديث فقال: أنا أسبقكم إلى برّه، ثم استدعى بعشرة آلاف درهم ودفعها إلى غلام له فرّاش، وأمره أن يمشي بها معي إليه، ففرحت بذلك وقمت مسرعًا؛ فلما أتيت الباب سلّمت، فأجابني أبو عبد الله ثم خرج إليّ، فلما رأى الفرّاش والبدرة على عنقه تغيّر وجهه وقال: ما لي ولك يا هذا، أتريد أن تفتنني؟ فقلت: يا أبا عبد الله اقعد حتى أخبرك، إن القصة كيت وكيت، وإنه كما تعلم أحد الجبارين، يعني الأمير، فالله الله في نفسك، قال: فازداد عليّ غيظًا وقام ودخل وأغلق الباب في وجهي، ورجعت إلى الأمير ولم أجد بُدًا من الصدق فأخبرته، فقال حروريّ: والله يا غلام عليّ بالسيف، ثم قال له: اذهب مع هذا الغلام إلى هذا الرجل فاضرب عنقه وائتني برأسه، فقلت له: أصلح الله الأمير، الله الله في هذا الرجل فوالله لقد رأينا رجلاً ما هو من الخارج، ولكنني أذهب فآتيك به، قال:

(١) المنظرة: موضع في رأس الجبل وفيه رقيب ينظر العدو.

Marfat.com

ومقصودي بذلك الاقتداء منه، فاطمأن لذلك، فمضيت حتى أتيت الباب فسلّمت، فإذا المرأة تبكي، فقالت: ما شأنكم وشأن أبي عبد الله؟ فقلت: وما حاله؟ قالت: دخل فنزع ما عليه وتوضأ ثم صلّى وسمعته يقول: اللَّهمَّ اقبضني إليك ولا تفتنّي، ثم تمدّد وهو يقول ذلك، فلحقته وقد قضى نحبه وها هو ميت، فقلت لها: يا هذه إن لنا قصة عظيمة فلا تحدثوا فيه شيئًا، فجئت الأمير فأخبرته الخبر، فقال: أنا أركب فأُصلّي على هذا، وشاع خبره بالبصرة، فشهده الأمير وعامّة أهل البصرة رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبجميع الصالحين.

(الحكاية الثانية والخمسون بعد الثلاث مئة: عن محمد بن السماك رضي الله تعالى عنه) قال: كان لي جار بالكوفة له ولد يصوم النهار ويقوم الليل، وكان إذا جنّه الليل يبكي، وينشد ويقول:

لمّا رأيت الليل أقبل خاشعًا بادرت نحو مؤنسي بنحيبي
أبكي فتقلقني إليه صبابتي فأبيت مسرورًا بقرب حبيبي

فإذا كان آخر الليل يبكي ويقول:

فدرت في الليل إذ لاحت معالمه ما كان أنسي به فيه لمولايا
ضمنت في القلب حبًا قد كلفت به والله يعلم ما مكنون أحشايا

وقال محمد بن السماك: وكان أبوه شيخًا كبيرًا، فسألني يومًا أن أُكلّم ولده يرفق بنفسه، فبينما أنا ذات يوم جالس على باب داري ومعي جماعة من أصحابي، إذ مرّ الغلام فناديته: يا فتى أقبل إلينا، فأقبل فتأملته، فإذا هو قد صار كالشنّ البالي، لو هبّت الريح لرَمَت به من شدة الضعف، فسلّم وجلس، فقلت: حبيبي إن الله تعالى قد افترض عليك طاعة أبيك كما افترض عليك طاعته، ونهاك عن معصية أبيك كما نهاك عن معصيته، وإن أباك قد أمرنا بأمر فتأذن لنا في الكلام، فقال: يا عمّ لعلك تريد أن تأمرني بتقصير في العمل، وبترك المبادرة إلى الله عزّ وجلّ، فقلت له: لا والله بدون هذا تدرك هذا الشأن الذي تطلب إن شاء الله تعالى، فقال: هيهات يا عمّ، إني بايعت على هذا الشأن فتية من الحيّ على السباق إلى الله عزّ وجلّ جدّوا واجتهدوا، ودعوا فأجابوا، ولم يبقَ غيري، وإنما عملي يعرض عليهم في كل يوم مرّتين، فما يقولون إذا رأوا فيه خللاً أو تقصيرًا، ثم قال: يا عمّ إني بايعت على هذا الشأن فتية جعلوا الليل لهم مطية، فقطعوا بها عرض المفاوز، وسَموا بها ذرى الشواهق، فإذا أصبحوا نظرت إليهم قد ذبحهم الليل بسكاكين السهر، وفصلت أعضاؤهم بخناجر التعب، خمص البطون من السرى، لا يقرّ بهم القرار، ولا يجاورون الأشرار، دعوا فأجابوا الملك الجبار، قال ابن

السماك: فتركنا والله في حيرة ومضى، فما كان إلا ثلاثة أيام حتى قيل قد مات الفتى رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، وفي أمثاله قال القائل:

تجوّع للإله لكي يراه ... نحيل الجسم من طول الصيام
وقام لربه في الليل حتى ... أضرّ بجسمه طول القيام
سيُجزَى في جنان الخلد حورًا ... نواعم قاصرات في الخيام
ويلهو مع جِسان ناعمات ... جِوار الله في دار السلام

(الحكاية الثالثة والخمسون بعد الثلاث مئة): عن بعض السلف أن قومًا أمروا امرأة ذات جمال بالع أن تتعرّض للربيع بن خيثم رضي الله تعالى عنه لعلها تفتنه، وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب والحليّ وتطيّبت بأطيب ما قدرت عليه من الطيب، ثم تعرّضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها فراعَه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمّى بجسمك فغيّرت ما أرى من لونك وبهجتك، أم كيف بك لو نزل بك مَلَك الموت فقطع منك حبل الوتين، أم كيف بك لو قد سألك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة ووقعت مغشيًا عليها، قال: فوالله لقد أفاقت وبلغت من عبادة ربّها ما أنها كانت يوم ماتت كأنها جذع محترق.

(الحكاية الرابعة والخمسون بعد الثلاث مئة: عن الحسن رضي الله تعالى عنه) قال: كانت امرأة بغيّ في زمن بني إسرائيل، لها ثلث الحسن، لا تمكّن من نفسها إلا بمئة دينار، وأنه أبصرها عابد فأعجبته، فذهب يعمل بيده ويعالج فجمع مئة دينار، ثم جاء إليها وقال: إنك أعجبتيني، فانطلقت فعملت بيدي وعالجت حتى جمعت لك مئه دينار، فقالت له: ادخل، فدخل وكان لها سرير من ذهب، فجلست على سريرها ثم قالت له: هلمّ، فلما جلس منها مجلس الرجل من المرأة ذكر مقامه بين يدي الله تعالى، فأخذته رعدة، فقال لها: اتركيني أخرج ولكِ المئه دينار، قالت: ما بَدَا لك وقد زعمت أني أعجبتك، فلما قدرت عليّ فعلت الذي فعلت، قال: خوفًا من الله ومن مقامي بين يديه، وقد بغّضك إليّ، فأنت أبغض الناس إليّ، فقالت: إن كنت صادقًا فما لي زوج غيرك، فقال: دعيني أخرج، فقالت: لا، إلا أن تجعل لي أنك تتزوّج بي، قال: عسى أن يكون ذلك فتقنع بثوبه، ثم خرج إلى بلده فارتحلت بعده نادمة على ما كان منها حتى قَدِمَت بلده، فسألت عن اسمه ومنزله، فدُلّت عليه، وكانت تُعرَف بالملكة، فقيل له: إن الملكة قد جاءتك، فلما رآها شهق شهقة فمات رحمه الله، قال: فسقط في يدها، فقات: أما هذه فقد فاتني، فهل له من قريب، قالوا: أخوه رجل فقير، فقالت: أنا أتزوّج به حبًا لأخيه، فتزوّجته، فيسّر الله منها سبعة أبناء كلهم صالحون.

(الحكاية الخامسة والخمسون بعد الثلاث مئة: عن رجاء بن عَمرو النخعي) قال: كان في الكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبّد والاجتهاد، وكان أحد الزّهّاد، فنزل في جوار قومٍ من النخع، فنظر إلى جارية منهم جميلة فهويها وهام بها عقله، ونزل بها مثل الذي نزل به فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبر أبوها أنها مُسمَّاة لابن عمٍ لها، فاشتدّ عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى، فأرسلت إليه أنه قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتدّ بلائي بك، فإن شئت زرتك وإن شئت سهّلت لك أن تأتيني إلى منزلي، فقال للرسول: لا واحدة من هاتين الخصلتين ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ [يونس: ١٥] أخاف نارًا لا يخبو سعيرها ولا يخمد لهيبها، فلما انصرف الرسول إليها وأبلغها ما قال، قالت: وأراه مع ذلك زاهدًا يخاف الله، والله ما أحد أحقّ بهذا الأمر من أحد، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها خلف ظهرها ولبست المُسوح وجعلت تتعبّد، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبًّا للفتى وأسفًا عليه حتى ماتت، فكان الفتى يأتي إلى قبرها، فرآها في منامه وكأنها في أحسن منظر، فقال لها: كيف أنتِ وما لقيتِ؟ فقالت:

نِعْمَ المحبة يا حبي محبتنا حبًّا يقود إلى خير وإحسان

فقال على أثر ذلك: إلامَ صرت؟ فقالت:

إلى نعيم وعيش لا زوال له في جنة الخلد ملك ليس بالفاني

فقال لها: اذكريني هناك فإني لست أنساك، فقالت: ولا أنا والله أنساك، ولقد سألت ربي مولاي ومولاك، فأعنّي على ذلك بالاجتهاد، ثم ولّت مُدبِرة، فقال لها: متى أراكِ؟ قالت: ستأتينا عن قريب، فلم يعش الفتى بعد تلك الرؤيا إلا سبع ليالٍ، رحمة الله عليهما.

(الحكاية السادسة والخمسون بعد الثلاث مئة: عن كعب الأحبار[1] رحمه الله تعالى) قال: إنَّ رجلاً من بني إسرائيل أتى فاحشة، فدخل نهرًا يغتسل فيه، فناداه الماء: يا فلان أما تستحي، ألم تَتُب من هذا الذنب وقلت إنك لا تعود إليه، فخرج من الماء فزعًا وهو يقول: ما بقيت أعصي الله أبدًا، فأتى جبلاً فيه اثنا عشر رجلاً

---

(١) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري (توفي ٣٢ هـ = ٦٥٢ م) أبو إسحق، تابعي. كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقَدِمَ المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسُّنَّة عن الصحابة. وخرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها، عن مئة وأربع سنين. الأعلام ٥/٢٢٨؛ وتذكرة الحفّاظ ١/٤٩؛ وحلية الأولياء ٥/٣٦٤ ثم ٦/٣؛ والإصابة ت ٧٤٩٨؛ والنجوم الزاهرة ١/٩٠.

يعبدون الله عزّ وجلّ، فلم يزل معهم حتى قحط موضعهم، فنزلوا يطلبون الكلأ، فمرّوا على ذلك النهر، فقال لهم ذلك الرجل: أما أنا فلست بذاهب معكم، قالوا: ولِمَ؟ قال: لأن ثَمَّ مَن اطَّلع مني على خطيئة، فأنا أستحي منه أن يراني فتركوه ومضوا، فناداهم النهر: ألا أيها العباد ما فعل صاحبكم؟ قالوا: زعم أن هٰهنا مَن قد اطّلع منه على خطيئة فهو يستحي منه أن يراه، قال: سبحان الله العظيم إن أحدكم يغضب على ولده أو على بعض قراباته، فإذا تاب ورجع إلى ما يحبّ أحبّه، وإن صاحبكم قد تاب ورجع إلى ما أحبّ فأنا أُحبه فائتوه وأخبروه، واعبدوا الله على شاطئي، فأخبروه فجاء معهم فأقاموا يعبدون الله زمانًا، ثم إن صاحب الفاحشة توفي، فناداهم النهر: يا أيها العباد والعبيد الزهّاد غسّلوه من مائي وادفنوه على شاطئي حتى يُبعَث يوم القيامة من قُربي، ففعلوا ذلك به وقالوا: نبيت ليلتنا هذه على قبره، فإذا أصبحنا سرنا، فباتوا على قبره؛ فلما جاء وقت السحر غشيهم النعاس فأصبحوا وقد أنبت الله عزّ وجلّ على قبره اثنتي عشرة سروة[1]، وكان أوّل سرو أنبته الله على وجه الأرض، قالوا: ما أنبت الله عزّ وجلّ هذا السرو في هذا المكان إلا وقد أحبّ الله عبادتنا فيه، فأقاموا يعبدون الله عزّ وجلّ عند قبره، كلما مات واحد منهم دفنوه إلى جانبه إلى أن ماتوا كلهم، قال كعب الأحبار: فكان بنو إسرائيل يحجّون إلى قبورهم رضي الله تعالى عنهم.

(الحكاية السابعة والخمسون بعد الثلاث مئة: عن كعب الأحبار أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: انطلق رجلان من بني إسرائيل إلى مسجد من مساجدهم فدخل أحدهما وجلس الآخر خارجًا، فجعل يقول: ليس مثلي يدخل بيت الله، وقد عصيت الله، فكتب صدّيقًا. قال: وأصاب رجل من بني إسرائيل ذنبًا فحزن عليه وجعل يجيء ويذهب ويقول: بِمَ أُرضي ربي بِمَ أُرضي ربي؟ فكُتِبَ صِدِّيقًا. وحُكِيَ عن الشبلي رضي الله تعالى عنه أنه قال: كنت في قافلة بالشام، فخرج الأعراب فأخذوها، وجعلوا يعرضونها على أميرهم، فخرج جراب فيه سكر ولوز، فأكلوا منه ولم يأكل الأمير، فقلت له: لِمَ لا تأكل؟ فقال: أنا صائم، فقلت: تقطع الطريق وتأخذ الأموال وتقتل النفس وأنت صائم؟ فقال: يا شيخ اترك للصلح موضعًا، فلما كان بعد حين رأيته يطوف حول البيت وهو محرم، وقد أنحلته العبادة حتى صار كالشنّ البالي، فقلت له: أنت ذاك الرجل، فقال: نعم ذلك الصيام أوقع الصلح بيني وبينه رحمة الله تعالى عليه.

---

(١) السّرو: شجر حرجي قويم الساق حسن الهيئة. يُستفاد من خشبه، وهو دائم الخضرة من فصيلة الصنوبريات.

Marfat.com

(الحكاية الثامنة والخمسون بعد الثلاث مئة: عن الأصمعي[1] رحمه الله تعالى) قال: أقبلت ذات يوم من المسجد الجامع بالبصرة، فبينما أنا في بعض سِكَكِها، إذ طلع أعرابي جلف جافّ على قعود له، متقلّد بسيفه وبيده قوس، فدَنا وسلّم عليّ وقال: ممّن الرجل؟ قلت: من بني الأصمع، قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم، قال: ومن أين أقبلت؟ قال: من موضعٍ يُتلَى فيه كلام الرحمٰن، قال وللرحمٰن كلام يتلوه الآدميون؟ قلت: نعم، قال: اتلُ عليّ شيئًا منه، فقلت له انزل عن قعودك، فنزل فابتدت بسورة الذاريات حتى انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [الذاريات: ٢٢] قال: يا أصمعي هذا كلام الرحمٰن عزّ وجلّ؟ قلت: إي والذي بعث محمدًا ﷺ بالحقّ إنه لكلامه الذي أنزله على نبيّه ﷺ، فقال لي: حسبك ثم قام إلى راحلته فنحرها وقطعها بجلدها، وقال: أعنّي على تفريقها، ففرّقناها على مَن أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه، فكسرهما وجعلهما تحت الرمل وولّى مُدبِرًا نحو البادية وهو يقول: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ فأقبلت على نفسي باللوم وقلت: لِم لم تنتبهي لما انتبه له هذا الأعرابي، فلما حججت مع الرشيد دخلت مكة المشرّفة، فبينما أنا أطوف بالكعبة إذ هتف بي هاتف بصوت دقيق، فالتفتّ فإذا أنا بالأعرابي نحيلاً مصفرًّا، فسلّم عليّ وأخذ بيدي فأجلسني من وراء المقام وقال لي: اتلُ عليّ كلام الرحمٰن، فأخذت في سورة الذاريات، فلما انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ صاح الأعرابي أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقًّا، ثم قال: وهل غير هذا؟ قلت: نعم، يقول الله عزّ وجل: ﴿فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون﴾ [الذاريات: ٢٣] فصاح الأعرابي صيحة وقال: سُبحان الله، مَن أغضب الجليل حتى حلف، ألم يصدّقوه حتى ألجؤوه إلى اليمين، قالها ثلاثًا، فخرجت فيها نفسه، رحمة الله تعالى عليه.

(الحكاية التاسعة والخمسون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أنه خرج عطاء الأزرق إلى الجبّانة يصلّي بالليل، فعرض له لصّ، فقال: اللّٰهمّ اكفنيه كيف شئت، فيبست يداه ورِجلاه، فجعل يبكي ويصيح: والله لا أعود أبدًا، فأطلق فاتبعه وقال: أسألك بالله مَن أنت؟ قال: أنا عطاء، فلما أصبح جعل يسأل: أتعرفون رجلاً صالحًا يخرج بالليل إلى

(١) هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي (١٢٢ ـ ٢١٦ هـ = ٧٤٠ ـ ٨٣١ م) أبو سعيد الأصمعي راوية العرب. وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. مولده ووفاته في البصرة. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ويُتحِف بها الخلفاء، وكان الرشيد يسمّيه «شيطان الشعر» وتصانيفه كثيرة منها «الأضداد» و«المترادف» و«الخيل» و«الدارات» وغير ذلك. الأعلام ٤/١٦٢؛ وجمهرة الأنساب ص ٢٣٤؛ وابن خلكان ١/٢٨٨؛ وتاريخ بغداد ١٠/٤١٠؛ ونزهة الألباب ١٥٠.

Marfat.com

الجبّانة يصلّي؟ قالوا: نعم عطاء السلمي، فذهب إلى عطاء السلمي فدخل عليه وقال: إني جئتك تائبًا من قضية كذا وكذا، فادعُ الله لي، فرفع عطاء يديه إلى السماء وجعل يبكي ويقول: ويحك ليس ذاك أنا إنما ذاك عطاء الأزرق رضي الله تعالى عنهما وعن جميع الصالحين ونفعنا بهم أجمعين آمين. ورُوِيَ أنه دخل الشيخ أبو الحسن النوري رضي الله تعالى عنه في الماء ليغتسل، فجاء اللصّ وأخذ ثيابه ومشى، ثم بعد ساعة رجع اللصّ بالثياب وقد يبست يده، فلبس النوري ثيابه وقال: إلٰهي رددت عليّ ثيابي فاردد عليه يده، فعوفِيَ ومشى من ساعته، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الستون بعد الثلاث مئة: عن كعب الأحبار رحمه الله تعالى) قال: قحط بنو إسرائيل على عهد موسى ﷺ، فسألوه أن يستسقي لهم، فقال: اخرجوا معي إلى الجبل، فخرجوا، فلما صعدوا الجبل، قال موسى: لا يتبعني رجل أصاب ذنبًا. فانصرفوا جميعًا إلا رجلاً أعود يقال له: برخ العابد، فقال له موسى: ألم تسمع ما قلت؟ قال: بلى قال: فلم تصب ذنبًا؟ قال: ما أعلمه إلا شيئًا أذكره لك فإن كان ذنبًا رجعت، قال: ما هو؟ قال: مررت في طريق فإذا باب حجرة مفتوح، فلمحت بعيني هذه الذاهبة شخصًا لا أعلم ما هو أرجل أم امرأة؟ فقلت: لعيني أنت من بين بدني سارعت إلى الخطيئة، لا تصحبيني بعدها أبدًا فأدخلت أصبعي فقلعتها، فإن كان هذا ذنبًا رجعت، قال موسى: ليس هذا ذنبًا، ثم قال له: استسقِ يا برخ فقال: قدّوس قدّوس ما عندك لا ينفد وخزائنك لا تفنى وأنت بالبخل لا تُرمَى، فما هذا الذي لا تعرف به، اسقنا الغيث الساعة الساعة، قال: فانصرفا يخوضان في الوحل برحمة الله عزّ وجلّ.

(الحكاية الحادية والستون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أنه لحق بني إسرائيل قحط أيضًا على عهد موسى ﷺ، فاجتمع الناس إليه، فقالوا: يا نبيّ الله ادعُ لنا ربك أن يسقينا الغيث، فقام معهم فخرجوا إلى الصحراء وهم سبعون ألفًا أو يزيدون، فقال موسى عليه السلام: إلٰهي اسقنا غيثك، وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرُّضّع والبهائم الرُّتّع، والشيوخ الرُّكّع، فما زادت السماء إلا صحوًا، ولا الشمس إلا حرًّا، فقال موسى: إلٰهي إن كان قد خلق جاهي عندك، فأنا أسألك بجاه النبيّ الأُميّ محمد ﷺ الذي تبعثه في آخر الزمان اسقنا، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ما خلق جاهك عندي، وإنك عندي وجيه، ولكن فيكم عبد يُبارزني بالمعاصي منذ أربعين سنة، فنادِ بالناس حتى يخرج من بين أظهركم؛ فبه منعتكم الغيث فقال موسى إلٰهي وسيدي أنا عبد ضعيف وصوتي ضعيف، فأين يبلغ إليهم وهم سبعون ألفًا أو يزيدون أو ينقصون، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه منك النداء وعليّ البلاغ، فقام مناديًا وقال: يا أيها العبد العاصي الذي يبارز الله عزّ وجلّ منذ أربعين سنة بالمعاصي، اخرج من بين أظهرنا فبِكَ مُنِعْنا المطر، فقام العبد

Marfat.com

العاصي فنظر ذات اليمين وذات الشمال، فلم يرَ أحدًا خرج، فعلم أنه المطلوب، فقال في نفسه: إن أنا خرجت من بين هؤلاء الخلق افتُضِحْتُ على رؤوس بني إسرائيل، وإن قعدت معهم مُنِعوا لأجلي، فأدخل رأسه في ثيابه نادمًا على فِعاله وقال: إلٰهي وسيدي عصيتك أربعين سنة وأمهلتني، وقد أتيتك طائعًا فاقبلني، فلم يستتمّ الكلام حتى ارتفعت سحابة بيضاء، فأمطرت كأفواه القِرَب، فقال موسى: إلٰهي وسيدي بماذا سقيتنا ولم يخرج من بين أظهرنا أحد، فقال: يا موسى سقيتكم بالذي به منعتكم، فقال موسى: إلٰهي أرِني هذا العبد الطائع فقال: يا موسى إني لم أفضحه وهو يعصيني أفأفضحه وهو يطيعني، يا موسى إني أبغض النمّامين أفأكون نمّامًا.

(الحكاية الثانية والستون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أن ثلاثة نفر خرجوا يستسقون في زمن داود عليه السلام، فقال أحدهم: اللَّهمّ إنك أمرتنا أن نعفو عمّن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعفُ عنّا. وفي هذا المعنى قلت:

تعاليت ربي أنت إذ قد أمرتنا ... بعفو وصفح عن مُسيءٍ لنا ظلم
وها نحن ربي قد ظلمنا نفوسنا ... وأنت الذي بالعفو أولى وبالكرم

وقال الثاني: اللَّهمّ إنك أمرتنا أن نعتق عبيدنا إذا شابوا في خدمتنا، وقد شبنا في خدمتك فتفضل علينا بعتقنا، وأنشدوا في هذا المعنى:

إنّ الملوك إذا شابت عبيدهم ... في رقهم أعتقوهم عتق أبرار
فأنت أولى بذا يا سيدي كرمًا ... قد شِبْتَ في الرّقّ أعتقني من النار

وقال الثالث: اللّهمّ إنك أمرتنا أن لا نردّ المساكين إذا وقفوا ببابنا، وها نحن مساكين قد وقفنا ببابك، فجُدْ علينا بفضلك وإحسانك وعظيم امتنانك. وأنشدوا:

أتيناك في ركب المطامع والرجا ... وقد كاد جيش اليأس يذهب بالأمل
فإن جُدْتَ بالعفو الذي أنت أهله ... هزمنا سرايا عسكر الخوف والوجل

وأنشدوا أيضًا:

أتيناك نرجو الفضل فامنُن تفضّلاً ... علينا وجُدْ يا ذا المكارم والعُلى
فأنت الذي يُرجَى ويكثر فضله ... إذا انسدّت الأبواب وانقطع الرّجا

وأنشد بعضهم:

قَدِمتُ عليك يا ربّ البرايا ... فآمِن روعتي يوم القدومِ
فكيف لا أخاف ولي ذنوب ... قَدِمتُ بها على الملك العظيمِ
وما قَدِمتُ بين يديّ زادًا ... ولكني قَدِمتُ على كريمِ

Marfat.com

(الحكاية الثالثة والستون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أنه لمّا وَلِيَ عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه الخلافة، قال: رعاء الشاء في رأس الجبال: مَن هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس؟ فقيل لهم: وما أعلمكم بذلك؟ قالوا: إنه إذا قام خليفة صالح كفّ الذئاب والأسد عن شِياهنا. وقال لعمري رضي الله تعالى عنه لهارون الرشيد رحمه الله تعالى وهو يسعى وقد صعد الصفا[1]: يا هارون، قال له: لبَّيك يا عمّ، قال: ارمِ بطرفك إلى التراب، قال: قد فعلت، قال: انظر إليهم كم هم؟ قال: ومَن يحصيهم؟ قال: فكم في الناس مثلهم؟ قال: خَلْق لا يحصيهم إلا الله، قال: اعلم أيها الرجل أنّ كل واحد منهم يسأل عن خاصّة نفسه وأنت وحدك تسأل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون؟ فبكى هارون ثم قال العمري: وأخرى أقولها، قال: قل يا عمّ، قال: والله إن الرجل ليُسْرِف في ماله فيستحقّ الحَجْر عليه، فكيف بمَن أسرف في مال المسلمين؟ ثم مضى وهارون يبكي. وقال أيضًا رضي الله تعالى عنه: مَن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مخافة المخلوقين نزعت منه هيبة الله، فلو أمر ولده أو بعض مواليه لم يطعه. وقال أيضًا رضي الله تعالى عنه: من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله بأن ترى ما يسخطه فتجوز ولا تأمر ولا تنهى خوفًا ممّن لا يملك لك ضُرًّا ولا نفعًا.

(الحكاية الرابعة والستون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ عن بعض المشايخ أنه كانت عنده دنيا واسعة ينفقها في وجوه الخير، فقال له بعض أصحابه يومًا: يا سيدي أخرج هذه الدنيا كلها عنك وتجرّد عنها، فذلك أليق بك كما هو عادة المشتغلين بالله المُعرِضين عمّا سواه، فقال له الشيخ: دونك أُنفق جميع ما ترى عندي ولا تدع شيئًا، فأخرج الفقير جميع ذلك وأنفقه كله في يومه فلما كان اليوم الثاني أقبلت الدنيا من كلّ مكان إلى الشيخ، واجتمع عنده أكثر مما كان، فقال الشيخ للفقير: إذا كان الله تعالى يريد شيئًا فلا نقدر نخرج عن إرادته. وقال بعضهم: إذا كان حبّ الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، وإذا سكن حبّ الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة. وقال السيد الجليل الإمام النبيل الوليّ المقرّب سعيد بن المسيب[2] رضي الله تعالى عنه: إن الدنيا نذلة، وهي إلى كل نذل أَمْيَل، وأنذل منها مَن أخَذها بغير حقها، وطلبها بغير وجهها، ووضعها في غير سبيلها. وقال: إنه ليس من شريف ولا عالِم ولا

---

(١) الصّفا: اسم أحد جبلي المسعى من مشاعر الحج بمكة.

(٢) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي (١٣ ـ ٩٤ هـ = ٦٣٤ ـ ٧١٣ م) أبو محمد سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته حتى سُمّي راوية عمر. توفي بالمدينة. الأعلام ٣/١٠٢؛ وطبقات ابن سعد ٥/٨٨؛ والوفيات ١/٢٠٦؛ وصفة الصفوة ٢/٤٤؛ وحلية ٢/١٦١.

Marfat.com

ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس مَن لا ينبغي أن تُذكَر عيوبه، فمَن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله.

(الحكاية الخامسة والستون بعد الثلاث مئة: عن بعض السلف) قال: كان لقمان عبدًا حبشيًا لرجل جاء به إلى السوق ليبيعه، فكان لقمان كلما جاء إنسان يشتريه قال له: ما تصنع بي؟ فإذا قال له: أصنع بك كذا وكذا، قال: حاجتي إليك أن لا تشتريني، حتى جاء رجل، فقال له لقمان: ما تصنع بي؟ قال: أُصَيِّرك بوّابًا على بابي، قال: اشترني، فاشتراه وجاء به إلى داره، وكان لمولاه ثلاث بنات يبغين في القرية، أراد أن يخرج إلى ضيعة له، فقال له: إني قد أدخلت إليهنّ طعامهنّ وشرابهنّ وما يحتجن إليه، فإذا خرجت فأغلق الباب واقعد من ورائه ولا تفتحه حتى أجيء، فلما خرج فعل ما أمره به مولاه، فقال له البنات: افتح الباب، فأبى عليهنّ، فشججنه ورجعن، فغسل الدم وجلس، فلما قَدِمَ سيده لم يخبره، ثم أراد سيده الخروج أيضًا، وقال له: إني قد أدخلت إليهنّ ما يحتجن إليه، فلا تفتح الباب؛ فلما خرج خرجن إلى لقمان وقلن له: افتح الباب فأبى، فشججنه ثانية ورجعن، فجلس، فلما أتى مولاه لم يخبره بشيء، فقالت الكبيرة منهنّ: ما بال هذا العبد الحبشيّ أولى بطاعة الله عزّ وجلّ مني؟ والله لأتوبنّ، فتابت؛ فقالت الصغرى: ما بال هذا العبد الحبشيّ وهذه الكبرى أولى بطاعة الله عزّ وجلّ مني؟ والله لأتوبنّ، فتابت؛ فقالت الوسطى: ما بال هذا العبد الحبشي وهاتين الأختين أولى بطاعة الله عزّ وجلّ مني، والله لأتوبنّ، فتابت، فقالت غُواة القرية: ما بال هذا العبد الحبشي وبنات فلان أولى بطاعة الله تعالى منّا؟ والله لنتوبنّ، فتاب الجميع إلى الله سبحانه وتعالى، وصاروا عبّاد القرية، رحمهم الله تعالى.

(الحكاية السادسة والستون بعد الثلاث مئة: عن الشبلي رضي الله تعالى عنه) أنه كان يقول: ليت شعري ما اسمي عندك يا علاّم الغيوب وما أنت بي صانع يا غفّار الذنوب، وبِمَ تختم عملي يا مقلّب القلوب؟ ثم أنشد:

ليت شعري كيف ذكري ... عند مَن يعلم سرّي ... أجميل أم قبيح
أم بخير أم بشرّ ... ليت شعري كيف حالي ... يوم إحضاري وحشرِ
ليت شعري كيف موتي ... بيقين أم بكفر ... أرى يقبل قولي
أم ترى يشرح صدري ... ليت شعري أين أمضي ... لنعيم أم لجمر
فدعوا مدحي ووصفي ... فأنا أعرف قدري

وقال بعضهم: رأيت الشبلي قائمًا يتواجد، وقد خرق ثوبه وهو يقول:

شققت جيبي عليك شقًا ... وما لجيبي عليك حقًا ... أردت قلبي فصادفته
يداي بالجيب إذ توقى ... لو كان قلبي مكان جيبي ... لكان للشقّ مستحقا

Marfat.com

(الحكاية السابعة والستون بعد الثلاث مئة: عن حاتم الأصمّ رضي الله تعالى عنه) قال: مَن دخل في مذهبنا فليجعل على نفسه أربع خِصال من الموت: موتًا أبيض وهو الجوع، وموتًا أسود، وهو احتمال الأذى من الخلق، وموتًا أحمر وهو العمل ومخالفة الهوى، وموته أخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض. وحُكِيَ عن عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: رأيت راهبًا وعليه مدرعة شعر سوداء، فقلت له: ما الذي حملك على لبس السواد؟ قال: هو لباس المحزونين، وأنا من أكبرهم، فقلت له: ومن أيّ شيء أنت محزون؟ قال: لأني أصبت في نفسي، وذلك أني قتلتها في معركة الذنوب فأنا حزين عليها، ثم أسبل دمعه فقلت له: ما الذي أبكاك الآن؟ قال: ذكرت يومًا مضى من أجلي لم يحسن فيه عملي، فبكائي لقلّة الزّاد وبُعْد المفازة، وعقبة لا بدّ من صعودها، ثم لا أدري أين يهبط بي، إلى الجنة أم إلى النار؟ ثم أنشد:

يا راكبًا يطوي مسافة عمره ... بالله هل تدري مكان نزولكا
شمّر وقم من قبل حطّك في الثرى ... في حفرة تبلى يطول حلولكا

(الحكاية الثامنة والستون بعد الثلاث مئة: عن سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه) قال: قال لي محمد بن واسع رضي الله تعالى عنه يومًا: هل توافقني في زيارة رجل من أولياء الله عزّ وجلّ؟ قلت له: نعم، فدخل الدار وخرج ومعه كسرة خبز فخرجنا من البصرة ثم انتهينا إلى منزله وهو بعيد من العمران ووقفنا ببابه، فسمعنا بُنَيَّات له يخاصمنه في شأنهنّ وما هنّ فيه من رثاثة الحال، فقال لهنّ: إن الذي خلقكنّ وشقّ أفواهكنّ وخلق لكنّ أضراسًا وبطونًا، أرحم بكنّ منكنّ لأنفسكنّ، قال: فاستأذنا عليه، فقال: مَن هذا؟ فقلنا: محمد وسفيان، فخرج إلينا وقال: ما الذي جاء بكما؟ فقال محمد بن واسع: كسرة أتيت بها لتلك البنات، فقال: هاتها جئت بها في وقتها، فدخلنا وجلسنا معه حتى سمعنا استئذان رجل، فقال: مَن هذا؟ قال: مالك بن دينار، فخرج إليه وقال: ما الذي جاء بك؟ فقال: أتيت بدرهمين لتلك البنات، فقال: سبقك بها محمد بن واسع، جاءهنّ بما يكفيهنّ اليوم، قال: فخذهما واخبأهما لهنّ إلى غد، فقال أتخوفني يا مالك، والله لا تدخل إليّ، قال سفيان: فقال لي محمد: ترى مقام هذا الرجل وما هو فيه من رثاثة الحال، فقلت: هذا من الفضلاء، قال: أجل، قلت: من الزهّاد؟ قال: أجل، قلت: من العباد؟ قال: أجل، فلم أذكر له المقامات وهو يقول أجل أجل حتى قال هذا من الفقراء الصابرين رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم.

(الحكاية التاسعة والستون بعد الثلاث مئة: عن بعض الصالحين) قال: رأيت شابًا عليه عباءة وبيده ركوة، فقال لي: إني إنسان أقصد الورع فلا آكل إلا ما ألقاه الناس، فربما أجد قشرة بشيء قد سبقني إليها النمل، فألقيه وأتناول تلك القشرة، فهل عليّ في

Marfat.com

ذلك شيء؟ قال: فقلت في نفسي: ما بقي على وجه الأرض مَن يتورّع بمثل هذا الورع، فنظرت فإذا الرجل واقف على أرض من فضة بيضاء وقال لي: الغيبة حرام، وغاب عن بصري. قيل: معنى الحكاية أنه لمّا ترك ما حجب الخلق عن الله أكرمه الله بنور الإشراق، أو قال بنور الإشراف حتى نطق عمّا خطر بقلبه من الإنكار، ثم أخفاه الله تعالى عنه بشؤم الاعتراض، وهكذا سُنّة الله في أوليائه أن يسترهم عمّن لا يبلغ رتبتهم، ولا يصل إلى منزلتهم. وقال الشيخ أبو الخير الأقطع رضي الله تعالى عنه: ما بلغ أحد إلى حالة شريفة ومرتبة عالية إلا بملازمة الموافقة ومعاناة الأدب وأداء الفرائض وصحبة الصالحين وخدمة الفقراء الصادقين، رضي الله تعالى عنهم، ونفع بهم أجمعين.

(الحكاية السبعون بعد الثلاث مئة: عن بعضهم) قال: اجتمع جماعة من الفقراء فذهبوا يزورون رجلاً أسود كان ناطورًا يقال له: مقبل، فمضيت معهم، فدخلنا إلى مكان فيه باذنجان كثير، وفيه رجل أسود قائم يصلّي، فسلّمنا وجلسنا إلى أن سلّم، فأخرج كيسًا فيه كِسَر خبز يابس وملح جريش، وقال: كلوا، فأكلنا، وأخذ الجماعة يذكرون كرامات الأولياء وهو ساكت، فقال له بعض الجماعة: يا مقبل قد زرناك فما تحدّثنا بشيء؟ فقال: أيّ شيء أنا وأيّ شيء عندي أخبركم به، أنا أعرف رجلاً لو سأل الله أن يجعل هذا الباذنجان ذهبًا لفعل، قال: فوالله ما استتمّ كلامه حتى رأينا الباذنجان يتّقد ذهبًا، فقال له بعضهم: يا مقبل لا سبيل لأحد أن يأخذ من هذا الباذنجان أصلاً واحدًا، فقال له: خذ، فأخذ أصلاً فقلعه بعروقه وجميع ما فيه من ذهب، فوقعت من الأصل باذنجانة صغيرة وشيء من الورق، فأخذته وبقاياه معي إلى يومي هذا، ثم صلّى مقبل ركعتين وسأل الله تعالى أن يُعيده كما كان ففعل، وعاد مكان ذلك الأصل المقطوع أصل آخر باذنجان، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به.

(الحكاية الحادية والسبعون بعد الثلاث مائة): رُوِيَ عن عُمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه أنه قيل له لمّا حضرته الوفاة: تركت أولادك فقراء لا شيء لهم، فقال: أولادي أحد رجلين: إما رجل يتّقي الله فسيجعل الله له مخرجًا وهو يتولى الصالحين، وإما رجل مكبّ على المعاصي فلا أُقوّيه على معاصي الله عزّ وجلّ. وكان رضي الله تعالى عنه يؤتي بالحلّة قبل أن يَلِي الخلافة بألف درهم فيقول: ما أحسنها لولا خشونة فيها، ويؤتى بالحلّة وهو في الخلافة بأربعة دراهم، أو بستة فيقول: ما أحسنها لولا نعومة فيها، فقيل له في ذلك؟ فقال: إن لي نفسًا توّاقة ذوّاقة إذا تاقت إلى شيء وذاقته تاقت إلى ما فوقه، فلم تزل تتوق وتذوق إلى أن ذاقت الخلافة فتاقت إلى ما فوقها فلم نجد شيئًا فوقها إلا ما عند الله في الدار الآخرة فتاقت إليه، ولا يمكن الوصول إليه إلا بترك الدنيا، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. وسُئِلَ حاتم الأصمّ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به:

فِيمَ أفنيت عمرك؟ فقال: في أربعة أشياء: علمت أني لا أخلو من نظر الله تعالى طرفة عين فاستحييت أن أعصيه، وعلمت أن لي رزقًا لا يجاوزني وقد ضمنه لي فوثقت به وقعدت عن طلبه، وعلمت أن عليّ فرضًا لا يؤدّيه غيري فاشتغلت به، وعلمت أن لي أجَلاً يبادرني فبادرته، واستعديت للدار الآخرة، فأنا مشغول بما ألقاه من كرم الله وثوابه وعقابه.

(الحكاية الثانية والسبعون بعد الثلاث مئة: عن إبراهيم بن الأشعث رحمه الله) قال: سمعت الفُضَيل بن عياض رضي الله تعالى عنه ليلة وهو يقرأ سورة محمد ﷺ ويبكي ويردِّد هذه الآية الكريمة ﴿ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [محمد: ٣١] وجعل يقول: وتبلو أخبارنا، ويردِّد: وتبلو أخبارنا، ويقول: إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا، إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا، إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا، وسمعته يقول: تزينت للناس يا فُضيل وتصنّعت للناس وتهيّأت لهم ولم تزل تُرائي حتى عرفوك، فقالوا: رجل صالح، فقضوا لك الحوائج، ووسّعوا لك في المجالس، وعظّموك وبجّلوك بخلاف غيرك خيبة لك، ما أسوأ حالك إن كان هذا شأنك وفعالك؛ وسمعته يقول: إن قدرت أن لا تعرف فافعل، وما عليك إن لم يُثْنَ عليك عند الناس، وما عليك أن تكون مذمومًا عندهم إذا كنت عند الله محمودًا، وما تدري ما أنت غدًا مُلاقٍ خيبة أو سرورًا، أما تذكر فعالك؟ أما تقصر آمالك، أما تترك أشغالك وأثقالك؟ فلست تدري ما يكون حالك، بخ بخ لك إن قيل نجوت، وآه آه إن قيل: شقوت، اللّهمّ تب علينا وسامحنا بلطفك يا عظيم، أدخِل عظيم جرمنا في عظيم عفوك وكرمك يا أرحم الراحمين.

(الحكاية الثالثة والسبعون بعد الثلاث مئة: عن محمد بن واسع رضي الله تعالى عنه) قال: أقمت أشتهي كبدًا مشويًا أربعين سنة، فقلت يومًا: أخرج إلى الجهاد فلعلّ أن يقع في سهمي شاة فآكل منها شهوتي، فخرجت مع الناس إلى الجهاد فقاتلنا في المشركين وغنمنا، وأخذت في سهمي شاة، فسألت بعض أصحابي أن يشوي لي كبدها فأخذتني هجعة[1] فنمت فرأيت ملائكة نزلوا من السماء فكتبوا فلان خرج مجاهدًا ليُقال شجاع، وهذا خرج لغنيمة، وهذا خرج للمفاخرة، قال: ثم وقفوا عليّ وقالوا: شهواني مسكين، اشتهى كبدًا مشويًا، فقلت: بالله لا تفعلوا فأنا تائب إلى الله عزّ وجلّ ثم قلت: يا ربّ لا أعود يا ربّ لا أعود ثلاثًا إني تائب إليك من سائر الشهوات، رضي الله تعالى عنه.

---

(١) الهجعة: النومة الخفيفة من أول الليل.

Marfat.com

(الحكاية الرابعة والسبعون بعد الثلاث مئة): قال أبو تُراب النخشبي رضي الله تعالى عنه: ما تمنّت نفسي شيئًا من الشهوات إلا مرة واحدة تمنّت نفسي خبزًا وبَيضًا وأنا في سفر، فعدلت إلى قرية فقام واحد وتعلق بي وقال: هذا كان مع اللصوص، فضربني سبعين درّة ثم عرفني رجل منهم فقال: هذا أبو تراب النخشبي، فاعتذروا إليّ وحملني رجل إلى منزله وقدّم لي خبزًا وبيضًا، فقلت لنفسي: كُلي سبعين درّة. وأنشدوا:

إذا طالبتك النفس يومًا بشهوة ... وكان عليها للخلاف طريق
فخالف هواها ما استطعت فإنما ... هواها عدوّ والخلاف صديق

وقال بعض الصالحين عرضت عليّ الدنيا بزينتها وزخارفها وشهواتها فأعرضت عنها ثم عرضت عليّ الآخرة بحورها وقصورها وزينتها فأعرضت عنها، فقيل لي: لو أقبلت على الدنيا حجبناك عن الآخرة، ولو أقبلت على الآخرة حجبناك عنّا، فها نحن لك وقسمتك من الدارين تأتيك. وقال أبو يزيد البسطامي رضي الله تعالى عنه: رأيت ربي في المنام، فقلت: كيف أجدك؟ فقال: فارق نفسك وتعال. وقال أحمد بن خضرويه رأيت ربّ العزّة في المنام فقال لي: يا أحمد كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد فإنه يطلبني. وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه: رأيت جبريل ﷺ في المنام وبيده قرطاس فقلت: ما تصنع به؟ قال: أكتب أسماء المُحِبِّين، فقلت: أكتب تحتهم من المحبين إبراهيم بن أدهم، فنودي يا جبريل اكتبه أو لهم رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الخامسة والسبعون بعد الثلاث مئة): قال المؤلف كان الله له: رأيت قبرًا في بعض البلاد يُزار فزُرته وسألت عنه أهل البلد فقالوا: كان في هذا البلد رجل غريب فقير فمرض ثم مات فكفّنه إنسان من أهل البلد يعرفه، فلما كان الليل رآه ذلك الإنسان الذي كفّنه في المنام، وقد خرج من قبره وجاء بحلّة من حرير وقال: خذ هذه الحلّة عوض الثوب الذي كفّنتني فيه، ثم استيقظ من منامه والحلّة عنده، وهذه الحكاية مشهورة في ذلك البلد مستفيضة عندهم. قال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: والناس في محبة الله عزّ وجلّ عامّ وخاص: فالعوامّ أحبّوه لكثرة نِعَمه ودوام إحسانه إلا أن محبتهم تقلّ وتكثر. وأما الخواصّ فأحبّوه لما عرفوا من صفاته وأسمائه الحسنى، واستحقّ المحبة عندهم لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النِّعَم. وقال أبو تُراب النخشبيّ رضي الله تعالى عنه في علامات المحبة هذه الأبيات:

لا تخدعنّ فللمحبّ دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعّمه بمرّ بلائه ... وسروره حقًّا بما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبرّ عاجل

Marfat.com

ومن الدلائل أن نرى من عزمه طوع الحبيب وإن ألحّ العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسّمًا والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهّمًا لكلام مَن يحظى لديه السائل

(الحكاية السادسة والسبعون بعد الثلاث مئة: عن بعض الصالحين) قال: كان لي صديق ابتلاه الله بالجذام[1] حتى ذهبت يداه ورِجلاه وعيناه، فأتيت به المجذومين وجعلته معهم، وكنت أتعاهده فغفلت عنه أيامًا ثم ذكرته فأتيته وقلت: إني غفلت عنك، فقال: إن لي مَن لا يغفل عني، فقلت: والله ما ذكرتك، فقال: إن لي مَن يذكرني، ثم قال: إليك عني، فقد شغلتني عن ذكر الله، فما لبث غير أيام يسيرة وتوفي، فأخرجت كفنًا في طول، فقطعت ما فضل عنه وكفّنته ودفنته، فبينما أنا في منامي إذا برجل قد وقف عليّ لم أرَ أحسن منه وجهًا ولا صورة، وقال: بخلت علينا بكفن طويل، دونك كفنك وقد رددناه عليك، وقد كفّنّا في السندس والاستبرق، قال: فاستيقظت من منامي وإذا أنا بالكفن عند رأسي، رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به وبجميع الصالحين آمين.

(الحكاية السابعة والسبعون بعد الثلاث مَئة): حُكِيَ أنَّ شابًا كان يحضر مجلس بعض علماء السّلف الوعّاظ، وكان الشاب إذا سمع الواعظ يقول: يا ستّار يهتزّ كما تهتزّ السعفة[2]، فقيل له في ذلك، فقال الشام: اعلموا أني كنت أخرج في زيّ النساء وأحضر كلّ موضع فيه وليمة أو عرس تجتمع فيه النساء، فحضرت يومًا عرسًا لبنت بعض الملوك، فسرق عقد لبنت الملك، فصاحوا أن أغلقوا الباب وفتّشوا النساء، ففتشوهنّ واحدة واحدة حتى لم يبقَ إلا امرأة واحدة وأنا، فدعوت الله عزّ وجلّ وأخلصت النيّة والتوبة، وقلت: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا أبدًا، فوجدوا العقد مع المرأة التي بقيت، فقالوا: أطلقوا المرأة الأخرى، يعنوني، فأطلقوني وحالي مستور، فمن حينئذ إذا سمعت ذكر الستّار أذكر ستره عليّ، ويأخذني ما رأيتم من الاهتزاز. اللّهمّ يا ستّار العيوب، ويا غفّار الذنوب، ويا مقلّب القلوب، ويا كاشف الكروب استر عيوبنا، واغفر ذنوبنا وأصلح قلوبنا واكشف كروبنا وهمومنا وغمومنا، وارزقنا حُسْن الخاتمة يا كريم برحمتك يا أرحم الراحمين. آمين ثم آمين يا رب العالمين بجاه طه و يس

(الحكاية الثامنة والسبعون بعد الثلاث مئة: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت امرأة تسبح على طريق التوكّل، وعليها مدرعة من شعر ومقنعة من صوف، فقلت لها: يرحمك الله ليس السياحة للنساء، فقالت: **إليك عني يا مغرور**، ألست تقرأ كتاب الله تعالى؟ قلت: بلى، قالت: **اقرأ بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿الم تكن**

(١) الجُذام: علّة تتأكّل منها الأعضاء وتتساقط. (٢) السّعفة: ورقة أو غصن النخل.

Marfat.com

أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ [النساء: ٩٧] فعلمت أنها مليّة بالعلم، فقلت لها: بأيّ شيء عرفت الله؟ قالت: عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله، فقلت لها: ما هو اسم الله الأعظم؟ قالت: هو اسم الله الأعظم، رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها. وقال السريّ رضي الله تعالى عنه: اشتريت جارية للخدمة فكانت تخدمني دهرًا طويلاً وهي تكتم أمرها، ولها محراب تصلّي فيه؛ فلما كان في بعض الليالي وجدتها وهي تصلّي تارة وتناجي ربّها تارة، فسمعتها تقول: بحبك لي إلا فعلت لي كذا وكذا، فناديتها عند ذلك يا هذه لا تقولي هكذا، ولكن قولي بحبي إياك، فقالت: يا سيدي لولا حبه إياي ما أقعدك وأقامني؛ فلما أصبحت دعوت بها وقلت: إنك لا تصلحين لخدمتي، بل تصلحين لخدمة مولاك الأكبر، اذهبي فأنت حرّة لوجه الله تعالى، ثم وصلتها بشيء وسرّحتها وندمت على مفارقتها، رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها.

(الحكاية التاسعة والسبعون بعد الثلاث مئة: عن أبي عامر الواعظ رحمه الله تعالى) قال: رأت جارية يُنادَى عليها بثمن لا قدر له، فنظرت إليها فإذا بها قد لصق بطنها بظهرها وتلبّد شعرها، واصفرّ لونها، فاشتريتها رحمة لها، فقلت لها: اذهب بنا إلى السوق لنأخذ حوائج رمضان، فقالت: الحمد لله الذي جعل الأشهر عندي شهرًا واحدًا، ولم يجعل لي شغلاً بالدنيا، قال: فكانت تصوم النهار وتقوم الليل، فلما قرب العيد، قلت لها: إذا كان الصباح فبكّري بنا إلى السوق لنأخذ حوائج العيد، فقالت: يا مولاي ما أعظم شغلك بالدنيا، ثم دخلت وأقبلت على صلاتها، ولم تزل تتلو آية بعد آية حتى بلغت قوله تعالى: ﴿ويسقى من ماء صديد﴾ [إبراهيم: ١٦] الآية فلم تزل تكرّرها حتى صاحت صيحة فارقت فيها الدنيا، رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها.

(الحكاية الثمانون بعد الثلاث مئة): قال بعض الصالحين: خرجت إلى السوق ومعي جارية حبشية، فأجلستها في مكان منه، وقلت لها: لا تبرحي حتى أعود إليك، فذهبت ثم عدت إلى المكان فلم أجدها فيه، فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فجاءتني وقالت لي: يا مولاي لا تعجل عليّ، فإنك أجلستني بين قوم لا يذكرون الله، فخشيت أن ينزل بهم خسف وأنا معهم، فقلت لها: هذه الأمة قد رفع عنها الخسف إكرامًا لنبيّها محمد ﷺ، فقالت: إن رفع عنها خسف المكان فما رفع عنها خسف القلوب؛ يا مَن خسف بمعرفته وقلبه وهو في غفلة من بلائه وكربه، بادر إلى حميتك ودوائك قبل موتك وفنائك، ثم أنشدت:

هلمّوا بنا نذري الدموع تأسّفًا ... بلاء المعاصي فوق كل بلاءِ
لعلّ إلهي أن يمنّ بجمعنا ... فقد طال في سجن الفراق عنائي
فيا مهجتي لا تتركي الحزن ساعة ... ويا مقلتي هذا أوان بكائي

Marfat.com

(الحكاية الحادية والثمانون بعد الثلاث مئة: عن أبي الحسين الديلمي رحمه الله تعالى) قال: وصف لي إنسان أسود بأنطاكية يتكلم على القلوب فقصدته، فلما رأيته أبصرت معه شيئًا من المباحات يريد أن يبيعه، فساومته وقلت له: بكم تبيعه هذا؟ فنظر إليّ ثم قال: اقعد حتى أبيع هذا وأعطيك شيئًا من ثمنه فإنك جائع منذ يومين، قال: وكنت جائعًا منذ يومين فتغافلت كأني لم أسمع ما قال، وذهبت عنه وساومت غيره، ثم أعدت إليه وقلت له: بكم تبيع هذا؟ فنظر إليّ وقال: اقعد فإنك جائع منذ يومين حتى إذا بعنا نعطيك من ثمنه شيئًا، قال: فوقع في قلبي منه هيبة، فلما باع ذلك أعطاني منه شيئًا ومضى، ومضيت خلفه لعلي أستفيد منه شيئًا يقوله، فالتفت إليّ وقال: إذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله إلا أن يكون لنفسك فيها حظّ فتحجب عن الله، ومَن علم أن الله كافية لا يستوحش من إعراض الخلق عنه، ولا يستأنس بإقبال الخلق عليه ثقة بأن الذي قسم له لا يفوته وإن أعرضوا عنه والذي لم يقسم له لا يصل إليه وإن أقبلوا عليه.

(الحكاية الثانية والثمانون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ عن بعضهم أنه دخل على بعض الفقراء فلم يجد في بيته شيئًا من المتاع، فقال له: أما لكم شيء من المتاع؟ قال: بلى لنا داران: إحداهما دار أمن، والأخرى دار خوف، فما يكون لنا من الأموال ندّخره في دار الأمن، يعني نقدّمه لدار الآخرة، فقال له: إنه لا بدّ لهذا المنزل من متاع، فقال: إن صاحب هذا المنزل لا يدعنا فيه. وقيل: الدنيا عارية أو وديعة، ولا بدّ للمُعير أن يرجع في عاريته وللمودع أن يأخذ وديعته وأنشدوا:

وما المال والأهلون إلا وديعة ... ولا بدّ يومًا أن تُرَدُّ الودائع

(الحكاية الثالثة والثمانون بعد الثلاث مئة: عن بعض الصالحين) قال: كان بالبصرة رجل يقال له: ذكوان، وكان سيّدًا في زمانه، فلما حضرته الوفاة لم يبق أحد بالبصرة إلا شهد جنازته قال: فلما انصرف الناس من دفنه نمت عند بعض القبور، وإذا مَلَك قد نزل من السماء وهو يقول: يا أهل القبور قوموا لأخذ أجوركم، فانشقّت القبور عن أهلها وخرج كلّ مَن كان فيها، فغابوا ساعة ثم جاؤوا وذكوان في جملتهم وعليه حلّتان من الذهب الأحمر مرصّع بالدّرّ والجوهر، وبين يديه غلمان يسبقونه إلى قبره، وإذا مَلَك ينادي هذا عبد كان من أهل التقوى، فبنظرة واحدة وصلت إليه المِحَن والبلوى، فامتثلوا فيه أمر المولى، فقرب من جهنم فخرج إليه منها لسان أو قال: ثعبان فلدغ بعض وجهه، فاسودّ ذلك الموضع ونادى: يا ذكوان لم يَخْفَ عن المولى من أمرك شيء، هذه النفخة بتلك النظرة ولو زدت لزدناك، فبينما أنا كذلك وإذا برجل قد أطلع رأسه من قبره فقال: يا هؤلاء ما أردتم فوالله لقد متّ منذ تسعين سنة فما ذهبت

Marfat.com

مرارة الموت مني حتى الآن، فادعوا الله أن يعيدني كما كنت، قال: وبين عينيه أثر السجود. وأنشدوا:

أفلست تدري أنَّ يومك قد دنا ... أوَلست تدري أن عمرك ينفد

فعلامَ تضحك والمَنِيَّة قد دَنَت ... وعلامَ ترقد والثرى لك مرقد

(الحكاية الرابعة والثمانون بعد الثلاث مئة: عن بعض الصالحين) قال: خطر لي أن أزور رابعة العدوية رضي الله تعالى عنها وأنظر أصادقة هي في دعواها أم كاذبة؟ فبينما أنا كذلك وإذا بفقراء قد أقبلوا ووجوههم كالأقمار وروائحهم كالمسك، فسلّموا عليّ وسلّمت عليهم، وقلت من أين أقبلتم؟ فقالوا يا سيدي حديثنا عجيب، فقلت لهم: وما هو؟ فقالوا: نحن من أبناء التجّار المتموّلين، فكنّا عند رابعة العدوية رضي الله تعالى عنها في مصر، فقلت: وما سبب ذهابكم إليها؟ قالوا: كنّا ملتهين بالأكل والشرب في بلدنا، فنُقِلَ لنا حُسْن رابعة العدوية وحُسْن صوتها وقلنا لا بدّ أن نذهب إليها ونسمع غناءها وننظر إلى حُسنها، فخرجنا من بلدنا إلى أن وصلنا إلى بلدها فوصفوا لنا بيتها وذكروا لنا أنها قد تابت، فقال أحدنا: إن كان قد فاتنا حُسْن صوتها وغنائها فما يفوتنا منظرها وحُسنها، فغيّرنا حِليتنا ولبسنا لُبس الفقراء وأتينا إلى بابها، فطرقنا الباب فلم نشعر إلا وقد خرجت وتمرّغت بين أقدامنا وقالت: قد سعدت بزيارتكم لي، فقلنا لها: وكيف ذلك؟ قالت: عندنا امرأة عمياء منذ أربعين سنة، فلما طرقتم الباب قالت إلٰهي وسيدي بحرمة هؤلاء الأقوام الذين طرقوا الباب إلا ما رددت عليّ بصري، فردّ الله عليها بصرها في الوقت، قال: فعند ذلك نظر بعضنا إلى بعض وقلنا: ترون إلى لطف الله بنا لم يفضح سريرتنا؟ فقال الذي أشار علينا بلبس الفقراء: والله لا عُدت أقلع هذا اللباس من عليّ وأنا تائب إلى الله عزّ وجلّ على يدي رابعة، فقلنا له: نحن وافقناك على المعصية، ونحن أيضًا نوافقك على الطاعة والتوبة، فتُبنا كلنا على يديها وخرجنا عن أموالنا جميعها وصرنا فقراء كما ترى، رضي الله تعالى عنهم.

(الحكاية الخامسة والثمانون بعد الثلاث مئة: عن بشر بن الحارث رضي الله تعالى عنه) قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: يا بشر أتدري لِمَ رفعك الله من بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: باتّباعك لسُنّتي، وخدمتك للصالحين، ونصحك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي، هو الذي بلغك منازل الأبرار. وقيل: تعلق رجل بامرأة في بغداد فتعرّض لها، فأبت أن تمكّنه من نفسها، وكلّ مَن جاء ليخلصّها منه طعنه بسكين معه، وكان رجلاً شديدًا، فبينما الناس حوله والمرأة تصيح في يده، إذ مرّ بشر بن الحارث رضي الله تعالى عنه، فدَنَا منه وحكّ كتفه بكتفه، فوقع الرجل إلى الأرض وهربت المرأة ومضى بشر، فدَنَا الناس من الرجل فإذا هو يرشح عرقًا كثيرًا،

Marfat.com

فسألوه عن حاله، فقال: ما أدري، ولكن حكّ كتفي شيخ وقال: إن الله ناظر إليك وإلى ما تعمل، فصعقت لقوله وهبته هيبة شديدة، ولا أدري مَن ذلك الرجل؟ فقيل له: ذاك بشر بن الحارث، فقال: واسوأتاه كيف ينظر إليّ بعد اليوم، وحُمّ الرجل من يومه ومات يوم السابع، رحمه الله تعالى.

(الحكاية السادسة والثمانون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أنه خرج أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه من بيته ليلة، فوجد حارسًا قد تعلّق برجل وامرأة خلق الدرب وهو يقول لهما: لا بدّ أن أرفعكما إلى الوالي، فدَنا منهم أبو الحسين وقال للحارس: خلِّ عنهما واسترهما فأبى الحارس، فضمن له شيئًا يدفعه إليه، فأبى فأخرج من كمّه منديلاً فيه دراهم، ونزع رداءه ودفع الجميع إليه، وقال: خلِّ عنهما وخذ هذا كله وأنا أجيء معك تسلّمني إلى الوالي كما شئت، فقال له الحارس: على أنك لا تنكر ما أقول فيك؟ قال: نعم، فأخذ ذلك وخلّى سبيلهما، وجعل الحارس ثوبًا في عنق الشيخ وجعل يقوده حتى وقف على صاحب الشرطة، فقال: إني وجدت هذا مع امرأة خلف الدرب، فقال الوالي لأبي الحسين: ما تقول؟ قال: نعم كنت أنا وهو وامرأة معنا، فقال: ليس وجهك وجه مَن يفعل هذا، ثم قال للحارس: أصدقني وإلا عاقبتك فحدّثه بالحديث، فتاب الوالي والحارس، ومضى الشيخ أبو الحسين رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية السابعة والثمانون بعد الثلاث مئة: عن سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه) قال: صعدت جبل قاف، فرأيت سفينة نوح مطروحة فوقه. وقيل لأبي يزيد رضي الله تعالى عنه: هل بلغت جبل قاف؟ فقال: حبل قاف أمره قريب، بل جبل كاف وجبل صاد وجبل عين وهي جبال محيطة بالأرض، حول كل أرض جبل بمنزلة حائطها وجبل قاف بهذه الأرض أصغر الأرضين، وهو أيضًا أصغر الجبال، وهو جبل من زمرّدة[1] خضراء وقيل: إن خضرة السماء من خضرته. ورُوِيَ أن الدنيا كلها خطوة للوليّ. وحُكِيَ أن وليًا من أولياء الله تعالى احتاج إلى النار فرفع يده إلى القمر فاقتبس منه جذوة في خرقة كانت معه.

(الحكاية الثامنة والثمانون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ أن بعض السلف نام في وقت متوسّد، فأتاه آتٍ في منامه فقال له: قل، قال: ما أقول؟ قال قل:

يـا حـرّ إنـك إن تـوسّـد لـيـنـا ... وسدت بعد الموت صمّ الجندل[2]

فاعمل لنفسك في حياتك صالحًا ... فـلـتـنـدمـنّ غـدًا إذا لـم تـفـعـل

---

(١) الزمرّد: حجر بلّوري كريم لونه يراوح بين الأخضر والأزرق. ضروبه عديدة.

(٢) الجندل: الحجارة أو الصخر.

Marfat.com

وقال ابن المبارك رضي الله تعالى عنه: إنَّ الصالحين فيما مضى كانت نفوسهم تواتيهم على الخير عفوًا، وأن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا على كره، فينبغي لنا أن نكرهها. قلت: يعني بقوله عفوًا مطاوعة من غير جهد وعقوبة. وقال بعض السلف: يا ابن آدم إن كنت لا تريد أن تأتي الخير إلا عن نشاط فإن النفس إلى السآمة والفتور والمَلَل أقرب، ولكن المؤمن هو المشدد، والمؤمن هو المتوفِّى، والمؤمن هو العجاج إلى الله بالليل والنهار، والله ما زال المؤمنون يقولون: ربنا ربنا ربنا في السرّ والعلانية حتى استجاب لهم. وقال الشيخ أبو الربيع المالقي رضي الله تعالى عنه: سيروا إلى الله عرجًا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة، فإن انتظار الصحة بطالة.

(الحكاية التاسعة والثمانون بعد الثلاث مئة): عن صالح المري رضي الله تعالى عنه قال: خرجت يومًا أُريد زيارة أبي جهير الضرير، وكان قد خرج من البلد وبنى له مسجدًا يتعبّد فيه فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بمحمد بن واسع، فقال لي: إلى أين؟ فقلت: أُريد أبا جهير، قال: وأنا أُريده، فمضينا وإذا نحن بحبيب العجمي، فقال: أين تريدان؟ قلنا: أبا جهير، قال: وأنا أُريده، فمضينا وإذا نحن بمالك بن دينار رضي الله تعالى عنه، فقال لنا: أين تريدون؟ فقلنا: أبا جهير، فقال: وأنا أُريده، وإذا بثابت البناني رضي الله تعالى عنه فقال مثل ما قالوا، وأجاب بمثل ما أجابوا، وقال: الحمد لله الذي جمعنا؛ قال: فمضينا من غير ميعاد، فلما انتهينا إلى موضع حسن قال لنا ثابت البناني: تعالوا نصلِّ هنا ركعتين حتى يشهد لنا يوم القيامة عند ربّنا عزّ وجلّ، ثم أتينا منزل أبا جهير رضي الله تعالى عنه فجلسنا وكرهنا أن نستأذن عليه، حتى إذا كان وقت الظهر خرج فأذّن وأقام الصلاة وصلّى، فصلّينا معه، وقام إليه محمد بن واسع فقال: مَن أنت؟ قال: أنا أخوك محمد بن واسع، قال: أنت الذي يقال إنك أفضل أهل البصرة صلاة؟ فسكت، ثم قام إليه ثابت البناني فقال له: مَن أنت؟ قال: ثابت البناني، قال: أنت الذي يقال إنك أكثر أهل البصرة صلاة؟ فسكت، ثم قام إليه مالك بن دينار فقال: مَن أنت؟ قال: مالك بن دينار، قال: بخ بخ أنت الذي يقال إنك أزهد أهل البصرة؟ فسكت، ثم قام إليه حبيب العجمي فقال: مَن أنت؟ قال: حبيب العجمي، قال: أنت الذي يقال إنك مُستَجاب الدعاء؟ فسكت؛ قال صالح المري: ثم قمت إليه فقال: مَن أنت؟ قلت: صالح المري، قال: أنت الذي يقال إنك أحسن أهل البصرة صوتًا؟ ثم قال: إني كنت إلى صوتك مشتاقًا، هات اقرأ عليّ خمس آيات من كتاب الله عزّ وجلّ، قال صالح فاستفتحت فقرأت ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ [الفرقان: ٢٢]، فلما انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿هباء منثورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] شهق شهقة وغشي عليه، فلما أفاق قال: أعد عليّ قراءتك، فأعدت عليه، فشقه شهقة أخرى فارق الدنيا رحمة الله عليه، فخرجت زوجته وقالت:

Marfat.com

مَن أنتم؟ فأخبرناها، فقالت: ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾ [البقرة: ١٥٦] مات أبو جهير؟ قلنا: نعم آجرك الله فيه، فمن أين علمت؟ قالت: من كثرة ما سمعت منه يقول في دعائه: اللّهمّ أحضر موتي أولئك، فعلمت أنكم لم تجتمعوا إلا لموته، فغسّلناه وكفّنّاه وصلّينا عليه ودفنّاه، رضي الله تعالى عنه وعنهم.

(الحكاية التسعون بعد الثلاث مئة: عن أبي سُليمان المغربي رضي الله تعالى عنه) قال: كنت أحمل الحطب من الجبل وأتقوّت من ثمنه، وكان طريقي فيه التوقّي والتحرّي، فرأيت في المنام جماعة من البصريين منهم الحسن البصري وفرقد السبخي ومالك بن دينار، رضي الله تعالى عنهم، فسألتهم عن علم حالي؛ فقلت: أنتم أئمة المسلمين، دلّوني على الحلال الذي ليس لله تعالى فيه تَبِعَة، ولا للخلق فيه مِنّة، فأخذوا بيدي وأخرجوني من طرسوس إلى برج فيه حبارى[1]، فقالوا لي: هذا الحلال الذي ليس لله عزّ وجلّ فيه تَبِعَة ولا لمخلوق فيه مِنّة فمكثت آكل منه ثلاثة أشهر شِواءً ومطبوخًا في دار السبيل، فظهر لي حديثه، فقلت: هذه فتنة، فخرجت من دار السبيل ومكثت آكله ثلاثة أشهر أخرى، فأوجد لي الله قلبًا طيّبًا حتى قلت: إن كان أهل الجنة في هذا القلب فهم والله العظيم في شيء طيب، وما كنت آنس بكلام الخلق فخرجت يومًا إلى بعض الصهاريج فجلست عنده، وإذا أنا بفتى قد أقبل من ناحية لامش[2] يريد طرسوس، وقد بقي معي قطعيات من ثمن الحطب الذي كنت أجيء به من الجبل، فقلت: أنا قد قنعت بالحُبارى، أعطي هذه القطعيات لهذا الفقير إذا دخل طرسوس يشتري بها شيئًا يأكله، فلما دَنا مني أدخلت يدي إلى جيبي حتى أخرج الخرقة، فإذا بالفقير قد حرّك شفتيه وإذا كلّ ما حولي من الأرض ذهب متّقد يكاد يخطف بصري، ولبسني منه هيبة عظيمة، فجاز لم أقدر أن أُسلّم عليه من هيبته، ثم رأيته بعد ذلك في بعض الأيام خارج طرسوس جالسًا تحت برج من الأبرجة وبين يديه ركوة فيها ماء، فسلّمت عليه ثم استدعيت منه موعظة فمدّ رِجله وقلب الماء ثم قال: إن كثرة الكلام تنشّف الحسنات كما أنشفت الأرض هذا الماء قم يكفيك هذا، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به.

(الحكاية الحادية والتسعون بعد الثلاث مئة: عن بعض السائحين في جبال بيت المقدس) قال: نزلت على رجل فقال: امضِ بنا نعزّي جارًا لنا مات أخوه، فذهبت معه إليه، فإذا برجل جزع لا يقبل العزاء، فقلنا له: يا هذ اتّقِ الله عزّ وجلّ واعلم أن الموت

---

(١) الحُبارى: طائر أكبر من الدجاج الأهلي وأطول عنقًا، رمادي اللون على شكل الإوزة (للذكر والأنثى). يُضرَب به المثل في البلاهة.

(٢) لامش: من قرى فرغانة. (معجم البلدان ٥/٨).

Marfat.com

سبيل لا بدّ لنا منه وهو آتٍ على الخلق أجمعين، قال: قد علمت أن الأمر على ما تقولون: ولكني أجزع على ما يُمسي أخي فيه ويُصبح، فقلنا له: يا سبحان الله هل أطلعك الله على الغيب؟ قال: لا، ولكني لمّا دفنته وسوّيت عليه التراب إذا بصوت من القبر يقول: أوّه، فقلت: أخي والله أخي، فكشفت التراب فقيل لي: يا عبد الله لا تكشفه، فرددت عليه التراب، فلما ذهبت أقوم قال: أوّه، قلت: أخي والله أخي، ثم كشفت التراب فقيل لي: لا تفعل، فرددت عليه التراب كما كان، فلما ذهبت أقوم إذا به يقول: أوّه، فقلت: والله لا تركت نبشه، فنبشته فإذا هو مطوّق في وسطه بطوق من نار وقد التمع عليه القبر نارًا فطمعت أن أقطع هذا الطوق، فضربته بيدي لأقطعه فذهبت أصابعي قال: ثم أظهر لنا يده فإذا أصابعه الأربع قد ذهبت، قال: فأتيت الأوزاعي[1] رضي الله تعالى عنه فحدّثته وقلت له: يا أبا عمرو يموت اليهودي والنصراني وغيرهم من الكفّار فلا يُرَى فيهم مثل هذا، ويموت هذا على التوحيد والإسلام ويرى هذا فيه؟ قال: نعم، أولئك لا شكَّ أنهم من أهل النار، وإنما يُريكم الله عزّ وجلّ هذا في أهل التوحيد لتعتبروا؛ اللَّهمَّ سامحنا واعفُ عنّا والطف بنا يا لطيف.

(الحكاية الثانية والتسعون بعد الثلاث مئة: عن أبي جعفر الفرغاني رضي الله تعالى عنه) قال: كنت عند بعض إخواننا من الصوفية بالدينور[2] فجاء قوم من الأكراد[3] ليشتروا لهم متاعًا ثم قالوا: لو علمت لمَن نشتري هذا المتاع لسارعت إلى شرائه، فقال لهم: حدّثوني، قالوا: نعم فأومؤوا إلى رئيس لهم كانوا معه، فقال: هذا سيّد الحيّ وكانت له زوجة فولدت له عدة من البنات، فقال لها، وهي حامل: إن ولدت بنتًا فأنت طالق، وقضي أنّا رحلنا رحلة الشتاء نريد نحو المراغة ونواحيها، فبينما نحن نسير ذات يوم ضرب المرأة الطلق، فأخذت ماء كأنها تتوضأ به فولدت جارية، فأخذتها ولفّتها في خرقة وتركتها عند كهف جبل وجاءت وأظهرت أن ذلك الحمل إنما كان ريحًا وقد انفشّ، ثم غبنا عن ذلك الموضع ستة أشهر ثم رجعنا، فنزلنا بذلك المكان فأخذت المرأة ماء ومضت نحو الكهف الذي تركت الصبية فيه، فلما قربت منه إذا غزالة قائمة عند الصبية

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن عمرو بن يُحمد الأوزاعي (٨٨ ـ ١٥٧ هـ = ٧٠٧ ـ ٧٧٤ م) أبو عمرو إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسّلين. ولد في بعلبك ونشأ في البقاع، وسكن بيروت وتوفي بها، وعُرض عليه القضاء فامتنع. له كتاب «السنن» في الفقه، و«المسائل». الأعلام ٣/ ٣٢٠؛ والوفيات ١/ ٢٧٥؛ وابن النديم ١/ ٢٢٧.

(٢) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين يُنسَب إليها خلق كثير، وبين الدينور وهمذان نيّف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهر زور أربع مراحل. (معجم البلدان ٢/ ٥٤٥).

(٣) الأكراد: شعب يسكن هضبة فسيحة في آسيا الوسطى، وبلادهم موزّعة اليوم بين كل من دول روسيا وتركية وإيران والعراق. الواحد كردي.

Marfat.com

وهي ترضع، فلما أبصرتها الغزالة استوحشت وذهبت وجاءت الأُم إلى الصبية، فأخذتها فبكت الصبية وشهقت، فوضعتها وتنحّت ناحية، فرجعت الغزالة فلم تزل ترضع وهي ساكنة، فجاءت المرأة إلى الحيّ فأخبرتهم بذلك وسمع زوجها فمضى أهل الحيّ بأجمعهم إلى الكهف فرأوا الغزالة تُرضِع الصبية، فلما أحسّت بهم تنحّت فبكت الصبية فأخذها النساء، ولم يزلن يرفقن بها حتى سكنت وأنست وجاؤوا بها إلى الحيّ، وبقيت الغزالة تنظر من بعيد حتى رحلنا، وهذا المتاع الذي نريد نشتريه جهاز لها وقد زوّجها أبوها من رجل صالح، سبحان اللطيف الخبير المنّان القدير.

(الحكاية الثالثة والتسعون بعد الثلاث مئة: عن الشيخ أبي بكر بن إسماعيل الفرغاني رضي الله تعالى عنه) قال: كنت أدفع إلى شدة الفاقة أيامًا كثيرة، وربما كنت أسقط مغشيًا عليّ، وكنت حينئذ قليل الدّراية، كنت أنظر إلى أظافر أصابعي كمدة من الجوع، فقلت ذات يوم: يا ربّ علّمتني اسمك الأعظم سألتك به إذا حلّت بي فاقة متلفة، فبينا أنا في بعض الأيام بدمشق على باب البريد جالس، فرأيت رجلين قد دخلا المسجد، فوقع في نفسي أنهما مَلَكان، فوقفا بحذائي، فقال أحدهما للآخر: تريد أن أُعلّمك اسم الله الأعظم؟ فقال له الآخر: نعم، فأصغيت إليهما فقال: هو أن تقول: يا ألله، فقلت: قد تعلّمت ورجعت كما كنت، فقال أحدهما: ليس كما تقول أنت، ولكن بصدق اللجأ، قال الشيخ أبو بكر: صدق اللجأ أن يكون مثل الغريق في لجّة البحر لم يبقَ له شيء يتعلّق به ولا له ملجأ إلا الله عزّ وجلّ. وحُكِيَ أنه جاء بعض الفقراء إلى بعض الشيوخ الذين يعرفون الاسم الأعظم فقال له: علّمني الاسم الأعظم، قال: وهل فيك أهليّة لذلك؟ قال: نعم، قال: اذهب إلى باب البلد واجلس هناك، فما جرى من شيء هناك أعلمني به. فخرج إلى حيث أمره، وإذا بشيخ حطّاب قد أقبل ومعه حمار عليه حطب، فتعرّض له الجندي، فأخذ حطبه وضربه، فرجع الفقير إلى الشيخ وهو حزين فأخبره بالقصة، فقال: لو كنت تعرف الاسم الأعظم ماذا كنت تصنع بالجندي؟ قال: كنت أدعو عليه بالهلاك، قال: فذلك الشيخ الحطّاب هو الذي علّمني الاسم الأعظم. قلت: يعني أنه لا يصحّ الاسم الأعظم إلا لمَن هو متّصف بهذه الصفة أعني الصبر والحلم والرحمة للخلق وسائر الصفات المحمودة التي تخلق بها أهل الاصطفاء، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية الرابعة والتسعون بعد الثلاث مئة: عن الشيخ يوسف بن حمدان رضي الله تعالى عنه) قال: خرجت إلى مكة على طريق البصرة ومعي جماعة من الفقراء، وفيهم شاب كنت أغار عليه من حُسْن صحبته ومراعاة حاله واشتغاله بذكر ربه عزّ وجلّ ودوام مناجاته، فلما وصلنا المدينة اعتلّ الشاب علّة شديدة وانفرد عنّا، فصرت إليه مع جماعة

من أصحابي نتعرّف خبره، فلما رأيناه وشدّة ما به، قال بعض الجماعة: لو أحضرنا له طبيبًا ينظر إليه ويصف علّته فلعله يكون عنده دواؤه؟ فسمع الشاب مقالته، فتبسّم من ذلك وقال: يا مشايخي وأحبابي ما أقبح المخالفة بعد الموافقة، مَن أراد الله تعالى له حالاً وأراد هو حالاً غيره أليس قد خالف الله عزّ وجلّ في إرادته؟ قال: فخجلنا من كلامه، فنظر إلينا وقال: لو عرفتم داء القتيل من ذي سلوان لطلبتم لداء القتيل دواء، إنَّ الأمراض والأسقام فيها تطهير وتكفير وتذكير، وداء القتيل مشاهدة النفس وموافقة الهوى، ثم أنشدا يقول:

بـيـد الله دوائـي ... وبـعـلـم الله دائـي
إنـمـا أظـلـم نـفـسـي ... بـاتّـبـاعـي لـهـوائـي
كـلـمـا داويـت دائـي ... غـلـب الـدّاء دوائـي

رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الخامسة والتسعون بعد الثلاث مئة: عن بعضهم) قال: أدركتني ضائقة وخوف شديد، فخرجت هائمًا، فسلكت طريق مكة بلا زاد ولا راحلة، فمشيت ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع اشتد بي العطش والحرّ وخفت على نفسي التّلف ولم أجد في البرية شجرة أستظلّ بها، فوكلت أمري إلى الله وجلست مستقبلاً للقِبلة، فغلبني النوم فنمت وأنا جالس، فرأيت شخصًا في المنام قد مدّ يده إليّ وقال: أعطني يدك، فمددت يدي إليه فصافحني وقال: أبشر أنت مسلم وتصلُ إلى بيت الله الحرام وتزور قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام، فقلت له: مَن أنت يرحمك الله فقال لي: أنا الخضر، فقلت له: ادعُ لي، فقال قل: يا لطيفًا بخلقه يا عليمًا بخلقه يا خبيرًا بخلقه الطف بي يا لطيف يا عليم يا خبير، ثلاث مرات، فقلت ذلك، فقال: هذه تحفة بها غنًى إلى الأبد، فإذا لحقك ضائقة أو نزل بك نازلة تقولها تكفي وتشفي ثم غاب عني وأنا أسمع شخصًا ينادي: يا شيخ يا شيخ، فانتبهت فإذا برجل راكب على راحلته فقال لي: يا هذا رأيت لي شابًا صفته كذا وكذا؟ فقلت له: ما رأيت أحدًا، فقال لي: خرج شاب من أهلنا منذ سبعة أيام وأخبرنا أنه توجّه إلى الحج، ثم قال لي: إلى أين تقصد؟ فقلت له: حيثما شاء الله تعالى، فأناخ راحلته ونزل عنها ومدّ يده إلى جراب فأخرج منه قرصين من الخبز السميذ بينهما حلوى، ونزل بسطيحة مملوءة ماء وقال: اشرب، فشربت وأكلت قرصًا واحدًا اكتفيت به، ثم قال لي: اركب، فركبت وركب أمامي، وسرنا ليلتين ويومًا فالتحقنا بالقافلة، فسأل عن الشاب فأخبر أنه في القافلة فتركني ومضى، ثم أتاني بعد ساعة والشاب معه، قال: يا ولدي هوّن الله عليّ الاجتماع بك باجتماعي بهذا الرجل، ثم ودّعتهما وانصرفت، فلحقني الرجل

Marfat.com

بكاغدة[1] فناولني إياها وقبّل يدي وانصرف، فوجدت فيها خمسة دنانير مضروبة، فاكتريت منها إلى مكة وتزوّدت ببقيتها، وحججتُ تلك السنة وزُرتُ النبيّ ﷺ ورجعت إلى الخليل عليه السلام وكلما أدركتني ضائقة أو نازلة أذكر تلك الكلمات التي علّمني الخضر عليه السلام وأعترف بفضله ومنّته وأشكر الله تعالى على نعمته.

(الحكاية السادية والتسعون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ عن بعض الفقراء قال: خرجت يومًا قصد البرية على نيّة السِّياحة والخلوة مع الله عزّ وجلّ فسرت ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع أدركني في باطني قلق وزيادة حركة في ظاهري، فبينما أنا كذلك لم أشعر إلا وفاجأني قدوم رجلين كهلين حَسَنَين فسلّما عليّ فرددت عليهما السلام، فقالا لي: ما اسمك؟ فقلت: عبد الله، فقال أحدهما: ونحن عبيد الله نقصد الله فمشينا جميعًا، فلما كان الوقت صلاة الظهر نظر إليّ أحدهما وقال: هو الوقت؟ قلت: نعم، قال: تصلي بنا، فقلت: تحملا عني ذلك ويصلي أحدكما، فصلّى بنا أحدهما وانصرف، وتركع كل واحد منّا، فلما فرغ الذي أمّ بنا من التركّع قدّم إلينا طبقًا عليه قطف عنب وتين لم أرَ أحسن منه، وقال: بسم الله، فأكلنا حاجتنا ومشينا، فلما كان اليوم الثاني حان وقت صلاة الظهر، فنظر إليّ وقال: هو الوقت؟ قلت: نعم، قال: تصلي بنا قلت: تحملا ذلك عني، فقال لصاحبه: صلِّ، فصلّى الآخر وانصرف وتركّع كلٌّ منّا، فلما فرغ الإمام من الركوع قدّم طبقًا فيه عنب وتين، وقال: بسم الله، فأكلنا ثم تركنا الباقي وانصرفنا، فلما كان اليوم الثالث وقع لي أنهما يقولان: تصلي بنا ويجب عليّ موافقتهما، فرفعت طرفي إلى السماء وقلت: اللّهمّ إنك وليّ النّعم من غير استحقاق، وأنا عبدك ضعيف غير مستحق للنّعم، وقد رجعت إليك فيما أقصده إنك على كل شيء قدير، فلما حان الوقت نظر إليّ أحدهما وقال: هو الوقت؟ قلت: نعم، قال: تصلي بنا؟ قلت: إن شاء الله، فأقام أحدهما الصلاة، فتقدّمت وصلّيت بهما، وانصرفت وصلّيت ركعتين، ونظرت عن يميني فرأيت الطبق بعينه وعليه قطف عنب وتين ورمّان، فحملته إليهما فأكلا وأكلت معهما، ثم تركنا باقيه وانصرفنا، فشكرت الله تعالى على ما أولى من نِعَمه من غير استحقاق، ثم أقمنا بعد ذلك أربعين يومًا كلٌّ منّا متوجّه إلى مقصوده، نجتمع في أوقات الصلوات وكلٌّ منّا يتقدّم يصلّي يومًا، فإذا سلّم قدّم طبقًا فيه ما ذكرت، وكنت معهما على ذلك آتي بالطبق فيه العنب والتين والرّمّان، فلما كان بعد الأربعين قال لي: الخليفة عليك الله، فقلت: وعليكما، وانصرف كلٌّ منّا ولم يسأل أحد منّا صاحبه عن شيء ثم بقيت بعدهما مدّة على ذلك الحال تتجدّد نعمة الله عليّ في كل يوم ظاهرًا وباطنًا وكل وقت أشكر الله فيه تزيد نِعَمه عليّ وإحسانه.

---

(١) الكاغد: ورق الكتابة (ج) كواغد.

(الحكاية السابعة والتسعون بعد الثلاث مئة): حُكِيَ عن بعض المشايخ بمكة قال: كنت منفردًا في بعض الجبال في مغارة وربما كنت أُقيم الشهر أو أقلّ أو أكثر لا أرى في ذلك الجبل أحدًا من الإنس، وكان قوتي من المُباح، إذا أخذني الجوع أخرج من المغارة إلى ظاهر الجبل أتناول حاجتي وأرجع، فلما كان في بعض الأيام خرجت وإذا بي أنظر فارسًا قد أقبل وحده من صدر البرية، فلما رأيته دخلت المغارة وتركته، فلما كان بعد ساعة إذا هو بالباب ينادي باسمي، فقمت وخرجت إليه، فسلّم عليّ، فقلت له: من الإنس أنت؟ قال: نعم، فقلت: من أين أنت ومَن عرّفك باسمي؟ فقال: أنا من أبناء الملوك، خرجت للصيد منذ ثلاثة أيام، فانقطعت عن أصحابي وتُهْتُ في البرية ولحقني العطش وأشرفت على الهلاك، فلم أشعر إلا ورجل عليه أطمار قد أتاني وبيده ركوة فسقاني منها، وناولني قبضة من حشيش فأكلتها، فوجدتها ألذ ما يكون من البقولات، فلما فرغت قال لي: يا محمد هل تُبْتَ قبل هذا اليوم؟ قلت: يا سيدي فقلت: لقد تبت على يديه، وقمت على قدمي وقلت: يا سيدي اسأل الله أن يقبلني، فرفع طرفه إلى السماء وقال: يا ربّ محمد بحرمة نبيّك محمد ﷺ ارحم محمدًا وتب على محمد واقبل محمدًا، ودمعت عيناه، فوجدت حلاوة دعاؤه في قلبي وعقدت مع الله تعالى أن لا أرجع إلى ما خرجت منه حتى أموت، وقال لي: اركب فأبت، فحلف لا بدّ أن أركب، وركبت ومشى أمامي حتى أراني مكانك وعرّفني باسمك، وقال: اجلس عنده، فإنه يرشدك إلى الخير، قال الشيخ: فقلت له: فما تصنع بالفرس؟ فقال: لا حاجة لي به، فأطلقت الفرس ودخلت به المغارة وقدّمت إليه من المُباح الذي أتناول منه فأكل وجلسنا إلى الليل، فقلت له: يا بنيّ ليس العبادة بالشركة، وكان بالقرب منّا مغارة فأشرت له بالجلوس فيها، فجلس وكنت أجتمع معه في كل ثلاثة أيام، وكلما جاع خرج إلى الجبل يتناول حاجته من المباح ويرجع وكان بالقرب منّا عين ماء، وكان الفرس يرعى ويرجع إلينا في كل ليلة فلما كان يوم من الأيام، وإذا بالشاب قد دخل عليّ وهو مذهول، فقلت له: ما شأنك؟ فقال: رأيت الساعة في المنام أبي وأمي وهما يجريان ورائي من مكان إلى مكان وبأيديهما شمعتان موقدتان وكلما قربا مني يخرج إليهما شخص وبيده جوهرة كبيرة ويقول لهما: سألتكما بالله أن ترضيا على ولدكما وتتركاه لله، فإنه قد فرّ إلى الله تعالى وخُذا مني هذه الجوهرة، ولم يزل معهما كذلك حتى قالا له: نحن عنه راضون والجوهرة بشارة لك، فانتهيت وأنا على هذا الحال، فقلت: يا بنيّ هذا ثمرة توبتك قد أراكها الله تعالى، فسُرَّ بما قلت له، ولم يزل كذلك إلى ليلة من الليالي، فرأيت النبي ﷺ في المنام وقد دخل عليّ المكان الذي أنا فيه وقال لي: اخرج أنت والشاب إلى العمارة ليُنتَفَعَ بكما وتنتفعا، فلما أصبحت دخلت على الشاب وأخبرته بذلك، فقال: يا سيدي رأيت البارحة في المنام كأنّ في يدي اليمنى حبلاً

Marfat.com

ورجلاً حسن الصورة إلى جانبي يحلّه عني، وقال: اسمع ما أمرت به، فقلت له: يا بنيّ الحمد لله على هذا، فنزلت والشاب معي حتى دخلنا إلى مدينة من ديار بكر والفرس يتبعنا، فدخلنا إلى رباط في تلك المدينة قد مات الشيخ الذي قد كان فيه من يومين، فلما وقع بصرهم عليّ قالوا: هذا هو الرجل، فسكت، فقالوا: يا شيخ أنت تكون في هذا المكان، ثم أقبل شيخ حَسَن الصورة فسلّم عليّ وقال: يا سيدي تُقيم عندنا لله تعالى، فقلت: على خيرة الله، فأعطينا الفرس فقيرًا قَدِمَ علينا في ذلك اليوم وأخبرناه بصفته، وأقمت معهم أنا والشاب في الرباط عشرين سنة لم يعلم أحد كيف قصة الشاب، ولا من أين هو، حتى مات رحمه الله تعالى، فخرجت من الرباط إلى الحجّ ونيّتي المجاورة بمكة. قال الراوي: أقام الشيخ بها ثلاث سنين، ومات ودفن بالبطحاء رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبجميع الأولياء والصالحين.

(الحكاية الثامنة والتسعون بعد الثلاث مئة: عن بعض الفقراء) قال: كنت في بدء إرادتي صحبت بعض المشايخ، فكان يأمرني بالخدمة، وكنت متلذّذًا بأمره، فأرسلني يومًا إلى القصّاب لأحمل لحمًا للفقراء، فابتعت منه حاجتي وحملتها، والتفتّ إلى جانبي فرأيت رجلاً يسوق دابة محمّلة، فوكزني فسقطت على مسمار في حانوت القصّاب، فأصاب جنبي، فحملني عنه صاحب الحانوت، ووجدت منه ألمًا كثيرًا، فبينما نحن مشغولون بربط الجرح، وإذا بصاحب الدّابّة قد وقف علينا ومعه ثلاثة رجال من العوام وقال: سقطت مني صرّة فيها عشرة دنانير كانت في رأسي، فحمل القصّاب وحملني رجلين آخرين إلى صاحب المدينة، وقال: هؤلاء الذين أخذوا الصرّة، فضرب كلاً من أصحابي ضربًا شديدًا، ثم ضُرِبْتُ من جملتهم، فكان الضرب يقع على الجرح، ثم نظر أحد العوامّ إلى الإناء الذي فيه اللحم، فوجد الصرّة فيه، فقالوا: هذا السارق، فقال صاحب المدينة: نقطع يده، فأمر بالزيت فأُغلي، واجتمعت عليّ الخلائق بالضرب والسبّ وأنا بينٍ يدي أربعة رجال، ونادى مُنادٍ: أحضروا السارق فقد طاب الزيت، وأنا مسلّم أمري لمَن بيده ملكوت كل شيء، ولطمني أحد الرجال لطمة حتى غبت عن الحسّ، وأنا صابر في ذلك البلاء، راجع إلى الله تعالى في ذلك الأمر، وقال: يا لصّ يا سارق، ثم جذبني حتى سقطت على وجهي، فخررت ساجدًا، فشهدت النبيّ ﷺ ينظر إليّ وهو يتبسّم، فما استويت قائمًا إلا وقد زال عني ما كنت فيه، ثم في الوقت نادى مُنادٍ: الذي أمسكتموه خادم الشيخ، فنظروا إليّ وقالوا: لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، ثم خرّ الرجال الذين كنت معهم على رِجلي، وأتى صاحب البلدة مسرِعًا وقبّل رِجليّ وقال: يا سيدي سألتك بالله العظيم إلا ما غفرت لنا، ثم أتى صاحب الصرة وتضرّع وبكى وقال: يا سيدي عني ترضّ، فقلت لهم: يغفر الله لي ولكم، هذه سابقة أظهرت سريرة كامنة في وقتها، ثم انكشفت

Marfat.com

الصرّة وظهر أن العشرة الدنانير وحمل الدابّة التي كان يسوقها الرجل الذي سقطت منه الدنانير رسالة إلى الشيخ، واتفق أن الشيخ وجماعة الفقراء في ذلك الوقت الذي كنت فيه كانوا في الاستغفار لقضية وقعت بين الفقراء، ولم يخرج أحد من الجماعة حتى وقفت بالباب واللحم معي والصرّة، فسلّمتها للشيخ وأخبرته بالقصة، فقال الشيخ: مَن صبر تجمّل وتكمّل، ثم قال: يا بنيّ كنت مع الفقراء مرتقبًا حالتك هذه، لأن علمها تقدّم، ثم قال لي: يا محمد كانت هذه الحالة سببًا لكمالك في طريقك، فسافر الآن حيث شئت رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية التاسعة والتسعون بعد الثلاث مئة: عن بعضهم) قال: دخلت البادية على نيّة السياحة، فأقمت فيها أيامًا لم أطعم فيها طعامًا ولا شرابًا، فعطشت واشتدّ بي العطش، فعدلت إلى قصر وقع بصري عليه في جانب البرية؛ فلما قربت إذا بوحش خرج منه. فدخلت إلى القصر وإذا برجل مُلقى على ظهره، متوجّهًا إلى القِبلة، فحرّكته فوجدته ميتًا، وقد همّ الوحش أن يأكل منه، فاشتغلت بتجهيزه، وخرجت لأحفر له وأنا لا أستطيع من كثرة العطش، فبينما أنا كذلك، وإذا برجل قد أقبل من صدر البرية، فسلّم عليّ وقال لي: جهزت الفقير؟ قلت: لا يا سيدي، قال: بسم الله تمضي معي إلى رأس الجبل، فإن فيه عين ماء، فمضيت معه حتى وصلنا إلى العين، فوجدنا على الماء قربة مطروحة، وكنت على تلك الحالة من العطش، فشربت حتى رويت، وكان مع الرجل ركوة، فملأنا القربة ورجعنا إلى الفقير فغسّلناه وكفّنّاه في مرقعة كانت عليه، وصلّينا عليه ودفنّاه، فلما فرغنا من دفنه نظر إلى الرجل وقال لي: هذا الفقير، وأشار بيده إلى الفقير، كان من الرجال الأكابر وهو لا يعرف لأنه كان يتّقي مولاه فأخفاه، ثم غاب عني كأنه قد اختطف من جانبي، فوقفت على القبر وقرأت شيئًا من القرآن وأهديته إلى الفقير، وسألت الله تعالى بحرمته فأجابني، ووجدت بركته زمانًا طويلاً، رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به وبجميع الصالحين.

(الحكاية الأربعة مئة) قال المؤلف كان الله له: أخبرني بعض السادات أنه كان منعزلاً في بعض السواحل مدة طويلة يعبد الله عزّ وجل، فلما حضر يوم عيد الفطر[1] خرج إلى بعض القرى ليحضر صلاة العيد مع المسلمين، قال: فلما صلّيت معهم صلاة العيد، رجعت إلى مكاني، فوجدت فيه إنسانًا يصلّي ولم أجد له أثرًا في الرمل على باب الخلوة، فتعجبت من أين دخل، ثم إنه بكى بكاءً طويلاً، وبقيت أفكر أيّ شيء أُقدّم له لكونه يوم عيد وهو وارِد عليّ أيضًا فلم أجد شيئًا فالتفت إليّ وقال: يا فلان لا تتفكّر في

(١) عيد الفطر: العيد الذي يعقب شهر رمضان.

Marfat.com

هذا، ففي الغيب ما لا يعلم، ولكن إن كان عندك ماء فقرّبه، فقمت لآتيه بإبريق، فوجدت عند الإبريق رغيفين كبيرين حارّين كأنهما الساعة خرجا من الفرن ولوزًا كثيرًا، فحملت كل ذلك إليه، فكسر الخبز وصبّ اللوز بين يديّ وقال: كل، وأخذ يناولني من اللوز وأنا آكل، ولم يأكل هو معي شيئًا سوى لوزة أو لوزتين، قال: فتعجبت في نفسي، واستغربت وجود ذلك الطعام، وقال لي: لا تستغرب هذا فإن لله عبادًا أينما كانوا وجدوا ما أرادوا، فازددت منه تعجبًا ونويت في نفسي أن أطلب منه المُؤاخذة، فقال: لا تعجل بطلب المؤاخاة فأنا لا بدّ أن أعود إليك إن شاء الله تعالى، قال: ثم غاب عني في الوقت، ولم أدرِ أين ذهب، فازددت عجبًا على عجب، فلما كانت الليلة السابعة من شوّال أتاني وواخاني رضي الله تعالى عنهما. قال المؤلف: كان الله له: وأخبرني أيضًا السيد المذكور قال: كنت في خلوة فرأيت في بعض الليالي وأنا قاعد مستيقظ بعد صلاة العشاء رجلين معي في الخلوة، وكان الباب مغلقًا من داخل ولم أدرِ من أين دخلا، قال: فتحدّثا معي ساعة وتذاكرنا أحوال الفقراء، وكان ذلك في بلاد الشام، فذكرا لي إنسانًا في الشام وأثنيا عليه وقالا: نعم الرجل، لو كان يعرف من أين يأكل، ثم قال لي: سلِّم لنا على صاحبك فلان وسمّيا لي بعض الناس، قال: فقلت: ومن أين تعرفانه وهو في الحجاز؟ فقالا: ما يخفى علينا، قال: ثم تقدّما إلى المِحراب فحبستهما يريدان أن يصليا، فخرجا من الحائط رضي الله تعالى عنهما وعنه ونفعنا بهم وبجميع الصالحين، وتفضّل علينا بفضله وجاد علينا بلطفه وكرمه وجوده إنه جواد كريم. قال المؤلف كان الله له: وأخبرني أيضًا السيد المذكور أنه دخل عليه شيخان في الخلوة في بعض سواحل الشام في شهر رجب سنة اثنين وأربعين وسبع مئة بعد صلاة العصر، ولم يَدْرِ من أين دخلا عليه ولا من أيّ البلاد أتياه، قال: فداخلني منهما شيء، فلما سلّما عليّ وصافحاني استأنست بهما وذهب ما كنت وجدت منهما، فقلت لهما: من أين جئتما؟ فقالا لي: سبحان الله ومثلك يسأل عن هذا؟ ثم قدّمت لهما كُسَيرات يابسة من خبز شعير، فقالا لي: ما جئناك لهذا؟ قال: فقلت لأيّ شيء جئتما؟ قالا: جئنا نوصيك بتبليغ السلام إلى فلان وسمّيا لي الشخص الذي أوصيت بتبليغ السلام إليه قبل هذا، قال: وقالا لي: قل له أبشر، فقلت: وأنتما تعرفانه وهل اجتمعتما به؟ فقالا: نعم، اجتمعنا به، ولم يجتمع بنا، قال: فقلت: فهذه البشارة إذن لكما فيها؟ فقالا: نعم، وذكرا أنهما أتيا من عند إخوان لهما في المشرق، قال: ثم غابا عني في الوقت فلم أرهما، رضي الله تعالى عن الجميع ونفعنا بهم. قلت: وهذه البشارة تؤيد ما رآه الشيخ المبشّر المذكور، رأى في النوم فيما تقدم اثنين من الصالحين يقولان له: لا تبلعك الأرض، أو قالا: لا تبلعنا الأرض حتى تجزك إلينا، وما رآه له أيضًا بعض المشايخ الأخيار من أولاد المشايخ الكبار، قال: رأيت رجلاً في الحجر ورأسه مع رأس الكعبة، فقال: سلّم على فلان وقل

له يصبر حتى نأتيه كلنا، قال: فقلت له: ومَن أنت؟ فقال: الخضر رضوان الله عليه ونفعنا والمسلمين ببركته. وكذلك قال بعض الصالحين: قيل لي في منامي، قل لفلان: أبشر بفوق ما تطلب، فما أخّرنا ذلك عنك إلا تمحيصًا، ثم قال: ما كان في آخر العمر كان خيرًا وأسلم عاقبة. اللّهمّ عاملنا بما أنت له أهل، ولا تعاملنا بما نحن له أهل. قال المؤلف كان الله له: وأخبرني أيضًا المذكور قال: رأيت في بعض سواحل الشام شابًا قريبًا مني، فمكثنا ثلاثة أيام لم يأتني ولم آته، ثم خطر لي أني آتيه وأتحدّث معه، فذهبت إليه وسلّمت عليه، وأحرمت بركعتين وأنا أنظر إليه بجنبي، فبينما أنا في الصلاة حجب عني فلم أرَ شيئًا سوى سجادته ونعليه. قال: وكذلك كنت أرى منهم في بعض البراري كثيرًا؛ فمنهم مَن يحتجب في الحال عني بالحال، ومنهم مَن يظهر لي ويكلمني رضي الله تعالى عنه وعنهم ونفعنا بالجميع آمين. قلت: وهذا السيد المذكور صلّى بوضوء واحد اثني عشر يومًا وله إلى تاريخ تأليف هذا الكتاب خمس عشرة سنة لم يضع جنبه على الأرض، ويمكث أيامًا عديدة لا يأكل فيها شيئًا، وإذا أكل أكل شيئًا يسيرًا خشنًا يابسًا، وما أكل معي قطعة لحم في مِنى إلا بعد شدّة موافقة. وذكر لي أن له عدّة سنين يحجّ بغير اختياره لما يرى من المنكرات والآفات، ولكن يؤمر بالحجّ فيما يجد منه بُدًّا، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به.

(الحكاية الأولى بعد الأربع مئة: عن بعضهم) قال: سافرت إلى العراق على قصد السياحة ورؤية المشايخ، فرأيت مدينة، فمشيت نحوها وقصدت مكانًا آوي إليه، فأويت إلى خربة في طرف المدينة، فيها آثار دائرة، فجلست قليلاً، ثم نامت عيناي، فهتف بي هاتف في المنام وقال لي: قم إلى جانبك في الحائط خبيئة فخذها، فليس لها وارث وهي ملكك، فاستيقظت ونظرت إلى جانبي، فرأيت عصًا، فحفرت بها في المكان قليلاً، فوجدت خرقة ففتحتها فوجدت فيها خمس مئة دينار، فصررتها في طرف ثوبي وخرجت من ذلك المكان، ففكّرت فيما أفعل فيها، فقلت: أنفق منها على الفقراء، ثم قلت: أشتري بها حوانيت وأوقفها على الفقراء، وخطر لي غير ذلك، فنمت تلك الليلة، فرأيت النبي ﷺ في المنام، فسلّم عليّ وقال: يا فقير إرادة وطلب زيادة من الدنيا لا يكونان معًا، ثم جمع أصبعه السّبّابة[1] والتي تليها، ثم قال لي: امضِ بما معك إلى الشيخ أبي العباس من أهل الجزيرة الخضراء[2] في بغداد في مسجد كذا وكذا وسلّمها إليه، قال:

---

(١) السّبّابة: الإصبع التي بين الإبهام والوسطى.

(٢) الجزيرة الخضراء: مدينة مشهورة بالأندلس، وقبالتها من البرّ بلاد البربر سبتة، وأعمالها متصلة بأعمال شندونة، وهي شرقي شندونة وقبلي قرطبة، ومدينتها من أشرف المدن وأطيبها أرضًا. (معجم البلدان ٢/١٣٦).

Marfat.com

فانتبهت من منامي وجدّدت وضوئي ثم صلّيت وخرجت من ساعتي إلى بغداد، فوصلت إلى الشيخ في المكان الذي هو فيه، فاجتمعت وسلّمتها إليه وأخبرته بالقصة، فقال: منذ كم قيل لك هذا؟ قلت: منذ سبعة أيام. فقال لي: يا بنيّ رأيت النبي ﷺ منذ سبع ليالٍ وقال لي: إذا وصل إليك فقير ومعه رسالة، فاقبلها منه وتصرّف فيها، ثم قال: يا بنيّ اعلم أن لنا سبعة أيام ولم يكن عندنا ما نقتات به، ولإنسان علينا دَين قد ألحّ علينا في طلبه، وقد سدّ الله هذه الفاقة على يديك، ثم قال لي: سألتك بالله أن تُقيم عندنا، وإحدى بناتي هدية إليك، فقلت: يا سيدي فكيف لي بذلك وأنا مشغول بما شغلني الله تعالى به؟ وقد أخبرتك بما أخبرني النبي ﷺ، فقال لي: الضيافة ثلاثة أيام، فقلت: نعم، فأقمت عنده ثلاثة أيام لم يفارقني إلا في وقت يتصرّف فيه، ثم ودّعته وانصرفت رضي الله تعالى عنهما.

(الحكاية الثانية بعد الأربع مَئة: عن بعض الفقراء) قال: دخلت مدينة من مدائن خراسان فمشيت في السوق، فلقيني شاب حَسَن الصورة، فسلّم عليّ واتّبعني حتى خرجت من السوق، فقال لي: تكون ضيفي لوجه الله تعالى، فمشيت معه، فأدخلني دارًا حسنة وفيها آثار خير، ثم غاب عني قليلاً، وأتى معه شيخ كبير فقال لي: هذا والدي ادعُ له، فسلّمت على الشيخ ثم جلست، فأتى بطعام فأكلنا ثم غسلنا أيدينا، ثم هممت بالخروج؛ فقال الشاب: أنت ضيفي ثلاثة أيام، فأقمت عنده ثلاثة أيام في كل يوم يزداد في إكرامي، فلما كان اليوم الرابع قصدت وداعهما وأخرج، فقال الشيخ: يا بنيّ أنت ضيفي هذا النهار، فأقمت عند الشيخ ذلك اليوم؛ فلما كان في غد قلت الخليفة عليكما الله، فتبعني الشاب حتى خرجت إلى ظاهر المدينة فودّعني وناولني صرّة وخبزًا وحلواء، وقال: يا سيدي هذه زوّادة، فاقبلها لله تعالى، فحملتها ومشيت يومين، ثم دخلت مدينة أخرى وقصدت الفقراء بالذي معي أُوصله إليهم؛ فبينما أنا كذلك، وإذا أنا بشيخ حَسَن الصورة قد استقبلني في الطريق، فسلّمت عليه وقلت: هذا وليّ الله، وكان وقت الصلاة، فدخلت المسجد فصلّيت وجلست، فأدركتني سنة فنمت، فهتف بي هاتف وقال لي: الصرّة التي معك أعطها للشيخ صالح الذي مرّ عليك، فهو من عباد الله الصالحين، فانتبهت من منامي وخرجت في الوقت لطلبه، وقلت: اللّهمّ بحرمته عليك اجمع بيني وبينه، فما استممت كلامي إلا وقد استقبلني في الطريق وبيده إبريق ماء قد حمله من النهر، ففتحت الصرّة، فوجدت فيها خمسة دنانير وخمسة دراهم، فجمعتها وقبّلت يده ودفعتها إليه، فأخذها من يدي وقال: يا بنيّ مَن رأى غير الله لم يَنَلْ من الله شيئًا، فقلت: يا سيدي ادعُ الله لي، فقال: يحفظك الله ويحفظ عليك ويحفظ بك، فقلت: أوصني، فقال: عليك بالإخلاص وحفظ العهد فيما بينك وبين الله تعالى ثم تركني وانصرف، رضي الله تعالى عنه.

Marfat.com

(الحكاية الثالثة بعد الأربع مئة): حُكِيَ أنَّ رجلاً باع نفسه للفقراء في حقّ الفقراء، فقيل له: لِمَ فعلت هذا، ولم تبيع نفسك؟ فقال: يا قوم ما فعلت ذلك إلا لأمر أطلعني الله عليه، كنت نائمًا فرأيت في المنام مَلَكين قد وقفا بين يديّ، فسألني أحدهما فقال: ما تقول في قول الله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢] قلت: الله أعلم، قال: لا بدّ أن تقول، قلت: مَن كان عبدًا لله لم يكن للعدوّ عليه سلطان، فقال الآخر: ما صفات العبد؟ قلت: الله أعلم، قال: لا بدّ أن تقول، قلت: صفات العبد امتثال أوامر سيده، مجتنبًا لنواهيه في كلّ حال، ثم غابا عني فلما أصبحت فكّرت في حالي، فلم أرَ نفسي أهلاً للعبودية ولا للمراقبة، ولم أرَ أحدًا جمع الصفات المحمودة إلا هذه الطائفة، فقلت أبيع نفسي لهم فأكون من عبيد العبيد، فبعتها لهم، وها أنا عبد من عبيد عبيدهم، ثم بكى وقال: وحقه ما رأيت نفسي أهلاً لمجالسته ولا لمراقبته ولا ممّن يصلح لخدمته رحمة الله عليه. وحُكِيَ أيضًا عن بعض الفقراء قال: كنت يومًا متفكّرًا في نفقة العيال، فاشتغل قلبي ساعة، فنمت لأستريح، فرأيت في منامي كأني في جزيرة في وسط بحر، فقلت: من أين يصلني ما آكل وما أشرب في هذا المكان؟ فهتف بي هاتف وقال لي: يا هذا لو كان رزقك خلف سبعة أبحر لأتاك، فانتبهت مسرورًا وزال عني ما كنت أجد، ثم بعد ذلك جاءتني رسالة على يد بعض الأصحاب من رجل لم يخطر ببالي، فقلت: صدق الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ومن يتقِ الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: ٢] رحمه الله.

(الحكاية الرابعة بعد الأربع مئة): حُكِيَ عن بعض المشايخ أنه قال: كانت لي زوجة وكنت مشغوفًا بها، فبينما أنا عندها في بعض الأيام في البيت نائم أدركتني حالة في المنام، فسمعت ما نطقت به، وعاينت حالتي، وكانت حالة عظيمة، فلما أفقت، قالت: ما شأنك يا سيدي؟ فقلت: ما رأيت، قالت: خيرًا، فسكتّ عنها ثم خرجت وخليتها، فقالت لخادم لنا، نادِ لي أمي وأُختي، قال: فناداهما، فاجتمعت بهما، وقالت: جرى لزوجي كذا وكذا، وأخبرتهما بالقصة وقالت: والله لا بقيت له زوجة أبدًا، فهو مجنون ولا أُقيم معه في الدار، فعذلها أهلها على ذلك وقصدوا ردّها فأبت، فقالوا: تقيمين في الدار حتى نجتمع به، فلما علمت بذلك أتيت إليها وقلت لها: ما مقصودك؟ قالت: الفراق وإلا قتلت نفسي وأنت السبب في ذلك، فقلت لها: أمهليني سبعة أيام، فقالت: نعم، ثم إني وجدت مشقّة كبيرة في فراقها، فقصدت رضاها بشيء كثير من الدنيا، فأبت، فأرسلت جماعة من الأهل إليها فأبت؛ فلما تيقّنت عزمها على ما ذكرت لحقني وَلَهٌ وتغيّرت أحوالي وتشوّش خاطري، ولم أجد مَن يحمل عني ذلك؛ فلما بقي من الأجل ليلة واحدة وقد اشتدّ بي الحال وضاقت بي الأرض رجعت

Marfat.com

إلى الله تعالى، وفوّضت أمري إليه، وعزمت على أن ما يفعل الله تعالى أرضى به، ثم دعوت بهذه الكمات: اللَّهمَّ يا عالم الخفيّات، ويا سامع الأصوات، يا مَن بيده ملكوت الأرض والسمٰوات، ويا مُجيب الدعوات استغثت بك واستَجَرْتُ بك، يا مُجير أجِرني ثلاث مرّات، ثم جلست حتى كان النصف الأخير من الليل وأنا مستقبل القِبلة، وإذا بها قد دخلت مسرعة وقبّلت رِجلي وقالت: سألتك بالله العظيم ارضَ عني، فقد تُبتُ مما كنت أطلبه منك، وقد رجعت إلى الله تعالى، فاسأله أن يقبل توبتي فقلت: لا أرضى عنكِ حتى تخبريني بسبب هذا؛ فقالت: كنت البارحة مُصِرَّة على ذلك العزم، فأتاني رجل في المنام وبيده اليمنى سوط وفي الأخرى سكِّين، وقال لي: إن لا رجعت عن هذا الأمر وإلا قتلتك بهذه السكِّين، ثم جلدني ثلاث جلدات، فانتبهت مرعوبة وحرارة ذلك الضرب في قلبي، فقعدت ساعة ثم نمت، فرأيت الرجل بعينه قد أتاني بيده السوط والسكين وقال لي: أما حذّرتك ووعظتك وأمرتك، ثم رفع يده عليّ فانتبهت مرعوبة وأتيت إليك مسرعة لتقبل توبتي وترضى عني وتسأل الله لي، ثم كشفت عن جسدها فرأيت أثر ثلاث ضربات، فقلت لها: الله يتوب عليك وعليّ، وقد رضيت عنك في الدنيا وفي الآخرة، فقالت: صداقي هبة لك شكرًا لله عزّ وجلّ، وعندي عشرون دينارًا من حليّ هي وثيابي للفقراء شكرًا لله، فلما أصبحت فعلت ذلك، ثم نظرت أن فعل الله بي ولطفه وعلمت أن ذلك ثمرة الرضا بحكم ما يفعل، وتيقنت أن الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى، ثم أقمت معها بعد ذلك سبع سنين، وأنا في أكمل مَسَرَّة حامدًا راضيًا بما يفعل الله، ثم ماتت رحمة الله عليها، فرأيتها بعد موتها في المنام في أجمل صورة، وعليها من الحليّ والحُلَل ما لا أطيق وصفه، فقلت لها: ما فعل الله بك وماذا لقيت من ربك؟ فقالت: كما ترى وأنا منتظرة لقاءك، رضي الله تعالى عنك كما رضيت عني. وحُكِيَ أيضًا عن بعض الفقراء قال: كانت لي جارية، وكنت إذا أمرتها بأمر تمتثله، فقلت لها يومًا يا جارية هل لك أن تنشديني شيئًا من الشعر؟ قالت: نعم يا سيدي، فقلت لها: قولي، فأنشدت:

فلولاكِ يا ليلى ولولاكِ يا نُعمى ولولاكِ ما طبنا ولا طابت الدنيا

فقلت: أحسنت يا جارية، فما تقولين جائزة هذا البيت يكون عتقك عوضًا عنها وأعطيك شيئًا من الدنيا، فقالت: يا سيدي أنت مقصودي وعتقي نعمة عليّ فلست أشتغل بالنعمة عن المُنعِم، فقلت لها: أنت حرّة لوجه الله تعالى، وكلّ ما في المنزل فهو ملك لك، ثم ملأني كلامها، فخرجت إلى السياحة من وقتي وتركتها، فغبت عنها سنة كاملة وكلامها كلما مرّ بخاطري يقع في باطني كالحديد، وعاينت في تلك الحركة ما لا يُحَدّ ولا يوصف، ثم رجعت إلى المكان الذي كنّا فيه فوجدتها على حالة مرضية تواصل صبعة

Marfat.com

أيام وتأكل في الشهر أربعة أيام، فتزوّجت بها وأقامت عندي سنة تراقب أحوالي وتلازم خدمتي، ثم ماتت في السنة الثانية رحمة الله عليها.

(الحكاية الخامسة بعد الأربع مئة: عن أبي الحارث الأولاسي رضي الله تعالى عنه) قال: شهدت الفداء في الأسرى، فكنت أرى كل أسير إذا خرج من المركب أخذ من مال السلطان، فقلت: بالله تعالى ما في هؤلاء القوم رجل يتّقي هذا المال، فلما كان بعد أيام نزل شيخ، فعرضوا عليه دنانير وخلعًا وطعامًا، فلم يأخذ منهم شيئًا، فقلت في نفسي: الله أكبر واتبعته حتى لحقته، فعرضت عليه دراهم معي من جهة طيبة وقلت: الحمد لله الذي لم يخلِ الأرض من وليّ له، فلم يقبل الدراهم، وضرب بيده إلى حصى في الساحل فإذا هو ياقوت أحمر وأصفر، فقال لي: مَن كان حاله مع مولاه مثل حالي لا يحتاج إلى دراهم، فقلت له: يا حبيبي، أيّ شيء كنت تعمل في بلد الروم وهذا حالك معه؟ قال: نعم أقول لك أسأت فيمَ بيني وبينه، وتركت الأدب فعاقبني بالأسر، فتبت إليه، فرجع إليّ، فاستحييت منه أن أخرج من بلد الروم وأترك فيه المسلمين، فتأخرت لخروجهم، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية السادسة بعد الأربع مئة: عن بعضهم) قال: كنت بمكة، فجاءني رجل من أهل اليمن، فقال لي: جئتك بهدية، ثم قال لرجل كان معه: حدّثه ما كان منك، فقال: خرجت من صنعاء حاجًا، فشيّعني جماعة، وقال لي رجل منهم: إذا زرت النبيّ ﷺ فاقرأ عليه مني السلام وعلى صاحبيه رضي الله تعالى عنهما وعن سائر الصحابة، قال: فدخلت المدينة ونسيت ما استودعني الرجل من السلام، فخرجنا إلى ذي الحليفة لنحرم، فلما أردنا الإحرام ذكرت أمانتي، فقلت لأصحابي: احتفظوا براحلتي حتى أرجع إلى المدينة في حاجة، فقالوا: الساعة ترحل القافلة ونخشى أنك لا تلحق، قلت: فخذوا معكم راحلتي، فدخلت المدينة، فسلّمت على النبي ﷺ وعلى صاحبيه رضي الله تعالى عنهما عن الرجل، فأدركني الليل واستقبلني إنسان، فسألته عن الرفقة، فقال: قد رحلت فرجعت إلى المسجد وقلت: أُقيم إلى أن تجتزىء رفقة أخرى ونمت؛ فلما كان آخر الليل رأيت النبي ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، فقال أبو بكر: يا رسول الله هذا الرجل، فالتفت ﷺ إليّ وقال أبو الوفاء، فقلت: يا رسول الله كنيتي أبو العباس، فقال لي: أنت أبو الوفاء، وأخذ بيدي فوضعني في المسجد الحرام، فأقمت بمكة ثمانية أيام حتى وردت الرفقة رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به وبجميع الصالحين.

(الحكاية السابعة بعد الأربع مئة: عن بعض الصالحين) قال: صعدت جبل لبنان مع نفر نلتمس رجلاً من العباد الزهّاد المقيمين فيه، فسرنا ثلاثة أيام، فضربت على رِجلي،

Marfat.com

فجلست على جبل شامخ ومضى أصحابي يدورون في الجبل على أنهم يرجعون إليّ فلم يعودوا وبقيت وحدي إلى غد ذلك اليوم، وطلبت ماء لأتطهّر به للصلاة، فوجدت أسفل الجبل عينًا، فتوضأت منها وقمت أُصلّي، فسمعت صوت قارىء، فلما فرغت من الصلاة اتّبعت الصوت فوجدت كهفًا فدخلته، فإذا فيه رجل ضرير جالس، فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام وقال لي: أجنيٌّ أنت أم إنسيّ؟ فقلت: بل إنسيّ، فقال: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، ما رأيت هٰهنا إنسيًا منذ ثلاثين سنة غيرك، ثم قال لي: لعلك تعبت اطرحْ نفسك، فدخلت داخل الكهف، فرأيت ثلاثة قبور صفًا، فنمت عندها؛ فلما كان وقت صلاة الظهر صاح بي: الصلاة يرحمك الله، ولم أرَ رجلاً أعرف بأوقات الصلاة منه، فصلّيت معه ثم قام يصلي، فلم يزل يصلّي إلى العصر، فلما صلّى العصر نهض قائمًا يدعو، فسمعته يقول في دعائه: اللّهمّ أصلح أُمة محمد، اللّهمّ ارحم أُمة محمد، اللّهمّ فرّج عن أُمة محمد ﷺ، فلما صلّينا المغرب، قلت له: من أين لك هذا الدعاء؟ قال: مَن دعا به كلّ يوم ثلاث مرّات كتبه الله من البدلاء، فقلت مَن علّمك هذا؟ فقال: لا يحتمل إيمانك ذلك. قال المؤلف كان الله له: وقال الشيخ الإمام العارف بالله تعالى عالي المقام أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه وغيره من الكبار العارفين: مَن قال كلّ يوم اللّهمّ اغفر لأُمة محمد، اللّهمّ ارحم أُمة محمد، اللّهمّ استر أُمة محمد، اللّهمّ اجبر أُمة محمد، كُتِبَ من الأبرار رضي الله تعالى عنهم، قالوا: وهو دعاء الخضر عليه السلام. رجعنا إلى تمام الحكاية، قال: فلما صلّينا العشاء قال لي: تأكل؟ فقلت: نعم، قال: ادخل داخل الكهف فكل ما تجد، فدخلت فوجدت صخرة عليها جوز وزبيب[1] وخرنوب[2] وتفاح وتين وحبّة الخضراء، كل واحد من ذلك في ناحية، فأكلت منه ما أردت، فلما كان وقت السحر أوتر، وذلك أنه لم ينم في ليلته ثم أكل مما كان هناك، وجلس حتى صلّينا الفجر فنام وهو جالس إلى أن طلعت الشمس وارتفعت نحو رمحين، ثم قام فتوضأ ودخل الكهف، فقلت له: من أين هذه الفاكهة، فما رأيت أطيب منها، قال: فسترى ذلك معاينة، فدخل طائر جناحاه أبيضان وصدره أحمر ورقبته خضراء، وفي مِنقاره حبّة زبيب وبين رِجليه جوزة، فوضع الزبيبة على الزبيب والجوزة على الجوز، فلما أحسّ بجناحيه قال لي: رأيته؟ قلت: نعم، قال: هذا الطائر يأتيني بهذه الفاكهة منذ ثلاثين سنة، قلت: كم يتردّد إليك في اليوم؟ قال: سبع مرّات، فعددت فإذا به تردّد في اليوم خمس عشرة مرّة، فعرّفته بذلك، فقال: قد زادك مرّة اجعلنا في حلّ، ورأيت عليه

---

(١) الزبيب: العنب المجفّف.

(٢) الخرنوب: شجر مثمر من الفصيلة القرنية، ثماره قرون سكرية تؤكل وتعلفها الماشية ويتخذ منها دبس.

Marfat.com

من اللباس من لِحاء[1] شجر يشبه الموز، فقلت له: من أين لك هذا؟ فقال: يأتيني هذا الطائر في كلّ يوم عاشوراء بعشر قطع من هذا اللحاء، فأصنع منه قميصًا ومئزرًا، وكانت عنده مسلّة يخيط بها اللِّحاء ورأيت تحته مما قد خلق من ذلك مفروشًا، ورأيت عنده حجرًا يصبّ عليه الماء، ثم يأخذ الماء الذي ينزل منه، فيمسح به الشعر الذي ينبت عليه فيحلقه، وكنت عنده جالسًا فدخل عليه سبعة نفر أعينهم مشقوقة بالطول حُمْر، وكانت ثيابهم شعورهم، فقال لي بالفارسية: لا تجزع منهم فإنهم من مسلمي الجنّ، فقرأ عليه أحدهم سورة طٰه وآخر سورة الفرقان وآخر تلقن من سورة الرحمٰن آيات، ثم خرجوا؛ وسمعته وهو ساجد في بعض الأيام يقول في سجوده: اللّهمَّ امنُن عليّ بإقبالي عليك وإصغائي إليك وإنصاتي لك والفهم عنك والبصيرة في أمرك، والنفاد في خدمتك وحُسْن الأدب في معاملتك، ورفع صوته فقلت له: من أين لك هذا الدعاء؟ فقال: ألهمته، ولقد كنت أدعو به في بعض الليالي فسمعت هاتفًا يهتف بي يقول: إذا دعوت بهذا الدعاء ففخّم فإنه مُستجاب، فأقمت عنده أربعة وعشرين يومًا، ثم قال لي: حدّثني بقصتك كيف وصلت إلى هٰنا؟ فحدّثته، فقال: لو علمت أن قصتك هذه ما تركتك عندي هذه المدة، لأنك قد شغلت قلوب إخوانك، وقد ندموا على ما فرّطوا في أمرك، ورجوعك إليهم أفضل من مقامك عندي، فقلت له: فإني ما أعرف الطريق فسكت، فلما كان وقت زوال الشمس قال: قم حتى تمضي، فقلت له: أوصني بوصية، فقال لي: عليك بالجوع والأدب، فإني أرجو أن تلحق بالقوم، وأهدي لك أيضًا هدية اطلب الزيارة بعد العصر بين زمزم والمقام رجلاً ووصفه لي، ثم قال: إذا لقيته فاقرأ عليه السلام واسأله يدعو لك، ثم خرج من الكهف وأنا معه، وإذا بسبع قائم على باب الكهف، فتكلم معه بكلام لم أفهمه، ثم قال لي: اتبعه، فإذا وقف فانظر عن يمينك أو عن يسارك، فإنك تجد الطريق، فسار السبع أمامي ساعة ثم وقف، فنظرت عن يميني، فإذا أنا على عقبة دمشق، فدخلت الجامع فلقيت بعض مَن كان معنا، فحدّثته الحديث وخرجنا جميعًا ومعنا خلق كثير حتى صرنا إلى ذلك الجبل وذلك الموضع بعينه وطلبنا الكهف ثلاثة أيام فلم نجده، فقالوا لي: هذا شيء كشف لك وغُطّي عنّا، فكنت أحجّ كلّ سنة، وألتمس الرجل الذي وصفه لي، فما كنت أراه حتى كان بعد ذلك بثمان سنين، رأيت ذلك الرجل على ما وصفه لي بين زمزم والمقام بعد العصر، فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، فسألته الدعاء، فدعا لي بدعوات، فقلت له: إن إبراهيم الكرماني يُقرئك السلام، فقال لي: وأين رأيته؟ قلت: في جبل لبنان، فقال لي: رحمه الله تعالى، فقلت له: أو قد مات؟ قال: نعم الساعة دفنته عند إخوانه في الغار الذي كان فيه، وصلّينا عليه، فبينما نحن نغسله إذا

---

(١) اللحاء: قشر كل شيء، وقشر الشجر (ج) لحيّ وألحية.

Marfat.com

بالطائر الذي كان يأتيه بقوته قد سقط، فلم يزل يضرب بجناحيه حتى مات، فدفنّاه عند رِجليه، ثم قام الرجل فدخل الطواف فلم أره بعد ذلك، رضي الله تعالى عن الجميع ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية الثامنة بعد الأربع مئة: عن بعضهم) قال: ركبت في مركب البحر ومعي رفيق لي، فلما سار المركب سكنت الريح، فطلبوا مرسى وقرّبوا المركب من الساحل، وكان إلى جنبي شاب حسن الوجه، فنزل إلى الساحل ودخل بين أشجار على شاطىء البحر، ثم رجع إلى المركب؛ فلما غابت الشمس قال لي ولصاحبي: إني ميت الساعة ولي إليكما حاجة، قلنا: ما هي؟ قال: إذا أنا متّ فكفّناني بما في هذه الرزمة، وخذا هذه الثياب التي عليّ ومخلاتي، فإذا دخلتما مدينة صور، فأوّل مَن يلقاكما ويقول لكما هاتا الأمانة فادفعاها إليه؛ فلما صلّينا المغرب حرّكنا الرجل فإذا هو قد مات، فحملناه إلى الشطّ وأخذنا في غسله وفتحنا الرزمة، فإذا فيها ثوبان أخضران مكتوبان بالذهب، وثوب أبيض فيه صرّة فيها شيء كأنه الكافور، ورائحته رائحة المسك، فغسّلناه وكفّنّاه في ذلك الكفن، وحنّطناه بما كان في الصرّة من الطيب، وصلّينا عليه ودفنّاه. فلما دخلنا مدينة صور استقبلنا غلام أمرد حسن الوجه، عليه ثوب شرب، وعلى رأسه منديل ديبقي، فسلّم علينا وقال: هاتا الأمانة، فقلنا له: نعم وكرامة، ولكن ادخل معنا هذا المسجد نسألك عن مسألة، قال: نعم، فدخل معنا المسجد، فقلنا له: أخبرنا عن الميت، ومَن أنت، ومن أين له ذلك الكفن؟ فقال: أما الميت فكان من البدلاء من الأربعين وأنا بدله. وأما الكفن فإنه جاء به الخضر عليه السلام، وعرّفه أنه ميت، ثم لبس الثياب التي كانت معنا، ودفع إلينا الثياب التي كانت عليه، وقال: بيعاها وتصدّقا بثمنها إن لم تحتاجا إلى لبسها، فأخذناها ودفعنا السراويل إلى المُنادي يبيعه، فلم نشعر إلا والمُنادي قد جاء ومعه جماعة فأخذونا إلى دار كبيرة، وإذا فيها جماعة وإذا بشيخ يبكي وصراخ النساء في الدار، فلما وصلنا إلى الشيخ سألنا عن السراويل والتكة[1]، فحدّثنا الحديث، فخرّ ساجدًا لله تعالى، ثم رفع رأسه وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي مثل هذا، ثم صاح بأمه وقال لنا: حدّثاها الحديث، فحدّثناها، فقال لها الشيخ: احمدي الله تعالى الذي رزقك مثله، فلما كان بعد سنين بينما أنا واقف بعرفات، وإذا إنا بشاب حسن الوجه عليه مِطْرَف خزّ[2]، فسلّم عليّ وقال: أتعرفني؟ قلت: لا، فقال: أنا صاحب الأمانة الصوري، ثم ودّعني وغاب عني وقال: لولا أن أصحابي

---

(١) السراويل: (مع) لباس يغطي السّرة والركبتين وما بينهما (البنطال). التّكّة: رباط السراويل (ج) تكك.

(٢) المطرف: رداء أو ثوب مربع ذو أعلام، مصنوع من الخزّ (ج) مطارف.

Marfat.com

ينتظرونني لأقمت معك، فمضى وتركني، فإذا أنا بشيخ خلفي من أهل المغرب كنت أعرفه يحجّ كلّ سنة، فقال لي: من أين تعرف هذا الشاب؟ فقلت: هذا يقال إنه من الأبدال الأربعين، فقال: هو اليوم من العشرة، وبه يُغاث الناس والعباد رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبأمثاله.

(الحكاية التاسعة بعد الأربع مئة) قال بعض الشيوخ: دخلت أنا وعشرة نفر في جبل لكاه، فسرنا فيه أيامًا، وانحدرنا إلى وادٍ فإذا فيه بحيرة ماء عذب، وإذا على شاطىء البحيرة مسجد من حجر أبيض، وإذا بعين ماء من حجر تحت المسجد تجري إلى البحيرة فجلسنا فيه، فلما كان وقت الظهر جاء رجل فأذّن، ثم دخل فسلّم علينا وصلّى ركعتين، ثم أقام الصلاة، فدخل شيخ ومعه ثلاثون رجلاً، فتقدّم إلى المحراب وصلّى بنا، ثم انصرفوا ولم يكلّمونا، فلما كان وقت العصر صلّينا نحن ولم نرهم؛ فلما كان وقت المغرب جاء الرجل فأذّن وأقام الصلاة فتقدّم الشيخ فصلّى بنا، ثم قاموا يصلّون إلى أن غاب الشفق[1] الأحمر، ثم أذّن وأقام وصلّى بنا الشيخ العشاء ثم انصرفوا ولم يكلّمونا ولم نكلّمهم، فلما كان بعد ساعة جاء رجل منهم معه شيء فوضعه في زاوية المسجد، ثم قال لنا: هلمّوا رحمكم الله، فقمنا إليه، فإذا نحن بمنديل أبيض لم نرَ مثله تحت مكبّة من زمرّد أخضر، فكشفناها فإذا بمائدة من ياقوت أحمر عليها طعام يشبه الثريد، فأكلنا منه، فكنا نأكل ولم ينقص منه شيء، فلما كان وقت السحر جاء ذلك الرجل فحمل المائدة، ثم أذّن وأقام الصلاة، فتقدّم الشيخ فصلّى بنا وجلس في محرابه، فختم القرآن، فحمد الله وأثنى عليه، ودعا بدعاء حسن، ثم قال: إنّ الله تعالى افترض على خلقه فريضتين في آية واحدة، والخلق عنها غافلون، فقلت: وما هي رحمك الله؟ فقال لي: تقدّم جبرك الله، فقدّمني على الجماعة وقال لي: نعم يا بنيّ جبرك الله، قال الجليل جلّ جلاله: ﴿إن الشيطان لكم عدوّ﴾ [فاطر: ٦] فوصفه بالعداوة لنا، ثم قال: ﴿فاتخذوه عدوًّا﴾ [فاطر: ٦] فهذا أمر منه لنا أن نتخذه عدوًّا، قال: فقلت له: كيف نتخذه عدوًّا ونتحصّن منه؟ فقال: اعلم رحمك الله، أن الله جلّ جلاله جعل لكل مؤمن سبعة حصون، فقلت: وما هذه الحصون؟ قال: الحصن الأوّل من ذهب، وهو معرفة الله تعالى، وحوله حصن من فضة وهو الإيمان بالله، وحوله حصن من فخار وهو الأمر والنهي والقيام بهما وحوله حصن من الزمرّد وهو الصدق والإخلاص في جميع الأحوال، وحوله حصن من لؤلؤ رطب وهو أدب النفس، فالمؤمن من داخل هذه الحصون، وإبليس من ورائها ينبح كما ينبح الكلب، والمؤمن لا يبالي به لأنه قد تحصّن بهذه الحصون، فينبغي للمؤمن أن لا يترك أدب النفس في أحواله، ولا يتهاون به في كلّ ما

---

(١) الشَّفَق: حُمرة تظهر في الأفق حيث تغرب الشمس، وتستمر من الغروب إلى قبيل العشاء تقريبًا.

Marfat.com

يأتيه، فإن مَن ترك أدب النفس وتهاون بها يأتيه الخذلان من فوق لتركه الأدب، ولا يزال إبليس نعوذ بالله منه يعالجه ويطمع فيه حتى يأخذ منه الحصن الأوّل، ثم لا يزال يأخذ منه حصنًا بعد حصن إذا ترك الأدب ويطمع فيه، ويأتيه الخذلان من الله تعالى لتركه حُسْن الأدب حتى يأخذ منه جمع الحصون السبعة ويردّه إلى الكفر فيخلد في النار، نعوذ بالله من جميع ذلك ونسأله التوفيق وحُسْن الأدب، قال: فقلت له: أوصني بوصية، قال: نعم جبرك الله اجتهد في رِضا خالقك بقدر ما تجتهد في رِضا نفسك، واعمل في دنياك بقدر مقامك فيها، واعمل لربك بقدر حاجتك إليه، وأطع إبليس لعنه الله بقدر نصحه لك، وهي الخديعة منه، وارتكب من المعاصي بقدر طاقتك على النار، واحفظ لسانك عمّا لا ترجو فيه ثوابًا كما تحفظ نفسك من سلعة لا ترجو فيها ربحًا واترك أربعة لأربعة، ثم لا تبالي متى متّ اترك الشهوات إلى الجنة والنوم إلى القبر، والراحة إلى الصراط، والفخر إلى الميزان، ثم قام ومشى وأقمنا يومنا ذلك؛ فلما كان الليل جاء الرجل ومعه تلك المائدة وعليها مثل ذلك الطعام، فأكلنا وأقمنا عندهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع ودّعنا الشيخ وقال في آخر كلامه لنا: يا فتيان استروا المكان يستركم الله في الدنيا الآخرة، فانصرفنا من عندهم، وسرنا في وادٍ على جانبه أشجار مثمرة من كل لون من الثمر، فرأينا من بعيد على شاطىء النهر كركيًا[1] قائمًا، فقربنا منه فإذا هو مطموس العينين، فبقينا نتعجب من أمره، فبينما نحن قيام إذ أقبلت نحلة سوداء خلفها نحل كثير، فلما وصلت إلى الكركي دنت، ففتح منقاره، فوضعت النحلة فيه عسلاً، ولم يزل النحل يدخلن واحدة بعد واحدة، ويصببن العسل في فمه ولم يبقَ منهنّ شيء، فامتلأ فمه من العسل، فأطبق عليه منقاره فسقط منه شيء من العسل، فأخذته وأكلته وانصرفنا رضي الله تعالى عنه وعن جميع الصالحين ونفعنا بهم. قلت: ذكر الشيخ المذكور رضي الله تعالى عنه أن الشيطان نعوذ بالله منه لا يزال يأخذ الحصون المذكورة حتى يَرِد العبد إلى الكفر فيخلد في النار، نعوذ بالله من ذلك، وما قاله في نهاية الحسن والتحقيق ولكن قد يستولي الشيطان على بعض الحصون المذكورة دون بعض، فيؤدي العبد إلى الفسق دون الكفر فيستحق النار من غير تخليد، وقد لا يؤديه إلى الفسق، ولكن يردّه إلى أضعف الإيمان فلا يستحقّ النار، ولكن يستحقّ النزول عن مقام أهل الإيمان الكامل، وفي هذا التفاوت بحسب تفاوت الحصون المذكورة، فليس أخذ حصني المعرفة والإيمان كأخذ بقية الحصون المذكورة، وبقية الحصون تتفاوت أيضًا، فليس أخذ حصني الصدق والإخلاص كأخذ حصني الأمر والنهي، وكذلك سائر الحصون،

(١) الكركي: طائر كبير من الفصيلة الكركية ورتبة طوال الساق، أغبر اللون، طويل العنق والساقين، أبتر الذنب، قليل اللحم، يأوي إلى الماء أحيانًا (ج) كراكي.

Marfat.com

والكلام فيها يطول، ولكن مهما بقي حصن الإيمان وحصن التوكّل الكاملين للعبد لم يقدر عليه الشيطان، لقوله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [النحل: ٩٩] وهؤلاء هم المتّصفون بالعبودية الكاملة لقوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢]، وهم المؤمنون حقًّا لقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال: ٢] ثم قال في آخر وصفهم: ﴿أولئك هم المؤمنون حقًا﴾ [الأنفال: ٤] وقد يكون أخذ حصن واحد مؤديًا إلى الكفر، موقعًا في التخليد في النار كحصن الإيمان، ولكن لا يقدر على الوصول إلى أخذ حصن الإيمان حتى يأخذ الحصون التي حوله إن كانت موجودة فنسأل الله الكريم التوفيق والهدى، والسلامة من الزيغ والردى.

(الحكاية العاشرة بعد الأربع مئة: عن بعضهم) قال: كنت جالسًا في مسجد رسول الله ﷺ ومعي رجل من أهل البحرين يقال له: خير، فدخل علينا من باب المسجد سبعة أنفس، فقال خير: الحق بالقوم لا يفوتوك، فإنهم أولياء، فقمت خلفهم فإذا هم عند قبر النبي ﷺ قيام، فتقدمت إليهم، فالتفت إليّ واحد منهم، فداخلني الرعب حتى بلْتُ، فخرج القوم وخرجت معهم، فالتفت إليّ واحد منهم وقال لي: إلى أين تأتي؟ ارجع فإنك لا تلحقنا، فقال له واحد منهم: دعه لعلّ الله يجبره، فقال له: ما له أربعون سنة، فقال: دعه لعلّ الله يجبره فيلحقه بدرجة القوم، فسرت معهم، فكنت أرى ونحن نسير كأن الجبال والأرض تُطوَى فنرى من بعيد جبل فنجوزه ونرى سهلاً من بعيد فنجوزه في الحال وكنت أسمع دبيب الأرض مثل الرّحى وكنت أرى كنوز الأرض تظهر لنا وتغيب عنّا حتى وصلنا إلى وادٍ كثير الشجر كثير النبات، فإذا أقوام يصلّون بوادٍ نحوًا من سبعين رجلاً، فبتنا في ذلك الوادي، فلما أصبحنا وطلعت الشمس قمنا، فإذا نحن بمدينة عليها سور أبيض من حجارة قطعة واحدة ونهر عظيم يدخل إليها، وليس للمدينة باب إلا من الموضع الذي يدخل منه الماء، وعليه شباك من ذهب، فدخلناها جميعًا ونحن نحو من مئة نفس، فإذا فيها قِباب من ذهب، وتحتها عمد من ذهب وفضة، وفيها أنهار من ذهب يجري فيها الماء وأشجار بين القِباب مُثمِرة، وأرضها مفروشة بنبات الريحان، وفيها طيور من كلّ لون، وثمار كثيرة وتفاح وزن كل تفاحة نحو من خمسة أرطال بالبغدادي، وكل تلك الفاكهة لا تشبه فاكهة الدنيا في الطعم واللون والريح، وكنّا نأكل من التفاح وغيره، وكان أحدنا يأكل في الوقت منه ومنتين ولا يشبع من التفاح والسفرجل والرّمّان والكمثرى[1]، ومن كل نوع من الثمار إلا النخل، فأقمنا بها أربعين يومًا ليس لنا فيها

---

(١) الكُمثرى: شجر مثمِر يسمى في الشام الإنجاص. واحدته كمثراة.

Marfat.com

عمل إلا الصلاة والأكل، وكنّا لا نحتاج إلى وضوء ولا شرب ماء ولا نوم، فلما كان بعد الأربعين خرجنا منها، فأخذت منها ثلاث تفاحات فلم يمنعوني، فخرجنا من الموضع الذي يدخل منه الماء، وكنّا دخلنا منه؛ فلما سرنا ساعة قالوا لي: أين تريد نوصلك؟ فقلت: الموضع الذي أخذتموني، وسألتهم عن اسم المدينة، فقال لي واحد منهم؛ هذه مدينة الأولياء خلقها الله عزّ وجل نزهة لأوليائه في دار الدنيا، فمرة تظهر لهم باليمن، ومرّة تظهر لهم بالشام، ومرّة بالكوفة، ولم يدخل هذه المدينة مَن لم يبلغ الأربعين غيرك؛ فلما كان بعد ساعة انتهينا إلى موضع، فقلت: ما هذا الموضع؟ قالوا: اليمن، وكنت آخذ من التفاح قطعة صغيرة فما أحتاج إلى طعام أيامًا كثيرة، ولم يزل معي التفاح آكل منه إلى أن دخلت مكة فلقيت الكناني فأعطيته من التفاح واحدة، فلما كان اليوم الثاني لَقِيَني رجل فقال لي: لِمَ فعلت هذا، ولِمَ حدَّثت بما رأيت؟ فقد أخذنا ما أعطيت الكناني ورددناه إلى مكانه، فلقيت الكناني فقال: كانت عندي في حق، فلما أمسيت ذهبت لآكل منها فلم أجدها. قلت: وقد تقدّمت في هذا الكتاب حكاية تشبه هذه وليست هي هي، وفي كل واحدة منها أشياء ليست بالأخرى وكل ذلك ممكن من قدرة الله تعالى وسائر في كرامات أوليائه رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم أجمعين.

(الحكاية الحادية عشرة بعد الأربع مئة: عن الشيخ أبي عمران الواسطي رضي الله تعالى عنه) قال: خرجت من مكة أريد زيارة قبر النبي ﷺ، فلما خرجت من الحرم أصابني عطش شديد حتى أيِسْتُ من نفسي، فجلست تحت شجرة أُم غيلان آيِسًا من نفسي فإذا فارس قد أقبل على فرس أخضر، وسرجه ولجامه وثيابه وآلته خُضر، وفي يده قدح أخضر، فيه شراب أخضر، فدفعه إليّ، وقال لي: اشرب، فشربت ثلاث مرات لم ينقص مما في القدح شيء، ثم قال لي: أين تريد؟ فقلت: المدينة لأُسلِّم على النبيّ ﷺ وأُسلِّم على صاحبيه رضي الله عنهما، فقال: إذا وصلت وسلّمت على النبيّ ﷺ وعليهما، فقل لهم: رضوان يُقرئكم السلام. وكذلك رُوِيَ أيضًا عن بعض الصالحين قال: كنت جالسًا في بيت المقدس عند منبر سُلمان عليه السلام يوم الجمعة بعد صلاة العصر، وإذا أنا برجلين يشبه أحدهما خلقنا والآخر طويل عظيم الخلق، كان عرض جبهته أكثر من ذراع، وكان فيها ضربة قد خِيطَت، فجلس الذي يشبهنا عند وسلّم عليّ، وجلس الآخر بعيدًا مني فقلت له: مَن أنت يرحمك الله؟ قال: أنا الخضر؟ فقلت: ومَن ذلك الرجل؟ قال: أخي إلياس، فداخَلَني ما يُداخل مثلي، فقال لي لا بأس عليك نحن نحبك، ثم قال لي: مَن صلّى العصر يوم الجمعة ثم استقبل القِبلة فقال: يا ألله يا رحمٰن إلى أن تغرب الشمس، ثم سأل الله تعالى شيئًا أعطاه إياه، فقلت له: آنستني آنسك الله بذكره، هل كل وليّ في الأرض تعرفه؟ قال: المعدودين، قلت: وما معنى المعدودين؟

Marfat.com

قال: إنه لمّا قبض النبيّ ﷺ شَكَت الأرض إلى ربها سبحانه وتعالى، فقالت: بقيت لا يمشي عليّ نبيّ إلى يوم القيامة، فأوحى الله تعالى إليها أني سأجعل من هذه الأمة رجالاً مثل الأنبياء، قلوبهم على قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال: فقلت له: كم هم؟ قال: ثلاثة مئة وهم الأولياء، وسبعون هم النجباء، وأربعون وهم أوتاد الأرض، وعشرة وهم النقباء، وسبعة وهم العرفاء، وثلاثة وهم المُختارون، وواحد وهو الغوث، فإذا مات الغوث اختير من الثلاثة واحد فجعل في مرتبته، واختير من السبعة واحد فجعل في الثلاثة واختير من العشرة واحد فضم إلى السبعة ومن الأربعين إلى العشرة ومن السبعين إلى الأربعين ومن الثلاثمائة إلى السبعين واختير من الدنيا واحدًا إلى الثلاثمائة يعني من أهل الدنيا هكذا إلى يوم يُنفَخ في الصور، ومنهم مَن قلبه مثل قلب موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ومنهم مَن قلبه مثل قلب نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فقلت له: مثل قلب إبراهيم تعظيمًا له؟ قال: نعم، ومثل قلب جبريل وداود وسليمان عليهم الصلاة والسلام، أما سمعت قول الله سبحانه: ﴿فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠] فما مات نبيّ إلا وعلى طريقه رجل يسلكها إلى يوم القيامة، فلو أن الأربعين اطّلعوا على قلوب العشرة لرأوا قتلهم ودمائهم حلالاً وكذلك السبعون لو اطّلعوا على قلوب الأربعين لرأوا قتلهم ودماءهم حلالاً أو ترى ما كان من قصة موسى معي؟ قال: فقلت له: مِمَّ طعامك؟ قال: من الكرفس[(١)] والكمأة[(٢)] قلت: فما طعام إلياس؟ قال: رغيفان من الحواري كل ليلة، قلت: وأنت وهو أين مقامكما؟ قال: في جزائر البحر، قلت: وهل تجتمعان؟ قال: نعم إذا مات وليّ صلّينا عليه، وإذا كان موسم الحج اجتمعنا فيه، فيأخذ من شعري وآخذ من شعره، قلت: فعرّفني أسماء هؤلاء القوم الذين سمّيتهم فأخرج درجًا من كُمّه فيه أسماء القوم كلهم قد كتبهم، ثم قام فقمت معه، فقال لي: إلى أين؟ فقلت: أمشي معك، فقال: لا سبيل لك إلى ذلك، فقلت: إلى أين تقصد؟ فقال: وما تريد من ذلك؟ فقلت: أُصلّي معك وأتبرّك، فقال: إني أُصلّي الغداة بمكة، ثم أجلس في الحِجر عند الركن الشامي إلى أن تطلع الشمس، ثم أطوف بالبيت سبعًا، ثم أُصلّي خلف المقام ركعتين، ثم أُصلّي الظهر بالمدينة والعصر ببيت المقدس والمغرب بطور سيناء والعشاء على سدّ ذي القرنين ثم لا أزال أحرس إلى الغداة، عليه وعلى جميع المذكورين السلام.

---

(١) الكَرَفْسُ: بقل من الفصيلة الخيمية ساقه عشبية قصيرة وغليظة، وجذوره عمودية تؤكل ضلوع ورقه أو جذوره خضرًا أو مطبوخة.

(٢) الكمأة: واحدة الكمء: جنس فطور من فصيلة الكمئيات، لها لون يميل إلى الغبرة، تنبت وتتكاثر تحت الأرض، فتُجنى وتُؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع.

Marfat.com

(**الحكاية الثانية عشرة بعد الأربعة مئة: عن بعض المشايخ**) قال: ورد عليّ كتاب من أبي بكر محمد بن الشقيق يذكر فيه ما في رقبته من الأمانات، ويسألني الدعاء أن يخلصه الله تعالى منها في الدنيا، فخرجت من المنزل أريد صلاة الظهر، فلما فتحت الباب إذا برجل عليه ثياب خُضْر وعليه تاج من جوهر وله شعاع، فسلّم عليّ وقال: ما عزمك أن تكتب إلى محمد الشقيق؟ فقلت له: ما تأمر به، فقال: اكتب إليه بعد يومنا هذا إلى تمام ستة عشر يومًا يكفن في قبره، فقلت له: أحكيه عنك؟ فقال: لا اكتب إليه فإنه يصدقك فتكتب إليه ثلاثة كتب أعرّفه فيها بميتته فلما وصلت إليه هيّأ وصيته وفرغ منها وفي اليوم السادس عشر من اليوم الذي كتب إليه مات رحمه الله تعالى، فرأيته في المنام، فقال لي: جزاك الله من أخ خيرًا وكان بيني وبينه معاهدة أن مَن سبق منّا إلى الجنة يشفع في صاحبه، فقلت له: العهد الذي بيني وبينك، فقال: أنا على ذلك، وقد وهب لي ممّن لم يكن بيني وبينه معاهدة خلق لا يحصون، فقلت: وأنا؟ قال: أنت أخصّهم وأفضلهم، رضي الله تعالى عن جميع الصالحين ونفعنا بهم آمين.

(**الحكاية الثالثة عشرة بعد الأربعة مئة: عن بعضهم**) قال: خرجت من عدن مع رفقة لي، فلما جنّ[1] علينا الليل أصابني شيء في رِجلي فبقيت وحدي على شاطىء البحر، فجلست على الساحل ولم يكن معي شيء وكنت صائمًا، فبينما أنا كذلك وقد مهّدت لنفسي لأنام، فإذا أنا برغيفين وبينهما طائر مشوي، فأخذت الطائر فتركته ناحية، فإذا أنا بأسود في يده عمود من حديد، فقال لي: كل يا مُرائي، فأكلت بعض الطائر مع رغيف، وأخذت الرغيف الآخر وما بقي من الطائر فجعلته في خرقة معي ووضعته عند رأسي ونمت، فانتبهت وإذا الخرقة تحت رأسي وما فيها شيء. وقال أيضًا: رأيت الغوث وهو القطب رضي الله تعالى عنه بمكة سنة خمس عشرة وثلاث مئة في عجلة من ذهب، والملائكة يجرّون العجلة في الهواء بسلاسل من ذهب، فقلت: إلى أين تمضي؟ فقال: إلى أخ من إخواني اشتقت إليه، فقلت: لو سألت الله تعالى أن يسوقه إليك، فقال: وأين ثواب الزيارة؟ قال: واسم هذا القطب أحمد بن عبد الله البلخي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. قلت: وسيأتي الكلام على هذه الحكاية في آخر الكتاب في فصل الجواب عن إنكار بعض المنكرين، والله الموفّق.

(**الحكاية الرابعة عشرة بعد الأربعة مئة: عن بعض المشايخ**) قال: كنت جالسًا ومعي جماعة من الصالحين بمكة وفينا رجل هاشمي، فغشي عليه، فلما أفاق قال: أما رأيتم ما رأيت؟ قلنا: ما رأينا شيئًا، قال: رأيت الملائكة مُحرِمين يطوفون حول الكعبة،

---

(١) جنّ الليل: أظلم.

Marfat.com

فقلت لهم: مَن أنتم؟ قالوا: ملائكة، فقلت: كيف حبّكم لله تعالى؟ فقالوا: نحن حبّنا جواني وحبّكم براني، فقلت: يعنون حبّنا من الله فنزل منها خلق لا يُحصى عددهم إلا الله تعالى وهم يقولون: سبحان مَن هو هو، سبحان مَن ليس إلا هو، أهيا شرًا هيا فلم يزالون يقولون هذا، فلما كان آخر الليل قال لي واحد منهم كان إلى جانبي: ما قصتك؟ قلت: أحببت أن أُصلّي في هذا الموضع بالليل، مَن أنتم؟ فقالوا: نحن الملائكة، دخلنا أمس البيت المعمور ولا نعود إليه إلى يوم القيامة، وذلك أنه يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة لا يعودون إلى يوم القيامة، فإذا دخلوا في يومهم ساروا في تلك الليلة إلى بيت المقدس وإلى الصخرة، ثم يمضون إلى بيت الله الحرام، فيطوفون به أسبوعًا ويصلّون خلف المقام ركعتين، ثم يمضون إلى المدينة فيسلّمون على النبيّ ﷺ ثم يرجعون إلى مصافهم، فلما صعدوا انضمّت القبة وأصبح الصبح. وعن بعضهم قال: كنت بجبل النور بالمصيصة، فدخل رِجلي عظم عظيم، فاجتهدت في نفسي كل الجهد أن أخرجه فلم أقدر على ذلك، وبقي في رِجلي أيامًا كثيرة حتى ورمت وانتفخت واسودّت وصارت مثل الزق[1]، فبقيت مُلقى تحت شجرة، فغلبتني عيناي، فنمت فوجدت رائحة، ففتحت عيني فإذا بحيّة سوداء قد وضعت فمها على الموضع الذي فيه العظم وجعلت تمصّه وترمي القيح والدم، فغمضت عيني، فلم تزل تمصّ وترمي الدم حتى وصلت إلى العظم، فحرّكته وأخرجته، ثم أحسست بشيء ليِّن مسح على رِجلي، فلا أدري ذلك لسانها أو ذنبها، فجلست فإذا أنا بالدم والعظم مطروحين وأنا لا أدري أيّ الرِّجلين كانت تؤلمني، وزال ما عندي من الألم، والحمد لله على ذلك حمدًا كثيرًا، فسبحان الله اللطيف الخبير، الذي هو على كلّ شيء قدير.

(الحكاية الخامسة عشرة بعد الأربع مئة: عن بعض الصالحين) قال: وصف لي باب من الأبواب ثلاثة نفر من البدلاء العشرة، فقصدتهم وسألت عنهم، فإذا واحد منهم إمام بالجامع فرأيت عليه ثيابًا جميلة وبزّة[2] حسنة، وله عمامة كبيرة يديرها، واسمه إبراهيم، واسم الآخرين الحسن والحسين، فجئت إلى إبراهيم الإمام بين المغرب والعشاء، فسلّمت عليه وقلت له: إني قصدتك، ففرح بي، فلما صلّينا العشاء أخذ بيدي ومضينا إلى منزله، وإذا قصر عظيم وحاشية كثيرة، فقدّم لنا مائدة كبيرة عليها طعام كثير، فجلس معنا الحسن والحسين ولم يجلس معنا إبراهيم فأكلنا وسألتهما عنه فقال: إنه لا يأكل إلا اللبن فلما كان وقت النوم فرش له فرشًا كثيرة فنام عليها فلم أزل أُراقبه فلما كان في بعض الليل نزل من الفراش فصلّى ركعتين من غير أن يتوضأ، فقرأ في الأولى فاتحة

---

(١) الزِّقّ: وعاء من جلد يُتّخذ للماء أو الشراب (ج) أزقاق وزقاق.

(٢) البِزّة: الهيئة.

Marfat.com

الكتاب، و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [الكافرون: ١]، وفي الأخرى فاتحة الكتاب، و﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١]، فلما سلّم قال: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير كله، وهو على كلّ شيء قدير، اللّٰهمَّ لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت ولا رادّ لما قضيت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ. قالها ثلاثًا رافعًا بها صوته، ثم صلّى ركعتين أُخريين، فقرأ في الأولى منهما الفاتحة، و﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ [الفلق: ١]، وفي الثانية الفاتحة، و﴿قل أعوذ بربّ الناس﴾ [الناس: ١]، فلما سلّم قال مثل ما قال من الذِّكر المذكور ثلاث مرات؛ ثم صلّى ركعتين أُخريين فقرأ في الأولى فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، وفي الأخرى فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد ثلاث مرات، ثم رجع بعد الذِّكر المذكور إلى فراشه، فلما كان وقت الفجر قام وأذّن وصلّى ركعتي الفجر من غير أن يجدّد وضوءًا، ثم خرج إلى الصلاة، فأقمت عندهم شهورًا على هذا فلما كان يوم عَرَفَة قال لي: اقرأ اليوم سورة الأنبياء وسورة الحجّ، وكلما مررت بذكر نبيّ من الأنبياء فصلِّ عليه وعلى محمد ﷺ فإنك إذا فعلت ذلك أعطاك الله تعالى ثواب مَن حجّ إلى بيته الحرام؛ فلما صلّى الضحى جاءني الحسن وأخذ بيدي من المسجد فجئنا إلى الدار، فإذا القوم قد تهيؤوا للإحرام، فدفع إليّ إزارين وقال لي: انوِ الاحرام، ثم خرجنا من الدار وقد حملوا معهم سطلاً صغيرًا مملوءًا دراهم صِحاحًا، فلما جاوزنا المقابر صلّينا ركعتين وقال لي: انوِ الحجّ، فنويت، ثم لبّوا فلبيت معهم، وسجدوا فسجدت معهم؛ فلما كان بعد ساعة رفعوا رؤوسهم ورفعت رأسي معهم، فرأيت جبالاً وأرضًا لا أعرفها، ورأيت جِمالاً وناسًا سائرين، فقال لي إبراهيم: هؤلاء قوم خارجون من مِنًى يريدون عَرَفَة، ثم أخذوا بيدي فسرنا حتى وافينا مسجد عرفات، فاشتروا ماء فاغتسلنا، واشتروا تمرًا وخبزًا، فقال لي إبراهيم: كل، فقلت: إني صائم، فقال: لا تخالف نبيّك محمدًا ﷺ فقد أفطر في مثل هذا اليوم؛ فلما كان عند غروب الشمس دفعوا إليّ السطل وفيه الدراهم، فقال لي إبراهيم: خذ هذا فاستَعِن به على أمرك وعليك بالشام، ثم افترقنا فلم أرهم بعد ذلك، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم. قلت: قوله أفطر في مثل هذا اليوم، يعني أن النبيّ ﷺ أفطر يوم عَرَفَة بعَرَفَة في حجّة الوداع، والسُّنّة للواقفين الإفطار على الصحيح ولغيرهم الصيام، وصومه يكفِّر السنة التي قبله والسنة التي بعده، هكذا في الحديث، وإنما شرع الفطر للواقفين لأنه أعون على الدعاء والعبادة المشروعة في ذلك اليوم من الأذكار والتلبية وغير ذلك.

(الحكاية السادسة عشرة بعد الأربع مئة) قال بعض الشيوخ: اعتللت علّة شديدة أيِستُ من نفسي وأيِسَ مني مَن رآني، فبينما أنا في أشدّ ما كنت، رأيت في المنام في ليلة جمعة كأن رجلاً دخل عليّ فجلس عند رأسي، ودخل بعده خلق كثير، وكانوا في

Marfat.com

وقت الدخول يشبهون الطيور، فلما جلسوا صاروا في صورة الآدميين، فلم يزالوا يدخلون وعيني على الباب فلما انقطع دخولهم رفع ذلك الرجل رأسه وقال: قصدي هذا البلد لعيادة ثلاثة، أحدهم هذا وأومأ بيده إليَّ، والآخر هو صالح الخلقاني بضمّ الخاء المعجمة وبالقاف وبعد الألف نون، ثم ياء النسبة، ولم أكن أعرفه قبل ذلك، وامرأة لم يُسَمِّها ثم وضع يده على جبيني وقال: بسم الله ربي الله حسبي الله توكلت على الله اعتصمت بالله فوّضت أمري إلى الله ما شاء الله لا قوّة إلا بالله، ثم قال لي: استكثر من قراءة هذه الكلمات، فإن فيها شفاء من كل سقم، وفرجًا من كل كربة، ونصرًا على كل عدو، وأول مَن تكلّم بهذه الكلمات حَمَلَة العرش عليهم الصلاة والسلام حين أُمِروا بحمله، ولا يزالون يقولون ذلك إلى يوم القيامة، فقال له رجل كان جالسًا عن يمينه أو قال عن يساره: يا رسول الله فإن قالها عند لقاء العدو؟ فقال: بخ بخ فيه فتح ونصر وبُشرى، فظننت أنه أبو بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه، فقلت: يا رسول الله هذا الصدِّيق فقال: هذا عمّي حمزة رضي الله تعالى عنه، ثم أومأ بيده إلى مَن كان عن يساره ﷺ، وقال: هؤلاء الشهداء، ثم أومأ بيده إلى مَن وراءه وقال: وهؤلاء الصالحون، ثم خرج فانتبهت وقد خرجت من علّتي وبُرِئتُ منها، وأصبحت أصحّ مما كنت، والحمد لله ربّ العالمين.

(الحكاية السابعة عشرة بعد الأربع مئة: عن بعضهم) قال: لقيت بالبصرة رجلاً يُعرَف بالمسكي وذلك لشدة ما كان يوجد منه من ريح المسك حتى أنه إذا دخل المسجد الجامع يُعرَف أنه قد جاء من شدة الرائحة، وإذا مرّ في الأسواق كذلك، فقصدته وبتّ عنده وقلت له: يا أخي أنت تحتاج إلى مال كثير في ثمن الطِّيب، فقال: ما اشتريت طيبًا قطّ ولا تطيَّبت بطِيبٍ قطّ، وأنا أحدِّثك بحديثي لعلّني إذا متّ تترحّم عليّ إذا ذكرتني، كان مولدي ببغداد وكان أبي مُوسِرًا يعلّمني كما يعلّم الناس أولادهم، وكنت من أحسن الناس وجهًا وكان بي حياء، فقيل لأبي: لو أجلست ابنك في السوق لينشط؟ فأجلسني في دكان بزاز، وكنت أجلس عنده طرفي النهار، فلما كان بعض الأيام جاءت عجوز فطلبت منه متاعًا مترفّعًا، فأخرج لها ما طلبت، فقالت له وجّه معي إنسانًا حتى نأخذ ما نحتاج إليه وندفع له الثمن ونردّ الباقي معه، فقال لي: تنشّط وامضِ معها، فقلت: نعم، فمضيت معها حتى أدخلتني إلى قصر عظيم فيه قبّة وعلى بابه خدم وحُجّاب؛ فلما وصلت إلى صحن الدار إذا أنا ببنيان عظيم فيه قبّة عليها ستارة، فقالت لي: ادخل القبّة فاجلس فيها، فدخلت، فإذا أنا بجارية على سرير عليه فرش وشيّ، وكلّ ذلك مُذَهَّب لم أرَ أحسن منها، وعليها من كل الحليّ، فنزلت عنه وضربت بيدها في صدري وجذبتني إليها، فقلت لها: الله الله، قالت: لا بأس عليك لك عندي ما تحبّ فقلت لها: إني حاقن، فصاحت بالجواري فإذا بهنّ قد أقبلن، فقالت لهنّ: قدّام مولاكنّ إلى الخلاء،

Marfat.com

فلما دخلت الخلاء لم أجد فيه مسلكًا أفرّ منه، فحللتُ سراويلي وتغوّطت في كفّي ومسحت به وجهي ويدي وقلبت عيني، فدخلت جارية بيدها ماء ومنديل، فصِحتُ في وجهها كالمجنون فولّت هاربة مني وقالت: مجنون، فجاء الجواري ومعهنّ بساط فأدرجنني فيه وحملنني وطرحنني في بستان، فلما علمت أنهن مضين، قمت فغسلت ثيابي ووجهي وسائر بدني ومضيت إلى منزلي ولم أُحدّث به أحدًا، فرأيت تلك الليلة في منامي رجلاً، فقال لي: أين يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم خليل الله منك، أتعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا جبريل، فمسح بيده على وجهي وبدني، فمن ذلك الوقت صار لبدني رائحة المسك تفوح على ثيابي، فهذه الرائحة من يد جبريل عليه السلام.

(الحكاية الثامنة عشرة بعد الأربعة مئة): قال بعض الصالحين: كان بعبدان رجل من العباد يُعرَف بالبدوي، فسألت عنه فقيل لي: توفي، وقال الحفّار: لمّا مات البدوي حفرت قبره، فلما بلغت إلى اللحد أردت أن أُسوِّيه فبينما أنا أُساويه إذ سقطت لَبِنَة من لحد قبر، يليه، فنظرت في القبر الذي سقطت منه اللَّبِنَة فإذا بشيخ جالس في القبر عليه ثياب بيض تتقعقع، وفي حِجره مصحف من ذهب مكتوب بالذهب وهو يقرأ فيه، فرفع رأسه إليّ وقال لي: أقامت القيامة رحمك الله؟ قلت: لا، فقال: رُدَّ اللَّبِنَة إلى موضعها عافاك الله، فرددتها رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. وقال بعضهم: ركبت في زورق من البصرة أُريد الأبلة ومعي ثلاثة نفر يشيّعونني، فلما سرنا ساعة رفع الملاّح المِقذاف وجلس، فقال أصحابي للملاّح: ما لك؟ فأومأ إليهم أن اسكتوا، فلم يكن إلا ساعة وقد وصلنا الأبلة، وكان معه زوارق فوصلت قريبًا من العصر، فحدّث أصحاب زورقنا أصحاب الزوارق أنّا وصلنا في ساعة، فمضوا إلى الملاّح وسألوه؟ فقال: اسكتوا، رأيت فارسًا أقبل راكبًا على دابّة لم أرَ أحسن منه ولا من دابّته، فطرح في صدر الزورق سلسلة من ذهب وكان يسير والزورق يجري خلفه على الماء، فخشيت أن أُكلّمكم فيذهب عني ما رأيت.

(الحكاية التاسعة عشرة بعد الأربع مئة) قال بعض المشايخ: خرجت أنا وأبو عليّ البدوي نريد زيارة أخ من إخواننا، فدخلنا البرّية فأصابنا جوع، فإذا بثعلب يحفر الأرض ويخرج منها كمأة ويرمي بها إلينا، فأخذنا منها حاجتنا، ثم سرنا فإذا نحن بسبع عظيم نائم، فلما قربنا منه إذا هو ضرير، فوقفنا عليه نتعجب من أمره، وإذا بغراب[1] معه قطعة

---

(١) الغراب: جنس طير من الجوائم. يطلق على أنواع كثيرة منها الأسود، والعرب يتشاءمون به إذا نعق قبل الرحيل ويسمّونه غراب البين.

Marfat.com

لحم كبيرة فضرب بجناحه على أُذُن السبع، ففتح فمه فطرح فيه القطعة اللحم، فقال لي أبو علي: هذه الآية لنا ليست للسبع، فسرنا في تلك البرية أيامًا، فإذا بكوخ[1] فيها فقصدناه فإذا فيه عجوز كبيرة ليس عندها شيء، وعلى باب الكوخ حجر منقور، فسلّمنا عليها وجلسنا عندها فإذا هي مشغولة بعبادة ربها، فلما غابت الشمس خرجت من الكوخ بعد أن صلّت المغرب ومعها رغيفان عليهما قطعة تمر، فقالت: ادخلوا الكوخ فخذوا ما لكم فيه، فدخلنا فإذا نحن بأربعة أرغفة وقطعتين من تمر، وما في ذلك الموضع نخل ولا تمر، فأكلنا، فلما كان بعد ساعة جاءت سحابة فأمطرت على الحجر حتى امتلأ، ولم يسقط منه خارجًا قطرة واحدة، فقلنا لها: كم لك هٰهنا؟ قالت: سبعين سنة هكذا حالي مع مولاي في قوتي وشرابي كما ترون، فقلنا: هذا الماء على هذه الحالة؟ فقالت: كل ليلة تجيء هذه السحابة في الصيف والشتاء وهذان الرغيفان والتمر، ثم قلت: أين تريدون؟ قلنا: نريد أبا نصر السمرقندي نزوره، فقالت: رجل صالح أبا نصر، تعال إلى القوم فإذا أبو نصر قائم عندنا، فسلّم علينا وسلّمنا عليه، ثم قالت: إذا أطاع العبد مولاه، رضي الله تعالى عنها وعن الجميع ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية العشرون بعد الأربع مئة: عن بعضهم) قال: قال: خرجت أنا ورجل يقال له: محمد العابد من بيت المقدس يوم الجمعة نريد الرملة، فأشرفنا على القبّة وإذا نحن بصوت يقول: ما أوحش الإنسان إذا لم تكن أنيسه، وما أضيق الطريق إذا لم تكن دليله، فأشرفنا فإذا نحن بامرأة عليها جبّة من شعر وخمار من صوف وفي يدها عصًا، فسلّمنا عليها فردّت علينا السلام، وقالت: إلى أين؟ فقلنا: إلى الرملة، فقالت: وما تصنعون فيها؟ قلنا: لنا بها أحباب، قالت: وأين الحبيب الأكبر من قلوبكم؟ قلنا: هو حبيبنا وحبيب المؤمنين، فقالت: هو حبيبكم وحبيب المؤمنين باللسان، وهو حبيبي بلساني وقلبي، فقلنا: إنّا نراك امرأة حكيمة إلا أنّا نرى فيك زلّة، قالت: وما هي؟ قلنا: امرأة شابة تسافر بغير محرم، فقالت: ﴿إن وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦] فأخرجت دراهم من كسائي ودفعتها إليها، فقالت: من أين لك هذه؟ قلت: أنا رجل مباحي، آخذ من الأشياء المباحة، فقالت: نعم كسب الضعيف، قلت: وما ضعفي؟ قالت: ضعف اليقين، قلنا: وما علامة اليقين؟ قالت: ما تبلغ درجة اليقين حتى تضع المقراض[2] على لحمك الذي ربّيته على غير رضاه فتُذيبه حتى ينبت لحم آخر برضاه، فقلنا لها: لكل شيء علامة ودلالة، فما دلالتك؟ فضربت بيدها الأرض فأخذت

---

(١) الكوخ: بيت من قصب أو غيره بلا كوّة، أو مسكن يتخذه الزرّاع قرب زرعه يقيم فيه ليحفظ زرعه (ج) أكواخ.

(٢) المقراض: المقص. وهو ما يقرض به الثوب أو غيره.

كفّ حصى، ثم قالت: خذ يا ضعيف اليقين، فأخذها محمد فإذا هي دنانير، فقالت له: خذها فما دخلت في كفّة ميزان ولا في كفّ بني آدم قبلك ثم قالت لي: إنما لم أعطك إياها لكونك فررت منها، ثم قالت: أين تريدون؟ قلنا: الرملة، فقالت: هذه الرملة؟ فإذا نحن بحيطان الرملة، فدخلناها والناس قد انصرفوا من صلاة الجمعة، فأخذ محمد الدنانير وبنى بها مسجدًا بعسقلان، وهو معروف إلى يومنا هذا بمسجد المباحي، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية الحادية والعشرون بعد الأربع مئة) قال بعض الصالحين: خرجت من الليل وحدي وأنا عليل وعليّ حمّى شديدة وأصابني عطش، فلما بلغ بي الجهد عدلت إلى شجرة المقل، فطرحت نفسي تحتها آيسًا من الحياة، فإذا أنا برجل معه أربعة أرغفة، بين اثنين منها طائر مشوي، وبين اثنين خبيص، وكان عند رأسي ركوة، فذهب بها إلى البحر فملأها وتركها عندي، فإذا ماء أبرد من الثلج وأحلى من العسل، فزالت عني الحمّى وما كنت أجده، ثم جلس عندي وأخذت آكل، فقام وقال: قد جاءت الرفقة وعليّ شغل غيرك، فالتفت فإذا نحو من عشرين جمالاً فقمت إليهم وغاب عني رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. وقال بعضهم أيضًا: كنت بمصر وكان بي فاقة[1]، فدخلت بعض المساجد، فإذا أنا بشاب جالس، فدفع إليّ صرّة فيها قطع، وقال لي: خذ شعرك واغسل ثيابك، فجئت إلى حجّام فأخذت من شعري فدفعت إليه قطعتين، فلما صارتا في كفّه قبّلهما وقال: مرحبًا إنا في طلبك منذ ثلاثين سنة، من أين لك هذه القطع؟ فإنها ليست من قطع الدنيا، لها نور عظيم من القدرة، فحدّثته بقصتها، فأخذ بيدي ومضينا إلى ذلك المسجد فلم نجد الشاب، فصار الحجّام لي صديقًا، فقال لي يومًا: سمعت سهل بن عبد الله يقول: علامة الوليّ ثلاث: إذا أراد موضعًا يكون فيه من غير حركة وإذا أراد أخًا من إخوانه يحمل عليه، وإذا اشتغل بعبادة أو سبب من الأسباب يجيء ملك يتكلم على شبهة فيحسب الناس أنه ذلك وهو الملك؛ قال: فلما كان بعد أيام قال لي سهل بن عبد الله: إذا صلّيت العصر فتعالَ حتى تأخذ من شعري وتنقص من دمي، فلما صلّيت العصر مضيت معه إلى مسكنه، فأخذت من شعره ونقصت من دمه وقعدت أنا وهو، ثم طبخنا له قدرًا فلما أذّن المغرب قال لي: إذا صلّيت المغرب فتعال حتى تأكل معي، فلما صلّيت المغرب جاءني رجل من أصحابه فقال لي: أيّ شيء فاتك؟ قد تكلم علينا سهل من العصر إلى هذا الوقت بكلام لم أسمع مثله قطّ، فقلت له: احتفظوا بما سمعتم فإنه ليس من كلام سهل بل هو من كلام ملك، فعلمت أن سهلاً تكلم بمقامه رضي الله تعالى

---

(١) الفاقة: الفقر والحاجة.

Marfat.com

عنه ونفعنا به. قلت: هذا واضح لأن سهلاً لم يزل مع هذا الحجّام من العصر إلى المغرب، فلم يبقَ إلا ما ذكر سهل أن الوليّ إذا اشتغل بعبادة أو سبب من الأسباب يجيء ملك فيتكلم على شبهه على ما تقدم، وقوله: فعلمت أن سهلاً تكلم بمقامه، يعني تكلم بشيء هو مقامه.

(الحكاية الثانية والعشرون بعد الأربع مئة): رُوِيَ عن سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: كنت بمكة فدخلت الطواف، فرأيت رجلين أحدهما آخذ بيد الآخر، فقال أحدهما للآخر قل: يا حيّ يا نور روح سمع آذان قلبي، أو قال: نور روح بصر عيون قلبي، بحق الفحول عليك يا مروّح الأرواح، فدخلت بينهما وسلّمت عليهما وقلت: قد سمعت الكلمات وحفظت الألفاظ مَن أنتما رحمكما الله تعالى؟ فقال أحدهما: أنا الخضر وهذا أخي إلياس، اذهب فلن يضرّك ما فاتك بعد حفظك لهؤلاء الكلمات، وإياك أن تدعو بها في شيء من أمر الدنيا، سلام الله عليهما ونفعنا بهم أجمعين. ورُوِيَ أيضًا عن أبي جعفر الحداد رضي الله تعالى عنه قال: كنت في مركب صاعد من البصرة إلى بغداد، وكان معي رجل في المركب لا يأكل ولا يشرب ولا يصلّي، فقلت له: أيّ شيء أنت؟ فقال: هو نصراني، فقلت له: لِمَ لا تأكل؟ فقال: أنا متوكل، فقلت: وأنا أيضًا متوكل، فلأي شيء قعودنا هٰهنا الساعة يفتح القوم سفرتهم ويدعوننا إلى طعامهم، قم بنا نخرج ونمشي في البر، فقال: على شريطة أنا إذا دخلنا بلدًا لا تدخل أنت مسجدًا ولا أنا كنيسة، فقلت له: لك ذلك، فلحقنا المساء في قرية، فقعدنا على مزيلة، فجاءنا كلب أسود وفي فمه رغيف، فوضعه قدّام النصراني فأكله ولم يلتفت إليّ ولا عرض عليّ، ثم سرنا ثلاثة أيام في كل ليلة يأتيه كلب برغيف فيأكله، فلما كان الليلة الرابعة أمسينا بقرية، فقمت أصلي المغرب، فجاء رجل ومعه طبق عليه طعام ودورق[1] فيه ماء، فسلّم عليّ فلما فرغت من الصلاة وضعه قدامي، فقلت له: احمله إلى ذلك الرجل وعدت إلى صلاتي، فأتاني النصراني ومعه الطبق، فلما سلّمت قال: اعرض عليّ دينك فإني أراه خيرًا من ديني، فقلت: وكيف علمت ذلك؟ قال: إنه كان يُوَجَّه إليّ برزقي مع كلب مثلي فكنت آكل ما يجيء به إليّ، ووُجِّه إليك بإنسان مثلك بعد ثلاث فآثرتني على نفسك، فعلمت أن دينك خير من ديني، ثم أسلم رحمه الله تعالى، والحمد لله الذي هدانا للإسلام، وجعلنا من أُمة محمد عليه الصلاة والسلام.

(الحكاية الثالثة والعشرون بعد الأربع مئة): حُكِيَ عن بعض المشايخ قال: قال لي أبو بكر بن الشفق بطرسوس: إني سمعت من أبي الخير شيئًا ما يقبله قلبي منه، قلت

---

(١) الدورق: إناء من زجاج يوضع فيه الشراب.

له: وما هو؟ قال: ذكر أنه لَقِيَ عيسى ابن مريم عليه السلام، فقلت له: أنا أحكي لك حكاية تصديقًا لقول أبي الخير، سمعت محمد بن حامد وقد ذكر قول النبي ﷺ: «كيف أخاف على أمة أنا أولهم وعيسى آخرهم» صلوات الله وسلامه عليهما، فقال لي ابن حامد: إن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل ثلاث مرّات، يظهر في أول مرّة للأولياء، وفي الثانية للصلحاء، وفي الثالثة ينزل بيت المقدس، فيراه الخاصّ والعامّ، فقال ابن الشفق فدخل داره وركب دابّته وخرج علينا، فقلنا له: أين تريد؟ فقال: إلى أبي الخير أستحلّه، فقلت له: اجلس إلى غد، قال: لا فإني أخاف الموت، فلما كان بعد أيام رجع إلى طرسوس فدخلت إليه، فقال: رجعت بأعجب مما مضيت فيه، وذلك أني وصلت وقد صلّى أبو الخير العصر وهو في محرابه، فلما صرت بباب المسجد قال: يا أبا بكر ارجع فقد جعلناك في حلٍّ، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبجميع الصالحين. وحُكِيَ أيضًا عن أبي عمران السندي رضي الله تعالى عنه قال: كنت بمصر في الجامع الفلاني، فخطر بقلبي التزوّج وقوي عزمي عليه، فخرج من القبلة نور لم أرَ مثله، فإذا بيد فيها نعل من ياقوتة حمراء وشراكها من زمرّد أخضر مرصّعة باللؤلؤ، وإذا بهاتف يقول: هذه نعلها فكيف لو رأيتها؟ فذهبت من قلبي شهوة النساء. وقال محمد الورّاق رحمه الله: كان رجل أسود يقال له مبارك يعمل في المباح، وكنّا نقول له: ألا تتزوّج يا مبارك؟ فيقول: أسأل الله أن يزوّجني من الحور العين، قال: فغزونا بعض المغازي، فخرج العدوّ علينا فقتل مبارك فمررنا به ورأسه في ناحية وبدنه في ناحية وهو منكبّ على بطنه ويداه تحت صدره، فوقفنا عليه وقلنا له: يا مبارك كم زوّجك الله من الحور العين، فأخرج يده من تحت صدره وأشار إلينا بثلاث أصابع يقول: ثلاثًا.

(الحكاية الرابعة والعشرون بعد الأربع مئة): رُوِيَ عن أبي أحمد الحلاسي رحمه الله قال: كانت لي أمّ صالحة، فقالت لي يومًا وقد عضّنا الفقر وسوء الحال: يا بنيّ إلى متى نكون في مثل هذه الشدة؟ فلما كان وقت السحر قلت: اللّهمّ إن كان لي في الآخرة شيء فعجّل لي منه في الدنيا، فرأيت نورًا في زاوية البيت، فقمت إليه فرأيت رِجل سرير من ذهبٍ مرصّع بالجوهر، فقلت لها: خذي هذا، وخرجت إلى الجامع أُحدّث نفسي إلى مَن أدفع شيئًا منه لأصحاب الجواهر وكيف أعمل؟ فلما رجعت قالت لي أُمي: يا بني اجعلني في حِلٍّ فإني لمّا خرجت نمت فرأيت كأني دخلت الجنة، فرأيت قصرًا على بابه مكتوب: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ، هذا لأبي أحمد الحلاسي، فقلت: لا بني، قال لي قائل: نعم، فدخلته ودرت في بيوته فرأيت في بيت منها أسِرّة وبينها سرير مكسور، فقلت: ما أسمج هذا السرير من بين الأسِرّة، فقال لي قائل: أنت أخذت رِجله، فقلت: رُدّوها في موضعها، فانتبهت وقد غابت، فالحمد لله على ذلك، رضي الله

Marfat.com

تعالى عنهما. والحلاسي بضم الحاء وكسر السين المهملتين. ورُوِيَ أيضًا عن بعضهم قال: كنت في بلاد الروم، فصحبنا رجل فرأيناه لا يأكل ولا يشرب فقلت له: ما رأيتك تأكل شيئًا من القوت منذ أحد عشر يومًا، فقال: إذا دَنَا فراقي منكم حدّثتكم حديثي، فلما دَنَا الفراق قلت له: حدّثنا ما وعدتنا، قال: غزونا في أربع مئة فخرج علينا العدو فقتل أصحابي، فجرحت أنا فكنت بين القتلى، فلما كان وقت الغروب حسنت برائحة فائحة من قبل الجو، ففتحت عيني فإذا بجَوارٍ عليهنّ ثياب ما رأيت مثلها، وفي أيديهنّ كاسات يصببن في أفواه القتلى، فغمضت عيني حتى وصلن إليّ فقالت واحدة منهنّ: صببن في حلق هذا وعجّلن قبل أن تغلق أبواب السماء فنبقى في الأرض، فقالت أخرى: أسقيه وفيه رمق؟ فقالت لها الأخرى: اسقيه لا بأس عليك يا أُختي، فصبّت في حلقي فأنا منذ شربت ذلك الشراب لا أحتاج إلى طعام ولا شراب.

(الحكاية الخامسة والعشرون بعد الأربع مئة: عن بعض الشيوخ) قال: دخلت بلاد الهند فوصلت إلى مدينة، فرأيت فيها شجرة تحمل تمرًا يشبه اللوز له قشرتان، فإذا كسرت خرج منها ورقة خضراء مطويّة مكتوب عليها بالحمرة، لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ كتابة خلقية، وأهل الهند يتبرّكون بها ويستسقون بها إذا مُنِعوا الغيث، ويتضرّعون بها عندها، فحدّثت بهذا الحديث أبا يعقوب الصياد، فقال لي: ما أستعظم هذا، كنت بالأبلة فاصطدت سمكة مكتوب على أُذنها اليمنى: لا إلـٰه إلا الله، وعلى اليسرى: محمد رسول الله ﷺ، فلما رأيتها قذفت بها إلى الماء رضي الله تعالى عنهما. قلت: إنما قذف بها احترامًا لها لما عليها من اسم الله ورسوله. وعن بعضهم قال: ركبت في البحر وكان إلى جانبي رجل به علّة البطن، فقام بالليل والمركب يسير، فأخذت بيده، فلما قعد على العود الذي يجلس عليه للوضوء ضربته موجة فرَمَت به إلى البحر، فرجعت والناس كلّهم نيام، ولم يعلم به غيري، فلما صلّيت الفجر وإذا بالرجل إلى جانبي، فقلت له: أليس قد وقعت في البحر؟ فقال: بلى، فقلت: حدّثني كيف كانت قصتك بعدي؟ فقال: لما وقعت في الماء لم أبلغ إلى قاع البحر حتى جاءني طائر عظيم، فأدخل رقبته بين رِجليّ فشالني من الماء ونظر إلى المركب وقد سار، فطار بي حتى وضعني على مقدّم المركب ووضع منقاره على أُذني وقال بلسان عربي: كان ذلك في الكتاب مسطورًا.

(الحكاية السادسة والعشرون بعد الأربع مئة: عن بعض أهل الروم) قال: كان سبب إسلامي أنه غزانا المسلمون، فكنت أُساير جيشهم فوجدت منهم غرّة في الساقة، فأسرت نحو عشرة نفر وحملتهم على البِغال بعد أن قيّدتهم، وجعلت مع كل واحد منهم رجلاً موكلاً به، فرأيت في بعض الأيام رجلاً من الأسرى يصلي، فقلت للموكل به في ذلك،

Marfat.com

فقال لي: إنه في كل وقت صلاة يدفع إليّ دينارًا، فقلت: وهل معه شيء؟ قال: لا ولكنه إذا فرغ من صلاته ضرب بيده إلى الأرض ودفع إليّ ذلك، قال: فلما كان من الغد لبست ثيابًا خلقانًا وركبت فرسًا دونًا، وسرت مع الموكل به لأتعرّف صحة ذلك، فلما دنا وقتَ صلاة الظهر أومأ إليّ أنه يدفع إليّ دينارًا متى تركته يصلي، فأشرت إليه بأصبعين أني لا آخذ إلا دينارين فأومأ إليّ برأسه نعم، فلما فرغ من صلاته رأيته ضرب بيده الأرض فرفع إليّ منها دينارين، فلما كان وقت صلاة العصر أشار كالمرّة الأولى فأشرت إليه أني لا آخذ إلا خمسة دنانير، فأشار إليّ بالإجابة، فلما فرغ من صلاته فعل كفعله الأول، فدفع إليّ خمسة دنانير، فلما كان وقت المغرب أشار كذلك، فقلت: لا آخذ إلا عشرة دنانير، فأجابني إلى ذلك، فلما صلّى فعل كما تقدم ودفع إليّ عشرة، فلما نزل وأصبحنا دعوت به وسألته عن خبره وخيّرته في رجوعه إلى بلد الإسلام، فاختار الرجوع، فأركبته بغلاً ودفعت إليه زادًا وحملته بنفسي على البغل، فقال لي أماتك الله تعالى على أحبّ الأديان إليه، فوقع في قلبي من ذلك الوقت الإسلام فأنفذت معه جماعة من وجوه أصحابي وأوصيتهم بإيصاله إلى أول بلد من بلاد الإسلام، ثم دفعت إليه دواة وبياضًا، وجعلت بيني وبينه علامة، يكتب بها إليّ إذا وصل إلى مأمنه، وكان بيننا وبين ذلك الموضع مسيرة أربعة أيام، فلما كان اليوم الخامس رجعوا، فخشيت أن يكونوا قتلوه، فسألتهم عنه، فقالوا: لمّا فارقناك وصلنا معه في ساعة واحدة وأقمنا في رجوعنا أربعة أيام.

(الحكاية السابعة والعشرون بعد الأربع مئة): رُوِيَ عن الشعبي، رضي الله تعالى عنه قال: أقبل قوم من اليمن متطوّعين بالجهاد في سبيل الله تعالى، فهلك حمار رجل منهم فترحّلوا منطلقين، وأرادوا أن ينطلق معهم وعرضوا عليه دابّة فأبى، ثم قام فتوضأ وصلّى ركعتين وقال: اللّهمّ إني جئت مجاهدًا في سبيلك ابتغاء مرضاتك، وأشهد أنك تحيي الموتى وتبعث مَن في القبور وإني أطلب منك أن تبعث لي حماري، ثم قام إليه فضربه، فقام الحمار ينفض أُذُنيه فأسرجه وألجمه وركبه وأجراه حتى لحق أصحابه، فقالوا له: ما شأنك؟ قال: سألت الله تعالى أن يبعث لي حماري فبعثه، قال الشعبي: فرأيت ذلك الحمار يُباع في الكناسة، فذهب رجل من جلساء الشعبي إلى محلته فروى هذا عن الشعبي فكذّبوه، وقالوا: يحيي حمارًا بعد الموت إنه يكذب على الشعبي، قم معنا إليه، فذهب معهم إلى الشعبي، فقال: يا أبا عمرو ألست حدّثتني بهذا الحديث؟ فقال: متى كان ذلك؟ فقال القوم: قد علمنا أنه يكذب على أبي عمرو، فلما رجعوا قال له الرجل: يا أبا عمرو أليس قد حدّثتني به؟ فقال له الشعبي: ويحك هل تُباع الإبل في سوق الدجاج، رضي الله تعالى عنه. قلت: أنكر الإمام الشعبي رضي الله تعالى عنه على هذا الرجل لكونه حكى كرامة عظيمة لقوم لا تقبلها عقولهم ولا تبلغ

إليها أفهامهم، ومثل رأس مالهم في العلم برأس مال التجّار في الدجاج، ومثل رأس مال مَن يعقلها ويقبلها في العلم برأس مال التجّار في الإبل، وهذا تساهل منه في التمثيل بالإبل بل ذلك أعزّ وأرفع وأعلى وأغلى من الجواهر النّفاس، ومثل رأس مال المنكرين أقلّ وأصغر وأدنى وأحقر من فلوس النحاس، وإلى الفريقين أشار النبيّ المختار بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم»[1].

(الحكاية الثامنة والعشرون بعد الأربع مئة): رُوِيَ عن الشيخ عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: قصدت بيت المقدس فأضللت الطريق فإذا أنا بامرأة قد أقبلت إليّ، فقلت لها: يا غريبة أنت ضالّة؟ قالت: كيف يكون غريبًا مَن يعرفه، وكيف يكون ضالاً مَن يحبّه؟ ثم قالت: خذ رأس عصاي وتقدّم بين يديّ، فأخذت رأس عصاها ومشيت بين يديها سبعة أقدام أو أقلّ أو أكثر، فإذا أنا بمسجد بيت المقدس فدلكت عيني وقلت: لعل هذا غلط مني، فقالت: يا هذا سيرك سير الزاهدين، وسير سيري العارفين فالزاهد سيار، والعارف طيّار، ومتى يلحق السيّار الطيّار؟ ثم غابت عني فلم أرها بعد ذلك رضى الله تعالى عنهما ونفعنا بهما بحق سيدنا محمد وآله آمين.

(الحكاية التاسعة والعشرون بعد الأربع مئة: عن إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه) قال: مررت براعي غنم، فقلت له: هل عندك شربة من ماء أو من لبن؟ قال: نعم أيّهما أحبّ إليك؟ قلت: الماء، فضرب بعصاه حجرًا صلدًا لا صدع فيه، فانفجر منه الماء، قال: فشربت منه فإذا هو أبرد من الثلج وأحلى من العسل، فبقيت متعجّبًا، فقال الراعي: لا تتعجب فإن العبد إذا أطاع مولاه أطاعه كل شيء، رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما وبجميع الصالحين. ورُوِيَ أيضًا عن حسن البصري رضي الله تعالى عنه قال: خرج سلمان الفارسي[2] رضي الله تعالى عنه من المدائن ومعه ضيف، فإذا بظباء تسير في الصحراء وطيور تطير في الهواء، فقال سلمان: ليأتني ظبي وطير منكنّ سمينان فقد جاءني ضيف وأُحب إكرامه، فجاء كلاهما، فقال الرجل: سبحان الله أَوَقد سخّر لك هذا

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤/ ٧٦).

(٢) سلمان الفارسي (توفي ٣٦ هـ = ٦٥٦) صحابي من مقدّميهم، كان يسمّي نفسه سلمان الإسلام أصله من مجوس أصبهان. عاش عمرًا طويلاً، نشأ في قرية جيان ورحل إلى الشام فالموصل فنصيبين فعمورية، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود وقصد بلاد العرب، فلقيه ركب من بني كلب فاستخدموه ثم استعبدوه وباعوه فاشتراه رجل من قريظة فجاء به إلى المدينة، وعلم سلمان بخبر الإسلام فقصد النبي ﷺ وسمع كلامه ولازمه أيامًا، وأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه فأظهر إسلامه. الأعلام ٣/ ١١١ ـ ١١٢؛ وطبقات ابن سعد ٤/ ٥٣ ـ ٦٧؛ وتهذيب ابن عساكر ٦/ ١٨٨؛ والإصابة ت ٣٣٥٠؛ وحلية ١/ ١٨٥؛ وصفة الصفوة ١/ ٢١٠.

Marfat.com

الطير في الهواء؟ فقال سلمان رضي الله تعالى عنه: أفتعجب من هذا، هل رأيت عبد أطاع الله فعصاه شيء؟ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به.

(الحكاية الثلاثون بعد الأربع مئة) قال عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه: سافرت أنا وأيوب السختياني[1] رضي الله تعالى عنهما قال: فبينما نحن نسير في بعض طريق الشام إذا نحن بأسود قد أقبل يحمل كارة[2] حطب، فقلت له: يا أسود مَن ربك؟ فقال: لمثلي تقول هذا، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: إلـهي حوِّل هذا الحطب ذهبًا فإذا هو ذهب، ثم قال: أرأيتم هذا؟ قلنا: نعم، فقال: اللَّهمَّ ردّه حطبًا، فصار حطبًا كما كان أوّلاً، ثم قال: سَلوا العارفين فإن عجائبهم لا تفنى. قال أيوب: فبقيت متحيِّرًا خجلاً من العبد الأسود، واستحييت منه حياء ما استحييت مثله قبل ذلك من أحد قطّ، ثم قلت: أمعك شيء من الطعام، فأشار بيده فإذا بين أيدينا جام فيه عسل أشدّ بياضًا من الثلج، وأطيب ريحًا من المسك، وقال: كلوا فوالذي لا إلـه غيره ليس هذا من بطن نحل، فأكلنا فما رأينا شيئًا أحلى منه، فتعجبنا، فقال: ليس بعارف مَن تعجّب من الآيات، فمَن تعجّب منها فاعلم أنه بعيد من الله، ومَن عبد الله على رؤية الآيات فإنه جاهل بالله، رضي الله تعالى عنه وعن جميع الأولياء والصالحين ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية الحادية والثلاثون بعد الأربع مئة: عن الواسطيّ رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا أسير في البادية فإذا أنا بأعرابي جالس منفرد، فدنوت منه وسلّمت عليه فردّ عليّ السلام فأردت أن أُكلّمه، فقال: اشتغل بذكر الله فإن ذكره شفاء القلوب، ثم قال: كيف يفتر ابن آدم عن ذكره وخدمته والموت في أثره والله ناظر إليه؟ ثم بكى وبكيت معه، فقلت له: ما لي أراك وحيدًا؟ قال: ما أنا بوحيد والله معي، وما أنا بفريد، وهو أنيسي، ثم قام ومضى عني مسرعًا وقال: يا سيدي أكثر خلقك مشغول عنك بغيرك وأنت عوض عن جميع ما فات يا صاحب كلّ غريب، ويا مؤنس كل وحيد، ويا مؤوي كل فريد، وجعل يمشي وأنا أتبعه ثم أقبل إليّ وقال: ارجع عافاك الله إلى مَن هو خير لك مني، ولا تشغلني عمّن هو خير لي منك، ثم غاب عن بصري، رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما آمين.

---

(١) هو أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري (٦٦ ـ ١٣١ هـ = ٦٨٥ ـ ٧٤٨ م) أبو بكر سيد فقهاء عصره، تابعي، من النسّاك الزهّاد، من حفّاظ الحديث، كان ثبتًا ثقة رُوِيَ عنه نحو ٨٠٠ حديث. الأعلام ٢/٣٨؛ وتهذيب التهذيب ١/٢٩٧؛ وحلية ٣/٣.

(٢) الكارة: ما يُجمَع ويُشَدّ ويُحمل على الظهر من طعام أو ثياب.

Marfat.com

(الحكاية الثانية والثلاثون بعد الأربع مئة: عن عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه) قال: مررت براهب فسألته منذ كم أنت في هذا الموضع؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، قلت: مَن أنيسك؟ قال: الفرد الصمد، قلت: ومن المخلوقين؟ قال: الوحش، قلت: فما طعامك؟ قال: ذكر الله، قلت: ومن المؤكولات، قال: ثمار هذه الأشجار ونبات الأرض، قلت: أفلا تشتاق إلى أحد؟ قال: نعم، إلى حبيب قلوب العارفين؟ قلت: ومن المخلوقين؟ قال: مَن كان شوقه إلى الله سبحانه وتعالى كيف يشتاق إلى غيره؟ قلت: فلِمَ اعتزلت عن الخلق؟ قال: لأنهم سُرّاق العقول وقُطّاع الطريق، طريق الهدى، قلت: ومتى يعرف العبد طريق الهدى؟ قال: إذا هرب إلى ربّه من كل شيء سواه، واشتغل بذكره عمّا سواه.

(الحكاية الثالثة والثلاثون بعد الأربع مئة): قال ذو النون المصري رضي الله عنه: بينما أنا أسير في بعض المفاوز إذا أنا برجل متّزر بحشيش فسلّمت عليه فردّ عليّ السلام، ثم قال: من أين الفتى؟ قلت: من مصر، قال: إلى أين؟ قلت: أطلب الأُنس بالمولى، قال: اترك الدنيا والعقبى يصلح لك الطلب، وتصلح إلى الأنس بالمولى، قلت: هذا الكلام صحيح بيّنه لي، قال: قال أتتهم فيما أعطينا، ولقد أعطينا خيرًا مما تقول، وهو المعرفة؟ قلت: ما اتهمتك ولكني أُريد أن تزيدني نورًا على نور، فقال: يا ذا النون انظر فوقك، فنظرت فإذا السماء والأرض كأنهما ذهب يتوقد ويتلألأ ثم قال: اغضض بصرك فغضضت، فإذا هما قد صارتا كما كانتا فقلت: كيف السبيل إلى هذا؟ قال: تفرّد للفرد إن كنت له عبدًا رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما. قلت: هذا الذي أراه ليس هو عين المعرفة المذكورة، لكنه دليل على المعرفة، لأن الكرامة تدلّ على الاستقامة عندهم، والاستقامة لا تكون إلا للعارفين بالله سبحانه، وقوله: إن كنت له عبدًا، هكذا هو سكون الدّال من غير ألف بعدها مراعاة للسجع.

(الحكاية الرابعة والثلاثون بعد الأربع مئة): رُوِيَ عن محمد المقدسي رحمه الله تعالى قال: دخلت يومًا دار المجانين بالشام، فرأيت فيها شابًا على رقبته غلّ وفي رِجليه قيد مشدود بسلسلة، فلما وقع بصره عليّ قال: يا محمد أترى ما فعل بي؟ ثم قال: جعلتك رسولاً إليه، قل له: لو جعلت السمٰوات غلاً على عنقي والأرضين قيدًا على رِجلي لم ألتفت منك إلى سواك طرفة عين، ثم أنشأ يقول:

على بعدك لا يصير من عادته القرب ... ولا يقوى على قطعك مَن تيّمه الحب
وحبك في قلبي وفي كبدي إذا ... لم ترك العين فقد أبصرك القلب

رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبجميع الصالحين. وقال ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه: رأيت أسود يطوف حول البيت وهو يقول: أنت أنت ولا يزيد على ذلك،

Marfat.com

فقلت: يا عبد الله أيّ شيء عنيت به؟ فأنشأ يقول:

بين المُحبِّين سرٌّ ليس يفشيه خط ولا قرّ عنه فيحكه
نار يقابلها أنس يمازجه نور يخبره عن بعض ما فيه
شوقي إليه ولا أبغي به بدلاً هذي سرائر كتمان تُناجيه

وقال بعض العارفين: مساكين أهل الغفلة يشتغلون بكثرة الأعمال ويعظّمونها ويفتخرون بها، وأما أهل المعرفة فلو عملوا عمل أهل السمٰوات والأرض من الأزل إلى الأبد لكان ذلك أصغر في أعينهم في جنب عظمة الله تعالى من خردلة(1) بين السماء والأرض.

(الحكاية الخامسة والثلاثون بعد الأربع مئة: عن أبي سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه) قال: كنت في البادية فنالني جوع شديد، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله طعامًا، **فقلت:** ما هذا من فعل المتوكلين أهل الهِمَم، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله سبحانه تعالى اصطبارًا، فلما هممت بذلك سمعت هاتفًا يقول:

ويزعم أنه منّا قريب وإنّا لا نضيّع مَن أتانا
فهم أبو سعيد سؤل صبر كأنّا لا نراه ولا يرانا

قيل: رؤية القلب بمشاهدة الإيقان وإن غاب عن العينين العيان، وفي هذا المعنى **قلت نائبًا عن لسان الحال:**

يا غائبًا غاب وهو في قلبي أُشاهده ما غاب مَن لم يزل القلب مشهودا
إن فات عيني من رؤياك حظهما فالقلب قد نال حظًا منك محمودا

وإنما قلت هذين البيتين لأني رأيت بعض المصنّفين قد استشهد ببيت لا يصلح **وهو هذا:**

إن كنت لست معي فالذِّكر منك معي يراك قلبي وإن غيِّبت عن بصري

فهذا لا يجوز في حق الله تعالى لوجهين: أحدهما قوله لست معي، والثاني قوله: غيِّبت عن بصري، بضم الغين المعجمة وكسر الياء المثناة من تحت وتشديدها، ولا يصح أيضًا في حقّ المخلوق، فإن قلبه لا يراه لعدم النور الحاصل للعارفين بالله، بل قلب مثل هذا أشد: ظلمة من سائر الجهّال، وإنما ذلك للعارفين كما قال القائل:

قلوب العارفين لها عيون

---

(1) الخردل: نبات عشبي من الفصيلة الصليبية له حَبّ صغير جدًا حرّيف الطعم من المشهيّات الواحدة خردلة، ويُضرَب بحَبّه المثل في الصِّغر.

Marfat.com

وكذلك لا يحسن قوله: فالذكر منك معي، وإنما يحسن هذا الذكر من الخالق عزّ وجلّ كما قال سبحانه: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ [الحديد: ٤] وقال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال الرسول ﷺ: «أنا جليس مَن ذكرني»[(١)] وأشباه ذلك من القول الكريم الذي يكسو العبد خلع عوالي الشرف، ويسكنه من الجنان قصور أعالي الغُرَف، اللّهمّ أحيِ قلوبنا بغيث رحمتك ونوّرها بنور معرفتك وزيّنها بذِكرك وشكرك وحُسْن عبادتك، فإنك الملك المنّان الكريم، ذو الفضل العظيم، والمسلمين آمين: ولئن سلّمنا أن مثل هذا قد يُقال في حق المخلوق مجازًا مع ما فيه من التعسّف، فلا يحسن أيضًا أن يستشهد به في باب المعرفة بالله سبحانه وتعالى والمشاهدة لجمال جلاله تعالى بأنوار القلوب المسقاة كؤوس الوصل من راح المحبة على بساط القرب في حضرة القدس حين طاب وقت المنادمة والأنس، ولله درّ القائل:

قلوب العارفين لها عيون … ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنة بسرّ قد تناجي … يغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش … فتأوي عند ربّ العالمينا
وترعى في رياض القدس طورًا … وتشرب من بحار العارفينا
عبادًا قاصدوا بالسرّ حتى … دنوا منه وصاروا صابرينا

ولله درّ القائل الآخر:

للعارفين قلوب يعرفون بها … نور الإله بسرّ السرّ في الحجبِ
صمٌّ عن الخلق عُميٌ عن مناظرهم … بُكمٌ عن النطق في دعواه بالكذبِ

(الحكاية السادسة والثلاثون بعد الأربع مئة) قال ذو النون رضي الله تعالى عنه: وُصِفَ لي رجل من العرب، وذُكِرَ لي من لطائف شأنه وحُسْن كلامه في إشارات أهل المعرفة، فارتحلت إليه حتى بلغت مكانه، فوقفت عنده أربعين صباحًا فلم أجد وقتًا أقتبس من علمه لكثرة شغله بربه، فلما كان بعض الأيام نظر إليّ وقال: من أين الرجل؟ فأجبته، فقال: لأيّ شيء جئتني؟ قلت: لأقتبس من علمك ما يرشدني إلى ربي، فقال: اتّقِ الله واستعِن به وتوكّل عليه، فإنه وليٌّ حميد ثم سكت، فقلت: زدني يرحمك الله تعالى فإني رجل غريب جئتك من بلد بعيد أُريد أن أسألك أشياء اختلجت في ضميري، فقال: أمتعلّم أنت أم عالِم أم مناظر؟ فقلت: بل متعلّم محتاج، قال: قف في درجة المتعلّمين واحفظ أدب السؤال، فإنك إن تعدّيت وتركت الحرمة أفسد ذلك عليك نفع

---

(١) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/٢٣٢) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٢٨٧) والسيوطي الحلبي في (الدّرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٢٤).

Marfat.com

العلم، فإن العقلاء من العلماء والعارفين من الأصفياء سلكوا طريق الصدق والوفاء، وقاموا على قِدَم القرب والصفاء، وقطعوا أودية الحزن والبلاء، فذهبوا بخير الدارين ولذائذهما، فقلت: يرحمك الله متى يبلغ العبد ما وصفت؟ فقال: إذا صار خارجًا عن الأسباب والأنساب وقطع قلبه من كل علاقة، فقلت: ومتى يكون العبد كذلك؟ قال: إذا خرج من جميع الحول والقوة وليس له شيء يملكه ولا حال يعرفه، رضي الله تعالى عنهما ونفع بهما.

(الحكاية السابعة والثلاثون بعد الأربع مئة) قال ذو النون أيضًا رضي الله تعالى عنه: بينما أنا في بعض سياحتي إذا أنا بشيخ على وجهه سيما العارفين، فقلت له: يرحمك الله كيف الطريق إلى الله؟ فقال: لو عرفت الله لعرفت الطريق إليه، ثم قال: يا هذا دع الخلاف والاختلاف، قلت: وما تجديد التوحيد؟ قلت: يا هذا يرحمك الله أليس خلاف العلماء رحمة من الله؟ قال: نعم إلا في تجريد التوحيد؟ قال: فقدان رؤية ما سواه لوجدانه، قلت: وهل يكون العارف مسرورًا؟ فقال: وهل يكون العارف محزونًا؟ قلت: أليس مَن عرف الله طال همّه، قال: بل مَن عرف الله زال همّه، قلت: وهي تغيِّر الدنيا قلوب العارفين؟ قال: وهل تغيِّر العقبى قلوب العارفين حتى تغيِّرها الدنيا؟ قلت: أليس مَن عرف الله صار مستوحشًا؟ قال: ولكن يكون مهاجرًا متجرّدًا، قلت: وهل يتأسف العارف على شيء غير الله؟ قال: وهل يعرف العارف غير الله فيتأسف عليه؟ قلت: وهل يشتاق العارف إلى ربه؟ قال: وهل يكون العارف غائبًا عنه طرفة عين حتى يشتاق إليه؟ قلت: ما اسم الله الأعظم؟ قال: أن تقول الله وأنت تهابه، قلت: فأنا كثيرًا ما أقول ولا تداخلني الهيبة، قال: لأنك تقول الله من حيث أنت لا من حيث هو، قلت: عِظني، قال: حسبك من الموعظة علمك بأنه يراك، فقمت من عنده، فقلت: وما تأمرني به؟ قال: إطّلاعه عليك في جميع أحوالك، لا تنسه، رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما وبجميع الصالحين.

(الحكاية الثامنة والثلاثون بعد الأربع مئة: عن الشيخ أبي العباس الحرار بالحاء المهملة والراء المكسورة رضي الله عنه) قال: دخلنا علي الشيخ أبي أحمد الأندلسي ونحن جميعًا من المُريدين قصدنا زيارته، فرأينا حوله خلقًا عظيمًا ونقباء، كل نقيب تحت يده جمع كثير، فنظر الشيخ إلينا ثم قال: إذا جاء الصغير إلى المعلِّم ولوحه ممحوّ كتب له المعلم، وإذا جاء ولوحه مملوء أين يكتب له المعلم؟ ثم قال: بالذي جاء يرجع، ثم نظر إلينا نظرة أخرى فقال: مَن شرب من مياه مختلفة دخل مزاجه التغيّر، ومَن اقتصر على ماء واحد سَلِمَ مزاجه من التغيّر. قال أبو العباس: ورأيت من أصحاب الشيخ أبي حامد أربعة مئة شاب في داره، كلهم في سنّ خمس عشرة سنة أو نحوها، وكلهم

مكشوفين. فلما كان بعض الأيام بعث الشيخ خادمه إليّ، فمشيت معه إليه، فوجدت عنده جماعة وهو يتكلم، فلما جلست أخذت وشهدت الشيخ قائمًا على رأسي ومعه قدّوم وهو يهدم فيّ وأنا أشهد أعضائي تتفرّق على الأرض إلى أن وصل إلى كعبي ولم يبقَ فيّ شيء إلا شمله الهدم ثم أخذ يبنيني بناءً جديدًا من كعبي صاعدًا إلى أن بلغ دماغي ثم قال لي: قد استغنت فسافر إلى بلدك؛ فلما جزت من بين يدي الشيخ انكشف لي العالم العلوي كشفًا بحيث لا ينحجب عني شيء منه، رضي الله تعالى عنهم. قلت قوله: أُخِذْتُ هو بضم الهمزة وكسر الخاء وسكون الذال المعجمة وضمّ التاء المثناة من فوق، ومعناه غبت عن نفسي وعن هذا العالم، وكُشِفَ لي شيء من عالم الملكوت.

(الحكاية التاسعة والثلاثون بعد الأربع مئة) قال أبو العباس الحرّار أيضًا: كان الشيخ أبو يوسف الدهماني يحضر ميعاد الشيخ أبي عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه وعن الجميع، قال: فبعثني الشيخ أبو يوسف يومًا إلى القرشي أسأله هل يعمل في ذلك اليوم ميعادًا أم لا؟ فمضيت إليه فلما وصلت الساحة التي فيها باب داره وقفت متردّدًا هائبًا، وإذا بطاقة فُتِحَت وجارية أخرجت رأسها من الطاقة وقالت: يا أحمد قال لك الشيخ قل لأبي يوسف نحن ما نعمل اليوم ميعادًا فشكرت الله تعالى كما عاملني الشيخ بهذه الحالة من غير إقدام على سؤاله فلما وصلت إلى أبي يوسف قعد، وكان مضطجعًا وقال: لِمَ وقفت بساحة الباب حتى قالت لك الجارية ما قالت؟ قلت: يا سيدي أنا أهابه، فقال: إذا كنت وحدك هَبْهُ، وإذا كنت بي أقدِم، فقيل للشيخ أبي العباس المذكور: أيّهما أعلى كشفًا في هذه القضية؟ قال: القرشي لأن أبا يوسف أرسلني إليه وخاطره معي يدرك ما يجري لي، والقرشي كالمرآة يدرك كل ما يُتَوَجّه إليه، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم.

(الحكاية الأربعون بعد الأربع مئة) قال أبو العباس الحرار أيضًا رضي الله تعالى عنه: وردت من السياحة على الشيخ أبي العباس المَرِيني، بفتح الميم وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحت وكسر النون وياء النسبة، وكان رجلاً كبيرًا، فلما جلست إليه سأله سائل، فقال له: يا سيدي أيما أفضل العقل أم الروح؟ فشاهدت الشيخ قد أسرى بروحه وأسرى بروحي معه إلى أن دخلنا السماء الدنيا، فاشتغلت برؤية أملاكهما وأنوارها وغاب الشيخ عني، فطلبت مستقرًا أستقرّ فيه فلم أجده فنزلت ووقفت ونظرت إلى الشيخ، فإذا هو مستغرق في غيبته ثم بعد لحظة حضر فقال للسائل: لمّا أُسرِيَ بالنبيّ ﷺ صحبه جبريل عليه السلام فانتهى معه جبريل إلى حدّه ووقف، وقال: يا محمد ما منّا إلا له مقام معلوم منذ خُلِقْتُ ما تعدّيت هٰهنا فتقدّم النبيّ ﷺ إلى مقامه الذي اتصل به،

Marfat.com

فكان جبريل عليه السلام روحًا وكان محمد ﷺ حينئذٍ عقلاً أخذ العلم من معدنه، ولم يأخذه من تقليده ولا معقول وكذلك عادة شيوخ هذه الطائفة أرباب المعارف والعلوم اللدنية رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم أجمعين.

(الحكاية الحادية والأربعون بعد الأربع مئة) قال أبو العباس أيضًا رضي الله تعالى عنه: كنت في وقت تجريدي بمصر أتردّد إلى مسجد كان قبالة مصنع الفخّارين بطريق القرافة أبيت فيه، فكنت أخرج في الليل أمشي في الجبّانة، فكشف الله لي أحوال أهل القبور المُنَعَّمين والمعذَّبين باختلاف أحوالهم، فما رأيت أحسن من الجهة التي تَلي قبل الفتح. قال المؤلف: وفي هذا المكان المذكور دُفِنَ الشيخ المذكور بإشارته، وزُرتُ قبره هنالك. وقال الشيخ أبو العباس أيضًا رضي الله تعالى عنه: مرضت مرة في بلدي إشبيلية[1]، فكنت مضطجعًا على ظهري وإذا أنا أنظر طيورًا كِبارًا ملوّنة بالأخضر والأبيض والأحمر ترفع أجنحتها رفعة واحدة وتضعها وضعًا واحدًا، وأشخاصًا على أيديهم أطباق مغطاة فيها تُحَف، فوقع لي أنها تحفة الموت، فاستقبلتها وشهدت، فقال لي واحد منهم: أنت ما جاء وقتك هذه تحفة مؤمن غيرك قد جاء وقته ولم أزل أنظر إليهم إلى أن غابوا عني، رضي الله تعالى عنهم، وحُكِيَ أنَّ داود العجميُّ رضي الله تعالى عنه لمّا مات حُمِلَ إلى قبره، فإذا هو مفروش بالريحان، فأخذ الذي دفنه سبعة من أغصان الريحان، فكان الناس ينظرون إليها تعجّبًا سبعين يومًا لم تتغيَّر عن حالها حتى أخذها الأمير من الرجل ففُقِدَت، فلا يدري أين ذهبت. وقال بعضهم: رأيت مسكينة الطفارية بعد موتها في المنام وكانت تحبّ مجالس الذِّكر، فقلت: مرحبًا يا مسكينة، فقالت: هيهات هيهات ذهبت المسكنة وجاء الغِنى، قلت: هنيئًا لك، قالت: وما تسأل عمّن أُبيحت له الجنة بحذافيرها؟ قلت: بماذا؟ قالت: بمجالس الذِّكر رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها آمين. وقال أبو العباس الحرّار رضي الله تعالى عنه: كنت في بعض السِّياحات أحتاج إلى الاستنجاء[2] بالأشجار، فأخذت مرة حجرًا لأستنجي به، فقال لي: سألتك بالله لا تستجمر بي، فتركته وأخذت غيره، فقال لي كذلك، فتذكّرت ما رتّبه الشّارع ﷺ في ذلك، فأخذت الحجر وقلت له: أمرني الله تبارك وتعالى أن أتطهّر بك وهو خير لك. وقال رضي الله تعالى عنه: تركت أخي بمكة ورجعت إلى مصر، ثم جاءني بعد ذلك وسلّم عليّ ففرحت بقدومه وقال لي: يا أخي أنا جائع، فقلت له: يا أخي ما أملك شيئًا ولا أتكلّف شيئًا ولا أسأل أحدًا شيئًا، فما تمّ كلامي معه حتى دخل من شباك البيت

---

(١) إشبيلية: مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها تسمى حمص أيضًا، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره. (معجم البلدان ١/١٩٥).

(٢) استنجى المحدِث: تطهّر بالماء أو غيره.

Marfat.com

عصفور كبير وألقى في حِجري قيراطًا كبيرًا فأخذته واشتريت له به شيئًا، فأكله رضي الله تعالى عنه».

(الحكاية الثانية والأربعون بعد الأربع مئة) قال الشيخ صفيّ الدين بن أبي المنصور تلميذ الشيخ أبي العباس المذكور رضي الله تعالى عنهما: كانت لأستاذي أبي العباس ابنة تطلعت نفوس أصحابه ومُحِبِّيه إلى التزوّج بها، فاطّلع الشيخ على ما في نفوسهم، فقال لهم: هذه البنت التي لي لا يخطر لأحد تزويجها، فإنها ساعة وُلِدَت أطلعني الحقّ سبحانه وتعالى على زوجها مَن هو وأنا أنتظره، قال الشيخ صفيّ الدين وكنت حينئذ وراء الفرات مع والدي في وزارة الملك الأشرف، فلما جئنا إلى مصر بعث الملك العادل والدي رسولاً إلى مكة عند أبي عزيز ليعين الملك المسعود ابن الملك الكامل إلى اليمن، فجئت أنا حينئذ إلى الشيخ أبي العباس الحرّار وصحبته وكنت أنا صغير إذا ذُكِرَ عندي الشيوخ والأولياء تلوح لي صورته، فلما صحبته غيّرت هيئتي وكانت هيئة جميلة، لي الثياب المذهَّبة والبغلة الحسنة وغير ذلك، وهجرت الأهل ولزمت الشيخ إلى أن قَدِمَ والدي من مكة في حشكلة عظيمة، وخرج من مصر للقائه خلق كثيرة بجميع الاهتمام والخِيام، فقال لي الشيخ: اخرج للقاء والدك، فقلت: يا سيدي ما بقي لي والد غيرك وأنا لا أركب لهم شيئًا من دوابّهم، ولا آكل معهم، قال: تخرج على كلّ حال، فخرجت على دُوَيْبة في هيئة رثّة وأهلي يبكون على حالي، فلما لقيت والدي في بركة الحاج سلّمت عليه وحدي، فلم يعرفني هو ولا مَن حوله، وكان معه عسكر أجناد ومماليك وخُدَّام، فلما عرفني بعد ذلك وقف واصفرّ وجهه وبُهِتَ بَهْتة أسأل الله أن يُثيبه عليها، ثم مشوا وبقوا متعجّبين وإذا بأهلي وإخوتي، وكلّ مَن خرج من الطوائف وصلوا واجتمعوا وأنا في ناحية وحدي، ولمّ نزل البركة قُدِّمَت إليه التقاديم، وجمع على سِماطه كل مَن جاء صحبته وكل مَن خرج لأجله إلا أنا لم أحضر معهم، وانفردت وحدي أبكي بكاءً شديدًا، بكاء أسير قد أُخِذَ من أهله وحِيلَ بينه وبين أحبّته، وفي آخر الحال هدَّدني بالقيد والحبس إن لم أعد لِمَا كنت عليه معه، فأخبرت الشيخ فطردني وقال: روح إلى أبيك ولا تعد إليّ فبكيت زمانًا، وكنت أُنشد ما قاله مجنون ليلى[1]:

جُنِنَّا بليلى ثم جنَّت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

---

(١) هو قيس بن الملوّح بن مزاحم العامري (توفي ٦٨ هـ = ٦٨٨ م) شاعر غزل، من المتيمين من أهل نجد، لم يكن مجنونًا وإنما لُقِّب بذلك لهيامه في حب ليلى بنت سعد. جمع شعره في ديوان. الأعلام ٥/٢٠٨، ٢٠٩؛ وفوات الوفيات ٢/١٣٦؛ والنجوم الزاهرة ١/١٨٢.

Marfat.com

وأطلعني الله على سرّ مقصود الشيخ أنه أحالني على صدقي ليكون بريئًا من الحظّ والقصد في أمري، فانشرحت لذلك من جهة الشيخ، ومضيت إلى دار والدي، وحبست نفسي في خزانة، وآليت[1] أن لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا أخرج إلا إن أراد الشيخ، فسأل عني والدي فأخبروه بطرد الشيخ لي، وما صمّمت عليه، فقال: إذا اشتدّ به الجوع والعطش يحتاج يأكل ويشرب، فأقمت إلى ثالث يوم على ذلك الحال، فاستيقظ والدي من النوم وقال: قولوا له يذهب إلى الشيخ ويفعل بنفسه ما يختار، فقلت: لا أروح حتى يروح والدي إلى الشيخ ويسأله قبولي، وقصدت بذلك إعزاز الشيخ فقال: نعم فاستدعى به وخرج ماشيًا من بيته إلى مسجد الشيخ وأنا معه فقبّل يد الشيخ وقال: يا سيدي هذا ولدك تصرّف فيه كيف شئت، وأودّ لو كنت مكانه، فقال له الشيخ: أرجو أن ينفعك الله به، فسلّمني إلى الشيخ ومضى أعظَمَ الله أجْره وجزاه عني خيرًا، فأقمْتُ بعد ذلك شهرًا ما رأيته وأنا أحمل كل يوم على كتفي جرّتين ماء إلى زاوية الشيخ حافيًا والناس يخبرونه بذلك، فيقول: تركته لله تعالى، أسأل الله ألاّ يضيع له أجْر ذلك، وأن يجازيه بما هو أهله، ثم بعد وفاة الوالد رأيت في النوم كأن الشيخ قال لي: يا صفيّ الدين قد زوّجتك ابنتي، فلما استيقظت بقيت متحيّرًا لا يمكنني من الحياء أن أُخبره، وإن لم أُخبره تكون خيانة بكوني أُخفي عليه شيئًا رأيته، فالتفت إليّ وقال: ما رأيت في النوم؟ فلحقني منه هيبة، فسكتّ لحظة، فقال: قل فلا بدّ لك من القول، فقلت: رأيت كذا وكذا، فقال: يا بُنَيّ هذا كان من الأزل أو كما قال، فزوّجني إياها، وكانت من أولياء الله تعالى، على وجهها نور لا يخفى على أحد ممّن يراها أنها وليّة لله تعالى، وأنها من أهل الجنة، ورُزِقتُ منها أولادًا فقهاء فقراء، وعشنا في بركتها بعد موت أبيها زمانًا كثيرًا، وكانت كثيرة المكاشفات أُخبِرَت بوقت موتها قبله بسنة، وأُخبِرَت قريب موتها بعجائب ووقائع تقع بعد موتها، فوقعت فكانت تقول في نزعها لنفسها ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ [الفجر: ٢٨] وتكرر ذلك إلى أن خرجت روحها، رضي الله تعالى عنها.

(الحكاية الثالثة والأربعون بعد الأربع مئة) قال الشيخ صفيّ الدين المذكور رضي الله تعالى عنه في رسالته: وممّن رأيت بدمشق الشيخ علي الكردي رضي الله تعالى عنه، كان ظاهر الوَلَه، وكان يتحكّم في أهل دمشق تحكّم المالك، ولمّا دخلت دمشق كنت في حشكلة من الغلمان واللباس والأهل وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فقعدت في الجامع ساعة دخولي إليه وإذا بشخص قد أقبل له رأس كبير، وعليه لبّاد مقطّع، فشقّ ساحة الجامع من

---

(١) آلى: أقسم.

Marfat.com

باب جبرون إلى أن جاءني عند مقصورة[1] الإمام الغزالي رضي الله تعالى عنه، فمدّ يده إليّ مملوءتين تفاحًا، فقال: خذ، ففزعت منه وتأخرت إلى خلفي، فرماني بالتفاح واحدة واحدة ومضى، ثم جاءني عقب ذلك الشيخ أبو القاسم الصقلي وكان معتبرًا، ومعه الشيخ نجم الدين خال والدتي وكان مدرّسًا بدمشق، فأخبرناهما بذلك فتعجّبا منه عجبًا كثيرًا وقالا: يا بُنيّ أبشر فسيكون لك شأن هذا الرجل قطب الشام، يقال له: علي الكردي أتاك بالضيافة، وعزيز أن يعمل مثل هذا مع أحد، فقمت ومشيت إليه وسلّمت عليه عند باب جبرون وقبّلت يده، فبشّ في وجهي وضحك إليّ فسألت عنه سيدي الشيخ عتيقًا، فقال: يا بنيّ هو إمام فنه في وقته. ومما اتفق للشيخ المذكور من الكرامات أنه قال في بعض الأوقات لرجل من أعيان دمشق يقال له بدر الدين: اعمل في دارك للفقراء سماعًا، وأطعمهم شيئًا، فقال له: السمع والطاعة، فرتب الرجل طعامًا لأولاد الفقراء المعروفين بالجامع وغيره، فهم مجتمعون وإذا بالشيخ عليّ قد جاء إلى الدار، فرأى في صفة منها قوالب سكر، فقال لصاحب الدار: ارمها كلها في البركة، قال: كلها؟ قال: نعم، ثم رمى الجميع في البركة، فصار الفقراء يشربون الجلاّب ويسمعون في آخر النهار ثم أكلوا وانصرفوا، ثم قال الشيخ عليّ لصاحب الدار: أخرج القوالب، فأخرجها فوجدها كلها صِحاحًا لم يذهب من السكر شيء، ثم قال لصاحب الدار: اخرج وأغلق الباب على الدار واقفلها ولا تأتني إلا بعد ثلاثة أيام، ففعل ذلك وتركه في الدار وحده، فلما كان اليوم الثاني لقيه في الطريق، فسلّم عليه ثم ذهب إلى داره فوجدها مغلقة على حالها ففتحها ودخل، فوجد أكثر الرخام مقلوعًا، فخرج إلى الشيخ عليّ وقال: يا سيدي لِمَ قلعت رخام الدار؟ قال: يا بدر الدين تكون رجلاً جيدًا وتضيف الفقراء على رخام حرام، قال: يا سيدي هذه الدار إرثي عن أبي وجدي، فتغيّظ الشيخ عليه وخلا، ففكر في فعل الشيخ وعلمه بمكاشفاته، فتذكر أنها كانت قد قلع رخامها وأصلح فأرسل إلى الصُّنّاع الذين رخموها وقال لهم: عرّفوني ما صنعتم في ترخيم الدار، قالوا له: فيه عيب عملنا شيئًا في غير موضعه، فقال: لا بدّ أن تقولوا لي أمرها وأمّنهم على نفوسهم، فقالوا: رخامك بعناه ورخّمناها بشيء من رخام الجامع. وقال الشيخ صفي الدين أيضًا رضي الله تعالى عنه في رسالته: لمّا جاء الشيخ الأجلّ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه إلى دمشق في رسالة الخليفة إلى الملك العادل بالخلعة والطوق وغير ذلك، قال لأصحابه: أريد أن أزور عليًا الكردي، فقال له الناس: يا مولانا، لا تفعل أنت إمام الوجود، وهذا رجل لا يصلي ويمشي مكشوف العورة أكثر أوقاته، فقال: لا بدّ لي من ذلك. قال: وكان الشيخ عليّ الكردي مقيمًا أكثر أوقاته في الجامع، حتى دخل عليه مُولَه

---

(١) المقصورة: الدار الواسعة المحصنة.

Marfat.com

آخر يقال له: ياقوت، فساعة دخوله من الباب خرج الشيخ عليّ من دمشق وسكن جبّانتها بالباب الصغير، وما دخلها بعد ذلك إلى أن مات، وياقوت فيها يتحكّم، فقالوا للشيخ شهاب الدين: هو في الجبّانة، فركب بغلته ومشى في خدمته مَن يُعرِّفه موضعه؛ فلما وصل إلى قريب مكانه ترجّل وأقبل يمشي إليه، فلما رآه عليّ الكردي قد قرب منه كشف عورته، فقال الشيخ شهاب الدين: ما هذا شيء يصدّنا عنك وها نحن ضيفانك، ثم دَنَا منه وسلّم عليه وجلس معه وإذا بحمّالين قد جاؤوا ومعهم مأكول معتبر، فقيل لهم: مَن تريدون؟ قالوا: الشيخ عليًا الكرديّ، فقال لهم: ضعوه قدّام ضيفي. وقال للشيخ شهاب الدين: بسم الله هذه ضيافتك فأكل الشيخ، وكان يعظِّم الشيخ عليًا الكردي، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ونفعنا بهم. قلت: وهذا الوَلَه المذكور عن الشيخ عليّ الكردي موجود في كثير من الأولياء مشهور، وقد زاد على كثير منهم حتى نُسِبُوا إلى الجنون وهم المعروفون في الكتب بعقلاء المجانين، وكثير منهم قُيِّدوا وحُبِسوا، وقد ذكرت جماعة منهم في هذا الكتاب يحسب الناس أنهم مجانين وهم العقلاء والأولياء، ولكن محبة الله ومعرفته وعظيم ما شاهدوا من عظمته وجلاله وكماله حيّرهم وهيّمهم وشجاهم؟ وتيّمهم، كما قدّمت من إنشاد بعضهم:

حيّرتهم محبة الله حتى ... حسب الناس أن فيهم جنونا
هم ألبا ذوو عقول ولكن ... قد شجاهم جميع ما يعرفونا

وقول تحفة رضي الله تعالى عنها:

معشر الناس ما جننت ولكن ... أنا سكرانة وقلبي صاحِ
أنا مفتونة بحب حبيب ... لست أبغي عن بابه من براحِ

منهم مَن غلب عليه السكر براح محبة الجمال المشهود، فهامَ في حبّه وغاب عن الوجود، ومنها آخرون أيضًا يحبّون ولكن تستّروا بالجنون كما قدّمت أيضًا من إنشاد بعضهم حيث يقول:

وموّهت دهري بالجنون على الورى ... لأكتم ما بي من هواء فما انكتم
فما رأيت الشوق والجذب قاتلي ... هجرت طعامي والشراب ولم أنم
فإن قيل مجنون فقد جنّ في الهوى ... وإن قيل مسقام فما بي من سقم

وكذلك قلت في معنى ذلك:

سقى الله قومًا من شراب وداده ... فهاموا به ما بين بادٍ وحاضر
يظنّهم الجهّال جنّوا وما بهم ... جنون سوى حبٌّ على القوم ظاهر

Marfat.com

قلت: هذه مع أبيات أخرى، وقد قدّمت ذلك الكتاب. ومنهم آخرون يجمعون في التستّر بين الوَله والتجريد، يوهمون الناس أنهم لا يصلّون ولا يصومون ويكشفون عوراتهم حتى يُساء الظنّ بهم ولا يُنسَبون إلى الصلاح، وهم يصلّون ويصومون في الباطن فيما بينهم وبين الله تعالى، وقد شُوهِدَ كثير منهم يصلّون في الخلوات ولا يصلّون بين الناس، وسيأتي الكلام في أهل التجريد في آخر الكتاب في فصل الجواب، وهناك يوضح حكمهم وبيان مَن يعتقد ومَن لا يعتقد، ومن جملة المجرّدين الشيخ ريحان كان في عدن، وأظنه حبشيًا معتقًا كان يصدر معه في الظاهر شيء مما ينكره ظاهر الشرع، وله كرامات مشهورات، وها أنا أحكي عنه الآن بعض الحكايات.

(الحكاية الرابعة والأربعون بعد الأربع مئة) قال المؤلف كان الله له: أخبرني بعض الأخيار أنه كان بعض الناس في ساحل بحر عدن، فأغلق باب البلد دونه فلم يقدر أن يدخل، فبات في الساحل ولم يكن له عشاء، فرأى الشيخ ريحان في الساحل، فأتى إليه وقال: يا سيدي أغلقوا الباب دوني وما معي عشاء وأنا أشتهي منك أن تطعمني هريسة[1]، فقال الشيخ ريحان: انظروا إلى هذا يطلب مني العشاء وما يريد أيضًا إلا هريسة كأني كنت مُهرِسًا أصنع الهريسة، فقال له: يا سيدي لا بدّ أن تطعمني ذلك، قال: فلم أشعر إلا والهريسة حاضرة حارّة في الحال، فقلت: يا سيدي بقي السمن، فقال: انظروا هذا الفاعل التارك وما يرضى بأكل الهريسة أيضًا إلا بالسمن فأنا كنت سمّانًا أبيع السمن، فقلت: يا سيدي ما آكلها إلا بسمن، فقال: اذهب بهذه الركوة إلى البحر وائتني بماء أتوضأ، قال: فذهبت إلى البحر فغرفت منه في الركوة وجئت به، فأخذ مني الركوة، فصبّ منها سمنًا على الهريسة، فأكلت من ذلك ولم أذق مثله قطّ رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به وبجميع الصالحين وأعاد علينا من بركاتهم. وأخبرني أيضًا بعض المباركين قال: أرسلنا شيخنا نشتري له تمرًا من سوق عدن، فلم نجد في السوق شيئًا منه، فرجعنا إليه بغير شيء، فلقينا الشيخ ريحان في الطريق فقال: انظروا هؤلاء الرّسل الملاح أرسلهم شيخهم في شهوة اشتهاها فرجعوا لغير شيء، اذهبوا إلى بيت فلان في المكان الفلاني تجدوا حاجة الشيخ عنده، قال: فذهبنا إلى ذلك الشخص في الموضع الذي سمّاه، فوجدنا عنده التمر، فاشترينا منه للشيخ وجئناه به وأخبرناه بما قال لنا الشيخ ريحان: فضحك وقال: أشتهي أن أرى هذا الشيخ ريحان، فلم نشعر إلا بالشيخ ريحان قد دخل عليه المسجد الذي هو فيه فَخَلا به وتحدّثا ساعة، فلما خرج الشيخ ريحان تعجب الشيخ مما رأى منه وأثنى عليه وعظّمه. وقلت: هذا الشيخ المذكور هو شيخ

(١) الهريسة: نوع من الحلوى يُصنَع من الدقيق والسمن والسكر.

Marfat.com

شيوخنا الذي في عدن وهو الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الفقيه الإمام ذو المناقب العديدة والسِّيرة الحميدة والكرامات الكبيرة والمحاسن الشهيرة أبو محمد عبد الله بن أبي بكر المدفون في مورع، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به والمسلمين ببركته، صحب الشيخ الجليل الإمام الحفيل ذا المجد الأثيل والحظ الجزيل العارف بالله المشهور المشكور عظيم الكرامات رفيع المقامات أبا الذبيح إسماعيل بن محمد الحضرمي اليمني رضي الله تعالى عنه ونفعنا به والمسلمين ببركاته وبركة سلفه، وقرأ عليه ونال منه منالاً فاخرًا وحظًا وافرًا زاده الله من كل خير آمين وجميع المسلمين. قال المؤلف كان الله له: وأخبرني أيضًا بعضهم قال: أخبرني إنسان ثقة قال: خرجت في شهر رمضان المبارك أشتري لأهلي شيئًا من السوق بين العشاءين، فلقيني الشيخ ريحان رضي الله تعالى عنه، فجرّني وارتفع به في الهواء ارتفاعًا كبيرًا، فبكيت وقلت له: رُدّني، فردّني إلى الأرض وقال: أردت أن أفرجك فأبيت. قلت: لعله أراد بهذه الفرجة أن يُطلِعه على عجائب ملكوت السمٰوات. قلت: وأخبرني بعض الصالحين أيضًا قال: قلت للشيخ ريحان: خاطرك معي، فقال لي: ما دام هذا الرأس صحيحًا لا تخف وأشار إلى رأسه، قال: فحسبت أنه يعني ما دمت حيًا، ولم يظهر لي مراده إلا بعد موته وذلك أنه سقط بعد ذلك بمدة طويلة في أصل جبل فانكسر رأسه ومات، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. قال الشيخ صفي الدين رضي الله تعالى عنه: رأيت بجيزة مصر امرأة مُولَهَة أقامت فوق ثلاثين سنة قائمة على رِجليها في مكان من الأرض بين الحلفاء[1] ما جلست ليلاً ولا نهارًا لا شتاءً ولا صيفًا، لا يسترها شيء من الشمس والمطر، تأوي الحيات والثعابين حولها، وكان أمرها عجيبًا، رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها وبجميع الصالحين.

(الحكاية الخامسة والأربعون بعد الأربع مئة) قال المؤلف كان الله له: أخبرني بعض الصالحين قال: زرت بعض الأولياء الصالحين وصحبني إنسان، فلما وصلنا إليه وسلّمنا عليه، أتانا بطعام في جفنة كبيرة، وكان للمكان الذي نحن فيه بابان: باب كبير، وباب صغير، فدخل علينا بالجفنة من الباب الصغير، فلم يَسَع الباب دخول الجفنة، فصاح صيحة عظيمة، فرأينا الجفنة قد انضمّ بعضها إلى بعض مثل الثوب إذا عطفت بعضه على بعض ثم دخل ووضعها بين أيدينا، فرأيناها تنفتح وتتّسع حتى عادت إلى حالها الأول، وإنما جاءنا من الباب الصغير وفعل هذا حتى نرى هذه الكرامة منه، لأن رفيقي كان ينكر عليه، فاستغفر الله وتاب رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، وأخبرني بعضهم أنه اجتمع

(١) الحلفاء: نبات عشبي معمّر من الفصيلة النجيلية، أوراقه مستطيلة خيطية أو أسلية النصل يلتفّ بعضها على بعض تُصنع منها الحصر والقفف والحبال.

Marfat.com

بجماعة من الصالحين في اليمن وأن واحدًا منهم غَرَفَ شيئًا من الهواء بكفّه ووضعه في فمه، فإذا هو عسل رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية السادسة والأربعون بعد الأربع مئة) قال المؤلف رضي الله تعالى عنه: بلغني أن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى سفيان اليمني رضي الله تعالى عنه دخل عدن في وقت، فقيل له: هٰهنا يهودي ولاّه السلطان على بعض الجهات الكبار المناصب عندهم، فحصل له منزلة عالية ومنصب كبير، فصار المسلمون يمشون تحت رِكابه، وإذا جلس يقومون على رأسه، فمشى الشيخ سفيان إليه وهو يومئذ في الرياضة، والتجرّد في زيّ فقير، فوجده جالسًا على كرسي والمسلمون تحته على الأرض قائمون في خدمته؛ فلما وصل إليه قال له: قل أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، فصاح اليهودي واستغاث بجنده عليه، فلم يقدروا أن يفعلوا شيئًا، ثم أعاد عليه الشهادة ثانية وثالثة، وهو في كلّ ذلك يصرخ بالجند، فلا يقدرون على شيء، ثم بعد المرّة الثالثة أخذ الشيخ بجمّة اليهودي، أو قال: بذؤابته بيده اليسرى، وأخذ سكّينًا صغيرة كانت معه بيده اليمنى وقال: بسم الله والله أكبر، وتقرّب بذبحه إلى الله تعالى ثم رجع إلى مكانه، وكان يقعد في الجامع، فبلغ الخبر إلى الأمير، فلم يصدّق واستبعد ذلك لكون المقتول من خدّام السلطان ومن خاصّته، لا سيما والقاتل ذكروا أنه مسكين، ثم تواتر الخبر عنه إلى الأمير، فقال لغلمانه ائتوني به، فذهبوا إلى الجامع فلم يقدروا أن يصلّوا به، فرجعوا إلى الأمير، فركب في عسكره حتى بلغ الجامع، فلم يقدر أحد منهم أن يدخل الجامع. فضلاً عن أن يمدّ يده إليه بسوء، فعرف الأمير أنه محميّ من قبل الله عزّ وجلّ، فرجع وخاف على نفسه الشدّة من قِبل السلطان، لكون البلد في دركه، فاستشار أهل العقل والرأي ماذا يفعل؟ فقال له بعض الأولياء: هؤلاء الأولياء ما لهم إلا بعضهم بعضًا، وفي الحج رجل من الأولياء يقال له: العايدي، فأرسل إليه ليأتيك، واشكِ إليه الحال، فأرسل إليه فجاء وشكا إليه ولزمه، قال له: أشتهي أن لا يخرج القاتل من البلد حتى أُعرِّف السلطان ويأتيني بالجواب، فقال له: نعم إن شاء الله تعالى، ثم خرج العايدي من عنده وجاء إلى الشيخ سفيان رضي الله تعالى عنه، وكان بينهما صحبة وودّ، فشكره العايدي على ما فعله وقال: قلعت حجرًا من طريق المسلمين، ثم قال له: اخرج بنا نتمشّى، فخرجا يمشيان حتى بلغا باب الحبس، فقال العايدي للحبّاس: دونك الرجل قيّده واحبسه، فمدّ سفيان رِجليه للقيد وقال: السمع والطاعة، فقُيِّدَ وبقي في الحبس مدة أيام إن شاء ترك القيد في رجليه وإن شاء فتحه ورمى به؛ فلما كان يوم الجمعة وحضر وقت الصلاة حلّ القيد وذهب إلى الجامع، فوجده قد امتلأ بالناس، فدخل حتى وصل إلى قريب من الأمير، ثم نظر إلى الناس وقال: أُصلّي على هؤلاء الموتى أربع تكبيرات الله أكبر، ثم خرج ورجع إلى الحبس وأقام فيه مدّة أيام حتى جاء جواب السلطان وهو

Marfat.com

يقول: أطلقوه فنحن نطلب السلامة منه، فقد كان قبل هذا ادّعى أن البلاد بلاده، وأن المُلْكَ له دوننا، ثم خرج من الحبس ولم يكن للسلطان ولا للشيطان عليه سلطان، وقد كان جرى له مع السلطان قصة، فدخل على السلطان يومًا فقال له: اخرج من بلادي، وكان ذلك في أبين، بالباء الموحدة ثم الياء المثناة من تحت: بلد بينها وبين عدن نحو مرحلتين، فخرج السلطان منها خائفًا. وهذا هو الملك الذي أشرتُ إليه في خطبة الكتاب بقولي:

ملوكٌ على التحقيق ليس لغيرهم　　　من المُلْكِ إلا اسمه وعقابه

ولحج بالحاء المهملة ثم بالجيم: على نحو مرحلة من عدن، والعايذي: بالعين المهملة وبعد الألف ياء مثناة من تحت ثم دال مهملة، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم.

(الحكاية السابعة والأربعون بعد الأربع مئة قال المؤلف كان الله له: بلغني أيضًا أنه تخاصم خادم الشيخ أبي الغيث المشهور رضي الله تعالى عنه ونفعنا به والمسلمين ببركته هو وغلام السلطان، فضرب خادم الشيخ غلام السلطان، فبلغ ذلك السلطان، فأمر بخادم الشيخ أبي الغيث فقتل، فبلغ ذلك الشيخ أبا الغيث، فأطرق رأسه ساعة ثم قال: ما لي وللحراسة، أنا أنزل من المشباب وأترك الزرع، فقتل السلطان في ذلك الوقت، فجاء ولده الملك المظفر رحمه الله إلى الشيخ المذكور رضي الله تعالى عنه مستغفرًا، ونعله على رأسه، أو قال: في عنقه، فقال له الشيخ: ما تريد؟ قال: الملك، فقال: أنا قد ولّيتك. قلت: المشباب المذكور بالميم المكسورة ثم الشين المعجمة ثم الباء الموحدة مكرّرة قبل الألف وبعدها، يعني به مكانًا عاليًا من خشب منصوبة فوقها عريش يجلس عليه حارس الزرع. وكذلك بلغني أن بعض أئمة الأشراف استولى على بعض جبال اليمن، ثم أراد النزول إلى تهامة، فكتب الشيخ أبو الغيث المذكور المشكور المقدّم المشهور رضي الله تعالى عنه إلى الوليّ الكبير الفقيه العالِم ذي المناقب والمفاخر والكرامات الظواهر محمد بن إسماعيل الحضرمي رضي الله تعالى عنه يقول له: قد عزمت على النقلة من بلاد اليمن من أجل ظهور الفتن، فهل لك أن توافقني على ذلك؟ فكتب إليه الفقيه محمد كتابًا يذكر فيه كثرة أهله وقرابته، وأن النقلة بهم تشقّ عليه، ولا يمكنه أن ينتقل ويتركهم، ثم قال: ولكن عليك أن تحمي جهتك، وأنا أحمي جهتي؛ فلما بلغ الشيخ أبا الغيث قوله هذا، قال: نعم، فقتل الإمام المذكور أو مات في الحال، رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما.

(الحكاية الثامنة والأربعون بعد الأربع مئة) قال المؤلف رضي الله عنه وكان الله له: سمعت من غير واحد من الصالحين ومن الثقات يروون عن الشيخ أبي الغيث رضي الله

تعالى عنه أنه قال: أتى الشيخ والفقيه السيدان الكبيران، العارفان المشهوران المقدّمان صاحبا عواجة إلى شيخي السيد الجليل الوليّ العارف بالله الشيخ عليّ المعروف بالأهدل رضي الله تعالى عن الجميع، ونفعنا والمسلمين ببركتهم وطلبا منه أن يذهب معهما إلى بعض المواضع، قال: فوافقهما وذهبت أنا معهم؛ فلما كان بعض الليل إذ أنا أنظر الشيخ والفقيه في الهواء، فوقفا وفي يديهما سيفان مسلولان، وأنا والشيخ عليّ رضي الله تعالى عنه في الأرض ونحن سائرون، فذكرت ما رأيت منهما للشيخ عليّ، فقال لي: يا أبا الغيث هذان في مقام التولية والعزل يوليان ويعزلان بإذن الله تعالى وسوف أرثهما أنا، وترثني أنت، رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم. قلت: يعني أنه فوّض إليهما في التصرّف في المملكة بعد أن وُفّقا لموافقة مراد الحقّ عزّ وجلّ. وقد بلغني أنهما سمعا خطابًا من قبل الحقّ عزّ وجلّ وهو يقول لهما: إذا أردتما أن تفعلا شيئًا فافعلا ولا تسألاني، فإني أكره أن أرى ذلّ السؤال في وجوهكما، رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهم.

(الحكاية التاسعة والأربعون بعد الأربع مئة) قال المؤلف كان الله له: أخبرني بعض الصالحين قال: منذ عشرين سنة لا تزال الدنيا تأتيني في صورة عجوز كبيرة وقبيحة المنظر لا أستطيع أن أنظر إليها، تحمل لي طعامًا وشرابًا لم أذق مثله قطّ، ولا أقدر أصف طعمه وريحه ولا الإناء الذي هو فيه حُسْنًا ولونًا وجنسًا، قال: وأذوق في كل ذلك طعم كلّ شيء طيب من الحلواء والعسل واللحم واللبن وغير ذلك وليس هو هو، قال: وتأتيني السّباع من الأُسود والنُّمور وغيرها وتجلس إلى جانبي في البرية، وكل سبع يأتيني يوافقني في الجلوس والاضطجاع، إن جلست جلس وإن اضطجعت اضطجع، ويفترس الغزلان ويأتي بها ويأكلها عندي، وإن رأى طارقًا يطرقني ضرب بيده على الأرض حتى أنتبه، قال: وأجتمع في بعض الأوقات بكثير من الأولياء الإنس والجنّ، وينزل علينا في كل ليلة بعد صلاة العشاء مائدة عظيمة عليها طعام لا يقدر على وصفه الواصفون، فيه طعم كلّ شيء طيب، فنجتمع وقد نبلغ في بعض الأوقات نحو أربع مئة رجل ولا ينقص أكلنا منها شيئًا، قال: وينزل عليّ في أوقات الفاقة مائدة من الهواء، فإن التفتّ إليها رجعت عني، وإن اشتغلت بعبادتي ولم ألتفت إليها لم تزل تنزل حتى تقع بين يديّ فآكل منها حاجتي، قال: وأول ما نزلت عليّ في بدايتي ليلة السابع من انقطاعي إلى الله عزّ وجلّ بعد أن اشتدّ بي الجوع، وكان أشد ما لقيت ليلة الخامس، ثم هان بعد ذلك ونزل معها نور عظيم يملأ الوجود، قال: وكانت الشياطين تأتيني وتُفزعني بأهوال عظيمة، ويأتيني سلطانهم في عساكر كثيرة في السلاح والعدد، وتضرب الطبول في موكبه وتمرّ بين يديّ العساكر وعليهم اللباس المليح، قال: وكذلك مرّ بين يديّ في بعض الأوقات شيء عظيم يهول الناظر، له سبعون رأساً، وذكر أشياء

Marfat.com

كثيرة من العجائب العظيمة والكرامات الكريمة، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به والمسلمين آمين.

(الحكاية الخمسون بعد الأربع مئة): رُوِيَ أن بعض المشايخ خطب امرأة، فأبى أهلها أن يزوّجوه إلا بجارية تخدمها، فلم يقدر على شراء الجارية، فذكر ذلك لصاحب له، فقال له صاحبه: أنا أكون عوض الجارية التي تخدم، فاذهب إليهم وقل لهم: عندي جارية للخدمة، ولكنها قالت: تخدم في مكان تقعد فيه وحدها لا تراكم ولا ترونها، فذهب إليهم وقال لهم كذلك. فقالوا: نعم إذا قامت بالخدمة التي نطلب فلا حاجة لنا في رؤيتها فزوّجوه، ثم أتى بصاحبه وتركه في مكان وحده وكان أسود ليس له لحية، فقعد يطحن لهم على وجهه برقع[1] المرأة تحسب أنه جارية، وكان الشيخ يخرج من عند زوجته بالليل يتعبّد، فذكرت المرأة ذلك الخروج للنساء، فقلن لها: عسى هو يذهب إلى الجارية، فلما خرج في تلك الليلة خرجت بعده لتنظر هل هو عند الجارية، فوجدت الجارية تصلي والرّحا تدور بنفسها، فتعجبت من ذلك ولم تجد الشيخ هناك، فرجعت وسكتت حتى جاء الشيخ فذكرت له ذلك، وقالت: رأيت الجارية تصلي والرّحا تدور بنفسها، فقال: ما هي جارية ذاك أخي فلان، فقالت: أنا أستغفر الله وأنا الجارية التي تخدمكما رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما آمين.

(الحكاية الحادية والخمسون بعد الأربع مئة) قال الشيخ الكبير قدوة الشيوخ العارفين وبركة أهل زمانه من العالمين أبو عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: لمّا جاء الغلاء الكبير إلى ديار مصر توجّهت لأدعو، فقيل: لا تدعُ فما يسمع لأحد منكم في هذا الأمر دعاء، فسافرت إلى الشام، فلما وصلت إلى قريب ضريح الخليل عليه الصلاة والسلام تلقاني الخليل ﷺ، فقلت له: يا خليل الله، اجعل ضيافتي عندك الدعاء لأهل مصر، فدعا لهم ففرّج الله عنهم. قلت: وقوله: تلقاني الخليل عليه الصلاة والسلام قول حقّ لا ينكره إلا جاهل بمعرفة ما يرد عليهم من الأحوال التي يشاهدون فيها ملكوت السمٰوات والأرض، وينظرون الأنبياء أحياء غير أموات، كما نظر النبي ﷺ موسى عليه السلام يصلّي في الأرض. ونظر أيضًا جماعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في السمٰوات وسمع منهم مخاطبات وقد تقدّم أنه يجوز للأولياء رضي الله تعالى عنهم من الكرامات ما يجوز للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من المعجزات بشرط عدم التحدّي.

(الحكاية الثانية والخمسون بعد الأربع مئة): رُوِيَ أيضًا أنه لمّا وصل الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه إلى القدس، كان معه الفقيه أبو الطاهر المحلي،

(١) البرقع: غطاء للوجه يكون للدواب ولنساء الأعراب (ج) براقع.

Marfat.com

فمرّ الفقيه أبو الطاهر المذكور يومًا على مدرسة بالقدس والفقهاء جالسون على بابها بأعظم هيئة ولباس وزيّ وأكثرهم أعجام، فاستحيا أن يمرّ عليهم لحقارته في نفسه وهو شاب فقير أسود، رثّ الحالة، فلما رجع إلى الشيخ وبات معه إلى الصبح، قال له الشيخ: امض إلى المدرسة التي مررت عليها، كن بها مُعيدًا، قال: فتعجبت وعظم ذلك عليّ واستَحَلْتُ وقوعه ولم يمكنني إلا الامتثال، فجئت إليها وأنا أتوهم أن البوّاب يمنعني من الدخول، فلم يمنعني، فدخلت ووجدت المدرِّس جالسًا وحلقة كبيرة دائرة عليه، فأردت أن أدخل في الحلقة فلم يُفسِح لي أحد منهم احتقارًا واستهانة بي، فجلست خلفهم وإذا برجل قد دخل من باب المدرسة، فلما رآه المدرِّس عبس بوجهه وقام إليه يتلقّاه، وانقبضت الجماعة بأسرهم، فقلت للذي أنا وراء ظهره: يا أخي ما للجماعة؟ قال: هذا الذي دخل جدليّ خلافي لا يُطاق، وإذا جاء لا يبقى للشيخ معه كلام إلا ملاطفته، ولا يستطيع أحد مُجاراته، فلما تلقّاه الشيخ أجلسه مكانه، فلما قعد استفتح وألقى مسألة خلفية عقدت، فلما استكمل إيرادها فتح عليّ حفظ سؤاله والجواب عنه، فزاحمت ودخلت بين اثنين وانطلق لساني ونصّيت سؤاله وما غيّرت منه شيئًا، وهذا ترتيب المُناظِرين إعادة السؤال، ثم أجبته بما فتح الله تعالى عليّ ولم أكن قرأت علم الخلاف ولا ناظرت، فتعجب المدرِّس مني وبُهِتَ الجماعة من أمري واستعظموا ذلك، وقال المُناظِر للمدرِّس: هذا الفقيه من أين لكم؟ قال: ما رأيناه إلا هذه الساعة، فقال المناظر: لمثل هذا تُبنَى المدارس، ففرح المدرِّس حيث كان في حلقته مَن أجاب هذا المُناظِر، ثم قال المدرِّس لي: ما اسمك؟ فذكرت له اسمي، فقال: قد ولّيتك الإعادة، ثم قام فقمت معه، وقامت الجماعة معي، فقال لي: يا فقيه، عادتنا إذا استعدنا معيدًا نشيّعه حال توليته إلى منزله؛ فلما خرجنا من المدرسة قصد أن يمشي هو والجماعة معي، فسألته أن يخلي عني ذلك فقبل ورجع، فلما جئت إلى الشيخ قال لي: يا فضولي ولأي شيء منعته أن يفعل عادته ويوصلك إلى منزلك؟ قلت له: يا سيدي حملاً عن خاطرك، وبقيت بها إلى أن توفي الشيخ، فدفن بظاهر بيت المقدس رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الثالثة والخمسون بعد الأربع مئة): رُوِيَ أن الشيخ أبا عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه كان يومًا جالسًا في ميعاده بمصر، وكان الشيخ أبو العباس القسطلاني رضي الله تعالى عنه هو الذي يقرأ المواعيد بين يديه، فحضر ميعاد الشيخ أبي العباس الطنجي، ففتح القارىء المذكور الكتاب وسكت، فقال له الشيخ القرشي: ما لك لا تقرأ؟ قال: يا سيدي الكتاب أبيض ما فيه شيء مكتوب، فقال الشيخ القرشي: من هٰهنا؟ فقالوا: أبو العباس الطنجي، فقال الشيخ القرشي له: يا أبا العباس معي تفعل هذا؟ ثم قال للقارىء: اقرأ، فوجد الكتاب مكتوبًا، فقرأ على عادته، وكان أبو العباس القسطلاني

Marfat.com

المذكور، وقد ترك زينة الدنيا وأقبل على خدمة الشيخ القرشي بنفسه، وكان زاهد مصر في وقته، وكان كثير الرياضات، وكانت إقامته في آخر عمره بمكة المشرّفة، وبها مات، وقبره معروف، وكان قد حصل قحط في وقته بمدينة النبيّ ﷺ لانقطاع المطر، وكان هناك يومئذ، فعزم الناس على الاستسقاء، وتقرّر الحال على أن يستسقي أهل المدينة يومًا، والغرباء يومًا، والمجاورون يومًا، فاستسقى أهل المدينة فلم يمطروا، فعمل أبو العباس المذكور طعامًا كثيرًا وأطعم الفقراء وأهل الضرورات واستسقى فمطروا، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به.

(الحكاية الرابعة والخمسون بعد الأربع مئة): روى الشيخ صفيّ الدين رضي الله تعالى عنه في رسالته أنه قال: كان الشيخ أبو عبد الله محمد الأزهري العجمي رضي الله تعالى عنه كثير السياحات، صاحب آيات عظيمات وحكايات تضيق عنها العقول، قال تلميذه الشيخ الكبير أبو الحسن بن الدقاق رضي الله تعالى عنه: أدخلني الشيخ محمد العجمي على ثلاثة مئة وستين عالمًا غير عالم السمٰوات والأرض، قال: ووصل بي إلى جبل قاف، وأراني الحيّة الدائرة بالجبل ورأسها على ذنبها وهي خضراء؛ قال: وكان الشيخ إذا مشى بي إلى أمر خارق أوطى الأرض أبقى معه غائبًا عن حسّي المعهود، فخرج يومًا من دمشق وأنا بصحبته إلى أن وصلنا طبرية[1]، ووقفنا على قبر سليمان عليه الصلاة والسلام، فقلت: يا سيدي هذا قبر سليمان عليه الصلاة والسلام، قال: هكذا يقال، ثم مشى وأنا خلفه محمول إلى أن أشرفنا على بناء مهول، وإذا نحن بأقوام تلقّوا الشيخ وسلّموا عليه، وتبرّكوا بقدومه، ثم مشوا قدّامه، فوجدت منهم وحشة، فالتفت الشيخ إليّ وقال: يا عليّ احفظ نفسك واشتغل بي ولا تشتغل بمَن تراه، فهؤلاء جانّ ونحن قادمون على قبر سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام؛ فلما وصلنا إلى البنيان تلقّته طائفة أخرى وأدخلوه البناء، وهو صورة قصر عظيم والشيخ يمشي وأنا خلفه، وإذا في صدر المكان رجل قائم عليه هيبة عظيمة ونور عظيم، وفي يده عصًا، فقال الشيخ لي: هذا سليمان، ثم تقدّم وقبّل يده، وفي إحدى أصابعه الخاتم، ثم تأخّر، فأخذه جماعة من الجنّ خدّام سليمان عليه الصلاة والسلام، وذهبوا به إلى موضع، وقدّموا ضيافته طعامًا، فأكل الشيخ وأكلت معه، ثم ذهبوا به يفرّجونه على ذخائر سليمان عليه الصلاة والسلام، فأتوا به إلى البساط، فوقف عليه، فجاءت ريح ففرشته، حتى رآه، ثم جاؤوا به على عرش بلقيس، فرآه إلى أن استكمل ذخائر سليمان عليه الصلاة والسلام،

---

(١) طبرية: بُلَيدة مُطلّة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهي في طرف جبل وجبل الطور مطلّ عليها وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس، وبينها وبين عكا يومان. (معجم البلدان ٤/١٧).

ثم مرّ على مغارة وبها دويّ مزعج ورائحة منكرة، فقالوا له: يا سيدي هذا سجن إبليس وهو مسجون في هذه المغارة منذ زمن نبيّ الله سليمان ﷺ؛ فلما أراد الشيخ الانصراف وضعوا له سريرًا، وأشار الشيخ إليّ فوضعوا لي سريرًا آخر؛ فلما جلسنا عليهما ارتفعا بنا في الهواء لا نبصر مَن يحملهما، ومرّ بنا في الهواء فوق بحر انتهينا إلى مكان؛ فلما وصلنا حطّ بنا السريران إلى الأرض، فنزلنا عنهما ثم ارتفعا في الهواء ورجعا، فمشى الشيخ وأنا خلفه ساعة، وإذا نحن بدمشق قد بَدَت. قال: وكنّا يومًا بدمشق، وكان في أصحب الشيخ مَن هو من الحجاز، ومَن هو من العراق، فذكروا الرّطَب، فقال له أهل الحجاز: رُطَبنا أطيب، وقال العراقيون: رُطبنا أطيب، وكان للشيخ خادم اسمه يوسف، فنظر الشيخ إليه، فخرج الخادم من الباب وغاب لحظة، ثم دخل وعلى يده طبق فيه رُطَب كما جنى من النخل، فوضعه بين يدي الشيخ، فقال الشيخ: يا حجازيون هذا رُطَب بلادنا فأحضروا أنتم رُطَب بلادكم؛ وله من العجائب والكرامات أشياء عظيمات، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به.

(الحكاية الخامسة والخمسون بعد الأربع مئة: عن الشيخ المغاوري رضي الله تعالى عنه) قال: كنت مدة سنين مُولَعًا بالحرب، وعدّة سنين بالسياحة، أدخل إلى بلد الكفّار لأمور أُمِرْتُ بالدخول إلى بلادهم لأجلها وحجابي بحكمي، إن أردت رأوني، وإن أردت لم يروني، فورد عليّ أمر من جهة الحقّ سبحانه وتعالى بأن أدخل إلى بلادهم لأجتمع فيها برجل صديق فدخلت أرضهم وأريتهم نفسي، فأخذوني أسيرًا وفرح بي مَن أخذني وكتّفني وجاء بي إلى السوق يبيعني، وكان هذا هو طريق المقصود الذي أمرت به، فاشتراني رجل معتبر راكب على دابّة، ووقفني على الكنيسة لأكون فيها خادمًا، فباشرت خدمتها أيامًا، وإذا بهم قد أحضروا بُسُطًا كثيرة، ومباخر وطِيبًا كثيرًا، فقلت لهم: ما الخبر؟ قالوا: الملك عادته زيادة الكنيسة يومًا في السنة وقد جاء وقت زيارته، فنحن نهيّئها له ونُخلِيها، فلا يبقى فيها أحد حتى يدخل وحده، يتعبّد فيها؛ فلما أغلقوها بقيت أنا فيها واحتجبت عنهم فلم يروني، وإذا بالملك قد جاء ففتحوها له ودخلها وحده وأغلقوا عليه الباب، فدار بالكنيسة يفتّشها وأنا أنظر إليه وهو لا يراني إلى أن اطمأنّ، فدخل المذبح الذي فيها وتوجّه إلى القِبلة وكبّر بالصلاة، فقيل لي: هذا هو الذي أردنا لك الاجتماع به، فظهرت ووقفت وراءه حتى يسلّم من الصلاة، ثم التفت فرآني فقال: مَن تكون؟ قلت: مسلم مثلك، قال: وما جاء بك هٰهنا؟ قلت: أنت، فأقبل عليّ وسألني عن أمري، فأخبرته بما أُمِرْتُ به من الاجتماع، ولم يكن لي طريق إلى ذلك إلا بصورة ما جرى من الأَسْر والبيع، واتخاذهم لي خادمًا للكنيسة، وتمكيني لهم من نفسي في جميع ذلك، ليقع الاجتماع، ففرح بي، فكاشفته وكاشفني، ووجدته من كبار الصدّيقين، فقلت له: كيف حالك بين هؤلاء الكفّار في باطن الأمر؟ قال: يا أبا الحجّاج

لي فوائد بينهم لا أبلغ مثلها لو كنت مع المسلمين، قلت له: صِف لي، قال: توحيدي وإسلامي وأعمالي خالصة لله عزّ وجلّ وحده، ما لأحد اطّلاع عليها، وآكل حلالاً ما فيه شُبهة، وأنفع المسلمين نفعًا، لو كنت أكبر ملوكهم ما بلغته من الدفع عنهم، وأكفّ عنهم أذى الكفّار حتى لا يصل إليهم، وأفعل في الكفّار من القتل والإفساد لأحوالهم ما لو كنت أعظم ملوك المسلمين ما فعلته، وسأريك من بعض تصرّفاتي فيهم، ثم ودّعني وودّعته، وقال لي ارجع إلى حالتك، فأخفيت نفسي واحتجبت عن الناظرين، فخرج الملك وقعد على باب الكنيسة وقال: ائتوني بجميع مَن يختصّ بالكنيسة، فأحضروا له جماعة منهم وعرضوهم عليه، وقالوا: هذا بطريقها[١]، وهذا شماسها، وهذا راهبها، وهذا مشارف أوقافها، وهذا جابي رباعها، قال: فمَن يخدمها؟ قالوا له: فلان يعنون الذي وقفني على الكنيسة، اشترى أسيرًا ووقفه على خدمتها، فأظهر غضبًا عظيمًا وقال: تكبّرتم جميعًا عن خدمة بيت الربّ، وجعلتم رجلاً من غير الملّة نجسًا يخدم بيت الربّ، فأخذ السيف وضرب رِقاب الجميع في حجة الغيرة على بيت الربّ، وأمر بإحضاري، فظهرت لهم، فقدّموني إليه، فقال: هذا خادم الكنيسة التي يتبرّك بها ويستحقّ في مقابلة كِبْر هؤلاء الإكرام والتعظيم والخلع والمركوب، وإطلاقه إلى وطنه وأهله، ففعلوا بي ذلك وانصرفت عنه رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما.

(الحكاية السادسة والخمسون بعد الأربع مئة): رُوِيَ أن أمير المؤمنين بالمغرب المسمّى يعقوب رحمه الله تعالى رأى مرأى وأحوالاً من أحول المريدين؛ وسببه أنه قتل أخاه غيرة على الملك، فندم على قتل أخيه ندمًا أورثه توبة أثّرت في باطنه أحوالاً حسنة، وتغيّر عليه من نفسه ما لا يعهده لثمرة التوبة، فما كان أدركه عليه ذنبًا. وفي مثل هذا قال القائل:

ورُبَّ قطيعة جلبت وِصالاً   وكم ذا في الزوايا من خبايا

فشكا ما يجده لمريدة كانت تدخل قصره، فقالت له: هذه أحوال المريدين، فقال: كيف أعمل بنفسي، ومَن يعرفني ويداويني، قالت له: الشيخ أبو مدين سيد هذه الطائفة في هذا الزمان، فبعث يعقوب إلى الشيخ أبي مدين وطلبه طلبًا حثيثًا والتجأ إليه، فاقتضى إجابة الشيخ أبي مدين له، فقال: قولوا له نطيع الله عزّ وجلّ سبحانه وتعالى بطاعته، وأنا ما أصل إليه بل أموت بتلمسان[٢]، وكان الشيخ يومئذ في بجاية[٣]، فلما وصل إلى

(١) البطريك: رئيس رؤساء الأساقفة عند النصارى، أو العالم عند اليهود.

(٢) تلمسان: بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسوّرتان إحداهما قديمة والأخرى حديثة. (معجم البلدان ٢/ ٤٤).

(٣) بجاية: مدينة بالأندلس من أعمال كورة إلبيرة، بينها وبين المرية فرسخان وبينها وبين غرناطة مائة=

Marfat.com

تلمسان قال لرُسُل يعقوب: سلّموا على صاحبكم، وقولوا له: شفاؤك على يد أبي العباس المريني، ونفعك على يده، ومات الشيخ أبو مدين بتلمسان رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، ومضت الرُسُل إلى يعقوب فأخبروه بما أوصى به الشيخ له، فطلب الشيخ أبا العباس المريني طلبًا حثيثًا، وسيَّر إليه في كلّ الجهات إلى أن ظفروا به، فأخبروه بما عليه من الطلب، فوجد من الحقّ سبحانه إذنًا بالاجتماع به، فمشى إليه واجتمع به، ففرح يعقوب بذلك، ثم أمر بذبح دجاجة وخنق أخرى وأن يطبخ كل واحد منهما على حِدَة وقدّمهما بين يدي الشيخ، وسأله أن يتناول، فنظر الشيخ إليهما وأمر الخادم برفع المخنوقة وقال: هذه جيفة، وأكل من الأخرى، فسلّم يعقوب نفسه له وأنزل نفسه منزلة خادم، وفتح له على يده، وترك الملك وسلّمه لابنه واشتغل مع الشيخ وثبتت قدمه في الولاية ببركة الشيخ أبي العباس، وإشارة الشيخ إلى أبي مدين رضي الله تعالى عن الجميع ونفعنا بهم. ومما جرى ليعقوب أن الناس كانوا محتاجين إلى المطر، فقال أبو العباس ليعقوب بعد أن خرجا إلى خارج البلد: صلّ واستَسْقِ للمسلمين فقال له يعقوب: أنت أحقّ بذلك يا سيدي وأولى. فقال له الشيخ: بهذا أمرت، فصلّى يعقوب ودعا فنزل المطر على الفور رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما والمسلمين آمين.

(الحكاية السابعة والخمسون بعد الأربع مئة): قال الشيخ صفيّ الدين رضي الله تعالى عنه: رأيت امرأة كبيرة الشأن يعظّمها الأولياء والعلماء مغربية يقال لها: ستّ الملوك زارت بيت المقدس في وقت كان فيه الشيخ الكبير الشأن عليّ بن علبس: بفتح العين المهملة والباء الموحدة وسكون اللام بينهما وفي آخره سين مهملة، اليماني رضي الله تعالى عنه، قال الشيخ عليّ المذكور: وكنت ببيت المقدس، وإذا أنا أشهد حبلاً من نور مُدَّ لي من السماء إلى قبّة كانت في المسجد، فمشيت إلى القبّة، فوجدت فيها هذه المرأة ستّ الملوك والنور الذي شهدته متّصل بها، فطلبت منها الأُخوّة، فأجابت رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها. قال الصفيّ: ورأيت الشيخ الصالح الوليّ سفيان اليماني من الأكابر وأرباب الهِمَم العالية، وكان معمر الأوقات بالصلاة، ظهر في جهة من اليمن بعد وصوله إلى ديار مصر وحجّه، وشهد له جماعة كثيرة لمّا رأوا من كراماته رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. قلت: هذا سفيان الذي قدّمت ذكره في قتله لليهودي الذي ذبحه في عدن من أجل رفعته على المسلمين واستخدامه لهم يمشون تحت رِكابه بولاية السلطان. وقد بلغني أنه قتل يهوديًا آخر في تعز[1] بالحال بأن قال

= ميل، وهي ثلاثة وثلاثون فرسخًا. (معجم البلدان ١/ ٣٣٩).

(١) تعز: قلعة عظيمة من قِلاع اليمن المشهورات. (معجم البلدان ٢/ ٣٤).

Marfat.com

له: تفعل كذا وكذا وإلا قطيت[1] رأس هذا القلم، وكان في يده رضي الله تعالى عنه قلم وسكِّين، فقال اليهودي: قطّ القلم وما عليّ من قطته فقط رأس القلم، وإذا برأس اليهودي مقطوع يدرج على الأرض، وله كثير من الكرامات العظيمات، وكان فقيهًا قد اشتغل بالعلم وحصل حتى قيل له: إن أردتنا فاترك القولين والوجهين، فترك ذلك واشتغل بالله تعالى. وأما وصولي إلى ديار مصر فقد بلغني أنه سافر إليها ليحضر الجهاد في دمياط[2]، وكان فتح المسلمين على يديه، وكان قد قال لهم بعض مَن أطلعهم الله على ما شاء من الغيب: إن فتح دمياط يكون على يد رجل من أهل اليمن. وممّن حضر الجهاد بدمياط الفقيه العالِم الوليّ العارف عبد الرحمٰن النويري رضي الله تعالى عنه، واستشهد، قال الأفرنجي الذي قتله: ضربت عنقه، ثم قلت له بعد أن مات: يا قسِّيس المسلمين أنتم تقولون في قراءتكم: ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يُرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩] قلت له ذلك بطريق التهكّم، ففتح عينيهٰ ورفع رأسه وقال بصوت قويّ: نعم أحياء عند ربهم يُرزَقون، ثم سكت فعندما رأيت ذلك وسمعت ما سمعت، نزع الله الكفر من قلبي وأسلمت على يده، وأرجو الله أن يغفر لي ببركته وإسلامي على يديه انتهى كلامه، وكان يُقال بعد ذلك للشيخ عبد الرحمٰن الشهيد الناطق، وله كرامات كثيرة رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الثامنة والخمسون بعد الأربع مئة: عن بعضهم) قال: كنت في السياحة تألف إليّ الوحوش وتجلس حولي وأمشي بينها كأنني منها، إلى يوم خطر لي دخول العمران، وتذكرت طفلاً صغيرًا كان يقرب لي، ثم رأيت غزالة صغيرة من الوحوش التي حولي، فخطر في نفسي لو كانت معي هذه الغزالة أحملها للطفل، فعندما خطر لي هذا الخاطر نفر عني الجميع وتباعدت وصارت تنظر إليّ خلاف ما كانت عليه، فاستغفرت الله وتباعدت من ذلك الخاطر، فعادت إليّ كما كانت رضي الله تعالى عنه. وقال آخر منهم كنّا جماعة نذهب في أيّ وقت شئنا إلى أيّ مكان شئنا تُطوَى لنا الأرض، فلما كان بعض الأيام اشتريت لأولادي دارًا، وأخذت بذلك كتابًا كتب لي فيما يتعلق بالدار وشرائها، فأرسل إليّ أصحابي بعد ذلك الموعد بيننا المكان الفلاني، فرجعت إلى حالي الذي كنت أعهده فلم أجده معي، فأرسلت إليهم أقول لهم: ذلك الجناح الذي كنت أطير به قد قصّ، فأرسلوا إليّ يقولون انظر من أين أتيت، واقطع العلامة التي قطعتك، قال: فقطعت

---

(١) قطيت: قطعت.

(٢) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل. (معجم البلدان ٢/ ٤٧٢).

Marfat.com

كتاب شراء الدار المذكورة فإذا بحالي قد عاد إليّ، فالتقيت بهم في المكان الذي ذكروا، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم أجمعين.

(الحكاية التاسعة والخمسون بعد الأربع مئة) قال الشيخ صفي الدين رضي الله تعالى عنه: كان الشيخ مفرج وليًا عظيم الشأن، وكان عبدًا حبشيًا اصطفاه الله بلا أسباب معلومة ولا مقدّمات معهودة، أخذه عن حسّه المعهود أخذة عظيمة أقام فيها ستة أشهر ما استطعم فيها طعامًا ولا شرابًا، فلما رأى سيده حاله تغيّر ضربه فلم يتأثر بالضرب، فظنّ أن به الجنون، فاستندب شخصًا لضربه ليفيق ويتناول الغذاء، فكان الضارب يقول للجنيّة بزعمه: اخرجي، فيقول الشيخ مفرج: قد خرجت يعني نفسه، فقيّدوه وغابوا عنه ثم جاؤوا إليه فوجدوا القيد في ناحية وهو في ناحية أخرى فحبسوه وغابوا عنه فوجدوه خارجًا عن المكان الذي حُبِسَ فيه، فلما تكاثرت عليهم كراماته أحضروا أفراخًا مشويّة، فقال لها: طيري فطارت أحياء بإذن الله تعالى، فسكتوا عنه، وتواترت كراماته واشتهرت ولايته وظهرت بركاته، رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الستون بعد الأربع مئة): حُكِيَ أنه كان بعض الشيوخ بالرقة[1]، فشكى إليه والي الرقة حتى تغيّر عليه خاطره، فاتفق أن الوالي مرّ يومًا على الشيخ، فصاح عليه صيحة واحدة قال له فيها: مت فمات في الحين. وتكلم هذا الشيخ يومًا في الكرامات، فقالت له عجوز عليها إدلال: كم فشاروكم دعاوى والناس هلكى من عدم المطر، فكاشف الشيخ عليها، فخرجت من عنده وركبت بغلتها وكانت تربّي أولاد الملوك، فلما بلغت بعض الطريق إذا سحابة قد أرخت مطرًا غزيرًا، وهبّت ريح فرمتها عن البغلة في الطين ثم قامت فركبت ورجعت إلى الشيخ وقالت: قلنا إنك أنزلت المطر بجاهك فلأيّ شيء رميتني من فوق البغلة في الطين؟ قال: لكثرة فضولك. وقال رضي الله تعالى عنه: كان الملك نور الدين ملك الشام معدودًا عندنا من الأولياء الأربعين، وكان صلاح الدين من الثلاث مئة، وكانت الأبدال إذا رأوا نور الدين يقول لهم: كيف أنا عندكم؟ فيقولون: أنت أصلح الظلمة، مع ما كان عليه من أوصاف الولاية، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الحادية والستون بعد الأربع مئة): رُوِيَ أنه كان الشيخ أبو محمد بن الكبش رضي الله تعالى عنه يجتمع بالخضر عليه السلام في أكثر الأوقات، وكان له صاحب معروف كبير موسر، فقال له يومًا: يا أخي ما لي منك نصيب، فقال: فماذا؟

---

(١) الرقّة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حرّان ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. (معجم البلدان ٣/٥٩).

Marfat.com

قال: تجتمع بيني وبين الخضر يومًا وتسأله أن يظهر لي حتى أراه، فقال: أنا أقول له، فقال للخضر عليه السلام: صاحبي فلان قصد رؤيتك، فقال: صاحبك ما يريد أن يراني، فقال: سبحان الله هكذا قال لي، فقال: قل له: أنا يوم الجمعة أقصد إلى رؤيته، فلما كان يوم الجمعة بادر الرجل إلى مطمر له فيه قمح ففرّق منه إلى قريب وقت الجمعة شكرًا لإجابة الخضر عليه السلام إلى زيارته، ثم أغلق الباب وتوضأ وجلس على سجادته يذكر الله تعالى وينتظر الوعد، فدقَّ الباب رجل، فقال للجارية: انظري مَن بالباب، فخرجت فوجدت رجلاً عليه أطمار، فقال لها: قولي لسيدك رجل يريد الاجتماع بك، فأخبرته فقال لها: ما صفة الرجل؟ قالت: عليه أطمار، فقال: مسكين لا شك أنه يريد من القمح الذي سمع عنه، قولي له: يرجع بعد الصلاة، فقالت له ذلك فمضى، فلما كان بعد الصلاة اجتمع الرجل بابن الكبش وقال له: جلست في انتظاره وما رأيته اليوم، قال له: يا قليل التوفيق هو الذي خرجت الجارية إليه وقلت لها: قولي له ارجع بعد الصلاة ثم قال: تريد أن ترى الخضر وعلى بابك الحجّاب، فقال: كل جارية عندي حرّة لوجه الله تعالى، وصار إذا دقَّ أحد الباب خرج إليه بنفسه، رحمه الله تعالى.

(الحكاية الثانية والستون بعد الأربع مئة) قال المؤلف كان الله له: سمعت من غير واحد يحكي أن بعض التجّار قال: كنت مسافرًا ومعي دابّة عليها قماش، فلما دخلت مصر واختلطت بالناس نظرت إلى الدّابّة فلم أجدها، ففتشت عليها وسألت عنها فلم أعلم لها خبرًا، فقال لي بعض أصحابي: أنت الشيخ أبا العباس الدمنهوري لعله يدعو لك، وكنت أعرفه قبل ذلك، فجئت إليه وسلّمت عليه وحكيت له قصتي، فما أصغى إلى كلامي: ولا فرّحني بحاجتي، ولكن قال لي: عندنا ضيفان نطلب لهم كيت وكيت من الدقيق واللحم والحوائج، فخرجت من عنده وأنا أقول والله لا رجعت إليه، هؤلاء الفقراء ما يعرفون إلا حوائجهم، أتيت إليه وأنا مضرور فما سمع شكواي ولا دعا لي، بل طلب مني قضاء حاجته، فمضيت على هذه النيّة فوجدت بعض مَن لي عليه دَيْن فأمسكته، وقلت له: ما أُفارقك حتى تخلّصني، فدفع إليّ ستين درهمًا أو نحو ذلك، فلما حصل لي ذلك قلت في نفسي: والله لأخاطرنّ معه في هذه، فإما حصل لي الجميع وإلا ذهبت مع ما ذهبت في سبيل الله تعالى، فاشتريت جميع ما ذكر لي الشيخ وفضل معي فضلة فاشتريت بها علبة حلاوة، وحملت الجميع حمالاً وقصدت الشيخ فلما وصلت قريب الزاوية إذا أنا بدابتي واقفة على باب الزاوية، فقلت في نفسي: هذه دابتي، ثم قلت: وأين دابتي لعلها تشبهها؟ فلما دنوت منها وجدتها دابتي بعينها وعليها القماش بحاله كما كان، فتعجبت من ذلك، ثم قلت: أخلي مَن يحفظها أو أدخل بها الزاوية لئلا تذهب، ثم قلت: الذي سلّمها وحفظها عليّ هو يحفظها، ثم دخلت على الشيخ فوضعت

Marfat.com

الحوائج كلها بين يديه، فاستعرضها حاجة حاجة حتى انتهى إلى العلبة الحلاوة فقال: إيش هذه؟ فقلت: يا سيدي فضلت معي فضلة فاشتريت بها هذه، فقال: هذه لم تكن داخلة في الشرط، ولكني أزيدك بها زيادة، اذهب إلى القيسارية وبع قماشك ولا تستعجل عليه، وكلما بعت شيئًا فاقبض ثمنه، ولا تخف أن يردّ عليك أحد من التجار، فالبحر في يميني والبرّ في شمالي، قال: فمضيت إلى القيسارية فوجدت جميع ما كان معي من القماش مطلوبًا، فبعته بزيادة كثيرة على العادة جدًا، وكلما بعت شيئًا قبضت ثمنه حتى بعت الجميع وقبضت ثمنه، فلما فرغت من ذلك أقبل التجّار من البرّ والبحر كأنهم قد أُطلقوا، انتهى كلامه. قلت: وهذا الشيخ أبو العباس له كثير من الكرامات النّفاس المشهورات عند الناس، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الثالثة والستون بعد الأربع مئة): رُوِيَ عن الشيخ أبي العباس بن العريف رضي الله تعالى عنه أنه قال: أصبحت يومًا ضيِّق الصدر، وكان لي صاحب يُعرَف بأبي محمد الطرابلسي، فقلت له: يا أبا محمد أصبح اليوم قلبي منكوسًا فعساك تحكي لي حكاية من حكايات الصالحين، قال: نعم، كنت يومًا ببلد إفريقية في العشر الأول من ذي الحجة فإذا أنا بثلاثة نفر وقوف على رأسي، فقالوا: يا أبا محمد هل لك في المسير إلى الحجّ؟ فقلت: الرأي على ما رأيتموه، فقالوا: عوّل على بركة الله تعالى، فتقدّمني الواحد منهم وتأخّر الاثنان منهم، فساروا فكان إذا أتى الليل خرج الواحد منهم عن الطريق فأتى بعرجون[1] موز، فيقول: هٰهنا عجوز دفعت إليّ هذا فبعد ثلاث ليالٍ وإذا بأحد منهم قال لي: يا أبا محمد أبشِر هذه جبال تهامة، فحججت معهم ووافقت في صحبتهم، فلما آن وقت الرجوع، قالوا لي: أنت في دعة الله، فقلت لهم: تسومونني الفرقة فقالوا: لا بدّ من ذلك ومضوا وعدلت إلى عيذاب[2] ووصلت إلى أسوان[3]، فقالت لي نفسي: تمضي إلى الإسكندرية فلعل أحدًا من معارفنا يطلعك في البحر إلى المغرب، فقلت لها: وإلى الآن لم تؤمني والله لا دخلت الصحراء إلا من هٰهنا، فكنت إذا احتجت الوضوء أو الشراب أقول: وعزّة المعبود لا أبرح حتى أتوضأ وأشرب فتظلّني سحابة فلا تزال تمطر حتى ترجع غديرًا فأتوضأ وأشرب، وإذا جُعْتُ قلت كذلك، فما برحت على هذه الحالة حتى رجعت إلى المكان الذي خرجت منه، وها أنا أتخبط يا

---

(١) العرجون: العِذق، وهو من النخل كالعنقود من العنب (ج) عراجين..

(٢) عيذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. (معجم البلدان ٤/ ١٧١).

(٣) أسوان: مدينة كبيرة وكورة في آخر الصعيد (صعيد مصر)، وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه. (معجم البلدان ١/ ١٩١).

أحمد وأنت تلبس ثياب الأمراء، وتنظر إلى وجوه الشباب وتقول: قلبي نكس شيخ سوء مثلي قلبه نكس، وأما أنت فمنكوس كنت ومنكوس بقيت، قال أبو العباس: فوالله ما نسيت برد قوله، فمنكوس كنت ومنكوس بقيت إلى أن ألقى الله تعالى رضي الله تعالى عن الجميع ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية الرابعة والستون بعد الأربع مئة): رُوِيَ عن الشيخ ابن العريف أيضًا رضي الله عنه قال: أصبحت يومًا مهمومًا، فقلت للشيخ أبي القاسم بن رويبل: حدّثني بحكاية عسى الله أن يفرج ما بي، فقال: نعم، وصف لي رجل ببعض السواحل يُعرَف بأبي الخباز، فقصدته على ساحل البحر، فسلّمت عليه وجلست فلم يتكلم ولم أُكلّمه، حتى إذا كان وقت الصلاة أقبل نفر من بعض الأودية متفرّقون، فاجتمعوا إليه وتقدّمهم واحد منهم، فصلّى بهم ثم افترقوا ولم يكلّم واحد منهم أحدًا، وجلس الشيخ مكانه وجلست عنده حتى إذا كان وقت الصلاة أقبل النفر فصلّوا، ثم انصرفوا حتى جاء وقت العصر فاجتمعوا وصلّوا، ثم جلسوا بعد ذلك وتذاكروا في سِيَر الصالحين ومقامات الأولياء إلى قريب الاصفرار، ثم تفرّقوا واجتمعوا للمغرب، ثم تفرّقوا فجلست عندهم ثلاثة أيام وهم على ذلك، ثم وقع في نفسي أن أسأله عن مسألة أستفيدها فتقدّمت إليه وقلت: أيها الشيخ مسألة أسأل عنها، فقال: قل، فنظر الجماعة إليّ كالمنكرين ففزعت، فقلت له: أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد؟ فأعرض عني ولم يجبني، فخفت أن أكون قد أغضبته، فقمت عنه، فلما كان في اليوم الثاني قلت: لا بدّ أن أسأله عن المسألة وعزمت على ذلك، فتقدّمت إليه وقلت: أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد؟ فأعرض عني كالأول ولم يجاوبني، فقمت وعدت إليه في الثالثة وسألته عن المسألة بعينها فاجتمع إليّ وقال: لا تقل هكذا، أظنك تريد أن تسأل عن أول قدم يضعه المريد في الإرادة؟ فقلت: نعم، فقال لي: إذا اجتمع فيه أربع خصال: أن تُطوَى له الأرض وتكون عنده كقدم واحد، وأن يمشي على الماء، وأن يأكل من الكون متى أراد، وأن لا تُرَدَّ له دعوة؛ فعند ذلك يضع أول قدمه في الإرادة؛ وأما متى علم المريد عندنا أنه مريد سقط من حدّ الإرادة، قال الشيخ أبو العباس بن العريف رضي الله تعالى عنه: فصحت صيحة واحدة كادت نفسي تذهب معها ثم قلت له: آيستنا من الإرادة يا أبا القاسم، وتعجبت من علوّ همّة هذا الشيخ رضي الله تعالى عنه وعن الجميع ونفعنا بهم آمين.

(الحكاية الخامسة والستون بعد الأربع مئة: عن الشيخ أبي عبد الله القرشي) أنه سمع شيخه أبا يزيد القرطبي رضي الله عنه يقول: لمّا سأله عن بدايته رجاء فائدة ينتفع بها قال: يا بنيّ أمر غريب، ما أدخلني في هذا الطريق إلا أمر مزعج، وإنما كنت من

Marfat.com

التجّار كان لي دكان في العطارين، وكنت لا أبيع من السلع إلاّ ما عزّ ثمنها وعزّ وجودها، وكان لباسي مثل ذلك، فدخلت يومًا إلى الجامع لأُصلي صلاة الصبح قضاء، فلما تممت الصلاة رأيت حلقة كبيرة، فمضيت إليها وإنا حينئذ لا علم لي بالصالحين إلا على ما يقوله العوام من أنهم في البراري والجبال، فوقفت عليهم وسمعت القارىء يقرأ في حكايات الصالحين ومجاهداتهم مثل حكاية أبي يزيد، فقلت في نفسي بصوت لا يسمعني إلا مَن قَرُبَ مني: سبحان الله مثل هذا يُدوَّن في الكتب؟ فقال لي رجل: وبأيّ شيء تُدوَّن الكتب؟ فقلت: هذا الذي يحكيه شبيه الكذب، رجل يترك الماء سنة ويعيش؟ فقال لي الرجل: لا تنكر، فبينا أنا أُراجعه الكلام، وإذا في الحلقة شخص عليه سلهام قد أكل أطرافه الشجر، فرفع رأسه إليّ وقال: أما تستحي أن تتكلم في الصالحين؟ فقلت: وأين الصالحون؟ ثم تركتهم ومضيت وأنا متعجب، فلما كان قرب الظهر وأنا جالس في الدكان على العادة أبيع وأشتري، وإذا أنا بالرجل صاحب السلهام قد مرّ فرأيته ولم يرني، فمشى عني ثم رجع وإذا به كأنه يطلبني، فقال لي: سلام عليك، فقلت: وعليكم السلام، فقال: ما اسمك؟ قلت: عبد الرحمٰن، فقال لي: أتعرفني؟ فقلت: نعم أنت الرجل الذي تكلمت معه في الحلقة، فقال: وأنت على تلك العقيدة أو تبت؟ فقلت: ما أعرف في عقيدة أتوب منها، فاتكأ بصدره على صخرة قدّام الدكان وقال: يا أبا يزيد أيّ شيء تقول في عمل الصالحين؟ فقلت: أين أولئك؟ فقال: نعم، يمشي في الأسواق رجال لو قال أحدهم هكذا وأشار إلى حجر كان معي في قاع الدكان فتحرك معه، فانفجر منه فرجتان كان فيهما رهون الناس، فوثبت فأمسكتهما ورددتهما إلى مكانهما، ثم قلت: وهل يُعطَى لرجل على مثل هذا؟ فقال: وأيّ شيء هذا في جنب ما يحكم الإنسان فيه، قلت: وفيماذا يحكم به غير هذا؟ فقال: لو قال للدكان انخلع عن مكانك لانخلع، فرأيت الدكان قد تحرّك حركتين فلم يبقَ فيه زجاجة ولا آنية إلا تحرّكت حتى خفت أن ينطبق عليّ، فبقيت متحيّرًا، فتركني ومضى وكان فيَّ غريزة عقل، فقلت: إذا كان مثلي يفني عمره في هذا الدكان كيف يمكنه الاجتماع بمثل هؤلاء القوم؟ فلما كان الغد ذهبت إلى الحلقة أسمع كلام القوم سماعًا آخر، فوالله ما أبقى في السّماع وسعًا أن أمضي إلى الدكان، فمضيت إلى خالي ودفعت له المفاتيح وكان هو صاحب الدكان، فقال: أين تمضي؟ فقلت له: سآتي إن شاء الله تعالى ولم يعلم قصدي، فلم أرجع إلى الدكان بعد ذلك، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به.

(الحكاية السادسة والستون بعد الأربع مئة): رُوِيَ أنه كان سيدي الشيخ العارف أحمد بن الرفاعي قدّس الله روحه وأعاد علينا من بركاته، يقرأ القرآن وهو شاب على الشيخ العارف علي بن القارىء الواسطي رضي الله تعالى عنه، فصنع شخص طعامًا

Marfat.com

ودعا إليه الشيخ ابن القارىء وأصحابه وجماعة آخرين من المشايخ والقرّاء وغيرهم، فلما أكلوا من الطعام كان معهم قوّال، فشرع يغنّي بدفٍ في يده وسيدي أحمد جالس عند نِعال القوم ونعل الشيخ ابن القارىء معه، فلما طاب القوم واستراحوا وتواجدوا، وثب سيدي أحمد بن الرفاعي إلى القوّال وخسف الدفّ الذي كان معه، فالتفت المشايخ إلى الشيخ عليّ بن القارىء ونافروه فيما صدر من سيدي أحمد، وقالوا له: هذا صبي ما لنا معه مطالبة، والمطالبة عليك، فقال لهم الشيخ ابن القارىء: اسألوه فإن أتي بالجواب وإلا فعليّ المطالبة، فالتفتوا إليه وقالوا له: لِمَ كسرت الدّفّ؟ فقال لهم: أيّ سادة نرجع إلى أمانة القول يخبرنا بما يخطر بباله، فأيّ شيء قال: اتبعناه، فسألوا القوّال عمّا خطر بباله فقال: إني كنت بارحة أمس عند أقوام يشربون، فسكروا وتمايلوا كتمايل هؤلاء المشايخ، فخطر لي أن هؤلاء كأولئك، فلم يتمّ خاطري حتى قام هذا الصبي وخسف الدّفّ فعند ذلك نهض المشايخ إلى سيدي أحمد وقبّلوا يده واعتذروا له رضي الله تعالى عنه ونفعنا بهم آمين. قلت: وإنما تمايلوا بشراب المحبة الذي أشار إليه الشيخ الكبير العارف أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه لمّا قيل له: ما شراب الحبّ، ومَن الساقي، وما الذوق، وما الشوق، وما الريّ، وما السكر، وما الصحو؟ فقال: الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب، والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب، والساقي هو المتولّي الخصوص الأكبر والصالحين من عباده، وهو الله العالم بالمقادير ومصالح أحبابه، فمَن كشف له عن ذلك الجمال وحَظِيَ بشيء منه نفسًا أو نفسين ثم أرخى عليه الحجاب، فهو الذائق المشتاق، ومَن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقًّا، ومَن توالى عليه الأمر ودام له الشراب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله تعالى المخزونة، فهو الرّيّ، وربما غاب عن المحسوس والمعقول فلا يدري ما يُقال له ولا ما يقول، فذلك هو السكر، وقد تدور عليهم الكؤوسات، وتختلف لديهم الحالات، ويردّون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون عن الصفات مع تزاحم المقدورات، فذلك وقت صحوهم أو اتّساع نظرهم ومزيد علمهم، فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون في ليلتهم، وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقال بعض الشيوخ الكبار العارفين بالله: المحبة أخذة من الله قلب مَن أحبّ الله أن يكشف له من نور جماله وقدس كمال جلاله، وقال: ويكون الشرب بالتدريب بعد التدريب والتهذيب: فيسقي كلٌ منهم على قدره؛ فمنهم مَن يسقي بغير واسطة والله سبحانه يتولى ذلك، ومنهم مَن يسقي من جهة الوسايط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقرّبين والصدّيقين والعارفين، فمنهم مَن يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئًا، فما ظنك بعد بالذوق وبعد بالشرب وبعد بالريّ وبعد بالسكر بالمشروب ثم الصحو بعد

Marfat.com

ذلك على مقادير شتّى، كما أن السكر أيضًا كذلك رضي الله تعالى عنه. وفي السكر برؤية الكأس قلت:

حميا برؤيا كأسها سكر ناظر ... فكيف بمَن من تلك بالكاس يشرب
بها شارب للراح كل مشاهد ... جمال جلال ليس عن ذاك يحجب

(الحكاية السابعة والستون بعد الأربع مئة: عن بعضهم) قال: هلّ عليّ هلال رمضان، فساعة رؤيته أطلعني الله سبحانه على ليلة قدره أيّ ليلة هي، وعرّفني بها فتحققتها، فلما كانت الليلة المعينة ليلة القدر، كنت أهرب منها كما يهرب الغريم من غريمه وأنوارها تضيء وتلمع في عيني وأنا أقول: وعزّتك يا ربّ وجلالك ما أحتاج معك إلى ليلة القدر. وقال بعضهم: أوقاتنا والحمد لله كلها ليلة القدر. وأنشدوا في معنى ذلك:

لولا شهود جماله في ذاتي ... ما كنت أرضى ساعة بحياتي
ما ليلة القدر المعظّم شأنها ... إلا إذا عمرت بها أوقاتي

إن المحبّ إذا تمكّن في الهوى ... والحبّ لم يحتج إلى ميقاتي

وقال بعضهم: رأيت الملائكة ليلة ست وعشرين من رمضان في بعض السنين وهم في تهيئة وتعبئة كما يتهيأ أهل العرس له قبله بليلة، فلما كانت ليلة سبع وعشرين وهي ليلة جمعة، رأيت الملائكة تنزل من السماء ومعها أطباق من نور؛ فلما كانت ليلة ثمانٍ وعشرين رأيت تلك الليلة كالمتغيظة وهي تقول: هَبْ أن لليلة القدر حقًّا يُراعَى، أما لي حقٌّ يُرعَى؟ انتهى كلامه رضي الله عنه. قلت: لعلّ تغيّظها على الناس لتركهم إحياءها مع كونها جارة لليلة القدر، وحقّ الجار أن يُكرَم بشيء مما أُكرِمَ به جاره. وأما أطباق النور المذكورة فلعلها هدية إلى مَن أحيا ليلة القدر الشريفة، ومَن أناله الله تعالى شيئًا من بركة تلك الليلة، والله أعلم. وقد ذكر بعضهم أنه رأى في ليلة القدر كلّ شيء ساجدًا لله عزّ وجلّ حتى الشجر والحجر، ورأى الأنوار قد ملأت الوجود من العرش إلى الفرش. وقال لي بعض الفقراء: رأيت في الليلة المذكورة مكتوبًا بالنور ﴿ربّنا لا تُزغ قلوبنا﴾ [آل عمران: ٨] الآية. قلت: وهذه إشارة إلى الاهتمام بهذا الدعاء، وأن لا يأمن أحد من مكر الله. اللّهمّ إنّا نعوذ بك من مكرك ﴿ربما لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمه إنك أنت الوهّاب﴾ [آل عمران: ٨].

(الحكاية الثامنة والستون بعد الأربع مئة: عن بعض العلماء) قال: رأيت الإمام أبا حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه في البرية وعليه مرقعة وبيده ركوة وعكاز، وقد كان قبل ذلك يحضر مجلسه في بغداد مئة عمامة من أبناء الأمراء، وقيل: كان يدرّس لثلاثِ مئة ويحضر مجلسه العلماء الفضلاء والطلبة النجباء، قال: فقلت له: يا إمام أليس تدريس

العلم ببغداد خيرًا من هذا؟ فنظر إليّ شزرًا وقال: لمّا بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وجنحت شموس الأصول إلى مغارب الوصول.

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل ... وعدت إلى مصحوب أوّل منزل
ونادت بي الأشواق مهلاً فهذه ... منازل مَن تهوى رويك فانزل

قلت: يعني قال لسان حال الأشواق وصلت إلى منازل الأحباب، فدع عنك تعب السير والمشاقّ. وقد ذكرت نبذة من مناقبه في كتاب [الإرشاد]، وقد شهد له خلائق من الأولياء بالولاية العظمى والمقام العالي الأسنى ودرجة الصديقية وشرف المعالي، فلا التفات إلى ذمّ كل حاسد مشؤوم، وكل معاند محروم، وكل أعمى عن محاسنه غير موفّق، سوف يرى إذا كشف الغطاء وتحقق:

سيدرون فيما بعد أيام حامد ... لمَن شرف العليا وفخر المحامد
إذا حجة الإسلام بانَ مقامه ... لكلّ الورى ما بين خلٍّ وحاسد
بيوم به عالٍ مقام محمد ... عليه صلاة الله زين المشاهد
شفيع الورى مولى البرايا مقدّمًا ... له مشهد يحلو لكل مشاهد

(الحكاية التاسعة والستون بعد الأربع مئة): رُوِيَ أنه كان سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه إذا طلب منه أحد أن يكتب له عوذة[1] ولم يكن عنده مداد[2]، يأخذ الورقة ويكتب عليها بغير مداد، فكتب يومًا لشخص بغير مداد، فأخذ الشخص الورقة وغاب مدة ثم جاء بها ودفعها إليه ليكتب به فيها ممتحنًا له، فلما نظر إليها قال: أي ولدي هذه مكتوبة، وردّها إليه من غير ضجر. وكان في حياته رضي الله عنه شخصان قد تحابّا في الله تعالى، ولزم كل واحد منهما الآخر، وكان اسم أحدهما وهو الأكبر معالي بن يوسف واسم الآخر عبد المنعم، فمكثا على ذلك سنين، فلما كان بعد أيام خرجا إلى الصحراء وجلسا يتحدّثان، فسأل عبد المنعم الشيخ معالي عمّا حصل له في ملازمته إياه في تلك المدة، وأمره الشيخ معالي أن يتمنّى، فقال عبد المنعم: أي سيدي عبدك يريد الساعة كتاب عتقنا من النار ينزل علينا من السماء، فقال الشيخ معالي: إن كرم الله واسع وفضله لا يُحَدّ، فبينما هما كذلك إذ سقطت عليهما ورقة بيضاء من السماء، فقال الشيخ معالي لعبد المنعم: خذ هذه الورقة، فقام وأخذها فلم يرَ فيها شيئًا مكتوبًا، فقال: قم بنا إلى سيدي أحمد حتى نعرضها عليه، فأتياه ودفعا إليه الورقة ولم

---

(١) العُوذَةُ: الرقية يُرقى بها الإنسان من فزع أو جنون أو نحو ذلك، أو هي التميمة تُعَلّق لدفع الحسد (ج) عوذ.
(٢) المِدادُ: سائل ذو لون يُكتب به.

يعرّفاه ماذا جرى لهما، فنظر فيها ثم خرّ ساجدًا لله تعالى؛ فلما رفع رأسه من سجوده قال: الحمد لله الذي أراني عتق أصحابي من النار في الدنيا قبل الآخرة، فقيل له: أي سيدي هذه الورقة بيضاء ما فيها شيء من الكتابة؟ فقال: أي أولادي، يد القدرة لا تُكتَب بسواد، وهذه مكتوبة بالنور، ثم دفعها إليهما، فلما مات عبد المنعم جعلت في كفنه، رضي الله تعالى عن الجميع ونفعنا بهم.

(الحكاية السبعون بعد الأربع مئة): رُوِيَ أن الشيخ جمال الدين خطيب أونية، بضم الهمزة وسكون النون وفتح الياء المثناة من تحت، كان من كبار أصحاب سيدي أحمد قدّس الله روحه، وكان في أونية بستان، فأراد أن يشتريه لضرورة دعته إلى شرائه، فطلب يومًا من سيدي أحمد أن يرسل إلى صاحب البستان، وهو الشيخ إسماعيل بن عبد المنعم شيخ أونية، ويكلّمه في بستانه ويشتريه منه، فقال سيدي أحمد: سمعًا وطاعة، أي أخي أنا أمشي إليه، ثم قام ومشى معه إلى صاحب البستان وكان منزله في أونية فشفع إليه في البيع المذكور فأبى، فكرّر الشفاعة فقال: أي سيدي إن اشتريته مني بما أُريد بعتك، فقال: أي إسماعيل قل لي كم تريد في ثمنه؟ فقال: أي سيدي تشتريه مني بقصر في الجنة، فقال: أي ولدي مَن أنا حتى تطلب مني هذا؟ اطلب مني مهما أردت من الدنيا، فقال: أي سيدي ما أُريد شيئًا من الدنيا سوى ما ذكرت، فنكس سيدي أحمد رأسه واصفرّ لونه وتغيّر، ثم رفعه وقد تبدّلت الصّفرة بحُمرة وقال: أي إسماعيل قد اشتريت منك البستان بما طلبت، فقال: أي سيدي اكتب لي خطّك بذلك، فكتب له في ورقة: بسم الله الرحمـٰن الرحيم، هذا ما اشترى إسماعيل بن عبد المنعم من العبد الفقير الحقير أحمد بن أبي الحسن الرفاعي ضامنًا له على كرم الله تعالى قصرًا في الجنة، تحفة أربعة حدود: الأول إلى جنة عدن، الثاني إلى جنّة المأوى، الثالث إلى جنة الخلد، الرابع إلى جنة الفردوس، بجميع حُورِهِ وولدانه وفرشه وأسرّته وأنهاره وأشجاره عوض بستانه في الدنيا، والله له شاهد وكفيل، ثم طوى الكتاب وسلّمه إليه، فأخذه ومضى إلى أولاده وهم على الدالية يسقون ذرة كانوا قد زرعوها في البستان المذكور، فقال: انزلوا قد بعتُ البستان المذكور على سيدي أحمد، فقالوا: كيف بعته ونحن محتاجون إليه؟ فعرّفهم بما جرى من حديث القصر وأن خطّه في يده بذلك، فأبوا أن يرضوا إلا أن يجعلهم شركاء فيه، فقال: انزلوا فهو لي ولكم والله على ما نقول وكيل، فرضوا ونزلوا واستولى الخطيب على البستان وتصرّف فيه، ثم بعد مدة يسيرة توفي الشيخ إسماعيل بائع البستان إلى رحمة الله تعالى، وكان قد وصّى أولاده أن يجعلوا ذلك الكتاب في كفنه ففعلوا ودفنوه، فلما أصبحوا من الغد وجدوا على قبره مكتوبًا: ﴿قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤] رضي الله تعالى عنهم ونفعنا ببركاتهم أجمعين.

Marfat.com

(الحكاية الحادية والسبعون بعد الأربع مئة): حُكِيَ أنه خرج سيدي أحمد قدّس الله روحه ليلة وقت السحر يتوضأ بين النخيل، فرمّت به سفن مصعدة فيها الشحنة[1]، وجماعة من أتباع ديوان واسط، ومعهم جماعة من المدادين وخلفهم جندي من أتباع الديوان، فلما نظر الجندي إلى سيدي أحمد قال له: أي شيخ قم معنا، فقام ومشى قدّامهم، فأدخله مع المدادين، فمرّ سيدي أحمد معهم حتى وصل إلى القرية المعروفة ببذرية، بالباء الموحدة والذال المعجمة والراء والياء المثناة من تحت، وقت صلاة الصبح، فرآه فقير، فصاح واستغاث، فاجتمع الفقراء حوله وأكثروا الضجيج، فلما علم أصحاب السفينة أنه سيدي أحمد انزعجوا مما وقع منهم، وعظم عليهم، وجاؤوا إليه ووقفوا بين يديه معتذرين مما جرى لهم، فقال لهم: أي سادة وحياتكم ما كان إلا الخير، قضينا لكم حاجة وكسبنا الحسنة وما ضرّ نفسي، وأنا ما أزال جالسًا في الرّواق ما أعمل شيئًا، وأنتم تسخّرون ضعيفًا أو مَن له صنعة وتبطلونهم من صنائعهم وتأثمون فيهم، فإذا عرض لكم حاجة بعد فأعلموني حتى أُساعدكم إلى أن أتعب فأرجع، فقالوا: نحن نستغفر الله مما جرى، فتوّبنا وارضَ عنّا، فتوّبهم وقال لهم: رضي الله تعالى عنكم وعنّا، ثم دعا لهم وودّعهم فقال له الجندي الذي سخّره: أي سيدي هؤلاء القوم رضيت عنهم، فالبعيد الشقي كيف يكون حاله؟ فقال له: الله تعالى يرضى عنك، فقال له: أي سيدي توّبني، فأخذ العهد عليه وتوّبه وقال له: ربنا يشهد علينا أننا إخوة دنيا وأخرى، ثم صعدوا إلى واسط، فترك الجندي خدمة أبناء الدنيا والملوك ورجع إلى سيدي أحمد فأخبره بترك الخدمة، ولازم طاعة الله سبحانه وتعالى، وصار من خيّار الناس رحمة الله تعالى عليه ورضوانه.

(الحكاية الثانية والسبعون بعد الأربع مئة: عن بعض الأخيار) قال: سمعت بالشيخ أبي الفضل بن الجوهري المصري قدّس الله روحه، فخرجت من بلدي وعقدت النيّة لزيارته فدخلت مصر يوم جمعة فحضرت مجلس وعظه مع جملة الناس، فإذا بشيخ بهيّ المنظر مليح المخطر عليه رِياش وأثواب رفيعة وعمامة شرب وطيلسان[2] كذلك، وله هِمّة عالية وقِباء[3] واسع، أو قال: ودنيا واسعة، فقلت في نفسي: هذا ابن الجوهري الذي قيل فيه ما قيل، وسارت الركبان بصلاحه ودينه وورعه وكثرة صفاته وقوّة إيمانه

---

(١) الشحنة: ما تُشحَن به السفينة ونحوها.

(٢) الطيلسان كساء أخضر يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ، وهو من لباس العجم (ج) طيالس وطيالسة (مع) فارسي.

(٣) القَباء: ثوب فضفاض سابغ، مشقوق المقدّم، يضم طرفيه حزام، ويُتّخذ من الحرير أو القطن وتُلبس فوقه الجبّة (ج) أقبية.

Marfat.com

وصفاء يقينه، وهو على هذا الزيّ واللباس، فقبيت متعجبًا من ذلك ومضيت وتركته على تلك الحال، فبينما أنا سائر في بعض أزقة مصر وشوارعها إذا بامرأة تصيح بأعلى صوتها وتنوح وتبكي وتقول: وامصيبتاه، وابنتاه، وافضيحتاه، فتقدّمت إليها رحمة لها مما تعمل بنفسها، وقلت: ما لكِ أيتها المرأة وما قصتك؟ فقالت لي: يا سيدي أنا امرأة من أرباب البيوتات ولم يكن لي من الأولاد سوى بُنَيَّة واحدة، فربّيتها بجهدي وحفظتها بكليّتي إلى أن ترعرعت واستوت، فخطبها مني رجل من المسلمين وصلاح العالمين، فعلمت أنه كُفْء لها فزوّجتها به وهذه ليلة دخولها على بعلها، وقد اعترض لها عارض من الجانّ فأذهب عقلها، فقلت لها شفقة عليها ورحمة لها: لا بأس عليك فعليّ دواؤها وإصلاح شأنها بلا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، فسكن ما بها ومضت قدّامي، فلم أزل أتبع أثرها إلى أن أتت بي إلى دار عالية البنيان مليحة الأركان، فأذنت لي، فصعدت إلى مجلس فيه من جميع الأفنان مما يصلح لأهل العرس والولدان، فأمرتني بالجلوس فجلست، وإذا بابنتها تلتفت يمينًا وشمالاً مما حلّ بها من أمر الجانّ بحكم العزيز المنّان مع ما فيها من الحُسْن والجمال، فقرأت عليها عشر آيات من القرآن على السبع القراآت، فتكلم عند ذلك الجانّ بلسان فصيح يسمعه القريب والبعيد وقال: يا شيخ أبا بكر لا تفتخر علينا بقراءتك على الروايات السبع، فنحن سبعون صنفًا من الجنّ الذي أسلمنا على يد عليّ رضي الله عنه يوم بئر ذات العلم، ونحن جئنا في يومنا هذا نصلي وراء الشيخ صالح أبي الفضل بن الجوهري الذي احتقرته وظننت به ما ظننت، فاستغفر الله تعالى من ذلك، ودارك غفلتك؛ بالتوبة إلى ربك فبينما نحن عابرون على دار هذه الصبية لأجل الصلاة وراء الشيخ الصالح في هذا اليوم الشريف اعترضتنا، فرمت علينا نجاسة، فسلّم أصحابي وتنجست أنا وأحرمتني الصلاة خلف الشيخ الوليّ، ففعلت بها ما رأيت غضبًا عليها، فقلت له: بحرمة هذا الشيخ الصالح الذي جئتم إليه من أجل الصلاة وراءه إلا خرجت عنها، فقال لي: سمعًا وطاعة، فخرج عنها في الحال وعُوفِيَت الصبية من ساعتها، وأرخت قناعها على وجهها استحياء مني، كأن لم يكن بها شيء، ففرحت والدتها بذلك فرحًا شديدًا، وقالت: جزاك الله عنا خيرًا، وسترك كما سترتنا، ثم خرجت في ساعتي وقد عقدت النيّة على زيارة الشيخ المذكور، فلما رآني مُقبِلاً إليه تبسّم ضاحكًا وقال لي: أهلاً وسهلاً بالشيخ أبي بكر الذي ما صدق بخبرنا حتى أخبره الجانّ عنّا، فوقعت عند كلامه هذا مغشيًا عليّ، وأقمت في السّماع مدة.
ولزمت صحبة الشيخ في زاوية من رباطه بعد أن تُبتُ إلى الله عزّ وجلّ أن لا أنكر كرامات الصالحين، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم أجمعين. قلت: وبلغني أن الشيخ الكبير العارف بالله أحمد بن الجعد اليمني زار في بدايته الشيخ الكبير العارف بالله تعالى عيسى المعروف بالهتار اليمني، فرأى عليه ثيابًا جميلة وبزّة حسنة، فتغيّر اعتقاده ورجع

Marfat.com

إلى حلفه، فناداه الشيخ عيسى: تعالَ يا غلام إني لم ألبس هذه حتى أبليت في الله تعالى كذا وكذا جلدًا؛ فزال عنه ذلك، وأتى إليه وسلّم عليه، وطلب منه الدعا رضي الله تعالى عنهما آمين.

(الحكاية الثالثة والسبعون بعد الأربع مئة): حُكِيَ أن سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه: كلّمه أصحابه لمّا رأوا ما هو عليه من شدّة الخوف وكثرة المجاهدة والجهد، فقالوا له: يا شيخ لو نقصت عن هذه المجاهدة التي نراها بك نلت مرادك إن شاء الله تعالى، فقال لهم: كيف لا أجتهد كل الاجتهاد وقد بلغني أن أهل الجنة يكونون في منازلهم، فيتجلّى لهم نور عظيم تضيء له الجنان الثمان من شدّة ضيائه وحُسْن بهائه، فيظنون أن ذلك نور من قبل الرحمٰن سبحانه وتعالى فيخرّون ساجدين، فينادي مُنادٍ: ارفعوا رؤوسكم ليس هو الذي تظنون إنما هو نور حورية تبسمت في وجه زوجها، فظهر من تبسّمها هذا النور، فليس يا إخواني يُلام مَن اجتهد في طلب الحور الحِسان، فكيف بمَن يطلب المولى الرحمٰن؟ ثم أنشأ يقول:

ما ضرّ مَن كانت الفردوس منزله ... ماذا تحمل من بؤس وإقتار
تراه يمشي نحيلاً خائفًا وَجِلاً ... إلى المساجد يسعى بين أطمار
يا نفس ما لك من صبر على النار ... قد حان أن تقبلي من بعد إدبار

(الحكاية الرابعة والسبعون بعد الأربعة مئة: عن أبي سليمان الداراني رضي الله عنه) قال: قصدت سنة من السنين الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيّه عليه أفضل الصلاة والسلام على قدم التجريد، فبينما أنا سائر في بعض الطريق إذا أنا بشاب حَسَن الثياب من أهل العراق سائر يقصد معي ما أقصد، فكان إذا سارت الرفقة قرأ كتاب الله تعالى، وإذا نزلوا صلّى، وهو مع ذلك نهاره صائم وليله قائم، لم يزل هذا دأبه حتى وصلنا مكة شرّفها الله تعالى، فأراد الشاب مفارقتي وتوديعي، فقلت له: يا بُنَيّ ما الذي هيّجك لما رأيته منك؟ فقال: يا أبا سليمان لا تلمني، فإني رأيت في منامي قصرًا من قصور الجنة مبنيًا بلَبِنَة من ذهب ومن فضة، وكذلك شراريفه، وبين كل شرافتين حورية لم يَرَ الراؤون مثلها لما بها من الحُسْن والجمال والبهاء والكمال، وقد أرخين ذوائب[1] شعورهنّ، فتبسّمت إحداهنّ في وجهي فأنارت الجنة بنور ثناياها، ثم قالت: يا فتى جدّ لله تبارك وتعالى في طلبي لأكون لك وتكون لي، ثم استيقظت من منامي، فهذه قصة حالي، فحقيق عليّ يا أبا سليمان أن أجدّ، فمَن جدّ وجَدَ، وما رأيته مني من الاجتهاد فهو في خطبة حورية، قال: فسألته الدعاء، فدعا لي وأوخاني في الله تعالى ثم سارعني

---

(١) الذؤابة: ضفيرة الشعر المرسلة.

Marfat.com

قال أبو سليمان فعاتبت نفسي فقلت: يا نفس تيقظي واسمعي هذه الإشارة التي هي بشارة، إذا كان هذا الاجتهاد كله في طلب حورية، فكيف بمَن يطلب ربّ ا حورية عزّ وجلّ؟. قال المؤلف أحسن الله تعالى خاتمته: هذه المنامات التي يراها الصالحون أسرار يُظهرها الحقّ سبحانه لهم في مرآة القلوب الصافية بالرؤيا الصالحة التي هي جزء من أجزاء النبوّة يبشّرهم ويعظهم بها ليزدادوا جدًّا وزهدًا، وليسوا كأمثالنا الذين نوعظ ولا نتّعظ. ومن المواعظ العجيبة ما اتفق في أيام سماع هذا الكتاب عليّ وذلك أنّ بعض الناس قالت له نفسه: ليت أحدًا يبيعك جارية للتسرّي ويصبر عليك بثمنها إلى الموسم ثم تبيعها، فبينما هو يتمنى ذلك إذ جاءه بعض الفقراء المباركين قبل أن يطّلع على ذلك أحد غير الله سبحانه وتعالى، فقال له: رأيت في المنام كأنك في قبّة يعلوها نور وكأن عندك جارية، وكأنّ خارج القبة سبعًا من الحور العين ذوات جمال فائق ورؤية فاخرة وهنّ مشتاقات إليك، قالت واحدة منهنّ وهي تشير إليك: هذا الشيخ مجنون أنا أعشقه وهو يعشق هذه الجارية. قلت: وفي هذا المعنى أقول:

يا عاشقًا للغواني مغرمًا بهوى	دار الغرور وعيش شيب بالكدر
إن الغواني الحِسان الحور مسكنها	دار السرور على فرش على السّرر
في سندس الفرش أقمار على سُرُر	من اليواقيت في قصر من الدّرر
يشاهد المخّ في الساقين ناظرها	من فوق سبعين ملبوسًا من الحبر
قد طللن شوقًا إلى أزواجهنّ كما	يشتاق للغائب المحبوب في السفر

(الحكاية الخامسة والسبعون بعد الأربع مئة): حُكِيَ أن بعض الصالحات وهي شعوانة رضي الله تعالى عنها رُزِقَت ولدًا، فربّته أحسن تربية، فلما كبر ونشأ قال لها: سألتك بالله يا أماه إلا ما وهبتني لله سبحانه وتعالى فقالت: يا بُنَيّ إنه لا يصلح أن يُهدَى للملوك والرؤساء إلا أهل الأدب والتّقى، وأنت يا ولدي غرّ لا تعرف ما يُراد بك، ولم يأن لك ذلك، فأمسك عنها ولم يقل لها شيئًا فلما كان ذات يوم خرج إلى الجبل ليحتطب ومعه دابّة له، فلما توسط الجبل نزل عن الدابة وأقبل يحتطب ويجعل في حبله حتى جمع حزمة وربطها، وجاء يطلب الدابة ليحمل عليها الحطب، فوجد السبع قد افترسها، فجعل يده في رقبة السبع وقال له يا كلب الله وحقّ سيدي لأُحمِّلَنَّك الحطب كما تعدّيت على دابتي، فحمل على ظهره الحطب وجعل يقوده وهو طائع لأمره حتى وصل إلى دار أُمه، فقرع عليها الباب فقالت: مَن بالباب؟ فقال: ولدك الفقير إلى رحمة الله ربّ الأرباب، ففتحت له، فلما رأت الحطب على ظهر الأسد، قالت: يا بُنَيّ ما هذا؟ فحكى لها القصة، فسُرّت بذلك وعلمت أن الله جلّ جلاله قد عُنِيَ به واصطفاه لخدمته، فقالت له: أما الآن يا بُنَيّ فقد صلُحتَ لخدمة

Marfat.com

الملوك، اذهب فقد وهبتك لله عزّ وجلّ وأنت وديعتي إياه، فودّعها وشيّعته بالدعاء، ثم أنشأت تقول:

جعل الرضا لسباقه ميدانا ... فجرى وأطلق من يديه عنانا
فتقدّم السباق في غسق الدجى ... يطوي القفار ويطلب الأوطانا[1]
هجر الخلائق والعلائق في رضا ... محبوبه وتجنّب الإخوانا
شرب الظما حتى تعطش قلبه فغدا ... وراح من الظما ريانا

رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما وجميع الصالحين.

(الحكاية السادسة والسبعون بعد الأربع مئة: عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه) قال: كنت في البادية قاصدًا مكة، فغلبني العطش، فملت إلى حيّ بني مخزوم، فرأيت جارية صغيرة حسناء جميلة وهي تترنم بالأشعار، فعجبت منها لصدور ذلك عنها وهي من جملة الصغار، فقلت لها: يا هذه الجارية أما فيك حياء؟ فقالت أُمه: يا ذا النون، إني شربت البارحة بكأس الحب مسرورة، فأصبحت اليوم في حبّ مولاي مخمورة، فقلت لها: يا جارية أراكِ حكيمة فأوصيني بوصية، فقالت: يا ذا النون عليكِ بالسكوت، والرضا من الدنيا بالقوت حتى تزور في الجنة الحيّ الذي لا يموت، فقلت لها: هل عندك ماء؟ فقالت: أنا أدلّك على الماء، فظننت أنها تدلّني على بئر ماء أو عين، فقلت: نعم، فقالت: إن الناس يُسقَون يوم القيامة على أربع مراتب: ففرقة تسقيهم الملائكة قال الله تعالى: ﴿بيضاء لذّة للشاربين﴾ [الصّافّات: ٤٦]. وفرقة يسقيهم رضوان خازن الجنة قال الله عزّ وجلّ: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ [المطفّفين: ٢٧]. وفرقة يسقيهم المولى جلّ جلاله وهم الخواص من عباده قال الله تعالى: ﴿وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا﴾ [الإنسان: ٢١] فلا تُعطِ سرّك في دنياك غير مولاك حتى يسقيك مولاك عقباك، رضي الله تعالى عنها. قلت: هكذا وقع في الأصل ذكر ثلاث فِرَق وليس فيه ذكر الرابعة، ولعلّ ذلك ـ والله أعلم ـ وفرقة تسقيهم الولدان قال عزّ من قائل: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾ [الواقعة: ١٧] وتكون هذه الفرقة في الترتيب غير الأخيرة، وتكون الأخيرة هي الفرقة التي سقاهم ربّهم شرابًا طهورًا، لأن الختام لا يكون إلا بالأفضل الأشرف الأكمل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(الحكاية السابعة والسبعون بعد الأربع مئة: عن ذي النون أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: بينا أنا أطوف إذ لمع نور فلحق بعنان السماء، فتعجبت منه، فأتممت طوافي

---

(١) الغسق: ظلمة الليل أو ظلمة أوله.

Marfat.com

وأسندت ظهري إلى الكعبة أفكر في ذلك النور، فسمعت صوتًا شجيًا بنغمة حسنة فتبعت الصوت فإذا أنا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول:

أنت تدري يا حبيبي مَن حبيبي؟ أنت تدري
ونحول الجسم والدمـ ـع يبوحان بسرّي
قد كتمت الحب حتى ضاق بالكتمان صدري

قال: فلما سمعت قولها انتحبت وبكيت، ثم قالت: إلٰهي وسيدي ومولاي، بحبك لي إلا ما غفرت لي، فقلت: يا جارية ما يكفيك أن تقولي بحبي لك حتى تقولي بحبك لي، فمن أين علمت أنه يحبك؟ فقالت: إليك عني يا ذا النون، أما علمت أن لله تبارك وتعالى أقوامًا يحبّهم ويحبونه، أحبهم قبل أن يحبوه؛ أما علمت قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤] فسبقت محبته لهم قبل محبتهم له، فقلت لها: من أين علمت أني ذو النون؟ فقالت: يا بطال جالت القلوب في ميدان الأسرار، فعرفتك بمعرفة العزيز الجبار، فقلت: إني أراك ضعيفة البدن نحيلة الجسم، فهل بكِ علّة؟ فأنشأت تقول:

محبّ الله في الدنيا عليل تطاول سقمه فدواه داه
كذا مَن كان للبار محبًا يهيم بذكراه حتى يراه

ثم قالت: انظر مَن خلفك، فالتفتّ ورائي فلم أجد أحدًا، فرددت وجهي نحوها فلم أرها، ولم أرَ أين ذهبت وأنا في كل وقت أتوسّل إلى الله عزّ وجلّ بها فأرى ببركتها القبول والإجابة رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها آمين.

(الحكاية الثامنة والسبعون بعد الأربع مئة: عن بعض الصالحين) قال: كنت متوجهًا من مِنًى إلى عرفات، فلقيتني جارية عليها مسح من شعر وقناع من صوف، وبيدها سُبْحة[1] وعكاز، وعلى وجهها نور الطاعة والعبادة، وهي مهرولة في مشيتها تقول: الله الله، فقلت في نفسي هذه جارية مدّعية، فقالت: ﴿ويعلم ما تُبدون وما تكتمون﴾ [النور: ٢٩] فعلمت أنها وليّة لله تعالى فقلت لها: يا جارية كُلّي بكُلّك بك مشغول، فقالت: يا مسكين وكلّي لكلّك مبذول، ولكن ورائي مَن هو أحسن مني، فالتفتّ فلم أرَ أحد، فقالت بعلوّ صوتها: يا مدّعي يا كذّاب ما هكذا فعل الأحباب بالأحباب، أما الأول فإنك أسأت الظن بخدّام ربّ الأرباب، أما لو جئت إليه حقًّا وعرفته صدقًا لأوقفك على بابه لما رأيناك من بعيد حسبناك عابدًا، فلما رأيناك من

(١) السُّبْحَة: خرزات منظومة في خيط للتسبيح (ج) سُبَح وتسمى المسبحة.

Marfat.com

قريب حسبناك عارفًا، فلما كلّمتنا حسبناك عاشقًا، ولو كنت عابدًا له ما اشتغلت بغيره، ولو كنت عارفًا به ما رجعت منه إلينا، ولو كنت عاشقًا لنا ما رجعت منّا إلى سوانا، ثم هربت عني مسرعة وهي تقول: ما مع الله سوى الله حتى غابت عني، رضي الله تعالى عنها.

وحُكِيَ عن الشبلي رضي الله عنه: أنه أتاه جماعة من المارستان، فقال لهم: إيش أنتم؟ فقالوا: مُحِبّوك يا أبا بكر، فرماهم بالحجارة فهربوا، فقال: يا كذّابون أين المحبة؟ لو صدقتم في محبتكم لَمَا هربتم، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية التاسعة والسبعون بعد الأربع مئة): حُكِيَ أنه كان في بني إسرائيل امرأة عابدة، وكانت ابنة ملك من ملوكهم، فخطبها رجل من أبناء الملوك فأبت أن تتزوّج به، ثم قالت لجارية لها: انطلقي والتمسي لي رجلاً ورعًا زاهدًا ناسكًا فقيرًا، فانطلقت الجارية فوجدت فقيرًا عابدًا ورعًا، فجاءت به إلى مولاتها، فقالت له: إن شئت أن تتزوّج بي ذهبت معك إلى مَن يعقد نكاحي عليك، ففعل، فعقدوا النكاح، ثم قالت له: انطلق بي إلى أهلك، فقال: والله ما أملك إلا هذا الكساء الذي على ظهري هو دثاري بالليل ولباسي بالنهار، فقالت: إني قد رضيت بك على ذلك، فانطلق بها إلى أهله، وكان يكسب بالنهار ويأتيها بالليل بما تفطر عليه، ولم تكن تفطر بالنهار بل تصوم تطوّعًا لله تعالى، وكان إذا أتاها بشيء أفطرت عليه وحمدت الله تعالى على كل حال، قالت: الآن تفرّغت للعبادة، فلما كان ذات يوم لم يُفتَح عليه بشيء يأتيها به، ففزع من ذلك وشقّ عليه وقال: زوجتي جالسة في بيتها وهي صائمة تنتظر أن آتيها بشيء تفطر عليه، فقام فتوضأ وصلّى ودَعَا ربّه تبارك وتعالى وقال: يا ربّ إنك تعلم أني ما أسألك لدنياي وإنما ذلك لِرضا زوجة صالحة، اللّهمّ ارزقني رزقًا من لدنك فإنك خير الرازقين، قال: فنزلت عليه لؤلؤة من السماء، فأخذها وذهب بها إلى امرأته، فلما نظرت إليه راعَها ذلك وقالت له: من أين أتيت بهذه اللؤلؤة التي لم أرَ مثلها قطّ عند أهلي؟ فقال لها: طلبت اليوم قوتًا فلم يُفتَح لي بشيء، فقلت: امرأتي جالسة في بيتها تنتظر ما آتيها به تفطر عليه وهي بنت ملك ولا أقدر أذهب إليها بغير شيء، فدعوت ربي سبحانه وتعالى فرزقني هذه اللؤلؤة من السماء، فقالت: ارجع إلى مكانك الذي دعوت الله تعالى فيه فابتهل إليه واسأله وقل: اللّهمّ سيدي ومولاي إن كان هذا شيئًا رزقتنا في الدنيا فبارك لنا فيه، وإن كان مما ادّخرته لنا في الآخرة الباقية فارفعه، ففعل الرجل ذلك، فرُفِعَت اللؤلؤة، فرجع إليها فأخبرها بذلك، فقالت: الحمد لله الذي أرانا ما ادُّخِرَ لنا في الآخرة، ثم قالت: لا أُبالي الآن أن لا أقدر على شيء من هذه الدار الفانية، وشكرت الله تعالى على ذلك رضي الله تعالى عنهما.

Marfat.com

(الحكاية الثمانون بعد الأربع مئة: عن أحمد بن عبد الله المقدسي رحمه الله تعالى) قال: صحبت إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه، فسألته عن بداية أمره وما كان سبب انتقاله من المُلْك الفاني إلى المُلْك الباقي؟ فقال لي: أخي كنت جالسًا يومًا في أعلى قصر مملكتي والخوّاص قيام على رأسي، فأشرفت من الطاق فرأيت رجلاً من الفقراء جالسًا بفناء القصر وبيده رغيف يابس، فبلّه بالماء بملح جريش وأنا أنظر إليه إلى أن فرغ من أكله، ثم شرب شيئًا من الماء، وحمد الله تعالى وأثنى عليه ونام في فناء القصر، فألهمني الله سبحانه الفكر فيه، فقلت لبعض مماليكي: إذا قام ذلك الفقير فائتني به، فلما انتبه من نومه، قال له الغلام: يا فقير إن صاحب هذا القصر يريد أن يكلّمك، فقال: بسم الله وبالله توكّلت على الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم وقام معه ودخل عليّ، فلما نظر إليّ سلّم عليّ، فرددت عليه السلام وأمرته بالجلوس فجلس، فلما اطمأن قلت له: يا فقير أكلت الرغيف وأنت جائع فشبعت؟ قال: نعم، قلت: وشربت الماء على شهوة فرويت؟ قال: نعم، قلت: ثم نمت طيّبًا بلا همّ ولا غمّ فاسترحت؟ قال: نعم، فقلت في نفسي وأنا أُعاتبها: يا نفس ما أصنع بالدنيا والنفس تقنع بما رأيت وسمعت، فعقدت التوبة في تلك الساعة مع الله تعالى فلما انصرم النهار وأقبل الليل لبست مسحًا من الشعر وقلنسوة[1] من الصوف وخرجت حافيًا سائحًا إلى الله تعالى، فلحقني رجل حَسَن الوجه والثياب طيب الرائحة فتقدمت إليه وصافحته وسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام وقال لي: يا إبراهيم أين تريد؟ فقلت: هربت منه إليه، فقال لي: أنت جائع؟ قلت: نعم، فقام الشيخ وصلّى ركعتين خفيفتين وقال لي: قم فَصَلِّ كما صلّيت، ففعلت ذلك، والتفتّ فإذا عن يمينه طعام موضوع وماء بارد، فقال لي: يا ابن أدهم تقدم وكُل من فضل الله تعالى واشكر ربك على ذلك، فتقدمت وأكلت من الطعام كفايتي وهو باقٍ على حاله، وشربت من ذلك الماء وحمدت الله تبارك وتعالى، فقال لي الشيخ: يا ابن أدهم اعقل وافهم ولا تستعجل في أمورك فإن العجلة من الشيطان، واعلم أن الله تعالى إذا أراد بالعبد خيرًا اصطفاه لنفسه وجعل في قلبه سِراجًا من نور قدّسه يفرّق به بين الحق والباطل، ويبصر به عيوب نفسه، وإني أُريد أن أُعلّمك اسم الله الأعظم، فإذا أنت جُعْتَ أو عطشت فادعُ الله تعالى به فإنه سيُشبِعُك ويرويك. يا ابن أدهم إذا جالستَ الأخيار والفقراء فكن لهم أرضًا يطؤونك، ولا تُغضِبهم فإن الله عزّ وجلّ يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم، قال ثم علّمني الاسم الشريف المنيف، ثم قال: استودعتك الله الحيّ القيوم الذي لا يموت، ثم حجب عني، فأخذت الطريق فإذا أنا بفتى حَسَن الوجه طيب الرائحة مليح

---

(١) القلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال (ج) قلانس.

Marfat.com

البزّة، فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام وقال: ما حجّتك يا ابن أدهم، ومَن لقيت في سفرك هذا؟ فقلت: لقيت شيخًا من صفته كذا وكذا، فبكى الفتى وأبكاني، فقلت له: يا سيدي أقسمت عليك بالله تعالى، مَن ذلك الشيخ ومَن أنت؟ قال: أما الشيخ فأخي إلياس، وأنا أبو العباس الخضر عليهما السلام، قال: ففرحت فرحًا شديدًا والتزمته إلى صدري وقبّلت ما بين عينيه وصافحته وسألته الدعاء، فدعا لي بالثبات والعصمة، ثم غاب عني فلم أدرِ أين ذهب فهذه قصة حالي في ابتداء أمري رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين. قلت: هذه إحدى الروايتين في بداية أمره، والرواية الأخرى هي المشهورة، وهي ما قدّمنا في أول الكتاب أنه خرج يصطاد فهتف به هاتف على ما تقدم، والله تعالى أعلم.

(الحكاية الحادية والثمانون بعد الأربع مئة: عن محمد بن يعقوب الخراساني رضي الله تعالى عنه) قال: خرجت من بلدي على نيّة السياحة والتوكّل، فلم أزل على ذلك إلى أن أتيت بيت المقدس، ثم وقفت في مغارة في تيه بني إسرائيل، فمكثت أيامًا لم أطعَم طعامًا ولم أشرب شرابًا حتى أشرفت على الموت فبينا أنا كذلك إذ رأيت راهبين يسيران وهما أشعثان أغبران، فمِلتُ إليهما وسلّمت عليهما وقلت لهما: أين تريدان؟ فقالا: لا ندري، فقلت: أفتدريان أين أنتما؟ فقالا: نعم نحن بمملكته وبين يديه، قال: فأقبلت على نفسي بالمَلامَة والمعاتبة أقول لها: يا نفس هذان الراهبان قد ثبتا على التوكّل دونك مع كونهما كافرين، ثم قلت لهما: أما تأذنان لي في صحبتكما؟ قالا: يكون خيرًا إن شاء الله تعالى، قال: فسرنا جميعًا، فلما أمسينا قاما إلى صلاتهما ومعبودهما، وقمت إلى صلاتي ومعبودي، فصلّيت المغرب بالتيمّم، فنظر إليّ وقد تيمّمت بالتراب، فتبسما ضاحكين، فلما فرغا من صلاتهما بحث أحدهما الأرض بيده، فإذا بالماء قد ظهر كأنه اللؤلؤ على الصفا، فبقيت باهتًا، ثم التفتّ فإذا بطعام موضوع عن يمينه فتعجبت من ذلك، فقالا لي: ما لك باهتًا متعجّبًا، تقدم وتناول من الطعام الحلال، واشرب من بارد هذا الماء الزّلال، واعبد ربك الكريم ذا الجلال، قال: فتقدّمت وأكلنا جميعًا من الطعام وشربنا من الماء، ثم توضأت للصلاة وقضيت صلاتي، ثم غار الماء كأنه لم يكن، فقاما إلى صلاتهما وقمت إلى صلاتي في جانب آخر حتى أصبح الصباح، ثم قاما يسيران، فسرتُ معهما إلى الليل، فلما أمسينا تقدّم الراهب الثاني فصلّى ودعا بدعوات خفيّة، ثم بحث الأرض بيده فنبع الماء كما نبع لصاحبه، وإذا بطعام موضوع عن يمينه، ثم قال لي: تقدّم وكُل واشرب واعبد ربك، فأكلنا وشربنا وتوضّأنا للصلاة، ثم غار الماء كأنه لم يكن، فلما كانت الليلة الثالثة قالا لي: يا محمديّ الليلة ليلتك والنوبة نوبتك، قال: فاستحييت من قولهما وداخلني من ذلك أمر عظيم، فقلت لهما: يكون خيرًا إن شاء الله تعالى، ثم عدلت عنهما إلى جانب وصلّيت ركعتين وقلت: اللّهمّ سيدي ومولاي إنك

Marfat.com

تعلم أن ذنوبي كثيرة لم تدع لي عندك جاهًا ولا وجهًا ولكن أسألك بالوجيه الكريم ذي الجاه الجسيم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام أن لا تُخجلني بينهما؛ فلما فرغت من دعائي التفتّ فإذا أنا بعين ماء جارية وطعام عن يميني موضوع، فقلت لهما: تقدّما وكُلا من فضل الله تعالى، فتقدّما وأكلنا وشربنا وحمدنا الله على كل حال، ولم نزل على ذلك إلى أن بلغت النوبة الثانية، فدعوت الله تعالى بمثل ما دعوته أولاً، فإذا أنا بالماء قد نبع والطعام قد حضر، فلما بلغت النوبة الثالثة دعوت الله تعالى بمثل ما دعوت به فيما تقدم فإذا بطعام اثنين وشراب اثنين، فانكسر قلبي فقالا لي: يا محمدي من أين حدثت عليك هذه الحادثة، أما ترى في طعامك وشرابك تقصيرًا؟ فقلت لهما: أما تعلمان أن هذا الأمر مردود إليه، ونحن تحت حكمه ومشيئته، وديننا ومذهبنا يقتضي ذلك، أعني عُسرًا ويُسرًا، وشدةً ورخاءً، ومنعًا وعطاءً، حتى يُجَرِّب صبرنا، فقالا لي: صدقت يا محمدي إن هذا ربٌّ عظيم ودين سليم مُدَّ يدك فنحن نشهد أنَّ لا إله إلا الله، ونشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ وأن دين الإسلام حقٌّ وما سواه باطل، فقلت لهما: يا إخوتاه هل لكما أن نمضي إلى بعض المدن برسم الجمعة والجماعة، فالجمعة حجّ المساكين فقالا لي: ذلك رأي سديد وفعل رشيد، فبينما نحن نسير على عزم ذلك إذ أشرفنا على عمارة وكانت ليلة مظلمة، وإذا نحن ببيت المقدس، فدخلناه وأقمنا به مدة طويلة نعبد الله تعالى ورزقنا يأتينا من حيث لا نحتسب، إلى أن قضيا نحبهما وقَدِما على ربهما، رضي الله تعالى عنهما.

(الحكاية الثانية والثمانون بعد الأربع مئة): حُكِيَ أن معروفًا الكرخي رضي الله تعالى عنه مرّ على شاطىء الدجلة، فجلس ليتوضأ، فوضع مصحفه وثوبه، فجاءت امرأة فأخذتهما، فتبعها معروف حتى لحقها في مكان خالٍ لئلا يهتكها، فقال لها: لا بأس عليك أيتها المرأة أنا معروف الكرخي، يا أُختي هل لك ولد يقرأ؟ قالت: لا، قال: فزوج؟ قالت: لا، قال: فأخ؟ قالت: لا، قال: فادفعي إليّ المصحف وخذي الثوب وأنت منه في حِلٍّ دنيا وآخرة فاستحيت المرأة منه حياءً شديدًا، ثم قالت: أنا تائبة إلى الله عزّ وجلّ لا أعود إلى مثلها أبدًا، ففرح معروف بتوبتها وخصّها بدعوة ومضى كلٌّ منهما لسبيله، وحلّت عليها بركة معروف رحمة الله تعالى عليهما. حُكِيَ أن الربيع بن خيثم رضي الله تعالى عنه كان ذات يوم قائمًا يصلي وفرسه مربوطة قدّامه، فجاء سارق فحلّ الفرس وركبها ومضى وهو يراه، فلم يقطع صلاته وكانت قيمة الفرس عشرين ألف درهم، فجاءه أصحابه يلومونه ويقولون له: يا ربيع إيش هذا التفريط، تنظر السارق يأخذ جوادك وأنت ساكت، أما كنت تقطع الصلاة وتستردّه منه ثم تعود إلى صلاتك فقال لهم: يا قوم كنت فيما هو أهمّ عليّ، أو قال: أحبّ إليّ من الفرس ومن مئة ألف فرس، وقد جعلته في سبيل الله تعالى، رضي الله تعالى عنه. قلت: وبلغني أن الشيخ الإمام محيي

Marfat.com

الدين النووي[1] رضي الله تعالى عنه خطف سارق عمامته وهرب، فتبعه الشيخ وصار يعدو خلفه ويقول له: ملّكتك إياها قل قبلت، والسارق ما عنده خبر من ذلك.

(الحكاية الثالثة والثمانون بعد الأربع مئة): حُكِيَ عن ذي النون رضي الله تعالى عنه أنه قال: رأيت بعض أصحابي في النوم بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ببركتك محبتي فيك، وأدخلني الجنة، وعرض عليّ منازلي فيها، قال ذلك ووجهه حزين، فقلت له: ما لي أراك حزينًا وقد دخلت الجنة وتنعّمت فيها؟ فتنفس الصعداء[2] ثم قال: يا ذا النون لا أزال حزينًا إلى يوم القيامة، قلت: ولِمَ ذلك؟ قال: لمّا رأيت منازلي في الجنة رُفِعَت لي مقامات في عليّين ما رأيت مثلها، فلما رأيتها فرحت فرحًا شديدًا وهَمَمْت بدخولها، فناداني مُنادٍ من فوقها اصرفوه عنها فليس له هذه، إنما هذه لمَن أمضى السبيل في سبيل الله تعالى، يعني كلما أصابه شيء من أمور الدنيا قال في سبيل الله ثم لا يرجع فيه، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك النيل رحمه الله تعالى.
وعن أبي الحسن الدمشقي رحمة الله تعالى عليه قال: رأيت منصور بن عمّار[3] الواعظ رضي الله تعالى عنه في المنام، فقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال لي: قال ربي جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه: يا منصور بن عمّار فقلت له: نعم يا ربّ، فقال: أنت الذي كنت تزهّد الناس في الدنيا وترغّبهم في الآخرة؟ قلت: قد كان ذلك يا ربّ، ولكني ما جلست مجلسًا إلا وبدأت بالثناء عليك، وثنّيت بالصلاة على نبيّك محمد ﷺ، وثلّثت بالنصيحة لعبادك، فقال: صدقت ضعوا له كرسيًا يمجّدني في سمائي بين ملائكتي كما كان يمجّدني في أرضي بين عبادي، رضي الله تعالى عنه. قلت: هكذا هو في الأصل الذي نقلت منه تزهّد الناس في الدنيا وترغّبهم في الآخرة، وقد كنت رأيته في كتاب آخر تزهّد الناس في الدنيا وترغب أنت فيها، وهذا هو المطابق لسياق هذا الكلام، لأنه مُشعِر بنوع ملام، فاستدركه بما ذكر فيه من الأشياء المحمودة المقام رضي الله تعالى عنه.

(الحكاية الرابعة والثمانون بعد الأربع مئة): حُكِيَ أنه أمسك الغيث عن بغداد حتى كاد أهلها يهلكون، فاغتسلوا وتطهّروا وخرجوا إلى الصحراء يسألون الله عزّ وجلّ أن

---

(١) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني النووي الشافعي (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ = ١٢٣٣ ـ ١٢٧٧) أبو زكريا، محيي الدين، علاّمة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوا وإليها نسبته. تعلم في دمشق وأقام بها زمنًا طويلاً. من كتبه «تهذيب الأسماء واللغات» و«منهاج الطالبين» و«الدقائق» و«حلية الأبرار» و«بستان العارفين» و«الإيضاح» وغير ذلك. الأعلام ٨/١٤٩، ١٥٠؛ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/١٦٥؛ والنجوم الزاهرة ٧/٢٧٨؛ وآداب اللغة ٣/٢٤٢.
(٢) تنفس الصعداء: التنفس الشاق الممدود بعمق من همّ أو توجع.
(٣) هو أبو السري منصور بن عمّار. من أهل مرو، من قرية يقال لها: دندانقان، وقيل إنه من بوشنج وأقام بالبصرة، وكان من الواعظين الأكابر. (الرسالة القشيرية ص ٤٢٣).

Marfat.com

يسقيهم غيثه يومًا بعد يوم فلم يسقوا، وكان ذلك في خلافة هارون الرشيد رحمه الله تعالى، فبينما هم كذلك يلوذون ويتوسّلون إذا برجل قد أقبل من صدر البرية أشعث أغبر ذي طمرين، ومعه ثلاث بنات عذارى كأحسن البنات، ووقف في أطراف الناس وسلّم عليهم، فردّوا عليه السلام، فقال: يا قوم ما لكم وقوفًا مجتمعين؟ فقالوا: يا شيخ إنّا دعونا الله عزّ وجلّ أن يسقينا غيثه فلم يسقنا، فقال: يا قوم أهو غائب عنكم في المدينة حتى خرجتم إلى الصحراء، أليس هو سبحانه وتعالى في كل مكان موجودًا، أما قال تبرك وتعالى في مُحكَم تنزيله: ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ [الحديد: ٤] فبلغ هارون الرشيد خبره، فقال: هذا الكلام رجل بينه وبين مولاه سريرة، ثم قال: ائتوني به؛ فلما حضر بين يديه وتسالَما، صافحه هارون وأجلسه بين يديه، ثم قال له: يا شيخ ادعُ الله تعالى أن يسقينا عسى أن يكون لك عنده جاه، فتبسّم الشيخ وقال: أتريدون أن أدعو لكم إلٰهي وسيدي ومولاي؟ فقالوا: نعم، فقال: توبوا بنا جميعًا إلى الله عزّ وجل، فنودي في الناس بالتوبة، فتابوا وأنابوا، ثم تقدّم الشيخ فصلّى ركعتين خفيفتين، فلما سلّم أخذ بناته عن يساره وعن يمينه وبسط يديه وأسْبَل دمعته ودعا، فما استتمَّ الدعاء إلا والسماء قد تجلّلت بالسحاب وأرعدت وأبرقت وأسبلت مطرًا كأفواه القِرَب، فاستبشر الرشيد بذلك، واجتمع إليه خواصّه وأهل مملكته يهنّئونه ويبشّرونه، فقال: عليّ بالشيخ الصالح فطلبوه فوجدوه في مكانه ساجدًا في الماء والطين لله ربّ العالمين، فقالوا لبناته: ما لأبيكنّ هكذا لا يرفع رأسه؟ فقلن: هذه عادته إذا سجد لله تعالى لا يفيق ولا يرفع رأسه إلى ثلاثة أيام، فأخبروا بذلك الرشيد، فبكى بكاءً شديدًا وقال: اللّٰهمّ إني أسألك وأتوسّل إليك بحُرمة الصالحين أن تهبنا لهم وتفيض علينا من جزيل بركاتهم بفضلك وجودك وكرمك يا أرحم الراحمين، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الخامسة والثمانون بعد الأربع مئة: عن السريّ رضي الله تعالى عنه) قال: مررت يومًا في بعض البراري مع جماعة من إخواني على قصر قد أناخ عليه الزمان بكلكله[1]، فهدّ أركانه وحطّم بنيانه، وقد بقيت معالمه وأبوابه، وعلى أبوابه لوح مكتوب، فنفضت التراب عن ذلك الكتاب، ثم تأملته فإذا هو مكتوب فيه:

هو السبيل فمن يوم إلى يوم — كفرحة النائم المهجوع في النومِ
إن المنايا وإن أصبحت في شغل — تحوم حولك حومًا أيما حومِ
لا تعجلنّ رويدًا إنها دول — دنيا تنقل من قوم إلى قومِ

(١) الكلكل: الصدر.

قال: فدخلت القصر أنا وأصحابي فإذا بقية في وسطه من الزمرّد الأخضر مرصّعة بالدّرّ والياقوت والجوهر، قد علاها الغبار من تطاول السنين والأعمار، معلّقة على أربعة أعمدة من ياقوت، فتأمّلناها وأطلنا النظر فيها فإذا عليها منقوش هذا المنظر:

قف بالقبور ونادِ المستقرّ بها ... من أعظُم بَلِيَت فيها وأجساد
قوم تقطّعت الأسباب بينهم ... بعد الوِصال فصاروا تحت إلحاد
والله لو تعثّروا يومًا ولو نشروا ... قالوا: بأن التّقى من أفضل الزّاد

قال: فتأملنا متكأ الملك فإذا عليه مكتوب:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس ... ولو تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت نافذة ... في كل مدّرع منّا ومترس
ما بال دينك ترضى أن تدنّسه ... وثوبك الدهر مغسول من الدّنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إنّ السفينة لا تجري على اليبس

غيره:

كم قد وقفت كما وقفتا ... وكم قرأت كما قرأتا

قلت: وذكر بعد هذا البيت بيتين ركيكين ملحونين ليس لهما معنى مليح ولا صحيح، فنظمت عوضهما هذه الثلاثة الأبيات:

وكم لَهَوْتُ بطِيب عيش ... دهرًا نسيت به المماتا
والآن مُتُّ وأنت أيضًا ... لا بدّ يومًا يقال: ماتا
فجدوا حذر تكون مثلي ... كسبت شرًّا وخير فاتا

(الحكاية السادسة والثمانون بعد الأربع مئة: عن الشيخ أبي يزيد القرطبي رضي الله تعالى عنه) قال: سافرنا مرّة ومعنا رجل من البادية من الصالحين، فجئنا إلى خندق كثير الأشجار، وكان الرجلُ له معرفة بالآثار، فقال: هذا الخندق معمور، فنزلنا الخندق مستوفزين وتعلّقنا بالجهة الأخرى، فلما فارقنا الشجر، رأينا ثلاثة نفر بأيديهم السلاح، وقد نهضوا ليقطعوا علينا الطريق، فاجتمعنا وقلنا: أيّ شيء نعمل؟ فقال لنا الرجل: ردّوا الأمر إلى أصله ألستم خرجتم لله؟ قلنا: بلى، قال: فاتركوا الأمر على ما هو عليه واتبعوني، ولا يلتفت منكم أحد يمينًا ولا شمالاً، فتقدّم الرجل ومشينا وراءه، والنفر يمشون حذاءنا على غير الطريق، فخرجنا عنهم بالمشي حتى رجعوا خلفنا، وكنت أنا وراء أصحابي، فالتفتّ فرأيتم قد ضايقونا كرمية برمح، فأعلمت أصحابي بأنهم قد أدركونا، وكان البدوي لا يلتفت، فوقف عند كلامي والتفت، فلما رآهم قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، اللّهمّ أبعد عنا شرّ هؤلاء الشياطين، فقلت له: أبصر أيّ

Marfat.com

شيء نعمل؟ فقال: وأيّ شيء العمل؟ قلت: ها هو وقت الضحى وقد جوّز الاجتماع في النافلة، وأنا أتقدّم وأصلّي بكم، ويمرّ القوم إن شاء الله تعالى، فقال: يا أبا يزيد، وقد احتجنا إلى أن نختفي منهم؟ قلت: أنت أخبر، فرفع يده وأشار بأصبعين: المسبحة، والوسطى قفوا، فلقد رأيت النفر وقفوا، ولم يقدر أحد منهم يتعدّى موضعه، ولا يدنو من أصحابه، فمشينا ولم يتكلم الرجل بعد ذلك حتى تعلقنا ببعض الشعوب في مكان آخر يعجزون عنّا فيه، فوقف الرجل ووقفنا معه وقال: انظروا هؤلاء الشياطين وقوف على حالهم، والله لولا تقوى الله عزّ وجلّ لمضيت عنهم وتركتهم، ولكن اللّهمّ اجعلنا لهم توبة ثم أشار إليهم أن امضوا، فما رأيت أحدًا منهم إلا وقد قعد على الأرض يتحدّث مع صاحبه، ثم رجعوا في طريقهم من حيث جاؤوا ببركة البدويّ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. وقال الشيخ أبو العباس بن العريف رضي الله تعالى عنه: رأيت وليًا لله عزّ وجلّ في بعض المساجد أسْرَجَ سِراجًا، فجاء فأر فأخذ الفتيلة، وكان الرجل قد أخذته سِنَة فانتبه وقال: يا فاسق تُحدِث شيئًا في المملكة أنا أكون سببه؟ فرأيت الفأر قد عاد إلى السراج، فنهاه فلم يَنْتَهِ، فغضب وقال للفأر: قَعْ فيه قَعْ فيه، فجاء الفأر فوضع خرطومه على النار فمات فتعجب منه ثم سألته عن ذلك، فقال: ما الذي تتعجب منه؟ ذلك تسليط الشّرع عليه، رضي الله تعالى عنه. قلت: لعله يعني بقوله: تسليط الشّرع عليه قوله ﷺ: «خمس يقتلن في الحلّ والحرم»(١) فذكر منهنّ الفأرة، وقد سمّاها رسول الله ﷺ الفويسقة. وقال بعضهم: سمعت صوفيًا وقد قَرَضَ الفأر خُفَّهُ يقول له:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي

قلت: يعني لو كنت من القوم الشجعان أُولي النجدة والسطوة لم تقدر تتسلّط على متاعي، وتمام ما استشهد به:

. . . .	لكنني من بني عمرو بن شيبانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السّوء إحسانا

والمعنى: لو كنت من أهل السيوف الماضية المنتقمين من العِدا لخِفتَني: أي لو كنت صاحب حال وسيف: أي من قِبَل الحقّ سبحانه لم تستطع تتعرّض لي، لكنني لستُ من أهل النجدة المذكورين المحميين فأحتاج أتّصف بوصف الآخرين المُجازين الظلم بالمغفرة والإساءة بالإحسان، هذا الوصف وإن كان ممدوحًا في الشّرع مندوبًا إليه فليس هو ممدوحًا مطلقًا عند العرب إذ ذاك يؤدي إلى استيلاء بعضهم على بعض قتلاً

(١) أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى ٥/ ٢٠٩)، والذهبي في (الطب النبوي ص ٧٣).

Marfat.com

ونهبًا، بل الحكم عندهم كما قال النابغة:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدّرا

(الحكاية السابعة والثمانون بعد الأربع مئة: عن الشيخ أبي عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه) قال: آخر ما تصوّرت لي الدنيا في صورة امرأة حسناء شابّة بيدها مِكنسة وهي في المسجد الذي كنت فيه تكنسه، فقلت لها: ما جاء بك؟ قالت: جئت لأخدمك، فقلت: لا والله، قالت: لا بدّ، فأشرت عليها بعصًا كانت معي وعزمت على ضربها، فعادت عجوزًا وجعلت تكنس المسجد، ثم غفلت عنها، فعادت مثل ما كانت، فقمت لأُخرجها فانقلبت عجوزًا ضعيفة، فرحمتها ثم غفلت عنها فعادت شابّة، فتغيّرت عليها وانزعجت لذلك، فقالت لي: تطيل أو تقصر هكذا خدمك، وهكذا خدمت إخوانك، فمن ذلك اليوم لم يتعذّر عليّ شيء من الأسباب. وقال أيضًا: كنت بمنًى فعطشت ولم أجد ماء ولا شيئًا أشتري به، فمضيت إلى بئر فوجدت عليه أعاجم، فقلت لأحدهم: ضع لي في هذه الركوة ماء، فضربني وأخذ الركوة من يدي ورمى بها بعيدًا، فمضيت إليها لآخذها وأنا منكسر القلب، فوجدتها في بركة ماء حلو، فاستقيت وشربت وجئت بها إلى أصحابي فشربوا، وأعلمتهم القصة، فمضوا إلى المكان ليستقوا منه فلم يجدوا ماءً ولا أثرًا، فعلمت أنها آية. وقال أيضًا: كنت مرّة في بدر متوجّهًا إلى مكة وكان هناك رجل معه تمر يبيعه إلى الحجّاج على أن يأخذ ثمنه بمكة، فدفع لي منه شيئًا وألحّ عليّ في أخذه وقال: وأنا أصبر عليك بثمنه إلى مكة وإن متّ فأنت في حِلٍّ منه، ولم يزل بي حتى أخذته منه ثم إنه عرض له السفر قبلنا فطالبني بالثمن فقلت له: ما عندي شيء، وأنت قلت إنك لا تطلب الثمن إلا بمكة، فقال: لا بدّ من الثمن وضيّق عليّ وآذني وشتمني، فدخلت مسجد بدر ودعوت وتضرّعت إلى الله تعالى، ثم خرجت فلَقِيَني رجل كأنه أعرابيّ وعليه ثياب الإحرام، فناولني دراهم وعدّها في كفّي، فذهبت إلى صاحب الدّين فقضيته دَيْنه، فتضاعفت أذيّته وجعل يقول: يخبثون الدراهم ويكذبون ويحلفون أن ما معهم دراهم والدراهم معهم، فسكت ولم أُجاوبه بحرف. ومن كلامه رضي الله تعالى عنه: مَن طلب الغايات في المبادي فقد أخطأ الطريق. وقال أيضًا رضي الله تعالى عنه: الزم الأدب وحدك من العبودية، ولا تتعرّض لشيء، فإن أرادك له أوصلك إليه. وقال رضي الله تعالى عنه: يسير العمل مع الرعاية منجح. وقال رضي الله تعالى عنه: هجم أهل الشرك ببلاد الأندلس على قرية من قراها فدخلوها عنوة فسَبوا أهلها وأخذوا معهم أسارى كثيرين، فانزعج أهل الأندلس لذلك، وبلغ الخبر أن الأسارى يُرمَى لهم الحشيش مع الخيل وهم مُكتّفون يأكلون بأفواههم كما ترعى البهائم، قال: فبِتّ في بعض تلك الليالي عند الشيخ أبي إسحٰق بن طريف رضي الله تعالى عنه، فوضع

الطعام بيننا ثم تنفس الصّعداء بعد أن قال: بسم الله، ثم قال لي: يا محمد: **أما بلغك ما** طرأ على المسلمين؟ فقلت: نعم، فجعل يقصّ الخبر ويبكي حتى عَلاَ بكاؤه، ثم قال: والله لا أكلت طعامًا ولا شربت شرابًا حتى يُفرِج الله تعالى عن المسلمين، ثم اعتزل عن الطعام ساعة، ثم سمعته يقول: الحمد لله الحمد لله، ثم دَنَا إلى الطعام وقال كُل فأكل وأكلت معه، وعَجِبتُ منه كيف تركه ثم عاد إليه بعد قسمه في ساعة، ثم إن الخبر وصل إلينا بعد ذلك أن الوقت الذي تكلّم فيه الشيخ صادف أن النصارى سمعوا رجفة عظيمة اعتقدوا أن عسكر المسلمين دهمتهم، فركبوا خيولهم ونجوا بأنفسهم وتركوا الغنيمة والأسارى، فخلّص الله عزّ وجلّ المسلمين من أيديهم بغير نصب ولا طلب؛ ثم إن الأسارى انطلقوا بالغنيمة وأعادوها إلى بلاد المسلمين، والحمد لله ربّ العالمين، رضي الله تعالى عن الجميع آمين.

(الحكاية الثامنة والثمانون بعد الأربع مئة: عن الشيخ أبي عبد الله القرشي أيضًا رضي الله تعالى عنه) قال: كنت في بحر جدّة ومعي صاحب لي فعطش عطشًا شديدًا، فسألت مَن يبيعنا ماء بشملة كانت عليّ لم يكن عليّ سواها، فلم يبعنا أحد، فقلت لصاحبي: خذ هذه الشملة وامضِ إلى ريس[1] المركب، فمضى إليه بركوة معه، فانتهره وصاح عليه وأخذ الركوة من يده وحذف بها فلم تقع في البحر بل وقعت في المركب، فرجعل إليّ فرأيت ذلّه وانكساره وشدّة حاجته، فعلمت أن الله تبارك وتعالى لا يتركه، فأخذت الركوة فملأتها من البحر، فشرب حتى رَوِيَ، ثم أخذتها منه فشربت حتى رَوَيتُ وشرب أيضًا مَن كان إلى جانبي ممّن ليس معه ماء، ثم ملأتها ثانية فعجنّا الدقيق، فلما حصل استغناؤنا ملأتها بعد ذلك فوجدتها ملحًا على ما نعهد، فعلمت أن الحاجة إذا تحقّقت قلبت الأعيان، رضي الله تعالى عنه. وقال بعض الشيوخ: كنّا جماعة من الفقراء في بعض الأسفار، فوصلنا إلى مخاضة من البحر فخُضْنا حتى توسّطنا، فرأيت شابًا من الجماعة يشرب من الماء بكفّه، فقلت في نفسي: هل هذا الماء حلو؟ فأخذت منه وذُقته فوجدته ملحًا، فقلت له: يا بنيّ اسقني، فقال لي: يا عمّ اشرب، فقلت: هو حارّ وأردت بذلك ستر حاله عنه، فدفعت إليه إناء من الفخار، فملأه من وسط الماء، فشربته أنا والجماعة كلهم حلوًا، انتهى كلامه. قلت: يعني بقوله: وأردت ستر حاله عنه: أي أخفيت عنه ظهور هذه الكرامة منه، وأوهمته أن الماء حلو لكلّ أحد يشرب، ولكنه حارّ أُريد أن أُبرده في إناء الفخار، ولمّا كانت العادة والعُرْف أن الشبّان هم الذين يتولّون الخدمة من الاستقاء وغيره، سأله أن يستقي له في الإناء سترًا لحاله عنه، لئلا يرى أنه

---

(١) الريّس: الرئيس أو سيد القوم.

Marfat.com

مميّز عن الجماعة بهذه الكرامة مع كونه حَدَثًا يُخشَى عليه العجب، وهذا الشيخ المذكور هو أبو زيد القرطبي، رضي الله تعالى عن الجميع ونفعنا به آمين.

(الحكاية التاسعة والثمانون بعد الأربع مئة: عن الشيخ أبي الربيع المالقي رضي الله تعالى عنه) قال: كنت ليلة فقدت من بعض أحوالي شيئًا، فاشتغل سرّي بذلك، فرأيت ذات ليلة هدهدًا[1] جلس قدّامي وكلّمني بكلام لم أفهمه، ثم طار وجلس على كتفي الأيسر وكلّمني، فلم أفهم ما يقول، ثم طار وجلس على كتفي الأيمن ووضع فمه في فمي وجعل يزقّني، فانتفخت، ثم سمعت خشخشة في صدري، فتحمّست لذلك وعلمت أنه أمر مُراد مني، ثم ظهر لي شخصان فتقدّم أحدهما، فشقّ عن صدري وأخرج قلبي ووضعه في طست، فسمعت أحدهما يقول: للآخر احفظ شجرة العلم، فغسله ثم وضعه في الجانب الأيمن ثم ألْحَمَ الشقّ فلم أرَ من ذلك الوقت شيئًا خارجًا عني، وأخذت عن نفسي، فسمعت نداء: سَلْ يا سليمان، فقلت: أسأل رِضاك رِضاك، فقال: رضيت رضيت، فمن اليوم فتح عليّ القرآن ورؤية القلب، فأنا اليوم أرى بقلبي وأسمع القرآن يُتلَى عليّ من الجانب الأيمن، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين. وقال بعض المُكاشفين: كنت أرى شيطاني في حال الرياضة ضعيفًا عريانًا شعثًا على أسوأ الأحوال، فإذا هممت به فرّ أمامي، فلما تزوّجت سامحت نفسي في حق الزوجة بزعمي، فرأيته في بعض الأيام قد ظهر لي، فهمَمْتُ به على العادة فلم يهرب مني ولم يلتفت إليّ، ورأيته مكتئبًا، فقلت له: متى تغيّرت حالتك هذه عمّا أعهد؟ فقال: منذ تزوّجت أنت وتغيّرت حالتك، انتهى كلمه. قلت: هكذا يطلعهم الله على الزيادة والنقصان، ليزدادوا من الخير ويشكروا الله تعالى عليه، ويرجعوا عن أسباب النقصان ويتضرّعوا إليه، حتى يُزيل عنهم الصفات المذمومات، ويوفّقهم للصفات المحمودات بفضله ورحمته، فيزكّون ويزدادون من الهدى إيمانًا مع إيمانهم، وقد سمعوا قول الحقّ الشافي للقلوب، والمُزيل عنها الصدأ: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكّى منكم من أحد أبدًا﴾ [النور: ٢١].

(الحكاية التسعون بعد الأربع مئة: عن الشيخ أبي العباس بن العريف رضي الله تعالى عنه) قال: كنت يومًا قاعدًا وإذا برجل غريب قد دخل عليّ المسجد وقال: يا سيدي أنت أبو العباس بن العريف؟ قلت: نعم، قال: راءٍ رأى البارحة رؤيا، قلت له:

---

(١) الهدهد: جنس طير من الجواثم الرقيقات المناقير، أشهر أنواعه الهدهد الشائع، وهو مبذول في لبنان وغيره، ذو خطوط وألوان كثيرة وهو متوسط الجسم، له منقار مستطيل وقنزعة على رأسه كبيرة القدّ سوداء الأطراف، وذنبه مقطوم الطرف، أسود اللون، أبيض الجانبين والوسط يألف الهدهد الأماكن المبعثرة الأشجار، وقوته الحشرات والديدان (ج) هداهد وهداهيد.

قل، فقال: كأنه يرى فساطيط صغارًا حول العرش، وعليهنّ فسطاط عظيم قد اكتنف الجميع، فقال: لمَن هذا الفسطاط؟ فقيل له: للفقيه أبي العباس بن العريف، فقال: وهذه الصغار؟ فقيل: لأصحابه، قال أبو العباس رضي الله تعالى عنه: فتغيّرت عليه وقلت له: ما حملك على إتيانك بمثل هذه الرؤيا لرجل مذنب مثلي، فلما رأى تغيّري قال لي: هوّن على نفسك أيها الشيخ، فلعلك قنعت بيسير الرزق من الله تعالى فقنع منك بيسير من العمل، قال: ثم التفتّ إليه فلم أره، فقلت لأصحابي: هذا أتاكم يعرّفكم فقركم، رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما آمين. قلت: وبلغني أن الشيخ الإمام شهاب السهروردي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به ذكر بين يديه البلدان ومَن فيها من الصالحين حينئذ، فكأنه أشار إلى أن بعض الجهات ما فيها أحد من الرجال في ذلك الوقت، فوقف عليه شخصان في الحال من أهل تلك الجها في زيّ مشاعليين، وقال له: يا سيدنا نشتهي منك أن تشرّفنا بخدمتك، وكان يومئذ بمكة جاء إلى الحجّ، فأذِنَ لهما بحمل المشعل وسافر راجعًا إلى بلاده، فكان يقول وهم سائرون: إني لأشمّ رائحة الفقر من قبل المشعل فلما بلغوا بعض الطريق سُئِلَ عن مسألة غامضة في علوم المعارف والأسرار المعروفة بالعلم اللدني لأهل الأنوار، فأجالَ ذهنه فيها وتفكّر وأمعن النظر وتدبّر، ثم وقف وتحيّر؛ فلما وقف حصان علمه المشهور في ميدان الامتحان بالسؤال المذكور وقف الشخصان المذكوران بين يديه وقالا: يا سيدي دستورك نقول شيئًا فقال: قولا. فقالا: الجواب والله أعلم كذا وكذا، وكشفا القناع عن وجه محاسن الأسرار في الجواب الشافي للنظّار، فكشف الشيخ شهاب الدين رضي الله تعالى عنه رأسه وقال: أستغفر الله وأنصف فيما صدر منه من الكلام في أهل الجهات المذكورة، ثم قالا له: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ورجعا عنه إلى بلادهما، رضي الله تعالى عن الجميع ونفعنا بهم.

(الحكاية الحادية والتسعون بعد الأربع مئة: عن الشيخ الكبير أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه) قال: نمت ليلة في سياحتي على ربوة من الأرض، فجاءت السّباع فطافت بي وأقامت حولي إلى الصباح، فما وجدت أنسًا كأنس وجدته تلك الليلة، فلما أصبحت خطر لي أنه قد حصل لي شيء من مقام الأنس بالله، فهبطت واديًا وكان هناك طيور حجل[1] لم أرها، فلما أحسّت بي طارت في دفعة واحدة كلها، فخفق قلبي رعبًا، فسمعت قائلاً يقول لي: يا مَن كان البارحة يأنس بالسّباع ما لكَ تفزع من خفقان الحجل؟ ولكنك البارحة كنت بنا والآن أنت بنفسك. وقال رضي الله تعالى عنه: جعت مرة ثمانين

(١) الحجل: طير في حجم الحمام، أحمر المنقار والرّجلين، طيب اللحم. الواحدة حجلة.

Marfat.com

يومًا، فخطر بي أن قد حصل لي نصيب من هذا الأمر، فإذا أنا بامرأة خارجة من مغارة كأن وجهها ضياء الشمس حُسْنًا وهي تقول: منحوس منحوس جاع ثمانين يومًا، فأخذ يدلّ على الله بعلمه، وأنا لي ستة أشهر لم أذق فيها طعامًا رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما آمين. وقال رضي الله تعالى عنه: كنت بينا أنا في بعض سياحتي أقول إلـٰهي متى أكون لك عبدًا شكورًا؟ فسمعت قائلاً يقول: إذا لم ترَ مُنعمًا عليه غيرك، فقلت: إلـٰهي كيف لا أرى منعمًا عليه غيري وقد أنعمت على الأنبياء والعلماء والملوك؟ فإذا قائل يقول لي: لولا الأنبياء لَمَا اهتديت، ولولا العلماء لَمَا اقتديت، ولولا الملوك لَمَا أمنت والكلّ نعمتي مني عليك. وقال رضي الله تعالى عنه: كنت أنا وصاحب لي قد أوينا إلى مغارة نطلب الوصول إلى الله تعالى، فكنّا نقول غدًا يفتح لنا، بعد غد يفتح لنا، فدخل علينا رجل له هيبة، فقلنا له: مَن أنت؟ فقال: عبد الملك فعلمنا أنه من أولياء الله تعالى، فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حال مَن يقول غدًا يفتح لي، بعد غد يفتح لي؟ فلا ولاية ولا فلاح، يا نفس لِمَ لا تعبدين الله لله، قال: فتسقطنا وعرفنا من أين دخل علينا، فتبنا واستغفرنا الله تعالى ففتح لنا رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

(الحكاية الثانية والتسعون بعد الأربع مئة): حُكِيَ أنه عزم على الشيخ الجليل أبي العباس المرسي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به إنسان، وقدّم إليه طعامًا يختبره به، فأعرض عنه ولم يأكل ثم التفت إلى صاحب الطعام فقال له: إنّ الحارث بن أسد المحاسبي رضي الله تعالى عنه كان في أصبعه عرق إذا مدّ يده إلى طعام فيه شُبهة تحرّك عليه فأنا في يدي ستّون عرقًا تتحرك عليّ إذا كان مثل ذلك، فاستغفر صاحب الطعام واعتذر إلى الشيخ رضي الله تعالى عنه. قلت: وقد ذكرت حكاية المحاسبي رضي الله تعالى عنه في غير هذا الموضع. وقد حُكِيَ أيضًا عن بشر بن الحارث رضي الله تعالى عنه أنه كان لا يمدّ يده إلى أكل طعام ليس بطيب. وكذلك بلغني أن بعض السلاطين امتحن بعض الشيوخ بذبائح قدّمها إليها لحم بعضها مذكي ولحم بعضها ميتة، فشدّ الشيخ وسطه وقال للفقراء: أنا اليوم خادمكم في هذا الطعام، وأخذ يلتقط المذكي ويقرّبه إلى الفقراء، وينحّي الأواني التي فيها غير المذكي إلى الجند ويقول: ﴿الطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين﴾ [النور: ٢٦] والسلطان حاضر، فاستغفر الله تعالى وحَسُنَ اعتقاده في الشيخ رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به. وكذلك بلغني أن بعض سلاطين الكفّار استولى على بعض بلاد المسلمين، فسفك دماءهم ونهب أموالهم وأراد أن يقتل بعض فقراء المشايخ، فاجتمع به الشيخ ونهاه عن ذلك، فقال له السلطان: إن كنتم على الحقّ فأظهروا لي برهانًا، فأشار الشيخ إلى بعر الجِمال هناك فإذا هي جواهر تضيء، وأشار إلى الكيزان في الأرض فارغة من الماء، فتعلقت في الهواء وامتلأت ماء وأفواهها منكّسة إلى الأرض ولا يقطر منها قطرة، فدَهِشَ السلطان من ذلك، فقال له

Marfat.com

بعض جلسائه: لا يكبر هذا في عينك فإنما هو سحر، فقال له السلطان: أرِني غير هذا، فأمر الشيخ بالنار فأُوقِدَت، وأمر الفقراء بالسّماع، فلما عمل فيهم الوجد دخل الشيخ بهم النار، وكانت نارًا عظيمة، ثم خطف الشيخ ولد السلطان ودار به في النار ثم غاب به، فلم يَدْرِ أين ذهبا والسلطان حاضر، فبقي متفجِّعًا على ولده، فلما كان بعد ساعة ظَهرَا وفي إحدى كَفَّي ولد السلطان تفاحة وفي الأخرى رمّانة، فقال له السلطان: أين كنت؟ قال: كنت في بستان فأخذت منه هاتين الحبّتين وخرجت، فتحيّر السلطان من ذلك، فقال له: جلساء السّوء وهذا أيضًا عمله بصنعة باطلة، فقال السلطان عند ذلك: كلّ ما تُظهِره لا أُصدّق به حتى تشرب من هذه الكأس، وأخرج له كأسًا مملوءة سُمًّا تقتل القطرة منه في الحال، فأمر الشيخ الفقراء بالسّماع حتى ورد عليه حال، فأخذ الكأس حينئذ وشرب ما فيه جميعه، فتمزّقت ثيابه التي عليه، فألقوا عليه ثيابًا أخرى، فتمزّقت الثياب كذلك، ثم أخرى كذلك مِرارًا عديدة ثم ترشّح عرقًا وثبتت عليه الثياب بعد ذلك ولم تتقطّع، فاعتقده السلطان وعظّمه وأجلّه واحترمه ورجع عن ذلك القتل والإفساد ولعله أسلم، والله أعلم. وقد حُكِيَ أيضًا مثل هذه الحكاية عن بعض مَن يُنسَب إلى سيدي أحمد الرفاعي قدّس الله تعالى روحه مع سلطان المغول الذي أخذ بغداد رضي الله تعالى عنه وعن جميع الصالحين ونفعنا بهم في الدنيا والآخرة. وحُكِيَ أن الشيخ الإمام أُستاذ الأكابر، الجامع بين العلم الباطن والظاهر، والحسيب النسيب والشريف النبوي الفاخر السيد الجليل عبد القادر الجيلاني(١) قدّس الله روحه ونوّر ضريحه، طلب من بعض الناس وديعة كانت عنده لبعض الغائبين، فامتنع من تسليمها إليه وقال له: لو استفتيتك بمثل هذا ما أفتيتني بتسليمها غير صاحبها، فلما كان بعد ذلك بزمن يسير جاء كتاب صاحبها إلى المودع المذكور وهو يقول: سلّم الوديعة إلى الشيخ عبد القادر، فقد صارت للفقراء، فسلّمها إليه، فعتب عليه الشيخ قال: تتّهمني في مثل هذا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. قلت: وإليه ينسب أكثر شيوخ اليمن، ومنهم مَن ينتسب إلى الشيخ الكبير العارف الشهير أبي مدين قدّس الله روحه ونوّر ضريحه، هذا شيخ المغرب، والأول شيخ المشرق، أعني الشيخ

---

(١) هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني (٤٧١ ـ ٥٦١ هـ = ١٠٧٨ ـ ١١٦٦ م) أبو محمد محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي، مؤسّس الطريقة القادرية، من كبار الزهّاد والمتصوفين. ولد في جيلان وانتقل إلى بغداد شابًا، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ وتفقّه وسمع الحديث، وقرأ الأدب واشتهر، وتصدّر للتدريس والإفتاء في بغداد، وتوفي بها. له كتب منها «الغنية لطالب طريق الحق» و«الفتح الرباني» و«فتوح الغيب» وغير ذلك. الأعلام ٤/٤٧؛ والنجوم الزاهرة ٥/٣٧١؛ وطبقات الشعراني ١/١٠٨ ـ ١١٤؛ وشذرات ٤/١٩٨.

Marfat.com

عبد القادر، وهو القائل رضي الله تعالى عنه:

ما في الصبابة منهل مستعذب | إلا ولي فيه الألذ الأطيب
أو في الزمان مكانة مخصوصة | إلا ومنزلتي أعزّ وأقرب
وهبت لي الأيام رونق صفوها | فصَفَت مناهلها وطاب المشرب
أنا من رجال لا يخاف جليسهم | ريب الزمان ولا يرى ما يرهب
قوم لهم في كل مجد رتبة | علوية وبكل جيش موكب
أنا بلبل الأفراح أملأ روحها | طربًا وفي العلياء باز أشهب

رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

(الحكاية الثالثة والتسعون بعد الأربع مئة): حُكِيَ عن بعضهم قال: كنت مع بعض الصالحين خارج بغداد، فمرّت علينا جنازة ومعها خلق كثير، فسألنا عن الميت، فقيل: هو رجل من الصالحين، فقال الرجل الذي معي: الله المستعان هكذا يموت الصالحون، قلت: فكيف يموتون؟ قال: يموتون على المزابل وتأكلهم الكلاب، قال: فرأيته بعد ثلاثة أيام وهو ميت على مزبلة والكلاب تأكل منه رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين. قلت: هذا موت كثيرٍ من الأولياء والمُحِبِّين والمحبوبين لله عزّ وجلّ، الذين ليس لهم في الدنيا غرض ولا أمل. وأما حكايات أهل الرغبة في الدنيا والأمل الطويل فيها فكثير، من ذلك ما رُوِيَ أنه جاء بعض الناس إلى سليمان بن داود عليهما السلام وقال له: يا نبيّ الله أريد منك أن تأمر الريح تحملني إلى بلاد الهند، فإن لي فيها حاجة في هذه الساعة وألحّ عليه في ذلك، فقال له: نعم، وأمر الريح تحمله، فلما خرج من عنده التفت سُليمان فرأى مَلَك الموت قائمًا عنده عليه السلام، ورآه مبتسمًا، فسأله عن تبسّمه، فقال له: يا نبيّ الله تعجبت من هذا الرجل فإني أمرت بقبض روحه في أرض الهند في هذه الساعة، فبقيت متفكّرًا كيف يصل إلى بلاد الهند في هذه الساعة فلما سألك أن تأمر الريح تحمله تعجبت من ذلك، انتهى كلامه. وفي هذا المعنى قلت:

فمَن منّا لم تأتِه المنايا | إلى أوطانه يومًا أتاها
كما قال الذي عزّى نفوسًا | وقوّي في توكّلها قواها
ومَن كانت منيّته بأرض | فليس يموت في أرض سواها

قلت: يجب الإيمان بأن أمر الله تبارك وتعالى وقدره نافذ على ما سبق في علمه الغامض، لا بدّ من ذلك وإن بعد في العقول، ينسب له بعض الأسباب الغوامض، على ما اقتضت حكمته البالغة ومشيئته السابقة، التي إليها يرجع أمر الخاتمة اللاحقة، نسأل الله تعالى الكريم أن يلطف بنا في جميع مقدوره، وأن يدبّرنا بحُسْن تدبيره والمسلمين آمين.

Marfat.com

ومن عجب لطف الله عزّ وجلّ، بعباده ودفعه البلاء عمّن لم يحضره الأجل ببعض عباده المصطفين الخوّاص المعدّين للتفريج عند الشدائد والخلاص ما يأتي ذكره في الحكاية الآتية إن شاء الله تعالى.

(الحكاية الرابعة والستون بعد الأربع مئة): حُكِيَ عن بعض الشيوخ الكبار أنه دخل على بعض التجّار بثغر الإسكندرية، فرحّب به التاجر وفرح به، فرأى الشيخ في إيوان يجلس فيه التاجر بساطين مثمنين مستعملين من بلاد الروم على قدر الإيوان، فطلبهما من التاجر، فصعب عليه ذلك، وقال له: يا سيدي أنا أُعطيك ثمنهما، فامتنع الشيخ وقال له: ما أطلب إلا هما بعينهما، فقال له التاجر: إن كان ولا بدّ من الأخذ فخذ أحدهما، فأخذ الشيخ أحد البساطين وخرج به، وكان حينئذ للتاجر ابنان مسافران في بلاد الهند كل واحد منهما في مركب، فبعد مدة سمع أبوهما أن أحدهما غرق هو ومركبه وجميع مَن كان فيه، ووصل الابن الآخر إلى عدن سالمًا؛ فلما كان بعد مدة وصل قريب الإسكندرية، فخرج أبوه في لقائه إلى ظاهر البلد، فرأى البساط الذي أخذه الشيخ منه بعينه محمّلاً على بعض الجِمال، فسأله عن قصة البساط من أين هو له؟ فقال له: يا أبت لهذا البساط قصة عجيبة وآية عظيمة، فقال له أبوه: يا بنيّ أخبرني بذلك، فقال له: سافرت أنا وأخي بريح طيبة من بلاد الهند، كلٌّ منّا في مركب، فلما توسّطنا البحر عصفت علينا الريح واشتدّ علينا الأمر، وانفتح المركبان، واشتغل كل أهل مركب بمركبهم وسلّم كلٌّ منّا أمره إلى الله تعالى، وإذا بشيخ قد ظهر لنا وفي يده هذا البساط، فسدّ به مركبنا وسرنا بالسلامة أيامًا، والمركب مسدود بهذا البساط إلى أن وصلنا بعض المراسي، فنقلنا ما كان في المركب وأصلحناه وشحنّا فيه، وأما مركب أخي فغرق جميع مَن كان فيه ولم يسلم منهم أحد، قال التاجر فقلت له: يا بني أتعرف الشيخ إذا رأيته؟ قال: نعم، فذهب به إلى الشيخ، فلما رآه صرخ وصاح صياحًا عظيمًا وقال: هو ذا والله يا أبت، فجعل الشيخ يده عليه حتى أفاق وسكن ما به، فقال التاجر للشيخ: لِمَ لا عرّفتني يا سيدي بحقيقة الأمر حتى أدفع إليك البساطين كِليهما؟ فقال الشيخ: هكذا أراد الله عزّ وجلّ، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبجميع الصالحين.

(الحكاية الخامسة والتسعون بعد الأربع مئة): حُكِيَ عن بعض الصالحين أنه عقد مع الله تعالى عقدًا: أنه لا ينظر إلى مُستَحسَنات الدنيا، فمرّ يومًا بسوق الصرف، فنظر إلى منطقة معلقة، فجعل يُطيل النظر إليها، فالتفت صاحبها فرآه ينظر إليها، ثم التفت إلى المنطقة فلم يرَ شيئًا، فوثب إليه وتعلق به وقال: ما هذه أفعال الصالحين، فقال له: ما لك يا أخي؟ قال: أنت صوفي وتسرق؟ قال له: ما الذي سرقت؟ قال: سرقت منطقتي،

قال: والله ما أخذت لك شيئًا، قال: فأكثرنَ عليه الكلام وساروا به إلى الأمير وقصّوا عليه القصة، فقال له الأمير: يا فتى ما هذه أفعال الصالحين، فبكى وقال: والله ما أخذت شيئًا، فقال رجل من الحاضرين جرّدوه من ثيابه، فجرّدوه من ثيابه فإذا المنطقة مطوّقة في وسطه، قال: فصرخ صوتًا كاد أن يفارق الدنيا، وغشي عليه، فقال الأمير بعد ذلك ائتوني بالسّياط، قال: فهتف به هاتف يا عبد الله لا تضرب وليّ الله إنما هو مؤدب بكم، فصرخ الأمير صرخة كادت روحه تفارق جسده وغشي عليه، فلما أفاق الفتى قال: مولاي أسألك الإقالة فقد عرفت ذنبي وجرمي وأنا الخاطىء، مولاي سهو لحقّ عبدك الخاطىء، فلا تؤاخذني الأمان الأمان يا حنّان، والخلائق يبكون لبكائه، ولما أفاق الأمير من غشيته جعل يقبّل يديه ورِجليه ويقول له: يا حبيبي ما قصتك؟ فقال له الفتى: اعلم أني كنت عقدت مع الله تعالى عقدًا أن لا أنظر إلى مستحسنات الدنيا، فمررت بهذا الرجل في سوق الصرف، فنظرت منطقة نظرة غفلة، ولم أعلم ما كان إلا والرجل متعلّق بي وهو يوبّخني ويقول: أخذت منطقتي ولا أعلم قصته، فهذه والله قصتي، ثم ولّى وهو يقول:

يا عدّتي في شدّتي ... إن لم تكن أنت فمن
ينقذني من الرّدى ... يا صاحب الفعل الحسن
طوبى لمَن بات بكم ... مشرّدًا عن الوطن

(الحكاية السادسة والتسعون بعد الأربع مئة عن ذي النون رضي الله تعالى عنه) قال: بينما أنا أدور في بعض جبال لكام، وإذا برجل قائم يصلّي والسّباع حوله ربض، فلما أقبلت نحوه نفرت عنه السّباع، فأوجز في صلاته وقال: يا أبا الفيض لو صفوت لطلبتك الوحوش وحنّت إليك الجبال، قال: فقلت: ما معنى قولك لو صفوت؟ قال: تكون لله خالصًا حتى يكون لك مريدًا، قال: فقلت: فبِمَ الوصول إلى ذلك؟ قال: لا تصل إلى ذلك حتى تُخرِج حبّ الخلق من قلبك كما خرج الشرك منه، فقلت: هذا والله شديد عليّ، فقال: هذا أيسر الأعمال على العارفين.

(الحكاية السابعة والتسعون بعد الأربع مئة: عن ذي النون أيضًا رضي الله تعالى عنه)

قال: وصف لي جارية متعبّدة فسألت عنها، فقيل لي: إنها في دير خراب، قال: فأتيت الدير فإذا أنا بجارية نحيلة الجسم قد أثّر الليل في وجهها بكلكله وذبحها الكرى بسكاكين السهر، فسلّمت عليها، فردّت عليّ السلام، فقلت لها: يا جارية في مسكن النصارى؟ فقالت: يا هذا ارفع رأسك هل ترى في الدارين غير الله عزّ وجلّ؟ قال: فقلت لها: يا جارية هل تجدين وحشة الوحدة؟ فقالت: إليك عني فوالذي حَشَا قلبي من لطيف حكمته ومحبته، وأوقر خاطري من دقيق الشوق إلى رؤيته ما علمت في قلبي موضعًا لغيره،

قال: فقلت لها: أراكِ حكيمة فأخرجيني من الضيق وأرشديني إلى الطريق، فقالت: يا فتى اجعل التقوى زادك، والزهد منهاجك، والورع مطيّتك، واسلك طريق الخائفين حتى تأتي بابًا ليس ترى دونه حجابًا ولا بوّابًا، فعندها تؤمر الخَزَنَة أن لا يعصون لك أمرًا، ثم أنشأت تقول:

مَن يعرف الربّ ولم تُغنِه — معرفة الرّبّ فذاك الشقيّ
ما ضرّ ذا الطاعة ما ناله — في طاعة الله وما قد لقي

(الحكاية الثامنة والتسعون بعد الأربع مئة: عن معروف الكرخيّ رضي الله تعالى عنه)

قال: رأيت في البادية شابًا حسَن الوجه وله ذؤابتان حسنتان وعلى رأسه رداء وعليه قميص كتان وفي رِجليه نعل طاق، قال: فتعجبت منه ومن زيّه في مثل هذا المكان، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا عمّ، فقلت: يا فتى من أين أنت؟ قال: من مدينة دمشق. قلت: متى خرجت منها؟ قال: ضحوة نهاري، قال: فتعجبت منه وكان الموضع الذي رأيته فيه بينه وبين دمشق مراحل كثيرة، فقلت له: وأين القصد؟ قال: مكة إن شاء الله تعالى، فعلمت أنه محمول فودّعته ومضى، فلم أره حتى مضت ثلاث سنين؛ فلما كان ذات يوم وأنا جالس في منزلي متفكّرًا في أمره وما كان منه بعدي، وإذا بالباب يدقّ فخرجت إليه فإذا هو صاحبي، فسلّمت عليه وأدخلته المنزل، فإذا به حافٍ حاسر الرأس عليه مدرعة من الشعر، فقلت له: إيش الخبر؟ فقال: يا أستاذ لم يخبرني بما يفعل بمعاملته فمرّة يلاطفني ومرّة يهينني ومرّة يُجيعني ومرّة يُطعمني، فليته أوقفني على بعض أسرار أوليائه ثم يفعل بي ما شاء، وبكى بكاءً شديدًا؛ قال معروف رضي الله تعالى عنه: فأبكاني كلامه، فقلت له: حدّثني ببعض ما جرى عليك منذ فارقتني، قال: هيهات أُبديه وهو يريد أن يخفيه، ولكن بدء ما فعل بي في طريقي مولاي وسيدي، فقلت: ما فعل بك؟ قال: جوّعني ثلاثين يومًا، ثم جئت إلى قرية فيها مقثأة[1] قد نبذ منها الدود، فقعدت آكل منها، فنظرني صاحب المقثأة، فأقبل إليّ بسوط وجعل يضرب ظهري وبطني ويقول: يا لص ما أخرب المقثأة غيرك، منذ كم أرصدك حتى وقعت بك؟ فبينما هو يضربني إذا بفارس أقبل مسرعًا إليه وجذب السوط من يده، وقال: تعمد إلى وليّ من أولياء الله تضربه وتهينه وتقول له: يا لص، فلما نظر صاحب المقثأة إلى ذلك أخذ بيدي وذهب بي إلى منزله، فما أبقى من الكرمة شيئًا إلا فعل معي وتحلّل مني، فبينما أنا عنده لص صرت وليًا كما حدّثتك؛ قال معروف رضي الله تعالى عنه: فما استتمّ كلامه حتى دقّ

(١) المقثأة: موضع القثاء، يُزرع فيه ويَنبت.

صاحب المقثأة الباب ودخل، وكان موسرًا، فأخرج ماله وأنفقه على الفقراء، وصَحِبَ الشاب وخرجا إلى الحجّ فماتا في البرية، رحمهما الله تعالى.

(الحكاية التاسعة والتسعون بعد الأربع مئة): حُكِيَ أن يحيىٰ وعيسى عليهما السلام اصطحبا في سفر، فلما كان بعض الأوقات نام يحيىٰ عليه السلام في سجدة سجدها عيسى عليه السلام: فأراد عيسى عليه السلام أن يوقظه، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: يا عيسى إن روح يحيىٰ عندي في حضرة قدسي وجسده بين يدي في أرضي، ولقد باهيت به كرام ملائكتي. وأنشدوا:

قف على الباب قليلاً واجعل الذكر سبيلاً والزم الباب غدوًا
وغشيًا وأصيلاً إن تطعني لم تجدني للمطيعين خذولا
إن عندي للمطيعين شرابًا سلسبيلا
فاتعبوا اليوم قليلاً تنعموا دهرًا طويلا

وقال أبو زيد رضي الله تعالى عنه: جمعت فكري وأحضرت ضميري ومثلت نفسي واقفًا بين يدي ربي، فقال لي: يا أبا يزيد بأيّ شيء جئتني؟ قلت: يا ربّ بالزهد في الدنيا، قال: يا أبا يزيد إنما كان مقدار الدنيا عندي جناح بعوضة فَفِيمَ زهدت منها؟ فقلت: إلٰهي وسيدي أستغفرك من هذه الحالة، جئتك بالتوكّل عليك، قال: يا أبا يزيد ألم أكن ثقة فيما ضمنت لك حتى توكلت عليّ؟ قلت: إلٰهي وسيدي أستغفرك من هاتين الحالتين جئتك بك أو قال بالافتقار إليك، فقال عند ذلك: قبلناك. وأنشدوا:

دعوه لا تلوموه دعوه فقد علم الذي لم تعلموه رأى علم الهدى فسَمَا إليه
وطالب مطلبًا لم تطلبوه أجاب دعاءه لمّا دعاه وقام بحقه وأضعتموه
بنفسي ذاك من ممنوح قرب وطاعم مطعم لم تطعموه

(الحكاية الخمس مئة: عن بعض الزهّاد) قال: كنت في جماعة من الزهّاد وقد حان وقت صلاة الظهر ونحن في برية ليس فيها ماء، فدعونا الله تعالى، فلم أستتمّ الدعاء حتى لاح لنا بالبُعد شيء، فقصدناه وطوى الله تعالى لنا البعيد، حتى وصلنا إلى قصر مشيد عالِ البناء حَسَن الفناء، وحوله أنهار وعيون تتفجّر، فشكرنا الله تعالى على ذلك وأسبغنا الوضوء فصلّينا، ثم تقدّمنا إلى القصر فإذا على حائطه مكتوب هذان البيتان:

هذي منازل أقوام عهدتهم في رغد عيش خصيب ما له خطر[1]
دعتهم نوب الأيام فارتحلوا إلى القبور فلا عين ولا أثر

(١) رغد العيش أو العيشة رغد: أي واسعة طيبة.

Marfat.com

قال: ورأينا في وسط الدار سريرًا من ذهب، وعليه هذه الأبيات:

لا زلت تطلب كل ما يردي ... وتمعن في الطلب وملكت ما أملت من
أرض الأعاجم والعرب مدت ... إليك يد الردى فذهبت فيمن قد ذهب

قال: ورأينا هناك بستانًا فيه لوح من رخام[1] عليه مكتوب هذه الأبيات:

قد كان صاحب هذا القصر مغتبطًا ... في ظلّ عيشٍ يخاف الناس من بأسه
إذا جاءه بغتة ما لا مردّ له ... فخرّ ميتًا وزال التاج عن رأسه
فاخرج إلى القصر وانظر كيف أوحشه ... فقدان أربابه من بعد إيناسه

قال: فاستحسنا ذلك ورُحنا إلى القبّة فإذا في وسطها قبر عند رأسه لوح من رخام أبيض، وعليه مكتوب:

أنا رهن التراب في اللّحد وحدي ... واضعًا تحت لَبِنَة الترب خدي

غيره لبعضهم:

باتوا على قلل الأجبال يحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القللُ
واستنزلوا بعد عزٍّ عن معاقلهم ... وأسكنوا حفرًا يا بئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا ... أين الأسِرَّة والتيجان والحللُ
أين الوجوه التي كانت منعّمة ... من دونها تُضرَب الأستار والقللُ
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ
قد طالما أكلوا دهرًا وما نعموا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

غيره للمؤلف آنسه الله في قبره، وعامله بلطفه وبرّه، وأسكنه بحبوحة جنته، وأعاد على المسلمين من بركته آمين:

ركوب النعش أنساهم ركوبًا ... على الخيل العتيقات النّجاب
وليل القبر أنساهم لليل ... به عرس المليحات النقاب
وأنساهم لفرش ناعمات ... لها قد زينوا فرش التراب
علا الدود الخدود وغاص فيها ... أكولاً للبهيّات التراب

غيره لبعضهم:

وقلت على البنيان حين رأيته ... فكبّر للرحمٰن حين رآني

---

(١) الرخام: حجر يتكوّن من كربونات الكلسيوم المتبلور الموجودة في الطبيعة، وهو متين جميل يمكن صقل سطحه بسهولة، وله ألوان متعددة.

Marfat.com

فقلت له: أين الذين عهدتهم حواليك في أمن وخفض زمان
فقال: مضوا واستودعوني رِحالهم وماذا الذي يبقى على الحدثان

وحُكِيَ عن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي الله تعالى عنه أنه قال: دخلت مقابر البقيع لأزور الأحباب، وجعلت أُسلّم عليهم واحدًا واحدًا، ثم ولّيت وأنا أقول:

ما لي مررت على القبور مسلمًا قبر الحبيب فلم يردّ جوابي
يا قبر ما لك لا تجيب مناديًا أمَلَلْتَ بعدي صحبة الأحبابِ

قال: فأجابني صوت عالٍ:

قل للحبيب وكيف لي بجوابكم وأنا الرهين بجندل وتراب
أكل التراب محاسني فنسيتكم وحجبت عن أهلي وعن أحبابي

غيره لبعضكم:

لياليك تفنى والذنوب كثيرة وعمرك يبلى والزمان جديد
وتحسب أن النقص فيك زيادة وأنت على النقصان حين تزيد

غيره لبعضهم وجد مكتوبًا على قبر:

مُقيم إلى أن يبعث الله خلقه لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
تزيد بلى في كلّ يوم وليلة وتبلى كما يبلى وأنت حبيب

غيره لآخر في الدنيا:

ومَن يكن همّه الدنيا ليجمعها فسوف يومًا على رغم يخليها
لا تشبع النفس من دنيا تجمعها وبلغة من قوام العيش تكفيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فمَن بناها بخيرٍ طاب مسكنها ومَن بناها بشرٍّ خاب بانيها
فاغرس أصول التّقى ما عشت مجتهدًا واعلم بأنك بعد الموت تجنيها

قال المؤلف ختم الله له بخير ولوالديه وللمسلمين: قد تمّت الحكايات التي وعدت بها في أول الكتاب وقد كنت وعدت هناك بخاتمة تشتمل على فصلين وختام للخاتمة يشتمل على فصل آخر وها أنا أشرع في ذلك إن شاء الله والله الموفّق والمُعين.

Marfat.com

الفصل الأول من الخاتمة:
في الجواب عن إنكار وقع
من بعض الفقهاء المصنِّفين على الفقراء

منهم: أبو الفرج بن الجوزي[1] رحمه الله تعالى بالغ في إنكار بعض حكاياتهم. من ذلك: حكاية الشيخ أبي حمزة الخراساني رضي الله عنه وقد تقدّمت، ولكن نعيدها هٰهنا لإيراد الجواب قال رضي الله تعالى عنه: حججت سنة من السنين، فبينا أنا أمشي إذ وقعت في بئر، فنازعتني نفسي أن أستغيث، فقلت: والله لا أستغيث بأحد، فما استتمّ هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال نسدّ رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطمسوا رأس البئر، فهمَمْتُ أن أصيح ثم قلت في نفسي: إلى مَن هو أقرب منهما وسكت، فبينما أنا بعد ساعة إذا بشيء جاء فكشف عن رأس البئر، وأدلى رِجلَيه وكأنه يقول: تعلّق بي في همهمة منه كنت أعرف منه ذلك، فتعلّقت به فأخرجني فإذا هو سبع، فمرّ وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن، نجّيناك من التّلف بالتّلف، فمشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى ... فأغنيتني بالفهم منك عن الكشفِ
تلطّفت في أمري فأبديت شاهدي ... إلى غائبي واللطف يدرَكُ باللطفِ
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما ... تبشّرني بالغيب أنك في الكفِّ
أراكَ وبي من عيبتي لك وحشة ... فتؤنسني باللطف منك وبالعطفِ
وتحيي مُحِبًا أنت في الحبّ حتفه ... وذا عجب كون الحياة مع الحتفِ

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ = ١١١٤ ـ ١٢٠١ م) أبو الفرج، علاّمة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف، مولده ووفاته في بغداد ونسبته إلى «مشرعة الجوز» من محالها. له نحو ثلاث مئة مصنّف منها «روح الأرواح» و«المدهش» و«المقيم المقعد» و«الناسخ والمنسوخ» و«تلبيس إبليس» و«لقط المنافع» و«الذهب المسبوك في سِيَر الملوك» وغير ذلك. الأعلام ٣/٣١٦ ـ ٣١٧؛ ووفيات الأعيان ١/٢٧٩؛ والبداية والنهاية ١٣/٢٨؛ ومفتاح السعادة ١/٢٠٧.

Marfat.com

قلت: وما أنكره المذكور رحمه الله تعالى في هذه الحكاية وأن هذا الذي فعله أبو حمزة لا يجوز ليس بصحيح، لأن أبا حمزة المذكور صدر منه هذا وقد منح يقينًا كاملاً وقلبًا شاهدًا وحالاً عاليًا، وحياءً زاجرًا له وحاجزًا عليه أن يلتفت إلى غير مولاه أو يرى معه سواه، كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إنّا لا نرى مع الحقّ أحدًا، إن كان ولا بدّ فكالهباء في الهواء إن فتشته لم تجده شيئًا. قلت: ولو حصل للمنكر عليهم بعض ما حصل لهم ما أنكر عليهم، والعجب من المنكر المذكور في إنكار مثل هذا مع أنه يعتقد القوم ويطرز كلامه بكلامهم وحكاياتهم وكراماتهم، وكيف ينكر مثل هذه الحكاية على مَن صار فانيًا عمّا سوى الحقّ صاحب قلب مشاهد، لا يرى في المُلْك والملكوت إلا مَن هو أقرب إليه من نفسين، كاشف الضرّ الإلـٰه الواحد، والعجب كل العجب أن هذا الذي أنكره له شاهد في الشرع أي شاهد، وذلك ما جاء أن إبراهيم الخليل عليه السلام لمّا أُلقِيَ في النار عرض له جبريل عليه السلام في الهواء بأمر الله تعالى له ألكَ حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، قال: فاسأل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، وقال: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل، فهل كان هذا من إبراهيم عليه السلام إلا كمال يقين ومقام رفيع مكين. وأيضًا فقد ذكر العلماء رضي الله تعالى عنهم أن الناس في التوكّل على ثلاثة أقسام: القسم الأول قوم سلّموا نفوسهم لله فلم يجلبوا لها نفعًا ولا دفعوا عنها من الضرّ دفعًا، وطردوا ذلك في كل شيء من الضرورات وغيرها، فلم يتحفّظوا من عدوّ ولا سبع، ولا تسبّبوا لنفوسهم بسبب من الأسباب حتى كان بعضهم يمرّ بالشجرة فتلزم ثوبه بشوكها، فلا يتسبّب في تخليص الثوب حتى تهبّ الريح فتخلّصه. وقد قال قطب المقامات اليقين، وحجّة الله على العارفين أبو محمد سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: أول مقام في التوكّل أن يكون العبد بين يدي الله سبحانه كالميت بين يدي الغاسل، يقلّبه كيف شاء، لا يكون له حركة ولا تدبير. القسم الثاني من الأقسام الثلاثة: قوم تسبّبوا في الضرورات دون غيرها جلبًا ودفعًا، ضرًا ونفعًا، وهذه الطريقة عليها الجمهور من الأنبياء والأولياء؛ ومن هذا القبيل ما احتجّ به المنكر من احتراز النبي ﷺ من الأعداء الكفّار في هجرته، واختبائه في غار ثور وغير ذلك، فهذه طريقة جمهور الأنبياء عليهم السلام كما ذكرنا، فليس في ذلك للمنكر حجة، لأن بعض الأولياء لا يحترزون ولا يتسبّبون لنفوسهم في شيء أصلاً كما قدّمنا، وقد تصدر منهم أشياء في حال من أحوال غالبة عليهم تسلبهم الاختيار، فلا يُقاسوا بغيرهم ولا نقول إن تارك التسبّب في الضرورات أفضل من المتسبّب فيها من الأولياء، بل قد يكون الأمر بالعكس، ولم يكن النبيّ ﷺ محترزًا في كل شيء، بل قد كان يواجه بعض المخاوف وحده

Marfat.com

كيوم حُنين[١] وغيره، وكذلك أصحابه رضي الله تعالى عنهم، وكذلك كثير في الأحاديث التي يطول ذكرها. وأما قوّة أحوال بعض الأولياء وما أُعطوا من اليقين والكرامات فكلها مستمدّة من فيض فضله ﷺ، ومنسوبة إليه، وقد كان ﷺ مشرّعًا يسلك الطريق السهلة التي يقوى على سلوكها العامّ والخاص، ولو سلك مقدّم الركب والقوافل طريقًا وعرة يقوى هو على سلوكها دون كثير منهم لم يكن بهم رؤوفًا رحيمًا، ولكنه ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨] جزاه الله ع أفضل الجزاء؛ وقد يسلك بعض الأقوياء من القوافل بعض الطرق الوعرة لمصلحة ولا يمنعه المقدم. القسم الثالث من الأقسام الثلاثة في التوكل: قوم دخلوا في الأسباب كلها في الضرورات وغيرها، لكن مع اعتمادهم على المسبّب دون السبب. ومما أنكر المنكر المذكور ما حُكِيَ عن بعضهم، ويقال إنه إبراهيم الخوّاص رضي الله تعالى عنه، وذلك أنه كان لا يقيم في بلد إلا أيامًا معدودة خوف الشّهرة؛ فلما دخل بعض البلاد اشتهر فيها، فأراد أن يُزيل عنه الشّهرة وما يترتب عليها من الضّرر؛ فدخل الحمام فوجد ثياب ابن الملك قد نزعها ووضعها عند الحمامي ثم غفل الحمامي عنها فلبسها الخوّاص ولبس من فوقها ثيابه وخرج يمشي رويدًا حتى يلحقوه وينسبوه إلى اللصوصية وتزول عنه شُهرة الصلاح، فلحقوه وأخذوا منه الثياب وضربوه وسمّوه في ذلك البلد لصّ الحمام، فقال لنفسه: هٰهنا طاب المقام، فزعم المنكر أن هذا الفعل لا يجوز في الشرع لأنه عرّض نفسه للتّهمة والعقوبة وفعل فعلاً محرّمًا من وجوه كثيرة. والجواب عن ذلك: ما أجاب به بعض الفقراء لمّا سأله بعض الفقهاء عن هذه الحكاية بعينها وقال له: أُريد أن تقيم على جوازها ليلاً ظاهرًا من ظاهر الفقه، ولا أقبل ما يذكره الفقراء، فقال له الفقير المذكور: ما طلبت من الدليل حاصل مشهور، قال: وما هو؟ قال: أليس يجوز في ظاهر الفقه استعمال بعض المحرّمات عند بعض الضرورات، كاستعمال النجاسات في المداواة؟ قال الفقيه: بلى يجوز ذلك، فقال الفقير: فكذلك في هذه المسألة، داوى قلبه بهذا المحرّم، فاعترف الفقيه وقال: هذا الجواب هو الفقه بعينه. قلت: وها أنا أزيد هذا الجواب بعض بيان، وهو أن يُقال: إذا جاز أن تُداوَى الأجسام من الأسقام بشيء حرام، فلأن يجوز أن تُداوَى القلوب التي هي محلّ المعرفة والنور بشيء محظور أولى وأبعد من المحذور، وشتّان ما بين المرضين؛ فمرض الأجسام نعمة وحسنات، ومرض القلوب نقمة وهلكات، وأين هلاك الأبدان من هلاك الأديان، ففي هلاك الأديان سخط الملك الدّيّان والبغض من الرحمٰن والقُرب من الشيطان، وليس كذلك هلاك الأبدان فظهر أن مداواة القلب من مرض ضرر الشّهرة وغيرها أولى وأجرى؛ ثم الأمراض إنما تُداوَى

---

(١) حُنين: وادٍ بين مكة والطائف، سُمّيت الغزوة به.

بأضداد عللها، فالحرارات تُداوَى بالبوارد بالحرارة، فكذلك مرض شهرة الصلاح داواه الخوّاص بدواء شُهرة الطلاح، وهذا واضح لا يحتاج إلى زيادة إيضاح، وقد نبّه النبيّ المكرّم على شرف القلب بقوله ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1] أخرجاه في الصحيحين. ومن ذلك حكاية الشبلي رضي الله تعالى عنه وقد تقدّمت في أثناء الكتاب ولكن نُعيدها لإيراد الجواب، قال الشيخ أبو بكر الشبلي رضي الله تعالى عنه: قال لي خاطري يومًا: أنت بخيل؟ فقلت: ما أنا بخيل. فقال: بلى أنت بخيل، فقلت: ما أنا بخيل، فقال: بلى أنت بخيل، فنويت أن أول شيء يفتح عليّ أعطيه أول فقير ألقاه، فما تمّ هذا الخاطر حتى دخل عليّ فلان سماه، بخمسين دينارًا فأخذتها وخرجت فأول مَن لقيت فقيرًا ضريرًا، أو قال: أكمَه بين يدي مزيّن يحلق شعره، فناولته ذلك، فقال: أعطه المزيّن، فقلت: إنها دنانير، فرفع رأسه إليّ وقال: ما قلنا لك إنك بخيل، فناولتها المزيّن فقال: منذ قعد الفقير بين يديّ عقدت مع الله تعالى عقدًا أن لا آخذ على حلاقته شيئًا، قال: فأخذتها وذهبت بها إلى البحر ورميتها فيه وقلت: فعل الله بك وفعل، ما أحبَّكِ أحد إلا أذلّه الله، رضي الله تعالى عن الثلاثة ونفعنا بهم. قلت: فالجواب عن اعتراض المعترض وإنكار المنكر وزعمه أن هذه إضاعة مال من ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون فعل ذلك في حال ورد عليه وذو الحال الغائب غير مكلّف. والثاني: أن يكون شهد فيها سُمًا مهلكًا كل مَن صارت إليه فأتلفها كما تتلف الأفعى. والثالث: أن يكون بإشارة مؤذنة بالإذن اضطرّته إلى ذلك بحيث لم يجد عنه محيصًا، والله أعلم. ومن ذلك حكاية أحمد بن الحواري عندما أمره شيخه أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: أن يدخل في التنّور وفيه النار لما كلّمه وهو مشغول القلب وأكثر عليه من قوله: يا أستاذ قد حَمِيَ التنور، فقال: اذهب فادخل فيه وكان عاهده أنه لا يخالفه في شيء فدخله ومكث ساعة، ثم قال أبو سليمان: الحقوا أحمد. فأتوه وأخرجوه ولم يحترق منه شيء فالجواب عن هذا أنه علم بقوّة يقينه أن مراعاته للعهد المذكور وقيامه بالوفاء به يدفع عنه كل مخوف محذور، وكُسِيَ حالاً من الله تعالى هو فيه عن حرارة النار مستور. وقد رُوِيَ عن بعض العارفين أنه قال: الصادق تحت خفارة صدقه، يعني إذا ارتكب المهالك عن صدق حماه صدقه عن الهلاك، وانقلب ذلك الهلاك نجاة بإذن الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩]. ومن ذلك الحكاية التي تقدمت أيضًا، وهي أن بعضهم سافر للحج على قدم التجريد، وعاهد الله سبحانه أن لا يسأل أحدًا شيئًا، فلما كان في بعض الطريق مكث مدة لا يُفتَح عليه بشيء، فضعف عن

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ١٥٣).

Marfat.com

المشي، ثم قال: هذا حال ضرورة وقد قال الله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥] وإذا لم أسأل انقطعت عن القافلة وهلكت بسبب الضعف المؤدي إلى العجز إلى الانقطاع المؤدي إلى الهلاك، ثم عزم على السؤال، فلما همّ بذلك انبعث من باطنه خاطر ردّه عن ذلك العزم، ثم قال: أموت ولا أنقض عهدًا بيني وبين الله تعالى، فمرّت القافلة وانقطع واستقبل القبلة مضطجعًا ينتظر الموت، فبينما هو كذلك إذا بفارس قائم على رأسه معه إداوة، فسقاه وأزالَ ما به من الضرورة، وقال له: تريد القافلة؟ فقال: وأين مني القافلة؟ فقال له: قم وسار معه خطوات، ثم قال له: قف هٰهنا فالقافلة تأتيك، فوقف وإذا بالقافلة مقبلة من خلفه. قلت: والجواب عن هذه الحكاية هو ما ذكرت من الجواب عن الحكاية التي قبلها بلا فرق. وعلى الجملة ما جاء عنهم مما يخالف العلم الظاهر فله محامل؛ أحدها: أن لا نسلم نسبته إليهم حتى يصحّ عنهم. والثاني: بعد الصحة أن يلتمس له تأويل يوافق العلم الظاهر، فإن لم يوجد له تأويل، قيل لعل له تأويلاً في الباطن يعرفه علماء الباطن العارفون بالله تعالى، ويذكر عند ذلك قصة موسى مع الخضر عليهما السلام. والثالث: أن يكون صدر عنهم في حال السكر والغيبة والسكران، سكرًا مباحًا غير مكلّف في ذلك الحال، فسوء الظن بهم بعد هذه المخارج من عدم التوفيق، نعوذ بالله تعالى من الخذلان وسوء القضاء ومن جميع أنواع البلاء. وبعد هذا كله أقول: اعلموا رحمكم الله وإياي أن مَن امتلأ قلبه إيمانًا بأحوال الفقراء الصالحين منهم والصدّيقين ومحبتهم والعلم بسيرتهم، سلّم لهم ما سمع عنهم وحمل ما جاء عنهم مما لا يمكن حمله على ظاهره على محامل صحيحة، وأوله تأويلاً لائقًا بأحوالهم المليحة، ومن جملة التأويلات هذه الثلاثة المذكورة، وأما مَن لم يعرف أحوالهم ولم يشرب من مشروبهم ولم يذق من مذوقهم ولم يطّلع على علومهم وطريقهم ولم يخالطهم ولم يكمل حُسْن ظنه بهم، فإنه بلا شك إن لم يوفّق ينكر عليهم أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، ولقد أحسن القائل حيث قال:

أيقدح فيمن شرّف الله قدره ... وما زال مخصوصًا به طيب الثنا
رجال لهم سرّ مع الله صادق ... فلا أنت من ذاك القبيل ولا أنا

وأما مَن اختلف في تكفيره منهم، فمذهبي فيه التوقّف ووكول الأمر فيه إلى الله تعالى، ولا أرى بمطالعة كلامه مصلحة لا سيما لمَن ليس عنده تحقيق لقواعد الشرع ومعرفة الأصل دون الفرع، وأسأل الله الكريم التوفيق لما يحبّ ويرضى، والعفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة لي ولأحبابي والمسلمين أجمعين. وأما قول بعض المشايخ في بعض الحكايات التي ذكرتها: رأيت الغوث وهو القطب رضي الله تعالى عنه بمكة سنة خمس عشرة وثلاث مئة على عجلة من ذهب، والملائكة

Marfat.com

يجرّون العجلة في الهواء بسلاسل من ذهب، فقد تبادر فهم بعض الناس إلى إنكار هذا، وليس ذلك بمنكر، لأنه لم يفعل ذلك بنفسه، بل فعله الحقّ سبحانه وتعالى في حقه في عالم الملكوت، لا في هذا العالم الذي هو محلّ التكليف؛ فلو أن الله تعالى أذِنَ لبعض عباده أن يلبس ثوب حرير مثلاً، وعلم العبد مثلاً ذلك الإذن يقينًا فلبسه لم يكن منتهكًا للشرع. فإن قيل: من أين يحصل له علم اليقين؟ قلت: من حيث حصل للخضر عليه السلام حين قتل الغلام وهو وليّ لا النبيّ على القول الصحيح عند أهل العلم، كما أن الصحيح أيضًا عند الجمهور منهم أنه الآن حيّ وبهذا قطع الأولياء ورجّحه الفقهاء والأصوليون وأكثر المحدّثين. وممّن حكي ذلك عن جميع المذكورين الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح رضي الله تعالى عنه، ونقله عنه الشيخ الإمام محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه وقرّره. وسأل جماعة من الفقهاء الشيخ الإمام عزّ الدين بن عبد السلام رضي الله عنه قالوا له: ما تقول في الخضر عليه السلام، أحيٌّ هو؟ فقال: ما تقولون لو أخبر عنه ابن دقيق العيد، يعني الفقيه الإمام تقيّ الدين بن دقيق العيد رضي الله تعالى عنه أنه رآه بعينه أكنتم تصدّقونه أم تكذّبونه، فقالوا: بل نصدقه، فقال: قد والله أخبر عنه سبعون صدّيقًا أنهم رأوه بأعينهم كل واحد منهم أفضل من ابن دقيق العيد انتهى كلامه. قلت: وهذا هو الصحيح المختار عند المحقّقين من العلماء الموفّقين أن العارفين بالله تعالى أفضل من العلماء بأحكام الله رضي الله تعالى عنهم أجمعين وبهذا قال الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام المذكور وغيره. وقال الشيخ تقي الدين المذكور بعد أن ذكر بعض الأولياء ممّن رآه: هو عندي خير من كذا وكذا فقيهًا، وكذا أخبرني بعض الأخيار من العلماء المتمكّنين، وهو القاضي نجم الدين الطبري رحمه الله أنه جاء خبر إلى مكة أن السيد العارف بالله الإمام إسماعيل بن محمد الحضرمي رضي الله تعالى عنه توفي، قال السيد الإمام العارف بالله أحمد بن موسى بن عجيل رضي الله تعالى عنه وكان حينئذ بمكة أرجو أن يفديه الله بمئة فقيه، ثم جاء الخبر الصحيح أنه حيّ ولم يمت إلا بعد مدة طويلة. رجعنا إلى المقصود: لا شك أن مَن اعتقد الأولياء وصدّق بكراماتهم وبكلّ ما أخبروا به صدّق بأن الخضر عليه السلام حيّ، لأن الصدّيقين رضي الله تعالى عنهم لم يزالوا في كل زمان يخبرون أنهم اجتمعوا به، وذلك مشهور مستفيض عنهم ومروي عنهم في الكتب المشهورة التي رواها العلماء والثقات وقد ذكرت في هذا الكتاب أن جماعة من الشيوخ الكبار اجتمعوا به في حكايات متفرّقة حذفت أسانيدها. وقد روى بعض الشيوخ الكبار أن الشيخ الكبير العارف بالله سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه أقبل على الناس يومًا وتكلم بكلام حسن، فقيل له: لو تكلمت كلّ يوم مثل هذا كنا قد انتفعنا؟ فقال: إنما تكلمت اليوم لأنه جاءني الخضر عليه السلام، فقال لي: أقبل على الناس بوجهك وتكلم عليهم، فقد مات أخوك ذو النون، وقد أقمتك مقامه، فلولا أنه أمرني أستاذ

Marfat.com

الأستاذين ما تكلّمت عليكم. وقال الشيخ الجليل العارف بالله أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: رأيت الخضر عليه السلام في برية عيذاب، فقال لي: يا أبا الحسن أصحبك الله اللطف الجميل وكان لك صاحبًا في الإقامة والرحيل. قلت: وأخبرني بعض شيوخ اليمن أنه يأتيه الخضر عند الشدائد بالفرج. وقد ذكر المشايخ من ذلك ما يتعذّر حصره، منهم الشيخ الكبير العارف بالله أبو عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه، وخلائق لا يحصون، وليس في الحديث الذي تعلّق به بعض المحدّثين في الاحتجاج على موت الخضر عليه السلام حجّة لأنه متأوّل عند الجمهور من العلماء المحقّقين رضي الله تعالى عنهم، وتطويل الكلام والإطناب يُخرِجنا عن مقصود الكتاب. وأما قوله في الحكاية المذكورة واسمه أحمد بن عبد الله البلخي أعني القطب الذي رآه على عجلة من ذهب، فهذا الاسم والنسب المذكوران في ذلك الزمان خاصّة، لأن من المعلوم أن مقام القطبية لا يزال ينتقل من واحد إلى واحد، وقد تقدّم ذكر ذلك في مقدمة هذا الكتاب، وسمعت الشيخ الجليل العارف بالله نجم الدين الأصفهاني رضي الله عنه خلف مقام إبراهيم الخليل عليه السلام يذكر أن الخضر عليه السلام يسأل الله عزّ وجلّ أن يقبضه إليه عندما يرفع القرآن. قلت: والظاهر والله أعلم أن القطب والأولياء الموجودين في ذلك الوقت يطلبون الموت أيضًا حينئذ، إذ ليس بعد رفع القرآن تطلب الحياة لأهل الخير. وأما ما قدّمت في بعض الحكايات عن الخضر عليه السلام في الأولياء المعدودين أنهم لا يزالون يبدلون واحدًا بعد واحد إلى يوم يُنفَخ في الصور، فالمراد إلى قريب يوم يُنفَخ في الصور، لأن الساعة لا تقوم على مَن يقول: لا إلٰه إلا الله كما جاء في الحديث، وكما جاء أن أهل القرآن والعلم يموتون ولا يُنزَع منهم القرآن والعلم انتزاعًا. وأما الحديث الوارد في الذين اخبر النبي ﷺ أنهم لا يزالون على الحقّ ظاهرين حتى تقوم الساعة، فلا بدّ من تأويله جمعًا بين الأحاديث، فيحتمل أن يكون معناه إلى قريب قيام الساعة، هكذا أوّله العلماء. وأما ما ذكرت في حكاية الشيخ عليّ الكردي رضي الله تعالى عنه أن كثيرًا منهم جمعوا في التستّر بين الوَلَه والتجريد يوهمون الناس أنهم لا يصلّون ولا يصومون ويكشفون عوراتهم حتى يُساء الظنّ بهم، ولا يُنسَبون إلى الصلاح، وهم يصلّون ويصومون في الباطن، فيما بينهم وبين الله تعالى، وقد شوهد كثير منهم يصلّون في الخلوات ولا يصلّون بين الناس، فذلك صحيح، وهؤلاء لهم مذهب معروف يُظهِرون المساوىء ويُخفون المحاسن، ولا يبالي أحدهم بكونه بين الخلق زنديقًا إذا كان عند الله صدّيقًا، لأنهم لم يزالوا يبالغون في نفي رؤية المخلوقين وإسقاطهم من قلوبهم وعدم الاحتفال بمدحهم غير ذمّهم استجلابًا بالكمال والإخلاص، واستبراء للنفوس من شوائب الشرك الخفي الذي لا يَسلَم منه إلا الخواصّ ومنهم آخرون يصلّون بين الناس ولا يرون في

الصلاة، بل يحتجبون عن الناس بأحوالهم ولهم أطوار وراء العقل، لا تُدرَك بالعقول وإنما تُدرَك بالنور، ويعرفها العارفون. وقد سمعت من بعض أهل العلم الظاهر أن بعض الفقهاء كان ينكر على بعضهم بعض الأشياء المعقولات، فقال له: يا فقيه إن هناك أشياء وراء العقل، فانظر أين تراني الآن؟ فنظر إليه فإذا هو في الهواء وإذا هو مكانه أيضًا، وكذلك أخبرني بعض أهل العلم أيضًا أن بعضهم كان لا يرى يصلي، فلما كان بعض الأيام أُقيمت الصلاة وهو قاعد، فقال له بعض الفقهاء: قم صلِّ مع الجماعة منكرًا عليه، فقام وأحرم معهم وصلّى الركعة الأولى، والفقيه والمنكر بجنبه ينظر إليه، فلما قاموا إلى الركعة الثانية نظر الفقيه إليه فرأى غيره يصلي مكانه، فتعجّب من ذلك، وفي الركعة الثالثة رأى ثالثًا غير الاثنين الأولين فازداد تعجّبًا، وفي الرابعة رأى رابعًا غير الثلاثة، فاشتدّ عجبه، فلما سلّموا التفت، فرأى صاحبه الأول الذي أنكر عليه جالسًا في مكانه وليس عنده أحد من الثلاثة، فتحيّر مما رأى، فنظر إليه الفقير المولَه ثم ضحك وقال: يا فقيه أيّ الأربعة صلّى معكم هذه الصلاة؟ انتهى كلامه.
فقلت: ومثل هذه القصة سمعت أنها صدرت من قضيب البان رضي الله تعالى عنه مع بعض الفقهاء، ومن ذلك ما بلغني أن الشيخ المعظّم الكبير الشأن المعروف بمفرج من الصعيد رضي الله تعالى عنه، رآه بعض أصحابه يوم عرفة بعرفة، ورآه آخر من أصحابه في مكانه لم يفارقه في جميع ذلك اليوم، فذكر كلّ واحد منهما ذلك لصاحبه، ثم تنازعا وحلف كل واحد منهما بالطلاق من زوجته أنه كما ذكر، فاختصما إلى الشيخ، وذكر كلٌّ منهما يمينه. فأقرّهما على حالتهما وأبقى كل واحد على زوجته قال الشيخ صفيّ الدين بن أبي المنصور رضي الله تعالى عنه فسألت الشيخ مفرجًا رضي الله تعالى عنه عن حكمه في هذه القضية بعدم حنث الاثنين مع كون صدق أحدهما يوجب حنث الآخر، وكان معنا في وقت سؤالي له جماعة فيهم رجال معتبرون، لهم معرفة بالعلم، فقال لنا الشيخ قولوا: يعني تكلموا في هذه المسألة، وكان ذلك إذنًا منه لنا بأن نتحدّث في سرّ هذا الحكم، فتحدّث كل واحد منهم بوجه غير كافٍ وكانت المسألة قد اتّضحت لي، فأشار إليّ الشيخ بإيضاحها، فقلت: الوليّ إذا تحقّق في ولايته وتمكّن من التصرّف في روحانيته، يُعطَى من القدرة في التصوّر في صور عديدة في وقت واحد في جهات متعددة على حكم إرادته؛ فالصورة التي ظهرت لمَن رآها بعَرَفَة حقّ، والصورة التي رآها في مكانه في ذلك الوقت حقّ فكل واحد منهما صادق في يمينه، فقال الشيخ مفرج رحمه الله تعالى: هذا هو الصحيح، يشير إلى صحة ما أوضحته في ثورة ما حكم به بين المتنازعين في أمره، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. قلت: هذا الجواب يوضح ما يشكل من مثل هذا كما في قضية الأربعة الذين صلّوا صلاة واحدة، كل واحد منهم ركعة، وقضية الواحد الذي رآه الفقيه في الهواء وفي الأرض في وقت

Marfat.com

واحد، وقضية الشخص الذي كان يتكلم من صورة سهل بن عبد الله ويحسب الحاضرون أنه سهل، وكان سهل في ذلك الوقت في منزله، وقد تقدّمت حكايته رضي الله تعالى عنه، وغير ذلك مما يشكل على غير العارفين بالله تعالى؛ فأما العارفون بالله تعالى فلا يشكل عليهم ولا يمنعهم ما رأوا من التجريب من حُسْن الاعتقاد في المجرّبين كما تقدم من زيارة الشيخ الإمام أستاذ الأنام شيخ شيوخ الإسلام إمام الطريقة، الجامع بين الشريعة والحقيقة علمًا وعملاً ومقامًا وحالاً وسلوكًا وذوقًا وكشفًا وتحققًا، مولانا شهاب الدين السهروردي للشيخ علي الكردي رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما، ومجيئه إليه وتطفّله عليه، مع كبر جلالته وعلوّ منزلته وكونه وحيد دهره وفريد عصره، ولم يصدّه عنه ما قابله به من كشف عورته، وما نسب إليه من ترك الصلاة وغير ذلك لما عُرِفَ فيه من الولاية التي سبقت بها العناية. فانظر رحمك الله وإياي إلى حُسْن اعتقاد هذا السيد وتواضعه، ومحاسن آدابه، ومسارعته إلى زيارته مع كون القادم الذي حقه أن يُزار لا يزور، رضي الله تعالى عن الزائر والمزور. وانظر إلى كثير من الناس كيف يطعنون في مثل هذا الشيخ عليّ المذكور، وينسبونه إلى الزندقة والفجور، إلا الموفقين فإنهم يعتقدونه، وإن لم يعرفوه كما يعرفه العارفون بالله تعالى. ولقد سمعت بعض الفقهاء الكبار في بلاد اليمن وقد ذكر إنسانًا من المجرّبين والمُولَّهين المشهورين في عدن، وهو الشيخ ريحان وقد تقدّم ذكره في هذا الكتاب، وذكرت بعض كراماته رضي الله تعالى عنه قال: رأيته يفعل بعض الأشياء المنكرة في ظاهر الشرع جهارًا، فقلت في نفسي: انظر إلى هذا الفاعل التارك الذي يقال إنه صالح كيف يُقْدِم على هذه المنكرات المحرَّمات، فلما كان الليل احترق بيتي بالنار، انتهى كلامه. قلت: وأهل التولّه والتجريب كثير لا ينحصر عددهم ولا تُحصَى كراماتهم ومجدهم، ولكن قد يتشبّه بهم مَن ليس منهم، ويدخل نفسه بالتزوير معهم مَن هو خارج عنهم، إذ لم يزل في الناس الكاذب والصادق والطائع والفاسق والصدّيق والزنديق. فإن قلت: فهذا يؤدي إلى الالتباس في اختلاف الناس في الصفات الحقيرات والنفاس، فكيف يعتقد مَن لا يدري إلى أيّ القبيلين يرجع ومَن اعتقاده للنفع ينجع؟ فما الجواب في ذلك؟ قلت: الجواب فيما ظهر لي والله سبحانه وتعالى أعلم مبسوطًا ومختصرًا، فأما المبسوط فأقول: اعلم وفّقك الله وإياي لأحمد الطريقين، وجعلنا جميعًا من خير الطريقين الذي قال فيهم العليم الخبير ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ [النور: ٧] أن حُسْن الظنّ بالمسلمين فضلاً عن الصالحين، باب كبير من أبواب الخير والنفع في الجلب والدفع، أعني جلب المحبوبات المحمودات، ودفع المكروهات المذمومات في الحياة والممات، وذلك مشهور معروف عند كل مَن هو بالخير موصوف، ولكن لا يمكننا أن نطلق القول باعتقاد كل أحد، بل لا بدّ من التفصيل لما تقدّم من وقوع الالتباس، ثم التفصيل في ذلك فيه صعوبة

Marfat.com

وغموض، إذ لا يطّلع على بواطن الخلق إلا الحق سبحانه وتعالى أو مَن أطلعه على ذلك ولكني أقول في ذلك بحسب ما ظهر لي وانشرح للقول به صدري راغبًا إلى الله تعالى بالتوفيق والصواب ومستعينًا به ومفوِّضًا إليه أمري وراجعًا في ذلك إليه، ومعتمدًا فيما أقصد إليه، ومتبرّئًا من الحول والقوّة إلا به في كل واضح ومشتبه، وهو حسبي ونِعْمَ الوكيل، فأقول وبالله التوفيق: الناس على قسمين: معتقِد ـ بكسر القاف ـ ومعتقَد بفتحها. والقسم الأول على قسمين أيضًا: ناظر بنور الله تعالى وغير ناظر به، والقسم الثاني من التقسيم الأول على قسمين أيضًا: مرتكب منكر في ظاهر الشرع مُصِرٌّ عليه عالم به، وغير مرتكب لذلك. القسم الأول من التقسيم الأول المعتقد الناظر بنور الله عزّ وجلّ، فهذا القسم حاكم غير محكوم عليه في اعتقاده، لأنه عارف بمَن يعتقد وبمَن لا يعتقد، كما عرفه الله تعالى بمنّه وفضله وكرمه. والقسم الثاني منه المعتقد من غير نور ينظر به كأمثالنا، نسأل الله الكريم أن يتكرّم علينا بجاه الكرام عنده؛ والكلام في هذا القسم يختلف حكمه باختلاف القسم الثاني، وهو المعتقَد بفتح القاف، فالقسم الثاني منه وهو غير المرتكب للمنكر المذكور يحسن الظنّ به مطلقًا. والقسم الأول منه وهو المرتكب المذكور على ثلاثة أقسام: الأول منها: مَن يعتقده العارفون المعرفون بالنور والعلم الباطن، فهذا يعتقده مثلهم، والثاني منها: مَن لا يعتقده المذكورون، فهذا لا نعتقده لوجهين: أحدهما ارتكابه للمنكر والآخر لموافقة العارفين المذكورين في عدم اعتقاده. والثالث من الأقسام الثلاثة: مَن لا نعلم هل يعتقدونه أم لا؟ فهذا على قسمين: الأول منهما: مَن لم يظهر منه شيء من خوارق العادة، فهذا نسيء الظن به لإصراره على المنكر المذكور مع عدم معارضته كرامته. واعتقاده المذكورين. أو الثاني منهما: مَن ظهر منه شيء من ذلك، فهذا على ثلاثة أقسام: الأول منها: مَن يكون معروفًا بالديانة والطاعة والعبادة معرفة موجبة لظنٍّ مؤكد مستند إلى طول خلطة أو غير ذلك من الأسباب الموجبة للظنّ القويّ، فهذا نعتقده لاجتماع الكرامة والدين ونقول ما نسب إليه من المنكر المذكور يحتمل أن يكون له مخرج عنه بأمر باطن خفيّ علينا كما كان للخضر عليه السلام مع موسى ﷺ. والقسم الثاني من الثلاثة: مَن يكون معروفًا بالفسق أو السحر أو الكهانة[1]، فهذا نسيء الظنّ به ونقدح فيه وننكر عليه لانتفاء الدين والكرامة جميعًا عنه، لأن هذا الذي أظهره ليس بكرامة بل سحر وكهانة يظهران على يد كل وليّ للشيطان، نعوذ بالله منه؛ والكرامة تظهر على يد كل وليّ للرحمٰن تبارك وتعالى، وليس الساحر والكاهن من الدين في شيء، وقد يكون بعض السحر كفر؛ وكذا المنجم الذي يعتقد أن النجوم مؤثرة بذاتها والطبيب المعتقد أن الطبائع مؤثّرة بذاتها كافران نسأل الله الكريم العافية في الدين

(١) الكهانة: مطالعة الغيب، وكشف حجبه، والإخبار بالحوادث المستقبلة والماضية.

Marfat.com

والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين آمين والقسم الثالث من الأقسام الثلاثة مَن يكون مجهول الحال فيما ذكرناه من الديانة مع ظهور الخارق والمنكر المذكورين منه، فهذا نتوقف فيه ونمعن النظر ونختبره ونجرّبه ونبحث معه وعنه في الأقوال والأفعال والأعمال والأحوال، لأجل تعارض فضيلة ورذيلة، أعني الخارق المحتمل للكرامة والمنكر المقتضي الملامة. ونلزم معه الأدب في البحث والاختبار والمجالسة، فإن ظهر لنا ما يقتضي إلحاقه بحكم أحد القسمين اللذين قبله ألحقناه بحكمه، وعاملناه بمقتضاه، وإن لم يظهر لنا شيء منه نظرنا في المنكر الذي هو ملابسه. وهو على قسمين: فاحش وغير فاحش: فإن كان فاحشًا تباعدنا عنه إلى أن يظهر لنا ما يقتضي القرب منه لأنّا على يقين من المنكر في الظاهر، والكرامة نشكّ فيها في الظاهر والباطن، وإن كان غير فاحش قربنا منه إلى أن يظهر لنا ما يقتضي البُعد عنه، لأن الكرامة محتملة، وتحسين الظنّ بالمسلمين مندوب إليه، وأما المنكر اليسير فلا يكاد يسلم منه إلا القليل، ووجود الطيب الخالص عزيز جدًّا، وفي مثل هذا قال القائل:

مَن لك بالمحض وليس محض يخبث بعض ويطيب بعض

فهذه عشرة أقسام ثابتة بعد إسقاط ما تكرر منها. وقد بقي قسم آخر، وهو كلّ مجهول الحال ظهر منه خارق للعادة من غير ظهور منكر منه، فهذا نحسِن الظنّ به ما لم يظهر لنا ما يقدح فيه، وهذا المذكور كله الخارق للعادة هو إذا حصر مع عدم التحدّي والدعوى على ما تقدّم في فصل كرامات الأولياء من الشرط والتفصيل والاستثناء. وكل مَن تعارض فيه موجبًا مدح وقدح وتساوي الموجبان ولم يترجح أحدهما وشككنا فيه وخفِي علينا حاله توقفنا فيه ولم نحكم فيه بصلاح ولا طلاح ولا مدح ولا قدح ولا اعتقاد ولا انتقاد، بل نَكِلُ أمره إلى العليم الخبير الذي ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] هذا ما ظهر لي مِنَ الجواب، والله أعلم بالصواب. وأما المختصر من الجواب وإيجاز البسط والإطناب في هذه التقسيمات والأقسام المذكورات، فهو أن نقول: الناس على ثلاثة أقسام: قسم نعتقده، وقسم لا نعتقده، وقسم نتوقف فيه. فالقسم الأول: نعتقده بأحد ثلاثة أشياء: الأول أن يعتقده أهل الباطن على أيّ صفة كان. والثاني أن لا يصرّ على منكر ظاهر. والثالث أن تجتمع فيه الديانة والكرامة بشرطهما مع الإصرار على بعض المنكرات في الظاهر. والقسم الثاني لا نعتقده باجتماع ثلاثة أشياء: الأول إصراره على منكر في ظاهر الشرع عالمًا به. والثاني عدم ظهور خارق للعادة فيه، والثالث عدم علمنا باعتقاد أهل العلم الباطن فيه. والقسم الثالث نتوقف فيه باجتماع ثلاثة أشياء: الأول ظهور الخارق للعادة منه، والثاني جهلنا بحاله، والثالث إصراره على المنكر المذكور مع علمه به ونبحث معه عنه فإن ظهر لنا ما يقتضي صلاحًا

Marfat.com

أو طلاحًا عاملناه بمقتضاه وإلا فإن كان المنكر فاحشًا جانبناه وإن لم يكن فاحشًا خالطناه، والله أعلم. فهذا مختصر الأول في نحو من سبع كلامه مع استيعاب جميع أحكامه، وهذا الذي ذكرته في المجهول الحال أنه إذا لم يظهر لنا حاله أنّا نجانبه أو نخالطه على حسب فحش المنكر وعدم فحشه قلته على جهة الاحتياط، وإلا فليس يخفى الوليّ الصديق الصادق من الساحر الزنديق والكاهن الفاسق، بل يعرف هذا من هذا بأدنى مخالطة بل بمجرد رؤيته، فليس سيما المقرّبين والأبرار كسيما الزنادقة والفجّار، وهذا يُعرَف بالرؤية، وليس الآداب كالآداب، ولا البركات كالبركات، ولا السكون كالسكون، ولا الحركات كالحركات، وهذا يُعرَف بالمخالطة، فلو لبس الخبيث بكل ممكن بالظاهر، فلا بدّ أن يرشح من باطنه ما يميز بين رشح نتنه الخبيث وبين رشح طيب الطيب الفاخر، فذاك يفوح من باطنه نتن الفجور ويحرق جليسه كنافخ الكير بالنار، وهذا يفوح من باطنه مسك الطاعة ويجد جليسه من ريحه كحامل المسك العطار. مفرد:

يكون أجاجًا دونكم فإذا انتهى ... إليكم تلقى طيبكم فيطيب

ولو أن الشوهاء كل عالٍ وغالٍ من حليّ وحُلَل لبست لم تشبه الحسناء، وإن هي عن الحليّ والحلل تعطلت؛ أين تمويه السراب من المورد العذب الشراب، وأين ظاهر القشر من باطن اللباب، كل ذلك يُعرَف ببديهة العقول، وفي هذا المعنى أقول:

لعمرك ما شوّها بحليّ تزينت ... كحسنا وإن كانت عن الحليّ عاطله
إذا ما ادّعت حسنًا وتزوير حليّها ... شهود فدعوى صاحب الزّور باطله

وهذا التفصيل والتقسيم الذي ذكرته فيمن يعتقِد ويُعتَقَد بكسر القاف في الأول وفتحها في الثاني من المذكورين لا أعلم أحدًا ذكره، ولكن أظن أن كلّ موفّق يحسن الظنّ في الفقراء من الفقهاء وغيرهم من أهل الرشاد يوافقني على ما ذكرته من الاعتقاد، اللّهمّ إلا أهل مذهب معروف بالتجسيم في بعض البلاد، فإنه لا مطمع في موافقتهم، فإنهم لا يزالون يطعنون في الأولياء والصالحين من الصوفية ومن الأئمة العلماء الذين خالف صحيح اعتقادهم باطل اعتقاد الحشوية، كالحبر المعظم الذى باهى به سيدنا محمد ﷺ موسى وعيسى ابن مريم عليهما السلام يقول صلّى أفي أمتكما حبرًا هكذا فقالا عليهما السلام لا، وذلك الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى روينا ذلك بالإسناد المتصل العالي عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما، وشهد له أيضًا الصدّيقون بالصدّيقية العظمى والمقام العالي البعيد المرمى، وفيه قلت:

أبو حامد غزال غزل مدقق ... من العلم لم يغزل كذاك بمِغزَل

به المصطفى باهى لعيسى ابن مريم | له قال صدقًا خاليًا عن تقوّل
أحبر كهذا في حواريك قال: لا | وناهيك في هذا الفخار المؤمل
له في منامي قلت: آأنت حجة | لإسلامنا لي قال: ما شئت بي قل

وذكر الشيخ العارف بالله الخبير الشهير اليمني أحمد بن أبي الخير الصياد رضي الله تعالى عنه ونفع به العباد كلامًا ثابتًا عنه بالإسناد، من جملته أنه رأى في بعض الأيام وهو قاعد أن أبواب السماء مفتّحة، وإذا بعصبة من الملائكة قد نزلوا إلى الأرض ومعهم خلع خُضْر ودابّة من الدواب، فوقفوا على رأس قبر من القبور وأخرجوا شخصًا من قبره وألبسوه الخلع وأركبوه على الدابّة وصعدوا به إلى السماء، ثم لم يزالوا يصعدون به من سماء إلى سماء حتى جاوزوا السمٰوات السبع كلها، وخرق بعدها سبعين حجابًا، قال: فتعجبت من ذلك وأردت معرفة ذلك الراكب، فقيل لي: هذا الغزالي، ولا علم لي أين بلغ انتهاؤه رضي الله تعالى عنه وعن علماء المسلمين، وكالإمام الشهير الكبير الوليّ ذي السيرة الحميدة والمناقب العديدة محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وغيرهما مما لا يُحصى عددهم من العلماء المحقِّقين، والنظّار المدقّقين الصالحين الموفّقين؛ ولم يزل الطاعنون المذكورون يتربصون بعض ما يعدّونه زللاً لينتهزوه فرصة يتّخذونها ذريعة إلى بلوغ الأغراض في التفكير، وما قدروا عليه من ثلب الأعراض، ولو قدروا على عقوبة لبادروا إليها؛ لا أقدرهم الله عليها؛ حتى أنهم يأتون إلى كلام فيه نوع استعارة أو مجاز أو ضرب من المبالغة أو غير ذلك، مما يقع في الكلام الفصيح ويكسوه زيّ معنى مليح، ويعدّه أهل الفضل في العلوم فضلاً للذين لم يزالوا لمعرفة أنواع البلاغة وتحقيق العلوم أهلاً، ويجعلونه هم كفرًا وبدعة وجهلاً، ولم يزالوا حريصين على إظهار ما يعدّونه مساوىء بزعمهم وهي محاسن عند من خبرها، وباحثين عن بواطن الفقراء، مترجّين انكشاف عورة أمر الشارع بسترها، وكل من رأوه منفردًا عن الناس أو متجرّدًا عمّا عليهم من اللباس أو حافيًا أو حاسر الرأس أو غير ذلك من هيئات المشمّرين في الله الرافضين للدنيا الأكياس، قالوا: هذا خارج عن الكتاب والسُّنّة والإجماع والقياس ولم يدروا أن الطريق العليا في الكتاب الأسنى وعزائم السُّنّة الغرّاء وإجماع العقلاء وقياس الفطناء الذين فيهم تقدّم قول القائل أولاً:

إن لله عبادًا فطنا | طلّقوا الدنيا وخافوا الفِتَنا | نظروا فيها فلما عرفوا
أنها ليست لحيّ وطنا | جعلوها لجّة واتخذوا | صالح الأعمال فيها سفنا

هي رفض الدنيا والإعراض عمّا سوى الله تعالى وليس هي مجرّد الرخص وما فيه لنفوسهم هوى، كأنهم لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة

Marfat.com

والعشيّ يريدون وجهه﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية وغيرها من الآيات الكريمات الواردات في فضل الفقراء، وذمّ الدنيا والهوى، وقوله ﷺ في الأحاديث الصحيحات والشهيرات في مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه وذكراها به وتمزّقه، وفي أُوَيس بن عامر رضي الله تعالى عنه وذكر تجرّده وسيرته، وقوله ﷺ في الأول منهما: «دعاه حبّ الله ورسوله إلى ما ترون» وفي الثاني: «لو أقسم على الله لأبرّه»[١] وقوله ﷺ: «إن البذاذة من الإيمان»[١]، وقوله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام»[١]، وقوله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[١]، وقوله ﷺ: «ثم رجل يعتزل في شعب من الشّعاب يعبد ربه»[١] وقوله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[٢]، والحديث الذي فيه عيادته ﷺ مع جماعة من أصحابه رضي الله تعالى عنهم أجمعين لسعد بن عبادة[٣] رضي الله تعالى عنه وليس عليهم قمص ولا قلانس ولا نِعال ولا خِفاف، وغير ذلك من الأحاديث الواردة في التقشّف وترك الزينة وعدم التقيّد بهيئة مخصوصة، وكذلك سيرة الزهّاد من الصحابة والتابعين، وحكايات العباد من السلف الصالحين رضي الله تعالى عنهم في التجرّد وترك الدنيا، والاشتغال بالأخرى، والانعزال عن الورى، والتخلّي لذِكر المولى سبحانه وتعالى، والتغرّب عن الأهل والأحباب والأوطان، والتشتّت في السياحات في الفلوات كما قال بعضهم:

ومشتّت العزمات لا يلوي على	أهـــل ولا مـــال ولا جـيـــران
ألف السّرى حتى كأنّ رحيله	للبين رحلته إلى الأوطان

واعجبًا من قوم يطعنون في الصوفية السادات كبارهم وصغارهم، كيف عموا عن رؤية محاسنهم الزاهرة، وأنوارهم الباهرة، ومعالي فخارهم وتزينوا بثلب أغراضهم الطاهرة، ولم يقفوا على أغراضهم الظاهرة، ويصدقوا صحيحها، وصُمُّوا عن سماع

---

(١) سبق تخريج هذه الأحاديث.

(٢) أخرجه البخاري في (صحيحه ٨/ ١١٠) والترمذي في (السنن ٢٣٣٣) وابن ماجه في (السنن ٤١١٤) والبغوي في (شرح السنّة ١٤/ ٢٣١) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٣٦ ـ ٤٢٧) والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٢٧٤) والطبراني في (المعجم الكبير ١٢/ ٣٩٩، ٤١٨) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦١٢٧، ٦٢٩٩) والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٢٤٢) والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ٣٠) وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٣٣) والشجري في (أمالي ٢/ ١٩٣) وابن المبارك في (الزهد ٥) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٥/ ١٧٤) والألباني في (السلسلة الصحيحة ١١٥٧ـ ١٤٧٣؛ ٣/ ١٤٧) وأبو الخطاب البستي في (العزلة ٣٩) وأبي نعيم في (حلية الأولياء ١/ ٣١٣؛ ٣/ ٣٠١) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ٩٦؛ ١٣/ ٤٧٣) والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ١٩٤).

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٣/ ٨٥ ـ ٨٦؛ وفي تهذيب ابن عساكر ٦/ ٨٤؛ والإصابة ت ٣١٦٧.

علومهم البحار الزاخرة، ومعارفهم العوالي الفاخرة فلم يعشقوا مليحها وغير ذلك مما ذِكره يطول وفي هذا المعنى أقول:

إذا أنت لم تنظر بها حسن عزّة ... وتسمع معاني لفظها حين تنطق
أصمّ وأعمى عن سماع ورؤية ... وفي ظلمة والنور حولك مشرق
وفي ربيعها جار الخيام كغائب ... له منزل غرب وعزّة مشرق
فما قطّ تدري طعم حبّ جمالها ... ولا أنت ممّن حسن عزّة يعشق

الفصل الثاني في بيان عقيدة المشايخ العارفين الربانيين المكاشفين والعلماء المحقِّقين والأئمة المدقِّقين رضي الله تعالى عنهم أجمعين مختومًا بثلاث قصيدات وذكر شيء من الصفات المحمودات والمذمومات

روينا عن تاج العارفين بالله قطب العلوم اللدنية سيد الطائفة الصوفية الإمام الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه أنه قال: أول ما يحتاج إليه من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والمحدّث كيف كان إحداثه، فيعرف صفة الخالق حينئذ من المخلوق، وصفة القديم من المحدث، فيذلّ لدعوته، ويعترف بوجوب طاعته فإن لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمَن استوجبه. وروينا عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى قطب المقامات ومعدن الكرامات أبي محمد سهل بن عبد الله التستري رضي الله تعالى عنه أنه سُئِلَ عن ذات الله سبحانه؟ فقال: ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حدّ ولا حلول، وتراه العيون في العقبى ظاهرًا ملكه وقدرته، قد حجب الخلق عن معرفة كُنه ذاته ودلَّهم عليه بآياته؛ فالقلوب تعرفه والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية. قلت: وقول سهل هذا في نهاية الحسن والتحقيق والتدقيق لمَن تأمل ألفاظه. وروينا عن الشيخ الكبير العارف بالله لسان الحكمة ذي العلوم والأحوال والكرامات الجمّة أبي الفيض ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه أنه سُئِلَ عن التوحيد؟ فقال: أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج وصنيعه للأشياء بلا علاج، وعلّة كل شيء صنعه، ولا علّة لصنعه، وليس في السمٰوات العُلى ولا في الأرضين السفلى مدبِّر غير الله تعالى، وكل ما تصوّر في وهمك فالله تعالى بخلاف ذلك. قلت: هذا القول أيضًا جمع بين الحسن، والتحقيق العزيز، مع أنه مختصر جامع وجيز. وجاء رجل إلى ذى النون فقال ادعُ الله تعالى فقال: إن كنت قد أيّدت في علم الغيب بصدق التوحيد فكم من دعوة مُجابة قد سبقت لك وإلا فإن النداء لا ينقذ الغَرقَى. وروينا عن الشيخ الكبير الشأن ذي الكرامات والمعارف والأسرار أبي الحسين النوري رضي الله تعالى عنه أنه قال لمّا وصف القُرْب من الله تعالى: أما القرب بالذات فتعالى الملك عنه

وإنه متقدّس عن الحدود والأقطار، والنهاية والمقدار، ما اتصل به مخلوق، وما انفصل عنه حادث مسبوق، جعلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل. فقرب هو في نعته مُحال. وهو تداني الذوات. وقرب في نعته واجب، وهو قرب بالعلم والرؤية. وقرب هو جائز في وصفه يخصّ به مَن يشاء من عباده، وهو قرب الفعل باللطف. قلت: وهذا القول أيضًا بديع الحسن والتحقيق. وروينا عن الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه أنه سأله ابن شاهين عن معنى مع، فقال مع على معنيين: مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة قال الله تعالى: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه: ٤٦] ومع العامّة بالعلم والإحاطة قال الله تعالى: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ [المجادلة: ٧] الآية، فقال ابن شاهين: مثلك يصلح أن يكون دالاً للأمة على الله عزّ وجلّ. وعن الجنيد أيضًا أنه قال: متى يتصل مَن لا شبيه له ولا نظير بمَن له شبيه ونظير؟! هيهات هذا ظنّ عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم ولا إحاطة، إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان. وقال أيضًا: تفرّد الحقّ بعلم ما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون. وقال أيضًا: أشرف المجالس وأعلاها مجالس الفكر في ميدان التوحيد. وقال أيضًا: التوكّل عمل القلب والتوحيد قول القلب، وهذا هو قول أهل أصول الكلام هو المعنى القائم بالقلب من معنى الأمر والنهي والخبر والاستخبار.

وسُئِلَ الجنيد عن التوحيد فقال: يقال إفراد الموحّد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١]. وروينا عن الشيخ الكبير العارف بالله أبي العباس بن عطاء رضي الله تعالى عنه أنه قال: لمّا خلق الله الأحرف جعلها سرًا له، فلما خلق آدم عليه السلام بثّ فيه ذلك السرّ ولم يبثّ ذلك في أحد من ملائكته فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام بفنون الجريان وفنون اللغات، فجعلها صورًا لها، وهذا القول صريح من ابن عطاء رحمه الله تعالى بأن الحروف مخلوقة. وروينا عن الشيخ الكبير العارف أبي بكر الشبلي رضي الله تعالى عنه أنه قال: جلّ الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف، وهذا صريح من الشبلي بأن القديم سبحانه وتعالى لا حدّ لذاته ولا حروف لكلماته. وسُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] فقال: الرحمٰن لم يزل والعرش محدث والعرش بالرحمٰن استوى. وروينا عن الإمام الجليل ذي المناقب والمجد الأثيل سلالة النبوّة معدن الفضائل والعلوم والفتوّة جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أنه قال: مَن زعم أن الله سبحانه وتعالى في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرَكَ بالله إذ لو كان على شيء لكان محمولاً ولو كان في شيء لكان محصورًا ولو كان منْ شيء لكان مُحدَثًا تعالى الله عن ذلك. وسُئِلَ الشيخ العارف جعفر بن نصير رضي الله تعالى عنه عن

Marfat.com

الاستواء فقال: استوى علمه لكل شيء، فلا شيء أقرب إليه من شيء. وقال كثير من الأئمة الكبار العارفين أهل الأنوار والأصوليين النظار: استوى، معناه استولى، كما قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وذكروا تأويلات أُخَر يطولِ ذِكرها في معنى الاستواء. وقيل للشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه أعرشيّ أنت أم كرسيّ؟ فقال: الطينة أرضية، والنفس سماوية، والقلب عرشيّ، والروح كرسيّ، والسرّ مع الله بلا أين. قلت: وهذا القول صريح في نفي الجهة عن خالق الجهات، المتعالي عن الحركات والسكنات وسائر سِمات المخلوقات. وروينا عن الشيخ العارف الواعظ لسان الحكمة يحيىٰ بن مُعاذ الرازي رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: أخبرنا عن الله تعالى، فقال: إنه واحد، فقيل: كيف هو؟ فقال: ملك قادر، فقيل؛ أين هو؟ فقال: بالمرصاد، فقال السائل: لم أسألك عن هذا؟ فقال: ما كان غير هذا فهو صفة المخلوق، فأما صفته فما أخبرت عنه. وقال الشيخ الكبير العارف الأستاذ أبو عليّ الدقاق رضي الله تعالى عنه قيل لصوفي: أين الله؟ فقال: أسحتك الله تطلب مع العين أين. وقال محمد بن محبوب خادم الشيخ العارف أبي عثمان المغربي رضي الله تعالى عنهما قال لي أبو عثمان: يا محمد لو قال لك أحد أين معبودك إيش تقول؟ قال: كنت أقول حيث لم يزل. قال: فإن قال: فأين كان في الأزل؟ إيش تقول؟ قال: قلت أقول: هو الآن، يعني أنه كما كان ولا مكان، فهو الآن على ما عليه كان، قال: فارتضى ذلك مني ونزع قميصه وأعطانيه. وروينا عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي عثمان المذكور رضي الله تعالى عنه أنه قال: كنت أعتقد شيئًا من حديث الجهة، فلما قَدِمتُ بغداد زال ذلك عن قلبي، فكتبت إلى أصحابنا بمكة إني أسلمت جديدًا. وروينا عن الأستاذ الإمام أبي إسحٰق الإسفراييني[1] رضي الله تعالى عنه أنه قال: لمّا قَدِمتُ بغداد كنت أدرس في جامع نيسابور مسألة الروح وأشرح القول في أنها مخلوقة، وكان الشيخ أبو القاسم النصراباذي قاعدًا متباعدًا عنّا يصغي إلى كلامنا، فاجتاز بنا من بعد ذلك بأيام قلائل، فقال لمحمد الفرّاق: أشهد أني أسلمت على يد هذا الرجل، وأشار إليّ. قلت: وهذا القول من الشيخ أبي القاسم المذكور تواضع وإنصاف ورجوع إلى الحقّ واعتراف مع جلالة قدره، فإنه كان شيخ وقته، وكذلك قول الشيخ أبي

---

(١) هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد بن مهران الإسفراييني (المتوفى ٤١٨ هـ/ ١٠٢٧ م) عالم بالفقه والأصول، نشأ في أسفرايين، وقد بنيت له مدرسة عظيمة في نيسابور فدرّس فيها، من مؤلّفاته (الجامع، والرسالة) وله مناظرات مع المعتزلة. وقد درس عليه الأستاذ الشيخ أصول الدين. (الرسالة القشيرية ص ٩).

Marfat.com

عثمان السابق وكل هذا يدلّ على أنهم مطهّرون في الحظوظ النفيسة متّصفون بالصفات الزكيّة أهل الحضرة القدسيّة. وقال الشيخ الجليل العارف أبو بكر الواسطي رضي الله تعالى عنه: ما أحدث سبحانه شيئًا أكرم من الروح فهذا صريح منه بأن الروح مخلوقة. وقال الشيخ العارف الكبير الرباني أبو القاسم النصراباذي رضي الله تعالى عنه: الجنة باقية بإبقائه وذكره لك ورحمة ومحبته لك باقٍ ببقائه، فشتّان بين ما هو باقٍ بإبقائه، وما هو باقٍ ببقائه؛ وهذا القول في غاية التحقيق، فإن مذهب أهل الحقّ أن صفات ذات القديم باقية ببقائه، وأفعاله باقيات بإبقائه؛ فهو تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، مريد بإرادة، متكلّم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر، حيّ بحياة، باقٍ ببقاء، فهذه الصفات وسائر صفاته باقية ببقاء ذاته أزلاً وأبدًا؛ وأما أفعاله كالجنة والنار وغيرهما فباقيات بإبقائه لها. وخالفت المعتزلة في الصفات فقالوا: عالم بغير علم، قادر بغير قدرة، باقٍ بغير بقاء، وكذا سائر الصفات. وخالفت الفلاسفة في الأفعال الواقعة تحت القدرة فزعموا أنها قديمة، ولزم على قولهم الحكم بقِدَم العالم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. وروينا عن الشيخ العارف ذي الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف، أبي إسحٰق إبراهيم بن محمد الخوّاص رضي الله تعالى عنه أنه قال: انتهيت إلى رجل وقد صرعه الشيطان، فجعلت أؤذّن في أُذُنه، فناداني الشيطان من جوفه: دعني أقتله فإنه يقول: إن القرآن مخلوق. وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: سُئِلَ بعض العلماء عن التوحيد، فقال: هو اليقين، قال السائل: بيِّن لي ما هو؟ فقال: هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله وحده لا شريك له، فإذا عرفت ذلك فقد وحّدته. وقال الشيخ الكبير العارف الربّاني أبو عليّ الروذباري رضي الله تعالى عنه وقد سُئِلَ عن التوحيد؟ فقال: هو استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل، وإنكار التشبيه والتوحيد في كلمة واحدة كلّ ما تصوّرته الأوهام والأفكار: فالله سبحانه وتعالى بخلافه لقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] قلت: وهذه الأقوال رواها الشيخ الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه في رسالته المشهورة ما خلا ألفاظًا يسيرة رواها بعض الأئمة العارفين غيره، ثم إن هذه الأقوال تدلّ على ما ذكره الإمام القشيري المذكور، قال رضي الله تعالى عنه: اعلموا رحمكم الله تعالى أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، وصانوا عقائدهم عن البدع، ودأبوا بما وجدوا عليه السلف الصالح وأهل السُّنّة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، عرفوا ما هو حقّ القدم وتحقّقوا، بما هو نعت الموجود عن العدم، فلذلك قال سيد هذه الطائفة الجنيد رضي الله تعالى عنه: التوحيد إفراد القِدَم من الحدوث، وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد كما قال الشيخ أبو محمد الجريري رضي الله تعالى عنه: مَن لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلّت به قدم الغرور في مهواة من

Marfat.com

التلف يريد بذلك أن مَن ركن بقلبه إلى التقليد ولم يتأمل دلائل التوحيد سقط عن سُفُن النجاة ووقع في أسْر الهلاك. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: ومَن تأمل ألفاظهم وتصفّح كلامهم وجد في مجموع أقاويلهم ومتفرقاتها ما يثق بتأمّله بأن القوم لم يقصروا في التحقيق عن شأو، ولم يعرّجوا في الطلب على تقصير: قال شيوخ هذه الطريق على ما يدلّ عليه متفرّقات كلامهم ومجموعاتهم ومصنفاتهم في التوحيد، أن الحق سبحانه وتعالى موجود قديم واحد حكيم قادر عليم قاهر رحيم مُريد سميع مجيد رفيع متكلّم بصير متكبّر قدير حيّ باقي صمد، وأنه لم يلد ولم يولد، وأنه عالم بعلم، قادر بقدرة، مريد بإرادة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، حيّ بحياة، باقٍ ببقاء، وله يدان هما صفتان يخلق بهما ما يشاء على التخصيص، وله الوجه؛ وصفات ذاته مختصّة بذاته، لا يُقال هي هو، ولا هي أغيار له، بل صفات أزلية ونعوت سرمدية، وأنه إحدى الذات ليس يشبه شيئًا من المصنوعات، ولا يشبهه شيء من المخلوقات، وليس بجسم ولا بجوهر، ولا صفاته أعراض، ولا يتصور في الأوهام، ولا يتقدر في العقول، ولا له جهة ولا مكان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان، ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان، ولا تخصّه هيئة ولا قدرة، ولا تقطعه نهاية، ولا حدّ ولا يحله حادث، ولا يحمله على الفعل باعث، ولا يجوز عليه لون ولا كون، ولا ينصره مدد ولا عون، ولا يخرج عن قدرته مقدور، ولا ينفكّ عن حكمه مفطور، ولا يعزب عن علمه معلوم، ولا هو على فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم، ولا يقال له أين ولا حيث ولا كيف، ولا يستفتح له وجود فيقال متى كان، ولا ينتهي له بقاء فيقال: استوفى الأجل والزمان، ولا يقال: لِمَ فعل ما فعل إذ لا علة لأفعاله، ولا يقال ما هو إذ لا جنس له فيتميَّز بأمارة عن أشكاله، يرى لا عن مقابلة، ويرى لا عن مماثلة، ويصنع لا بمباشرة ومزاولة؛ له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويذلّ لحكمه العبيد، لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه إلا ما سبق به القضاء، ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون، وما علم أنه لا يكون مما جاز أن يكون أراد أن لا يكون، خالق أكساب العباد خيرها وشرّها، ومبدع ما في العالم من الأعيان والآثار قليلها وكثيرها، ومرسل الرّسل إلى الأُمم من غير وجوب عليه، ومتعبّد الأنام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض إليه، ومؤيد سيدنا ونبيّنا محمدًا ﷺ بالمعجزات الظاهرة والآيات الزاهرة، بما أزاح به العذر وأوضح به اليقين والذّكر، وحافظ بيضة الإسلام بعد وفاته ﷺ بخلفائه، ثم حارس الحق وناصره بما يوضحه من حجج الدين على ألسنة أوليائه عصم الملّة الحنيفة عن الاجتماع على الضلالة وحسم مادة الباطل بما نُصِبَ من الدلالة وأنجز ما وعد من نصرة الدين بقوله عزّ وجلّ: ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [التوبة: ٣٣]. قال الإمام

Marfat.com

الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: دلّت هذه المقالات على أن عقائد مشايخ الصوفية توافق أقاويل أهل الحقّ في مسائل الأصول. وقد اختصرنا على هذا المقدار خشية خروجنا عمّا أردناه من الاختصار، انتهى كلام القشيري رحمه الله تعالى.
وقال الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الخبري، بفتح الخاء المعجمة وسكون الباء الموحدة، وكسر الراء، الفارسي رضي الله تعالى عنه: أجمعت أئمة هذه الطريقة وسادات شيوخ الصوفية أُولي الحقيقة، على ما دلّت عليه متفرّقات أقوالهم ومجموعات أنفاسهم في مصنفاتهم في التوحيد، وتأسيسهم قواعد العقائد على أصحّ الأصول وأوضح السبيل المصون عن التشبيه والتمثيل، والنفي والتعطيل، بما عرفوا ما هو حقّ القدم، وتحقّقوا بما هو نعت الحادث من العدم، على أن العالم بأسره جواهره وأعراضه وأجسامه لطيفة وكثيفة حادث؛ ومعنى العالم كل موجود سوى الله عزّ وجلّ، والعالم في وجوده مفتقر إلى محدث مخصص أحدثه وخصّصه بالوجود الجائز، وأن محدثه هو الله تعالى، الذي لا إلـٰه غيره، الموصوف بالصفات الواجبة أزلاً وأبدًا، وأن صفاته على مراتب ثلاث: المرتبة الأولى: الصفات النفسية، وهو أنّ الله تعالى موجود قديم واحد قيّوم، أحد فرد قائم بنفسه، لا يشبه شيئًا، ولا يشبهه شيء. المرتبة الثانية: الصفات المعنوية، وهو أن الله تعالى حيٌّ بحياة، عالِم بعلم، قادر بقدرة، مُريد بإرادة، متكلّم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر، باقٍ ببقاء، لم يزل ولا يزال، وهذه الصفات معانٍ قديمات كالذات قائمات بذاتها إنها لله تعالى، ولا يقال فيها إنها هو ولا أغيار له، لا يشبه شيء منها شيئًا من صفات ما سواه. المرتبة الثالثة: الصفات الفعلية المستندة إلى الصفات المعنوية على حسب ما وردت في الكتب المُنزلة، وجرت بها ألسنة ذوي النبوّة عليهم الصلاة والسلام، انتهى كلام الخبري رحمه الله تعالى. وقال الشيخ الإمام المحقّق السالك الناسك العارف بالله تعالى شيخ شيوخ الإسلام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: الله لا إلـٰه إلا هو لا ضدّ له، ولا ندّ له، ولا شبيه له، ولا مثل له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا وزير له، ولا نظير له، لا تدرك كُنه عظمته الأوهام، ولا تبلغ شأو كبريائه الأفهام، ولا يعتري ذاته المقدسة التأثّر والآلام، والتغيّر والأسقام، والسِّنَة والمنام، والافتراق والالتئام، جلّ عمّا يحلّ به الوسواس، وعظم عمّا تكتنفه الحواس، وكبر عمّا يحكم به القياس، لا يصوّره خيال، ولا يُشاكِله مِثال، ولا ينوبه زوال، ولا يشوبه انتقال، لا يلحقه فكر، ولا يحضره ذِكر، قيّوم أزلي، ديموم سرمدي، لا تُحَدّ أزليّته بمتى، ولا تُقيَّد أبديته بحتى، لا يطلق عليه التعيين، ولا يتطرّق إليه التأيين، إن قلت: أين فقد سبق المكان، وإن قلت: متى فقد تقدّم الأزمان، وإن قلت: كيف فقد جاوز الأشباه، والأمثال والأقران، وإن طلبت الدليل فقد غلب الخبر العيان، وإن رُمْتَ البيان فذرّات الكائنات بيان وبرهان، أوّل آخر، ظاهر باطن، تفانت الأوائل والأواخر في

Marfat.com

أزليّته، تفرّد في أزليّته وأبديّته تفرّد في الأزل بنعت العظمة والجلالة قبل الكون والمكان، والدهر والأزمان، والحين والأوان، فالمكان جواهر وأجسام خلقها، والدهر أوقات وأزمان قدّرها، كل ذلك موسوم بالحدوث، عرفنا المكان والزمان بتعريفه إيّانا، ولو شاء كوّننا ولم نعرف زمانًا ولا مكانًا، وكوّننا في المكان، ولو شاء كوّننا ولا مكان، فعلمنا بأنّا لا نكون إلا في مكان من قضايا عقلنا، وهذه القضايا هيّأها لنا نعقل بها المعقول، ونعلم بها المعلوم، ولو شاء هيّأ لنا غير هيآتنا، فعوالم قدرته غير محصورة، وغرائب مشيئته غير منكورة، وما نحن فيه من العالم بما نحن فيه من العقل والعلم، عالم من عوالمه، ولا يستبعد قولي، ولو شاء كوّننا في غير مكان، فقد كوّن المكان لا في مكان إذ لو كان في مكان لتسلسل فلا تحصر القدرة بعقلك، إذ العقل قوّته أن يحصر الحكمة، فأما القدرة فلا يحصرها، فحدّث عن البحر ولا حرج، ومن هذا الأساس تمشّت القدرة، وثبتت الأمور الأُخروية وعَلِمَها مَن عَلِمَها، وأنكرها مَن عجز عقله عن إدراكها، فمَن يكون المكان والمكوّن فيه، والزمان والمقدّر فيه، عالمًا من عوالمه، ويسيرًا من عظيم قدره، كيف يحصره الزمان والمكان، فما أظهر في عالم الملك والشهادة، عالم الحكمة والعقل الموهوب لنا الذي نتصرّف به موكل بهذا العالم، وهذا العالم من العرش إلى الثرى مع العقل الذي فهمه وعقله وعلمه وقسمه أجسامًا وجواهر وأعراضًا عالم من عوالمه فصوّر العالم وكلّ ما حواه، وهو العالم الذي عقله العقلاء بما فيه من الأرض والسماء، والماء والنار والهواء، والعرش والكرسي، والجنّ والأنس والأفلاك والأملاك والألوان والأكوان والأجرام الاصطكاك والشمس والقمر والنجوم إلى أعمال أطباق التخوم، بالنسبة إلى العظمة الإلٰهية أقلّ وأحقر من خردلة بالنسبة إلى جميع العالم، ففرغ بالك عند ذلك من قياسك أنه سبحانه وتعالى داخل العالم أو خارج العالم، فما أحقرك وأحقر علمك، فلو فتحت عين بصيرتك استحييت من قياسك وفكرك ووهمك وخيالك، أيها المحدود المحصور لا ينتج فكرك إلا محدودًا محصورًا، وأيها المحيط به الجهات لا يحكم علمك إلا بالجهات فالجهات من جملة العالم وقد علمت نسبته إلى عظمة الله فتبارك الله ربّ العالمين، قلت: هذا الكلام من عقيدة الشيخ شهاب الدين المذكور اقتصرت على هذا القدر منها إذ استيعابها يطول، وهذه عقيدة الشيخ الجليل الإمام الحفيل شرف العارفين وإمام المعرّفين، قدوة المرادين وسرّ عباد الله المريدين، عالي المقامات وغالي الكرامات، الحسيب النسيب أبي عبد الله محمد بن أحمد القرشي الهاشمي، قدّس الله تعالى روحه ونوّر ضريحه ونفعنا والمسلمين ببركته آمين، وقد أجمع على فضلها كلّ مَن وقف عليها من أهل السُّنّة من المشايخ العارفين المحقّقين والعلماء الفاضلين المدقّقين، قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: الحمد لله الذي تقدّست عن سِمَة الحدوث ذاته، وتنزّهت عن التشبيه بالمُحدَثات صفاته، ودلّت على وجوده محدثاته، وشهدت

بوحدانيته آياته، الأول الذي لا بداية لأزليّته، الآخر الذي لا نهاية السرمدية الظاهر الذي لا شكّ فيه، الباطن الذي ليس له شبيه، الحيّ الذي لا يموت ولا يفنى القادر الذي لا يعجز ولا يعيا، المريد الذي أضلّ وهدى وأفقر وأغنى، السميع الذي يسمع السرّ وأخفى، البصير الذي يدرك دبيب النمل على الصفا، العالِم الذي لا يضلّ ولا ينسى، المتكلّم الذي لا يشبه كلامه كلام موسى، كلّم موسى بكلامه القديم المُنَزَّه عن التأخير والتقديم، لا بصوت يقرع، ولا بنداء يسمع، ولا بحروف ترجع، كل الحروف والأصوات والنداء محدثة بالنهاية والابتداء، جلّ ربنا وعلا، وتبارك وتعالى، له العظمة والكبرياء، وله القدرة والثناء، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، حياته ليس لها بداية، فالبداية بالعدم مسبوقة، قدرته ليست لها نهاية، فالنهاية بالتخصيص مخلوقة، إرادته ليست بحادثة، فالحادثة بالأضداد مطروقة، سمعه ليس بجارحة، فالجارحة مخروقة، بصره ليس بحدقة، فالحدقة مشقوقة، علمه ليس بكسبيّ، فالكسب بالتأمّل والاستدلال يعلم، ولا بضروري فالضرورة على الإرادة والإلزام تلزم كلامه، ليس بصوت فالأصوات توجد وتعدم، ولا بحروف فالحروف تؤخّر وتُقَدَّم، جلّ ربنا عن التشبيه بخلقه، وكل خلقه عاجز عن القيام بكُنْه حقه، بل هو القديم الأزليّ، والدائم الأبديّ، الذي ليس لذاته قدّ، ولا لوجهه خدّ، ولا ليده زند، ولا له قبل ولا بعد، ليس بجوهر، فالجوهر بالتحيّز معروف، ولا بعرض فالعرض باستحالة البقاء موصوف، ولا بجسم، فالجسم بالجهة محفوف، هو خالق الأجسام والنفوس، ورازق أهل الجود والبؤس، ومقدّر السعود والنحوس، ومدبّر الأفلاك والشموس، هو الله الذي لا إلٰه إلا هو الملك القدوس، على العرش استوى من غير تمكّن ولا جلوس، لا العرش له من قبل القرار، ولا التمكين من جهة الاستقرار، العرش له حدّ ومقدار والربّ لا تدركه الأبصار، العرش تكيّفه خواطر العقول وتصفه بالعرض والطول وهو مع ذلك محمول والقديم لا يحول ولا يزول العرش بنفسه هو المكان وله جوانب وأركان، وكان الله ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، ليس له تحت فيقله، ولا فوق فيظلّه، ولا جوانب فتعدله، ولا أمام فيحدّه، ولا خلف فيسنده، جلّ عن التحديد والتكييف والتقدير والتأليف والتعبير والتصوير والشبيه والنظير ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] وصلّى الله على سيدنا محمد البشير النذير السّراج المنير، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا. قلت: فجميع هذا الذي ذكرت معتقد الشيوخ العارفين الأولياء المقرّبين، أهل العلوم اللدنية والأنوار الساطعة، ومعتقد الأئمة العالمين النظّار المحقّقين، أهل الحجج القوية والبراهين القاطعة، وكِلا الفريقين لا يُحصَى عددهم ولا يُجهَل مجدهم، وقد ذكرت جماعة من الفريق الأول. وأما الفريق الثاني، فعقائدهم معروفة لا تُجهَل، وهي في مصنفاتهم مذكورة، وفضائلهم في العلم والدين مشهورة، مثل الإمام أبي

Marfat.com

الحسن الأشعري[1]، والإمام أبي إسحق الإسفراييني، والإمام أبي بكر الباقلاني[2]، والإمام أبي بكر بن فورك، والإمام أبي المعالي إمام الحرمين، والإمام حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي، والإمام فخر الدين الرازي والإمام ناصر الدين البيضاوي[3]، والإمام عزّ الدين بن عبد السلام والإمام محيي الدين النووي وغير هؤلاء العشرة الأئمة ممّن لا يُحصى من علماء الأمة من السلف والخَلَف من أهل السُّنَّة، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، لكن بعضهم تكلم في تأويل الظواهر، وبعضهم اعتقد خلاف الظواهر ولم يتكلم في التأويل وممّن حكى ذلك عنهم الإمام محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه، مع كونه من جملة المحدّثين العارفين والفقهاء الفاضلين الورعين الزاهدين الجامعين بين العلم والدين، حكاه في شرح صحيح مسلم في الحديث الذي قال فيه ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له، مَن يسألني فأُعطيه، مَن يستغفرني فأغفر له»[4] الحديث، قال محيي الدين المذكور: هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان مشهوران للعلماء، ومختصرهما أن أحدهما: وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يؤمن بأنها حقّ عل ما يليق بالله تعالى وأن ظاهرها المتعارَف في حقّنا غير مراد ولا نتكلم في تأويلها مع اعتقادنا تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق وعن الانتقال والحركات وسائر سِمات الخلق. والثاني: مذهب أكثر المتكلّمين وجماعة من السلف وهو محكي عن مالك والأوزاعي رضي الله تعالى عنهما أنها تتأوّل على ما يليق بها بحسب مواطنها فعلى هذا تأوّلوا هذا الحديث تأويلين: أحدهما تأويل الإمام مالك بن

---

(١) هو علي بن إسماعيل بن إسحق (٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ = ٨٧٤ ـ ٩٣٦ م) أبو الحسن من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري مؤسّس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين. ولد في البصرة وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم، ثم رجع وجاهر بخلافهم، وتوفي ببغداد. له من الكتب «إمامة الصدّيق» و«الرد على المجسمة» و«مقالات الإسلاميين» وغير ذلك. الأعلام ٤/٢٦٣؛ وطبقات الشافعية ٢/٢٤٥؛ وابن خلكان ١/٣٢٦؛ والبداية والنهاية ١١/١٨٧.

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ = ٩٥٠ ـ ١٠١٣ م) أبو بكر، قاضٍ، من كبار علماء الكلام انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفّي فيها. من كتبه «إعجاز القرآن» و«الإنصاف» و«مناقب الأئمة» و«المِلل والنِّحَل» و«هداية المرشدين» وغير ذلك. الأعلام ٦/١٧٦؛ ووفيات الأعيان ١/٤٨١؛ وتاريخ بغداد ٥/٣٧٩.

(٣) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي (توفي ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م) أبو سعيد أو أبو الخير، ناصر الدين البيضاوي، قاضٍ، مفسّر، علاّمة. ولد في المدينة البيضاء، ووَلِيَ قضاء شيراز مدة، وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها، من تصانيفه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» يُعرَف بتفسير البيضاوي، و«طوالع الأنوار» وغير ذلك. الأعلام ٢/١١٠؛ والبداية والنهاية ١٣/٣٠٩؛ ونزهة الجليس ٢/٨٧؛ ومفتاح السعادة ١/٤٣٦.

(٤) سبق تخريجه.

أنس وغيره معناه: ينزل رحمته تبارك وتعالى وأمره أو ملائكته، كما يقال فعل السلطان كذا إذا فعله أتباعه بأمره، والثاني: على سبيل الاستعارة ومعناه: الإقبال على الداعي بالإجابة واللطف والله أعلم، انتهى كلام الإمام محيي الدين رحمه الله تعالى. وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه: ما أسهل على العارف إرشاد الجاهل بأن يقول: إن كان المراد من النزول: إلى سماء الدنيا ليسمعنا فما سمعنا، فلا فائدة في النزول وقال أيضًا: الاستواء على العرش بطريق القهر والاستيلاء كما قال غيره من الأئمة. قال: واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ [الحديد: ٤] إذ حمل بالاتفاق على الإحاطة والعلم، وحمل قوله ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمٰن»[1] على القدرة والقهر، وحمل قوله ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله تعالى في أرضه»[1] على التشريف والإكرام، إذ لو ترك على ظاهره للزم منه المُحال، فكذلك الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكّن للزم كون المتمكّن جسمًا مُماسًا للعرش إما مثله أو أكبر أو أصغر، وذلك مُحال، وما يؤدي إلى المُحال مُحال، تعالى الله عن ذلك المقال. قلت: وهذا الذي قاله الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه، هو نحو مما قاله الإمام حجّة الإسلام شيخه الإمام المحقّق الناقد المدقّق النجيب ابن النجيب أبو المعالي إمام الحرمين رضي الله تعالى عنه حيث قال: فإن قالوا: ما الذي حملكم على تأويل الظاهر؟ قلنا: الذي حملكم على تأويل الظاهر أيضًا في قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ [الحديد: ٤]، وقوله ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمٰن»، وقوله ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله في أرضه» يعني الذي ألجأكم إلى تأويل هذه المذكورات لاستحالة ظاهرها في العقل، ألجأنا إلى تأويل غيرها لاستحالة ظاهرها أيضًا في العقل الذي به عُرِفَ الله عزّ وجلّ، وبه تعلّق التكليف إذ اعتقاد الظواهر يلزم منه التجسيم والحدوث وغير ذلك من النقص الذي هو من سِمات المخلوقين، ولا يجوز على الخالق الملك القدّوس الموصوف بالجلال والكمال الذي ليس كمثله شيء، المتعالي عن النظير والمثال. وسُئِلَ الإمام البارع أبو المعالي صاحب البرهان القاطع إمام الحرمين رضي الله تعالى عنه ببغداد: هل الباري سبحانه على العرش؟ فقال: في الجواب: خلق العرش من ذرّة، وهو بالنسبة إلى قدرته أقلّ من ذرّة، فكيف يكون مستقرّه. قلت: لقد أجادَ رضي الله تعالى عنه بهذا الجواب الوجيز البالغ المُفحِم الدامغ، فالعرش وإن كان أعظم المخلوقات فهو لا شيء في جنب عظمة الخالق عزّ وجلّ، وقال الإمام مفتي الأنام عزّ الدين بن عبد السلام رضي

---

(١) سبق تخريجهما.

Marfat.com

الله تعالى عنه في عقيدته الجليلة النفيسة الجميلة بعدما ذكر اعتقاد أهل الحقّ في مسائل الأصول واحتجّ بالمعقول والمنقول قال: هذا إجمال من اعتقاد الأشعري رحمه الله تعالى واعتقاد السلف وأهل الطريقة والحقيقة نسبته إلى التفصيل الواضح كنسبة القطرة إلى البحر الطافح.

يعرفه الباحث من خلقه وسائر الناس له منكر

غيره:

لقد ظهرت فلا تخفي على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمرا

انتهى كلامه. وقوله: أهل الطريقة والحقيقة: يعني بهم الصوفية، وعقيدته مشهورة معروفة بالفضيلة بحُسْن التصرف في العلوم ونجابة الفروسية في ميدان مبارزة الخصوم، والعقيدة القدسية للإمام حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه جمعت بين الملاحة والفصاحة والترتيب العجيب والأسلوب الغريب، والفوائد الكثيرة في الألفاظ اليسيرة والعبارة البارعة، والبراهين القاطعة، وغير ذلك من المحاسن الفائقة والمعاني الرائقة، فهاتان العقيدتان من ملاح عقائد العلماء الفاضلين وعقيدتان أُخريان من مِلاح عقائد الأولياء العارفين عقيدة الشيخ أبي عبد الله القرشي، والشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه، وجميع ما ذكرته في هذا الفصل هو معتقد أئمتنا من الأولياء والعلماء رضي الله تعالى عنهم، وهو مذهب أهل السُّنَّة من السّلف والخلف، وقد صنّف أئمتنا في ذلك مصنفات كبيرات جليلات نفيسات مبسوطات ومختصرات معروفات مشهورات أقاموا فيها الدلائل الظاهرات والبراهين القاطعات عن المعقولات والمنقولات وهذا الكتاب عن إيرادها يضيق بل كثرة الطعن والمجادلات به لا تليق إذ هو موضوع للترقيق والتشويق، ولكن إذ قد ذكرت عقائد أئمتنا رضي الله تعالى عنهم، فأنا أذكر الآن عقيدتي معهم على جهة الاختصار وحذف حجج الأصوليين النظّار، فأقول وبالله التوفيق: الذي نعتقدهُ أن أحاديث الصفات ليست على ظاهرها وأن لها تأويلات تليق بجلال الله تعالى ولا نقطع بتعيين تأويل منها، بل نَكِلُ ذلك إلى العليم الخبير، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وكذلك نعتقد ما اعتقده العارفون والعلماء العاملون أنه سبحانه وتعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواءً منزّهًا عن الحلول والاستقرار والحركة والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، لا يقال أين كان ولا كيف كان ولا متى كان ولا مكان ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان تعالى عن الجهات والأقطار والحدود والمقدار لا يحلّه شيء ولا يحلّ في شيء كل يوم هو في شأن، في أفعاله لا في ذاته وصفاته، لا تهتدي عقول العقلاء إلى إدراك معرفة كُنه ذاته المقدسة وصفاته العظمى، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا

Marfat.com

يحيطون به علمًا. وقد جمعت المسائل المعتمدة من العقائد في ثلاث من القصائد، وأودعتها الكتاب المسمّى بكتاب «الدرر» وسأذكر في الفصل الأخير من هذا الكتاب واحدة منها جامعة للعقيدة وغيرها، وبها ختمت كتاب الإرشاد، لكونها محتوية على التوحيد وصحيح الاعتقاد، وذكر الجنة والنار والوعظ وتشويق الزّهّاد والعباد، وأُقدِّم عليها في هذا الفصل القصيدتين المُسَمَّاتين: مفاخر الفريقين هداة الطريقين الصوفية العارفين والعلماء العاملين، والقصيدة المسمّاة معالي المسالك في مدح المجذوب والسالك.

القصيدة الأولى: المُسَمَّاة راح الإسكار في اجتلاء عرائس الأنوار، من بيض المعارف الأبكار الغانيات للنظّار من خلف الأستار، الكاشفات الخمار للأولياء الأخيار رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين:

ملوك البرايا ليس يشقى جليسهم ... لهم بيض رايات العُلا في المواقف
حَبوا وحَظوا خصّوا اصطفوا ثم قربوا ... وولّوا علوا من فوق كل الطوائف
كما جاهدوا للنفس في معرك الهوى ... وجادوا بها مهرًا لبيض المعارف
أُنيلوا المنى صافي الهنا عنده ما اجتلى ... بسمر القنا بيض العُلا كلّ عارف
عرائس أنوار بَدَا من بهائها ... لمَن يجتليها كالبروق الخواطف
شُموس بَدَت من مشرق الحُسْن والبَها ... بنور جمالٍ للمُحِبِّين شاغف
محاسنها خلف الستور فواتن ... فكيف بها عند اجتلاء لكاشف
شموس الهدى في حضرة القدس تجتلي ... شموس إليها إشراق أكفى شرائف
سكارى ولم يُسقوا مدامًا وإنما ... سُقوا حبّ حُسْنٍ جلّ عن واصف واصف
تراهم غدًا بالحبّ سكرى وغيرهم ... سكارى بأهوال عِظام المخاوف
فسكر عقار الهول يرحل بعدما ... يشيب به الولدان من كل راجف
وسكر مدام الحبّ دام مقامه ... بربع ندامى الرّاحِ من كل راشف
جمال حميا حبها مَن يشمّها ... تميل به قبل ارتشاف المعارف
فهم بين مشتاقٍ وباكٍ وضاحك ... سرورًا وصراخ وراجٍ وخائف
لذكر اللقا والهجر والوصل والجفا ... وقرب وبعد ناشر جمع لا قف
وحلت بوادي طور قلب مقدس ... خيام نديم بالمعاني اللطائف
بمعارف تهدي في بهاها لسادة ... هداة إليها بالسلوك عوارف
كنوز الهدى مجرى المعارف والندى ... جلاء الصدى شيخي الطواشي المكاشف
دعاوى الهوى دع للذين ارتياحهم ... إلى الحق يا مرتاح نحو المعارف
سكارى بمولاهم وأنت بجيفة ... فقس رخمًا بالباز عند التناصف

القصيدة الثانية: المسمّاة عقدة الدّرّ الأسنى على جِيد الحُسنى، في مدح العلماء العاملين السَّنِيَّة أهل المناقب العليّة السَّنِيَّة رضي الله تعالى عنهم:

بدور الهدى ورّاث علم نبوّة ... أناروا دُجى الظلما بنور المعالم
فكم فتقوا رتقًا بغامض مشكل ... وكم رتقوا فتقًا بطعن مخاصم
عن السُّنَّة الغرا يذبّون بالقنا ... وبيض من العلم الشريف صوارم
وقد حملوا أعلام علم وأُلبِسوا ... لباس التُّقى خيل الرّضا في الملاحم
فولّى عداهم من أسِنّة سنة ... بجيش هدى جيش الضلالة هازم
كمثل الإمام الشافعيّ ومالك ... وأحمد والنعمان أهل المكارم
أئمة علم يجتلون بمجده ... لبيض العُلا الغيد المِلاح النواعم
وأصحابهم غرّ نجاب لها اجتلوا ... وقد ضحكت منها مِلاح المباسم
ونعم أبو إسحٰق شيخًا مبجّلاً ... إمامًا جلا لتنبيه نفع الملازم
وغنت بغزالي العُلا وتغزّلت ... به حجة الإسلام نور العوالم
وذو المجد محيي سنة ذو إفادة ... أجاد النواويّ البحر أكرم بعالم
ثلاثتهم أصحاب زهد وعفّة ... لهم سيرة حسناء يا أمّ سالم
كذاك الإمام الرافعي محمد ... أبو القاسم المشهور حاوي المكارم
له السنة الغرّا أمالت لثامها ... فكان لها بالفهم أعظم لاثم
تغني بهم جهرًا ونوحي بحبهم ... ولا تسمعي عذلاً ولا تلم ثالم
فمَن ذا الذي في الخلق يسلم عرضه ... من الخلق والرحمٰن ليس بسالم
تصانيفهم حُسنًا عليها سعادة ... بها النفع في ذا العصر والمتقادم
مباركة والكلّ منهم مبارك ... إمام نجيب عابد غير سائم
لهم ورع يحكي عظيم وحلية ... تحلّوا بها يحلو بها نظم ناظم
كعقد من الدّرّ المنظم قدرها ... على جِيد حسن قد سبت حب هائم
لذكر الأحبا في فؤادي حلاوة ... محبتهم شبت بلحمي وفي دمي
كشيخي الفقيه العالم الصالح الرضي ... محمد النصال أحسن بخاتم

القصيدة الثالثة: المسمّاة معالي المسالك في مدح المجذوب والسالك، وبيان أقسامها. وهي أربعة أقسام؛ الأول: سالك بعد الجذب. الثاني: مجذوب بعد السلوك. الثالث: مجذوب غير سالك. الرابع: سالك غير مجذوب، ويقتدي بالأولين دون الأخيرين عند شيوخ الطريقة العارفين المحققين، وأوّل الأولين أفضل من ثانيهما على الأصح عندهم؛ والسالك قبل الجذبة متحمّل مشقّات ذكرها يطول وحملها يهول،

Marfat.com

والسالك بعدها محمول يسهل عليه السلوك ويهون، وقد أشرت إلى الأخير منها حيث أقول:

عهدتكم قدمًا على خير حالة ... بها اليوم أنتم سادة ملوك
أتاكم من الرحمٰن جذب عناية ... فهان عليكم للوصول سلوك

ومعنى الجذب: أنه يفاجىء المجذوبين من أمر الملكوت ما يأخذهم عن نفوسهم ويدهش العقول، ولله درّ القائل الذي يقول، وبالله التوفيق، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل:

وإني لألقاها أُريد عتابها ... وأوعدها بالهجر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فجاءة ... فأبهت لا عرف لديّ ولا نكر

وهذه هي القصيدة الموعود بها:

هنيئًا لقوم يجتلون معارفًا ... بأنوارها يهدي الطريق نجابها
بها قد هدى الهادون من بعد ما هدوا ... فهم للهداية أهلها وصحابها
مشوا في طريق بالعنا سالكينها ... ولما يرعهم حزنها وخرابها
إلى أن بَدَت بِيضًا سلوك نقية ... وأفنى عداها طعنها وضرابها
فسالكهم بعد اجتذاب وعكسه ... فنى نفسه بعد السلوك اجتذابها
هما دون غير صالحان للاقتدا ... يبين إذا دلّ الطريق صوابها
ومحمول جذب لا يدلّ فما درى ... طريقًا بها القطاع وَغر عقابها
ولا سالك من بعد جذب فيجتلي ... معارف مرخيّ دون تلك حجابها
يفوق بهاها بالجمال إذا بَدَت ... شموسًا بَدَت لمّا تنحى سحابها
بفضل وجذب مع سلوك تفاوتوا ... ونيل عطيّات عزيز جنابها
فكم بين مَن في جنّة الحبّ سالك ... ويُسقى كؤوس الوصل حال شرابها
وآخر من بعد الشقا فاز باللقا ... وعذب المحبة بعد ولّى عذابها
وآخر وافته السعادة نائمًا ... فجاءت به للوصل يجري ركابها
وآخر في وعر الطريقة سالك ... يقول ونار الشوق فيه التهابا
إذا فاز أصحابي بوصل ولم أفز ... يحقّ لنفسي أن يطول انتحابها

قلت: هؤلاء الأربعة الأقسام هم أهل الذوق الذي حَدَا بهم إلى موطن القُرْب حادي الشوق، وقد تأمّلت الناس المشار إليهم، فرأيتهم ثلاثة أقسام: القسم الأول: الصوفية وهم أهل الحب والشوق والحال والذوق، وهم مجذوب وسالك على ما قدّمنا ذكره وتفصيله في ذلك. والقسم الثاني: الفقهاء المشتغلون بالدرس والتدريس والبحث في العلم الشريف المبرزون من محاسنه كل فقه دقيق المعنى لطيف، ولكنهم فيهم جمود

Marfat.com

على ظاهر الفقه ويبس، ولم يدخل قلوبهم عند ذكر الأحباب والأوطان لين هوى نعمى ونعمان، كما دخل قلوب القسم الأول المذكور الذي فيه أقول:

تـذكّرهـم عـيشًـا بـنـعـمـان نـاعـمًـا حمام الحِمى ثغري نسيم العواصف
تُثير الصبا من كل صبٍّ صبابة فيصبو إلى عهد الصبا والمآلف
فهم بين مشتاقٍ وباكٍ وضاحكٍ سرورًا وصراخ وراجٍ وخائف

والقسم الثالث: متوسط بين القسمين المذكورين، أعني بتوسّطهم أن مزجوا شغل القسم الثاني، وهو العلم بشغل القسم الأول، وهو الزهد والورع والعبادة، فجمعوا بين العلم والعمل، وداخلهم الخوف والوجل، ودخل في قلوبهم الشّجيّة لين هوى نجد ولكن لم يتمكّن منها تمكّنه من قلوب الصوفية الذين خلعوا العذار[1]، ومالَ بهم الوَجْد عن ذكر الأحباب والديار وحنّت قلوبهم وأنّت، واتّصفوا بما قلت فيما تقدم من الأشعار:

وحنّت وأنّت من جوى لوعة الهوى وذِكر الأحبا للمحبّين شائق
إذا ذكرت وادي العقيق وجيرة بذي سلم فاضت دموع سوابق
وإن ذكرت جيران سلع تمايلت بوجد وطعم الوجد يدريه ذائق

قلت: والقسم الثالث المذكور المتوسّط بين القسمين المذكورين على طريقة حسنة محمودة عند كِلا القسمين، ليس عليها اعتراض، ولا فيها طعن من الطرفين، وعليها أكثر السلف الصالح السادة لزوم العلم العمل الذي هو الورع والزهد وأنواع العبادة، وهذه الطريقة الوسطى المذكورة وإن كانت بالحُسْن المذكور مشهورة فليست كطريقة الصوفية التي هي بالجمال العالي مشهورة، لأنهم خرّجوا الله تعالى عن نفوسهم بالكلية، ورضوا بكل مقدور وصبروا على كل بليّة، أعني الصادقين منهم والصدّيقين كما قال بعضهم: حقيقة المحب أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء. وقال آخر: الرضا سرور القلب بمرّ القضاء، وقال بعضهم: لو جعلني في الدّرك الأسفل من النار كنت أشدّ رِضًا ممّن في الفردوس. وقال آخر: الراضي مَن سرّته المصيبة كما تسرّه النعمة. وقال قائلهم:

إذا أنعمت نعمى عليّ بنظرة فلا أسعدت سعدى ولا أجملت جمل
فنافس ببذل النفس فيها أخا الهوى فإن قبلتها منك يا حبّذا البذل
فمَن لم يجد في حبّ نعمى بنفسه وإن جاد بالدنيا إليه انتهى البخل

---

(١) يقال: خلع فلان عذاره؛ أي: انهمك في الغي ولم يستحِ منه واتّبع هواه.

Marfat.com

قلت: ومَن لم يحصل له جذب من الحقّ سبحانه وتعالى وأخذ عن نفسه، لم يقدر على التخلّص من صفات نفسه، ولم يحصل له من المعرفة بالله تبارك وتعالى، والاطّلاع على المُلْك والملكوت والمشاهدة، وتجلّي صفات ذي العزّة والجبروت ما حصل لمَن جذبه الحيّ القيّوم الذي لا يموت، فمواهب الله تعالى وفضله العظيم عزّ وجلّ لا يُقاس بمثله كسب ولا يساويه عمل، فليس السالك والطالب كالمجذوب المطلوب، ولا المعنيّ المحبّ كالمنعم المحبوب، وفي ذلك أقول على لسان المحب المعنيّ وأنوب:

أنا طالب والغير مطلوب مَن أنا — بها مغرم أُهريق في حبها دمي
معنيّ بها والغير فيها منعم — وكم بين مشغوف معنيّ وناعم
فلا نلت من نُعمَى نعيم وصالها — ولا كنت من بلوى هواها بسالم

كم بين الاجتباء والعناية وبين الإنابة والهداية، وقد فاوت الحقّ سبحانه بينهما في العطاء والنصيب، فقال عزّ من قائل: ﴿الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه مَن يُنيب﴾ [الشورى: ١٣]، لما فاجأ الحق سبحانه وتعالى المجذوبين بالأمر العظيم الذي هالَهم أخذهم عنه، فبقوا به بلا همّ، ودكدك جبال قلوبهم، ونقض بناءها ثم هدم، ثم بناها بناءً ثانيًا أكمل وأجمل وأعلى وأتمّ، وطهّرهم من الصفات المذمومات وصفّاهم من الكَدَر، وحلاّهم بأجمل الحلي وأحسن المحاسن، وأحيا قلوبهم ونوّر أبصارهم وحلاّهم بحلي محاسن الصفات المحمودات، بعد أن طهّرهم من مساوي رذائل الصفات المذمومات، كالحقد والحسد والرّياء والسّمعة والعجب والخُيَلاء والكِبْر والغشّ والغلّ وخوف الفقر وسخط المقدور، وطلب العلوّ والرياسة والمحمدة وحبّ الجاه في الدنيا، والغضب والحمية والأنفة والعداوة والطمع والبخل والشحّ والرغبة، والرهبة من قِبَل المخلوق، والأشرَ والبطر، وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء، وحبّ الدنيا والفخر والمُباهاة والتنافس فيها، والإعراض عن الخلق استكبارًا والخوض فيما لا يعني وكثرة الكلام والصلف واختيار الأحوال، والتذلّل والتملّق والمداهنة، والمدح والذمّ للمخلوقين والتزيّن لهم وحبّ المدح بما لم يفعل والاشتغال بعيوب الناس، ونسيان النِّعَم وخلو القلب من الحزن، والانقياد للهوى، والمشاركة له في تدبير أمور الله تعالى، والاقتدار في أمر الله، والاتّكال على الطاعة والمكر والخيانة والمخادعة والحرص وطول الأمل والتبختر وعزّة النفس، والمغالبة لأمر الله جلّ وعلا، والأنس بالمخلوقين والسكون إليهم والثقة بهم والخوف منهم، والطيش والعجلة وقلّة الحياء وقلّة الرحمة، والأمن من مكر الله تبارك وتعالى، والغيبة والنميمة، والكذب والتصنّع والنفاق، وخشية الإملاق، وغيرها من الأوصاف الرذائل المُبعِدَة عن الله عزّ وجلّ وعن نيل الفضائل.

Marfat.com

وأما أوصاف المحاسن التي حلاّهم بها، فكالتوبة والتقوى والقناعة والزهد والورع والتوكّل والتفويض وحُسْن النيّة ورؤية المِنّة والخوف والرجاء والصبر والرضا والاحتساب والإحسان وحُسْن الظن وحُسْن الخلق وحُسْن الطاعة والصدق والإخلاص والمحبة والمعرفة وغيرها من أوصاف الفضائل المقرّبة من الله تعالى وإلى عالي المقامات والمنازل. قلت: فمَن تطهر بتوفيق الله تعالى من المساوي المذكورات الرذيلة، وتحلّى بالمحاسن المذكورات الجميلة، فذلك عبد اصطفاه الله تعالى، ولا يقدر على ذلك إلا مَن أعانه الله وجذبه وتولاّه وقرّبه إليه وأدناه، وأولئك هم في الحقيقة عباد الرحمٰن، وغيرهم كأمثالنا عبيد الهوى والهَوان، وقد مدح الرحمٰن عزّ وجلّ عباده في القرآن، وأضافهم إلى اسمه الشريف فنالوا الشرف الأكمل. وفي ذلك قلت نائبًا عن لسان حالهم مستعيرًا للبيت الأول:

كفى شرفًا أني مُضاف إليكم   وأني بكم أدعي وأرعى وأعرف
إذا بملوك الأرض قوم تشرّفوا   فلي شرف منكم أجلّ وأشرف

وفي مطلبهم العزيز الغالي قلت مستعيرًا للبيت الثاني.

أياسًا كنّا بالحب في جانب الحمى   بعالي مقام فيه غالي المطالب
فديتك حدّثني عن الجانب الذي   تقدّس أن يحظى به كل طالب

Marfat.com

الفصل الأخير هو ختام الخاتمة في توحيد الرحمٰن وطرف من طرف الجنان مختوم بمدح خاتم الأنبياء وتاج الأصفياء محمد ﷺ وشرف وكرم

مصدّرًا بالقصيدة الرابعة المباركة إن شاء الله تعالى الجامعة المسمّاة شمس الإيمان في توحيد الرحمٰن عقيدة أهل الحق والإيقان، والتشويق إلى الجنان والحور الحِسان. والتخويف من النيران، ووعظ الإخوان. وأسأل الله تعالى الكريم المنّان أن ينفع بها ويمنّ علينا بالتوفيق والغفران والفضل والإحسان مع سائر الأحباب والإخوان والمسلمين أجمعين آمين، وهي هذه:

تبارك مَن شُكر الورى عنه يقصُر ... لكون أيادي جوده ليس تحصرُ
وشاكرها يحتاج شكرًا لشكرها ... كذلك شكر الشكر يحتاج يشكرُ
ففي كلّ شكر نعمة بعد نعمة ... بغير تناهٍ دونها الشكر يصغرُ
فمن رام يقضي حقّ واجب شكرها ... تحمل ضمن الشكر ما هو أكبرُ
فسبحان مَن لا قطّ يبلغ مدحه ... بليغ ومَن عنه الثّنا متعذّرُ
ففي الفعل فضل عن جميل صفاته ... وعن ذاته كلّ البرايا تحيّروا
تسبّحه الحيتان في الما وفي الفلا ... وحوش وطير في الهواء مسخّرُ
وفي الفلك والأملاك كلٌّ مسبّح ... نهارًا وليلاً دائمًا ليس يفترُ
تسبّح كل الكائنات بحمده ... سماء وأرض والجبال وأبحرُ
جميعًا ومَن فيهنّ والكلّ خاضع ... لهيبته العُظمى ولا يتكبرُ
له كل ذرّات الوجود شواهد ... على أنه الباري الإلٰه المصوّرُ
دَحَا الأرض والسّبع السّمٰوات شادَها ... وأتقنها للعالمين لينظروا
وأبدع حُسْن الصّنع في ملكوتها ... وفي ملكوت الأرض كي يتفكّروا
وأوتدها بالراسيات فلم تمد ... وشقّق أنهارها بها تتفجرُ
وأخرج مرعاها وبثّ دوابّها ... وللكلّ يأتي منه رزق مقدّرُ
من الحبّ ثم الأبّ والقضب والكلا ... ونخل وأعناب فواكه تثمّرُ

Marfat.com

فأضحت بحُسْن الزّهر تزهو رِياضها … وفي حُلَل نسج الربيع تبخترُ
وزان سماء بالمصابيح أصبحت … وأمست بباهي الحُسْن تزهو وتزهرُ
ثَراها إذا جنّ الدّجا قد تقلّدت … قلائد دريّ لدرٌّ تحقرُ
فيا ناظرًا زهر البساتين دونها … أظنك أعمى ليس للحُسْن تبصرُ
ويا مَن لها إنّ المحاسن كلها … بدار بها مالاً على القلب يخطرُ
ولا سمعت أُذن ولا العين أبصرت … وما تشتهيه النفس في الحال يحضرُ
تزيد بهاء كلّ حين وعيشها … يزيد صفاء قطّ لا يتكدّرُ
من الدّرّ والياقوت تبني قصورها … ومن ذهب مع فضة لا تغيّرُ
وما يشتهي من لحم طير طعامها … وفاكهة مما له يتخيّرُ
ومشروبها كافورها ورحيقها … وتسنيمها والسلسبيل وكوثرُ
ومن عسل والخمر نهران جوفها … ونهران ألبان وماء يفجرُ
وغالي حرير فرشها ولباسها … وحصباؤها والترب مسك وجوهرُ
ومن زعفران نبتها وحشيشها … ومن جوهر أشجارها تلك تثمرُ
فواكه تكفي حبّة لقبيلة … أُديمَت أُبيحت لأتباع وتحجرُ
وأكوابها من فضة لا كبيرة … على شارب منها ولا هي تصغرُ
بها الكأس يبقى ألف عام على فم … فلا نافذ هذا ولا ذاك يضجرُ
ومن ذهب زاهي الجمال صِحافها … يلذّ بها عيش به العين تقرّرُ
ومركوبها خيل من النور والبَهَا … ومن جوهر والبخت نور تصوّرُ
رِكاب من الياقوت والسّرج عسجد … أزمتها درّ تضيء حيث ينظرُ(١)
وأزواجها حورٌ حِسانٌ كواعب … رعابيب أبكار بها النور يزهرُ(٢)
هراكيل خودات وغِيد وخرّد … مدى الدهر لا تبلى ولا تتغيّرُ(٣)
نشت عربًا أتراب سنّ قواصر … لطرف كحيل للملاحة يفترُ
غوالي الحليّ والحلي عين فواخر … زَكَت طهرت من كلّ ما يتقذّرُ
تَوَت في خيام الدرّ في روضة البَهَا … على سُرُر الياقوت تغدو وتحضرُ
وبين جواريها تهادي إذا مشت … على كثب المسك الذكيّ تبخترُ
مِلاح زَهَت في رونق الحُسْن والبَهَا … وكلّ جمال دونه المدح يقصرُ

(١) العسجد: الذهب.
(٢) رعابيب: (ج) رعبوب: امرأة رعبوب ورعبوبة: بيضاء حلوة ناعمة ممتلئة الجسم.
(٣) الخودات: (ج) الخود: الفتاة الشابة الحسنة الخلق. الغيد: النعومة. الخريدة من النساء: البِكر والخفرة الحَيِيّة الطويلة السكوت المستترة.

Marfat.com

وما المدح فيمن نشرها وابتسامها ... يُضيء الدّياجي والوجود يعطرُ
ومَن يعذب البحر الأجاج بريقها ... ومن حُسنها للعالمين يحيّرُ
ومَن لو بدَت من مشرق ضاء مغرب ... ومات الورى من حُسنها حين تظهرُ
ومَن زوجها يغشى بأول نظرة ... إلى وجهها لولا البقا كان يقبرُ
ومَن مُخّها من خلف سبعين حُلّة ... يُرَى كيف يقوى مدح تلك ويقدرُ
ومَن هي من نور ومسك وجوهر ... فماذا لسان المدح عنها يعبرُ
وما المدح إلا أن يشبه دانيًا ... بأعلى فأما العكس من ذاك يحقرُ
وليس لحور والجنان مشابه ... ولا عشر معشار ولا شيء يُذكرُ
فخبر من الدنيا جميعًا خمارها ... فأحسِن بمَن تحت الخمار مخمرُ
وأحقر بربّات المحاسن والتي ... بتشبيه أوصاف الجِنان تصدرُ
فما الفضة البيضاء شِيبت بعسجد ... وما البيض مكنون النّعام المسترُ
بهاءً وحُسْنًا ما اليواقيت في الصفا ... وفي رونقٍ ما اللؤلؤ الرطب ينثرُ
وما الدّرّ ما الرّمّان ما الريم ما المَهَا ... وما البدر ما زبد وشهد وعنبرُ(١)
ثنايا وكعب ثم جِيد ومقلة ... ولون ولين ريقها والمعطرُ
هل الريم في جِيدٍ من القدّ والبَهَا ... كمَن جِيدها نور ومِسْك وجوهرُ
وهل للمَهَا عين كبحر مزاجه ... مدام وشهد للمشاهد يسكرُ
وهل يشبه الرّمّان نهدين صُوّرا ... من النور والله العظيم المصوّرُ
وما شبّه الرحمٰن من بعض وصفها ... ببيض وياقوت فذلك يذكرُ
على جهة التقريب للذهن إذ لنا ... عقول عليها فَهْمُ ما ثَمّ يعسرُ
تبارك منشيء الخلق عن سرّ حكمة ... هو الله مولانا الحكيم المدبّرُ
إذا ما تجلّى في جمال جلاله ... تعالى لكلّ المؤمنين لينظروا
وقد زيّنت جنّات عدنٍ وزخرفت ... نسوا كلّ ما فيها لمّا منه أبصروا
جمالاً ووصفًا جلّ ليس كمثله ... وفضلاً وإنعامًا يجلّ ويكبرُ
نعيم ولذّات وعزّ ورِفعَة ... وقُرْب ورضوان ومُلْك ومَفخرُ
بمقعد صدق في جِوار مَليكهم ... هنيئًا لمسعودٍ بذلك يظفرُ
أيا ساعة فيها السعادات يجتلي ... على وجهها درّ العنايات ينثرُ
ويا ساعة فيها المفاخر ترتقي ... عَلاها وخلعات الكرامات تنشرُ
سألتكما بالله هل مع أحبّة لنا ... فيكما يوم التّزاور محضرُ

---

(١) الريم: الظبي الأبيض الخالص البياض، والأنثى ريمة. المها: (ج) المهاة: البقرة الوحشية وقد سُمّيت بها الأنثى لاتساع عينيها وجمالهما.

Marfat.com

وهل أنعمت نُعمى بنعمان باللُّقا لنا أم نَوَت في سرمد الليل تهجرُ
فإن واصلتنا فالمكارم وصفها وإن قاطعنا نحن أدنى وأحقرُ
ألا عاشقًا يشتاق مَن يسكن الحِمَى وعيشًا هنيًا صافيًا ليس يكدرُ
ألا مُشتَرٍ جنات خلد وخيرها وحُورًا حِسانًا في الملاحة تفخرُ
ألا بائع الفاني الحقير بباقي خطير وملك ليس يبلى ويدمرُ
ألا مُفتَدٍ من حرّ نار عظيمة أُلوف سنين تلك تحمى وتسعرُ
لها شرر كالقصر فيها سلاسل عِظام وأغلال فغلّوا وجرجروا
عُصاة وفُجّار وسبع طِباقها وسبعين عامًا عمقها قد تهوّروا
وحياتها كالبخت فيها عقارب بغال وضرب والزباني ينهرُ[1]
غليظ شديد في يديه مقامع إذا ضرب الصمّ الجبال تكسرُ
ومطعومهم زقومها وشرابهم حميم بها أمعاؤهم منه تندرُ[2]
ويُسقَون أيضًا من صديد وجيفة تفجر من فرج الذي كان يفجرُ
وقد شابَ من يوم عبوس شبابهم لهولٍ عظيم للخلائق يسكرُ
فيا عجبًا ندري بنار وجنة وليس لذي نشتاق أو تلك نحذرُ
إذا لم يكن خوف وشوق ولا حيا فماذا بقي فينا من الخير يُذكَرُ
ولسنا لحرّ صابرين ولا بلا فكيف على النيران يا قوم نصبرُ
وفوت جنان الخُلْد أعظم حسرة على تلك فليتحسّر المتحسّرُ
فأفٌّ لنا أفٌّ كلاب مزابل إلى نتنها نغدو ولا نتدبّرُ
نبيع خطيرًا بالحقير عماية وليس لنا عقل وقلب منوّرُ
فطوبى لمَن يؤتَى القناعة والتّقى وأوقاته في طاعة الله يعمرُ
ومن بعد حَمْدِ الله هذي عقيدة عن السُّنّة الغرّاء والحقّ تسفرُ
وتهدي إلى نهج الصواب متابعًا لنا وعقيدات المذاهب تهجرُ
لها السُّبل الوسطى الحميدة منهج شِعار الهدى للأشعرية تشعرُ
وكم في حضيض الحشو يهبط لكونها طريقًا بها القطاع تسبي وتأسرُ
ولا ارتفعت عالي علوّ اعتزالهم ففيها ذئاب ثم وعر يكسرُ
مَشَت مع سواد معظم أهل مذهب عزيز بحمد الله ما زال ينصرُ
له بيض رايات العُلا مع أئمة شموس الهدى تعدادهم ليس يحصرُ
فكم حبر تحقيق العلوم وعارف لأسرار غيب والحقائق أبحرُ

---

[1]) زباني العقرب: قرنها، وهما زبانيان.
[2]) الزقّوم: شجرة بجهنم أو طعام أهل النار أو أخبث الشجر المرّ بتهامة.

Marfat.com

وها هي لها ألفت في خمس عشرة   وعشرين تجزي مَن لها يتدبّرُ
عَلاَ ربنا عن كيف أو أين أو متى   وعن كلّ ما في بالنا يتصوّرُ
ونقص وشبه أو شريك ووالد   وولد وزوجات هو الله أكبرُ
قديم كلام حين لا حرف كائن   ولا عرض حاشا وجسم وجوهرُ
مريد وحيّ عالم متكلّم   قدير على ما شاء سميع ومبصرُ
بسمع وعلم مع حياة وقدرة   كذلك باقيها يَلِي الكلّ مصدرُ
وليس عليه واجب بل عقابه   بعدل وعن فضل يُثيب ويغفرُ
محكَم شرع دون عقل وقد قضى   بخير وشرّ للجميع يقدرُ
ورؤيته حقٌ كذلك شفاعة   وحوض وتعذيب بقبر ومنكرُ
وبَعْثٌ وميزانٌ ونارٌ وجنة   وقد خُلِقَا ثم الصِّراط وتصدرُ
عظيم كرامات عن الأوليا وقد   محى شرعنا العالي الزكيّ المطهّرُ
شرائع كلّ المسلمين وأحمد   خيّار الورى المولى الشفيع المصدّرُ
وأصحابه خير القرون وخيرهم   على وفق ما قد قدّموا ثم أخّروا
نجوم الهدى كلٌ عدول أُولو الندى   فضائلهم مشهورة ليس تنكرُ
وأفضلهم صدّيقهم صاحب العلا   ورابعهم في الفضلِ ذو الفضل حيدرُ
وتخليد نار ليس إلا لكافر   وقبلتنا من أمها لا يكفرُ
سوى مَن بتأثير الكهانة قائل   كذلك مَن قال النجوم تؤثرُ
بذاتهما أو ربنا غير قادر   كذا غير مختار إذا ليس يعذرُ
وغير قدير قال أو غير عالم   أو بالعلم بالموجود ما الغير يحبرُ
أو الكليات الرّبّ يعلم لا سوى   وفي جزئيات علمه متعذرُ
ومثبت منفي وناف لمُثبت   من الوصف إجماعًا له الجلّ يكفرُ
ومَن باتحاد أو حلول يقول أو   قديم يقول العالم الكفر يظهرُ
وأهل إباحات كذا باطنية   ومَن عنه إسقاط التكاليف يذكرُ
ومَن من غُلاة الرفض قال نبيّنا   عليٌ وهذاك النبيّ المبشرُ
ولكنما جبريل أخطأ بوحيه   بذا المارق الراضي هو النحس يفسرُ
ومَن ينسب الفحشا لعائشة وقد   لها برّأ الرحمٰن عنها يطهرُ
فها هي حَوَت مع صغرها ما عساه لا   يُرَى في كثيرٍ من عقائد تكبرُ
ويا أيها الإخوان من كلّ سامع   له فهم قلب حاضر يتذكرُ
ألا إن تقوى الله خير بضاعة   لصاحبها ربح بها ليس يخسرُ
وطاعته للمتّقي خير حِرفَة   بها يكتب الخيرات والسعي يشكرُ
إذا أصبح البطّال في الحشر نادمًا   يعضّ على كفّ أسًى يتحسّرُ

Marfat.com

فطُوبى لمَن يُمسي ويُصبح عالمًا / علـى كـلّ شـيء طاعـة الله يـؤثـرُ
بـهـا يـعـمـر الأوقـات أيـام عـمـره / يـصـلّي ويـتـلو لـلـكـتـاب ويـذكـرُ
ويأنس بالمولى ويستوحش الورى / ويشكر في السرّا وفي الضرّ يصبرُ
ويـسـلو عـن الـلـذّات بـالـدّون قـانـع / تـقـيٌّ لـه قـلـبٌ نـقـيٌّ مـنـوّرُ
حزين نحيل جسمه ضامر الحشا / يصوم عن الدنيا على الموت يفطرُ
ويـرتـاح شـوقًـا لـلأحـبّـة والـلـقـا / وخـدّيـه مـن فـرط الـغـرام يـعـفـرُ
إذا ذكـرت جـنّـات عـدنٍ وأهـلـهـا / يـذوب اشـتـيـاقًـا نـحـوهـا ويـشـمـرُ
ويـعـلـو جـواد الـعـزم أدهـم سـابـقًـا / وأبـيـض مـجـنـوبًـا عـن الـنـور يـسـفـرُ
فـأدهـم يـسـقـي مـاء عـيـن وأبـيـض / لـصـبـر عـلـى قـطـع الـفـيـافـي مـضـمـرُ
ويركض في ميدان سَبْقٍ إلى العُلا / ويسري إلى نَيْلِ المعالي ويسهرُ
فـمـجـد الـعُـلا مـا نـالـه غـيـر مـاجـد / يـخـاطـر بـالـروح الـخـطـيـر فـيـظـفـرُ
وإنـي إلـى أمـرٍ أنـا فـيـه آمـر / لأحـوج مـن غـيـري إلـيـه وأفـقـرُ
فهذي قصيدي شمس إيمان اسمها / مـوحّـدة عـمّـا سـوى الـحـق تـزجـرُ
مـشـوّقـة نـحـو الـجـنـان وحُـورهـا / مـخـوّفـة الـنـيـران عـنـهـا تـنـفـرُ
وواعـظـة الإخـوان مـن كـلّ مـسـلـم / لهم في التّقى والدين نُصحًا تذكرُ
ولـيـسـت تـراهـا أهـل هـذا وإنـمـا / دعـاهـا إلـى ذاك الـقـضـاء الـمـقـدّرُ
لها من حُلِيّ التوحيد والحور حِليَة / ومـن طـيـبـه طِـيـبٌ بـهـا تـتـعـطـرُ
وفت مائة أبياتها حين أجملت / وسـتـيـن والله الـكـريـم الـمُـيَـسّـرُ
سـألـت الـذي عـمّ الـوجـود بـجـوده / ومَن منه فَيضُ الفضل للخلق يغمرُ
يـمـنّ بـخـلـعـات الـقـبـول مُـزَيَّـنٌ / لـهـا وجـزيـل الأجـر والـنـفـع يـثـمـرُ
ويـرزقـنـا الـتـوفـيـق ثـم اسـتـقـامـة / وغـفـران زلاّت ومـا فـات يـجـبـرُ
وفي روضة العرفان يحيي قلوبنا / ويُـسـكِـنـنـا رَوضَ الـيـقـيـن ويـجـبرُ
ولي مشتكى إن بث طال وإن يدع / فأنت الذي بـالـحـال يا ربّ تـخـبرُ
بـحـقـك عـامـلـنـا بـمـا أنـت أهـلـه / فأنت الذي تهدي وتعطي وتغفرُ
وأحبابنا والمسلمين جميعهم / ولا يا كريم العفو بالكلّ تمكرُ
وصـلّ عـلـى الـهـادي الـنـبـيّ وآلـه / وأصحابه ما لاحَ في الأفق نيرُ
صلاة تُباري المسك عُرفًا مسلمًا / سـلامًـا لأكـنـاف الـوجـود يـعـطـرُ
وقد آن للشمس الغروب وقاربت / وآنَ لـكـم تـسـتـغـفـروا ثـم تـعـذروا
لـنـاظِـمـهـا مَـن فـي الـبـلاغـة قـاصـر / ومَن هو في كلّ الحقوق مقصرُ
مُـسـيء جـريء يـافـعـي مـخـلـط / فـبـالله ادعـوا الله يـعـفـو ويـسـتـرُ
وتـمّـت وفـاح الـحـمـد لله خـتـمـهـا / شذى دونه في العُرْفِ مِسكٌ وعنبرُ

Marfat.com

قلت: وهذا التشويق والتخويف المذكوران في هذه القصيدة إنما هو لعموم الناس الذين يشتاقون إلى الجِنان والحُور الحِسان، ويخافون من النيران وسائر أنواع العذاب والهوان. وأما الخواصّ العارفون بالله تعالى، فاشتياقهم إلى النظر إلى وجه الله الكريم لا يشتاقون إلى نعيم الجنة ولا يخافون من عذاب الجحيم. كما يُرْوَى عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه قال: بينما أنا في بعض البراري إذا أنا بشاب قد خطّ عارِضاه، فلما رآني ارتعد واصفرّ لونه وولّى هاربًا، فقلت له: إنسي مثلك؟ فقال: وهل الهرب إلا منكم، قال: فلحقته وأقسمت عليه أن يقف لي، فوقف فقلت له أراك في هذه البرية وحدك، ما معك أنيس أما تفزع؟ فقال: بلى معي أنيس، فقلت: أين هو؟ فقال: هو عن يميني وعن شمالي ومن خلفي ومن أمامي، فقلت: مله، فما معك زاد، فقال: بلى، فقلت: ما هو؟ قال: الذي رزقني في بطن أُمي صغيرًا تكفّل برزقي كبيرًا، فقلت له: لا بدّ لك من شيء تستعين به على القيام بالليل وصيام النهار وخدمة الملك العلاّم وأكثرت عليه، فولّى هاربًا وهو يقول:

ولـــيّ الله لا تـــأويـــه دار ... ويـكـره أن يـكـون لـه عـقـار
يـفـرّ مـن الـقِـفـار إلـى جـبـال ... فـتبـكـي حـيـن تـفـقـده الـقِـفـار
صـبـورًا فـي قـيـام الـلـيـل جـدًّا ... وصـوّامًـا إذا طـلـع الـنـهـار
يـقـول لـنـفـسـه جـدّي وكـدّي ... فـمـا فـي خـدمـة الرحـمـٰن عـار
يـنـاجـي ربـه والـدمـع جـارٍ ... إلـٰهـي إن قـلـبـي مـسـتـطـار
إلـٰهـي مـا مـنـائـي مـنـك دار ... من الـيـاقـوت يـسـكـنـهـا الـحـوار
ولا جـنّـات عـدن يـا إلـٰهـي ... ولا شـجـر تـزيـنـه الـثـمـار
ولـكـن وجـهـك الـبـاقـي مـنـائـي ... بـه فـامـنـن فـفـي ذاك الـفـخـار

قلت: وإنما كان الأمر كذلك، لأن كل أحد إنما يشتاق إلى محبوبه؛ فمَن غلبت عليه محبة الله في الدنيا لم يشتق إلا إلى لقائه، والنظر إلى وجهه الكريم؛ ومَن غلب عليه حبّ الحظوظ من المطعم والمشرب والمنكح والملبس والمسكن كأمثالنا، اشتاق إلى الجنة ونعيمها الذي هو محبوبه، فلمثل هذا يقال: تفكر يا أخي في أهل الجنة كيف يُسقَون من رحيق مختوم، جالسين على منابر من الياقوت الأحمر، في خيام اللؤلؤ الرطب الأبيض، فيها بسط من العبقري الأخضر متّكئين على آرائك منصوبة، على أنها تجري بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان، مزيّنة بحور عين خيّرات حِسان، كأنهنّ الياقوت والمرجان، قاصِرات الطرف[1] لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ، يُرَى من

(١) امرأة قاصرة الطرف: خجلة حَيِيّة، لا تمدّ عينها إلى غير زوجها.

Marfat.com

مُخّ ساقها من وراء سبعين حلّة من حُلَل الجنان، وينظر الزوج وجهه في صدرها أصفى من المرآة، لبهاء نورها لمعان، ويُطاف عليهم وعليهنّ بأكواب وأباريق وكأس من مَعين، ويطوف عليهم خدّام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون، يأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها لبنًا وخمرًا وعسلاً، في أنهار أرضها فضة، وحصباؤها مرجان، وترابها مِسك أذفر، ونباتها زعفران، وكثبانها كافور، وأكوابها من فضة مرصّعة بالدّر والياقوت والمرجان، فيها الرحيق المختوم الممزوج بالسلسبيل العذب، تشرق الأكوان نورًا من ضياء جوهرها، يبدو الشرب من ورائها برقّته وحُمرته وصفائه وبهجته، في كفّ خادم يحكي وجهه ضياء الشمس، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، مما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في جنّات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظرون إلى وجهه الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، ينسون بلذّة النظر جميع لذّات الجنان، يتنعمون بذلك على الدوام، لا يزالون بين أصناف النعيم يتردّدون، وهم من زوال النّعَم آمنون. وقد رُوِيَ في تفسير قوله تعالى: ﴿ومساكن طيبة في جنّات عدن﴾ [التوبة: ٧٢] أنه قصر من لؤلؤة بيضاء، في ذلك القصر سبعون دارًا من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتًا من زمرّدة خضراء في كل بيت سرير يا له من سرير، على كل سرير سبعون فراشًا من كل لون، على كل فرش زوجة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لونًا من الطعام، وفي كل بيت سبعون وصيفة، ويُعطَى المؤمن في كل يوم من القوّة ما يأتي على ذلك كله. ورُوِيَ «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوّج خمس مئة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيّب، يعانق كل واحدة منهنّ مقدار عمره في الدنيا، وإن في الجنة حوراء يقال لها: العيناء إذا مشت مشى عن يمينها وعن شمالها سبعون ألف وصيفة، وهي تقول: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وإن في الجنة طيرًا كأمثال البخاتي، وإن المؤمن ينظر إلى الطير في الجنة فيشتهيه فيخرّ بين يديه مشويًا»[1] ورُوِيَ في تفسير قوله تعالى: ﴿يُطاف عليهم بصِحاف من ذهب﴾ [الزخرف: ٧١] فإنه يُطاف بسبعين صحفة من ذهب فيها لون ليس هو في الأخرى، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ختامه مسك﴾ [المطفّفين: ٢٦] أنه شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبقَ ذو روح إلا وجد ريح طيبها، وفي قوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة﴾ [الواقعة: ٢٤] أن ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض، ولو أن امرأة من نساء الجنة اطّلعت إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحًا لنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها: يعني خمارها، وعلى كلّ واحد من أهل الجنة سبعون حلّة تتلوّن كلّ حلّة منها في كل

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/٥٤٦).

Marfat.com

ساعة سبعين لونًا، يرى الرجل وجهه في وجه زوجته وفي صدرها وفي ساقها، وترى هي أيضًا وجهها في وجهه وفي صدره وفي ساقه. قلت: وألوان الحُلَل المذكورة تُرَى جميعها لا تستر كل حلّة منها ما تحتها من الحُلَل، والطير إذا أكل منه وجد طعم أحد جانبيه مطبوخًا والآخر مشويًا، فيأكل ما يشاء، ثم يعود طيرًا كما كان، ويصفّق بجناحيه ويطير إلى رأس الأغصان من أشجار الجنان، ليأكل من طيبات الثمار، ويشرب من طيّبات الأنهار، ويجدون في كل لقمة من طعامهم لذّة غير ما يجدون في الأخرى، وفي كل شربة من شرابهم لذّة لا يجدونها في الأخرى. وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «إن أهل الجنة يؤذَن لهم في مقدار جمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم سبحانه وتعالى، ويبرز لهم عرشه يتبدّى لهم في روضة من رياض الجنة، فتوضع له منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم وما فيهم دنيء على كثبان المِسك والكافور، وما يرون أهل الكراسي بأفضل منهم مجلسًا»(١) وهذا بعض حديث طويل. وفي كتاب الترمذي أيضًا عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن رجلاً من أهل الجنة اطّلع فبدَا سِواره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم»(٢) وفي كتاب الترمذي أيضًا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، وينصب له قبّة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء، وإن أدنى لؤلؤة من تيجان أهل الجنة تضيء ما بين المشرق والمغرب»(٣) قوله: «الجابية» بالجيم: مكان في الشام وصنعاء معروفة في اليمن. وهذه عشرة أحاديث رويناها في الصِّحاح في وصف الجنة وأهلها اقتصرت عليها في هذا الفصل الآخر ختام خاتمة الكتاب، كما اقتصرت أيضًا على عشرة أحاديث من الصحاح في الفصل الأول من مقدمة الكتاب.

الحديث الأول: روينا في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليل البدر، ثم الذين يلونهم على أشدّ كوكب دريّ في السماء إضاءة، ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتمخّطون، وأمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألُوّة، وأزواجهم الحور العين، على

---

(١) أخرجه الترمذي (جنة ١٥)، وابن ماجه (زهد ٣٩).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/١٦٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/٥٣٦، ٥٣٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/٥٥٨).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٥٦٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٦٤٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/٥٢٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٣٢٧).

Marfat.com

خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم عليه الصلاة والسلام ستون ذراعًا في السماء»[١] قوله الألوة بفتح الهمزة: عود الطيب، والحور جمع حوراء، والحور شدّة سواد العين مع شدّة بياضها، وقيل: الحور شدّة بياض في الوجه؛ والعين بكسر العين المهملة جمع عيناء، وهي الواسعة العين، وفي رواية البخاري ومسلم «آنيتهم فيها الذهب، ورشحهم المِسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مُخ سوقهما من وراء اللحم من الحُسْن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم بقلب واحد يسبِّحون الله تبارك وتعالى بكرة وعشيًا» وفي رواية الترمذي «على كل زوجة سبعون حلّة، يُرَى مخّ ساقها من ورائها».

الحديث الثاني: روينا في الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراؤون الغُرَف من فوقهم كما تتراؤون الكوكب الدّرّيّ الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»[٢].

الحديث الثالث: روينا في الصحيحين أيضًا عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مئة سنة ما يقطعها»[٣] وفي الصحيحين أيضًا من رواية أبي هريرة رضي الله تعالى عنه «يسير الراكب في ظلها مئة سنة لا يقطعها»[٤].

---

(١) أخرجه ابن كثير في (التفسير ٥/ ٢٤٢، ٧/ ١١٠، ٨/ ١٣)، (بغوي ١/ ٤١)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ٣٠٠)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ١٠٩، ١٤/ ١٢٩)، والسيوطي في (الدر المنثور ٥/ ٣٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ١٤٣)، والترمذي في (السنن ٢٥٥٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٤١٦)، ومسلم في الصحيح (الجنة ١٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤٣٣٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٤٠٤، ٤٣٨، ٤٥٥، ٤٦٢، ٤٦٩، ٤٨٢؛ ٣/ ١١٠، ١٣٥)، والدارمي في (السنن ٢/ ٣٣٨؛ ٣/ ١٣٥)، وعبد الرزاق في (المصنف ٢٠٨٧٦، ٢٠٨٧٧)، والحميدي في (المسند ١١٣٨، ١١٨٠)، والطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ٢٢٧)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٥١٩، ٥٢٠)، والساعاتي في (منحة المعبود ٢٨٣٣)، وابن كثير في (التفسير ٢/ ٢٩٧؛ ٤/ ٦، ٤٨، ٣٧٧، ٣٨٧؛ ٥/ ٣١٤)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٩/ ٣٠)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٦٢٧)، والبغوي في (شرح السُّنّة ١٥/ ٢٠٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٦١٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٣٣، ٥٣٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ١٧٥)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٥٢٢)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/ ٣٠٦)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٤٣٦٨)، وابن حجر في (لسان الميزان ٣/ ١٢٣٨)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٩٨٥).

(٤) أخرجه الدارمي في (السنن ٣/ ٣٣٨).

Marfat.com

الحديث الرابع: روينا في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة للمؤمن لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوّفة طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضًا»(١).

الحديث الخامس: روينا في صحيح مسلم رحمه الله تعالى عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة سوقًا يأتونها كل جمعة، فتهبّ ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حُسنًا وجمالاً، ويرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حُسنًا وجمالاً، فيقولون لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم حُسْنًا وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حُسنًا وجمالاً»(٢).

الحديث السادس: روينا في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس ما أُخْفِيَ لهم من قرّة أعين﴾ [السجدة: ١٧]»(٣).

الحديث السابع: روينا في الصحيحين عن ابن مسعود(٤) رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول الله عزّ وجلّ له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيُخيَّل إليه أنها ملأى، فيقول: يا ربّ وجدتها ملأى، فيقول الله عزّ وجلّ اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيُخيَّل له أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربّ وجدتها ملأى، فيقول الله تبارك وتعالى: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي أو أتضحك بي وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٥٢٨).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ١٥٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٤٦).

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٤٣٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٥٢١، ٥٥٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٦٨؛ ١٠/ ٥٣٥، ٥٥٠) وابن حجر في (الكافِ الشافِ في تخريج أحاديث الكشاف ١٣١)، والحميدي في (المسند ١١٣٣)، والسيوطي في (الدّر المنثور ٥/ ١٧٦)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٢٠٨).

(٤) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (توفي ٣٢ هـ = ٦٥٣ م) أبو عبد الرحمٰن، صحابي من أكابرهم فضلاً وعلمًا، وقربًا من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام وأول مَن جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادم رسول الله الأمين وصاحب سرّه، ورفيقه في حِلّه وترحاله وغزواته، ووَلِيَ بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة، ثم قَدِمَ المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها عن نحو ستين عامًا. له ٨٤٨ حديثًا. الأعلام ٢/ ١٣٧؛ والإصابة ت ٤٩٥٥؛ والبدء والتاريخ ٥/ ٩٧؛ وحلية ١/ ١٢٤؛ وصفة الصفوة ١/ ١٥٤.

Marfat.com

الله ﷺ ضحك حتى بَدَت نواجذه عليه الصلاة والسلام فكان ذاك أدنى أهل الجنة منزلة»[1].

الحديث الثامن: روينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، نادى مُنادٍ: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تصحّوا فلا تسقَموا أبدًا، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدًا»[2].

الحديث التاسع: روينا في الصحيحين عن جرير رضي الله تعالى عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: «إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته»[3].

الحديث العاشر: روينا في صحيح مسلم عن صُهَيب[4] رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيضّ وجوهنا، ألم تُدخِلنا الجنة وتُنجِنا من النار؟ فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى»[5] جعلنا الله

---

(١) أخرجه مسلم في (الصحيح ١٧٣، ١٧٤)، وابن ماجه في (السنن ٤٣٣٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٤١٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٥٨٦)، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٩٤٢٢)، وأبو عوانة في (المسند ١/١٦٦)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٢٤)، والبخاري في (الصحيح ٨/١٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٥٥٢ و٣١٠٥)، والساعاتي في (منحة المعبود ٢٨٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/١٤٥؛ ٦/١٧٣)، ومسلم في الصحيح (المساجد ٢١١)، وأبو داود في (السنن ٤٧٢٩)، والترمذي في (السنن ٢٥٥٤)، وابن ماجه في (السنن ١٧٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/٣٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١/٣٥٩)، والطبراني في (المعجم الكبير ٢/٣٣٢)، (بغوي ٢/١٦٧؛ ٤/٢٨٧)، وابن حجر في (فتح الباري ٢/٣٣؛ ٨/٢٩٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/١١٨؛ ١٠/٥٠٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/٥٢٨)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/١٨٠)، وأبو حنيفة في (المسند ١٩)، وفي (جامع مسانيده ١/١٦٤)، والحميدي في (المسند ٧٩٩)، والآجري في (الشريعة ٢٥٨)، وأبو عوانة في (المسند ١/٣٧٦)، والسيوطي في (الدّر المنثور ٤/٣١٢)، والعقيلي في (الضعفاء ١/١٩٧).

(٤) هو صهيب بن سنان بن مالك (٣٢ ق.هـ ـ ٣٨ هـ = ٥٩٢ ـ ٦٥٩ م) صحابي من أرمى العرب سهمًا وله بأس. وهو أحد السابقين إلى الإسلام، وشهد بدرًا وأُحُدًا والمشاهد كلها. له ٣٠٧ أحاديث وتوفي في المدينة، وكان يُعرَف بصهيب الرومي. الأعلام ٣/٢١٠؛ وطبقات ابن سعد ٣/١٦١؛ وابن عساكر ٦/٤٤٦؛ وصفة الصفوة ١/١٦٩؛ وحلية ١/١٥١؛ والإصابة ت ٤٠٩٩؛ وتاريخ الإسلام ٢/١٨٥.

(٥) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/١٤٤)، ومسلم في الصحيح (الإيمان ٢٩٧)، والحاكم في (المستدرك ٨٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٦٥٦)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٢٦٤٧)،=

Marfat.com

الكريم منهم ومن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنّات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللَّهمَّ وتحيّتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين﴾ [يونس: ٩] «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»(١) وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيّين وإمام المُرسَلين وسيد العالمين، وعلى آله الكِرام الطيّبين وأصحابه الغرّ المُنتَخبين، وأزواجه الطاهرات أمّهات المؤمنين، أفضل صلوات الله عدد معلومات الله، كلما ذكر الذاكرون وكلما غفل عن ذكره الغافلون، وعلى جميع النبيين والمرسلين وآل كلّ والملائكة المقرّبين وسائر الصالحين آمين:

وسبحانك اللَّهمَّ ربًّا مقدّسًا ... لك الدهر كلّ الكائنات تسبّحُ
بحمدك أشهد أنْ لا إله سواك قطّ ... تعاليت بل أنت الإله المُسَبَّحُ
وغفرانك اللَّهمَّ تُب ومجالسي ... فكفّر كما جاء الحديث المصححُ
عن الصادق المختار صلّ مسلّمًا ... على روحه ما غرّد المترنّحُ
وبالفضل عاملنا ومعروفك الذي ... به أنت معروف تجود وتمنحُ
وقابل بإحسانٍ إساءتنا فلم ... تزل يا كريم العفو تعفو وتصفحُ
وأسبِل جميل الستر يا ذا العُلا على ... فعال وأقوال تسوء وتقبحُ
وزن بجمال من جمالك قبحها ... فذو القبح إن يكسي جمالك يمنحُ
فأقوالنا ما زانها حُسن حلية ... من الفعل فيها تجتلي وتوشحُ
ولا كسيت غالي لباس من التُّقى ... خيار لباس فيه تغدو وتسرحُ
ولا أنزلت عالي مقام مزين ... بجوهر صدق فيه تُمسي وتصبحُ
فيا ربّ أصلحنا بإصلاح مضغة ... بإصلاحها كلّ الجوارح تصلحُ
وبالخير فاختم ثم جمّل فلم تزل ... بكل جميل من صفاتك تمدحُ
وصلّ على مسك الختام محمد ... سراج الهدى يهدي بنور ويصلحُ
وتمّت ولله المحامد كلها ... بها يختم القول الحميد ويفتحُ

= والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٢٠٤ و٣٩٣٣٢).

(١) أخرجه البخاري في (صحيحه ٨/١٠٧، ١٧٣؛ ٩/١٩٩)، ومسلم في (صحيحه الذكر والدعاء ب ١٠ رقم ٣١)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٥٦٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/١٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/٤٢٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٢٢، ٢١٣٢١)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٤٩٩)، وابن كثير في (التفسير ٨/٢٩)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/٩٤).

Marfat.com

قال (العبد الفقير إلى عفو الكريم ولطفه ورحمته وعطفه، عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني الشافعي نزيل الحرمين الشريفين، عفا الله عنه وكان له، وبلّغه من الخيرات أمله، وختم بالصالحات عمله ووالديه وأحبابه ومُحِبّيه والمسلمين آمين. وهذه قصيدة أنشأتها وسمّيتها مُهَيِّجة الأشجان في ذكر الأحباب والأوطان، ومدح المصطفى من ولد عدنان، والبيت المعظّم الجناب والأركان الجامعة بين شرفي الممدوحين النبيّ المكرّم والبيت المعظّم، وشرفي المكان والزمان، الحرم الشريف المحترم ورجب المبارك المحرّم، ختمت بها كتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين وهي هذه:

إذا لعلع البرق الحجازيّ بلعلع ... تأجّج نيران الجوى بين أضلعي
وإن حملت نشر الخزامى من الحِمى ... نسيم الصبا صبّت سواجم أدمعي[1]
وإن غنّت الورقاء في الأيك أو بكت ... شجتني وشاقتني إلى خير مرتعِ
وأغرت غرامي بالأحبة حيثما ... أقاموا وهاجت لوعتي وتولّعي
تذكرني جيران سلع ورامة ... وخيف مِنًى والمنحنى والأجيرع
سقى الله حيًّا خيّموا بين رامة ... وبين المصلّى جوف أطيب موضع
حيًّا قد ثروا بين الأباطح والصفا ... صفا عندهم عيش المحبّ المولع
بحسناء في الديباج تجلّى موشّحًا ... مقبلها عنه أماطت لبرقع
فدونك قبل للتي عزّ وصلها ... وحمّ في حماها عن هوى غير مبدع
فما ذاق طعم الوصل مَن يدّعي الهوى ... فبثّ الجوى سرًّا هنالك واخضع
وقم بمصلى هاتها بحجرها ... ولله فاسجد شاكر الفضل واركع
ولذا بالجناب العالي ما بين بابها ... إلى ركنها والذيل فالزمه واخشع
ضع الخدّ والصدر الكئيب لصدرها ... وبثّ غرامًا بالتواضع ترفع
وقف بحِماها ثم شاهد جمالها ... وذُق طيب عيشٍ ناعم وتمتعِ
تفُز بنعيم ثم منٍّ ورحمة ... وأمنٍ وإحسان وخير مجمع
وقم باكيًا قف شاكيًا ذا تضرّع ... على الباب والزمه ليفتح واقرعِ
وقل هجركم يولي الشقا وتوسّلي ... إليكم بكم يا ساداتي وتشفّعي
فإن تسعدوا بالوصل فالفضل عُرفكم ... عرفتم به في شرع كل مشرّع
وإن تهجروا فالذنب أوجب هجركم ... لعبدكم والعدل ما تفعلوا معي
أنا المذنب الجاني المُسيء جِواركم ... ولكن رجائي في نداكم ومطمعي

(١) الخزامى: جنس نبات من الفصيلة الشفوية له زهر طيب الريح. سجم الدمع: قطر أو سال قليلاً أو كثيرًا وانصبّ.

Marfat.com

وأنتم أُولو الإحسان والعفو تكرّموا — لجار الحمى الرحب الجناب الموسعِ
وطُف بالحِمى ودع رَبْع عزّة — بجسم وكن بالقلب غير مودعِ
وزُرْ رَبْعَ ليلى فالمحاسن والندى — لدى رَبْعها الممدوح في كل مجمعِ
فلا عيش إلا عيش ليلى وعزّة — بوصلهما الغالي العزيز الممنعِ
هما سقتا راحِ الهوى كلّ عاشق — غدًا من حميا الحبّ سكران لا يَعِي
فكم سبتّا بالحُسْن عقلاً لمغرم — وكم شغفا بالحب قلبًا لمولعِ
وكم تيّما كم هيّما ذا صبابة — معنى وذا قلب من البَيْن موجعِ
فلولاهما لم نذكر الخيفَ أو قبا — ولا كان ذِكرٌ للعقيق ولعلعِ
ولم يأتِ من فجٍّ عميق ضوامر — بطول السّرى تُطوَى فيافي بلقعِ[1]
إذا طيبة الغرّا رأيت جمالها — وحُسْنُ البَهَا في نورها المتلمّعِ
فقبّل زُباها واسقها وابل الشّجى — وخلعة أهل الحبّ صفرًا تدرّعِ
وزُر روضة من جنة الخلد جوفها — مصلّى حبيب فيه قم بتخشعِ
هناك لذيذ العيش فانعم مشاهدًا — لملبوس أنوار على الأفق مخلعِ
تنزّه وطالع في بهاء ربوعها — وحُسْن رباها ثم بعد التطلّعِ
ترى في الوجود النور من قبّة البَها — بَدَا طالعًا من مطلع خير مطلعِ
سراج الهدى الماحي بأنوار وجهه — ظلام الطّغى الغوث الشفيع المشفّعِ
محمد الحاوي المحامد قام في — مقامٍ عَلاَ كلّ الأنام مرفّعِ
إمام الورى مولى البرايا مخصّصًا — بفضل وسرّ فيه لله مودعِ
إذا زُرتَ مولانا الحبيب وجئته — وقمت حذا مغني أهيل وممرعِ
فبالله قبّل لي ثرى أرض ربعه — وسلّم وقل بعد البكا والتضرّعِ
عبيدك ذاك اليافعيّ مؤمل — نداك الذي قد عمّ للخلق أجمعِ
عليك صلاة الله يا معدن الندى — ويا ملجأً للخلق في كلّ مفزعِ
وتسليمه داما يضوعان مندلاً — ومِسكًا بقبر للمكارم منبعِ
مدى الدهر ما لاحت بوارق في دجى — وزمجر فيه صوت رعد مقعقعِ
وباتت عيون المُزْنِ تبكي بدمعها — على ثغر ظلّ يضحك مربعِ[2]
وآل وصحب أهل مجدٍ ونجدة — بيض وبيض كم بها من مقطعِ

---

(١) الفجّ: الطريق الواسع بين جبلين أو في الجبل. الضوامر: (ج) الضامر: من الخيل أو الجمال أو غيرها: القليل اللحم الدقيق.
(٢) المُزْن: السحاب أو أبيضه أو ذو الماء منه.

Marfat.com

وسُمْرٌ عوالٍ كم علوا من علائها ... وكم مزقت من مازق جوف مصرع
إذا هاجت الهيجا علوا كل أكمة ... لِلُقيا القنا شوقًا تطير بأربع[١]
وقد لبسوا في الناس من نسج صانع ... لبوسًا لها غير داود يصنع
وما منهمو في كل خوف وغفلة ... وجهد وفقر في المجاعة مدقع[٢]
سوى أسد في الحرب في الليل عابد ... وفي العلم مصباح وفي المحل مشبع
ضراغيم كم ذا قد غدت في الوغا فلم ... تدع كل قرن ثم غير ممزع
إلى أن عَلا دين الهدى بأولي الندا ... وزال الصّدا عن نوره المتشعشع
فأمسوا نجومًا حول بدرٍ متمّم ... بأعلى سما المجد الأثيل المرفع
ولا سيما زهر إذا غاب بدرها ... أضاءت بها الظلماء كلّ موضع
كصدّيقهم ذي الجدّ سابقهم إلى ... علا كل فضل نافيًا كل مبدع
مقام نبيٌّ قام يوم ارتداد مَن ... مشى القهقرى لم يُعْطَ حقًّا ويسمع[٣]
فضاءت بهم ظلما دياجي ارتدادهم ... رجوعًا إلى دين الهدى خير مرجع
له مفخر في الغار حيًّا ومفخر ... له ميتًا في مضجع خير مضجع
وكم مفخر كم من مناقب كم عَلاً ... وكم سودد في فضله المتنوّع
وفاروقهم نافي الطغى منه بالوغا ... بقيصر أو عاد وكسرى وتبع
ومَن عجب أن الملوك تهابه ... وتخشاه ناوٍ في قميص مرقّع
لها عن لذيذ العيش مجدب منزل ... وغيث نداه مخصب كلّ مربع
سِراج جنان الخلد محمود سيرة ... نطوق بحق خائف متورّع
وذي النور والبرهان والحلم والندا ... خشوع وللقرآن تالٍ مجمع
قنوت الدياجي والعيون هواجع ... بلذّة عيش في التهجّد مولع[٤]
لقدْ منه تستحي ملائكة السماء ... فما ضرّه إذا بالسيوف مبضع
وليث العدى نور الهدى معدن الندى ... جلاء الصّدا بحر العلوم المنقع
مفيد المعالي ذي المكارم والعُلا ... مُبيد الأعادي بالكميت المقنع
مطلق دنياه ثلاثًا ومَن أتى ... طلاقًا ثلاثًا لم يراجع ويرجع
وسِبطين من عليا المفاخر توّجا ... بتاج على الرأس الممجّد مخلع
وعمّين أيضًا عمّما بعمامة ... من المجد من فخر الصفيّ المشرّع

---

(١) الأكمة: الرابية أو التل (ج) أكم وأكمات.
(٢) المدقع: فقر مدقع: شديد ملصق بالتراب، مُذِلّ.
(٣) القهقري: الرجوع إلى خلف، يقال: فلان يمشي القهقرى؛ أي يرجع على عقبيه.
(٤) الهجوع: النوم ليلاً.

Marfat.com

كـذلـك بـاقـي عـشـرة سـادة أُولـي ... مـنـاقـب جلَّت سابقي كل مسرعِ
وزهرٍ زَهَت بـالـفـخـر مع كل زوجة ... من العزّ في العليا بأشرف موضعِ
ومـاذا عـسـى مدحي بـنـظـم قـصـيـدة ... فـضـائـل كـم نـوع لـهـا مـتـنـوّعِ
وكـلٌّ مـن الأنـواع أصـل لـمـفـخـر ... ولـلأصـل كـم فـرع كـثـيـر الـتـفـرّعِ
وكـلٌّ مـن الـكـلّ اسـتـمـدّ بـغـرفـة ... من الفخر من بحر الفخار المشفّعِ
سيدري أبو جـهـلٍ إذا جـمـع الـورى ... لـمَن شرّف العليا بأعظم مجمعِ
إذا ما لـواء الـحـمـد أحـمـد شـالـه ... ولـم يـبـقَ ذو مـجـدٍ لـه غـيـر مـتـبـعِ
وكـلّ الـكـرام الـرّسـل تـحـت لـوائـه ... غـيـاث الـورى مـن كـلُّ هـولٍ مـروّعِ
ثـنـيـت عـنـانـي والـوجـود فـخـاره ... وما سرت في مدحي له قدر أصبعِ
فـهـا هـي لـلـتـقـصـيـر أرخـت من الحيا ... عـلـى وجـهـهـا الـمـيـمـون زهـيّ بـرقـعِ
وكانت نـوت من جوهر اللفظ تجتلي ... بـدرّ بـيـاقـوت الـمـعـانـي مـرصّـعِ
ولـفّ ونـشـر مـسـتـعـيـر مـوشـح ... مـدائـع تـطـريـز الـطـبـاق الـمـرجـعِ
مـقـابـل جـنـس ردّ صـدرًا مـوشّحـا ... عـلـى عـجـز بـالالـتـفـات مـصـرعِ
وزبّ مـلـيـح مـن حـلـيّ ومـن حـلا ... ومـن حُـلَـل سـامـي الـتُّـقـى الـمـتـورّعِ
وكـان لـهـا وقـت شـريـف ومـوضـع ... مُـنـيـف عـزيـز لا يـرى بـمـضـيـعِ
بـأيـام بـيـض غـرّ شـهـر مـحـرّم ... دعيّ رجب الميمون شهر التطوّعِ
حـذا كـعـبـة غـرابـهـا الـيـمـن قـبـلـة ... لـكـلّ الـورى مـن سـاجـديـن وركّـعِ
وفُتْ مئة أبـيـاتـهـا الـزهـر ضـمّـنـهـا ... لـدا الـحـبّ كـم سـاجٍ لـعـيـنـيـه مدمعِ
مـهـيـجـة الأشـجـان تـغـري ذوي الـهـوى ... بـشـوق إلـى ربـع الأحـبّـا مـزعـزعِ
إذا ما بـهـا غـنّـى الـحـداة تـمـايـلـوا ... وهـان بـعـيـد فـي ذهـاب ومـرجـعِ
فإن كنت مثلي عادم الشوق والهوى ... فاصغي عسى يشتاق قلبك واخشعِ
فـيـا ربّ أصـلـحـنـا وزيّـن قـصـيـدتـي ... بـحُـسْـن قـبـول واغـفـر الـذنـب وانـفـعِ
بـهـا نـاظـمًـا مـع حـافـظـيـهـا وكـاتـب ... وقـارئـهـا والـحـاضـر الـمـتـسـمّـعِ
كـذلـك راويـهـا وهـا قـد أجـزتـهـا ... ومـا لـي مـن نـثـر ونـظـم مـسـجّـعِ
ومـن كُـتـب ألّـفـتـهـا أو قـرأتـهـا ... ومـا حـاز راوٍ عـن مُـجـيـزٍ ومـسـمـعِ
لـمَـن صـار يـرويـهـا وكـلٌّ مـحـصّـل ... لأصـل عـلـى شـرط ذاك مـجـمـعِ
ختمت بها روض الرياحين ذاك في ... حـكـايـات فـضـل الـصـالـحـيـن مجمعِ
وتـمّـت وحـمـد الله مِـسـكُ خـتـامـهـا ... وغـفـرانـك الـلّـهـمَّ يـا خـيـر مَـن دعـي

قال مؤلّف هذا الكتاب كان الله تعالى له، وبلّغه من الخيرات أمله، وختم بالصالحات عمله وأحبابه والمسلمين آمين: قد حصل والحمد لله في هذا الكتاب بشارات

Marfat.com

خير إن شاء الله تعالى سرّني بها جماعة من أهل الخير والصلاح ممّن أعتقدهم وألتمس بركتهم، فينبغي أن يتّعظ بهذا الكتاب ويتبرّك بسماع ذكر مَن فيه من السادة ويُحسِن السامع الظن، ولا ينكر ما فيه من أحوالهم الخارقة للعادة. وها أنا أذكر بعض البشارات المذكورة تحسينًا لظنّ السامع، وترغيبًا في هذا الكتاب الجامع، فأقول: أخبرني بعض الجماعة المذكورين أنه حين كان الناس يسمعون عليّ هذا الكتاب بقرب الروضة الشريفة. كان قاعدًا يسمع، فأخذه ما يأخذ الفقراء من الوجْد والغيبة، فرأى ثلاثة قد خرجوا من القبّة الشريفة العالية المنيفة، وأحدهم وجهه كالقمر، فجلس في الروضة وجلس أحد صاحبيه عن يمينه والآخر عن يساره، واستقبلوا الجماعة الحاضرين للسّماع، ولم يزالوا كذلك إلى آخر المجلس، وذكر أني لمّا فرغت من الدعاء التفت الأوسط بوجهه المنير إلى صاحبه الذي عن يمينه وتبسّم، ثم قاموا فدخلوا في القبة، والحمد لله على ذلك حمدًا كثيرًا كما هو أهله، وجزى الله سيدنا محمدًا ﷺ عنّا أفضل الجزاء، وأولاه أفضل الصلاة والتسليم، وكذلك أخبرني أيضًا آخر أنه رأى في المنام كأني مع جماعة من مشايخ الصوفية الفضلاء في الحرم الشريف المبارك وهم يسمعون هذا الكتاب، فقال: وعليك ثياب بيض، فاستغربت ذلك، فأراد بعض الشيوخ أن يتكلم على هذا الكتاب، فقال له الجماعة أو بعضهم: دعه يتكلم، وأشاروا إليك بالكلام. وكذلك أخبرني أيضًا آخر أنه رأى في المنام كأني مع بعض المشايخ الصالحين في الروضة المباركة الشريفة ومعنا بعض الأصحاب، ونحن مجتمعون على هذا الكتاب. وكذلك أرسل إليّ وقت تأليف هذا الكتاب بعض الأولياء من البلاد البعيدة يبشّرني ببشارة أرجو من فضل الله العظيم المؤمل حصولها إن شاء الله عزّ وجلّ، وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الكريم، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

تمّ كتاب «روض الرياحين في مناقب الصالحين» للشيخ الإمام العالِم العامل الزاهد الورع وليّ الله تعالى عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي الشافعي اليمني قدّس الله تعالى روحه ونوّر ضريحه ورضي الله تعالى عنه وأرضاه. وجعل الجنة مأواه. ورحم سلفه.

وكان الفراغ من تعليقه يوم الجمعة المباركة قبل صلاة الجمعة بالمسجد الحرام تجاه الكعبة المشرّفة بيت الله الحرام، زاده الله تعالى شرفًا وتعظيمًا، سلخ رجب المعظّم سنة ثلاث وخمسين وثمانِ مئة، والحمد لله ربّ العالمين أولاً وآخرًا، وباطنًا وظاهرًا، وسلام الله على عباده الذين اصطفى، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

Marfat.com

فهرس المحتويات

ترجمة المصنِّف ٣
مقدمة الكتاب ٥
الفصل الأول من المقدمة في شيء من فضائل الأولياء الصالحين، والفقراء والمساكين، مما جاء به القرآن والأخبار والآثار ١١
الفصل الثاني في إثبات كرامات الأولياء رضي الله تعالى عنهم ٣٧
الفصل الأول من الخاتمة: في الجواب عن إنكار وقع من بعض الفقهاء المصنِّفين على الفقراء ٤٠٢
الفصل الثاني في بيان عقيدة المشايخ العارفين الربانيين المكاشفين والعلماء المحقِّقين والأئمة المدقِّقين رضي الله تعالى عنهم أجمعين... الخ ٤١٧
الفصل الأخير هو ختام الخاتمة في توحيد الرّحمٰن وطرف من طرف الجنان مختوم بمدح خاتم الأنبياء وتاج الأصفياء محمد ﷺ وشرف وكرم ٤٣٤

Marfat.com